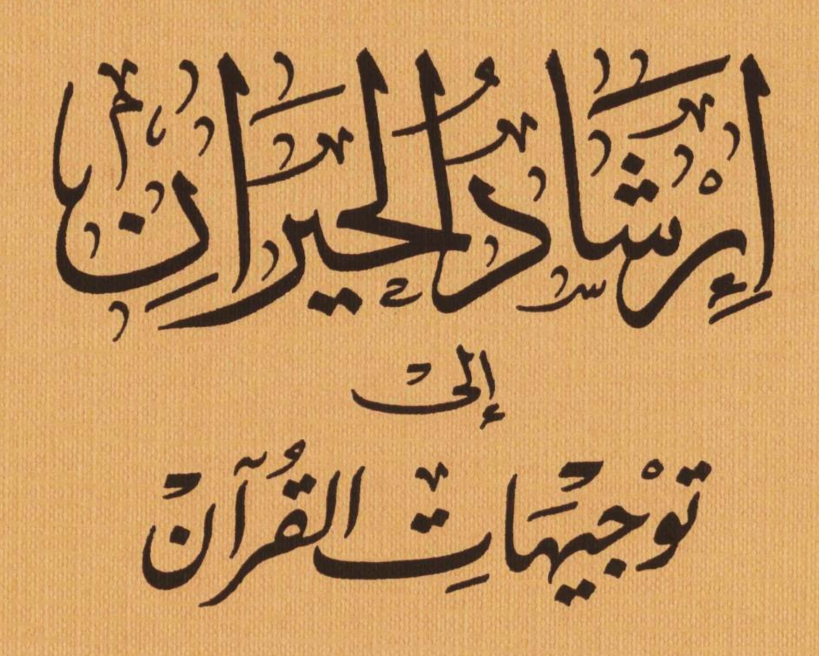
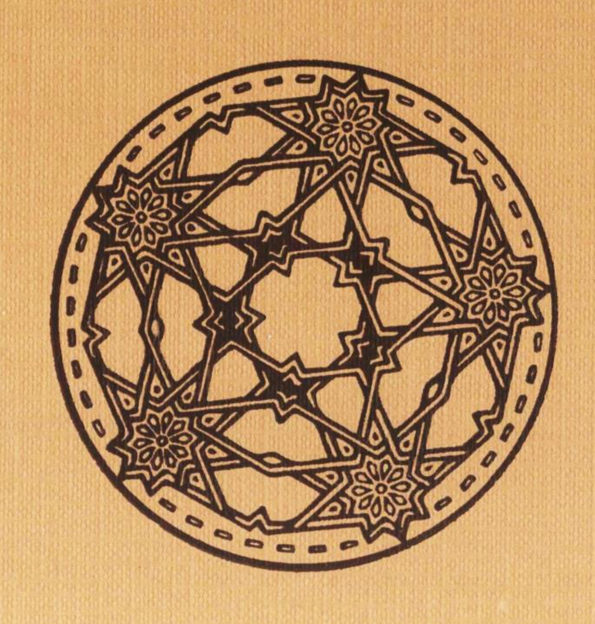


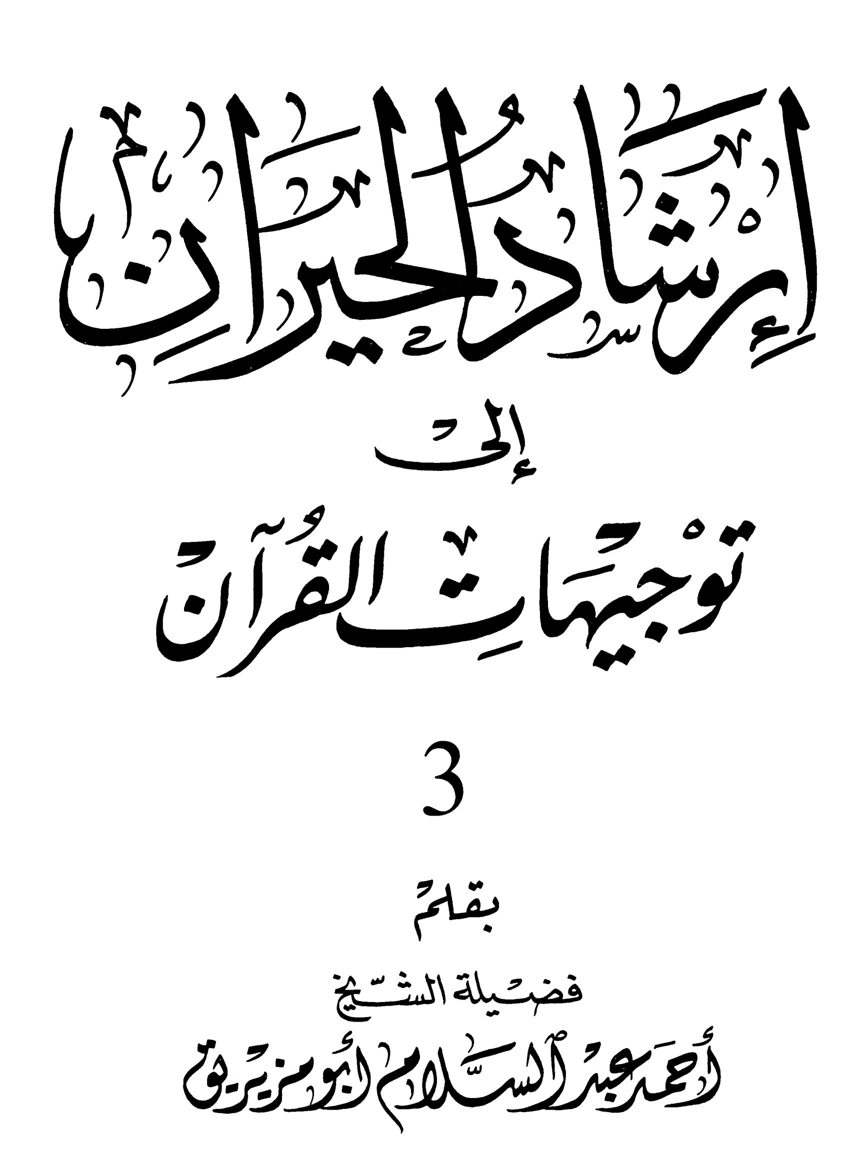
بقلم

فضيلة الشيخ
أحمد عبد السلام أبو مزيريق



دار المدار الإسلامي


إرشاد الحيران
إلى
توجيهات القرآن



دار المدار الإسلامي

إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن 12/1
الشيخ أحمد عبد السلام أبو مزيريق

الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير/أي النار 2011 إفرنجي

موضوع الكتاب تفسير قرآني
تصميم الغلاف دار المدار الإسلامي
الحجم 17 × 24 سم
التجليد فنّي

ردمك **ISBN** 9959-29-182-0
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2003/5680

دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 89 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + **نقّال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: **oeabooks@yahoo.com**

الجزء الخامس

1 ـ خلاصة الأحكام
من أوامر ونواهي الإسلام

النص

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ
شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (37)
وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38)
وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا
رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ
لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (41) يَوْمَئِذٍ
يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ

وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿42﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿43﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿واعبدوا الله﴾: العبادة الطاعة ونهاية التعظيم، وعبد الله عبادة ـ ويقال: عُبودة وعبوديّة ـ طاع له، وخضع، وذل وخدمه، والتزم شرائع دينه ووحّده ـ، وخلاف هذه العبادة الإشراك بالله تعالى... ﴿وبالوالدين﴾: هما الأب والأم. ﴿إحساناً﴾: الإحسان ضد الإساءة مأخوذ من الحسن وهو الجمال في الشيء حسّاً أو معنًى... ﴿وبذي القربى﴾: القرابة من النسب من جهة الأب أو من جهة الأم... ﴿والمساكين﴾: جمع مسكين، وهو من لا شيء له، ويطلق على الذليل والضعيف والعاجز، مأخوذ من سكن سكوناً قرّ في مكانه فلم يتحرك... ﴿والجار ذي القربى﴾: وهوالمجاور في السكن من القرابة في النسب... ﴿والجار الجنب﴾: هو المجاور في السكن من غير القرابة في النسب... ﴿والصاحب بالجنب﴾: هو المرافق لك بجانبك... ﴿وابن السبيل﴾: المسافر والمنقطع عن بلده، ومعناه هنا: الغريب المجتاز غَيْرَنَا... ﴿مختالاً فخوراً﴾: الاختيال افتعال مشتق من الخيلاء، يقال: خال الرجل خَوْلا وخالا، وهو شدّة التكبر (التعجرف)، والفخور شديد الفخر بما فعل...

﴿الذين يبخلون﴾: البخل بضم الباء وسكون الخاء اسم مصدر، وبفتحهما

المصدر؛ بخل يبخل بَخَلاً، والبخل ضد الجود. . . ﴿**ويكتمون**﴾: الكتمان الإخفاء. . . ﴿**وأعتدنا**﴾: أعددنا، أبدلت الدال الأولى تاء لثقل الدالين عند فك الإدغام باتصال ضمير الرفع، وهكذا مادة أعدّ في كلام العرب إذا أدغموها لم يبدلوا الدال بالتاء لأنّ الإدغام أخف، وإذا أظهروا وأبدلوا الدال تاءً، ومن ذلك قولهم: اعتاد لعُدَّةِ السلاح، وأعْتُدٌ جمع عتاد. . . ﴿**رئاء الناس**﴾: ينفق ماله مُراآةً للناس في غير طاعة الله، قَصْداً للسمعة والمحمدة الزائفة الزائلة. . . ﴿**ومن يكن الشيطان له قريناً**﴾: القرين المقارن جمْعُهُ قرناء، ويطلق على المصاحب، والشيطان المقرون للإنسان لا يفارقه

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

﴿**مثقال ذرة**﴾: المثقال ما يظهر به الثقل، وهو مقدار الشيء المقدر له، والذَّرَّة تطلق على بيضة النملة، وعلى ما يتطاير من التراب عند النفخ. . . ﴿**وإن تك حسنة يضاعفها**﴾: المضاعفة إضافة الضعف ـ بكسر الضاد ـ بمعنى المثل، يقال: ضاعف وضعّف وأضعف، وهي بمعنى واحد على التحقيق. . . ﴿**وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**﴾: شهيد كلِّ أمّة رسولُها، وهؤلاء إشارة إلى الذين دعاهم رسول الله ﷺ لحضورهم في ذهن السامع عند سماعه اسم الإشارة، وأصل الإشارة يكون إلى مشاهد في الوجود أو منزّل منزلته، وقد اصطلح القرآن على إطلاق إشارة (هؤلاء) مراد بها المشركون. . . ﴿**لو تَسَّوّى بهم الأرض**﴾: تسوية الأرض بالشيء المماثلة، «يا ليتني كنت تراباً»، أو الدفن فيها كالموتى «ياويلنا من بعثنا من مَرقدنا. . .» ﴿**ولا يكتمون الله حديثاً**﴾: لا يقدرون على كتمانه لأنّ جوارحهم تشهد عليهم. . . ﴿**ولا جنبا**﴾: الجنب من أصابته الجنابة؛ يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع لجريانه مجرى المصدر. . .

﴿**إلاّ عابري سبيل**﴾: عابر السبيل المسافر حين سيره في سفره، مشتق من الْعَبْر وهو القطع والاجتياز، يقال: عبرَ النهرَ وعبرَ الطريقَ. . . ﴿**حتى تغتسلوا**﴾: الاغتسال إحاطة البدن بالماء. ﴿**الغائط**﴾: المنخفض من الأرض وما غاب عن البصر، يقال: غاط في الأرض إذا غاب يغوط، فهمزته منقلبة عن واو، وكانت العرب يذهبون عند قضاء الحاجة إلى مكان منخفض من جهة الحي بعيد عن بيوت سكناهم. . . ﴿**لامستم النساء**﴾: لامستم ولمستم بمعنى واحد، وهو المباشرة باليد

أو بشيء من الجسد، وقد يطلق على الافتقاد: لمسنا السماء، وعلى النزول: ليلتمسن بالجيش دار المحارب، وعلى قربان النساء كما هنا، كقولهم: فلانة لا تَرُدُّ يَدَ لامسٍ. . . ﴿فتيمّموا﴾: التيمّم القصد. . . والصعيد: وجه الأرض. . . والطيب: الطاهر الذي لم تلوثه نجاسة ولا قذر، والمراد بالصعيد هنا التراب والرمل والحجارة. . . . والله أعلم!.

مبحث الإعراب

﴿**واعبدوا الله**﴾ عطف على ما قبله من التشريعات السابقة، وهو فعل أمر وفاعل ومفعول. ﴿**ولا تشركوا**﴾ معطوف على اعبدوا دخلت لا الناهية على الفعل المضارع فجزمته بحذف النون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**به**﴾ جار ومجرور متعلق بلا تشركوا. ﴿**شيئا**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**وبالوالدين إحسانا**﴾ معطوف على اعبدوا، بالوالدين جار ومجرور متعلق بفعل مقدر يدل عليه مصدره المذكور: أحسنوا بالوالدين، إحساناً مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿**وبذي القربى**﴾ معطوف على بالوالدين، وهو جار ومجرور متعلق بمثل ما تعلق به سابقه، والقربى مضاف إلى ذي مجرور بكسرة مقدرة منع من ظهورها التعذر. ﴿**واليتامى**﴾ معطوف على ذي مجرور بكسرة مقدرة منع من ظهورها التعذر. ﴿**والمساكين**﴾ كذلك مجرور بالكسرة. ﴿**والجار**﴾ مثله. ﴿**ذي**﴾ نعت للجار مجرور بالياء. ﴿**القربى**﴾ مضاف إلى ذي. ﴿**والجار الجنب**﴾ كذلك. ﴿**وابن السبيل**﴾ مثل ذي القربي.

﴿**وما**﴾ معطوف على ذي في محل جر. ﴿**ملكت أيمانكم**﴾ فعل وفاعل ومضاف إليه، وهو صلة ما لا محل لها من الإعراب. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يحبُّ**﴾ فعل مضارع منفيّ بلا مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**مَنْ**﴾ مفعول به في محل نصب. ﴿**كان**﴾ واسمها ضمير يعود على مَنْ. ﴿**مختالاً**﴾ خبر كان. ﴿**فخوراً**﴾ كذلك نصباً بالفتحة، وجملة ﴿**إنّ الله**﴾ لا محل لها من الإعراب لأنّها تذييلية (تعليلية). ﴿**الذين**﴾ مبتدأ في محل رفع. ﴿**يبخلون**﴾ صلة الذين. ﴿**ويأمرون**﴾ معطوف على يبخلون. ﴿**الناس**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**بالبخل**﴾ جار ومجرور متعلق بيأمرون. ﴿**ويكتمون**﴾ معطوف على يبخلون. ﴿**ما**﴾ مفعول به في محل نصب. ﴿**آتاهم**﴾ فعل ماض، وضمير الجماعة

مفعول به. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل مرفوع بالضمة، وجملة آتاهم الله صلة ما. ﴿**من فضله**﴾ جار ومجرور متعلق بآتاهم، والضميرفيه مضاف إليه، وخبر الذين محذوف يدل عليه ما بعده. ﴿**وأعتدنا للكافرين**﴾ تقدير الكلام: الذين يبخلون إلى آخره داخلون في وعيد الكافرين وأعتدنا. . . الخ، وهو معطوف على الخبر المقدر. ﴿﴿**عذاباً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**مهيناً**﴾ نعت لعذابا. ﴿**والذين ينفقون أموالهم**﴾ الذين مبتدأ، وهو معطوف على الجملة يبخلون، ينفقون صلة الذين، أموالهم مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**رئاء**﴾ حال من ضمير ينفقون.

﴿**الناس**﴾ مضاف إلى رئاء، والخبر محذوف تقديره فهم قرناء الشيطان، بدليل ما بعده وهو. ﴿**ومن يكن الشيطان له قرينا**﴾ وهي جملة شرطية فعلها يكن. ﴿**فساء قرينا**﴾ جواب الشرط، وهي جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب. ﴿**وماذا**﴾ استفهام إنكاري مبتدأ. ﴿**عليهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صلةُ مَوْصُولٍ مقدّر خبرُ المبتدإ. ﴿**لو**﴾ حرف امتناع لامتناع. ﴿**آمنوا**﴾ فعل وفاعل فعل الشرط. ﴿**بالله**﴾ جار ومجرور متعلق بآمنوا. ﴿**واليوم**﴾ معطوف على الله. ﴿**الآخر**﴾ نعت ليوم، وجواب لَوْ محذوف يدل عليه ما قبله، وتقدير الكلام: لو آمنوا ماذا الذي كان يتعبهم ويشقّ عليهم. ﴿**وأنفقوا**﴾ معطوف على آمنوا. ﴿**مما**﴾ جار ومجرور متعلق بأنفقوا. ﴿**رزقهم**﴾ فعل ماض، والضمير فيه مفعول. ﴿**الله**﴾ فاعل، والجملة صلة ما. ﴿**وكان الله بهم عليماً**﴾ جملة من كان واسمها وخبرها اعتراضية لا محل لها من الإعراب.

﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يظلم**﴾ فعل مضارع منفي بلا مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**مثقال**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**ذرّة**﴾ مضاف إلى مثقال مجرور بالكسرة، وجملة لا يظلم خبر إنّ في محل رفع. ﴿**وإن**﴾ الواو للعطف، وإنْ حرف شرط جازم. ﴿**تكُ**﴾ فعل مضارع مجزوم بسكون النون المحذوفة للتخفيف. ﴿**حسنةٌ**﴾ فاعل تكون التامة، تكتفي بمرفوعها. ﴿**يضاعفها**﴾ فعل مضارع مجزوم بالسكون جواب الشرط، والفاعل ضمير يعود على الله، والضمير فيه مفعول به. ﴿**ويؤت**﴾ معطوف على يضاعف مجزوم بحذف الياء، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**من لدنه**﴾ جار ومجرور متعلق بيؤت، والضمير فيه مضاف إليه، ولدنه ظرف مبنيٌّ على السكون دائماً، والضمير

مضاف إليه. ﴿أجراً﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿عظيماً﴾ نعت له. ﴿فكيف﴾ الفاء للتفريع والتعقيب، كيف اسم استفهام في محل رفع خبر لمبتدإ مقدر بنحو أولئك أو المشهد. ﴿إذا﴾ ظرف للزمان المستقبل. ﴿جئنا﴾ فعل وفاعل في محل جر مضاف إلى إذا. ﴿من كل﴾ جار ومجرور متعلق بجئنا. ﴿أمة﴾ مضاف إلى كلّ. ﴿بشهيد﴾ جار ومجرور متعلق بجئنا أيضاً. ﴿وجئنا بك على هؤلاء﴾ معطوف على جئنا من كل أمة. ﴿شهيداً﴾ حال من الضمير المجرور، وجواب إذا يدل عليه ما سبق من قوله: فكيف.

﴿يومئذ﴾ كلمة مركبة من مضاف ومضاف إليه تدل على ما سيحصل فيه. ﴿يود﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة. ﴿الذين﴾ فاعل يود في محل رفع. ﴿كفروا﴾ صلة الذين. ﴿وعصوا﴾ معطوف على كفروا. ﴿الرسول﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿لو﴾ حرف مصدر. ﴿تسوّى﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة منع من ظهورها التعذر. ﴿بهم﴾ جار ومجرور متعلق بتسوي. ﴿الأرضُ﴾ فاعل مرفوع بالضمة، ولو وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول. ﴿ولا يكتمون﴾ معطوف على يود. ﴿الله﴾ منصوب على التعظيم. ﴿حديثاً﴾ مفعول ثانٍ. ﴿ياأيّها الذين آمنوا﴾ منادى إعرابها معلوم. ﴿لا تقربوا﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية. ﴿الصلاة﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿وأنتم سكارى﴾ جملة حالية من مبتدإ وخبر. ﴿حتى﴾ حرف غاية يُنصب المضارع بعده بأن مضمرة وجوباً. ﴿تَعْلَمُوا﴾ منصوب بحذف النون، والواو فاعل. ﴿ما﴾ مفعول به في محل نصب. ﴿تقولون﴾ فعل وفاعل صلة ما.

﴿ولا جنبا﴾ معطوف على قوله: وأنتم سكارى، حال من ضمير لا تقربوا. ﴿إلاّ﴾ حرف استثناء مفرغ. ﴿عابري﴾ منصوب على الحال بالياء؛ لأنّه جمع مذكر سالم. ﴿سبيل﴾ مضاف إلى عابري مجرور بالكسرة. ﴿حتى تغتسلوا﴾ مثل حتى تعلموا. ﴿وإنْ﴾ الواو للعطف، وإنْ حرف شرط. ﴿كنتم﴾ كان واسمها، وهي في محل جزم فعل الشرط. ﴿مرضى﴾ خبر كان منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿أو على سفر﴾ معطوف على مرضى. ﴿أو جاء أحدٌ﴾ فعل وفاعل معطوف على مرضى كذلك. ﴿منكم﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لأحد. ﴿من الغائط﴾ جار ومجرور متعلق بجاء. ﴿أو لامستم النساء﴾ فعل وفاعل

ومفعول معطوف على مرضى. ﴿فلم تجدوا﴾ ماءً عطف على فعل الشرط. ﴿فتيمّموا﴾ جواب الشرط. ﴿صعيداً﴾ مفعول به. ﴿طيباً﴾ نعت له. ﴿فامسحوا﴾ الفاء للتعقيب والترتيب عطف على تيمموا. ﴿بوجوهكم﴾ جار ومجرور متعلق بامسحوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿وأيديكم﴾ معطوف على وجوهكم. ﴿إنّ الله﴾ إنّ واسمها. ﴿كان﴾ اسمها ضمير يعود على الله. ﴿عَفُوّاً﴾ خبر كان منصوب بالفتحة. ﴿غفوراً﴾ كذلك، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. والله أعلم!.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾: وُصلت الجملة بما قبلها بالعطف، وهو تشريع يختص بالمعاملة مع ذوي القربى والضعفاء، وقدم له الأمر بعبادة الله تعالى وعدم الإشراك على وجه الإدماج، للاهتمام بهذا الأمر وأنّه أحق ما يتوخّاه المسلم، تجديداً لِمَعْني التوحيد في نفوس المسلمين كما قُدم لذلك في مطلع السورة بقوله: «اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة»، والمناسبة هي ما أريد جمعه في هذه السورة من أحكام أوَاصر القرابة في النسب والدّين والمخالطة. والخطاب للمؤمنين، ولذلك قُدّم الأمرُ بالعبادة على النهي عن الإشراك؛ لأنّه قد تقرر نفي الإشراك بينهم، وأريد منهم دوام العبادة لله والاستزادة منها، ونهوا عن الشرك تحذيراً مما كانوا عليه في الجاهلية. ومجموع الجملتين في قوة صيغةِ حَصْرٍ؛ إذ مفاده: اعبدوا الله ولا تعبدوا غيرَه، فاشتمل على معنى إثبات ونفي كأنّه قيل: لا تعبدوا إلاّ الله.

والعدول عن طريق القصر في مثل هذا طريقة عربية، وإنّما يصار إليه عندما يكون الغرض الأول هو طرف الإثبات، ثم يقصد بعد ذلك نفي الحكم عما عدا المُثْبَت له؛ لأنّه إذا جيء بالقصر كان المقصد الأول هو نفي الحكم عما عدا المذكور، وذلك غير مقتضى المقام هنا، ولأجل ذلك لما خوطب بنو إسراءيل بنظير هذه الآية، خوطبوا بطريقة القصر في قوله: «وإذ أخذنا ميثاق بني إسراءيل لا تعبدون إلاّ الله وبالوالدين إحساناً. . .» الآية، لأنّ المقصود الأول إيقاظهم إلى إبطال عبادة غير الله؛ لأنّهم قالوا لموسى: «اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة»، ولأنّهم عبدوا العجل في مدّة مناجاة موسى ربَّه، فأخذ عليهم الميثاق بالنهي عن عبادة غير الله.

وقوله: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾ اهتمام بشأن الوالدين، إذ جعل الأمر بالإحسان بهما عقب الأمر بالعبادة في عدّة آيات من القرآن الكريم، ولذا قُدّم معمول (إحسانا) عليه تقديما للاهتمام؛ إذ لا معنى للحصر هنا، لأنّ الإحسان مكتوب على كل شيء، ووقع المصدر موقع الفعل. وإنّما عُدّيَ الإحسان بالباء لتضمينه معنى البر، وشاعت تعديته بالباء في القرآن في مثل هذا. والملاحظ أنّ الإحسان إنّما يُعَدَّي بالباء إذا أريد به الإحسان المتعلق بمعاملة الذات وتوقيرها وإكرامها، وهو معنى البر، ولذلك جاء: «وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البَدْوِ»، وإذا أريد به إيصال النفع المالي عُدّي بإلي، تقول: أحسن إلى فلان إذا وصله بمال ونحوه. وقوله: ﴿**وبذي القربى**﴾ أكد هذا بإعادة حرف الجر بعد العاطف، ومن أجل ذلك لم تُؤكَّد بالباء في حكاية وصية بني إسرائيل «وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل» إلى قوله: وذي القربي، لأنّ الإسلام أكّد أواصرِ القرابة أكثر من غيره. وقوله: ﴿**واليتامى والمساكين**﴾، هذان صنفان ضعيفان عديما النصير، فلذلك أوصى بهما.

وقوله: ﴿**إنّ الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً**﴾: تذييل لجملة الأمر بالإحسان إلى من سماهم، بذم موانع الإحسان إليهم الغالبة على البشر!. ومعنى نَفْيِ محبّة الله تعالى نفيُ رضاه وتقريبه عمن هذا وصفه، وهذا تعريض بأخلاق أهلِ الشرك لِمَا عُرِفُوا به من الغِلْظَةِ والجفاء، فهو في معنى التحذير من بقايا الأخلاق التي كانوا عليها... ﴿**الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل...**﴾ الخ: يجوز أن يكون استئنافاً ابتدائياً جيء به عقب الأمر بالإحسان لمن جرى ذكرهم في الجملة السابقة. ومناسبة إرداف التحريض على الإحسان بالتحذير من ضده وما يشبه ضده من كل إحسان غير صالح، فقوبل الخُلق الذي دعاهم الله إليه بأخلاق أهل الكفر وحزب الشيطان، كما دلّ عليه ما في خلال هذه الجملة من ذكر الكافرين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فالذين مبتدأ وحذف خبره، ودل عليه: ﴿**وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**﴾.

وقصد العدول عن العطف لتكون مستقلة، ولما فيه من فائدة العموم، وفائدة الإعلام بأنّ هؤلاء من الكافرين، فالتقدير: الذين يبخلون أعتدنا لهم عذاباً مهيناً، وأعتدنا ذلك للكافرين أمثالهم. وتكون جملة: ﴿**والذين ينفقون أموالهم رئاء**

الناس﴾ معطوفة أيضاً على جملة: الذين يبخلون؛ محذوفة الخبر أيضاً يدل عليه قوله: **﴿ومن يكن الشيطان له قريناً﴾**، والتقدير: والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس قرينهم الشيطان. ونُكْتَةُ العدول عن العطف مثل نكتةِ ما قبلها. ووصف العذاب بالمهين جزاء لهم على الاختيال والفخر. وعطف الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس على الذين يبخلون؛ لأنّهم أنفقوا إنفاقاً لا تحصل به فائدة الإنفاق غالباً؛ لأنّ من ينفق ماله رئاء لا يتوخي به مواقع الحاجة، فقد يعطي الغنِيَّ ويمنع الفقير؛ فأُريدَ بهم هُنَا المنافقون.

وقوله: **﴿وماذا عليهم...﴾** الخ: المقصود منه استنزال طائرهم وإقامة الحجّة عليهم، وتوبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء بخلاف ما هو عليه، والتحريض على التفكّر لطلب الجواب، لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة، والتنبيه على أنّ المَدْعُو إلى أمْر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطاً، فكيف إذا كان فيه منافع لا تحصى. وتقديم الإيمان بهما لأهميته في نفسه، ولعدم الاعتداد بالإنفاق بدونه. وقوله: **﴿وكان الله بهم عليماً﴾**: وعيد لهم بالعقاب، وهو تعريض بالتهديد وبالجزاء على سوء أعمالهم... **﴿إنّ الله لا يظلم مثقال ذرة...﴾** الخ: استئناف مبيّن للقاعدة الشرعية؛ فبعد أن وصف حالهم وأقام الحجّة عليهم وأراهم تَفْرِيطَهم مع سهولة أخذهم بالحيطة لأنفسهم لو شاءوا، بيّن أنّ الله منزّه عن الظلم القليل؛ بلْه الظلم الشديد، فالكلام تعريض بوعيد محذوف، هو من جنس العقاب، وأنّه في حقهم عدل، لأنّهم استحقوه بكفرهم، وقد دلّت على ذلك المقدّر أيضاً مقابلته بقوله: **﴿وإن تكِ حسنة يضاعفها﴾**!. ولمّا كان المنفيُّ الظلمَ، على أنّ مثقال ذرة تقدير لأقل ظلم، فدل على أنّ المراد: إنّ الله لا يؤاخذ المسيء بأكثر من جزاء سيّئته...

﴿فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد...﴾ الخ: هذا متفرع عما قبله من أحوال الناس في الدنيا إلى سؤال الناس يوم القيامة، وكيف موقفهم أمام الأشهاد، وخصوصا عندما يكون الرسول محمد ﷺ شهيداً على هؤلاء الأعداء الذين كذّبوه وآذوه!. والإتيان بعلي تهديد لهؤلاء، وأنّ شهادة الرسول عليهم وليست لهم. وقوله: **﴿يومئذ يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّي بهم الأرضُ ولا يكتمون**

الله حديثاً﴾: استئنافٌ لبيان حالهم التي أُشير إلى شدّتها وفظاعتها بقوله: فكيف؟!. والتعبير عنهم بالموصول (الذين كفروا وعصوا الرسول) لا سيما بعد الإشارة إليهم لهؤلاء، لذمّهم بما في حيّز الصلة (كفروا وعصوا) والإشعار بعلة ما اعتراهم من الحال الفظيعة والأمر الهائل!. وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حالِ مكذّبيه، فإنّ حقّ الرسول أن يُؤمن به ويطاع، لا أن يُكفر به ويُعْصى!. وفي هذا من تهويل الأمر وتفظيع الحال مالا يُقادَرُ قَدْرُهُ!. وقوله: **﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾**: عطف على يودّ بمعنى لا يقدرون على كُتْمَانِ شيء مما فعلوا من الكفر لأنّ جوارحهم تشهد عليهم، وهذا كناية عن شدّة خوفهم وزلّهم، فينقبضون ويتضاءلون حتى يودوا أن لا يصيروا ظاهرين على الأرض، وفي هذا الكلام إطناب، قصد من إطنابه سلوك طريقة الكناية عن صيرورتهم تراباً بالكناية المطلوب بها نسبة!..

﴿ياأيّها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾: هذه الآية استئناف لبيان حُكْمَين يتعلقان بالصلاة. والمناسبة أنّه لما نُهوا فيما سلف عن الإشراك به تعالى، نُهوا ههنا عما يؤدّي إليه من حيث لا يحتسبون، فإنّه روي أنّ عبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ صنع طعاماً وشراباً حين كانت الخمر مباحة فدعا نفراً من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فأكلوا وشربوا حتى ثملوا، وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدُهم ليصلي بهم فقرأ: (أعبد ما تعبدون) فنزلت!. وتصدير الكلام بحرفَي النّدَاءِ والتنبيه للمبالغة في حملهم على العمل بموجب النهي. وتوجيه النهي إلى قربان الصلاة مع أن المراد هو النهي عن إقامتها للمبالغة في ذلك، فالقرب هنا مستعمل في معناه المجازي، وإنّما اختير هذا الفعل دون (لا تصلوا) ونحوه للإشارة إلى أن تلك حالة منافية للصلاة، وصاحبها جدير بالابتعاد عن أفضل عمل في الإسلام، ومن هنا كانت مؤذنة بتغيّر شأن الخمر والتنفير منها، لأنّ المخاطبين يومئذ هم أكمل الناس إيماناً وأعلقهم بالصلاة، فلا يرمقون شيئاً يمنعهم من الصلاة إلاّ بعين الاحتقار. وقوله: **﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾**، غاية للنهي وإيماءً إلى علّته. واكتفى بقوله: تقولون، عن تفعلون؛ لظهور أن ذلك الحد من السكر قد يفضي إلى اختلال أعمال الصلاة؛ إذ العمل يسرع إليه الاختلال باختلال العقل قبل اختلال القول.

وقوله: **﴿ولا جنبا إلاّ عابري سبيل حتى تغتسلوا...﴾** الخ: فيه تعبيراتٌ

رائعَةٌ ينبغي أن نقف أمامها. فيعبر عن قضاء الحاجة بقوله: ﴿**أو جاء أحد منكم من الغائط**﴾، فلا يقول إذا عملتم كذا وكذا بل يكتفي بالعودة من هذا المكان كناية عمّا تَمَّ فيه، ومع هذا لا يَسْنِدُ الفعلَ إلى المخاطبين، فيقول: أو جئتم من الغائط، بل يقول: أو جاء أحد منكم من الغائط، زيادة في أدب الخطاب ولطف الكناية؛ ليكون هذا نموذجاً للناس في الأدب حين يتخاطبون. وحين يعبّر عما يكون بين الرجل والمرأة بقوله: ﴿**أو لامستم النساء**﴾، والتعبير بالملامسة أرقُّ وأحشم وأرقي، والملامسة قد تكون مقدمة للفعل أو تعبيراً عنه!. وعلى أية حال فهو أدب عالٍ يضربه الله للناس في الحديث عن مثل هذه الشؤون، عندما لا يكون هناك مُقْتَضٍ للتعبير بالألفاظ المباشرة المكشوفة. وحين يعبّر عن الصعيد الطاهر، بأنّه الصعيد الطيّب، ليسير إلى أنّ الطاهر طيّب والنجس خبيث، وهو إيماء لطيف المدخل إلى النفوس. وقوله: ﴿**إنّ الله كان عفواً غفوراً**﴾: تعليل للترخيص والتيسير، وتقرير لهما، فإنّ من عادته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين، ويغفر للمذنبين لابد أنّ يكون ميسّراً لا معسّراً!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: الأمر بعبادة الله والنهي عن الإشراك به... ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا**﴾: إن التشريعات كلها في الإسلام والتوجيهات إنّما تنبثق من نَبْعٍ وَاحِدٍ، وترتكز على ركيزة واحدة، إنّها تنبثق من نبع العقيدة في الله، وترتكز على الوحدة المميزة لهذه العقيدة، ومن ثم يتصل بعضها ببعض، ويتناسق بعضها مع بعض، ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية، وتُصبح دراسة أيّ منها ناقصةً بدون الرجوع فيها إلى أصلها الكبير الذي تلتقي عنده، وهو تلك العقيدة.

من العقيدة في الله تنبع كل التصورات الأساسية للعلاقات الكونية والحيوية والإنسانية، تلك التصورات التي تقوم عليها التشريعات الاجتماعية والاقتصادية والتي تؤثر في علاقات الناس بعضهم ببعض في كل مجال النشاط في الأرض، والتي تُكَيِّفُ ضمير الفرد وواقع المجتمع، والتي تجعل المعاملاتِ عباداتٍ ـ بما فيها من مراقبة الله ـ والعباداتُ قاعدة للمعاملات ـ بما فيها من تطهير للسلوك ـ والتي تحيل الحياة في النهاية وحْدةً متماسكةً، مردُّها كلُّها إلى الله. أما عبادة غير الله «وهو الإشراك» فهو يُذبْذِبُ الفكرة ويَطمس البصيرة فتنحل به آصرة المجتمع،

وتجعل الفرد تائها بين تخيُّلات واهية وأوهام باهتة، فيصير كل فرد معزولاً بنفسه حائراً في تصرُّفه، لا يدري ماذا يفعل ولا لمن يفعل!.

ولقد صوَّر القرآنُ هذه الحال بالصورة التي تُظهر هذا المنكر (الإشراك) في نهايته الضياع والهلاك «ومن يشرك بالله فكأنّما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق». والإشراك ضروب وأشكال مختلفة: منه ما ذكره سبحانه عن مشركي العرب من عبادة الأصنام باتخاذهم أولياء وشفعاء عند الله يقرّبون المتوسلّ بهم إليه، ويقضون الحاجات عنده، وقد جاء ذكر هذا في آيات كثيرة، كقوله: «ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون»، ومنها ما ذكره تعالى عن أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون». وأقوى أنواعه ما سماه الله دُعَاءً واستشفاعاً، وهو التوسل بغيره له وتوسيطه بينه وبين الله، وهذا النوع ظاهر في بعض العوام الجهلة من المسلمين الآن، فتسمع عنهم أو تراهم يستشفعون ويقولون: ياسيدي فلانا أغثنا، أو جاهك، أو المدد إلى غير ذلك من التأوُّهات والصرخات خصوصاً عندما يشطحون في مجالس اللهو واللعب التي يسمونها (حضرة)!. نعوذ بالله من الشرك والمشركين!.

التوجيه الثاني: الأمر بالإحسان بالناس؛ الوالدين ومن ذكر بعدهم... ﴿**وبالوالدين إحساناً**...﴾ الخ الآية: هذه السمة الأساسية في العقيدة الإسلامية تبرز هنا في تصدر آية الإحسان بالوالدين والأَقْرَبِينَ وغيرهم من طوائف الناس بعبادة الله وتوحيده، ثم في الجمع بين قرابة الوالدين وقرابة هذه الأصناف كلها من طوائف البشر متصلة هذه وتلك بعبادة الله وتوحيده، وذلك بعد أن جعل هذا التوحيد وتلك العبادة واسطة بين دستور الأسرة القريبة في نهاية الدرس الماضي ودستور العلاقات البشرية الواسعة في هذا الدرس الجديد، ليصلها جميعاً بتلك الآصرة التي تضمُّ الأواصرَ جميعاً. ويربط السياق هذا البرّ بعبادة الله تعالى إشارةً إلى الرابطة الأولى التي يلتقي عندها العباد جميعاً؛ رابطتهم بالله رازقهم وخالقهم على النحو الذي بدأت به هذه السورة.

ثم ينطلق إلى الإحسان بالوالدين على التخصيص، ولذي القربى على التعميم، ومعظم الأوامر تتوجه إلى توصية الذرية بالوالدين، وقلما تُوصِي الوالدين بالذرية، ذلك أنّ الفطرة تركّز في كيان الآباء والأمهات رعاية الذرية الضعاف تنفيذاً لمشيئة الله في امتداد الحياة، وفي هذه الفطرة الكفاية والغناء فلا حاجة إلى وصية ولا أمْرٍ. فأما الأبناء فهم في حاجة إلى دافع من العقيدة والمروءة والتوجيه ليلتفتوا إلى الخَلْف وهم مدفوعون إلى الأمام في زحمة الحياة، وليتوجهوا إلى الجيل الذي أخلفهم، وهم مشغولون بالجيل الذي يخلفُهُم، ومن ثم تجيء هذه الوصايا لتوقظ وجدانهم إلى ما قد يفوتهم وهم مندفعون إلى المستقبل ـ مُهْمِلُونَ للماضي ـ مع تيار الحياة.

كذلك يلحظ في هذه الآية وفي كثير غيرها أن التوجيه إلى البر يبدأ بذوي القربى وبالعشيرة القريبة ثم يَمْتَدُّ منها إلى بقية المحتاجين إلى الرعاية أو المستحقين، وتلك طريقة الإسلام، وهي تتفق أولاً مع الفطرة وتُسايِرُها، ثم تتفق ثانياً مع تنظيمه الاجتماعي من جعل التكافل يبدأ في محيطِ الأسرة، ثم يَنْساحُ في محيط الجماعة؛ كي لا يركز هذا التكافل كله في يد الدولة الضخمة، إلا عندما تقتضي ذلك ضرورة، فالوحدات الصغيرة أقدر على تحقيق هذا التكافل في وقته المناسب، وفي سهولة ويسر، وفي تراحم ووُدٍّ يجعل جوَّ الحياة أليق ببني الإنسان.

وهنا يبدأ الإحسان بالوالدين ومنها إلى ذوي القربى ومنهم إلى اليتامى والمساكين ـ ولو أنهم أبعد مكانا من الجار ذلك أنهم أشد حاجة وأولي بالرعاية ـ ثم الجار القريب فالجار البعيد ـ مقدمين على الصاحب الملاصق المقرّب ـ لأن الجار قربه ثابت أما الصاحب فلقاؤه على فترات ـ ثم الصاحب الملاصق، فابن السبيل العابر، وهو غريب، والغريب في حاجة إلى الرعاية حتى ولو لم يكن محتاجاً من ناحية المال، ثم الرقيق الذين جعلتهم الملابسات ملك اليمين، ولكنهم يتصلون بتلك الآصرة الإنسانية التي لا تنقطع، والتي تربط بينهم وبين الوالدين وذي القربى وسائر أصناف البشر المستحقين للرعاية. ثم ذكر ما هو علّةٌ للأمر السابق: ﴿**إنّ الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً**﴾. هكذا تتضح مرَّةً أخرى تلك السّمةُ الأساسيَّة للعقيدة الإسلامية، وهي ربط مظاهر السلوك وكل علاقات

المجتمع بالعقيدة، فعبادة الله وتوحيدهُ يتبعها الإحسان إلى البشرابتغاء وجه الله، وفي أدب ورفق يتحقق معهما الإحسان.

والكفر بالله واليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر والبخل والأمر بالبخل، وكتمان فضل الله وعدم إباحته للناس، والإنفاق حين يكون إنفاق اختيالٍ ورئاءٍ، ينشأ عنهما الإيذاء لا الإحسان، فالمختال الفخور مبغوض عند الله؛ لأنه احتقر جميع الحقوق التي أوجبها للناس، وأوجبها لنفسه من الشعور بعظمته وكبريائه، فهو كالجاحد لصفات الألوهية التي لا تليق إلا بالله. والمختال لا يقوم بعبادة ربه حق القيام، لأن العبادة لا تكون إلاّ عن خضوع للقلب، ومن خشع قلبه خشعت جوارحه، ولا يقوم بحقوق الوالدين ولا ذوي القربي، لأنه لا يشعر بحقٍّ لغيره عليه، وبالأولى لا يشعر بحق لليتيم أو المسكين أو الجار قريب أو بعيد، فهو لا يُرجى منه بِرٌّ ولا إحسانٌ، وإنّما يُتوقع منه إساءةٌ وكفرانٌ.

إن هؤلاء المختالين الفخورين على الناس المتعالين في الأرض، لأنّهم لا يعبدون الله فيتعلمون من عبادته التواضعَ في معاملة العباد. إنّ هؤلاء لا يكفيهم أن يبخلوا بما يملكون بل يدعون غيرهم إلى البخل، وذلك طبيعي، فصاحب كل صفة يُحبُّ أن يشاركه فيها الآخرون، ولا سيما حين تكون هذه الصفة ممّا ينقده الناس، كي لا يكون فيها وحده تحت لاذع النظرات وقارس النقدات. وهم بهذا البخل يكتمون ما آتاهم الله من فضله، فلا يكشفونه للناس، ولا يشاركهم الآخرون فيه، وهم حين ينفقون شيئا من مالهم ينفقونه رئاءً لا ابتغاء وجه الله، وارتقاباً لثوابه، ذلك أنّهم... لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ومن ثم يتلقّاهُم التهديدُ والتنديد في التعقيب على كل آية؛ مرة: ﴿**إنّ الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً**﴾، ومن لايحبه الله فياوَيْلَهُ من أذاه. وثانية: ﴿**وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**﴾، والإهانة هي الجزاء المقابل للفخر والاختيال، ويُظْهِرُ التعبيرُ هنا سبب العذاب وينص على صفتهم الأصيلة فيُسمّيهم (الكافرين) حتى قبل أن يصرح في الآية الثانية بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ ليدل على أن هذه الصفات من صفات الكافرين وأنّها تنبع من الكفر وتتصل به، كما يتصل الإحسان بالإيمان. وثالثة: ﴿**ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً**﴾؛ ليدل على أنّ هذه التصرفات مبْعثُها إيحاء الشيطان. ويزيد في تقرير هذا المعنى يجعل

الشيطان قريناً ورفيقاً ومصاحباً، وساءت هذه صحبة تنتهي بصاحبها إلى مصير الشيطان. وحين ينتهي من تجميع هذه الجرائر الناشئة عن ذلك السلوك الذميم، يسأل في استنكار: **﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا ممّا رزقهم الله﴾**؟. نعم ماذا عليهم؟ ما الذي يخشونه في هذا الاتجاه، حتى يباعدوه ويلجأوا إلى ذلك الطريق، وفيه كل تلك الجرائر؟. إن الإنسان لا يركب ذلك المركب الخشن، ولا يحتمل كلُّ تلك التبعات إلاّ وهو مضطر يتقي ما هو أكبر!.

ومراعاة لهذا الجو يجيء التعبير في هذه الصورة؛ وإلا فهذا الطريق هو الطريق الأولي، ومزيته ليست مجردَ أنْ ليس عليهم فيه شيء، بل أن لهم فيه خيراً، وأنه سبيل الإيمان والطاعة والنجاة. والبر بين الناس **﴿وكان الله بهم عليما﴾** يعلم نياتهم ومَرَامي أعمالهم إن كان لوجه الله أو إن كانت رياءً ومباهاةً. ثم يعقب على التهديد والاستنكار بمشهد من مشاهد القيامة يجسّم هذا التهديد ويُشخّصُه في حركة حسّيّة وحركة شعورية، يجسم التهديد بالعذاب المهين المعدّ للكافرين، ويجسّم التهديد بسوء المصير المقترن بمصير الشياطين، ويجسّم التهديد بكراهية الله للمختالين الفخورين الذين يكتمون ما آتاهم الله من فضله. . .

﴿إنّ الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً. فيكف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً. يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّي بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا﴾: إنّه يُمهّد هنا لمشهد القيامة بأنّ الله لا يظلم مثقال ذرة؛ وإذن فهو العدل المطلق يسود الموقف، وأنّه يضاعف الحسنات، ويؤتى فضلا عنها أجراً من لدنه عظيما؛ فهي الرحمة إذن لمن يستحقون الرحمة، والفضل المطلق لمن كانوا يرجون الفضل، وبذلك يرسم الجوّ العام الذي يعرض المشهد فيه. فإذا كانت هذه هي الحال، وهذه هي القاعدة، فكيف يكون حالهم إذن: إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً؟!. وعندئذ يرتسم المشهد شاخصاً، ويقفُ وجهاً لوجه أمام الخلائق وعلى كل أمّة منها شهيد، وهؤلاء الكافرون المختالون الفخورون الباخلون الآمرون بالبخل، الذين يكتمون فضل الله ولا يبتغون وجه الله ـ وهم المشركون والمنافقون لأنّه تقدم ذكرهم بجعلهم كالحاضرين فيشار إليهم ـ هؤلاء هم واقفون في الساحة والرسول عليهم شهيد.. هؤلاء هم بكل ما فعلوا وبكل ما قالوا وبكل

ما أنكروا وبكل ما استكبروا، هؤلاء هم في حضرة الخالق الذي كفروا به، وفي مواجهة الرسول الذي عصوه، فكيف؟!. إنّه موقف خزي ومهانة قبل كل شيء، وموقف اعتراف لا يجدي فيه الإنكار ولا يمكن فيه الكتمان. والسياق يُصوّر جوَّ المشهد بحالة نفسية وانفعال وجداني يتّفقان مع تلك المعاني: ﴿**يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّي بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً**﴾: يودون لو تسوّى بهم الأرض فلا يكون لهم وجود بارز، بل يندمجون بهذه الأرض وينطوون فراراً من الخزي الذي يغمرُ المشهد ويطويه، ويقرون لله ويعترفون في مقابل ما كانوا في الحياة الدنيا يكتمون، وإنّ أيَّ تعبير عن حالهم، وسوء مصيرهم، وما يعانونه من انفعالات ساحقة ما كان ليبلغ في تجسيمه وتشخيصه ما يبلغه هذا المشهد الكظيم الكئيب!.

ولقد بدأ هذا الدرس بعبادة الله وتوحيده، ليقرن بالعبادة والتوحيد ذلك البر بالناس، ثم استطرد لبيان منهج الآخرين الذين لا يُوَحِّدُون الله ولا يعبدونه؛ فالآن وقد أوصل هؤلاء إلى مصيرهم المنتظر، بذلك المشهد المجسم المصور، يعود إلى مشهد من مشاهد العبادة، ويرسم الأدب اللائق به، والاستعداد الطهوري الذي يمهّد له، والرخص التي تجعل أداءه ميسوراً في جميع الأحوال...

﴿**يا أيُّها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى...**﴾ الخ: لقد كانت هذه إحدى مراحل تحريم الخمر ـ المرحلة الوسيطة بين التنفير منها لأنّ إثمها أكبرُمن نفعها، «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما»، وبين التحريم القاطع لأنّها رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه «يا أيُّها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون» ـ وكانت مهمة هذه المرحلة الوسيطة هي قطع عادة الشراب، بِحَظْرِه قُرْبَ أوقات الصلاة، وهي موزعة على مدار النهار، وبذلك تنقطع عادة الشراب عند من كانوا يشربون في مواعيد خاصّة. وكسر العادة هو الخطوة النفسية الحاسمة في إبطالها؛ لأنّ معظم من يتناولون الخمر وأخواتها، إنّما يتناولونها لأنّها أصبحت عادة لهم، في مواعيد خاصة ومناسبات. والعادة هي أعسر عقبة في سبيل تركها، وكسر العادة هو الخطوة الحاسمة كما أسلفنا.

وقد راعى الإسلام هذه الأسس النفسية في إبطال العادات النفسية والجسدية ـ

والله أعلم بخلقه وطباعهم المركوزة في الفطرة ـ وذلك كله بالإضافة إلى ما يجب للصلاة ـ وهي وقوف بين يدي الله ـ من أدب يتنافى مع حالة الشراب ـ وهذه المرحلة تُذَكِّرُنا هنا في هذا السياق ـ لأنّ الخمر أكثر شيء دفعا إلى الفخر والاختيال، وفقدان الإتزان واضطراب التصورات. وجو العبادة يجب أن يُنزّه عن هذا كُلِه، فلا تشوبه شائبةُ مَنْ ورد ذكرهم من المختالين الفخورين الذين لا يُحبُّهم الله. ثم يمضى السياق في بيان الطهارات الواجبة في جو العبادة، فيحظر الصلاة على الجُنُب سواء من مباشرة امرأة أو من احتلام قبل الاغتسال. والأمر هنا أمر تهيؤ نفسي واستعداد، وفصل للحظة المتاع الجسدي عن لحظة العبادة بعمل يوحي للنفس بهذا الفصل وهو الغسل.

والإسلام لا يستقذر دوافع الفطرة ولا ينكرها، ولكنه فقط يحبّ أن تتهيّأ النفس للوقوف بين يدي الله بحالة شعورية خاصّة، وأن تخلص من الدوافع الذاتية كلها في لحظة العبادة وتتوجه بكاملها خالصة لله، ومن ثَمَّ يكون الغُسْل من الجنابة ـ وليس فيها من المقاذر الظاهرة ما في البول والغائط ـ لهذا الاعتبار فيما نحسب، وما نبلغ من حكمة تشريع الله إلاّ ما يبلغ إليه الاجتهاد. فأمّا حين يُصبح الاغتسال شاقاً ـ كما في حالة عابر السبيل الذي لا يستقر ولا يجد وسائل الاغتسال ميسورة ـ فإن التهيؤ يتم بوسيلة أخرى لا تحقق نظافة حسيّة وهي التيممُ، ممّا يساعد على التعليل الذي أوردناه.

هذا التيمم يجزي في حالة المرض الذي يجعل استعمال الماء ضارّاً، أو يجعل استجلاب الماء شاقّاً، سواء كان الواجب هو الغُسْل كما في حالة الجنابة، أو الوضوء كما في حالة قضاء الحاجة. وكيفية التيمم ضرب اليدين على الصعيد الطاهر يَمْسَح بهما الوجه واليدين؛ وحالة المرض والسفر المبيحان للتيمم وكيفيته والأحكام التي تتعلق به ذكرَها الفقهاءُ مفصّلة في كتبهم. وهذا تخفيف من الله لعباده إذْ عَفَا عَنْهُم، فلم يكلّفهم الغسل أو الوضوء عند المرض، ولا تفقد وجود الماء عند عدمه، حتى تكثر عليهم الصلوات، فيعسر عليهم القضاء، وهو ما عبر عنه تعالى بقوله: ﴿**إنّ الله كان عفواً غفوراً**﴾.

2 ـ تفصيل موقف اليهود وأعمالهم المفضية بهم إلى نار الخلود

النص

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿44﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿45﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿46﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿47﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿48﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿49﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿50﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ
وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿50﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿51﴾
أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿52﴾
أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ
ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿53﴾
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿54﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم
بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿55﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿56﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ألم تر**﴾: استفهام تقريري تعجيبي... ﴿**نصيباً من الكتاب**﴾: حظّاً قليلاً من علم التوراة... ﴿**يشترون**﴾: الاشتراء استبدال السلعة بالثمن، يطلق على المشتري والبائع، ولكن العرف خصّص المشتري بآخذ السلعة، والبائع بآخذ الثمن، ويطلق على كل من ترك شيئاً وتمسك بغيره كما هنا، ﴿**الضلالة**﴾: الضلال والأضلولة والضَّلال ضد الهدى، مأخوذ من الضياع كقولهم: فلان ضل، أي:

ضاع ومات وصار تراباً، من قولهم: «آإذا ضللنا في الأرض»، ومنه. . . **﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾**: السبيل: الطريق القويم، وتقدم معنى الإرادة عند قوله: «ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما. . .» **﴿والله أعلم بأعدائِكم﴾**: الأعداء جمع العدوّ وهو ضدّ الصديق، يستوي فيه الذكر والأنثى والمثنى والجمع، «هم العدو فاحذرهم». والاسم العداوة، وجمع الجمع أَعَادٍ، ومنه العادي، وجمعه عُداة. . . **﴿وكفى﴾**: كفى بمعنى حسب كما هنا، وكفى بمعنى أجزأ، وكفى بمعنى وقي. . .

﴿من الذين هادوا﴾: اليهود، وهو اسم لجنس اليهود، قيل مأخوذ من قول موسى عليه السلام: «واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنَّا هدنا إليك»، وأصله التوبة والإتابة والرجوع إلى الله بالإيمان والعمل الصالح، ثم صار حقيقة عرفية لجميع اليهود الذين كفروا بالله وبالرسل وبالكتب وباليوم الآخر، فلا تطلق هذه الكلمة إلاَّ عليهم الآن. . . **﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾**: التحريف: الميل بالشيء إلى الحرف، والمقصود هنا تغيير الكلام لفظاً أو معنًي. . . **﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾**: العصيان: مخالفة الأمر، وضده الطاعة؛ لأنّ في العصيان تصلب وفي الطاعة لين. . . **﴿واسمع غير مسمع﴾**: كلمة تحتمل معنيين؛ معنًي حسناً، ومعنًي سيّئاً، واستغلها اليهود فأطلقوها على المعنى السيّئ عندما كانوا يتحدثون مع الرسول ﷺ وكذلك **﴿راعنا. . . ليّاً بألسنتهم﴾**: الليّ: الانعطاف والانثناء، واللسان: آلة الكلام، ويطلق على الكلام نفسه. . . **﴿وطعناً في الدّين﴾**: قدحاً فيه بالاستهزاء والسخرية، وأصل الطعن: ضرب العدوّ ووخزُه بالرمح ثم أطلق على الطعن باللسان كما هنا. . .

﴿ولو أنّهم قالوا سمعنا وأطعنا واسْمَعْ وانظرنا﴾: هذه الأقوال الواضحة الصريحة التي لا تحتمل شيئاً من الطعن واللمز. . . **﴿لكان خيراً لهم وأقوم﴾**: كلام يدل على إيمانهم ويوضّح هدفَهم. . . **﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم﴾**: حاقت بهم اللعنة فَحُرِمُوا ما هو خير، فلا ترشح نفوسهم إلاّ بآثار ما هو كمين فيها من فعل سيّئٍ وقولٍ بذاء، لا يستطيعون صرف أنفسهم عن ذلك. . . **﴿فلا يؤمنون إلاّ قليلاً﴾**: ممَّنْ لم تشمله اللعنةُ، ولم يسد عليهم باب الإيمان فدخلوا في الإسلام كعبدالله بن سلام. . .

﴿ياأيها الذين أوتوا الكتاب﴾: اليهود الذين أُعطوا التوراة... **﴿آمنوا بما نزّلنا﴾**: القرآن... **﴿مصدقاً لما معكم﴾**: القرآن والتوراة متفقان في الحكم ودلائل الإيمان... **﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾**: أصل الطمس محو الآثار وإزالة الأعلام، وطمس الوجوه محو تخطيط صورها بأن تجعل كخف البعير، وقد يطلق الطمس على إبطال خصائص الشيء المألوفة منه. والوجوه جمع وجه وهو أول ما يبدو للناظر من البدن، وفيه العينان والأنف والفم، سمي به؛ لأنّه أشرف الأعضاء. والوجه سيد القوم، جمعه وجوه كذلك، فيقال: هم وجوه القوم، أي: سادتهم وأعيانهم... **﴿فنردها على أدبارها﴾**: الرد على الأدبار: تنكيس الرءوس إلى الوراء، فتجعل الوجوه مكان الأقفاء والأقفاء مكان الوجوه... **﴿أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت﴾**: اللعن هنا الخزي، وهو المسخ والحقارة كما حصل لأصحاب السبت، وهم الذين قال الله فيهم: «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين»، وأصل السبت القطع، وسبت اليهود قطع العمل يوم السبت... **﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به﴾**: ذنب الشرك لا يُمْحَى... **﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**: ذنْب غيرِ الشركِ قد يمْحي بالحسنات أو بالعفو... **﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾**: الافتراء الكذب الذي لا شبهة للكاذب فيه، وهو مشتق من الْقَريْ بمعنى القطع. والإثم العظيم: الفاحشة الشديدة... **﴿يزكون أنفسهم﴾**: يمدحونها بما ليس فيها، وينفون عنها ما يستقبح من قول أو فعل... **﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾**: الفتيل: القليل الذي لا قيمة له عند الناس مثل فتيل النواة، وهو الخيط الدقيق الذي في شق النواة؛ إذ هو لا ينتفع به ولا له مرأى واضح...

﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾: أمر بالنظر إلى فظاعة كذبهم!.. **﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾**: قد تناهى هذا في الإثم الواضح والذنب القبيح والشر الصريح... **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾**: الجبت: الخبث وكلُّ رديءٍ لا خير فيه، والمراد هنا عبادة الأصنام وما يلامسها من أوهام وخرافات ودجل!. والطاغوت: ما تُفْرَضُ عبادته على الناس من طغاة الناس، فيزداد طغياناً وتجبراً، كما حصل لفرعون وأمثاله، من رئيس يُقلّد وهوى يتبع وسببه إغواء الشيطان للمعبود والعابد!.. **﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء﴾** القائل اليهود، والمقول لهم هؤلاء المشركون من أهل مكة،

والمقول: المشركون أهدى من الذين آمنوا... ﴿**أولئك الذين لعنهم الله**﴾: هؤلاء البعداء عن الخير لعنهم الله، طردهم ومقتهم وخذلهم... ﴿**ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً**﴾: الملعون لا يوجد له ناصر فكيف ينصر غيره؟!..

﴿**أم لهم نصيب من الملك**﴾: هل لهم مقدارمن الحكم والسلطة على الناس والقدرة على التصرُّف؟!. ﴿**فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً**﴾: لو كان لليهود ملك وحكم واستطاعة على التصرف لما نفعوا نقيراً!. والنقير الشيء الحقير، ومثَّلُوا له بالنقرة التي تكون في ظهر النواة... ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**﴾: الحسد: تمنّي زوال الخير عن الغير، والناس هنا: محمد ﷺ وأصحابه، وفضل الله دينه لما فيه من الخير العميم والجاه العظيم... ﴿**فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيماً**﴾: آل إبراهيم: أبناؤه وعقبه ونسله من صالحي ذُريّتِهِ. والكتاب: دستور الشريعة، والحكمة فهم الدستور والعمل به. والملك العظيم: مثل ملك داوود وسليمان... ﴿**فمنهم من آمن به**﴾: من ذرية إبراهيم من آمن... ﴿**ومنهم من صدّ عنه**﴾: أعرض عن دستور الكتاب...

﴿**وكفي بجهنم سعيراً**﴾: السعير: شدة لهب النّار وحرها، ﴿**سوف نصليهم ناراً**﴾: والإصلاء مصدر أصْلاهُ، ويقال: صلاهُ صَلْياً، وأصله شَيُّ اللحم على النار. ﴿**كلما نضجت جلودهم**﴾: ونضجت: بلغت نهاية الشيّ، يقال: نضج الشواء إذا بلغ حدّ الشيّ، ويقال: نضج الطبيخ إذا بلغ حدّ الطبخ، والمعنى هنا: كلما احترقت جلودهم فلم يبق فيها إحساس عوّضناهم جلوداً غيرها... ﴿**ليذوقوا العذاب**﴾: الذوق هنا: إحساس الألم، وأصله اختبار المطعوم بآلة الذوق، لأنّ القوة الذائقة أشد الحواس تأثراً... ﴿**ظلاً ظليلاً**﴾: فَيَنَاناً لا جوب فيه، دائماً لا تمسخه شمس. والله أعلم!.

مبحث الإعراب

﴿**ألم تر**﴾: فعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلّة، دخلت عليه همزة الاستفهام ولم الجازمة، والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنت. ﴿**إلى الذين**﴾: جار ومجرور متعلق بترى. ﴿**أوتوا**﴾ فعل مبني للمجهول، ونائب الفاعل واو الجماعة. ﴿**نصيباً**﴾ المفعول الثاني لأوتوا منصوب بالفتحة، وجملة أوتوا لا محل

لها من الإعراب صلة الذين. ﴿**من الكتاب**﴾ جار ومجرور متعلق بأتوا. ﴿**يشترون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الضلالة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، وجملة يشترون بيانية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ويريدون**﴾ معطوف على يشترون. ﴿**أن تضلوا**﴾ في تأويل مصدر مفعول به في محل نصب. ﴿**السبيلَ**﴾ مفعول تضلوا، والتقدير: يريدون ضلالكم السبيلَ. ﴿**والله أعلم**﴾ جملة من مبتدإ وخبر معطوفة على ما قبلها معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿**بأعدائكم**﴾ جار ومجرور متعلق بأعلم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وكفى بالله وليّاً**﴾ كفى فعل ماض، بالله فاعل جر بحرف الجر الزائد في محل رفع، ولياً تمييز منصوب بالفتحة. ﴿**وكفى بالله نصيراً**﴾ مثلها، وهو تذييل للكلام السابق.

﴿**مِنَ الذين**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**هادوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين، والأولي أن تعرب من الذين بيان للذين أوتوا. ﴿**يحرفون**﴾ فعل وفاعل صفة لمبتدإ محذوف تقديره: من الذين هادوا قوم يحرفون. ﴿**الكلم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**عن مواضعه**﴾ جار ومجرور متعلق بيحرّفون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ويقولون**﴾ معطوف على يحرفون. ﴿**سمعنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**وعصينا**﴾ معطوف على سمعنا. ﴿**واسمع**﴾ فعل أمر معطوف على سمعنا. ﴿**غَيْرَ**﴾ منصوب على الحال من فاعل اسمع. ﴿**مسمع**﴾ مضاف إلى غير مجرور بالكسرة. ﴿**وراعنا**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير يعود على الرسول ﷺ، والضمير (نا) مفعول به في محل نصب. ﴿**ليّاً**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿**بألسنتهم**﴾ جار ومجرور متعلق بليّاً والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وطعنا**﴾ معطوف على ليّاً. ﴿**في الدين**﴾ جار ومجرور متعلق بطعناً. ﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، لو حرف شرط يمتنع جوابه لامتناع شرطه. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها.

﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل خبر أنّ. ﴿**سمعنا**﴾ فعل وفاعل مقول القول. ﴿**وأطعنا**﴾ معطوف على سمعنا. ﴿**واسمع وانظرنا**﴾ معطوفان على سمعنا. ﴿**لكان خيراً**﴾ خبر كان، واسمها ضمير يعود على القول. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بخيراً. ﴿**وأقوم**﴾ معطوف على خيراً، وجملة لكان جواب لو رُبِطَتْ باللام، وفعلها فعل المصدر المنسبك مع أنَّ، أي: ولو تبت قولهم سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان

خيراً لهم وأقوم. ﴿**ولكن لعنهم الله**﴾ فعل وفاعل، والضمير المتصل مفعول دخل عليه حرف الاستدراك معطوف على قوله: ولو أنّهم قالوا... الخ. ﴿**بكفرهم**﴾ جار ومجرور متعلق بلعنهم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتعقيب، لا نافية. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إلاَّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**قليلاً**﴾ مستثنى بإلاَّ منصوب بالفتحة.

﴿**يا أيُّها**﴾ إعرابها ظاهر. ﴿**الذين**﴾ نعت لأيُّ في محل نصب. ﴿**أوتوا الكتاب**﴾ تقدم إعرابها في قوله: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً. ﴿**آمنوا**﴾ فعل أمر، وفاعله واو الجماعة. ﴿**بما**﴾ جار ومجرور متعلق بآمنوا. ﴿**نزّلنا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**مصدقاً**﴾ حال من ما منصوب بالفتحة. ﴿**لما**﴾ جار ومجرور متعلق بمصدقاً. ﴿**معكم**﴾ ظرف منصوب بالفتحة متعلق بفعل مقدّر صلة ما، والضمير في معكم مضاف إليه. ﴿**من قبل**﴾ جار ومجرور متعلق بآمنوا. ﴿**أنْ**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**نطمس**﴾ فعل مضارع منصوب بالفتحة، والفاعل نحن، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مضاف إلى قبل، أي: من قبل طمس وجوه. ﴿**وجوهاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**فنردّها**﴾ معطوف على نطمس. ﴿**على أدبارها**﴾ جار ومجرور متعلق بنرد، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أو نلعنهم**﴾ معطوف على نطمس أيضا. ﴿**كما**﴾ الكاف للتشبيه والجرّ، ما مصدرية. ﴿**لعنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أصحاب**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**السبت**﴾ مضاف إلى أصحاب مجرور بالكسرة، ﴿**وتقدير الكلام**﴾: نلعنهم لعناً مثل لعن أصحاب السبت. ﴿**وكان أمر الله مفعولاً**﴾ جملة تذييلية من كان واسمها وخبرها.

﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يغفر**﴾ فعل مضارع منفي بلا مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**أنْ يشرك به**﴾ أنْ مصدرية نصَبت الفعل المبنيّ للمجهول، وهو في تأويل مصدر مفعول به، أي: إنّ الله لا يغفر الإشراك به. ﴿**ويغفر**﴾ معطوف على لا يغفر، وفاعل يغفر ضمير يعود على الله. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول بيغفر. ﴿**دونَ**﴾ ظرف متعلق بمحذوف صلةُ ما. ﴿**ذلك**﴾ في محل جر مضاف إلى دون. ﴿**لمن**﴾ جار ومجرور متعلق بيغفر. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة ما. ﴿**ومن يشركْ بالله**﴾ الواو للعطف، مَنْ اسم شرط

جازم يشرك فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، بالله جار ومجرور متعلق بيشرك. ﴿**فقد**﴾ الفاء رابطة للجواب، قد حرف تحقيق. ﴿**افترى**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ يشرك. ﴿**إثماً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**عظيماً**﴾ نعت لإثماً منصوب بالفتحة، وجملة ﴿**فقد افترى**﴾ جواب الشرط في محل جزم. ﴿**ألم تر**﴾ تقدم إعرابها. ﴿**إلى الذين**﴾ جار ومجرور متعلق بتر. ﴿**يزكون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**أنفسَهم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بل**﴾ حرف إضراب.

﴿**الله**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**يزكي**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة الموصول. ﴿**ولا يظلمون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول منفي بلا معطوف على ما قبله. ﴿**فتيلا**﴾ المفعول الثاني. ﴿**انظر**﴾ فعل أمر، والفاعل ضميره (أنت). ﴿**كيف**﴾ في محل نصب على الحال من واو الجماعة في ﴿**يفترون**﴾. ﴿**على الله**﴾ جار ومجرور متعلق بيفترون. ﴿**الكذب**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، وجملة يفترون في محل نصب بعد نزع الخافض، والتقدير: انظر إلى حالهم: يفترون على الله الكذب. ﴿**وكفى به**﴾ فاعل كفى دخل عليه حرف الجر الزائد. ﴿**إثماً**﴾ تمييز منصوب بالفتحة. ﴿**مبيناً**﴾ نعت له. ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب**﴾ تقدم إعرابها. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل وفاعل، والجملة حوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿**بالجبت**﴾ متعلق بيؤمنون. ﴿**والطاغوت**﴾ معطوف عليه. ﴿**ويقولون**﴾ معطوف على يؤمنون. ﴿**للذين**﴾ متعلق بيقولون. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين.

﴿**هؤلاء**﴾ مبتدأ في محل رفع. ﴿**أهدى**﴾ خبره مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**من الذين**﴾ متعلق بأهدى. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الموصول. ﴿**سبيلاً**﴾ تمييز، وجملة هؤلاء مقول القول. ﴿**أولئك الذين لعنهم الله**﴾ أولئك مبتدأ، الذين خبره، لعنهم الله صلة الذين. ﴿**ومن يلعن الله**﴾ فعل الشرط. ﴿**فلن تجد له نصيرا**﴾ جوابه، قرن بالفاء لوجود لن. ﴿**أم**﴾ منقطعة. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**نصيب**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**من**

الملك﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لنصيب. **﴿فإذن﴾** الفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف، وإذن جوابية، أي: إن جعل لهم نصيب منه فإذن. **﴿لا يؤتون الناس نقيراً﴾** لا نافية يؤتون فعل وفاعل دخلت عليه لا النافية، الناس مفعول أول، نقيراً مفعول ثانٍ. **﴿أم يحسدون الناس﴾** معطوف على أم لهم نصيب. **﴿على ما﴾** متعلق بيحسدون. **﴿آتاهم الله﴾** فعل وفاعل ومفعول. **﴿من فضله﴾** صلة ما. **﴿فقد﴾** الفاء للتعليل. **﴿آتينا﴾** فعل وفاعل. **﴿آل﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿إبراهيم﴾** مضاف إلى آل مجرور بالفتحة لمنعه من الصرف. **﴿الكتاب﴾** المفعول الثاني. **﴿والحكمة﴾** معطوف عليه. **﴿وآتيناهم﴾** فعل وفاعل ومفعول. **﴿ملكاً﴾** مفعول ثان. **﴿عظيماً﴾** نعت له. **﴿فمنهم﴾** الفاء للتعقيب، ومنهم جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم.

﴿من﴾ مبتدأ مؤخر. **﴿آمن به﴾** صلة مَنْ. **﴿ومنهم من صد عنه﴾** مثلها. **﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾** تقدم إعراب كفي. **﴿إنّ الذين﴾** إنّ واسمها. **﴿كفروا﴾** صلة الذين. **﴿بآياتنا﴾** متعلق بكفروا والضمير فيه مضاف إليه. **﴿سوف﴾** حرف تسويف. **﴿نصليهم﴾** فعل مضارع، والضمير فيه مفعول أول. **﴿ناراً﴾** مفعول ثانٍ، والفاعل ضمير (نحن)، وجملة **﴿سوف نصليهم﴾** في محل رفع خبر إنّ. **﴿كُلَّما﴾** ظرف زمان فيه معنى الشرط. **﴿نضجت جلودُهم﴾** فعل وفاعل وهو فعل الشرط، والضمير في جلودهم مضاف إليه. **﴿بدلناهم﴾** فعل وفاعل ومفعول وهو جواب الشرط. **﴿جلوداً﴾** مفعول ثانٍ لبدّلنا. **﴿غيْرَها﴾** نعت لجلوداً، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة إنّ الذين كفروا جملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب. **﴿ليذوقوا﴾** فعل مضارع دخلت عليه لام التعليل، والفعل منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. **﴿العذاب﴾** مفعول به منصوب بالفتحة، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. **﴿إنّ الله﴾** إنّ واسمها. **﴿كان﴾** فعل ماض ناقص. **﴿عزيزاً﴾** خبر كان، واسمها ضمير يعود على الله. **﴿حكيماً﴾** خبر ثان لكان، وجملة كان خبر إنّ. **﴿والذين آمنوا﴾** معطوف على إنّ الذين كفروا، الذين مبتدأ. **﴿وعملوا الصالحات﴾** معطوف على آمنوا، وهما صلتان للذين لا محل لهما من الإعراب.

﴿سندخلهم﴾ فعل مضارع دخلت عليه سين التنفيس، والضمير فيه مفعول أول. **﴿جنات﴾** مفعول ثانٍ منصوب بالكسرة لأنّه جمع مؤنث سالم. **﴿تجرى﴾**

فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل. ﴿**من تحتها**﴾ متعلق بتجري، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الأنهارُ**﴾ فاعل تجرى مرفوع بالضمة. ﴿**خالدين**﴾ حال من الضمير المفعول. ﴿**فيها**﴾ متعلق بخالدين. ﴿**أبداً**﴾ ظرف زمان منصوب بالفتحة متعلق بخالدين. ﴿**لهم فيها**﴾ متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿**أزواجٌ**﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة. ﴿**مطهرة**﴾ نعت لأزواج. ﴿**وندخلهم ظلا ظليلاً**﴾ معطوف على سندخلهم جنات، والضمير في ندخلهم مفعول أول، وظلاً مفعول ثان، ظليلاً نعت له. والله أعلم!.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب**﴾: لما كان اليهود من جملة الناس الداخلين تحت حكم النداء العام الذي يأمر بتقوى الله وصلة الأرحام، يلفت النظر الآن إلى ما فعل هؤلاء من مخالفة الأمر وخروجهم عن الرابطة الإنسانية التي تربط الناس جميعاً بعضهم ببعض، وقد مهد إلى هؤلاء اليهود أثناء الكلام بأنّ هناك من يبخل ويأمر بالبخل ويكتم متعمداً ما أعطاه الله من الفضل، وينفق ماله رئاء الناس فسلكوا سبيل الشيطان، وصار ديدنهم الكفر والعصيان، ألم تنظر إليهم الآن؟!. فهو كلام مستأنف مسوق لتعجيب المؤمنين أو لكل سامع يتأتّى معه الخطاب، وهو يبيّن سوء حال اليهود والتحذير عن موالاتهم. والتوجيه إلى الفرد ههنا مع توجيهه فيما بعد إلى الكل في قوله: «والله أعلم بأعدائكم» للإيذان بكمال شهرة شناعة حال اليهود، وأنّها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها.

والرؤية بصرية بمعنى ألم تنظر إليهم فإنّهم أحقاء أن تشاهدهم وتتعجب من أحوالهم، فالاستفهام هنا تقريري، وهو مفيد مع ذلك التعجيب. ﴿**والذين أوتوا نصيبا من الكتاب**﴾ أحبار اليهود، ويدخل فيه جميع اليهود لأنهم أتباع لهم، والمراد بالكتاب التوراة، وبالذي أوتوه ما بُيّن لهم فيها من الأحكام، والعلوم التي من جملتها ما علموه من نعوت النبيء محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومن صحة ما جاء في شريعة الإسلام. والتعبير عنه بالنصيب المنبئ عن كونه حقّاً من حقوقهم التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها للإيذان بكمال ركاكة آرائهم حيث ضيعوه تضييعا. وتنوين ﴿**نصيباً**﴾ تَفْخِيمِي مؤيد للتشنيع عليهم والتعجيب من حالهم، فالتعبير عنهم بالموصول ﴿**الذين**﴾، للتنبيه بما في حيز الصلة ﴿**أوتوا نصيباً**﴾ على

كمال شناعتهم، والإشعار بمكان ما طوي ذكره في المعاملة المحكية عنهم من الهدى الذي هو أحد العِوضَين. . .

﴿**يشترون الضلالة**﴾: هذا كلام مستأنف مبيّن لمناط التشنيع ومدار التعجيب المفهومَيْن من صدر الكلام على وجه الإجمال، والإبهام مبني على سؤال نشأ منه، كأنه قيل: ماذا يصنعون حتى يُنظر إليهم؟. فقيل: يأخذون الضلالة، ويتركون ما أوتوه من الهداية، وإنما طوي المتروك لغاية ظهور الأمر لا سيّما بعد الإشعار المذكور، والتعبير عن ذلك بالاشتراء الذي هو عبارة عن استبدال السلعة بالثمن، أي: أُخذ بدلاً منه أخذاً ناشئاً عن الرغبة فيها. والإعراض عنه للإيذان بكمال رغبتهم في الضلالة التي حقُّها أن يُعرض عنها كلَّ الإعراض، وإعراضهم عن الهداية التي يتنافس فيها المتنافسون. وفيه من التسجيل على نهاية سخافة عقولهم، وغاية ركاكة آرائهم ما لا يخفي، حيث صورت حالهم بصورة ما لا يكاد يتعاطاها أحدٌ ممن له أدنى تمييز. وليس المراد بالضلالة جنسها الحاصل لهم من قبل حتى يخل بمعنى الاشتراء المنبئ عن تأخرها عنه، بل هو فردها الكامل، وهو عنادهم وتماديهم في الكفر بعدما علموا بشأن محمد ـ صلي الله عليه وسلم ـ وتيقّنوا بحقيقة دينه، وأنّه هو النبيء العربيّ المبشّر به في التوراة، ولا ريب في أن هذه الرتبة لم تكن حاصلة لهم قبل ذلك. . .

﴿**ويريدون**﴾: عطف على يشترون شريك له في بيان محل التشنيع والتعجيب. وصيغة المضارع فيهما ـ يشترون ويريدون ـ للدلالة على الاستمرار التجددي، فإن تجدد حكم اشترائهم المذكور وتكرر العمل بموجبه في قوة التجدد نفسه وتكرره، أي: لا يكتفون بضلال أنفسهم بل يريدون بما فعلوا من كتمان نعوت محمد ﷺ ﴿**أن تضلوا**﴾ أنتم أيضا أيّها المؤمنون ﴿**السبيل**﴾ المستقيم الموصل إلى الحق. وجملة. . . ﴿**والله أعلم بأعدائكم**﴾: معترضة، وهي تعريض، فإنّ إرادتهم الضلالة للمؤمنين عن عداوة وحسد. وجملة. . . ﴿**وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيرا**﴾: تذييل لتطمئن نفوس المؤمنين بنصر الله، لأنّ الإخبار عن اليهود بأنّهم يريدون ضلال المسلمين، وأنّهم أعداءٌ للمسلمين من شأنه أن يلقي الروع في قلوب المسلمين، إذ كان اليهود المجاورون للمسلمين ذوي عَدَدٍ وعُدَدٍ، وبيدهم الأموال، وهم مبثوثون في المدينة وما حولها: من بني قينقاع وقريظة والنضير

وخيبر، فعداوتهم وسوء نواياهم ليسا بالأمر الهيّن، فكأن قوله: ﴿**وكفى بالله وليّاً**﴾، مناسبا لقوله: ﴿**يريدون أن تضلوا السبيل**﴾، أي: إذا كانوا مضمرين لكم السوء فالله وليُّكم يهديكم ويتولي أموركم شأن المولى مع مولاه، وكان قوله: وكفى بالله نصيراً، مناسباً لقوله: بأعدائكم، أي: فالله ينصركم.

وفعل ﴿**كفى**﴾ مستعمل في تقوية اتّصاف فاعله بوصفٍ يدلُّ عليه التمييز المذكور بعده، فإنَّ فاعل كفى أجدر من يتصف بذلك الوصف، ولأجل الدلالة على ذلك غلب في الكلام إدخال باء على فاعل فعل كفى، وهي باء زائدة لتوكيد الكفاية، بحيث يحصل إبهام يشوّق السامع إلى معرفة تفصيله فيأتون باسم يميز نوع تلك التَّسميَة ليتمكن المعنى في ذهن السامع. ولا تزاد الباء في فاعل كفى بمعنى أجزأ ولا التي بمعنى وفي؛ فرْقاً بين استعمال كفى المجازي واستعمالها الحقيقي الذي هو معنى الاكتفاء بذات الشيء نحو: كفاني ولم أطلب قليلٌ من المال. وتكرير الفعل في الجملتين: وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً، مع إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار لا سيّما في الثاني لتقوية استقلالهما المناسب للاعتراض وتأكيد كفايته عزّ وجلّ في كل من الولاية والنصرة، والإشعار بعليتهما فإنَّ الألوهية من موجباتهما لا محالة... ﴿**من الذين هادوا**﴾: هذا بيان لقوله:... ﴿**إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب...**﴾

لزيادة الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب، والمسارعة إلى تنفير المؤمنين منهم وتحذيرهم من مخالطتهم والاهتمام بحملهم على الثقة بالله والاكتفاء بولايته ونصرته، وأنَّ قوله تعالى: ﴿**يحرفون**﴾ وما عطف عليه بيان لاشترائهم المذكور، وتفصيل لفنون ضلالاتهم. وقد روعيت في النظم الكريم طريقة التفسير بعد الإبهام، والتفصيل إثر الإجمال، روماً لزيادة تقرير يقتضيه الحال. و﴿**الكلم**﴾ اسم جنس واحده كلمة، وتذكير ضميره ﴿**مواضعه**﴾ باعتبار إفراده لفظاً، وجمعيّة مواضعه باعتبار تعدُّدِهِ مَعْنًي. وقوله من الذين هادوا... الخ تعيين وتحديد لأهل الكتاب المقصودين في هذا الوضع، بأنّهم من الذين هادوا، وبذكر طرفاً من سلوكهم وانحرافهم وسوء أدبهم، وعاقبة هذا كله عليهم، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، فيقولونه في غير معانيه ووجوهه... يقولون: ﴿**سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا**﴾: وقولهم: سمعنا مفهوم، أما قولهم: عصينا فربما كان

المقصود هو تعبير فعلهم لا تعبير لسانهم، فقد كانوا لا يواجهون الرسول ﷺ بهذه الصراحة، ولكنهم يلتوون في القول ويتوقحون في الفعل على عادة اليهود، وقد كانوا يقولون للرسول: اسمع غير مسمع، وظاهرُها: غير مُخلٍّ بالسمع أو غير سامع ما تكره، وباطنُها: فاقد للسمع غير قادر عليه!.

كما كانوا يقولون: راعنا ويقصدون بها لفظة تعادلها في العبرية ذات معنى كريه، وهكذا كانوا يلوون ألسنتهم رغبة في إيذاء الرسول ﷺ وطعنا في دينه، مع تظاهرهم بالأدب في قولهم سمعنا واسمع غير مسمع، وهذا ما يُرجح أنَّ عصينا كانت لسانَ حالهم لا لسان مقالهم في خطاب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ. يحكي السياق عنهم هذا السلوك المنحرف الذميم، ويضع أمامه السلوك اللائق المستقيم... ﴿**ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلا**﴾: بما في طريق الخير والأقوم من الأدب والصراحة والاستقامة ولكنهم لم يفعلوا، لأنّ الله كتب عليهم اللعنة والطرد من الرحمة والبعد عن أسبابها، وذلك بسبب كفرهم: بهذا الغطاء الذي غطُّوا به أبصارهم وبصائرهم عن النور والهداية، وكفروا: فلعنهم الله بسبب هذا الكفر إلاَّ قليلا منهم نجَوْا من هذه اللعنة فكان من نصيبهم الإيمان.

ومن ثمّ يتجه الخطاب إلى أهل الكتاب يدعوهم إلى المسارعة إلى الإيمان قبل أن يحل عليهم عقاب الله المرتقب لمن يصرُّ على الكفر، ذلك أنّ كل ذنب يمكن اغتفاره إلاّ الشرك بالله، هذا الشرك الذي يزاولونه هم، بما يدّعون من أساطير وأكاذيب... ﴿**ياأيّها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً. إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً**﴾: ياأيّها الذين أوتوا الكتاب، ياأيّها الذين أعطوا مصباح الهداية، ياأيّها الذين كان عليهم أن يكونوا أوَّل المؤمنين، ياهؤلاء آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم، وليس غريباً عما ألفتم، وليس بعيداً عما أوتيتم، آمنوا من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها، فطمس الوجوه وتنكير معالمها هو الجزاء المناسب لمن يطمسون الكتاب ويحرفون الكلم عن مواضعه، وهي الصورة التي تتسق مع تلك الصورة في جوها وفي شكلها، ولشناعة هذا

التهديد لم يوجهه إليهم في الخطاب ـ وهو يدعوهم إلى الإيمان ـ بل أطلقه (نطمس وجوهاً) لينطلق إلى من يصر منهم على ماهم فيه (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت)، وقد علم أنّه قيل لهم: (كونوا قردة خاسئين) وليس من الضروري أن يكونوا قد مُسِخُوا قردةً بالفعل، إنّما قد انحطت رتبتهم البشرية في الإدراك والشعور، وهذا الانحطاط يؤثر في السمات والملامح ويطبعها بطابع ملحوظ، فكذلك طمس الوجوه هنا، فإنّه يمكن تحقيقه عن هذا الطريق، فإنّ الإدراك واللماحية والحساسية تطبع ملامح الوجوه بطابع خاص ينطمس فيها حين ترتكس المشاعر وتتجمّد القلوب!..

﴿**وكان أمر الله مفعولا**﴾: فإذا شاء فلا راد لمشيئته ولا معوق لما يريد، ياأيّها الذين أوتوا الكتاب سارعوا إلى الإيمان من قبل أن يتحقق هذا التهديد، إنّ الله لا يتسامح في أن تشركوا به، إنّه قد يعفو عن كل كبيرة في ظل الإيمان، فأما خارج حدود الإيمان فلا غفران: ﴿**إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾، فكل كبيرة مع الإيمان يرجي منها متابٌ وتُرْجي لها مغفرة، أمّا مع الشرك فالصلة بالله مقطوعة والطريق إلى الله مغلق. والشرك جريمة عظيمة، وافتراء على الحق والعقل والفطرة، «ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً». افتراه افتراءً بلا سبب ولا موجب، فالفطرة موصولة بالله لا يصرفها عن الإيمان به إلاّ الافتراء والتزوير. هذا عرْضُ السياق والمقال على وجه الإجمال، وسنفصل فيه بما يقتضيه المقام.

قوله: ﴿**ياأيّها الذين أوتوا الكتاب...**﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له؛ إمّا إلى من حكيت أحوالهم وأقوالهم خاصة بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، فوصفهم تارة بإيتاء الكتاب، أي: التوراة، وأخرى بإيتاء نصيب منها لتوفية كل من المقامين حقه، فإنَّ المقصود فيما سبق بيان أخذهم الضلالة وإزالة ما أتوه بمقابلتها بالتحريف وليس ما أزالوه بذلك كلها حتى يوصفوا بإيتائه، بل هو بعضها فوصفوا بإيتائه، أي: البعض، وهو النصيب من الكتاب، وأما ههنا فالمقصود تأكيد إيجاب الامتثال بالأمر الذي يعقبه التحذير من مخالفته من حيث إنّ الإيمان بالمصدق «آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم» موجب للإيمان بما يصدقه، والكفر بالثاني مقتض للكفر بالأوّل ـ الثاني القرآن والأول التوراة ـ، قطعاً ولا ريب في أنّ

المحذور عندهم إنّما هو لزوم الكفر بالتوراة نفسها لا ببعضها، وذلك إنّما يتحقق بجعل القرآن مصدقاً لكلها. وإمّا إلى من سبق ذكرهم وغيرهم من بقية أهل الكتاب قاطبة ـ وهو الأظهر ـ.

وأيّاً ما كان فتفصيل ما فصل لما كان من مظان إقلاع كل من الفريقين عما كانوا عليه من الضلالة، عقب ذلك بالأمر بالمبادرة إلى سلوك محجّة الهداية مشفوعاً بالوعيد الشديد على المخالفة فقيل: آمنوا بما نزلنا؛ من القرآن عبر عنه بالموصول (ما) تشريفاً له بما في حيّز الصلة (نزّلنا) وتحقيقاً لكونه من عنده عزّ وجلّ. مصدقاً لما معكم: من التوراة عبر عنها بذلك للإيذان بكمال وقوفهم على حقيقة الحال، فإنّ المعيّة المستدعية لدوام تلاوتها وتكرر المراجعة إليها من موجبات العثُور على ما في تضاعيفها المؤدي إلى العلم بكون القرآن مصدقاً لها. من قبل أن نطمس وجوهاً: متعلق بالأمر مفيد للمسارعة إلى الامتثال به، والجد في الانتهاء عن مخالفته بما فيه من الوعيد الشديد الوارد على أبلغ وجه وآكده، حيث لم يعلق وقوع المتوعد به بالمخالفة ولم يصرح بوقوعه عندها تنبيهاً على أنّ ذلك أمر محقق غني عن الإخبار به، وأنّه على شرف الوقوع متوجه نحو المخاطبين. وفي تنكير الوجوه ـ وجوهاً ـ المفيد للتكثير تهويل للخطب. وفي إبهامها ـ فلم تعين إلى أحد ـ لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان.

وجملة قوله: وكان أمر الله مفعولاً، وقوله: إنّ الله لا يغفر أن يشرك به. . . الخ اعتراض تذييلي مقرر لما سبق. ووضع اسم الله موضع الضمير بطريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية ما في الاعتراض من الاستقلال، وهي قاعدة شرعية قانونية يدخل تحت طائلتها من تنطبق عليه، لأنّ الله لا يغفر أن يشرك به، وهو زيادة في تقرير الوعيد، وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ببيان استحالة رد أمر الله، واستحالة المغفرة مع الشرك، وكان من ديدن اليهود أن يفعلوا ما يفعلون من التحريف والتزييف، وبعد ذلك يطمعون في المغفرة، كما قال الله عنهم: «فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا. . .».

وقوله: «ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» من متممات الترغيب في الإيمان وغاية الترهيب من الكفر، وهو مسوق لإظهار كمال عظم جريمة الكفر وامتيازه

عن سائر المعاصي، ببيان استحالة مغفرته وجواز مغفرة بقية المعاصي، وفيه ما فيه من الزجر البليغ عن الكفر والطغيان، والحمل على التوبة والإيمان. ولزيادة تقبيح الإشراك وتفظيع حال من يتصف به إظهار اسم الله في موضع الإضمار في قوله: ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما؛ افترى واختلق مرتكبا إثماً لايقادر قدره، ويُستحقر دونه جميع الآثام فلا تتعلق به المغفرة قطعاً... ﴿**ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم**﴾: تعجيب من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان، والمراد بهم اليهود هنا حيث مدحوا أنفسهم بما ليس فيهم: نحن شعب الله المختار!. وفيه تحذير من إعجاب المرء بنفسه وبعمله...

﴿**بل الله يزكي من يشاء**﴾: عطف على مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل: هم لا يزكونها في الحقيقة لكذبهم وبطلان اعتقادهم، بل الله يزكي من يشاء تزكيته ممن يستأْهلُها من المرتضين من عباده المؤمنين، إذ هو العليم الخبير بما ينطوي عليه البشر من المحاسن والمساوي. وقد وصف الله اليهود بما هم متصفون به من القبائح فكيف يزكون أنفسهم؟!.. ﴿**ولا يظلمون فتيلا**﴾: عطف على جملة قد حذفت تعويلاً على دلالة المقام عليها، وإيذاناً بأنّها غنية عن الذكر، أي: يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب. فتيلاً أي: أدنى ظلم وأصْغره. ومعنى بل في قوله: بل الله يزكي، للإضراب الإبطالي، وهو تصريح بإبطال تزكيتهم وأنّ الذين زكوا أنفسهم لا حظ لهم في تزكية الله، وأنّهم ليسوا ممن يشاء الله تزكيته، ولو لم يذكر بل فقيل: والله يزكي من يشاء لكان لهم مطمع أن يكونوا ممن زكاه الله تعالى. ونعلم من هذا السياق بأنّ الله أبطل معتقد اليهود بإثبات ضده، وهو أن التزكية شهادة من الله ولا ينفع أحداً أن يُزكّي نفسه!.

وقوله... ﴿**انظر كيف يفترون على الله الكذب**﴾: جعل افتراؤُهم الكذبَ لشدة تحقق وقوعه كأنّه أمر مرئي ينظره الناس بأعينهم، وإنّما هو مما يُسمع ويُعقل، وكلمة... ﴿**وكفى به إثماً مبيناً**﴾: نهاية في بلوغه غاية الإثم كما يؤذن به تركيب ـ كفى به كذا ـ!. وفي هذا تنبيه على أنّ ما ارتكبوه متضمن لأمريْن عظيمين موجبين للتعجيب: ادّعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بضده ونقيضه، وافتراؤهم على الله تعالى، فإنّ ادّعاءَهم ما ادعوا من تزكية نفوسهم عند الله متضمن لادعائهم قبول الله وارتضاءه إيّاهم، تعالى عن ذلك علواً كبيراً!. ولكون

هذا أشنع من الأول جرماً وأعظم قُبْحاً لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما يستحيل عليه بالكلية من قبول الكفر وارتضائه لعباده، ومغفرة كفر الكافر وسائر معاصيه. . . ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا**﴾: أعيد التعجيب من اليهود ـ الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ـ بما هو أعجب من حالهم التي مرَّ ذِكْرُها في قوله: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة، فإنّ إيمانهم بالجبت والطاغوت وتصويبهم للمشركين تَبَاعُدٌ مِنْهُم عَنْ أصُول شريعة التوراة التي يدّعون الإيمان بها بمراحل شاسعة.

وقوله. . . يؤمنون بالجبت والطاغوت: استئناف مبيّن لمادة التعجب، ومتى قيل عن الجملة هي استئناف مبيّن، فمعناه أنّه يحسن فيه الفصل دون الوصل، وهو هنا مبنيّ على سؤال ينساق إليه الكلام كأنّه قيل: ماذا يفعلون حين ينظر إليهم؟. فقيل: يؤمنون. . . الخ. وكلمة الجبت هنا كلمة معبرة لها مغزاها المقصود، وهذه العبارة ـ الجبت ـ هي الأُولَى والأخيرة في القرآن؛ لأنّها كلمة تعطي أشنع ما يفهم الإنسان من القبائح، فأطلقت على عمل قوم أسوأ ما عُرِفَ في التاريخ من قبائح الأفعال وخسائس الأقوال!. لأنّهم يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً!.

وهم بقولهم هذا دخلوا في زمرة المشركين الذين يؤمنون هذا الإيمان الوسخ الخسيس الذليل التعيس. وماداموا يقفون في صف الذين كفروا ضد الذين آمنوا، فقد ارتضوا شريعة هؤلاء الكفّار وضلالاتهم ومعتقداتهم وخرافاتهم، وآثروها على شريعة المسلمين وعقيدتهم، وهو عجيب ومستنكر ومرذول!. ومن ثَمَّ يبادرُهم باللعنة ويكشف لهم عن سوء المصير. وعبارة الذين آمنوا في قولهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا لم تكن مقولة اليهود، لأنّ اليهود قالوا ـ على حسب ما جاء في السيرة ـ: أنتم خير من محمد، ودينكم أحسن من دينه!. وإنّما جاءت من الله تعالى تعريفاً لهم بالوصف الجميل، وتخطئة لليهود الذين رجّحوا عليهم المشركين المتصفين بأقبح الأوصاف. . . ﴿**أولئك**﴾ إشارة إلى القائلين، وما فيه من معنى البعد مع قربهم في المكان والذكر؛ للإشعار ببعد منزلتهم في الضلال. والجملة مستأنفة لبيان حالهم وإظهار مصيرِهم ومآلِهم.

وقوله. . . ﴿**ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً**﴾: فيه تنصيص على حرمانهم مما طلبوا من قريش. وفي كلمة (لن) وتوجيه الخطاب إلى كل أحد ممن يتسنّي له الخطاب، وتوحيد النصير منكَّراً (نصيراً)، والتعبير عن عدمه بعدم الوجدان المُنْبِئِ عن سبق الطلب مسنداً إلى المخاطب العام ـ فلن تجد له نصيراً ـ من الدلالة على حرمانهم الأبدي بالكلية ما لا يخفي. وفيه كذلك تعليل الحكم بأنّهم لا نصير لهم، لأنّهم لعنهم الله، والذي يلعنه لا نصير له. وهذا مقابل قوله في شأن المسلمين: ﴿**والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً. . .**﴾

﴿**أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً**﴾: هذا شروع في تفصيل بعضٍ آخَرَ من قبائح اليهود. (أم) للإضراب الانتقالي، وهي تؤذن بهمزة استفهام محذوفة بعدها، أي: بل ألهم نصيب من الملك فلا يؤتون الناس نقيراً، والاستفهام إنكاري حكْمُهُ حُكْمُ النفي. والعطف بالفاء على جملة (لهم نصيب) وكذلك إذنْ هي جزاء لجملة (لهم نصيب). واعتبر الاستفهام داخلاً على مجموع الجملة وجزائها معاً، لأنّهم ينتفي إعطاؤهم الناس نقيراً على تقدير ثبوت الملك لهم لا على انتفائه. وهذا الكلام تهكم عليهم في انتظارهم أن يرجع إليهم ملك إسرائيل، وتسجيل عليهم بالبخل الذي لا يؤاتي من يرجون الملك، وشُحُّ اليهود وبخلهم معروف!. وهذا هو البيان الكاشف عن كنه حالهم، وإذا كان شأنهم وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاءُ متفَاقِرُونَ. وفائدةُ إذَنْ تأكيد الإنكار والتوبيخ، فليس لوعد اليهود الذي يَعِدُون به قريشاً وغيرَهم من المشركين وَزْنٌ ولا قيمة ولا أثر، فهم لا يملكون من الأمر شيْئاً حتى يُعْطوا مَنْ يشاءون ويحرموا من يشاءون. ولو ملكوا لحرموا الناس من أتفه الأشياء، لما ركب في طبيعتهم من بخل وما ركز في فطرتهم من كزازة. . .

﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**﴾: هذا تعقيب لما سبق من قوله: أم لهم، والاستفهام المقدر بعد ﴿**أم**﴾ هذه إنكار على حسدهم وليس مفيداً لنفي الحسد، لأنّه واقع؛ فإنّ اليهود كانوا يطمعون أن يكون النبيء الموعود منهم، فلما خص الله تعالى بتلك الكرامة غيرَهُم حسدوهم. وقوله. . . ﴿**فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً**﴾: تعليل للإنكار والاستقباح وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم، وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم المَبْنِيَّيْنِ على تَوَهُّمِ

عَدَمِ استحقاق المحسود لما أُوتِيَ من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابراً عن كابرٍ. وإجراء الكلام على سنن الكبرياء (فقد آتينا) بطريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم؛ لإظهار كمال العناية بالأمر، والمعنى أنَّ حسدهم المذكور في غاية القبح والبطلان فإنَّا قد آتينا من قبل هذا (آل إبراهيم) الذين هم أسلاف محمد ﷺ الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً لا يُقادَرُ قدْرُه، فكيف يستبعدون نبوءة محمد ﷺ ويحسدونه على إيتائها.

وفي تفصيل ما أوتوه وتكرير الفعل ووصف الملك بالعظيم وتنكيره التفخيمي من تأكيد الإلزام وتشديد الإنكار ما لا يخفي. وقوله... ﴿**فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه**﴾: حكاية لما صدر من أسلاف اليهود، وهذا تسلية للرسول ﷺ عما حصل من اليهود من كفرهم.

وقوله... ﴿**وكفى بجهنم سعيراً**﴾: تهديد ووعيد للذين يؤمنون بالجبت والطاغوت، هؤلاء اليهود الملاعين السابقين منهم واللاحقين!.. ﴿**إنّ الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً**﴾: هذا تهديد ووعيد لجميع الكافرين، فهي أعمُّ مما قبلها فلها حكم التذييل ولذلك فصلت، وهي دليل على استحقاق اليهود ما ذكر من عذاب السعير الذي سيصلونه، مثل كلِّ الكافرين. وقوله... ﴿**كلّما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها**﴾: إنّه مشهد لا يكاد ينتهي، مشهد شاخص يتكرر، يشخص له الخيال ولا ينصرف عنه حتى لو أراد، فللهول جاذبية تُشد إليه النفوس والأبصار.

والسياق يرسم ذلك المشهد دائماً متكرراً بلفظ واحد (كلما) ويرسمه كذلك عنيفاً مفزعاً بجملة قصيرة (نضجت جلودهم) ويرسمه خارقاً مفاجئاً بجملة قصيرة أخرى (بدلناهم جلوداً غيرها). ويجمل التعبير كله في جملة شرطية واحدة (كلما نضجت... الخ) ترسم المشهد المخيف العنيف، ذلك جزاء الكفر!. وقوله... ﴿**ليذوقوا العذاب**﴾: تعليل لقوله: (بدلناهم) لأنّ الجلد هو الذي يوصل إحساس العذاب إلى النفس بحسب عادة سنة خلق الله تعالى. وقوله... ﴿**إنّ الله كان عزيزاً حكيماً**﴾: واقع موقع التعليل لما قبله، فالعزة يتأتى بها تمام القدرة على عقوبة المجترئ على الله، والحكمة يتأتى بها تلك الكيفية في إصلائهم النار. وإظهار الاسم الجليل (إنّ الله) بطريق الالتفات من التكلم إلى الغيبة لتهويل الأمر

وتربية المهابة وتعليل الحكم، فإنّ عنوان الألوهية مناط لجميع صفات كماله ـ سبحانه وتعالى ـ. . .

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾: جاء هذا الكلام لما فيه من نكتة المقابلة حيث ذُكِر عقِبَ بيان سوء حال الكفرة ببيان حسن حال المؤمنين تكميلاً لمساءة الكافرين لما يرونه من مسرّة المؤمنين، ففي مقابل السعير المتأجج، وفي مقابل مشهد النار والجلود المنضجة المبدلة كلما نضجت ـ ليعود الألم من جديد، ويعود الإنضاج من جديد، ويعود تذوق العذاب من جديد ـ في مقابل هذا المشهد الملهوف، نجد (ظلاً ظليلاً) يتفيّأه الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات ندية تجرى من تحتها الأنهار، ونجد في المشهد دواماً وثباتاً **﴿خالدين فيها أبداً﴾**، ولكنه دوام وثبات من نوع آخر، آمنٍ مطمئنٍ مستروح في الظلال الظليلة، ومستروح كذلك بظلال أخرى **﴿أزواج مطهرة﴾**. وتجيء لفظة **﴿مطهرة﴾** لتغشي جو المتاع بالشفافية الرائقة وتَنْفيه من الحسّ الغليظ، وتنسّق بينه وبين الظل الظليل في ذلك المشهد الندي الوريف الجميل!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: يلفت فيه نظر المخاطب إلى ما يفعل اليهود من العجائب والغرائب. . . **﴿ألم تر إلى الذين. . .﴾** الخ: ألم تر إلى هؤلاء ـ وما أَعْجب أمْرَهُم وأجدرَه بالالتفات والاهتمام والاعتبار ـ؛ إنّهم أُعطوا نصيباً من الكتاب ـ وهو التوراة، فالمقصود غالباً بهذا التعجيب هنا هم اليهود ـ والتوراة جزء من كتاب الله الخالد، الكتاب الذي أعطي الرسل منه أجزاء بحسب حاجة العصر، ثم كملت كلها في الرسالة الأخيرة في هذا القرآن. أعطوا هذا النصيب، وكان المنتظر أن يحصلوا منه على الهدى، ولكنهم راحوا يشترون الضلالة وفي أيديهم الهدى!. راحوا يشترونها عَمْداً وقصداً، فهم لا يَضِلُّون عَنْ خَطإٍ ولا عن جهل، إنّما يضلون عن نية وعمد؛ كمن يشترى وهو يريد ما يشتريه!. وهم لا يشترون الضلالة لأنفسهم فحسب، إنّما يريدون كذلك **﴿أن تضلوا السبيل﴾**؛ السبيل المستقيم الواصل الذي تسلكونه، فهو السبيل الحق والصراط المستقيم؛ صراط الله، وهو ما جاء به محمد رسول الله. ثم يصف هؤلاء المضللين بوصفهم الذي

يستحقه عملُهم، وهو أنّهم أعداء للمؤمنين، ويُثبّت قلوب المؤمنين ويطمئنهم من أعدائهم هؤلاء، فهو أعلم منهم بأعدائهم، وهو ناصرهم ووليُّهم، فلن يصيبهم منهم أذىً ﴿**وكفي بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً**﴾.

ثم يُعيّن ويحدّد أهل الكتاب المقصودين في هذا الموضع بأنّهم ﴿**من الذين هادوا**﴾، ويذكر طرفاً من سلوكهم وسوء أدبهم وعاقبة هذا كله عليهم، فهم ﴿**يحرفون الكلم عن مواضعه**﴾ فيقولونه في غير معانيه ووجوهه، ﴿**ويقولون: سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا**﴾. وقولهم: سمعنا مفهوم، أما قولهم: عصينا، فربما كان المقصود هو تعبير فعلهم لا تعبير لسانهم. يحكي السياق عنهم هذا السلوك المنحرف الذميم ويضعه أمام السلوك المستقيم: ﴿**ولو أنّهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً**﴾، وقد تقدم هذا عند الكلام على الأسلوب البلاغي.

التوجيه الثاني: يأمر فيه أهل الكتاب بالإسراع إلى الإيمان قبل فوات الأوان... ﴿**يا أيُّها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنَّا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً**﴾: النداء موجّه هنا لليهود والنصارى بأن يؤمنوا بالكتاب الذي نزّله الله تعالى على محمد ﷺ الموافق في الأحكام لما في التوراة والإنجيل من تقرير التوحيد والابتعاد عن الشرك، وما يقوّي ذلك الإيمان من ترك الفواحش ماظهر منها ومابطن، وتلك هي أصول الدين وأركانه، والمقصد الأسْمَي من إرسال جميع الرسل. والقرآن قرّر نبوءة كثيرٍ من الأنبئاء كداوود وسليمان وموسى وعيسى، وفيما جاءوا به من عند الله؛ ومحمد ﷺ رسول مثلهم جاء بالهدى ودين الحق.

والقرآن وبّخ المدّعين اتّباعهم على إضاعتهم بعض ما جاء به الأنبئاء جميعاً، وتحريف بعضه الآخر، وعلى عدم الاهتداء والعمل بما هو محفوظ عندهم، حتى إنّ أكثرهم هدّموا الأُسس التي جاء بها الأنبياء، ومن أعظمها التوحيد فاتخذوا أحبارَهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلها واحداً. والمراد بطمس الوجوه وردها على أدبارها فشلهم في كيد الإسلام ومحاولتهم تشكيك الناس فيه، وردهم خاسرين محرومين من الخير الذي بإمكانهم الحصول عليه بدخولهم في الإسلام، بانتصار المسلمين عليهم، وإظهار الإسلام

رغم محاولتهم هزيمة المسلمين وطمس الإسلام؛ والجزاء من جنس العمل.

وهذا إنذار بالهلاك، وقد حصل هذا يوم واجهَهُم المسلمون بقوة السلاح حين لم تنفع الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الفوز والفلاح، أو تحيق بهم اللعنة الأبدية كما أحيطت بأصحاب السبت الذين أصبحوا سبَّةَ التاريخ ولعنة الأبد «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين. فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين». والمراد من الأمر في قوله: وكان أمر الله مفعولاً الأمر التكويني المعبر عنه «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»، فأمر الله نافذ لا محالة، فلا راد لحكمه ولا ناقض لأمره. ولزيادة البيان والإيضاح يجعل الله قاعدة عامّة يدخل فيها كل ما ينطبق عليه من الأحكام: **﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾**، فيدخل تحت هذه القاعدة كلُّ مَنْ أعرض وعاند وابتعد عن مثابةِ وأمنِ الإسلام من اليهود والنصارى المعاصرين لرسول الله محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

والشرك بالله نوعان: شرك في الألوهية: وهو الشعور بسلطة وراء الأسباب والسنن الكونية لغير الله تعالى، وشرك في الربوبية: وهو الأخذ بشيء من الأحكام بالتحليل والتحريم عن بعض البشر دون الوحْيِ، وهذا ما أشار إليه القرآن «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله»، وقد فسّر النبيء ﷺ اتخاذهم أرباباً بطاعتهم واتّباعهم في أحكام الحلال والحرام. وفي هذه الآية بيان وتوضيح لما عليه أهل الكتاب من الشرك الذي لا يُغفر، ودعواهم أنّهم مُنْتَمُونَ إلى الكتب والأنبئاء افتراءٌ واختلاقٌ وكذبٌ وبهتانٌ وإثمٌ عظيمٌ لا يساويه شيء من العصيان!. والحكمة في عدم مغفرة الشرك أنّ الدّين إنّما شرع لتزكية النفوس وتطهير الأرواح وترقية العقول، والشرك ينافي كل هذا، لأنّها منتهى ما تهبط إليه العقول، ومنه تتولد سائر الرذائل التي تفسد الأفراد والجماعات فيه، يرفعون مَنْ دونهم أو من هم مثلهم، إلى مرتبة التقديس والخضوع لهم، باعتبار أنّ السلطة العليا بأيديهم، وأنّ إرضاءَهم وطاعَتهم هو إرضاءٌ لله وطاعة له «ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى. . .».

وبالتوحيد يعتق المرء من رق العبودية لأحد من البشر أو لشيء من الأشياء

السماوية أو الأرضية، ويكون حرّاً كريماً لا يخضع إلاّ لله الذي خضعت لسنّته الكائنات، بما أقامه من ربط الأسباب بالمسببات. والخلاصة: أنّ أرواح المؤمنين تكون راقية لا تهبط بها الذنوب إلى الحضيض الذي تهوى إليه أرواح المشركين؛ إذْ مهما عمل المشرك من عمل فإنّ روحه تبقى مظلمة بالعبودية والخضوع لغير الله؛ ومهما أذنب الموحدون فإنّ ذنوبهم لا تحبط بأرواحهم؛ إذْ خيرُهم يغلب شرّهم، ولا يبعد بهم الأمد وهم في غفلة عن ربهم، كما قال عز وجل: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم...»، فهم يسرعون إلى التوبة ويتبعون السيئة بالحسنة حتى يذهب أثرها من النفس، وذلك هو غفرانها. وقصارى ذلك أنّ الشرك لإفساد النفوس يترتب عليه العقاب حتماً في الدنيا والآخرة ـ كما هو مقرر في الشريعة ـ، وما عداه لايصل إلى درجته في إفساد النفوس، فمغفرته ممكنة تتعلق بها المشيئة الإلهية، فمنه ما يكون تأثيره السيّئ في النفوس قويّاً، ومنه ما يكون ضعيفاً يغفر بالتأثير بصالح العمل.

التوجيه الثالث: يلفت الأنظار مرة أخرى إلى ما يدعيه أهل الكتاب من أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنّهم من سلالة مقدسة لا يضرها شيء ولا يستطيع أن ينقص من شرفهم أحد!. ﴿**ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم...**﴾؟.. ألم تنظر إليهم؟ فانظر لتتعجب، وانظر لتستغرِب، وانظر لترى ما ترى من الذين يدّعون أنّهم أَطْهارٌ أزكياء وشرفاء فضلاء، بررة عند الله، وسادة عند الناس مع ما هم عليه من الكفر وعظيم الذنب والشرك، وهو الظلم العظيم!، زعماً منهم أنّ الله يكفّر عنهم ويغفر لهم ذنوبهم التي عملوها، ناسين تلك القاعدة التي ابتني عليها حكم الله في دينه: ﴿**إنّ الله لا يغفر أن يشرك به...**﴾!.

وتزكية النفس تارة تكون بالعمل الذي يجعلها زاكية طاهرة كثيرة الخير والبركة بتنمية فضائلها وكمالاتها، ولا يكون ذلك إلاّ بالابتعاد عن الشرور والآثام التي تعوقها عن الخير، وهذه التزكية محمودة، وهي التي عناها الله سبحانه وتعالى بقوله: «قد أفلح من زكّاها»!. وتارة تكون بالقول بادّعاء الكمال والتزكية الكاذبة، وقد اتفق العقلاءُ على استهجان تزكية المرء نفسَه بالقول ولو حقّاً، ومصدر هذه التزكية الجهلُ والغرور، ومن آثاره السيّئة الاستكبار عن قبول الحق والانتفاع بالنصح. والدليل عل أنّ الآية تعني اليهود والنصارى حيث قالوا: «نحن أبناء الله

وأحباؤه»، وقالوا: «لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى»، وقالت اليهود: «لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة»، وقد ردّ الله عليهم هذه الدعاوى الكاذبة بقوله: ﴿**بل الله يزكّي من يشاء**﴾، فلا عبرة بتزكيتكم أنفسكم بأن تقولوا: نحن أبناء الله وأحباؤُه، وبأنّكم لا تعذبون في النار، لأنّكم شعب الله المختار، وتتفاخروا بنسبكم وبدينكم، بل الله يزكي من يشاء من عباده، من أيّ شعب كان، ومن أيّ قبيلة كانت، فيهديهم إلى صحيح العقائد وفاضل الآداب وصالح الأعمال، ﴿**ولا يظلمون فتيلاً**﴾: فلا محيص من الجزاء على العمل خيراً أوْ شراً «قل: فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممّن خلق»؟!، «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره».

ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وقد حصل لليهود والنصارى من الخذلان والخزي والهزيمة والقهر ـ حيث عاشوا عصوراً طويلة تحت الذمة والجزية يؤدونها لغيرهم عن يد وهم صاغرون، هذا ما حصل في الدنيا، وأمّا في الآخرة فلِمَا ينَالُونه من العذاب الأليم، والحرمان من التواب والنعيم المقيم ـ، وما كان هذا بظلم من الله عزّ اسمه، بل كان بنقصان درجات أعمالهم وعجزها عن الصعود بأرواحهم إلى مستوى الرفعة والكرامة، لتزكيتهم إيّاها بالقول الباطل دون الفعل، فلم تصل بهم نفوسهم إلى مراتب الفوز والفلاح. وفي هذا تحذير للمسلمين بأن لا يغتروا بقولهم نحن من أمّة محمد المغفور لها، وأنّه سيشفع فينا ولا يرضى بعذابنا؛ لأنّنا منه وإليه، كما كان أهل الكتاب يقولون هذا الكلام، فليعلم المسلمون العلم اليقين بأنّ الله لا يحابي في نُظُم الخليقة ـ السنن ـ أحداً، لا مسلماً ولا يهودياً ولا نصرانياً، وأن يهتدوا بكتابِ الله وبسنّته في الأمم، وأن يتركوا وساوس الدجالين الذين يصرفونهم عن الاهتداء بهدى كتابهم، ويشغلونهم بمالم ينزّل الله به عليهم سلطاناً، فإنّه ما زال مُلْكُهُمْ وما ذَهَب عِزُّهم إلاّ بتركهم لهدى دينهم، واتباعهم لأولئك الدّجالين والمشعوذين، وسلّط الله عليهم أحقر الأمم وأجهل الخلائق مثل التتر والتركمان والصليبيين وأخيراً اليهود الملاعين، الذين عاثوا في الأرض فساداً، فشرّدوا ونهبوا وسلبوا «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون».

ومتى يرجع المسلمون وهم في غيّهم يعمهون، ما لهم إلاّ ملء البطون، واتباعهم كل معتوه ومجنون؟!. والله يهدينا ويأخذ بأيدينا وينصرنا على أعادينا!.

ثم أكّد التعجيب من حالهم الذي فُهم من الآية السابقة فقال. . . ﴿**انظر كيف يفترون على الله الكذب**﴾: انظر كيف يكذبون على الله بتزكية أنفسهم وزعمهم أنّ الله يعاملهم معاملةً خاصةً بهم، لا كما يعامل سائر عباده. . . ﴿**وكفى به إثماً مبيناً**﴾: إنّ تزكية النفس والغرور بالدّين والجنس، مما يُبَطِّئُ عن نافع العمل الذي يُتاب عليه الناس، وكفى بهذا إثماً ظاهراً، لأنّه لا أثر له من حق ولا سمة عليه من صواب، فالله لا يعامل شعباً معاملة خاصةً تُغَاير سنّتَه التي وضعها في الخليقة، وما مصدر هذه الدعوى إلاّ الغرور والجهل، وكفى بذلك شرّاً مستطيراً!.

التوجيه الرابع: يظهر الله فيه فعلاً أغربَ من الغريب وقولاً أعجبَ من العجيب حيث فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا أمام كل ناظر دون حياء ولا خوف. . . ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً**﴾: لينظر إلى هؤلاء اليهود الذين يدّعون أنّهم أهلُ دين وكتاب، وأقرب المقربين إلى الله ـ كل من يريد أن ينظر ـ كيف فعلوا من القبائح والمآثم والمناكر والمآسي فلينظر: ﴿**يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾!. إن كلمة الجبت هنا غريبة في لفظها عند العرب وقبيحة في معناها، وموحشة في مغزاها. الجبت الرجس والوسخ والدنس وكل شيء يشوّه ويدنس ويردى حتى يغرق في الوحل والخبث، فلا يمكن أن ينقذ نفسه منها، ولا يستطيع أحد أن يقرب منه ليخلصه، لنتن الرائحة وقبح المنظر، والخوف من الوقوع في هذا المُسْتَنْقَعِ المكفهر!.

والطاغوت الذي آمن به اليهود قوة المال وقوة الجاه وبروز العضلات والجباه، ليؤمن اليهود بالقوة المادية التي بين أعينهم!. فهم عبيد الجبابرة. وماذا قالوا؟ ولماذا يقولون؟!. . ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا: يالها من قولة منكَرة وضيعة جاءت بعد فعلة رذيلة شنيعة!. ومتى كان هذا الفعل والقول؟. ومع من كان هذا الفعل والقول؟. وما سبب هذا الفعل والقول؟. أجمع المفسرون وعلماء السيرة النبوية على أنّ هذا الفعل والقول حصل عندما خرج كعب بن الأشرف وحُيَي بن الأخطب في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أُحُدٍ؛ ليحالفوا قريشاً على رسول الله ﷺ ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فنزل كعب على أبي سفيان والآخرون في دُور قريش، فقال

لهم أهل مكة: إنّكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما، فذلك قوله: يؤمنون بالجبت والطاغوت، ثم قال كعب لأهل مكة: ليجيء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب البيت، لنجهدن على قتال محمد ﷺ ففعلوا ذلك، فلما فرغوا قال أبوسفيان لكعب: إنّك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميّون لا نعلم، فأيُّنا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق، أنحن أم محمد؟! فقال كعب: أعرضوا عليَّ دينكم، فقال أبوسفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمّر بيت ربنا ونطوف به، ونحن أهل الحرم.

ومحمد فارق دين آبائه، وقطع الرحم، وفارق الحرَم، ودينُنا القديمُ ودينُ محمد الحديث!. فقال كعب: أنتم واللهِ أهدى سبيلاً مما هو عليه، فأنزل الله تعالى: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب»، يعني كعباً وأصحابَه، فلما رجع كعب وحيي إلى قومهما قال لهما قومهما: إنّ محمداً يزعم أنه قد نزل فيكما كذا وكذا، قال: صدق، ما حَمَلنا على ذلك إلا بغضُه وحسدُه. هذا سبب فعلهم وقولهم، وعلّتُه الداء المتأصّل في قلوب اليهود؛ اللعنة التي حلّت بهم ووصمتهم بوصمة العار، التي علقت بهم على مدار التاريخ «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. . .».

﴿**أولئك الذين لعنهم الله**﴾: إذ جعلوا من هو أضلُّ من النعام، وأجهل من الأنعام، حيث رضوا بعبودية الأصنام، أهدى سبيلا وأفضل حالا من الذين هم أشرف الأنام، باختيارهم دين الإسلام، الذي هو عبادة ذي الجلال والإكرام!.. ﴿**ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً**﴾: وعيد لهم بلزوم الإبعاد والطرد ولصوق العارِ والصغار، ووعْد لنبيئه والمؤمنين بالاستيلاء والاستعلاء عليهم إلى يوم القيامة. ثم انتقل من توبيخهم على الإيمان بالجبت والطاغوت وتفضيلهم المشركين على المؤمنين، إلى توبيخهم على البخل والأَثَرَة وطمعهم في أن يعود إليهم الملك في آخر الزمان!.. ﴿**أم لهم نصيب من الملك**﴾؟: فهم لا حظ لهم من الملك؛ إذ هم فقدوه بظلمهم وطغيانهم وإيمانهم بالجِبْتِ والطاغوت... ﴿**فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً**﴾: لأنّه لو كان لهم نصيب من الملك لاتّبعوا طريق البخل

والأَثَرة، وحصروا منافعه في أنفسهم، فلا يعطون الناس منه نقيراً. والخلاصة: إنّ اليهود ذووا أَثَرة وشحّ يشُقُّ عليهم أن ينتفع منهم غيرَ اليهودي، فإذا صار لهم مُلك حرصوا على منع الناس أدنى النفع وأحقره، ومَنْ كانت هذه حالَه حرص أشدّ الحرص على ألاّ يظهر نبيّ من العرب يكون لأصحابه مُلْكٌ يخضع لهم فيه بنو إسرائيل.

ولقد ضعفت الآن دول المسلمين وانهزمت أمام إسرائيل، وتحققت نبوءة القرآن عندما أشار إلى هذا في معرض الكلام على اليهود!. وقد تمسك اليهود عندما تراآي لهم هذا الأمل من النصيب الضئيل!؛ من الحكم بما حصل عليه من أمم العالم من القوة الماديّة والمعنويّة، وأذاقوا الناس المقيمين في فلسطين والأردن وسوريا ولبنان أشدَّ أنواع العذاب، من التقتيل والتشريد والسجن والتقييد والتهديد. ومع هذا البخل والشحّ وكَسَاحَةِ الطبع وخساسة النفس وضيق الأفق، عندما يرون غيرَهم قد ظهر وانتصر بما غلب على طبعهم من الحسد وكراهية الخير للغير...

﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾: فهؤلاء اليهود يريدون أن يضيق فضل الله بعباده، ولا يُحِبّون أن يكون لأمّةٍ فضلٌ أكثرُ ممّا لهم أو مثله، لما استحوذ عليهم من الغرور بنسبهم وتقاليدهم مع سوء حالهم!. وهم قد رأوا محمداً ﷺ بعد أن أعطي النبوءة، جعله الله كلَّ يوم أقوى دولة وأعظم شوكة وأكثر أعواناً وأنصاراً، من أجل هذا حسدوه حسداً عظيماً، وهذا الحسد ليس له مُبرّر، وليس ببدع أن يُؤْتَي محمد الكتاب والحكم والنصر والظهور على الأعداء **﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم مُلْكاً عظيماً﴾**، والعرب من آل إبراهيم فإنّهم من ذرية ولده إسماعيل، فلِمَ لَمْ يعجب اليهود ممّا أوتي آل إبراهيم ويعجبون مما أوتي محمد ﷺ وَلِمَ لا يكون مستبعداً في حقّ هؤلاء، ومستبعد في حق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟!.

والخلاصة: أن اليهود إمّا مغرورون مخدوعون، يظنون أنّ فضل الله لا يعدوهم، ورحمته تضيق بغيرهم، وإمّا حاسبون أنّ ملك الكون في أيديهم فهم لا يعطون أحداً منه ولو حقيراً كالنقير، وإمّا حاسدون للعرب على ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك الذي ظهرت مبادئه ومقدماته... **﴿فمنهم من آمن به**

ومنهم من صد عنه﴾: إنّ أولئك الأنبئاء بما اختصوا به من النبوءة والملك لم تؤمن أممهم جميعاً بهم بل منهم من آمن بهم، ومنهم من بقي على كفره، فلا تعجب أيُّها الرسول ممّا عليه من عاصرك من أهل الكتاب والمشركين، فإنّ هذا حال جميع الأمم مع أنبئائهم... **﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾**: إن انصرف عنهم بعض العذاب في الدنيا، فلم يؤخذوا مثل ما أخذت الأمم قبلهم، فكفاهم ما أُعِدَّ لهم من سعير جهنم في العقبي!..

﴿إنّ الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إنّ الله كان عزيزاً حكيماً﴾: لمّا كان اليهود من الذين كذبوا بالرسل وبما جاءوا به من عند الله، فقد دخلوا في جملة المكذبين بآيات الله الدالة على صدق الرسل، وفي مقدمتهم محمد ﷺ وكلّ من كذّب فقد كفر بآيات الله، والله سبحانه قد أعد لمن جحد بآياته التي أنزلها على أنبئائه ناراً مسعرة، تشويهم وتحرق أجسامهم، مؤلمة تنضج بها جلودهم دون انقطاع ولا تخفيف... كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرَها: أي: كلما فقدت التماسك الحيوي وبعدت عن الحس والحياة، بدّلها جلوداً أخرى حيَّة تشعر بالألم وتحسُّ بالعذاب... ليذوقوا العذاب: وفي هذا إزالة لوهم ربّما يعرض لبعض الناس قياساً على ما يعهدون في أنفسهم في الدنيا، من أنّ الذي يتعوّد الألم يقلُّ شعوره به، ويصير عادياً عنده، كما يشاهد في كثير من الآلام والأمراض التي يطول أمدها...

إنّ الله كان عزيزاً حكيماً: إنّه تعالى عزيز قادر لا يمتنع عليه شيء مما توعّد به من العذاب، أو وعد من الثواب، حكيم يعاقب من يعاقبه وفق الحكمة، ومن حكمته أن ربط الأسباب بالمسببات، فلا يستطيع أحد أن يغلبه على أمره فيُبطل اطرادها، فهو كما جعل الكفر والمعاصي سبباً للعذاب، جعل الإيمان والعمل الصالحَ سبباً للنعيم والثواب، وذلك ما بينه بقوله... **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾**: إنّ الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله سيدخلون جنات يتمتعون بنعيمها العظيم، كفاءَ ما أخبتوا إلى ربّهم وقدّموا من عمل صالح؛ لأنّ الإيمان وحده لا يكفي، ولتزكية النفس وإعدادها لهذا الجزاء، بل لابدّ معه من عمل صالح يشعر به المرءُ بالقرب

من ربّه، والشعور بهيبته وجلال سلطانه... **﴿لهم فيها أزواج مطهرة﴾**: لهم أزواج مبرّآت من العيوب الجسمانية والعيوب الخلقية، فليس فيهن ما يوحشهم منهن ولا ما يكدّر صفوهم، وبهذا تكمل سعادتهم ويتمُّ سرورُهم في تلك الحياة التي لانعرف كنهها، وإنّما نفهمها على طريق التمثيل وقياس الغائب على الشاهد... **﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾**: ونجعلهم في مكان لا حرّ فيه ولا قرّ!. وفي ذلك إيماء إلى تمام النعمة والتمتع برغد العيش وكمال الرفاهية!. ربنا أتم علينا نعمتك، وافتح لنا أبواب رحمتك، وقنا شرّ عدوّنا!.

3 ـ عدل الراعي وطاعة الرعية في الأحكام هي السياسة العامة للحكومة في الإسلام

النص

۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا
الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ
إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (57)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ
فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (58)
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا
إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ۖ وَيُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (59) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا
إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ
يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (60) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا
إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (61) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ

قَوْلًا بَلِيغًا ﴿62﴾ ۞ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ
بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ
جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿63﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿64﴾
وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن
دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ
بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿65﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم
مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿66﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿67﴾
وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ
وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿68﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿69﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**يأمركم**﴾: كلمة صريحة في الأمر والوجوب، والخطاب لكل من يصلح لتلقي هذا الخطاب والعمل به، من كل مؤتمن على شيء. والأداء حقيقة في تسليم ذات الشيء، يقال: أدّي إليه كذا، أي: دفعه وسلّمه، ومنه أداءُ الدَّيْنِ.

والأمانة: الشيء الذي يجعله صاحبه عند شخص ليحفَظَهُ إلى أن يطلبه منه. وأهل الأمانة: هم مستحقوها. والحكم بين الناس: هو الفصل بين المتخاصمين والمتنازعين، وهو مصدر حكم بين كذا بكذا، وهو مشتق من الحَكْم بفتح الحاء، وهو الردع عن فعل ما لا ينبغي، ومنه سمّيت حكَمة اللجام، ويقال: أحْكِمْ فلانا، أي: أمسكه. والعدل: ضد الجور، فهو في اللغة التسوية، يقال: عدَل كذا بكذا، أي: سوّاه به ووازنه عدلاً «ثم الذين كفروا بربهم يعدلون»، ثم شاع إطلاقه على إيصال الحقّ إلى أهله، ودفع المعتدي على الحق عن مستحقه، والعدل مساواة بين الناس، أو بين أفراد أُمة في تعيين الأشياء لمستحقها، وفي تمكين كل ذي حق من حقه بدون تأخير. ونعمّا: أصله نعم ما، أي: نعم شيء.

والوعظ: التذكير والنصح، وقد يكون فيه زجر وتخويف. ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾: طاعة الله امتثال أمره، واجتناب نهيه. وطاعة الرسول العمل بما جاء به من ربّه، والاقتداء به في عمله. وطاعة أولي الأمر امتثالهم في العمل بطاعة الله وطاعة رسوله، فأولوا الأمر من الأمة ومن القوم، وهم الذين يسند الناس إليهم تدبير شؤونهم ويعتمدون في ذلك عليهم... ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**﴾: التنازع في الشيء: التخاصم، وسببه التخالف؛ لأنّ كلّ واحد من المتخالفين ينزع إلى جهة، وأصل التنازع شدّة الاختلاف، وهو تفاعل من النزع، وهو الأخذ بقصد الغلب، فكل من المتنازعَيْن يريد أن يجذب الشيء إليه دون صاحبه!. ولفظ شيء نكرة مُتَوَغّلة في الإبهام.

وحقيقة الرد: إرجاع الشيء إلى صاحبه، مثل العارية والمغصوب، ثم أطلق على التخلي عن الانتصاف بتفويض الحكم إلى الحاكم، وعن عدم تصويب الرأي بتفويض تصويبه إلى الغير... ﴿**ذلك خير وأحسن تأويلا**﴾: ذلك: ذا اسم إشارة للمذكر، واللام تدل على بعد المشار إليه، أو لمهمته، أو لعزته وبعد مرتبته، والكاف حرف خطاب للمفرد المذكّر مفتوحاً، وللمؤنث مكسوراً. وخير اسم لما فيه نفع وهو ضد الشر، وهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة. والتأويل: مصدر أوّل الشيء إذا أرجعه مشتق من آل يؤول إذا رجع، وهو هنا: أحسنُ ردّاً وصرْفاً...

﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون...**﴾ الخ: الزعم الخبر الكاذب، أو ما كان

مشوباً بالخطإِ، أو بحيث يتهمه الناس بذلك. ويستعمل الزعم في الخبر المحقق بالقرينة، كقوله:

زعم العوادي أنّني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

فقوله: (صدقوا) هو القرينة، ومضارعه يزعُـَم مثلث العين والأفصح فيه الفتح. ﴿**يريدون**﴾: يحبّون محبة تبعث على فعل المحبوب. ﴿**أن يتحاكموا**﴾: التحاكم ترافع القضية إلى الحاكم لفصل القضاء فيها. الطاغوت هنا: رأس الضلال من أهل الكتاب، ويطلق على الشيطان وعلى كل من عبد من دون الله من البشر، ويطلق على الأصنام؛ لأنّ لها رؤساء يتحكّمون في شأنها. والشيطان: إبليس؛ لأنّه مصدر الشرور كلِّها «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء». والضلال البعيد: الكفر الشديد. . .

﴿**وإذا قيل لهم تعالوا**﴾: تعال كلمة تدل على الأمر بالحضور والإقبال، فمفادها مفاد حرف النداء إلاّ أنّها لا تنبيه فيها، ولهذا اختلف فيها النحويّون في كونها فعلا أو اسم فعل، والأصحّ أنّها فعل لأنّها مشتقة من مادّة العلوّ، ولأنّه تتصل بها ضمائر الرفع، وهي فعل مبني على الفتح على غير سنّة فعل الأمر، وهذا الرأي قد يكون ضعيفاً، لأنّه مبني على حذف حرف الألف كما هي القاعدة في بناء فعل الأمر، يبني على ما يجزم به مضارعه. ووجه اشتقاق تعال من مادة العلو أنّهم تخيَّلوا المنادِيَ في علوّ والمنادَي في سفل؛ لأنّهم كانوا يجعلون بيوتهم في المرتفعات لأنّها أحصن لهم، وذلك كان أصله أن يدل على طلب حضورٍ لنفع، ولكن استعملت في النداء مطلقاً فلم يُراع فيها الأصل. ﴿**يصدون**﴾: صدّ عنه صدوداً أعرض، وصدّ فلانا عن كذا صدّاً وأصدّه منعه وصرفه. . .

﴿**فكيف إذا أصابتهم مصيبة**﴾: كيف اسم مبهم غير متمكن حرك آخره للساكنين، وبالفتح لمكان الياء، والغالب فيه أن يكون استفهاماً، يستفهم بها عن أوصاف الذوات. . . ﴿**فأعرض عنهم**﴾: الإعراض عدم الالتفات إلى شيء بقصد التباعد عنه، مشتق من العُرض وهو الجانب. ﴿**وعِظْهُم**﴾: الوعظ الأمر بفعل الخير وترك الشر بطريقة فيها تخويف وترقيق، يحملان على الامتثال، والاسم منه الموعظة. . . ﴿**وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً**﴾: البليغ فعيل بمعنى بالغ بلوغاً شديداً بقوة، أي: بالغاً إلى نفوسهم متغلغلاً فيها. ﴿**شَجَرَ**﴾: تداخل واختلف ولم

يتبين فيه الإنصاف، وأصله من الشجر؛ لأنّه يلتف بعضه ببعض وتلتفُّ أغصانُه، وقالوا: شجر أمرُهم، أي: كان بينهم الشر. ﴿**حرجاً**﴾: الحرج الضيق الشديد. . .

﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين. . .**﴾ الخ: ﴿**والصديقين**﴾: الصديقون المتقدمون في تصديقهم، المبالغون في الصدق والإخلاص في الأقوال والأفعال، وهم أفاضل أصحاب الأنبئاء عليهم السلام، وأماثل خواصّهم المقرّبين، كأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ. ﴿**والشهداء**﴾: الذين بذلوا أرواحهم في طاعة الله تعالى وإعلاء كلمته. ﴿**والصالحين**﴾: الذين صرفوا أعمارهم في طاعة الله وأموالهم في مرضاته. ﴿**وحسن أولئك رفيقاً**﴾: الرفيق الصاحب، مأخوذ من الرفق، وهو لين الجانب واللطافة في المعاشرة قولاً وفعلاً!.

مبحث الإعراب

﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**يأمركم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، وضمير الجماعة مفعول به في محل نصب. ﴿**أنْ**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**تؤدوا**﴾ فعل مضارع منصوب بحذف النون، والواو فاعل. ﴿**الأمانات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة لأنّه جمع مؤنث سالم. ﴿**إلى أهلها**﴾ جار ومجرور متعلق بتُؤدُّوا، والضمير فيه مضاف إليه، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور متعلق بيأمركم، أي: إنّ الله يأمركم بتأدية الأمانات إلى أهلها، وجملة يأمركم في محل رفع خبر إنّ. ﴿**وإذا**﴾ الواو للعطف، إذا ظرف زمان. ﴿**حكمتم**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بين**﴾ ظرف منصوب بالفتحة. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى بين. ﴿**أنْ**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**تحكموا**﴾ فعل وفاعل، حذفت نون الفعل لنصبه بأنْ. ﴿**بالعدل**﴾ جار ومجرور متعلق بتحكموا، أي: يأمركم بالحكم بالعدل.

﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**نعمّا**﴾ نعم فعل ماض، ما اسم موصول في محل رفع فاعل نعم. ﴿**يعظكم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، وضمير الجماعة مفعول به. ﴿**به**﴾ جار ومجرور متعلق بيعظكم، ويعظكم صلة ما، وجملة نعما في محل رفع خبر إنّ. ﴿**إنَّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**كان**﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿**سميعاً بصيراً**﴾ خَبَرَانِ لكان، وجملة كان في

محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ الله نعمّا، وإنّ الله كان سميعاً بصيراً لا محل لهما من الإعراب لما فيهما من معنى التعليل. ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا**﴾ إعرابها تقدم وهو معلوم. ﴿**أطيعوا الله**﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول. ﴿**وأطيعوا الرسول**﴾ كذلك. ﴿**وأولي**﴾ معطوف على الرسول منصوب بالياء. ﴿**الأمر**﴾ مضاف إلى أولي مجرور بالكسرة. ﴿**منكم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من أولي الأمر. ﴿**فإنْ**﴾ الفاء للعطف والتعقيب، إنْ حرف شرط جازم. ﴿**تنازعتم**﴾ فعل الشرط، وضمير الجماعة فاعل، والجملة في محل جزم. ﴿**في شيء**﴾ جار ومجرور متعلق بتنازعتم. ﴿**فردوه**﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، ردوه فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، وضمير الغائب مفعول به. ﴿**إلى الله**﴾ جار ومجرور متعلق بردوا. ﴿**والرسول**﴾ معطوف على الله.

﴿**إنْ كنتم تؤمنون**﴾ كنتم كان واسمها في محل جزم فعل الشرط، وجملة تؤمنون في محل نصب خبر كان. ﴿**بالله**﴾ جار ومجرور متعلق بتؤمنون. ﴿**واليوم**﴾ معطوف على الله. ﴿**الآخر**﴾ نعت لليوم مجرور بالكسرة، وجواب الشرط محذوف يدل عليه قوله: فردوه إلى الله. ﴿**ذلك**﴾ مبتدأ في محل رفع. ﴿**خير**﴾ خبر المبتدإِ. ﴿**وأحسن**﴾ معطوف على خير مرفوع بالضمة. ﴿**تأويلاً**﴾ تمييز منصوب بالفتحة. ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون**﴾ إعراب هذه الجملة معلوم مما تقدم في مثلها. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**آمنوا**﴾ فعل وفاعل في محل رفع خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول يزعمون. ﴿**بما**﴾ جار ومجرور متعلق بآمنوا. ﴿**أنزل**﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود إلى ما، والجملة صلة ما. ﴿**إليك**﴾ جار ومجرور متعلق بأنزل. ﴿**وما أنزل من قبلك**﴾ معطوف على ما أنزل إليك، وهو مثلها في الإعراب. ﴿**يريدون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أنْ يتحاكموا**﴾ أنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر معمول ليريدون. ﴿**إلى الطاغوت**﴾ جار ومجرور متعلق بيتحاكموا. ﴿**وقد**﴾ الواو واو الحال، وقد حرف تحقيق. ﴿**أُمروا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل واو الجماعة. ﴿**أنْ يكفروا به**﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء (الياء المقدرة) أي: وقد أمروا بالكفر به، وجملة وقد أمروا في محل نصب حال من ضمير يتحاكموا، وجملة يريدون بيانية لا محل لها من الإعراب.

﴿**ويريد الشيطان**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أنْ يضلّهم**﴾ أنْ وما دخلت عليه في تأويل

مصدر معمول ليريد الشيطان. ﴿**ضلالاً**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿**بعيداً**﴾ نعت لضلالا، وجملة ويريد الشيطان معطوفة على يريدون. ﴿**وإذا**﴾ الواو للعطف، إذا ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿**قيل**﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول مضاف إلى إذا. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بقيل. ﴿**تعالوا**﴾ فعل أمر، وفاعله واو الجماعة، وهو مقول قيل. ﴿**إلى ما**﴾ جار ومجرور متعلق بتعالوا. ﴿**أنزل الله**﴾ فعل وفاعل صلةُ ما. ﴿**وإلى الرسول**﴾ جار ومجرور متعلق بتعالوا أيضاً. ﴿**رأيت**﴾ فعل وفاعل جواب إذا، وهو عامل فيها، وهذا معنى قولهم: إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه معمول لجوابه. ﴿**المنافقين**﴾ مفعول لرأيت. ﴿**يصدون**﴾ فعل وفاعل في محل نصب حال من المنافقين. ﴿**صدوداً**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿**فكيف**﴾ الفاء للتفريع، ﴿**وكيف**﴾ في محل رفع خبر مبتدإ محذوف معلوم من سياق الكلام، أي: كيف حالهم حين تصيبهم مصيبة بسبب ما فعلوا فيجيئونك معتذرين؟!. ﴿**إذا**﴾ ظرف للمستقبل كما هو معلوم. ﴿**أصابتهم**﴾ فعل ماض، والضمير فيه مفعول. ﴿**مصيبة**﴾ فاعل، والجملة في محل جر مضاف إلى إذا. ﴿**بما**﴾ جار ومجرور متعلق بأصابتهم. ﴿**قدّمت أيديهم**﴾ فعل وفاعل، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة قدّمت صلة ما.

﴿**ثم جاءوك**﴾ معطوف على أصابتهم. ﴿**يحلفون**﴾ فعل وفاعل في محل نصب حال من ضمير الجماعة في جاءوك. ﴿**بالله**﴾ جار ومجرور متعلق بيحلفون. ﴿**إنْ**﴾ حرف نفي. ﴿**أردنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرّغ. ﴿**إحساناً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**وتوفيقاً**﴾ معطوف على إحساناً، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿**أولئك**﴾ مبتدأ في محل رفع. ﴿**الذين**﴾ خبر المبتدإ في محل رفع. ﴿**يعلم الله**﴾ فعل وفاعل صلةُ الذين. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**في قلوبهم**﴾ جار ومجرور متعلق بفعل محذوف صلةُ ما، وضمير الجماعة في ـ قلوبهم ـ مضاف إليه. ﴿**فأعرض**﴾ الفاء واقعة في جواب شرط مقدّر، أعرض فعل أمر، والفاعل ضمير (أنت). ﴿**عنهم**﴾ جار ومجرور متعلق بأعرض. ﴿**وعظهم**﴾ معطوف على أعرض، وضمير الجماعة مفعول. ﴿**وقُلْ لَهُم**﴾ كذلك. ﴿**في أنفسهم**﴾ جار ومجرور متعلق بقل. ﴿**قولاً**﴾ مفعول به. ﴿**بليغاً**﴾ نعت للقول منصوب بالفتحة.

﴿**وما أرسلنا**﴾ الواو للعطف، وما للنفي، أرسلنا فعل وفاعل. ﴿**من**﴾ حرف

جر زائد. ﴿**رسول**﴾ مجرور بمن لفظاً ومنصوب محلاً مفعول لأرسلنا. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**ليطاع**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأنْ بعد لام التعليل، ونائب الفاعل ضمير يعود على رسول. ﴿**بإذن**﴾ جار ومجرور متعلق بيطاع. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى إذن مجرور بالكسرة. ﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، لو حرف امتناع لامتناع. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**جاءوك**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبرها. ﴿**إذ ظلموا**﴾ إذ ظرف لما مضى من الزمان، وجملة ظلموا مضاف إلى الظرف دخلت بين أنّ وخبرها. ﴿**فاستغفروا الله**﴾ معطوف على جاءوك، الله منصوب على التعظيم. ﴿**واستغفر لهم الرسول**﴾ معطوف على استغفروا. ﴿**لوجدوا**﴾ جواب لو. ﴿**اللهَ**﴾ منصوب على التعظيم. ﴿**توّاباً**﴾ مفعول ثان لوجدوا. ﴿**رحيماً**﴾ كذلك. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتفريغ، ولا مزيدة لتأكيد معنى القسم. ﴿**وربّك**﴾ الواو للقسم، وهي حرف جر لا تتعلق بشيء، ربّك مجرور بها، والضمير مضاف إلى رب. ﴿**لا يؤمنون**﴾ فعل مضارع منفي بلا مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل. ﴿**حتى**﴾ حرف غاية. ﴿**يحكموك**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتي، وواو الجماعة فاعل، والضمير بعده مفعول به، وأن المقدّرة وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحتي، أي: إلى وقت تحكيمهم إيّاك. ﴿**فيما**﴾ جار ومجرور متعلق بيحكّموك. ﴿**شجر**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود إلى ما. ﴿**بينهم**﴾ ظرف متعلق بشجر، والضمير مضاف إليه، وجملة شجر صلةُ ما. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف. ﴿**لا يجدوا**﴾ معطوف على يحكموك، والمعطوف على المنصوب منصوب. ﴿**في أنفسهم**﴾ جار ومجرور متعلق بيجدوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**حرجاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**مما**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لحرجاً. ﴿**قضيت**﴾ فعل وفاعل صلةُ ما. ﴿**ويسلّموا**﴾ معطوف على يجدوا منصوبٌ مثْلُه. ﴿**تسليماً**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة.

﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، ولو حرف امتناع لامتناع. ﴿**أنّا**﴾ أنّ واسمها. ﴿**كتبنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليهم**﴾ جار ومجرور متعلق بكتبنا. ﴿**أن**﴾ حرف تفسير. ﴿**اقتلوا**﴾ فعل أمر، وفاعله واو الجماعة. ﴿**أنفسَكم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة كتبنا في محل رفع خبرُ أنّ، وأنّ وما دخلت عليه فعل شرط لو، أي: لو ثبتت كتابتنا عليهم... الخ. ﴿**أو اخرجوا من دياركم**﴾ معطوف على أن اقتلوا. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**فعلوه**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**إلاّ**﴾

أداة استثناء مفرّغ. ﴿**قليل**﴾ بدل من الواو في فعلوه مرفوع بالضمة. ﴿**منهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لقليل، وجملة ما فعلوه جواب شرط لو. ﴿**ولو**﴾ مثل لو الأولي. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**فعلوا**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبرُ أنّ. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول. ﴿**يوعظون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل الواو. ﴿**به**﴾ جار ومجرور متعلق بيوعظون، وجملة يوعظون صلةُ ما، والعائد على الموصول الضمير في به، وجملة أنّهم فعلوا فعل شرط لو، أي: لو ثبت فعلهم لما وُعظوا به. ﴿**لكان**﴾ اللام واقعة في جواب لو، كان، واسمها ضمير يعود على ما. ﴿**خيراً**﴾ خبرُ كان منصوب بالفتحة. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بخيراً. ﴿**وأشدّ**﴾ معطوف على خيراً. ﴿**تثبيتاً**﴾ تمييز. ﴿**وإذاً**﴾ حرف جواب وجزاء معطوف على جواب لو، أي: لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً. ﴿**لآتيناهم**﴾ اللام للتأكيد، آتينهم فعل وفاعل. ﴿**من لدنا**﴾ جار ومجرور متعلق بآتيناهم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أجراً**﴾ مفعول به. ﴿**عظيماً**﴾ نعت لأجراً منصوب بالفتحة. ﴿**ولهديناهم**﴾ معطوف على آتيناهم. ﴿**صراطاً**﴾ مفعول به. ﴿**مستقيماً**﴾ نعت له منصوب بالفتحة، وجملة جواب الشرط وما عطف عليه لا محل لها من الإعراب.

﴿**ومن يطع الله والرسول**﴾ الجملة من الشرط وفعله معطوفة على جملة ولو أنّهم فعلوا. ﴿**فأولئك**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أولئك مبتدأ. ﴿**مع**﴾ ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**الذين**﴾ مضاف إلى مع في محل جر. ﴿**أنعم الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليهم**﴾ جار ومجرور متعلق بأنعم. ﴿**من النبيئين**﴾ جار ومجرور بيان للمُنْعِم عليهم. ﴿**والصديقين والشهداء والصالحين**﴾ معطوفات على النبيئين مجرورات بمِن، وجملة فأولئك في محل جزم جواب الشرط (مَنْ). ﴿**وحسُن**﴾ فعل ماض. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع فاعل حسن. ﴿**رفيقاً**﴾ تمييز منصوب بالفتحة، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ذلك**﴾ مبتدأ. ﴿**الفضلُ**﴾ بيان له. ﴿**من الله**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**وكفى بالله عليماً**﴾ تقدم إعراب مثلها، والجملتان للتذييل لا محل لهما من الإعراب.

مبحث الأسلوب البلاغي

الرابطة التي تربط الموضوع السابق بالموضوع اللاحق: كانت نهاية الدرس الماضي مشهداً من مشاهد العذاب لقوم أوتوا الكتاب فكذّبوا به، وقالوا للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، حسداً من عند أنفسهم، فحادوا بذلك عن الحق في حكمهم، متأثرين بذلك الحسد الذي يملأ نفوسهم، كل ذلك يشتمل على خيانة أمانة الدّين والعلم والحق والنعمة، وهي أمانات لابد من أدائها. . .

﴿**إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها. . .**﴾ الخ: هذا الموضع الجديد يأخذ في رسم قواعد الحكم وقواعد التنظيم الاجتماعي في السلم والحرب، ويحدد السلطات، وينظم الإجراءات في المجتمع ـ وهو الموضوع الذي يكاد يستغرق ما تبقى من هذه السورة ـ، فهو يفتتح هذا كله بضرورة أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، غير متأثر هذا الحكم بِهَوىً ولا بِحَسَد. وبذلك يربط بين أواخر الموضوع السابق بهذا الموضوع اللاحق، ثم يمضي في طريق التنظيم العام للمجتمع الإنساني في السلم والحرب، ويحتوي هذا الموضوع على التكليف بأداء الأمانات، والحكم بين الناس كافة بالعدل، وطاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر، ويعرض صور للمنافقين الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت لا إلى شريعة الله وحكم رسول الله، ويقرر أنَّ الرسل لم يرسلوا ليكونوا مجرد دعاةٍ وهُداةٍ، إنّما أرسلوا ليطاعوا وليُنَفِّذَ ما لديهم من شرع الله، وأنّ الناس لا يكونون مؤمنين حتى يتقبلوا حكم الشريعة على يدي الرسول بالرضى والتسليم، وحتى يردوا ما يختلفون فيه إلى الله والرسول، ويبشر الطائعين بالأجر العظيم والمستقبل الكريم. وبذلك يضع الخطوط الرئيسية في نظام الحكم، واختصاص السلطات وجرّد الحاكمين بالمحكومين!.

إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها: هذه جملة صريحة في الأمر والوجوب. وفي تصدير الكلام بكلمة التحقيق ـ التوكيد ـ وإظهار الاسم الجليل (إنّ الله) وإظهار الأمر على صورة الإخبار (يأمُركم) من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به، والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه. والخطاب لكل من يصلح لتلقي هذا الخطاب، والعمل به لكل مؤتمن على شيء، ومن كل من تولي الحكم بين الناس في الحقوق. والأمانات من صيغ العموم. . . ﴿**وإذا حكمتم بين**

الناس أن تحكموا بالعدل﴾: هذا عطف خاص على عام، فالحكم بين الناس بالعدل من جملة الأمانات، ولهذا قيد الأمر بالعدل بحالة التصدي للحكم بين الناس، وأطلق الأمر برد الأمانات إلى أهلها عن التقييد، إذ ليس كل أحد أهلاً لتولي الحكم، فتلك نكتة ينبغي التنبه لها!..

﴿إنّ الله نعمّا يعظكم به﴾: هذه الجملة مستأنفة ـ مفصولة ـ مقررة لما قبلها، متضمنة لمزيد لطف بالمخاطبين، وحسن اسْتدْعَاءٍ لهم إلى الامتثال بالأمر. وإظهار الاسم الجليل (إنّ الله) لتربية المهابة... **﴿إنّ الله كان سميعاً بصيراً﴾**: هذا وعد لمن يعدل ويؤدي الأمانات إلى أهلها، ووعيد لمن يجور ويخون الأمانة. وإظهار الاسم الجليل لما تقدم، وفيه توكيد للوعد والوعيد...

﴿ياأيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾: لمّا أمر الله الأمّة بالحكم بالعدل باعتبار أمرائها، وقد أمرهم بأداء الأمانات باعتبار العموم، عقّب ذلك بخطابهم بالأمر بطاعة الحكّام ولاةِ أمورهم، لأنّ الطاعة لهم من أداء الأمانات إلى أهلها، وهي مظهر العدل الذي يحكم به حكّامُهم. أمر الله بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بمعنى طاعة الشريعة فإنّ الله هو منزّل الشريعة ورسوله مبلغُها، وإنّما أعيد فعل (أطيعوا الرسول) مع أنّ حرف العطف يُغني عن إعادته، إظهاراً للاهتمام بتحصيل طاعة الرسول؛ لتكون أعلى مرتبة من طاعة أولي الأمر، ولينبه على وجوب طاعته فيما يأمر به ولو كان أمره غير مقترن بقرائن تبليغ الوحي؛ لئلا يتوهم السامع أنّ طاعة الرسول المأمور بها ترجع إلى طاعة الله فيما يبلغه عن الله دون ما يأمر به في غير التشريع، فإنّ امتثال أمرِه كلِّهِ خيرٌ. وإنّما أمر بذلك بعد الأمر بالعدل وأداء الأمانات؛ لأنّ هذين الأمرين (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) قوامُ نظام الأمّة، وهو تَنَاصُحُ الأمراء والرعية وانْبثَاثُ الثقة بينهم على مقتضى أمر الله ورسوله...

﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾: صدرت الجملة الشرطية بالفاء المفيدة للترتيب على ما قبلها، فإنّ بيان حكم طاعة أولي الأمر عند موافقتها لطاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ يستدعي بيان حكمها عند المخالفة، أي: إن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم في أمر من أمور الدّين فراجعوا فيه إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله. وأطلق التنازع على الاختلاف الشديد على طريق الاستعارة،

لأنّ الاختلاف الشديد يشبه التجاذب بين شخصين. ولفظ (شيء) نكرة متوغلة في الإبهام، فهو في حيز الشرط، يفيد العموم. ولقد حسن موقع كلمة (شيء) هنا تعميم الحوادث وأنواع الاختلاف، فكان من المواقع الرشيقة. وقوله... ﴿**إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾: تحريض وتحذير معاً؛ لأنّ الإيمان بالله واليوم الآخر وازعان يزعان عن مخالفة الشرع... ﴿**ذلك خير وأحسن تأويلا**﴾: هذا تنويه لرد الأمر لله والرسول في حال التنازع، أي: ذلك هو الخير، وذلك هو الإدراك الأفضل والتفسير الأحسن لمنهج الحكم في الإسلام، ولتحقيق الأمانة والعدل في ذلك النظام...

﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً**﴾: هذا النص جاء للتعجيب من حال بعض اليهود الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً وخداعاً، متضمناً هذا التعجيب تنديداً بمسلكهم، وتنبيهاً للرسول ﷺ في شأنهم، ووصفهم بادّعاء الإيمان بالقرآن وما أنزل من قبله لتأكيد التعجيب وتشديد التوبيخ والاستقباح، ببيان كمال المباينة بين ادعائهم وبين ما صدر عنهم... يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت: سيق هذا الكلام لبيان محل التعجيب مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام، كأنّه قيل: ماذا يفعلون؟ فقيل: يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، إنّهم يتجهون هذا المتجه وينهجون هذا المنهج، لأنّ الشيطان رائدهم وقائدهم...

ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً: لا يرجعون منه ولا يهتدون. والضلال البعيد هو الكفر؛ ووصفه بالبعد مجاز في شدة الضلال تنزيله منزلة جنس ذي مسافة، كان هذا الفرد منه بالغاً غاية المسافة... ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً**﴾: هذا الكلام تكملة لمادّة التعجيب، ببيان إعراضهم صريحا عن التحاكم إلى كتاب الله تعالى ورسوله، إثر بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى الطاغوت. وتعالوا مستعمل هنا مجازاً؛ إذ ليس ثَمَّةَ حضور وإتيان، فهو مجاز في تحكيم كتاب الله وتحكيم الرسول في حضوره، ولذلك قال: إلى ما أنزل الله؛ إذ لا يحكم الله إلا بواسطة كلامه، وأمّا تحكيم الرسول، فأريد به تحكيم ذاته؛ لأنّ القوم المخبر عنهم كانوا

من المنافقين، وهم في المدينة في حياة الرسول ﷺ. رأيت المنافقين: إظهار المنافقين في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به، والإشعار بعلة الحكم. يصدون عنك صدوداً: يعرضون عنك إعراضاً وأي إعراض!. فالتنوين لإفادة المبالغة في الصدود بعد توكيد فعله (يصدون عنك صدوداً)!.. ﴿**فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلاّ إحساناً وتوفيقاً**﴾: هذا شروع في بيان غائلة جنايتهم المحكية ووخامة عاقبتها، فكيف يكون حالهم عندما تتحقق مصيبتُهم وتحيق بهم الكارثة، بسبب ما ارتكبوا من جرائم النفاق والكذب والشقاق من المخالفة وسوء الأخلاق. ثم جاءوك: المراد بالعطف بثم هنا، تفظيع حالهم وتهويل ما دهمهم من الخَطْب، واعتراهم من شدّة الأمر عند إصابة المصيبة، حتى ألَجَأتْهم بعد محاولات ومحاولات، للتخلص منها دون جدوى، حتى التجأوا أخيراً إلى مواجهة الرسول، والحلف بالله بين يديه، والخضوع له وإظهارهم أمامه، إظهار المستجدي الضعيف، يالها من حالة مزرية ومصيبة تتلوها مصيبة...

﴿**أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً**﴾: لمّا كان هذا حالهم عندما أظهروا ذُلَّهم وضعفهم، فلا تحفل باتجاهاتهم ولا يهمك شأنهم، ولكن قدّم لهم الموعظة فهم في حاجة إليها، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً يصل أعماق نفوسهم وينفذ إلى قرارة قلوبهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم ونفاقهم فيهتدوا إلى الحق وإلى الصراط المستقيم. والتعبير العجيب (وقل لهم في أنفسهم) تعبير مصور، كأنّما القول يودع مباشرة في الأنفس ويستقر مباشرة في القلوب!.. ﴿**وما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع بإذن الله**﴾: هذا كلامٌ جيء به تمهيداً لبيان خطئهم في الاشتغال بستر جنايتهم بالاعتداء بالأباطيل وعدم تلافيها بالتوبة، أي: ما أرسلنا رسولاً من الرسل لشيء من الأشياء، إلاّ ليطاع، بسبب إذن الله تعالى في طاعته، وأمره لمن أُرسل إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه؛ لأنّه مبلغ عن الله تعالى. فطاعة الرسول طاعة الله، ومعصية الرسول معصية الله...

﴿**ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً**﴾: في هذا الكلام فضل ترغيب للسامعين في المسارعة

إلى التوبة والاستغفار، ومزيد تنديم لأولئك المنافقين على ما صنعوا، لما أنّ ظهور تباشير قبول التوبة وحصول الرحمة لهم ومشاهدتهم لآثارهما نعمة زائدة عليهما، موجبة لكمال الرغبة في تحصيلها وتمام الحسرة على فواتها. والتعبير بقوله: واستغفر لهم الرسول، فيه التفات من الخطاب (جاءوك) إلى الغيبة (استغفر لهم الرسول) تفخيماً لشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على أنّ شفاعته في حيّز القبول. وفي الكلام زيادة على ما تقدم تقريع وتوبيخ للمنافقين على تحاكمهم، إذ كان ذلك عصياناً على عصيان، فإنّهم ما كفاهم أنْ أعرضوا عن تحكيم الرسول، حتى زادوا فصدوا عمن قال لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، فلو استفاقوا حينئذ من غلوائهم، لعلموا أنّ إرادتهم أن يتحاكموا إلى الطغاة والكهنة جريمة يجب الاستغفار منها، ولكنهم أصرُّوا واستكبروا. وفي ذكر (لو) وجعل (لوجدوا الله تواباً رحيماً) جوابها إشارة إلى أنّهم لمّا لم يفعلوا فقد حُرِمُوا الغُفران. وكان هذا الفعل القبيح ظلماً للنفس، لأنّه إقحام بها في معصية الله ومعصية الرسول، فَجَرَّ لَها عِقَابَ الآجلة، وعرّضها لمصائب الانتقام في العاجلة...

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلموا تسليماً﴾: هذا مفرغ عن قوله: **﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾**، وما بعده؛ إذ تضمّن ذلك أنّهم فعلوا ما فعلوا وهم يزعمون أنّهم مؤمنون، فكان الزعم إشارةً إلى انتفاء إيمانهم، ثم أردف بما هو أصرح، وهو أنّ أفعالهم تُنافِي كوْنَهم مؤمنين بقوله: لا يؤمنون، بالقسم والتوكيد اللفظي. وأصل الكلام: فوربك لا يؤمنون، والعرب تأتي بحرف النفي قبل القسم، إذا كان جواب القسم منفيّاً؛ للتعجيل بإفادة أنّ ما بعد حرف العطف قسم على النفي، لما تضمنته الجملةُ المعطوف عليها، فتقديم النفي (فلا) للاهتمام بالنفي (لا يؤمنون)، وهذا الكلام يؤكد توكيداً قاطعاً أنّ الإيمان لا يتحقق إلاّ بسلوك منهجه، وأنّ التحاكم إلى شريعة الله هي الطريق. ثم يزيد ذلك توكيداً بعد توكيد وتوضيحاً بعد توضيح فإنّ هذا التحاكم ليس مجرد الخضوع القهري، وإنّما هو الاطمئنان والرضى والقبول، فهو اقتناع الوجدان، واطمئنان الضمير، وتسليم الرضى بذلك التحكيم، والقبول التام لنتيجة هذا التحكيم...

﴿ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلاّ

قليل منهم ولو أنّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً﴾: يشير السياق هنا إلى مناسبة كانت حاضرة عند نزول هذه الآيات، وعند سَنِّ هذه القاعدة، فلقد كانت الأحداث التي نزلت في شأنها هذه الآيات متعلقة ببني إسرائيل في المدينة. فالسياق يشير إلى أنّ هذه الأحكام الإسلامية أقل مشقّة من بعض ما كُلّفت به اليهود في ديانتها، فقد كُتب عليهم في فترة من الفترات أن يقتلوا أنفسهم، عندما ارتكبوا جريمة عبادة العجل، وكُتب عليهم أن يخرجوا من ديارهم ليقاتلوا «وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا»، وهم كانوا يقولون دائماً إذ يُدْعَوْن إلى حكم الله، إنّهم سيرجعون إلى ماعندهم من التوراة. فالسياق هنا يقول: إنّهم لو دعوا إلى مثل ما دعتهم إليه التوراة، ما أجابوا إلاّ قليل منهم، ولو أنّهم استجابوا لدعوة الإسلام ـ وهي أيسر ـ لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتا لإيمانهم، ولنالوا جزاء طاعتهم خيراً كثيراً، ذلك أنّ هذا الذي يوعظون به، إنّما هو الصورة الأخيرة لشريعة الله، التي نالوا منها طرفاً موقوتاً بزمانه ومكانه، فمن اتّعظ بالصورة الأخيرة ـ وهي أيسر مشقّة ـ فقد أطاع طاعة كاملة، وعمل بالخطة الدائمة، واطمأنّ إلى المنهج الأخير. والتعبير يكرر أنّها عظة؛ لتبلغ إلى مكمن العقيدة في أعماق الضمير، ويقرر أنّ الأجر العظيم من لّدُنّا ـ لا من عندنا ـ زيادة في قرب مصدره من الله، وإيناساً للقلوب بهذا القرب، الذي تفيده كلمة (لَدُنْ)، وتزيد به على كلمة (عند)؛ ليشترك هذا في لمس الوجدان واستجاشته في معرض التأثير والإيحاء. وقوله: **﴿وإذن لآتيناهم﴾**: معطوفة على جواب (لو)، والتقدير: لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ولآتيناهم. .الخ.

ووجود اللام التي تقع في جواب لو مؤذنة بذلك، وأما واو العطف فلوصل الجملة المعطوفة بالجملة المعطوفة عليها، وأمّا (إذن) فهي حرف جواب وجزاء، أي: في معنى جوابٍ لكلام سبقها، ولا تختص بالسؤال، فأدخلت في جواب لو بعطفها على الجواب تأكيداً لمعنى الجزاء، فقد أجيبت (لو) في الآية لجوابين، في المعنى؛ لأنّ المعطوف على الجواب جواب، ولا يحسن اجتماع جوابين إلاّ بوجود حرف عطف. . .

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. ذلك الفضل من الله وكفى

بالله عليماً﴾: في النهاية تجيء تلك اللمسة الشاملة لقلوب المؤمنين تُشوّقهم إلى ذلك الأفق الرفيع الحبيب، الذي يَرْقَي إليه الطائعون لله والرسول. إنّه ذلك الأفق الوضيء الذي تتشوّف إليه الأرواح وتهفو إليه القلوب، أفق الرفقة والصحبة للنبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وهاهو ذا على سمُوقِه وارتفاعه ووضاءته في متناول من يريد، فما هي إلاّ طاعة الله والرسول، فإذا الأفق الشاهق السامي قريب!. إنّ الطاعة ليست أمراً وليست تكليفاً في هذه المرة، إنّما هي وسيلة للتسامي إلى ذلك المرتقي، وأداة الوصول إلى ذلك الْحِمَي، والتقدمة بين يدي ذلك الأمل الحبيب (ذلك فضل من الله)، فهو جزاء لا يستحقه الإنسان عن جهد فما يبلغ الجهد وحده أن يكون هذا جزاءَه، إنّما هو الفضل من الله يضاعف الجهد ويضاعف الجزاء. دقائق الأسلوب في معنى هذا الفضل المطلوب: الجملة تذييل لما قبلها من قوله: «وإذن لآتيناهم من لدنا. . .» الخ، وإنّما عطفت ـ وُصلت ـ باعتبار إلحاقها بجملة ومن يطع الله والرسول، على جملة ولو أنّهم فعلوا ما يوعظون به. وجيء باسم الإشارة في جملة الشرط (فأولئك مع الذين. . .) للتنبيه على جدارتهم بمضمون الخبر عن اسم الإشارة؛ لأجل مضمون الكلام الذي قبل اسم الإشارة.

والمعية معية المنزلة في الجنة وإن كانت الدرجات متفاوتة، ومعنى (من يطع) من يتصف بتمام معنى الطاعة. ودلت (مع) على أنّ مكانة مدخولها أرسخ وأعرف (مع الذين أنعم الله عليهم)، وحسُن فِعْلٌ مرادٌ به المدح ملحق بنعم، ومضمّن معنى التعجب من حسنهم!. وتعريف الجزأين في قوله: ذلك الفضل، يفيد الحصر، وهو حصر ادّعائي ـ كما يقول علماء البلاغة ـ؛ لأنّ فضل الله أنواع وأصناف، ولكنه أريد المبالغة في قوّة هذا الفضل، فهو كقولهم: أنت الرجل. والتذييل بقوله: وكفى بالله عليماً؛ للإشارة إلى أنّ الذين تلبّسوا بهذه المنقبة، وإن لم يعلمهم الناس فإنّ الله يعلمُهم، والجزاء بيده، فهو يوفّيهم الجزاء على قدر ماعلم منهم!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾: هذا توجيه لجميع المؤمنين؛ لأنّ كل مؤمن مؤتمن على أمانات، قد تكثر وقد تقل بحسب الطاقة والمرتبة.

إنّ أداء الأمانات إلى أهلها يشمل أساس الاعتقاد، وأساس العبادة، وأساس التعامل، وأساس العلاقات كلها بين الناس، وإنّه ليصعب أن يَتَقَصَّى الإنسان مدلولات هذا الأمر وما ينطوي عليه، غير أنّ خلاصته تأتي في الكليات الآتية: إنّ أوّلَ أمانة تُردّ إلى أهلها هي أمانة الإيمان، فالفطرة البشرية قد أُعطت أسباب الإيمان، بما يربط بين طبيعة البشر وطبيعة هذا الكون من قوانين متحدة، تعمل معاً في تعاون وتوافق واتّساق، إنّ وحدة التكوين، ووحدة النشأة، ووحدة المصير، لتشير كلها إلى وحدة المشيئة التي صدر عنها الكون، وصدرت عنها الحياة، وصدر عنها الإنسان. وفطرة البشر تحسّ هذه الوحدة بكليتها، وتتجه إلى الاعتقاد في الله بطبيعتها، فهي أمانة إذنْ أن تحافظ على هذا الإيمان، فلا تضيعه ولا تنحرف عن طريقه، أمانة تُردّ إلى أهلها تردّ إلى الله، وردّ هذه الأمانة لا يقف عند الاعتقاد الصامت الساكن، إنّما ينسحب إلى العمل المعبر عن ذلك الإيمان الكامل، فإحسان العمل والسلوك والتوجه بهما إلى الله ـ سبحانه ـ واهب الحياة وميسّر الخير لفاعله، هو أمانة تُردّ إلى أهلها في صورة عمل، بعد ردّها إلى أهلها في صورة اعتقاد.

وأمانة التعامل سواء في مجال الآداب الشخصية، أو في مجال المعاملات المادية، هي الأمانة الواقعيّة المنبثقة عن الأمانة الوجدانية، وهي تشمل مجالي الحياة كلها في محيط الأسرة، وفي نشاط الجماعة. إنّها أمانة الفرد للفرد، والفرد للجماعة، أمانة الزوجين والصاحبين والعشيرين والوالد والمولود، وكلّها ترجع إلى الأمانة الكبرى التي علّقها الله بهذا المخلوق ـ الإنسان ـ، وهو يمنحه خلافة الأرض ويسلمه قيادها، ويقول له: اعمل هنا وهناك الحساب. وحكمها شرعاً حسبما نص هنا: إنّ الله يأمركم... الخ، فأداؤها واجب محتم فيه الثواب العظيم، وترك العمل بهذا الأمر حرام فيه العقاب الأليم.

التوجيه الثاني: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾: هذا التوجيه أخص مما قبله؛ لأنّ هذه أداء أمانة بشرط، وهو «إذا حكمتم بين الناس»، فميدان الحكم أخص من ميدان الاعتقاد والعمل والسلوك، فالمأمورون هنا أقل من المأمورين هناك. وعندما ننظر للعدل هنا في حيز حكمه، نجد النص يجرده من كل شائبة، ويطلقه عَدْلاً (بين الناس) لا بين المسلمين، ولا بين أهل الكتاب. إنّه

حق لكل إنسان بوصفه إنساناً، فهذه الصفة التي يلتقي فيها البشر جميعاً: أعداءً وأصدقاءً، مؤمنين وكافرين، «ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى» سوداً أو بيضاً عرباً وعجماً هذه الصفة «الناس» وحدها هي متبع هذا الحق ومناطه. والأمّة المسلمة قيّمة عليها في هذه الأرض مطالبة بتكاليفها. وهذا هو نصيبها الزائد في رد هذه الأمانة. . . «واتقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون» وأن تبذل له التضحيات التي تقتضيها، وأن تحتمل الآلام الناشئة عن تلك التبعة الثقيلة دون أن يكون لها من العدل إلاّ ما لسائر الناس، وذلك هو أساس الحكم في الإسلام، كما أنّ الأمانة المطلقة هي أساس الحياة.

من هنا نعلم حكم الشرع في هذه القضية. التعليق على هذا الأمر: ﴿**إنّ الله نعمّا يعظكم به إنّ الله كان سميعاً بصيراً**﴾: نعم الشيء الذي يعظكم به أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس، فالله لا يعظ إلاّ بما فيه صلاح الناس وفلاحهم وسعادتهم في الدنيا، وفوزهم في الآخرة بالنعيم المقيم، فعلى المؤمنين أن يعملوا بوعظ الله وأمره، فإنّه أعلم بالمسموعات والمبصرات.

التوجيه الثالث: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾: فلنقف هنا لننظر ماذا في هذا التوجيه؟!. فالأمانة المطلقة والعدل المطلق، ما مناطهما؟. كيف السبيل إلى تصورهما وتحديدهما؟. ثم كيف السبيل إلى تطبيقهما وتحقيقهما؟. هل يترك تحديد الأمانة والعدل إلى تعارف الناس واصطلاحهم؟. لقد يكون هذا مأمون العاقبة في بعض الجزئيات التي تعرض في الحياة، فأما الأصول الكبرى والحدود الأولي، فليس عرفُ الناس واصطلاحُهم بمقياس، فكثيراً ما تنحرف الفطرة، وكثيراً ما يتحكم الهوي، وكثيراً ما تختل المعايير ذاتها، فتصبح غير صالحة للقياس.

أم هل يترك ذلك للعقل البشري؟ والعقل البشري أداةٌ غيرُ ثابتة لأنّه يتأثر بالأهواء ويتأثر بالملابسات، بل يتأثر بما يطرؤ على الأجسام من الآفات، وبما يكون في الجو من تقلبات!. وما يزال العقل البشري ينقض اليوم ما أبرمه بالأمس، ويبرم اليوم ما كان قد نقض، إنّه لابد من معيار ثابت للأمانة، ومعيار ثابت للعدل ـ على وجه خاص ـ، معيار لا يتأثّر بما يحيط بالبشر، وبما يخالط العقل، وبما يلابس حياة الناس. والنص هنا يَضَع الأساس الكامل لنظام الحكم

في الإسلام. إنّ الحاكمية لله وحده، فشريعته هي الدستور الأساسي؛ والله واجب الطاعة، فشريعته واجبة التنفيذ، وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله ابتداءً، وأن يطيعوا الرسول ـ بما له من صفة الرسالة ـ، فطاعته إذنْ هي من طاعة الله الذي أرسله بهذه الشريعة، وسنّته وقضاؤه ـ على هذا ـ جُزْءٌ من الشريعة واجب التنفيذ. فأمّا أولوا الأمر فالنص يجعل طاعتهم فرعية، لا أصلية نابعة ومستمدة من طاعة الله ورسوله، ومن القيام على شريعة الله ورسوله، فالطاعة لهم تبعية لا أصلية ومستمدة منْ أصل، وليست هي بذاتها أصلاً. . ونصوص السنة تتواتر لتوكيد هذا المعنى الذي يشير إليه بناء النص القرآني، وقد ورد «إنّما الطاعة في المعروف»، «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سَمْعَ ولا طاعة. . .».

﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾: هذا الحكم وارد فيما يقع الخلاف عليه؛ لأنّ النص ليس قاطعاً فيه، أو لأنّه لم يرد فيه نصٌّ، فمرده إلى الله ورسوله، فترد إلى الأصول الكلية لشريعة الله ورسوله. وبهذا تُقرر حدودُ الإيمان فمن لم يتبع هذا المنهج فليس متبعاً لنهج الإسلام، فعلامة الإيمان ومقتضاه اتّباع ذلك المنهج، وإقامة الحكم على هذا الأساس. . .

﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾: في هذا التوجيه إرشاد وتنبيه؛ ذلك هو الخير، وذلك هو الإدراك الأفضل والتفسير الأحسن لمنهج الحكم في الإسلام، ولتحقيق الأمانة والعدل في هذا النظام.

التوجيه الرابع: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً. وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً. فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدّمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلاّ إحساناً وتوفيقاً﴾.

﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾: في هذا التوجيه الوجِيهِ يلفت نظر السامع ليرى ماذا فعل هؤلاء الذين يدّعون الإيمان بالقرآن، ويدّعون الإيمان بما أنزل قبل القرآن كذباً

وزوراً ونفاقاً ليُروّجوا الأباطيل ويتلاعبوا بأحكام التنزيل؟!. دخلوا في الإسلام لغرض خبيث، يستطيعون معه أن يشوّهوا ويزيّفوا ويموّهوا ويُدخلوا في الإسلام ما ليس منه، بزعمهم أنّهم مؤمنون بما أُنزل على محمد، وبما أنزل على موسى وعيسى ليخلّطُوا ويَمْزُجُوا النُصوص بعضها ببعض، حتى تلتبس الأمور بلا تمييز بين شريعة الحق وشريعة الفجور، ذلك إذ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، فالطاغوت هو كل شرع غير شريعة الله، وكل حكم غيرُ حُكْمِه، فهو طاغوت من الطغيان، لأنّ العدل فيه لا يتحقق؛ ولأنّه لا يحمل مقياساً ثابتاً للعدل غير خاضع للهوى والانحراف والضلال، إنّهم يزعمون الإيمان وهم على غير طريقِهِ. ومثل هؤلاء من يأبى أن يتحاكم إلى شريعة الله، وكل من يحكم بغيرها كائناً ما كان القانون الذي يحكم به، مادام لا يستمد من ذلك المعيار الثابت للعدل المطلق في الحياة. والقرآن يستعرض هذا المشهد ليكون المسلم دائماً على حذر من النفاق وأهله، وقد أعطي الصورة البارزة للنفاق اعتقاداً وفعلاً وقولاً؛ فكل من تنحرفُ عقيدته فيتظاهر بما ليس فيه، وكل من يعمل عملاً يخالف ما أمره الله به، وكل من يقول قولاً ظاهرُه الصدقُ وباطنه الزور والكذب، فهو منافق غارق في الكفر والضلال، وعميل للطاغوت ووليٌّ للشيطان!.

ولقد وقع هذا في عهد الرسول ﷺ حين دخل بعض شياطين اليهود في المدينة في الإسلام ادّعاءً، والغرض من دخولهم تهديم الإسلام من داخله، ومعرفتهم من يدخل فيه من الناس فيستميلون الضعيف ويحذرون القوي، وقد دخل معهم من العرب ضعفاء النفوس، وأُساري الأطماع والشهوات وكوّنوا عصابةً سرية خطيرة عرضها الله لرسوله وأظهرها وبيّن ملامحها وأغراضَها، وخصهم بعبارات خاصة بهم «ألم تر إلى الذين يزعمون...»، «ألم تر إلى الذين نافقوا...»، «ألم تر إلى الذين تولوا قوماً..» وهذه العبارات أطلقت على اليهود أول ما أطلقت: «ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل... الخ»، «ألم تر إلى الذين خرجوا... الخ»، «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ذلك بأنّهم قالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدوداتٍ وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون»، وقد مرّت بنا أمثلة في هذه السورة. من هذا نعلم أنّ منافقي اليهود أخطر بكثير من منافقي العرب، فهم شياطين النفاق، وهم قادة المنافقين، «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى

شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون»، ولا يزال النفاق والمنافقون على هذا المنهج إلى الآن، وإلى ما بعد الآن، إلى آخر الزمان، كما قال القرآن. . .

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً. فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدّمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلاّ إحساناً وتوفيقاً﴾: سبحان الله لا زال منطقهم هكذا!. لا نُريد إلاّ الخير فنحن هداة الإسلام، وهم أولياء الشيطان وشريعتنا شريعة القرآن، وهم يحكمون بالزور والبهتان، ولقد سمعنا كثيراً ونسمع الآن ما تقشعرّ منه الجلود وتصم عنه الآذان!.

ماذا يجب على المسلمين أن يعملوا اليوم؟ يجب على المسلمين اليوم ما وجب على الرسول وأصحابه بالأمس: أن يفهموا حقيقة النفاق والمنافقين، وأن يزنوا أقوالهم بأفعالهم، وأن يظهروا أمامهم بمظهر القويّ العارف حتى لا يخضعوا لهم، ولا يظهروا أمامهم بمظهر الضعيف، وأن ينصحوا من ظهر عليه النفاق، بأنّ نفاقه لا يخفي عليهم، فينصحوه ويعظوه ويروه من أنفسهم الإخلاص في العمل والصدق في القول، كما ظهر الرسول ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ أمام المنافقين فانْخَذَلُوا واختفوا ولم يستطيعوا أن يكيدوا للإسلام والمسلمين؛ إذ كانوا يطبّقون أوامر الله، ويلتزمون بواجبات الإسلام. وما نراه اليوم من ضعف ظاهر على المسلمين المحكومين بالنفاق والمنافقين، إنّما هو ناتج من سببين ظاهرين:

أولاً: حصل لنا ما حصل لليهود عندما تمسكوا بدينهم ادّعاءً وتركوه عملاً وسلوكاً، «فخلف من بعده خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألاّ يقولوا على الله إلاّ الحق ودرسوا ما فيه. . .».ثانيا: لم نلتزم الالتزام الصحيح بواجبات الإسلام، التي من أول شروطها طاعة رسول الإسلام والاقتداء به قولا وفعلاً وسلوكاً، ومن أبْرَزِ معالِم هذه الطاعة الرجوع إليه، عندما نشعر بالحيْف والانحراف عن نهجه وسنّته، وهذا من ألزم اللوازم الأصلية في الإسلام: **﴿وما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع بإذن الله ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾**. من هنا تتبين حقيقة المسلم الحق، والمؤمن الصادق في إيمانه. والتسليم الصحيح الذي يدل على سلامة

الطوية والطريقة المرضيّة، وهذه هي شروطها: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلموا تسليماً**﴾، وهذا الشرط شامل لمن عاصر نزول الوحي ولمن أتي ويأتي بعده إلى يوم الدين.

والله لا يؤمن أحد لا يتحاكم إلى شرعة الله، ولا يطبق منهج رسول الله، ولا يجد في نفسه الرضى والاطمئنان والتسليم والقبول. ومن هنا يتحقق أن نرجع إلى أول الموضوع، فنقول: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا. . .**﴾ ﴿**ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلاّ قليل منهم ولو أنّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً. وإذنْ لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً**﴾: في هذا الكلام مقابلة ومقارنة بين منهجين: منهج الإسلام الذي جاء على هذه الصورة الواضحة السهلة التي لا إصْرَ فيها ولا مشقة ولا عوائق ولا أغلال، والمنهج الذي كان على بني إسرائيل من العسر والضيق والنكال، كما هو واضح من قول الله ذي الجلال: ﴿**ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبيء الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والأنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. . .**﴾.

هذه هي المقارنة بين ما كان على اليهود من مشاق التكاليف، وبين ما جاء في الإسلام من يُسْرٍ ورحمةٍ وتخفيفٍ!. لو أنّ المنافقين اتّعظوا بهذا ونظروا نظرة جادّة لعلموا أنّ هذا هو الخير فاتّبعوه، وأنّه هو الهدى فالتزموه، ولحصلت لهم عزة الدنيا وسعادة الآخرة، ولدخلوا مع جماعة المطيعين السابقين منهم واللاحقين: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً**﴾، بعدما بيّن كيفية الطاعة، بيّن جزاء وما أعد للطائعين من خير في الدنيا والآخرة، وذلك الفضل من الله وذلك جزاء المحسنين!.

4 ـ أهبة الاستعداد للنضال والجهاد

النص

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ
فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعاً (70) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن
لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ
إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً (71) وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ
مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ يَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ
مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (72) * فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (73)
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيراً (74) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ
فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ
كَانَ ضَعِيفاً (75) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ

مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿76﴾ * أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿77﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿78﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿79﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿80﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿81﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿82﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ

بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿83﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿84﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿85﴾ ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿86﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**خُذُوا حذركم**﴾: تيقّظوا واحترزوا، يقال: أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من الخوف، فالحذر: توقّي المكروه، ومعناه هنا الاحتراس والاستعداد لاتّقاء شرِ عدوّ الإسلام... ﴿**فانفروا ثباتٍ**﴾: اخرجوا للحرب، ومصدره النفْر بسكون الفاء، بخلاف نفر ينفُر فمصدرُه النفور، وثبات جمع ثُبة بمعنى الجماعة من الرجال فوق العشرة، وَوَزْنُها في الأصل فُعَلَة، حذفت لامها وعوض عنها تاء التأنيث، مشتقة من ثَبَأَ يثْبُو بمعنى اجتمع، أو من ثَبَيْتَ على الرجل إذا اثنيت عليه، كأنّك جمعت محاسنه... ﴿**ليُبطِئَنَّ**﴾: بطّأ تقاصر وتثاقل وتخلّف عن الجهاد، وأصله: تثاقل في نفسه عن أَمْرٍ، ومعناه هنا: الإبطاء عن الخروج إبطاءً بداعِي النِفَاق... ﴿**فإن أصابتكم مصيبة**﴾: المصيبة اسم لما أصاب الإنسان من الشر، والمراد هنا مصيبة الحرب، من قتل أو هزيمة أو أسْرٍ... ﴿**أنعم الله عليّ**﴾: الإنعام هنا السلامة من القتل أو الأسر... ﴿**لم أكن معهم شهيداً**﴾: حاضراً معهم القتالَ... ﴿**فضل من الله**﴾: الفضل: الفتح والغنيمة، المودة الصحبة والمحبة... ﴿**فأفوز فوزاً عظيماً**﴾: الفوز هنا: الغنيمة الكثيرة...

﴿فليقاتل في سبيل الله﴾: القتال في سبيل الله الجهاد لإعلاء كلمة الله، وتمهيد السبيل لنشر الإسلام في جميع بقاع الأرض.. **﴿الذين يشرون﴾**: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، والشراء البيع كما في قوله: «وشروه بثمن بخس...» **﴿فيقتل أو يغلب﴾**: القتل هنا الشهادة، والغلبة: النصر على العدوّ. والأجر العظيم: أجر الجهاد: عزّة الدنيا وسعادة الآخرة... **﴿والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾**: هم من بَقِيَ من المؤمنين بمكة؛ بدليل قوله... **﴿الذين يقولون ربنا أخْرِجْنا من هذه القرية الظالِم أهلُها﴾**: فالقرية: مكة، وأهلها الظالمون كفار قريش. القتال في سبيل الله: هو الجهاد الذي أمر به الإسلام. والقتال في سبيل الطاغوت: هو الحرب الظالمة بسَبَبِ أمْرِ طاغ من طغاة السياسة، أو رغبة قوم لهم مطامع في السيطرة والحُكْم واستذلال المسْتَضْعَفِينَ. وأولياء الشيطان: هم المتربّصون بالإسلام وبالمسلمين دائماً؛ خوفاً من ظهور الحق وغلبته... **﴿إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾**: كيد الشيطان، ما يظهرعلي أوليائه من الكيد للمسلمين، والتدبير لتأليب الناس عليهم. والكيد: السعي في فساد الحال على جهة الاحتيال مع المُكْرِ والخبث...

﴿كفّوا أيديكم﴾: المراد بكف الأيدي هنا ترك القتال، وأصل الكف المنع، وسُمّيتْ الكفُّ كفّاً؛ لأنّ الإنسان يمنع بها ما يضره... **﴿فلما كتب عليهم القتال﴾**: فُرِضَ عليهم الجهاد... **﴿يخشون الناس﴾**: يخافون رُغْباً ورهَباً... **﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾**: المراد بالأجل القريب هنا المدة المتأخرة ريثما يتم استعدادهم... **﴿متاع الدنيا﴾**: ما يتمتع به الإنسان في حياته من مأكل وملبس، وما يتمتع به من الحاجات الضرورية والكمالية... **﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾**: لا تنقصون شيئا من أعماركم المكتوبة.. **﴿يدرككم الموت﴾**: يلحقكم الموت ويقضي عليكم. والبروج المشيدة: القصور العالية والحصينة والمنيعة بالمحافظة عليها وصيانتها. والإصابة: حصول حال أو ذات في ذات، يقال: أصابه مرض وأصابته نعمة وأصابه سهم، وهي مشتقة من اسم الصوب الذي هو المطر، وذلك كان ما يتصرف من الإصابة مشعراً بحصول مفاجئ أو قاهر، والمراد بالحسنة والسيّئة هنا: ما تعارفه العرب من قبل اصطلاح الشريعة، أعني: الكائنة الملائمة (حسنة)، والكائنة المنافرة (سيئة)، كقوله: «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى»، وشملت الحسنة والسيّئة ما كان من

الأعيان، كالمطر والصواعق والثمرة والجراد، وما كان من الأعراض، كالصحّة وهبوب الصَّبا والريح اللينة المنعشة والربح في التجارة، وأضدادها، كالمرض والسموم المهلكة والخَسَارَة. . .

﴿**لا يكادون يفقهون حديثاً**﴾: الفقه: فهم ما يحتاجُ إلى إعمالِ فِكْرٍ، وهو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، وهو أخص من العلم، ويقال عنه: إدراك الأشياء الخفية. . . ﴿**وأرسلناك للناس رسولاً**﴾: المراد بالرسول هنا: معناه الشرعي المعروف، وهو النبيء المبلغ عن الله تعالى، فهو لفظٌ لقبِيٌّ دالٌّ على هذا المعنى، وليس المراد به اسم المفعول بالمعنى اللغوي. . . ﴿**ومن تولَّى**﴾: انصرف وأدبر وأعرض واستمرّ على المكابرة، وحقيقة التولي: الانصراف والإدبار. . . ﴿**ويقولون طاعة**﴾: هي كلمة يدلون بها على الامتثال، ويقال: سمْعٌ وطاعةٌ. ﴿**برزوا**﴾: خرجوا، وأصل معنى البروز الظهور. ﴿**بيّت**﴾: قدّر أمراً في السر وأضمره، وأصل ﴿**البيات**﴾: فعل شيء في الليل، فهو أكتم للسرّ، ويقال: هذا أَمْرٌ دُبِرَ بليل. ﴿**فأعرض عنهم**﴾: لا يهمك أمرهم ولا تكثرت بهم، فإنّهم لا يُخشى خلافُهم. . . ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾: التدبّر مشتق من الدبر، وهو الخلف وكل ما كان وراء الظهر، اشتقّوا من الدبر فعلاً، فقالوا: تدبّر إذا نظر في دُبُرِ الأمْرِ؛ في غائبه أو عاقبته، فهو من الأفعال التي اشتقت من الأسماء الجامدة. . .

﴿**وإذا جاءهم أمر**﴾: الأمر هنا بمعنى الشيء، وهو هنا الخبر بقرينة قوله: ﴿**أذاعوا به**﴾. والأمن: الظفر والنصر الذي يوجب الأمن، والخوف ضدُه. ﴿**أذاعُوا به**﴾: ذاع بالخبرأفشاه وأظهره، ويقال: أذاع برّه، وذيوع الخبر انتشاره. . . ﴿**ولو رَدُّوه إلى الرسول**﴾: حقيقة الرّد: إرجاع شيء إلى ما كان فيه من مكان أو يدٍ. وأولوا الأمر: هم كُبَرَاء المسلمين وأهل الرأي منهم. ﴿**يستنبطونه**﴾: حقيقة الاستنباط طلب النّبط، وهو أوّل الماء الذي يخرج من البئر عند الحفر، ويُطلق الاستنباط على معنى التفسير والتبيين. ﴿**وحرض المؤمنين**﴾: التحريض الحثُّ على الشيء مثل: «حرض المؤمنين على القتال. . .» ﴿**بأس الذين كفروا**﴾: البأس الشدّة في الحرب، وبأس الذين كفروا، كثرة عَدَدهم وعُدَدهم. . . ﴿**والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً**﴾: التنكيل: عقاب يرتدع به رائيه، فضلاً عن الذي عوقب به. . .

﴿**من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها**﴾: الشفاعة: الوساطة في إيصال خير أو دفع شر، سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا. والنصيب الحظ من كل شيء. والكِفل مثله، وقيل: النصيب يطلق على الأكثر، والكفيل يطلق على المماثل، بمعنى أنّ الحسنة جزاؤها مضاعف، والسيئة جزاؤها مماثل، «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيّئة فلا يجزي إلاّ مثلها..»، ولايخفي ما في معْنَي الكفل من الثقل... ﴿**وكان الله على كل شيء مقيتا**﴾: المقيت الحافظ والرقيب والشاهد والمقتدر، وهو اسم فاعل من أقات إذا أعطي القوت، وهو هنا مستعمل في معنى الاطّلاع... ﴿**وإذا حيّيتم بتحية**﴾: حيّاه تحية دعا له بالحياة، من قول العرب حيّاك الله، بمعنى وهب لك طول الحياة. والتحية في الإسلام ما تعارف عليه المسلمون من النطق بالسلام. الحسيب: العليم والمُحْصِي والمُحاسِب.

مبحث الإعراب

﴿**يا أيُها الذين آمنوا**﴾: يا للنداء، أيُّ منادي، ها للتنبيه، الذين في محل نصب نعت لأيُّ باعتبار محلها، وجملة آمنوا صلة الذين. ﴿**خذوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**حذركم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فانفروا**﴾ الفاء للتفريع، انفروا فعل أمر، فاعله واو الجماعة. ﴿**ثباتٍ**﴾ حال من الضمير المرفوع، منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنّه جمع مؤنث سالم. ﴿**أو انفروا**﴾ معطوف على ما قبله، وهو مثله في الإعراب. ﴿**جميعاً**﴾ حال كذلك. ﴿**وإنّ منكم لمن ليبطّئن**﴾ الواو للعطف، إنّ حرف توكيد ونصب، منكم جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدّم، لمن اللام للابتداء دخلت على اسم إنّ للفصل بالخبر، مَنْ اسم موصول اسم إنّ في محل نصب، ليُبطّئن اللام لام القسم، يبطئن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والقسم وجوابه صلة مَنْ، والعائد على الموصول الضمير الفاعل، والتقدير: وإنّ منكم لمن أقسم بالله ليبطّئن. ﴿**فإن أصابتكم مصيبة**﴾ الفاء للتفريع، إنْ حرف شرط جازم، أصابتكم فعل ماض، والضمير فيه (كُمْ) مفعول به، مصيبة فاعل مرفوع بالضمة، وأصابتكم فعل الشرط في محل جزم.

﴿**قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً**﴾ قال فعل ماض جواب

الشرط في محل جزم، وفاعله ضمير يعود على مَنْ يُبطِّئ، قد حرف تحقيق، أنعم فعل ماض، اللهُ فاعل مرفوع بالضمة، عليّ جار ومجرور متعلق بأنعم، وجملة قد أنعم في محل نصب مقول القول، إذ ظرف لما مضى من الزمان، لم حرف جزم ونفي، أكن فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون، واسمه ضمير يعود على المذكور، معهم ظرف أضيف إليه ضمير الجماعة، شهيداً خبر أكن منصوب بالفتحة، تعلق به الظرف قبله، ومتعلق الظرف (إذْ) أنعم الله عليّ، وجملة لم أكن معهم شهيداً مضاف إلى الظرف (إذْ).

﴿**ولئن أصابكم فضل من الله**﴾ الواو للعطف، اللام لتوكيد الكلام، إنْ حرف شرط جازم، أصابكم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، والضمير فيه مفعول به، فضلٌ فاعل مرفوع بالضمة، من الله جار ومجرور متعلق بفضل. ﴿**ليقولنّ**﴾ اللام مؤكدة للقول، يقولن فعل مضارع مبنيٌّ على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل ضمير يعود على المذكور قبلُ، والفعل جواب الشرط في محل جزم. ﴿**كأنْ لم يكن بينكم وبينه مودّة**﴾ الكاف للتشبيه، أنْ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، لم حرف نفي وجزم وقلب، يكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون، بينكم ظرف مكان منصوب بالفتحة، والضمير (كُم) مضاف إليه متعلق بمحذوف خبرُ يكن، مودّةٌ اسم يكن مرفوع بالضمة، وجملة لم يكن في محل رفع خبر أنْ المخففة، وجملة كأنْ لَمْ يَكُن اعتراضية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ياليتني كنت معهم**﴾ يا للتنبيه، ليتني حرف ترجٍّ يعمل عمل إنّ، واسمها ضمير المتكلم الياء الساكنة بعد نون الوقاية في محل نصب، كنت كان واسمها، معهم ظرف مكان، والضمير (هُمْ) مضاف إليه، وجملة كنت في محل رفع خبر ليت، وجملة يا ليتني في محل نصب مقول القول. ﴿**فأفوز فوزاً عظيماً**﴾ الفاء للسببية، أفوز فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية منصوب بالفتحة لأنه جواب التمني، والفاعل ضمير تقديره أنا يعود على المتمنّي، فوزاً مفعول مطلق منصوب بالفتحة، عظيماً نعت له.

﴿**فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة**﴾ الفاء فاء الفصيحة، أفصحت عما دل عليه ما تقدم، اللام لام الأمر، يقاتل فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه السكون، في سبيل الله جار ومجرور متعلق

بيقاتل، الله مضاف إلى سبيل مجرور بالكسرة، الذين فاعل يقاتل في محل رفع، يشرون فعل وفاعل صلة الموصول، والرابط بين الموصول وصلته واو الجماعة، الحياة مفعول به منصوب بالفتحة، الدنيا نعت للحياة منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذّر، بالآخرة جار ومجرور متعلق بيشرون. ﴿**ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً**﴾ الواو للعطف، مَنْ اسم شرط جازم، يقاتل فعل مضارع؛ فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، في سبيل جار ومجرور متعلق بيقاتل، اللهِ مضاف إلى سبيل مجرور بالكسرة، فيقتل الفاء للعطف والترتيب، يقتل فعل مضارع مبنيّ للمجهول معطوف على يقاتل مجزوم بالسكون، ونائب الفاعل ضمير يعود على مَنْ، أو يغلب معطوف على يُقتل مجزوم بالسكون، وفاعله ضمير يعود على مَنْ أيضا، فسوف الفاء واقعة في جواب الشرط، سوف حرف تسويف، نؤتيه فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والضمير فيه المفعول الأول لنؤتي، والفاعل ضمير (نحن)، أجراً المفعول الثاني، عظيماً نعت له منصوبان بالفتحة، وجملة فسوف نؤتيه في محل جزم جواب الشرط (مَنْ). ﴿**وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله**﴾ الواو حرف عطف،

ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، لكم جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر، لا حرف نفي، تقاتلون فعل وفاعل. في سبيل جار ومجرور. الله مضاف إلى سبيل، وجملة لا تقاتلون في محل نصب حال من الضمير المجرور. ﴿**والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان**﴾ والمستضعفين معطوف على اللهِ مجرور بالياء لأنّه جمع مذكر سالم، من الرجال جار ومجرور متعلق بالمستضعفين، والنساء والولدان معطوفان على الرجال مجروران بالكسرة. ﴿**الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها**﴾ الذين اسم موصول نعت للمستضعفين في محل جر، يقولون فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والرابط بينهما ضمير الجماعة، ربنا منادى منصوب بالفتحة، وضمير الجماعة (نا) مضاف إليه، أخرجنا فعل دعاء، والفاعل ضمير يعود على ربنا، وضمير الجماعة (نا) مفعول به، من هذه جار ومجرور متعلق بأخرجنا، القرية بيان لهذه مجرور بالكسرة، الظالمِ نعت سببي للقرية مجرور بالكسرة، أهلُها فاعل باسم الفاعل مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة ربنا أخرجنا في محل نصب

مقول القول. **﴿واجعل لنا من لدنك وليّاً﴾** معطوف على أخرجنا، وهو مثل أخرجنا في الإعراب، لنا جار ومجرور متعلق باجعل، من لدنك لدن مجرور بمن مبني على السكون في محل جر، وضمير الخطاب (ك) مضاف إلى لدن، وهو متعلق باجعل كذلك، وليّاً مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾** مثلها.

﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾ الذين مبتدأ في محل رفع، آمنوا فعل وفاعل صلة الذين، يقاتلون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ، في سبيل جار ومجرور متعلق بيقاتلون، اللهِ مضاف إلى سبيل مجرور بالكسرة. **﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾** معطوف على الذين آمنوا وهي مثلها في الإعراب. **﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾** الفاء للتعقيب، قاتلوا فعل أمر، واوو الجماعة فاعل، أولياءَ مفعول به منصوب بالفتحة، الشيطانِ مضاف إلى أولياء مجرور بالكسرة. **﴿إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾** إنّ حرف توكيد ونصب، كيد اسم إنّ منصوب بالفتحة، الشيطان مضاف إلى كيد مجرور بالكسرة، كان فعل ماض ناقص، واسمُها ضمير يعود على كيد الشيطان، ضعيفاً خبر كان منصوب بالفتحة، وجملة كان ضعيفاً في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ كيد الشيطان تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ الهمزة للاستفهام، لم حرف نفي وجزم وقلب، تر فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف الألف، والفاعل ضمير السامع (أنت)، إلى الذين جار ومجرور متعلق بتر، قيل لهم فعل ماض مبنيّ للمجهول، ولهم جار ومجرور متعلق بقيل، وجملة قيل لهم صلة الذين لا محل لها من الإعراب، والرابط بين الصلة والموصول الضمير في لهم، كفوا فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، أيديكم مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة كفوا مقول القول في محل رفع نائب فاعل قيل.

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ جملتان معطوفتان على كفّوا أيديكم، وهما مثلها في الإعراب. **﴿فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشيةً﴾** الفاء للعطف والتعقيب، لمّا ظرفية فيها معنى الشرط، كتب فعل ماض مبني للمجهول، عليهم جار ومجرور متعلق بكتب، القتالُ نائب فاعل

كُتب مرفوع بالضمة، إذا الفجائية، فريقٌ مبتدأ مرفوع بالضمة، منهم جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لفريق، يخشون فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ، وجملة إذا فريق جواب لمّا، الناس مفعول به منصوب بالفتحة، كخشية جار ومجرور، اللهِ مضاف إلى خشية مجرور بالكسرة، أو حرف عطف، أشدَّ معطوف على خشية مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنّه ممنوع من الصرف، والمانع له من الصرف الوصفية ووزن الفعل، خشية تمييز منصوب بالفتحة. ﴿**وقالوا ربّنا لم كتبت علينا القتالَ**﴾ الواو للعطف، قالوا فعل وفاعل، ربّنا منادى منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه، لِمَ ما اسم استفهام دخل عليها لام الجر، فحُذِفَ ألفُها تخفيفاً، كتبت فعل وفاعل، علينا جار ومجرور متعلق بكتبت، القتالَ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**لولا أخرتنا إلى أجل قريب**﴾ لولا أداة تحضيض، أخرتنا فعل وفاعل ومفعول، إلى أجل جار ومجرور متعلق بأخرتنا، قريب نعت لأجل مجرور بالكسرة، ﴿**قل متاع الدنيا قليل**﴾ قل فعل أمر، والفاعل فيه (أنت)، متاع مبتدأ مرفوع بالضمة، الدنيا مضاف إلى متاع مجرور بكسرة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، قليل خبر المبتدإ مرفوع بالضمة، وجملة متاع الدنيا قليل في محل نصب مقول القول.

﴿**والآخرة خير لمن اتقى**﴾ الواو للعطف، الآخرة مبتدأ مرفوع بالضمة، خير خبر المبتدإ مرفوع بالضمة، لمن جار ومجرور متعلق بخير، اتقى فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة الموصول، والرابط الضمير المرفوع هو. ﴿**ولا تظلمون فتيلاً**﴾ الواو للعطف، لا حرف نفي، تظلمون فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، فتيلاً المفعول الثاني لتُظلمون منصوب بالفتحة. ﴿**أينما تكونوا يدرككم الموت**﴾ أينما اسم شرط جازم، تكونوا فعل الشرط مجزوم بحذف النون، وواو الجماعة فاعل، يدرككم فعل مضارع جواب الشرط مجزوم بالسكون، وضمير الجماعة (كُمْ) مفعول به، الموتُ فاعل مرفوع بالضمة. ﴿**ولو كنتم في بروج مشيدة**﴾ الواو حرف عطف، لَوْ وصلية يؤتى بها للمبالغة في الخبر، كنتم كان واسمها، في بروج جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر كان، مشيدة نعت لبروج مجرور بالكسرة. ﴿**وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله**﴾ الواو للعطف، إنْ حرف شرط جازم، تصبهم فعل مضارع فعل الشرط مجزوم بالسكون، وضمير الجماعة (هُمْ) مفعول به، حسنة فاعل مرفوع بالضمة،

يقولوا فعل مضارع جواب الشرط مجزوم بحذف النون، وواو الجماعة فاعل، هذه في محل رفع مبتدأ، من عند جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر، اللهِ مضاف إلى عند مجرور بالكسرة، وجملة هذه في محل نصب مقول القول.

﴿**وإنْ تصبهم سيّئة يقولوا هذه من عندك**﴾ معطوفة على ما قبلها، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**قل كل من عند الله**﴾ قل فعل أمر، كل مبتدأٌ مرفوع بالضمة، من عند جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، والمبتدأ وخبره في محل نصب مقول القول، اللهِ مضاف إلى عند مجرور بالكسرة. ﴿**فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً**﴾ الفاء للعطف والترتيب، ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، لهؤلاء جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، القوم بيان لهؤلاء مجرور بالكسرة، لا يكادون الجملة المنفية هذه في محل نصب حال من القوم، واسم يكاد الواو فيه، وجملة يفقهون في محل نصب خبر يكاد، حديثاً مفعول به منصوب بالفتحة.

﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله**﴾ ما اسم شرط جازم، أصاب فعل الشرط في محل جزم، وضمير المخاطب (ك) مفعول به، من حسنة حرف الجر زائد، حسنة فاعل أصاب جُرّ لفظها بحرف الجر الزائد، وهي في محل رفع، فمن الله الفاء واقعة في جواب الشرط، من الله جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لمبتدإ مقدر دخلت عليه فاء الجواب، وهو في محل جزم، والتقدير: ما أصابك من حسنة فهو كائن من الله. ﴿**وما أصابك من سيّئة فمن نفسك**﴾ معطوفة على ما قبلها، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**وأرسلناك للناس رسولاً**﴾ الواو للعطف، أرسلنا فعل وفاعل، والكاف في محل نصب مفعول به، للناس جار ومجرور متعلق بأرسلنا، رسولاً حال من الضمير المنصوب بالفتحة.

﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾ تقدّم إعراب أمثلة هذا. ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ مَن اسم شرط جازم، يطع فعل الشرط أصل جزمه السكون، ولكن حُرّك بالكسرة لالتقاء الساكنين، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، الرسول مفعول به منصوب، فقد الفاء واقعة في جواب الشرط، قد حرف تحقيق، أطاع فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، الله معمول لأطاع منصوب بالفتحة، وجملة فقد أطاع في محل جزم جواب الشرط.

﴿**ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً**﴾ الواو للعطف، مَنْ اسم شرط جازم، تولّى فعل الشرط في محل جزم، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، فما الفاء واقعة في جواب الشرط، ما حرف نفي، أرسلناك فعل وفاعل ومفعول، وجملة فما أرسلناك في محل جزم جواب الشرط، عليهم جار ومجرور متعلقة بما بعدها، حفيظاً حال من الضمير المنصوب. ﴿**ويقولون طاعة**﴾ الواو للعطف، يقولون فعل وفاعل، طاعة خبر لمبتدإ محذوف مرفوع بالضمة، والتقدير: شأننا طاعةٌ، والجملة من المبتدإ والخبر في محل نصب مقول القول. ﴿**فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول**﴾ الفاء للعطف والترتيب، إذا لمستقبل الزمان متضمنة معنى الشرط، برزوا فعل وفاعل، من عندك جار ومجرور متعلق ببرزوا، والضمير فيه مضاف إليه، بيَّت فعل ماض جواب إذا، طائفة فاعل بيّت مرفوع بالضمة، منهم جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لطائفة، غير مفعول به منصوب بالفتحة، الذي في محل جر مضاف إلى غير، تقول فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير (أنت)، وجملة تقول صلة الذي لا محل لها من الإعراب، والرابط بين الموصول وصلته ضمير مقدر في الفعل (تقوله).

﴿**والله يكتب ما يبيتون**﴾ الواو للعطف، الله مبتدأ مرفوع بالضمة، يكتب فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله، وجملة يكتب في محل رفع خبر المبتدإ، ما اسم موصول في محل نصب مفعول يكتب، يبيتون فعل وفاعل صلة ما لا محل لها من الإعراب، والرابط ضمير مقدر في الفعل (يبيتونه)، وجملة والله يكتب اعتراضية لا محل لها من الإعراب. ﴿**فأعرض عنهم**﴾ الفاء هنا سببية، أعرض فعل أمر، والفاعل ضمير (أنت)، عنهم جار ومجرور متعلق بأعرض. ﴿**وتوكل على الله**﴾ مثلها في الإعراب. ﴿**وكفى بالله وكيلاً**﴾ عُلِم إعرابها مما تقدم من أمثلتها. ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾ الهمزة للاستفهام داخلة على فعل مقدر، أي: أيغفلون؟. فلا يتدبرون، والفاء للتفريع، لا حرف نفي، يتدبرون فعل وفاعل، القرآن مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ الواو للعطف، لو حرف امتناع لامتناع متضمن معنى الشرط، كان فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على القرآن، من عند جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر كان، غيرِ مضاف إلى عند مجرور بالكسرة، اللهِ مضاف إلى غير مجرور بالكسرة، لوجدوا اللام واقعة في جواب لو، وجدوا فعل

وفاعل، فيه جار ومجرور متعلق بوجدوا، اختلافاً مفعول به منصوب بالفتحة، كثيراً نعت لخلافاً.

﴿**وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به**﴾ الواو للعطف، إذا ظرف للزمان المستقبل متضمن معنى الشرط، جاءهم فعل ماض، والضمير فيه مفعول به، أمرٌ فاعل جاء مرفوع بالضمة، من الأمن جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لأمر، أو الخوف معطوف على الأمن مجرور بالكسرة، أذاعوا فعل وفاعل جواب إذا، به جار ومجرور متعلق بأذاعوا. ﴿**ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**﴾ الواو للعطف، لو مثل لو الأُولَي، ردُّوه فعل وفاعل ومفعول، إلى الرسول جار ومجرور متعلق بردُّوه، وإلى أولي جار ومجرور معطوف على الرسول الأمر مضاف إلى أولِي منهم جار ومجرور متعلق بمحذوف وصف لأولي الأمر، لعلمه اللام واقعةٌ في جواب لو، علمه فعل ماض، والضمير فيه مفعول به، الذين فاعل علم في محل رفع، يستنبطونه فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والرابط الضمير المنصوب، منهم جار ومجرور متعلق بمحذوف وصف للذين.

﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتّبعتم الشيطان إلاّ قليلاً**﴾ الواو للعطف، لولا حرف امتناع لوجود متضمنٌ معنى الشرط، فضل مبتدأ مرفوع بالضمة، الله مضاف إلى فضل مجرور بالكسرة والخبر محذوف، أي: موجود، لاتّبعتم اللام واقعة في جواب لولا، اتّبعتم فعل وفاعل، الشيطان مفعول به منصوب بالفتحة، إلاّ أداة استثناء، قليلاً مستثنى منصوب بالفتحة. ﴿**فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك**﴾ الفاء واقعة في جواب شرط مقدر، أي: إذا كان الأمر كذلك فقاتل في سبيل الله، قاتل فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب (أنت)، في سبيل جار ومجرور متعلق بقاتل، اللهِ مضاف إلى سبيل مجرور بالكسرة، لا تكلف لا نافية، تكلف فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير المخاطب (أنت)، إلاّ أداة استثناء، نفسَك مستثنى منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وحرّض المؤمنين**﴾ الواو للعطف، حرض فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب (أنتَ)، المؤمنين مفعول به منصوب بالياء لأنّه جمع مذكر سالم. ﴿**عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا**﴾ عسى فعل ماض من أخوات كاد ترفع الاسم وتنصب الخبر،

اللهُ اسمها مرفوع بالضمة، أنْ حرف مصدر ونصب، يكف فعل مضارع منصوب بالفتحة، والفاعل ضمير يعود على الله، بأس مفعول به، الذين مضاف إلى بأس في محل جر، كفروا فعل وفاعل صلة الذين، وأن يكفّ في تأويل مصدر خبر عسى.

﴿والله أشدّ بأساً﴾ الواو للعطف، الله مبتدأ مرفوع بالضمة، أشدّ خبر المبتدإ مرفوع بالضمة، بأساً تمييز منصوب بالفتحة، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب. **﴿وأشد تنكيلاً﴾** مثلها في الإعراب. **﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾** مَنْ اسم شرط جازم، يشفع فعل الشرط مجزوم بالسكون، وفاعل يشفع ضمير يعود على مَنْ، شفاعة مفعول منصوب بالفتحة، حسنة نعت لشفاعة، يكنْ جواب الشرط مجزوم بالسكون، له جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر يكن، نصيب اسم يكن، منها جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لنصيب.

﴿ومن يشفع شفاعة سيّئة يكن له كفل منها﴾ معطوفة على مَنْ يشفع شفاعة حسنة، وهي مثلها في الإعراب. **﴿وكان الله على كل شيء مقيتا﴾** الواو للعطف، كان الله كان واسمها، على كل جار ومجرور متعلق بخبر كان، شيءٍ مضاف إلى كلّ مجرور بالكسرة، مقيتاً خبر كان منصوب بالفتحة، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب. **﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردُّوها﴾** الواو للعطف، إذا لمستقبل الزمان شرطية، حُيّيتم فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير المخاطبين (تُمْ)، الجملة مضافة إلى الشرط في محل جر، بتحية جار ومجرور متعلق بحييتم، فحيّوا الفاء واقعة في جواب الشرط، حيّوا فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، بأحسن أَحسنَ مجرور بالفتحة لمنعه من الصرف للوصفية ووزن الفعل. جار ومجرور متعلق بحيّوا، منها جار ومجرور متعلق بأحسن، أو ردوها معطوف على حيُّوا، وهي فعل وفاعل ومفعول. **﴿إنّ الله كان على كل شيء حسيباً﴾** إنّ الله إنّ واسمها، كان اسمها ضمير يعودُ على الله، على كل جار ومجرور متعلق بخبر كان، شيء مضاف إلى كل مجرور بالكسرة، حسيباً خبر كان، وجملة كان الله في محل رفع خبر إنّ، والجملة تذييلية لا محلّ لها من الإعراب.

﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ اللهُ مبتدأ مرفوع بالضمة، لا إله لا نافية للجنس تعْمَلُ عمل إنّ، إله اسمُ إنّ مبني على الفتح في

محل نصب، إلاّ أداة استثناء مفرّغ، هو في محل رفع بدل من خبر لا، أي: لا إله معبودٌ إلاّ هو، والجملة خبر المبتدأ ليجمعنكم اللام للتوكيد والقسم، يجمعنكم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل ضمير يعود على الله، وضمير المخاطبين «كم» مفعول به والجملة جواب القسم، وجملة القسم وجوابه خبر ثانٍ للمبتدإ (اللهُ)، إلى يوم جار ومجرور متعلق بيجمعنكم، القيامة مضاف إلى يوم مجرور بالكسرة، لا ريب لا نافية للجنس، ريب اسمها مبنيّ على الفتح في محل نصب، فيه جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لا، وجملة لا ريب فيه صفة لمصدر يجمعنكم، أي: جمْعاً غَيْر مرتاب فيه. **﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾** الواو للعطف، مَنْ اسم استفهام مبتدأ في محل رفع، أصدق خبر المبتدإ مرفوع بالضمة، من الله جار ومجرور متعلق بأصدق، حديثاً تمييز منصوب بالفتحة، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿ياأيّها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾: الإعداد الحربي والتعبئة العامّة؛ وهو تنبيه وتحذير من العدوّ الكاسح والمتربص الكائد، وهو ضروري لأمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، أمة تقيم العدل وتلتزم بالواجب وتعطي الحقوق، أمة قائدها الرسول ومنهجها كتاب الله، وغايتها تنفيذ ما فيه من الحذر والانتباه. وابتدأ بالأمر بأخذ الحذر، وهي أكبر قواعد القتال لاتقاء خدع الأعداء. ولفظ خذوا استعارة لمعنى شدّة الحذر وملازمته، لأنّ حقيقة الأخذ تناول الشيء الذي كان بعيداً عنك، ولمّا كان النسيان والغفلة يشبهان البعد والإلقاء، كان التذكر والتيقظ يشبهان أخذ الشيء بعد إلقائه، كقوله: «خُذ العفْوَ»، وقولهم: أَخَذَ عليه عهداً وميثاقاً، وليس الحذرُ مجازاً في السلاح كما توهّمه كثير، فإنّ الله تعالى قال في الآية الأخرى: «وخذوا حذركم وأسلحتكم»، فعطف السلاح عليه.

وقوله... **﴿فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾**: تفريع عن أخذ الحذر، لأنّهم إذا أخذوا حذرهم تخيّروا أساليب القتال بحسب حال العدوّ... **﴿وإنّ منكم لمن ليبطّئن﴾**: هذه الجملة موصولة ومرتبطة بما قبلها؛ ليظهر الفرق بين من يلبّي هذا الطلب وبين من يتأبى ويتثاقل ويتهرب، وقد أكدت بأقوى المؤكِّدات لما فيها من التعجيب والاستغراب، والإنكار والتعريض بقوم يدّعون بأنّهم منكم «يحلفون بالله

إنّهم لمنكم وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون»! . **﴿وإنّ منكم لمن ليبطّئن﴾**! تتركب الجملة من المؤكدات الآتية: العطف على الأمر، إنّ المؤكدة للخبر، تقديم منكم وهو المهم في الخبر، دخول لام التوكيد على من (لمن) وإبهامها ليظهر المعنى في الصلة، وهو قَسَمٌ حُذِفَ ورُمِز له باللام في الجواب (ليبطّئن)؛ لتظهر كلمة (ليبطّئن) جليّةً واضحةً، وفي الكلمة نون التوكيد الثقيلة، وكونها فعلاً مضارعاً؛ ليستمر هذا الحكم عالقاً بالمنافقين دائماً، وإضمار الفاعل فيه ليعود على مَنْ، ليشمل كل من يفعل هذا الفعل أو يقول هذا القول، فالحكم لا يخص فلانا ولا علاّناً، ولكنه يطبق على كل من يتّصف بوصْف هذا التبطُّؤ، ومع هذا كله فالكلمة مختارة لأَنْ تؤدي هذا المعنى بجرسها بكل ما فيها من ثقل وتعثر، وإنّ اللسان ليتعثر في حروفها من شدّتها ووطئتها، وإنّها لتُصوّر الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثر والتثاقل في جرسها. ولغرابة هذه الكلمة لم تأت في القرآن كله إلاّ هنا، حيث احتيج إليها لتؤدي دورَها في هذا المشهد العجيب! . .

﴿فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذْ لم أكن معهم شهيداً﴾: هذه هي حقيقة المنافق تظهر بسرعة على لسانه عندما يحسّ بسلامته هو وحدَه، ويرى من ينتسب إليه يتجرع المصائب ويكايد الأهوال، تظهر عليه فَرْحَة النشوة وحكمة التدبير «قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً. . .» **﴿ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة ياليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾**: المنافق هنا يتلوّن حسب المواقف والظروف، فهو لا يحسّ إلا بنفسه ولا يهمه الغير مهما كان هذا الغير، يفرح بالمصيبة في غيره، ويحزن عندما يصيب الفضلُ سواه. وفي هذه الجملة من المؤكِّدات ما هو واضح جليٌّ، لينبه على غريب حالة هذا المنافق المتلوّن حسب الظروف والأجواء. وَوَجْهُ غَرِيبِ حَالِهِ، أنّه أصبح متلهفاً على ما فاته بنفسه، وأنّه يَوَدُّ أن تجرى المقادير على وفق مُرادِهِ، فإذا قعد عن الخروج لا يصيب المسلمين فضلٌ من الله!.

وقوله: كأن لم يكن بينكم وبينه مودة؛ معترضة بين القول ومقوله، ليبين حقيقة أمْرِهِ، فهو تهكم بهذه المودّة السطحية الزائفة، مودّة النفاق التي كانوا يتظاهرون بها، حتى كشفت الوقائع عنها!. وهكذا يرتسم ذلك النموذج الإنساني

المتكرر في بني الإنسان، في كل زمان ومكان، يرتسم في هذه الكلمات المعدودات والأسطر القلائل، فيبقى شاخصاً في الزمان، ممثلاً في الواقع وفي الأذهان. . . ﴿**فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة**﴾: هذا كشف لنموذج المؤمنين الصادقين، الذين يبذلون الحياة الدنيا ويرغبون في حظ الآخرة. وإسناد القتال المأمور به إلى أصحاب هذه الصلة (يشرون الحياة الدنيا بالآخرة)، للتنويه بفضل المقاتلين في سبيل الله، لأنّ في الصلة إيحاء إلى علة الخير، أي: يبعثهم على القتال في سبيل الله بذلُهم حياتَهم الدنيا لطلبهم الحياة الأبدية، وفضيحة أمر المُبطّئين حتى يَرْتَدِعُوا عن التخلف، وحتي يكشف المنافقون عن دخيلتهم، فكأنّ معنى الكلام: فليقاتل في سبيل الله المؤمنون حقاً فإنّهم يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، والغرض من هذا الثناء على المجاهدين وتحقير المبطّئين. . .

﴿**ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً**﴾: هذا ما يترتب على الجهاد للمجاهد، فلن تذْهَبَ جهودُهُ وتضحياته بدون جدوى أو بدون مقابل، فإنّ من يقاتل في هذا السبيل بهذه النية، ولِتِلْكَ الغاية، ثم يستشهد بالقتل، أو يُكتب له النصرُ والغلبةُ، فله في كلتا الحالتين أجرٌ عظيم!. أجْرٌ لا يُفَصِّلُهُ السياقُ هنا، بل يدعُهُ هكذا مجملاً، ينطوي على كل ما تنتظره الأنماط المتعددة من نفوس الناس، من ألْوانِ الأجر في الدنيا وفي الآخرة سواء. . . ﴿**وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً**﴾: في هذا الكلام التفات من باب الغيبة، وهو التعبير بالموصول ﴿**الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة**﴾، إلى التعبير بالمخاطبة (ومالكم). والاستفهام إنكاري، أي: لا شيء لكم في حال (لا تقاتلون)، فهو بمنزلة أمْرٍ، أي: قاتلوا في سبيل الله لا يصدكم شيءٌ عن القتال. و(في) للتعليل، أي: لأجل دينه. وفيه تهييج يستجيش به مروءة النفوس وحساسية القلوب تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يُقاسون المظالم والهوان، والذين يتطلعون إلى الخلاص وهم ضعاف، والذين يدْعون الله أن يُخرجَهم من قبضة الظلم ومن دار العدوان.

ومشهد المرأة الكسيرة والوليد الضعيف، مشهد مؤثّر مُثيرٌ لا يقل عنه مشهد

الرجال المستضعفين، الذين لا يملكون أن يدافعوا!. وهذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد، وهو وحدَه يكفي، فهو لذلك لا يدعوه دعْوةً مباشرة، بل يفرض أن المشهد بذاته يدعوهم، ويسأل فقط: ما الذي يعوقكم عن الاستجابة لهذه الصرخات؟. وهو أسلوب عميق الوقْع بعيد الغوْرِ في مسارب النفوس... **﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾**: هذا عرض لموقفين مختلفين: المؤمنون يقاتلون في سبيل الحق، والكافرون يقاتلون من أجل الباطل!. إنّ اقتناع المقاتل بأنّه يقاتل للحق ولغاية نبيلة، وبأنّ عدوّه متعدٍّ أو يبتغي غاية خسيسة، عاملٌ قوي في رفع قواه المعنوية، وفي إقدامه على التضحية باطمئنان، فإذا أضيف إلى ذلك الاقتناع أنّه ليس على الحق فقط، إنّما هو كذلك أقوى، وسندُه أكبرُ، وذخيرته أوفر، وأنّ عدوّه مَوْهُونُ القوى منخوبُ القلب مستند إلى هواء، فإنّ هذه الروح المعنوية ترتفع إلى ذروتها بهذا الإيحاء، فإذا كان هذا الإيحاءُ قائماً على حقيقة في الواقع القريب، وفي حساب الكون البعيد، فإن النصر مقطوع به للمجاهدين الأقوياء المُحقِّين، وفي السياق مقابلة عجيبة بين الحق المطلق (سبيل الله) وبين الباطل المطلق (سبيل الطاغوت)!. يقف الذين آمنوا مستندين إلى قوة الله وحمايته ورعايته، ويقف الذين كفروا أولياء الشيطان، فأين كيد الشيطان مع قوة الله، وأين كيد الشيطان من تدبير الله؟..

﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾: وهنا تتضح نتيجة المعركة، فمصيرها معروف، ونهايتها مكشوفة، فما على المؤمن إلاّ أن يؤدّي واجبَه، والنصر مَضْمُونٌ تشهد به جميع الملابسات والظروف. والمراد هنا بكيد الشيطان تدبيره، وهو ما يظهر على أتباعه من الكيد للمسلمين، والتدبير لتأليب الناس عليهم. وأكد الجملة بمؤكدين (إنّ) و (كان) الدالة على تقرُّرِ وصف الضعف لكيد الشيطان، فالمعنى إنّ كيد الشيطان منذ كان كان موصوفاً بالضعف، وهذا في حدّ ذاته، فكيف بالقياس إلى قدرة الله؟!..

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كُفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾: هذا الكلام المصدَّرُ بألم تر إلى الذين... غالباً ما يُوجَّه إلى الذين يدّعون أنّهم على شيء يُعتدُّ به وهم على غير ما يدّعون؛ وُجّه إلى اليهود في عدة آيات من الكتاب

الحكيم، ووُجّه إلى المنافقين كذلك، وما هنا مُوَجَّهٌ إلى المنافقين سواء كانوا من اليهود أو من العرب، ومن المحتمل أن يكون في المسلمين الصادقين من ذوي النيّات الحسنة، مَنْ قد تنطلي عليهم ما يشيعه هؤلاء المنافقون من الأراجيف والتمويهات المضللة؛ لأنّ الموقف الذي يقِفُه الإسلام في وقت نزول القرآن صعب وخطير في مكانه وزمانه، فاليهود في المدينة يتربصون بالإسلام والمسلمين الدوائر، وقريش وما حولها من قبائل العرب تتأهّب للانقضاض على القلة القليلة من المسلمين في المدينة، كُلٌّ من اليهود والعرب يتحينون الفرصة السانحة للقضاء على الإسلام والمسلمين، قبل أن يشتدّ عودُه وتنمو أوراقه وتينع ثمارُه فتنتشر في الأرض، وتذهب ريح اليهود والجاهلية من الوجود. والاستفهام موجَّهٌ إلى كل من تمكنه الرؤية ليرى هؤلاء ذاتاً وصفاتٍ، أو يسمع عنهم فيتصوَّر حالَهم وما هم عليه من التظاهر أوّلاً، ثمّ التنصل من المسؤولية والتخوف من مغبَّة ما يتراءى لهم في مجاهل الحياة التي يحرصون عليها ويخافون زوالها، حتى صاروا أعجوبة من أعاجيب الدنيا، فقد أحجموا عن القتال مع أنّهم كانوا قبل ذلك راغبين به حِرَاصاً عليه، بحيث كادوا يباشرونه كما ينبئُ عنه الأمر بكفّ الأيدي، فإنّ ذلك مشعر بكونهم بصَدَدِ بسطها إلى العدوَ بحيث يكادون يبسطون بهم.

وبناءُ الفعل (قيل) للمفعول للإيذان بكون ذلك بأمر الله تعالى، ولأنّ المقصود بالذات والمعتبر في التعجيب، إنّما هو كمال رغبتهم في القتال، وكونهم بحيث احتاجوا إلى النهي عنه، وإنّما ذكر في حيّز الصلة (الذين قيل لهم) الأمرُ بكفّ الأيدي؛ لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية، فلَا يتعلق ببيان خصوصية الآمر غَرَضٌ. وهكذا شأن المنافق الجبان يستأسد في الخلاء ويترنّب عند اللقاء. . .

﴿فلمّا كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب﴾: هنا يدور أمر التعجيب بين حالين مختلفين: حال قيل لهم فيها كفوا أيديكم، وحال أخرى مفاجئة تظهر خشيتهم وجبنهم من الغير، وقالوا فيها: لم كتبت علينا القتال؛ لولا أخرتنا إلى أجل قريب؟!. فكلمة إذا المفاجئة هنا هي التي تُسَلّطُ الأضواء على فريق من هؤلاء، ومن المحتمل أن يكون هؤلاء هم الرؤساء!. وعندما ننظر إلى

التعجيب الأوّل نراه موجّهاً إلى الكل، وعندما ننظر إلى ما بعد إذا نراه موجّهاً إلى فريق منهم، وهم يخشون الناس أشد ما تكون الخشية؛ والخشية هنا لها مغزاها الخاص، وهو شدة الخوف من الغير باعتباره قويّاً مرْهُوب الجانب.

والجواب بقوله. . . **﴿قل متاع الدنيا قليل﴾**: جواب عن قولهم: لولا أخرتنا إلى أجل قريب؛ سواء كان قولهم لسانيّاً أم نفسيّاً، ليعلموا أنّ الله أطْلَع نبيئه على ما تضمره نفوسُهم. وقوله. . . **﴿ولا تظلمون فتيلا﴾**: زيادة في التوبيخ الذي اقتضاه قولُه: قل متاع الدنيا قليل. . . **﴿أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم في بروج مشيدة﴾**: كلام مسوق من قِبَلِ الله تعالى بطريقِ تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله إلى المخاطبين مباشرة، اعتناء بإلزامهم إثر بيان حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة بواسطته ﷺ، وفي لفظ الإدراك إشعار بأنّهم في الهرب من الموت وهو مُجدٌّ في طلبهم. ولو هنا شرطية وصلية يفيد جوابُها تحقّق الوقوع، ويُحذف اعتماداً على دلالة ما قبله عليه، أي: ولو كنتم في بروج مشيّدة يدرككم الموت، والجملة معطوفة على أخرى مثلها، أي: لو لم تكونوا في بروج مشيدة، ولو كنتم. . . وقد اطُّرِدَ حذفُها لدلالة المذكور عليها دلالة واضحة؛ فإنّ الشيء إذا تحقّق عند وجود المانع يتحقّق عند عدمه من باب أولي. وعلى هذه النكتة يدور ما في لو الوصلية من التأكيد والمبالغة، وفي القرآن كثير من هذا.

وكلمة (مشيّدة) هنا أكثر اهتماماً من كلمة (مشيد) في قوله تعالى: «وقصر مشيد»، فكلمة (مشيّدة) هنا تعطي اهتماماً زائداً لهذه البروج، بالصيانة والرعاية والمحافظة عليها، بحيث لا يعتريها خلل ولو من خروم أو تشقق. . . **﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيّئة يقولوا هذه من عندك﴾**: هذا بيان يكشف تصوّرات المنافقين وما فيها من فساد!. إنّهم يريدون أن يلمزوا الرسول ﷺ بأنّه مشؤوم عليهم، فإذا لقوا خيراً قالوا: هذا من عند الله، وإن رأوا ما يسوؤُهم قالوا هذا من شؤم الرجل الذي جاءنا. وهذا هو سوء التصوّر للوقائع والأسباب، وسوء إدراك لعمل الرسول وعمل الله. . . **﴿قل كلٌّ من عند الله﴾**: هذا ردٌّ على ما يشيعونه في أمر محمد ﷺ، فإنّ كُلّ ما يقع في هذه الأرض، وكل ما يصيبهم من خير أو شر راجع إلى الناموس الذي وضَعَهُ الله للكوْن، وللسنة التي لا تتخلّف ولا تتغيّر. . .

﴿**فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً**﴾: فهذا القول الذي يتبجحون به إنّما يدل على جهالة عميقة حتى لكأنّهم لا يفقهون حديثاً!. أيَّ حديث؟!. فهم لا يفقهون حتى وسيلة عرض القضية، وهي الحديث!. وإنّ صُورَةً من الغباء والاستغلاق والبهامة، لترتسم شاخصة من خلال هذا التعبير: ﴿**فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً**﴾؟!.. ﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيّئةٍ فمن نفسك**﴾: بيان للجواب المجمل المأمور به، وإجراؤه على لسان النبيء ﷺ. ثم سوق البيان من جهته عز وجلّ بطريق تلوين الخطاب، وتوجيهه إلى كل واحد من الناس، والالتفات لمزيد الاعتناء به والاهتمام بردّ مقالتهم الباطلة، والإيذان بأنّ مضمونه مبنيٌّ على حكمةٍ دقيقةٍ، حقيقة بأن يتولى بيانها علاَّمُ الغيوب. وتوجيه الخطاب إلى كل واحد منهم دون كلهم، كما في قوله تعالى: «وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم»؛ للمبالغة في التحقيق بقطع احتمال سببية معصية بعضهم لعقوبة الآخرين...

﴿**وأرسلناك للناس رسولا**﴾: هذا ردُّ على قولهم: السيّئة من عند محمد!. محمد ﷺ رسول مبلِّغٌ لا مؤثّر في الحوادث؛ فأنت رسول فقط، والله شهيد على ما يحدث... ﴿**وكفى بالله شهيدا**﴾!. ويختم هذا السياق بهذه الجملة لسدّ الطريق على المرجفينَ المزيفين لحقيقة رسالة المرسلين: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولي فما أرسلناك عليهم حفيظاً...**﴾ والتعبير في قوله: من يطع الرسول، عن الرسول دون الخطاب ـ من يطعك ـ؛ للإيذان بأنّ مناط كون طاعته ﷺ طاعةً لله تعالى ليس خصوصيّة ذات النبيء، بل من حيثية رسالته. وإظهار اسم الله لتربية المهابة وتأكيد وجوب الطاعة بذِكْرِ عنوان الألوهية...

﴿**ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول**﴾: هذا نوع آخر من أعمال المنافقين مع الرسول ﷺ، عندما يُظهرون الطاعة ويعلنونها صراحة بهذه العبارة (طاعة)، والتعبير هنا يُوحِي بأنّهم يظهرون منتهى الطاعة، بحيث يلخص ردهم كله في كلمة (طاعة) كأن لم يقولوا سواها؛ لشدّة تظاهرهم بمدلولها، فإذا خرجوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول؛ والمقصود أنّهم يدبّرون في خفية كالذي يُدبّر في الليل والظلام. وبينما هم في تبييتهم وفي ظُلْمتِهم يظنون أنفسهم في خفية؛ إذا النص يفاجئهم بأنّ الله معهم يكتب ما يبيتونه في

الظلام!. والتعبير هنا يرسم صورة صوّرتْهُم يتخافتون ويمكرون، بينما التسجيل الكتابي يُحْصِي عليهم كلَّ ما يخفون!. وهي صورة مخيفة من جانب، وداعية إلى السخرية من غفلتهم من الجانب الآخر. ومادام الأمر كذلك فلا عليك منهم، ولا داعي بأن تحفل بهم وتهتم بهم...

﴿فأعرض عنهم وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا. أفلا يتدبرون القرآن﴾:
يجيء هذا النص هنا بعد النص على أنّ طاعة الرسول من طاعة الله، وبعد ذكر أنّ هؤلاء القوم يقولون طاعة ثم يبيّتون غير ما يقولون، يوحي بأنّ تصرفهم هذا مبني على ظنهم أنّ الرسول يُشَرِّعُ لهم من عند نفسه ـ وإذن تجوز معصيته ـ، وأنّ هذا القرآن الذي يتضمّن الشرائع والتكاليف، إنّما هو من عند محمد ومن صُنْعِهِ، لذلك يسألهم في استنكار أن يتدبّروا القرآن، فلو تدبّروه لعلموا أنّه من عند الله...
﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾: إنّ النسق في هذا القرآن يوحي بوحدة مصدره، وباستواء هذا المصدر ـ سواء في ذلك نسق التعبير أو نسق التقدير. فهذا المستوى الفائق في تعبيره، والتناسق الغنيّ في تصويره، واستواء هذا التناسق في مستوّي واحدٍ غير متفاوت، يقطع بأنّه ليس عملاً إنسانياً، فالإنسان لا يستوي على أفق معين في كل أحواله، ولابُدّ من ارتفاع وانخفاض، ولابد من ضعف وقوّة في أحوال الناس. كذلك نسق التقدير؛ الفكرة الواحدة المطّردة الكامنة وراء كل تشريع وكل توجيه، التي تلتقي عندها الشعائر التعبُّديّة بالوجدانات الاعتقاديّة بأصول السلوك بقواعد التشريع، هذا النسق لا يُطَّرد هكذا في عمل بشري على الإطلاق، ولا في تفكير بشري على الإطلاق. والقرآن شاهد بذاته ـ من هذه الناحية ـ على أنّه يستحيل أن يكون من عند غير الله، ولكن الأمر في حاجة إلى تدبر وفقه وفهم؛ لإدراك هذه الأسرار التي تبدو إلاّ للمتدبّر الفاقه البصير، لذلك يدعوهم إلى التدبر لا إلى مجرد النظر الذي لا يغني عن عمق التفكير...

﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾: هذا موقف آخر من مواقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض يُبيِّنُه القرآن مع مواقفهم السابقة، وهم يُذيعون الأخبار لتُشاع بين الناس دون تثبُتٍ من صحتها أو بطلانها، إن سلاح الإشاعات ليس في هذه الأيام، وحرب الأعصاب ليست من مبتكرات هذا العصر،

فإنّ أخبار النصر وأخبار الهزيمة، أخبار الاستعداد من هنا أو من هناك، أخبار الكر والفر في المعركة، أخبار المؤن وطرقها ومقدارها، قد لا يرى مَنْ لا يعلم ضرراً في إذاعتها، وقد تُتَّخَذُ وسيلة لبثِّ الذعر أو إشاعة الفوضى، وهي أكاذيب مقصودة قديماً وحديثاً، فالمسلك السليم أن يرد هذا الأمر إلى العارفين به المتطلعين على جوانبه وخفاياه. . .

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتّبعتم الشيطان إلاّ قليلاً﴾: فسبيل الشيطان هو سبيل الرجْمِ بالغَيْبِ، والظن الذي لا يقوم على يقين، والأخذ بشوارد الأقاويل التي تُفْضي إلى المتاهة في الظنون!. ولولا فضل الله عليكم ورحمته بالتوجيه إلى النهج السليم والطريق القويم، وبتثبيت القلوب والعقول لَطُرْتُم وراء الأقاويل كُلَّ مَطَارٍ، ولضللتم في شتى المسالك والمهالك بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير. . . **﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلاّ نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشدّ تنكيلاً﴾**: هذا تفريع على ما تقدم من الأمر بالقتال، ومن وصفِ المتبّطِينَ عنه والمتذمّرين منه والذين يفتنون المؤمنين في شأنه، من بث الإشاعات وإذاعة الأكاذيب؛ لأنّ جميع ذلك قد أفاد الاهتمام بأمر القتال والتحريض عليه، فتهيّأ الكلامُ لتفريع الأمر به. ويمكن أن تكون الفاء فصيحة بعد تلك الجمل الكثيرة، أي: إذا كان كما علمت فقاتل في سبيل الله. وهذا عود إلى ما مضى من التحريض على الجهاد، وهذا الأسلوب طريق من طرق الحث والتحريض لغير المخاطب، لأنّه إيجاب القتال على الرسول، وقد علم إيجابه على جميع المؤمنين بما تقدم، فهو أمرٌ للقُدْوَةِ بما يجب اقتداء الناس به فيه. وبيّن لهم علّة الأمر وهي رجاءُ كفّ بأس الكافرين. وعسى هنا مستعارةٌ للوَعْدِ، وجملة (والله أشد بأساً. .الخ) تذييل لتحقيق الوعد!. وإظهار الاسم الجليل (الله) لتربية المهابة وتعليل الحُكْم وتقوية استقلال الجملة، وتكرير الخبر ـ أشدّ ـ وأعتد ـ لتأكيد التشديد. . .

﴿من يشفع شفاعة حسنَةً يكن له نصيب منها﴾: هذا بيان وتوضيح لحال من يسعى إلى عمل الخير ويُحرّض غيره عليه، ومن يرغّب في الشر ويحث عليه. والشفاعة هنا الزيادة من الحسنات أو من السيّآت، والنصيب: المُكافَأُ به عن الحسنة نصيب غير محدود. أمّا الكفل المكافأ به عن السيّئة فهو يساوي السيّئة فلا

يزيد عليها ولا ينقص، وفي هذا ترغيب في العمل الصالح، وترهيب من العمل السوء!. . **﴿وكان الله على كل شيء مُقيتا﴾**: يُطْعِمُ المُحْسِنَ من حسنته، ويطعم المسيء من سيّئته، ليذيق كلٌّ منهما ما كسبه من الخير وما جناه من الشر، لذلك اختير التعبير بكلمة (مقيتا) من القوت، ليكون التذوق المباشر هو الجزاء للثمار الحلوة والمرة على السواء. . .

﴿وإذا حيّيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾: هذا تشجيع لفعل الحسنة المرغب فيها بالنصيب الوافر، وترغيب في إفشاء السلام لما فيه من تأليف القلوب، وفيه أنس من وحْشة الحروب، واطمئنان من حذر القتال، وهدوء من مشقة النضال، والله حسيب على كل شيء: **﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾**: وكلمة (حسيباً) تناسب من الناحية الظاهرة تلك العملية الحسابية بالزيادة وبالمثل في: فحيوا بأحسن منها أو ردوها؛ زيادة على المعنى النفسي الكامن في السياق. وينتهي ذلك الدرس بصفحتيه: صفحة القتال وصفحة السلام، ينتهي إلى تلك الآصرة الواحدة التي تربط بين بني الإنسان جميعاً، والتي تربط بين الدنيا والآخرة، وبين العمل والجزاء **﴿الله لا إله إلاّ هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾**، الآصرة في الله الواحد الذي يرجع إليه الجميع، ويتجمع بين يديه الجميع؛ الله الذي يعد بالنصر فيتحقق، ويعد بالجزاء فلا يخلف **﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾**؟!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من توجيهات وأحكام

التوجيه الأول: فيه الحث على التعبئة العامة، والتنبّه والتيقظ لكل ما سيطرؤ من الأحداث الهامّة. . . **﴿يا أيُّها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾**: أمر الله المؤمنين بأن يكونوا على استعداد كامل، «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. . .» ـ والقوة تختلف باختلاف المكان والزمان ـ وقد نفّذ الرسول ﷺ وأصحابُه هذا الأمر تنفيذاً كاملاً، بحيث لم يتركوا شيئاً يستعدُّ به المقاتل إلاّ اهتموا به؛ سواء كان استعداداً مادّياً أو استعداداً معنويّاً، وكانوا على علم تام بأرض عدوهم، كما كان لهم عيون وجواسيس، وقد كان شعار أبي بكر لأمراء الجيوش: «حاربوهم بمثل ما يحاربونكم به: السيف بالسيف والرمح بالرمح. . .»، وما يُقال: أيُّ فائدة من هذا الأمر؟. والحذَرُ لا يُغْنِي عن القدر!. يقال: هذا من عالم الأسباب والوسائط

المرتبطة، ولا ريب أن الكل يقع على ما قُدّر، فمن امتثل وترتب عليه الأثر كان بقدر، ومن أهمل حتى فاتته السلامة كان أيضاً بقدر، وهكذا شأن جميع التكاليف إذا اعْتُبِر. . .

﴿**فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً**﴾: فامتثال هذا الأمر يقتضي أن تكون الأمة على استعداد دائم للجهاد؛ بأن يتعلم كلُّ فرد من أفرادها فُنُون الحرْب والتمرّن عليها، وأن تقتني السلاح الذي تحتاج إليه في هذا النضال، وتعلم كيفية استعماله في كل زمان بما يناسبه، وهذا أمر واجب لا مفر منه، وخلاف هذا هو التخاذل وإلقاء النفس إلى التهلكة، كما هو حال المسلمين اليوم!. .

﴿**وإنّ منكم لمن ليبطّئنّ**﴾: هذه الجملة أبلغ عبارة جاءت في القرآن، تعطينا المعنى العميق لحقيقة النفاق والمنافقين. ومادام البحث سائراً في هذا السياق يتبع أفعال المنافقين وأقوالهم وما تنطوي عليه نفوسهم، فلا بأس أن تأتي بنبذة تبين حقيقة النفاق والمنافقين. النفاق والانحراف النفسي: النفاق مظهر لخلق بشري لا يظهر عند قيام دعوة دينية أومذهبية أو سياسية فحسب، ولكنه يظهر حتى في الأوضاع العادية التي لا يصطدم فيها الإنسان بشيء جديد يخالفه؛ ما أَلِفَ من عقيدة أو وضع أو مذهب أو دين، يظهر في الوضع الذي يخاف فيه الشخص من صراع قوتين يكون هو وسطهما، فتجذبه هذه وتلك دون أن يملك الشجاعة الكافية للاختيار والانتماء. ويظهر في الوضع الذي لا يخاف فيه من صراع القوى، وإنّما هي طبيعة التختل وعدم الوضوح، تطفو على سطح النفس الإنسانية، كُلَّما واجه المنافقُ شخصاً أو عقلاً، ولو لم تكن في المواجهة الرأي أوالانتماء أو الاختيار.

ما من شك إذنْ في أنّ النفاق طبيعة من طبائع الإنسان يظهر في مختلف الأوضاع، ولكنه يبدو أكثر ما يبدو عند مواجهة وضع غير عاديّ وغير مألوف، وضع ثوريّ أو انقلابي، فكري أو عقيدي أو سلطوي، ويبدو أكثر ما يبدو عندما تكون المجتمعات متخلفة خُلُقِيّاً أو فكريّاً أو عقيديّاً، ويبدو أكثر ما يبدو عندما يكون الشخص متخلفاً نفسياً أو فكريّاً أو خُلُقِيّاً. ثم إنّه ينمو عندما تكون البيئة صالحةً للنمو: بيئة متخلفة مثلا، فيها كثير من الأمراض النفسية والاجتماعية، كل مرض منها يدفع بآخر إلى النماء والعطاء.

النفاق إذنْ لم يكن نتيجة ظهور الإسلام، ولا كان من طبيعة النفس العربية

فحسب، ولكن ظهور الإسلام في بيئة متخلفة اجتماعيا وفكرياً وعقيديا دفع بالنفاق إلى أن يطفو على السطح؛ ليبرز كانحراف متميّز في جماعة تميّزت به، فكانت هي المنافقين. والقرآن ـ وقد نزل حجة للعقيدة الإسلامية ـ أراد أن يحاجّ جميع الفئات التي وقفت في وجهه، فكان عليه أن يحاجّ بالرأي، وكان عليه أن يفضح الذين لا يحاجّون برأي، ولكن يعرقلون سير العقيدة بمرض نفسيّ لا تنفع في شفائهم منه حجّةُ رأي، ولا وضوح سبيل. وكثيرٌ هم الذين ناقشهم الرأْيُ ـ أهل الكتاب ـ المشركون ـ الوثنيون ـ التبعيّون الذين استعظموا أن يتخلفوا عمّا وجدوا عليه آباءهم الأولين.

وكثيرٌ هم الذين فضح نفسيتهم وكشف عقليتهم، وأصدر حكمه الصارم عليهم وفي مقدمتهم المنافقون، وقد تناول القرآن المنافقين في كثير من الآيات والسور، وهو في ذلك كان يتناولهم من مختلف الأوضاع النفسية والخُلُقية والاجتماعية والمصيرية، وكان يحاكمهم فيصدر حكمه الصارم عليهم لا في الدنيا فحسب، ولكن في الآخرة كذلك. وواضح أنّ الهدف ليس إصدار حكم، ولكن الهدف هو نفيهم من مجتمع كانوا يخرّبونه بنفاقهم، فالديانات والمذاهب العقيدية يجب أن تعمل على أرضيّة واضحة، أمّا الذين يتختّلون أو يتستّرون أو يكيدون دون أن يظهروا بوجْهٍ واضح في الكيد، فيجب أن يُفضحوا كما فضح القرآنُ المنافقين وحكم عليهم بمصيرٍ محتوم، وقد أكّد القرآن أنّ النفاق مرض نفسي، وعبّر عنه أصدقَ تعبير وأبلغه؛ بأنّ في قلوبهم مرض، مرض القلب لا يكاد يوجَدُ له دواء في عصر اكتشاف الأدوية لكل الأدواء، ولذلك اتّجه القرآن إلى التعبير عن النفاق بمرض القلب، ووَصَفَ المنافقين بأنّهم مرضى القلوب، ولذلك كانت التحليلات التي أعطاها القرآن لهذا الصنف من الناس، الذين واجهوا الدعوة الإسلامية بالشكل الذي من طبيعتهم أن يُواجِهوا به الدعوة، وكانت الأحكام التي أصدَرها عليهم، جميع ذلك متّفق مع مرض القلب هذا الذي لا يُرجى منه شفاء، ولو أنّ في القرآن شفاءً للناس. وعلى هذا الأساس كان تحليله للنفاق من خلال وصف المنافقين من أروع التحليلات النفسية في القرآن، المنافقُ غيرُ واضح حتى في نفاقه، ولا هو قارٌّ في موقف يواجه به الوضْعَ. هو يشهد مثلاً بقبول الدعوة؛ ليتخذ من شهادته ستاراً لِمُحَارَبَةِ الدعوة، وهذا موقف يتخذه عندما يرى الدعْوةَ منتصرة.

وموقف آخر نفسي يقفه المنافقون من الدعوة الإسلامية، صوّره القرآن أروع تصوير في حكاية حديثة، ولكنها تصوّر نفسية المنافق في عدم الوضوح والمخاتلة والانتهازية. المنافق لم يكن يهمه الإيمان ولا الكفر بالدّين، ولم يكن قادراً على الاختيار والانتماء، ولا حتى على الحياد والابتعاد، فهو يُقبل ويُدْبر بحسب المصلحة ووفقا لانتهازيةٍ كاملة. هذه التحليلات القرآنية فَضَحَت المَوْقِف، وجعلت المؤمنين يعرفون من كان معهم ومن كان ضدّهم، ولو تظاهر بأنّه كان مع المؤمنين. وللمنافقين مواقفُ متعددة يجمع بينها الانتهازية والتخذيل والإذاية والفتنة والتخذيل وقْتَ الشدّة، ولم يكن في هذا العرض جميع الصور بمقدار ما فيه من إبراز النموذج البشري ممثلاً في المنافقين!. ممّا استعرضنا من حقيقة النفاق والمنافقين نعلم ما في المغْزَي العميق من كلمة (ليبطّئنّ)، ومن الاستعراض كذلك نعلم حقيقة أمره وتردّده وتذبذُبِهِ عندما يرى من النِقَم أو النِعَم. . . **﴿فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً. ولئن أصابكم فضل من الله ليقولنّ كأن لم يكن بينكم وبينه مودّة ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾**!.

التوجيه الثاني: يستعرض في هذا التوجيه المُقاتل الحق الذي يقاتل في سبيل الحق، وهو من يبيع الحياة الفانية بالحياة الباقية. . . **﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾**: وليس هذا القتال خلاصاً من مسؤولية، أو دفاعاً عن حقّ، أو إظهاراً لبطولةٍ ليكتسب مَحْمَدَةً موقّتة فقط، وإنّما نتيجة القتال في سبيل الله نيل الثواب والأجر العظيم في الآخرة: إن قتل فله أجر الشهداء، وفي الدنيا إن غلب عدوّه، فله فوزٌ وعزّةُ المنتصرين الفاتحين الغانمين. . . **﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾**: والمقاتل الحق لا يقاتل لنيْلِ هذا الأجر العظيم لنفسه فحسب، وإنّما يقاتل ليغيث الملهوف، ويَنْصُر المظلوم الضعيف الذي لا يجد خلاصاً من ولي أو نصير. . . **﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾**!.

التوجيه الثالث: فيه المقارنة بين من يقاتل في سبيل الحق ومن يقاتل في سبيل الضلال، وعندما يتضح الفرق عند المقارنة بين نقيضين لا يجتمعان ولا

يرتفعان: الحق والضلال، تتضح الرؤية وتظهر نتيجة كل منهما: ﴿**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾!. وفي لحظة ترتسم الأهداف وتتضح الخطوط في الميدان، ويقف الذين آمنوا تحت راية الحق المطلق (يقاتلون في سبيل الله) لإقرار شريعته، وتحقيق عدله الذي أمر به، وأداء الأمانة التي بدأ بها السياق كلُّه. ويقف الذين كفروا تحت راية الباطل المطلق (يقاتلون في سبيل الطاغوت) لتغليب الباطل على الحق، والطغيان على العدل، مُعْرِضينَ عن الأمانة التي ناطها الله بالإنسان في الأرض. يقف المسلمون مستندين إلى قوة الله وحمايته ورعايته، ويقف الكافرون ووليُّهم الشيطان متمسكين بالطغيان.

وعندما ينتهي السياقُ من عرض الموقف في هذه الصورة الحاسمة الواضحة الخطوط، يلتفت إلى الرسول ﷺ بل إلى كل أحد، يعجبه من المنافقين الذين كانوا يتظاهرون ويستعرضون عضلاتهم، ويقولون هاتفين: حيّ إلى الجهاد، حيّ على الفلاح والكفاح، في وقت لا يُطلب منهم هذا التظاهر وهذا الهتاف، بل يكفون أيديَهم ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويستعدّون الاستعداد اللازم قبلَ أن يَجدَّ الجدُّ بلا عَويلٍ ولا هِتافٍ!. ولكن عندما جاءت اللحظة الحاسمة، وجدّ جد الصراع والدفاع وحانت ساعة القتال والنضال وحَدَثَ ما لم يكن في الحسبان: ﴿**فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدَّ خشية. وقالوا ربنا لم كتَبْتَ علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب**﴾!؟: إنّها صورة زرية فوق أنّها عجيبة؛ صورة هذا الخوف وهذا الفزع، وهذا العتاب المتخاذل المرتجف. وممن؟ من قوم كانوا يطلبون الإذن بالقتال، وكانوا يُكَفُّون كفّاً عن القتال! هنا يتلقّاهم القرآن بالبيان أولاً، ثم بالتأنيب أخيراً، يبيّن لهم أولاً حقيقة متاع الدنيا الذي يتشبّثون بالحياة من أجله، ويخافون أن يموتوا ويتركوه، ويبيّن لهم أنّ الموت والحياة بيد الله، وأنّ الحذر لا يُجدي، وأنّ الجُبْنَ لا يطيل الحياة.

ثم يكشف أخيراً عن سوء إدراكهم، وفساد تصوُّراتهم للحياة كلها بجملتها وما يقع للناس فيها، وما يصيبهم من خير أو شر في ثناياها، ويَصِمُهُم بأنّهم لا يكادون يفقهون شيئاً... ﴿**قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا.**

أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كلٌّ من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾. يبيّن لهم هذا البيان ويكشف لهم عن حقيقة الموت والحياة. ثم يمضي في كشف تصوّراتهم وما فيها من فساد يتفق مع هذا الخوف، ويتسق مع هذا المقال، إنّهم يريدون أن يلمزوا الرسول ﷺ بأنّه مشؤوم عليهم، فإذا لقوا خيراً من نماء في الزرع، أو رواج في التجارة، أو نصر في حرب، قالوا هذا من عند الله، أمّا إذا أصابهم ما يسوءهم من هذا كله أو من سواه، فإنّهم يقولون هذا من شؤم محمد، أو بسبب إشارته أوْ أوامِرِه أو خططه!.

إنّه سوءُ التصوّر للوقائع والأسباب، وسوء إدراكٍ لعمل الرسول وعمل الله؛ إنّها صورة من الغباء والاستغلاق في أعماق النفس وفي مجريات الحياة. هذه هي صورة المنافقين؛ سواء كانوا من اليهود الذين دخلوا في الإسلام قصداً لتهديمه من الداخل، أو من غيرهم طمعاً في المتاع الزائل. وقد حدثنا القرآن عن اليهود بمثل ما تحدّث به هُنا: «ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذْ قالوا لنبيء لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قالوا ومالنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلاّ قليلا منهم والله عليم بالظالمين».

وعن اليهود يتحدّث أيضا: «قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون»!. مقالة الجبناء وشنشنة اللؤماء، وهي تكرر دائماً مادام في الدنيا نفاق، ومادام في الدنيا سيِّئوا الأخلاق!. والأمر هنا ليس كلاماً يقال، وإنّما هو قضيّة الموت والحياة وقضية النعمة والبلاء.

التوجيه الرابع: في هذا التوجيه تفصيل بيْن قضية النعمة والبلاء. وقد قرر من قبل أنّهما راجعان إلى الله وإلى سنته في الحياة، فالآن يقرر أنّ. . .

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيّئة فمن نفسك﴾: فكيف يتفق هذا وذاك؟. إنّ الجهة غير متحدة في النصين: إنّ النص الأول يقرر أنّ كل ما يقع في الكون من الأحداث مصدره الله؛ وقد علم أنّ الله خلق هذا الكون، وجعل له ناموساً خاصاً، وسنة لا تتخلف ولا تتبدل، فكل ما يقع في هذا الكون محكوم بذلك الناموس جارٍ على هذه السنة، فهو إذنْ وفق مشيئة الله تعالى، هذه

المشيئة اقتضت أن يكون للإنسان إرادة تختار الطريق، الذي يؤدي إلى الحسنة، أو الطريق الذي يؤدي إلى السيّئة، فحين يختار الطريق الأولي، يرضى الله عنه ويحقق له الخير الذي قصد إليه، فتكون الحسنة التي تصيبه من الله، وحين يختار الطريق الثانية بَعُدَ عن الله، فتُصيبه السيّئة وتكون هذه من عنده، وكلتاهما في النهاية من عند الله، لأنّهما تجريان على سنّته ووفق مشيئته، ومشيئتُه هي التي جَعَلت هذه السنة نافذةً. وإذنْ لا يكون هناك تعارض بين النصين لاختلاف الجهة فيهما.

وتوضيح هذه المسألة فيما يأتي: اعلم أنّ للحوادث كلها مؤثراً وسبباً مقارناً، وأدلة تنبئ عنها وعن عواقبها، فهذه ثلاثة أشياء لا تخلو عنها الحوادث كلها، سواء كانت غير اختيارية أو اختيارية كأفعال العباد، فالله قدّر المنافع والمضار بعلمه وقدَرِهِ، وخلق مؤثراتها وأسبابها، فهذا الجزءُ لله وحدَه، واللهُ نصَبَ الأدلّة للناس على المنافع والمضار التي تُكْتَسَبُ، بمختلف الأدلّة الضروريةّ والعقلية والعادية والشرعية، وعلّم طرائق الوصول إليها، وطرائق الحيدة عنها، وأرشد إلى مواقع التأثير لمن شاء أن يمانعها، وبعث الرسل وشرع الشرائع، فعلمنا بذلك كلِه أحوالَ الأشياء ومنافعها ومضارها وعواقب ذلك الظاهرة والخفية في الدنيا والآخرة، فأكمل المِنَّةَ وأقام الحجّةَ وقطع المعذرة، فهَدَى بذلك وحذّر؛ إذ خلق العقول ووسائل المعارف؛ خلق البواعث على التعليم والتعلم، فهذا الجزء لله وحده.

وأمّا الأسباب المقارنة للحوادث الحسنة والسيئة، والجانية لجناها حين تصيب الإنسان من الاهتداء إلى وسائل مصادفة المنافع، والجهل بتلك الوسائل، والإغضاء عن موانع الوقوع فيها في الخير والشر، فذلك بمقدار ما يحصله الإنسان من وسائل الرشاد، وباختياره الصالح لاجتناء الخير، ومقدار أضداد ذلك: من غلبة الجهل، أو غلبة الهوي، ومن الارتماء في المهالك بدون تَبَصُّرٍ، وذلك جُزْءٌ صغير بجانب الأجزاء الأخرى، وهذا الجزء جعل الله للإنسان حظاً فيه، ملَّكه إيّاه، فإذا جاءت الحسنةُ أحداً فإنّ مجيئها إيّاه بخلق الله تعالى لا محالة مما لا صنعة للعبد فيه، أو بما أرشد الله به العبد حتى عَلِمَ طريق اجتناء الحسنة، أي: الشيء الملائم وخلق له استعداده لاختيار الصالح فيما له فيه اختيار من الأفعال النافعة حسبما

أرشده الله تعالى، فكانت المنّةُ فيها لله وحده، إذْ لولا لُطْفُه وإرشاده وهدْيُه لكان الإنسان في حيْرة، فصحّ أنّ الحسنة من الله، لأنّ أعظم الأسباب أو كلها منه.

أمّا السيّئة فإنّها وإن كانت تأتي بتأثير الله تعالى، ولكن إصابة معظمها الإنسانَ يأتي من جهله أو تفريطه أو سوء نظره في العواقب، أو تغليب هواه على رشده. وهنالك سيّئات تصيب الإنسان من غير تسبّبه مثل ما أصاب الأمم من خسف وأوْبِئَةٍ. وذلك نادر بالنسبة لأكثر السيّئات، على أنّ بعضاً منه كان جزاءً على سوءِ فِعْلٍ، فلا جرم كان الحظ الأعظم في إصابة السيّئة الإنسان لتسبّبه مباشرة أو بواسطة، فصح أن يسند تسببها إليه؛ لأنّ الجزء الذي هو لله وحده منها هو الأقل، وقد فسّر هذا المعنى ما ورد في الصحيح: «لا يصيب عبدٌ الكبّة فما فوقها أو ما دونها إلاّ بذنب وما يعفو اللهُ أكثر»، وهو ظاهر آية: «وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير» ولذلك يأتي البيانُ والتوضيحُ لوظيفة الرسول. . .

﴿وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾: في حدود الرسالة تنحصر مهمّةُ الرسول، فليس ما يصيبُهم من النعمة ولا ما يصيبهم من البلاء داخلاً في حدود هذه الرسالة، إنّما هو من أمر الله وعمل الله. وكفى بالله شهيداً: مطلعاً على ما يعملون وما يصيبهم جزاء عملهم، وعلى ما يواجهون به الرسول، فإذا فصل بين مجال عمل الله وحدود اختصاص الرسول، عاد ليقرر الأصل الاعتقادي والأصل التشريعي في الإسلام، وهو أنّ طاعة الرسول من طاعة الله، وأنّها فريضة تقوم على صفة الرسالة واستمدادها من الله، ثم ليقرر من جديد أنّ وظيفة الرسول هي الرسالة وتكاليفها، فمن تولي عنها فهو ومصيره، وما الرسول عليه بحفيظ ولا رقيب مكلّف أن يحفظه من التولي ولا من سوء المصير. . .

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾: فالطاعة إذنْ للرسول لا فكاك منها لمن يريد أن يكون مؤمناً بالله، ولكن أولئك القوم الذين سلف الحديثُ عنهم وعن بعض تصرّفاتهم وتصوُّراتهم، يُظهرون الطاعة ويبيّتون المعصية. . . **﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفةٌ منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يُبيّتون فأعرض عنهم وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾**: ولمّا كان قول المنافقين مخالفاً لفعلهم فضحهم في أقوالهم وأفعالهم وفي

أعماق نفوسهم وما يدبّرون ويكيدون ويبيّتون، ثُمّ بيّن سبب هذه الأعمال كلها بأنّهم معرضون عن القرآن لا يتدبّرونه ولا يفهمون ما يحتويه من الدلائل القاطعة بصدْقِ الدّاعِي وصحّة الدعوة. . .

﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾: ولو كان القرآن من عند محمد كما ظنّ المنافقون وادّعاه اليهود، ويدّعيه الآن أعداء الإسلام على اختلاف نحلهم وطوائفهم، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، لأسباب كثيرة:

أولاً: أنّ أي مخلوق لا يستطيع تصوير الحقائق كما صوّرها القرآن بلا اختلاف ولا تفاوت في شيء منها.

ثانياً: أنّه حكى عن الماضي الذي لم يشاهده محمد ﷺ ولم يقف على تاريخه، وعن الآتي فوقع كما أنْبأَ به، وعن الحاضر فأخبر عن خبايا الأنفس ومكنونات الضمائر كما أخبر بما بيتته هذه الطائفة مخالفاً لما تقول للرسول، أو ما يقولُه لها، فتقبله في حضرته وترفضه في غيبته.

ثالثاً: إنّ أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله في بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع لجميع الشعوب والقبائل، مع عدم الاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك.

رابعاً: أنّ أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله في سنن الاجتماع ونواميس العمران وطبائع الملل والأقوام، مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال وتكرار القصة الواحدة بالعبارات المختلفة البليغة؛ تنويعاً للعبرة وتلويناً للموعظة، واتفاق كل ذلك وتواطئهُ على الصدق، وبراءته من الاختلاف والتناقض.

خامساً: إنّ أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله فيما جاء به من فنون القول وألوان العِبر، في أنواع المخلوقات في الأرض أو في السماوات، فقد تكلّم على الخلق والتكوين، ووصف الكائنات كالكواكب ونظامها والرياح والبحار والحيوان والنبات وما فيها مِنَ الحِكَم والآيات، وكان في كل ذلك يُؤيّدُ بعضُه بعضاً لا تفاوت فيه ولا اختلاف بين معانيه.

سادساً: أنّه أخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء العادل، وكان في كل ذلك جارياً على سنّة الله تعالى في تأثير

الأعمال الاختيارية في الأرواح مع الالتئام بين الآيات الكثيرة، وهو غاية الغايات في ذلك عند من أوتي الحكمة وفصل الخطاب. هذا إلى أنّه نزل منجماً بحسب الوقائع والأحوال، وكان النبيء ﷺ عند نزول الآية أو الآيات يأمر بأن تُوضع في محلها من سورة كذا، وهو يحفظه حفظاً، وقد جرت العادة بأنّ من يأتي بكلام من عنده في مناسبات مختلفة لا يتذكّر جميع ما سبق له في السنين الطوال، ولا يستحضره حتى يجعل الآخر موافقاً للأوّل، مع أنّ بعض الآيات كان ينزل في أيّام المحن والكروب، وبعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام؛ إلاّ أنّ كرّ الغذاة ومرّ العشي لا يزيدُه إلاّ جدّة، ولا يزيد أحكامه إلاّ ثباتاً ورسوخاً، وكلما اتسعت دائرة العلوم والمعارف، ونمت أحوال العمران زاد إيمانُ الناس به.

والخلاصة: إنّ تدبّر القرآن وتمثل ما امتاز به لهو طريق الهداية القويم، وصراط الحق المستقيم، فإنّه يرشد إلى كونه من عند الله، وإلى وجوب الاهتداء به، وإلى أنّه معقول في نفسه موافق للفطرة ملائم للمصلحة، وفيه سعادة الخلق في الدنيا والآخرة. ثم يعود السياق إلى القوم يكشف عن سلوكهم، الناشئ عن اضطراب طبيعتهم، فإذا هم قوم خفاف، يتلقّفون كلَّ ما يسمعون فيملأون به الدنيا أقاويلَ وإشاعات، لا يُكلّفون أنفسهم التثبّت من صحتها، ولا يسألون أنفسهم ماذا وراءها؟ ولا ما ينشأ عن الإذاعة بها؟ ونشرها في وسط الجماعة، وهي مشتبكة في قتال، أو وهي تتهيّأ للقتال؟!. ثم يدل على المنهج الواجب في مثل هذه الأحوال... ﴿**وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتّبعتم الشيطان إلاّ قليلاً**﴾: في هذا الحثُّ على التنبّه الكامل من جراء ما يجرى من المنافقين في مختلف حركاتهم وسكناتهم وتصرفاتهم ظاهراً وباطناً، وهذا مَنٌّ مِنَ الله؛ إذ وجّههم إلى طريق الخير ونبّههم على المخاطر، ولولا هذا لانهار أو ارتبك الكثيرُ والكثيرُ!.

التوجيه الخامس: يبيّن فيه طبيعة الدعوة والتكليف بها، هي دعوةٌ للجميع مكلّف بها الجميع، الرسول وغيرُه سواءٌ في هذا: ﴿**فقاتل في سبيل الله لا تكلّفُ إلاّ نفسك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكفّ بأسَ الذين كفروا والله أشدُّ بأساً وأشد تنكيلاً**﴾: وفي هذا البيان زيادة على ما تقدم أنّ الآية تشير إلى أنه ﷺ كُلّف

قتال الكافرين الذين قاوموا دعوته بقوّتهم وبأسهم وإن كان وحدَه، كما أنّها تدل على أنّه ﷺ أُعْطِيَ من الشجاعة ما لم يُعْطَ أحدٌ من العالمين!. وفي سيرته الشريفةِ أصدقُ الأدلة على ذلك، فقد تصدى لمقاومة الناس جميعاً، بدعوتهم إلى ترك ما هم عليه من الضلال، وحين قاتلوه قاتلهم، وقد انهزم بعض الناس يوم أحد ويوم حنين فَبَقِيَ ثابتاً كالجبل لا يتزلزل!.

وفي الآية دليلٌ ـ زيادةً على ما تقدم ـ أنّه رسول الله حقاً وأنّه مبلغ عن الله لا عن نفسه؛ لأنّه مكلف مثل بقية المكلَّفين، فلو كان هذا التشريع من عنده لأعفى نفسه من هذه التكاليف، كما هو مشاهد في قوانين البشر!. هذا هو العدل الإلهي الذي كلف الله به المؤمنين، وفي مقدّمتهم رسولُهم. إنّ هذا لهو دستور النصر ـ كما تقرّره سنّةُ الله ـ لابد أن يؤديَ البشرُ واجبَهم قبل أن يتوجّهوا إلى الله بدعاء أو رجاء، وقبْلَ أن يدعوا الأمر لله، إنّهم يعملون وهم مُوقِنون أنّ الأمور كلها بيد الله، وأنّ النجاح معقودٌ بيمين الله، ولكنّ الله قد كلّفهم أن يعملوا وأن يبذلوا ما في طوقهم، فلابد من طاعة الله في تكليفه، تجعلهم مستحقين لِنَصْرِ الله واستجابته. والذي لا ينفّذ الأوامر ولا ينهض بالتكاليف، لا ينتظر أن يسمعه الله حين يدعوه أو يرجوه، فالطاعة هي عربون الاستجابة. وعلى هذا الأساس يعمل الإنسان غيرَ مُغْتَرٍّ بعمله، ويتّكل على الله غير متواكل في اتكال لا يفيده.

تلك صفحة القتال بما فيها من طاعة للأوامر، ونهوض بالتكاليف وإخلاص في الأداء، وتثبت من كل خير ويقين، واعتماد على الله بعد النهوض بالتكاليف، وثقة في النصر بعد هذا وذاك، فلا يدَعُ السياق هذه الصفحة مفتوحة، ولا ينتقل إلى الصفحات التي تليها والتي هي منها بسبب، قبل أن يفتح الصفحة الأخرى في كتاب الإنسانية، صفحة الودّ والتعاون والسلام: **﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾**.

﴿وإذا حُيّيتم بتحية فحيُوا بأحسن منها أو ردوها إنّ الله كان على كل شيء حسيباً﴾: فليشفع الإنسان الشفاعة الحسنة ليصل خيراً إلى من يستحق الخير، غير مضارّ لبريءٍ، أو مُضيّعاً حقّاً على صاحب حقّ، أو معطلا حدّاً من حدود الله، فهذه هي الشفاعة الحسنة التي تنفع ولا تضر، وليتّق الشفاعة السيّئة التي تؤدي إلى

أَكْلِ مالٍ بالباطل، أو تعويق صاحب مكان عن مكانه، أو إهدار حُرْمةٍ من حرمات الله والناس، فإنّ لصاحب الأولي نصيباً طيباً من شفاعته، ولصاحب الأخرى وزراً يحتمله من سيّئته، وإذا كنتم تقاتلون من يُسيء وتنكُلون بمن يعادي، فلتحيّوا من يحيّيكم، ولتنشروا السلام حيثما أمكن السلام، وليكن لنفوسكم في هذا أنس من وحشة الحروب، واطمئنان من حذر القتال، وهدوء من مشقّة الجهاد، والله حسيب على كل شيء، يحاسب على الكلمة ونيتها، وعلى ردها وما وراءه.
وينتهي ذلك الدرس بصفحتيه: صفحة القتال وصفحة السلام. وفي هذا إشارة إلى تأكيد أمر هذه الصلة بين الناس ووجوب رد التحية على من يسلم علينا ويُحيّينا.
وبعد أن حث الله تعالى رسوله ﷺ على الجهاد وأمر المسلمين بمشاركته فيه، وأمرهم بإظهار المودّة وقت السلم، بيّن أنّهم مجزيّون على كل هذا في يوم لا ريب فيه فقال... ﴿**الله لا إله إلاّ هو ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً**﴾: جمعت هذه الآية التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء في الدار الآخرة، وهما الركنان الأساسيان في الدين، وقد أرسل الله الرسل جميعاً لتبليغ الناس ما يجب عليهم من إقامتهما وتأييدهما بصالح الأعمال، والقرآن قد يصرّح بهما تارة معاً، وبالأول منهما تارة أخرى أثناء ذكر الأحكام؛ إذ هما العون الأكبر والباعث الأقوى على العمل بها، ولا سيما أحكام القتال الذي يبذل المرءُ فيه نفسَه ونفيسَه، للدفاع عن حرية الدّين ونشر هدايته، وتأمين دعاته وأهله، والمعنى الله لا إله إلاّ هو، فلا تقصروا في عبادته والخضوع لأمره ونهيه، فإنّ في ذلك سعادتكم وارتقاء أرواحكم وعقولكم وتحريركم من رق العبودية لأمثالكم من البشر، بَلْ ممن دونهم من المعبودات التي ذلَّ لها المشركون، وهو سبحانه سيجمعكم ويحشركم إلى يوم القيامة وهو يوم لا ريب فيه ولا فيما يكون فيه من الجزاء على الأعمال، ومن أصدق من الله حديثاً: لا أحد أصدق منه سبحانه وتعالى؛ إذ كلامه تعالى عن علم محيط بسائر الكائنات، فلا يمكن أن يكون خبره غيرَ صادق بسبب النقص في العلم أو الغرض أو الحاجة، لأنّه تعالى غني عن العالمين. أمّا كلام غيره فهو محتمل للصدق والكذب عن عمد وعلم أو عن سهو وجهل، وقد دلّ الدليل على أنّ القرآن كلام الله، فلم يبق عذر لمن قام عليه الدليل، إذا آثر على قوله أقوال المخلوقين كما هو دأب الضّالين!.

6 ـ فتح المجال فيما بقي من حكم القتال

النص

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ

وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ

وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (87) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ

كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى

يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (88)

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ

أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا

قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ

فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ

اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (89) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ

وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ

وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ

حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (90)

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ

مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ
عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن
كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ
مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن
لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿91﴾ * وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿92﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟
وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا
تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ
كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿93﴾
لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ
عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿94﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ

ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿95﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ
قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ
ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ
مَصِيرًا ﴿96﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿97﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ
أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿98﴾ * وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا
إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿99﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿100﴾
وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ
مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ
مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ
مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ
بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ

وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿101﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿102﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿103﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**فمالكم في المنافقين فئتين**﴾: فئتين مثنى فئة، والفئة الطائفة؛ وزنها فلة، مشتقة من الفيء وهو الرجوع، لأنّه يرجع بعضهم إلى بعض في شؤونهم، وأصلها فيئ (فِعْل) فحذفوا الياء من وسطه، وهو عين الفعل لكثرة الاستعمال وعوّضوا عنها الهاء عند الوقف والتاء عند الوصل... ﴿**والله أركسهم**﴾: الركس رد الشيء مقلوباً، وأصله الركس وهو الارتداد إلى أسوإ الأحوال، لأنّ الركس قريب من الرجس، والمعنى هنا: ردّهم ردّاً شنيعاً إلى كفرهم ورجسهم... ﴿**ولا تتخذوا منهم وليّاً ولا نصيراً**﴾: الوليّ: الموالي الذي يضع عنده مولاه سره ومشورته، والنصير الذي يدافع عن وليه ويعينُه... ﴿**إلاّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾: يصلون: يلتحقون. ميثاق: عهد... ﴿**حصرت صدورهم**﴾: حصرت: ضاقت وحرجت، والحصر الضيق والانقباض... ﴿**ولو شاء الله لسلطهم عليكم**﴾: سلّطَ يُسلّط تسليطاً، وهو التّغليب، والسليط الشديد، ويطلق على طويل اللسان، والسليط الحديد من كل شيء...

﴿**فإن اعتزلوكم**﴾: تَنَحّوا عنكم وابتعدوا منكم وتركوا قتالكم... ﴿**ستجدون**

آخرين﴾: الوجدان هنا: بمعنى العثور والاطلاع... **﴿حيث ثقفتموهم﴾**: حيث ظفرتم بهم. السلطان المبين: الحجّة الواضحة الدالة على نفاقهم وتلاعبهم... **﴿ومن قتل مؤمناً خطئاً﴾**: الخطأ ضد العمد وهو أن يقتل أحداً غيرَ قاصدٍ قتله... **﴿فتحرير رقبة﴾**: التحرير تفعيل من الحُريّة، بمعنى جعل العبد حراً، والرقبة: الذات، وأصل الرقبة العنق... **﴿ودية مسلّمة﴾**: الدية حق القتيل، وهي مصدر ودّى بمعنى أعطي، وأصل المصدر وذْي مثل وعْد، حذفت فاء الكلمة تخفيفاً لأنّ الواو ثقيلة، كما حذفت في عِدَة وعُوّض عنها الهاء وقفاً والتاء وصلا... **﴿فإن كان من قوم عدوّ لكم﴾**: العدو ضد الصديق للواحد والجمع والذكر والأنثى، والمراد هنا المحاربون غير المعاهدين... **﴿توبة من الله﴾**: التوبة هنا مصدر تاب، بمعنى قَبِلَ التوبةَ بقرينة تعديته بمن، لأنّ تاب يطلق على معنى ندم وعلى معنى قبل منه...

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾: المتعمد القاصد للقتل مشتق من عمد إلى كذا بمعنى قصد وذهب... **﴿فتبيّنوا﴾**: التبيّن: شدّة طلبِ البيان بمعنى التأمل القوى حسبما تقتضيه صيغة التفعُّل... **﴿لا يستوي﴾**: بمعنى ليس سواء، وهو أنّ أحد المذكورين أفضل من الآخر... **﴿غير أولي الضرر﴾**: الضرر المرض والعاهة، من عمى أو عرج أو زمانة؛ لأنّ هذه الصيغة لمصادر الأدواء ونحوها، وأشهر استعماله في العمي، ولذلك يقال للأعمي ضرير، ولا يقال ذلك للأعرج والزمن، والضرر مصدر ضرِرَ بكسر الراء مثل مرض، وهذه الزنة تجيء في العاهات ونحوها، ومصدرها مفتوح العين مثل العرَج، ولأجل خفته ـ بفتح العين ـ امتنع إدغام المثلين فيه، وهو بخلاف الضرّ الذي هو مصدر ضرّه، فهو واجب الإدغام إذ لا موجب للفكّ... **﴿درجة﴾**: حقيقة الدرجة أنّها جزء من مكان يكون أعلى من جزء آخر متصل به، بحيث تتخطى القدم إليه بارتقاء من المكان الذي كانت عليه بصعود، وذلك مثل درجة العُلّيّة، ودرجة السلم... **﴿توفاهم الملائكة﴾**: تميتهم وتقبض أرواحهم... **﴿ظالمي أنفسهم﴾**: ظلم النفس أن يفعل أحد فعلاً يؤول إلى مضرته، فهو ظالم لنفسه، لأنّه فعل بنفسه ما ليس من شأن أن يفعلوه لوخامة عقباه، والظلم هو الشيء الذي لا يحق فعلُه ولا ترضى به النفوسُ السليمة والشرائع، واشتهر إطلاق ظلم النفس في القرآن على الكفر وعلى المعصية...

﴿كنّا مستضعفين في الأرض﴾: المستضعَفُ: المعدود ضعيفاً فلا يعبأ بما

يصنع به، فليس هو في عزّة تمكنه من إظهار إسلامه، فلذلك يضطر إلى كتمان إسلامه. والأرض هي مكة... **﴿فتهاجروا فيها﴾**: المهاجرة: الخروج من الوطن وترك القوم؛ مفاعلة من هجر إذا ترك، وإنّما اشتق للخروج عن الوطن اسم المهاجرة لأنّها في الغالب تكون عن كراهية بين الرّاحِلِ والمقيمين، فكل فريق يطلب ترك الآخر، ثم شاع إطلاقها على مفارقة الوطن بدون هذا القيد... **﴿إلاّ المستضعفين﴾**: العاجزين عن الخروج من مكة لقلة جهد أولإكراه المشركين إيّاهم وإيقافهم على البقاء... **﴿لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾**: الاستطاعة: القدرة على العمل. حيلة: قوّة تحملهم على الخروج. ولا يهتدون سبيلاً: معرفة للطريق كالأعمى... **﴿مراغماً﴾**: المراغم اسم مكان من راغم إذا ذهب في الأرض، وفعل راغم مشتق من الرَّغام ـ بفتح الراء ـ وهو التراب، وأصل المعنى أنّه يجد مكاناً يستطيع فيه أن يرغم من أرغمه؛ لكونه صار مستقلاً يدافع عن نفسه... والسعة: ضد الضيق، وهي حقيقة في اتّساع الأمكنة... والطائفة: الجماعة من الناس ذات الكثرة، ولا تطلق على الواحد والاثنين، وأصلها منقولة من طائفة الشيء وهي الجزء منه...

﴿ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم﴾: الأسلحة جمع سلاح، وهو اسم جنس لآلة الحرب كلها، وهو يذكر ويؤنث، والتذكير أفصح ولذلك جمعوه على أسلحة، وهو من زنات جمع المذكّر، والأمتعة: جمع متاع، وهو كل ما ينتفع به من عروض وأثاث، ويدخل في ذلك ما له عون في الحرب بحسب الزمان والمكان... **﴿فيميلون﴾**: والميل، العدول عن الوسط إلى الطرف، ويطلق على العدول عن شيء كان معه إلى شيء آخر كما هنا... **﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾**: القضاء إتمام الشيء كقوله: «فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله......» **﴿فإذا اطمأننتم﴾**: الاطمئنان؛ القفول من الغزْوِ، لأنّ في الرجوع إلى الأوطان سكوناً من قلاقل السفر واضطراب البدن... **﴿إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾**: الموقوت المحدود بأوقات والمنجَّم عليها، وقد يستعمل بمعنى المفروض... **﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾**: الوهن الضعف في العمل، والابتغاء: مصدر ابتغى بمعنى بغى المتعدّي، أي: الطلب، والمراد به هنا المبادأة بالغزْوِ، وأن لا يتقاعسوا حتى يكون المشركون هم المبتدئين بالغزْو، تقول العرب: طلبنا بني فلان، أي: غزوناهم.

مبحث الإعراب

﴿**فمالكمْ في المنافقين فئتين**﴾: الفاء للتفريع، ما اسم استفهام مبتدأ، لكم جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، في المنافقين جار ومجرور متعلق بالخبر، فئتين حال من ضمير المخاطب منصوب بالياء. ﴿**والله أركسهم بما كسبوا**﴾ الواو واو الحال، الله مبتدأ مرفوع بالضمة، أركسهم فعل ماض، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله، بما جار ومجرور متعلق بأركسهم، كسبوا فعل ماض، وواو الجماعة فاعل، والجملة صلة ما، والجملة في محل نصب حال وصاحب الحال المنافقين. ﴿**أتريدون أن تهدوا من أضل الله**﴾: الهمزة للاستفهام، تريدون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، وواو الجماعة فاعل، أنْ حرف مصدر ونصب، تهدوا فعل مضارع منصوب بأن، وعلامة نصبه حذف النون، وواو الجماعة فاعل، مَنْ اسم موصول في محل نصب مفعول به، أضل فعل ماض، الله فاعل مرفوع بالضمة، وجملة أضل الله صلة الموصول، والرابط الضمير المنصوب المقدّر في أضل، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول بتريدون، أي: هدايةَ مَنْ أضلّه الله.

﴿**ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا**﴾: الواو للعطف، مَنْ اسم شرط جازم، يضلل فعل مضارع مجزوم بالسكون فعل الشرط، وحُرّك بالكسرة لالتقاء الساكنين، الله فاعل مرفوع بالضمة، فلن الفاء رابطة لجواب الشرط، لن حرف نفي ونصب، تجد فعل مضارع منصوب بلن وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة، والفاعل ضمير المخاطب (أنت)، له جار ومجرور متعلق بتجد، سبيلاً مفعول به، وجملة فلن تجد في محل جزم جواب الشرط. ﴿**ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء**﴾ ودّوا فعل ماض، وواو الجماعة فاعل، لو حرف مصدر، تكفرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل، ولو وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول ودُّوا، أي: ودُّوا كفركم، كما الكاف بمعنى مثل، وما مصدرية، كفروا فعل وفاعل، أي: ودُّوا لو تكفرون كفراً مثل كفرهم، فتكونون الفاء للعطف والتعقيب، تكونون فعل مضارع ناقص مرفوع بثبوت النون، والواو اسم تكون، سواءً خبر تكون، والجملة معطوفة على تكفرون. ﴿**فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله**﴾ فلا الفاء واقعة في جواب شرط مقدّر، أي: إذا كان

حالهم كذلك فلا تتخذوا، لا ناهية، تتخذوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، منهم جار ومجرور متعلق بتتخذوا، أولياءَ مفعول به منصوب بالفتحة، حتى حرف غاية وجر تُعطي معنى إلي، يهاجروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتي، والواو فاعل، في سبيل جار ومجرور متعلق بيهاجروا، اللهِ مضاف إلى سبيل مجرور بالكسرة، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحتي.

﴿**فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم**﴾ الفاء للعطف والتعقيب، إن حرف شرط جازم، تولوا فعل ماض، وفاعله واو الجماعة وهو في محل جزم فعل الشرط، فخذوهم الفاء رابطة لجواب الشرط، خذوهم فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، وضمير الجماعة (هم) مفعول به، وجملة فخذوهم في محل جزم جواب الشرط، واقتلوهم معطوف على خذوهم، حيث ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب متعلق بالفعل قبله، وجدتموهم فعل وفاعل ومفعول، وهو في محل جر مضاف إلى حيث. ﴿**ولا تتخذوا منهم وليّاً ولا نصيراً**﴾ الواو للعطف، لا ناهية، تتخذوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وفاعله واو الجماعة، منهم جار ومجرور متعلق بتتخذوا، وليّاً مفعول به منصوب بالفتحة، ولا نصيراً معطوف على وليّاً منصوب بالفتحة.

﴿**إلاّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾ إلاّ أداة استثناء، الذين مستثنى بإلاّ في محل نصب، يصلون فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، إلى قوم جار ومجرور متعلق بيصلون، بينكم ظرف مكان منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف نعت لقوم، وبينهم معطوف على بينكم، ميثاق فاعل متعلق الظرف. ﴿**أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم**﴾ أوْ حرف عطف، جاءوكم فعل وفاعل ومفعول، حصرت فعل ماض، صدورهم فاعل حصرت، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة حصرت صدورهم في محل نصب حال من الضمير المرفوع ـ واو الجماعة ـ، أن يقاتلوكم فعل وفاعل ومفعول في تأويل مصدر مجرور بحرف جر، أي: من قتالكم، أو يقاتلوا قومهم معطوف على أن يقاتلوكم وهي مثلها في الإعراب. ﴿**ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم**﴾ الواو للعطف، لو حرف امتناع لامتناع متضمنة معنى

الشرط، شاء فعل ماض، اللهُ فاعل مرفوع بالضمة، لسلَّطهم اللام واقعة في جواب الشرط، سلَّطهم فعل ماض، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله، عليكم جار ومجرور متعلق بسلّط، فلقاتلوكم الفاء للتعقيب، واللام مثل لام الجواب الأولي، قاتلوكم فعل وفاعل ومفعول، وجملةُ فعْل شرط لو وجوابه وما عُطف عليه لا محل لها من الإعراب.

﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ فإنْ الفاء للعطف والتفريع، إنْ حرف شرط جازم، اعتزلوكم فعل الشرط في محل جزم، وواو الجماعة فاعل، وضمير الجماعة (كُمْ) مفعول به، فلم الفاء للعطف والتعقيب، لم حرف نفي وجزم، يقاتلوكم فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، والضمير بعده مفعول به، وألقوا الواو للعطف، ألقوا فعل ماض والواو فاعل، إليكم جار ومجرور متعلق بألقوا، السلم مفعول به منصوب بالفتحة، فما الفاء رابطة لجواب الشرط، ما نافية، جعل الله فعل وفاعل، لكم جار ومجرور متعلق بجعل، عليهم كذلك، سبيلاً مفعول به منصوب بالفتحة وجملة فما جعل الله في محل جزم جواب الشرط.

﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ ستجدون فعل وفاعل، آخرين مفعول به منصوب بالياء، يريدون فعل وفاعل، والجملة في محل نصب نعت لآخرين، أنْ حرف مصدر ونصب، يأمنوكم فعل مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والضمير بعده مفعول به، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول يريدون، أي: يريدون أمنكم وأمن قومهم، ويأمنوا قومهم معطوف على يأمنوكم وهو مثله في الإعراب. **﴿كلَّما ردُّوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾** كلَّما ظرفية شرطية، ردُّوا فعل ماض مبني للمجهول، والواو نائب الفاعل، والجملة فعل الشرط، إلى الفتنة جار ومجرور متعلق بردوا، أركسوا فعل ماض مبني للمجهول، والواو نائب الفاعل، والجملة جواب الشرط وهو كلما، وهذا الشرط لا يعمل، فيها جار ومجرور متعلق بأركسوا. **﴿فإنْ لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾** الفاء للتفريع، وإنْ شرطية، لم للنفي والجزم، يعتزلوكم فعل وفاعل ومفعول، والفعل مجزوم بلم، وجملة لم يعتزلوكم في محل جزم فعلْ شرطِ إنْ، ويلقوا إليكم

السلم معطوف على فإنْ لم يعتزلوكم وهو مثلها في الإعراب، ويكفوا أيديهم كذلك، فخذوهم الفاء رابطة للجواب، خذوهم فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل، والضمير بعده مفعول به، والجملة في محل جزم جواب الشرط، واقتلوهم معطوف على فخذوهم وهي مثلها في الإعراب، حيث ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب متعلق بخذوهم، ثقفتموهم فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل جر مضافة إلى حيث.

﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ الواو للعطف، أولئكم في محل رفع مبتدأ، جعلنا فعل وفاعل، لكم جار ومجرور متعلق بجعلنا، عليهم كذلك، سلطاناً مفعول به، مبيناً نعت له منصوب بالفتحة، وجملة جعلنا في محل رفع خبر المبتدإ (أولئكم). **﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطئاً﴾** الواو للعطف، ما نافية، كان فعل ماض، لمؤمن جار ومجرور متعلق بكان، أنْ حرف مصدر ونصب، يقتل فعل مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه الفتحة، والفاعل ضمير يعود على مؤمن، مؤمناً مفعول به منصوب بالفتحة، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع فاعل كان، والتقدير: ما صح لمؤمن قتلُ مؤمن، إلاّ أداة استثناء، خطئاً منصوب بالاستثناء.

﴿ومن قتل مؤمناً خطئاً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلاّ أن يصّدّقوا﴾ الواو للعطف، من اسم شرط جازم، قتل فعل ماض وهو في محل جزم فعل الشرط، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، مؤمناً مفعول به منصوب بالفتحة، خطئاً حال من فاعل قتل منصوب بالفتحة، فتحرير الفاء رابطة لجواب الشرط، تحرير خبر لمبتدإ محذوف مرفوع بالضمة، والتقدير: فحكمُه تحريرُ، والجملة في محل جزم جواب الشرط، رقبة مضاف إلى تحرير مجرور بالكسرة، مؤمنة نعت لرقبة مجرور بالكسرة، وديةٌ معطوف على تحرير مرفوع بالضمة، مسلمة نعت لدية مرفوع بالضمة، إلى أهلهِ جار ومجرور متعلق بمسلمة، والضمير فيه مضاف إليه، إلاّ أداة استثناء، أنْ حرف مصدر ونصب، يصدَّقوا فعل مضارع منصوب بأنْ وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب، أي: إلاّ متصدِّقين عافين. **﴿فإنْ كان من قوم عدوٍّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾** الفاء للتفريع، إنْ شرطية، كان فعل ماض ناقص، واسمها

ضمير يعود على المقتول، من قوم جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر كان، عدوٌّ نعت لقوم مجرور بالكسرة، لكم جار ومجرور متعلق بعدوٍّ، وهو مؤمن جملة حالية في محل نصب، فتحرير رقبة مؤمنة مثل الأولي في الإعراب. **﴿وإنْ كان من قوم﴾** مثل وإنْ كان من قوم الأولي. **﴿بينكم﴾** ظرف متعلق بمحذوف نعت لقوم. **﴿وبينهم﴾** مثله. **﴿ميثاق﴾** فاعل لفعل مقدر مرفوع بالضمة.

﴿فدية مسلّمة﴾ مثل الأولي. **﴿إلى أهله﴾** جار ومجرور متعلق بالفعل المقدر مثل الأولى. **﴿وتحرير رقبة مؤمنة﴾** كذلك. **﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين﴾** الفاء للتفريع، مَنْ شرطية، لم يجد فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، وجملة لم يجد في محل جزم فعل الشرط، فصيام الفاء رابطة لجواب الشرط، صيام خبر لمبتدإ محذوف، أي: فحكمه صيام، والجملة في محل جزم جواب الشرط، شهرين مضاف إلى صيام مجرور بالياء، متتابعين نعت لشهرين. **﴿توبة من الله﴾** مفعول لأجله منصوب بالفتحة، من الله جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لتوبة، أي: توبة كائنة من الله.

﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ كان واسمها وخبرها، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب. **﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾** الواو للعطف، مَنْ شرطية، يقتل فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، مؤمناً مفعول به منصوب بالفتحة، متعمداً حال من فاعل يقتل منصوب بالفتحة، فجزاؤه الفاء واقعة في جواب الشرط، جزاؤه مبتدأ مرفوع بالضمّة، جهنّم خبر المبتدإ مرفوع بالضمة، أي: إدخال جهنم، خالداً حال من ضمير مقدر، أي: يدخل جهنم خالداً، فيها جار ومجرور متعلق بخالداً، وغضب الله عليه جملة من فعل وفاعل معطوف على الإدخال المقدّر، ولعنه كذلك، وأعدّ له عذاباً عظيماً مثلهما، وتقدير الكلام على هذا الإعراب: فجزاؤه أنْ يُدخلهَ جهنم، وأن يغضب عليه، وأن يلعنه وأن يعد له العذاب العظيم!.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا﴾ يا للنداء، أيُّ منادى مبني على الضم في محل نصب، ها للتنبيه، الذين في محل نصب نعت لأيّ

محلاً، آمنوا فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، والرابط بين الصلة والموصول الواو في آمنوا، لأنّه يعود على الذين، إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، ضربتم فعل وفاعل في محل جرمضاف إلى إذا، في سبيل جار ومجرور متعلق بضربتم، الله مضاف إلى سبيل مجرور بالكسرة، فتبيّنوا الفاء رابطة لجواب إذا، تبيّنوا فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة جواب إذا، والتقدير: تبيّنوا إذا ضربتم، وهذا معنى كونه عاملاً في إذا النصب. ﴿**ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمناً**﴾ الواو للعطف، لا للنهي، تقولوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، لمن جار ومجرور متعلق بتقولوا، ألقى فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة الموصول، إليكم جار ومجرور متعلق بألقي، السلمَ مفعول به منصوب بالفتحة، لست فعل ماض ناقص، والضمير فيه اسم ليس في محل رفع، مؤمناً خبر ليس منصوب بالفتحة، وجملة لست مؤمناً في محل نصب مقول القول.

﴿**تبتغون عرض الحياة الدنيا**﴾ تبتغون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، وجملة تبتغون في محل نصب حال من الضمير في ولا تقولوا، عرض مفعول به منصوب بالفتحة، الحياةِ مضاف إلى عرض مجرور بالكسرة، الدنيا نعت للحياة مجرور بكسرة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**فعند الله مغانم كثيرة**﴾ الفاء للربط والتعليل، عند ظرف منصوب بالفتحة، الله مضاف إلى عند مجرور بالكسرة، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدّم، مغانمُ مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة، كثيرة نعت لمغانم مرفوع بالضمة. ﴿**كذلك كنتم من قبل**﴾ كذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب خبر كنتم، ذلك مضاف إلى مثل، كنتم كان واسمها، من قبل جار ومجرور متعلق بكنتم، وقبل مبنيّة على الضم لحذف المضاف إليه ونية معناه. ﴿**فمنّ الله عليكم**﴾ الفاء للعطف والتعقيب، مَنَّ اللهُ فعل وفاعل، عليكم جار ومجرور متعلّق بمنّ. فتبيّنوا الفاء فاء الفصيحة، تبيّنوا فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الأولي تعليل، وهذه جواب للشرط المقدّر لا محل لهما من الإعراب.

﴿**إنّ الله كان بما تعملون خبيراً**﴾ إنّ حرف توكيد ونصب، اللهَ اسمها منصوب بالفتحة، كان واسمها ضمير يعود على الله، بما جار ومجرور متعلق

بخبيراً، تعملون فعل وفاعل، والجملة صلة ما، خبيراً خبر كان منصوب بالفتحة، وجملة كان في محل رفع خبرُ إنّ، وجملة إنّ الله كان.. تذييلية لا محل لها من الإعراب. **﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرَ أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾** لا حرف نفي، يستوي فعل مضارع مرفوع بضمة مقدّرة على الياء منع من ظهورها الثقل، القاعدون فاعل مرفوع بالواو، من المؤمنين جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل يستوي (القاعدون)، غيرَ بالنصب على الحال منه كذلك، أولي مضاف إلى غير مجرور بالياء لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم، والمجاهدون معطوف على القاعدون مرفوع بالواو، في سبيل جار ومجرور متعلق بالمجاهدون، اللهِ مضاف إلى سبيل مجرور بالكسرة، بأموالهم جار ومجرور، وأنفسهم معطوف عليه، والمتعلق الأول متعلق بهما. **﴿فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾** فضل الله فعل وفاعل، المجاهدين مفعول به منصوب بالياء، بأموالهم جار ومجرور متعلق بالمجاهدين، وأنفسهم معطوف على أموالهم، على القاعدين جار ومجرور متعلق بفضّل، درجةً مفعول مطلق منصوب بالفتحة. **﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾** الواو للعطف، كلاً مفعول أول لوعد، الله فاعل وعد مرفوع بالضمة، الحسنى المفعول الثاني منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والجملة اعتراضيّة لا محل لها من الإعراب. **﴿وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾** جملة فضّل الله معطوفة على فضّل الله السابقة، أجراً نائب المفعول المطلق منصوب بالفتحة، وعظيماً نعت له. **﴿درجات منه ومَغْفرة ورحمة﴾**: درجات بدل من قوله: أجراً، منه جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لدرجات، ومغفرة معطوف على درجات، ورحمة كذلك. **﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾** الجملة من كان واسمها وخبرها تذييلية لا محل لها من الإعراب.

﴿إنّ الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض﴾: إنّ الذين إنّ واسمها، توفّاهم فعل مضارع بحذف إحدي التاءين مرفوع بضمة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والضمير فيه مفعول به، الملائكةُ فاعل مرفوع بالضمة، ظالمي حال من الضمير المفعول منصوب بالياء، أنفسهم مضاف إلى ظالمي مجرور بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة توفاّهم صلة الموصول، والرابط الضمير المنصوب، قالوا فعل وفاعل، فيم جار

ومجرور حذف ألف ما تخفيفاً، كنتم كان واسمها، وخبرها معنى الاستفهام في قوله: (فيم)، وجملة فيم كنتم في محل نصب مقول القول، وجملة قالوا فيم كنتم بدل اشتمال من توفّاهم، قالوا فعل وفاعل، كنّا كان واسمها، مستضعفين خبرها، في الأرض جار ومجرور متعلق بمستضعفين، وجملة كُنَّا في محل نصب مقول القول، وجملة قالوا كنّا جوابية لا محل لها من الإعراب.

﴿**قالوا ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها**﴾ قالوا فعل وفاعل، ألم الهمزة للاستفهام، لم حرف نفي وجزم، تكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون، أرض اسم تكن مرفوع بالضمة، الله مضاف إلى أرض مجرور بالكسرة، واسعة خبر تكن منصوب بالفتحة، وجملة ألم تكن أرض الله واسعة في محل نصب مقول القول، فتهاجروا الفاء فاء السببية، تهاجروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، فيها جار ومجرور متعلق بتهاجروا، وجملة قالوا ألم تكن لا محل لها من الإعراب. ﴿**فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً**﴾: الفاء رابطة لخبر إنّ، وجيء بها لطول الكلام بالحوار العارض بين اسم إنّ وبين خبرها، أولئك مبتدأ في محل رفع، مأواهم مبتدأ ثانٍ مرفوع بضمة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والضمير فيه مضاف إليه، جهنّم خبر المبتدإ الثاني مرفوع بالضمة، وجملة المبتدإ الثاني وخبره خبر المبتدإ الأول، وساءت الواو للعطف، ساءت فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على جهنّم، مصيراً تمييز منصوب بالفتحة، وجملة فأولئك مأواهم جهنّم في محل رفع خبر إنّ، وجملة وساءت مصيراً تذييلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً**﴾: إلاّ أداة استثناء، المستضعفين منصوب بالاستثناء، من الرجال جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من المستضعفين، والنساء والولدان معطوفان على الرجال، لا نافية، يستطيعون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، وجملة لا يستطيعون حال من المستضعفين كذلك، حيلةً مفعول به منصوب بالفتحة، ولا يهتدون سبيلاً معطوف على لا يستطيعون وهي مثلها في الإعراب.

﴿**فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم**﴾: الفاء فاء الفصيحة، أولئك مبتدأ في محل رفع، عسى فعل ماض ناقص تعمل عمل كاد، اللهُ اسمها مرفوع بالضمة،

أنْ حرف مصدر ونصب، يعفو فعل مضارع منصوب بأنْ وعلامة نصبه الفتحة، والفاعل ضمير يعود على الله، وأنْ وما دخلت عليه خبر عسى، عنهم جار ومجرور متعلق بيعفو، وجملة فأولئك جوابية لا محل لها من الإعراب. **﴿وكان الله عفوّاً غفوراً﴾**: جملة من كان واسمها وخبرها تذييلية لا محل لها من الإعراب. **﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعةً﴾**: الواو للعطف، من اسم شرط جازم، يهاجرْ فعل مضارع مجزوم بالسكون فعل الشرط، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، في سبيل جار ومجرور متعلق بيهاجر، اللهِ مضاف إلى سبيل مجرور بالكسرة، يجد فعل مضارع مجزوم بالسكون جواب الشرط، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، في الأرض جار ومجرور متعلق بيجد، مراغماً مفعول به منصوب بالفتحة، كثيراً نعت له، وسعةً معطوف على مراغماً منصوب بالفتحة، وجملة ومن يهاجر معطوفة على قوله: إنّ الذين توفّاهم لا محل لها من الإعراب.

﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾: ومن يخرج من بيته جملة شرطية معطوفة على ومن يهاجر، مهاجراً حال من فاعل يخرج منصوب بالفتحة، إلى الله جار ومجرورمتعلق بمهاجراً، ورسوله معطوف على الله مجرور بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه، ثُمَّ حرف عطف، يدركه معطوف على يخرج مجزوم بالسكون، والضمير فيه مفعول به، الموت فاعل يدرك مرفوع بالضمة، فقد الفاء رابطة لجواب الشرط، قد حرف تحقيق، وقع فعل ماض، أجره فاعل وقع مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة فقد وقع في محل جزم جواب الشرط، على الله جار ومجرور متعلق بوقع. **﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾** جملة من كان واسمها وخبرها تذييلية لا محل لها من الإعراب.

﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أنْ تقصروا من الصلاة إنْ خفتم أنْ يفتنكم الذين كفروا﴾: الواو للعطف، إذا ظرف للزمان المستقبل خافض لشرطه منصوب بجوابه، في محل نصب، ضربتم فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى إذا، في الأرض جار ومجرور متعلق بضربتم، فليس الفاء رابطة لجواب الشرط، ليس فعل ماض ناقص تعمل عمل كان، عليكم جار ومجرور متعلق

بمحذوف خبر ليس مقدم، جناحٌ اسم ليس مؤخر مرفوع بالضمة، أن تقصروا أنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف مقدر قبل أن اطّراداً، أي: في قصركم من الصلاة، من الصلاة جار ومجرور متعلق بتقصروا، إنْ حرف شرط جازم، خفتم فعل وفاعل، وهو في محل جزم فعل الشرط، أنْ حرف مصدر ونصب، يفتنكم فعل مضارع منصوب بأنْ وعلامة نصبه الفتحة، والضمير فيه مفعول به، الذين فاعل في محل رفع، كفروا فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول خفتم.، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه قوله: فليس عليكم جناح.

﴿إنّ الكافرين كانوا لكم عدوّاً مبيناً﴾: إنّ حرف توكيد ونصب، الكافرين اسم إنّ منصوب بالياء، كانوا كان واسمها، لكم جار ومجرور متعلق بِعَدُوّ، عدوّاً خبر كان منصوب بالفتحة، مبيناً نعت له منصوب بالفتحة، وجملة كانوا في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ الكافرين تعليلية لا محل لها من الإعراب. **﴿وإذا كنت فيهم﴾** الجملة معطوفة على ما قبلها، وهي ظرفية شرطية، **﴿فأقمت﴾** الفاء للتعقيب، أقمت فعل وفاعل، **﴿لهم﴾** جار ومجرور متعلق بأقمت، **﴿الصلاة﴾** مفعول به منصوب بالفتحة، وجملة كنت، وكذلك أقمت في محل جر مضافة إلى إذا، **﴿فلتقم﴾** الفاء رابطة لجواب إذا، اللام لام الأمر، تقم فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه السكون، **﴿طائفة﴾** فاعل تقم مرفوع بالضمة، **﴿منهم﴾** جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لطائفة، **﴿معك﴾** ظرف مكان، والضمير فيه مضاف إليه، وهو متعلق بما تعلق به الجار والمجرور. **﴿وليأخذوا﴾** معطوف على فلتقم، **﴿أسلحتهم﴾** مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه، **﴿فإذا﴾** الفاء للتفريع، إذا ظرف، **﴿سجدوا﴾** فعل وفاعل، وهو في محل جر مضاف إلى الظرف، **﴿فليكونوا﴾** الفاء رابطة لجواب إذا، وليكونوا مجزوم بلام الأمر، وواو الجماعة فيه اسم يكون، **﴿من ورائكم﴾** جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر يكون، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿ولتأت﴾ معطوف على فلتقم، والفعل مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه حذف الياء، **﴿طائفة﴾** فاعل تأت مرفوع بالضمة، **﴿أخرى﴾** نعت لطائفة مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. **﴿لم يصلوا﴾** جملة حالية من

طائفة أخرى. ﴿**فليصلوا**﴾ الفاء للتفريع، والفعل مجزوم بلام الأمر. ﴿**معك**﴾ ظرف متعلق بالفعل قبله، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وليأخذوا حذرهم**﴾ مثل وليأخذوا أسلحتهم السابقة. ﴿**وأسلحتهم**﴾: معطوف على حذرهم منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وَدّ**﴾ فعل ماض، ﴿**الذين**﴾ فاعل ودّ، ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين، ﴿**لو**﴾ حرف مصدر، ﴿**تغفلون**﴾ فعل وفاعل، ولو وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول لودّ، أي: ودّوا غفلتكم، ﴿**عن أسلحتكم**﴾ جار ومجرور متعلق بتغفلون، والضمير فيه مضاف إليه، ﴿**وأمتعتكم**﴾ معطوف عليه، ﴿**فيميلون**﴾ الفاء للتفريع، يميلون فعل وفاعل، ﴿**عليكم**﴾ جار ومجرور متعلق بيميلون، ﴿**ميلة**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة، ﴿**واحدة**﴾ نعت لها.

﴿**ولا جناح**﴾ الواو للعطف، لا للنفي، جناح اسم لا النافية للجنس مبني على الفتح في محل نصب، ﴿**عليكم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لا، ﴿**إنْ**﴾ شرطية، ﴿**كان**﴾ فعل الشرط في محل جزم، ﴿**بكم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر كان، ﴿**أذى**﴾ اسم كان مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة، ﴿**من مطر**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لأذي، ﴿**أو كنتم مرضى**﴾ معطوف على إن كان بكم أذًى، ﴿**أنْ**﴾ حرف مصدر ونصب، ﴿**تضعوا**﴾ فعل مضارع منصوب بأنْ، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، ﴿**أسلحتكم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف مقدر اطّراداً، والتقدير: لا جناح عليكم في وضع أسلحتكم. وجملة ﴿**وخذوا حذركم**﴾ من الفعل والفاعل والمفعول معطوفة على ما قبلها من الأوامر. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها، ﴿**أعدّ**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، ﴿**للكافرين**﴾ جار ومجرور متعلق بأعدّ، ﴿**عذاباً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، ﴿**مهيناً**﴾ نعت له، وجملة أعدّ في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ الله تعليلية لا محلّ لها من الإعراب.

﴿**فإذا قضيتم**﴾ الفاء للعطف والتعقيب، إذا ظرف كما هو معلوم، قضيتم فعل وفاعل في محل جر بإضافة إذا، ﴿**الصلاة**﴾ مفعول به، ﴿**فاذكروا**﴾ الفاء رابطة لجواب إذا، اذكروا فعل وفاعل، ﴿**الله**﴾ مفعول به، ﴿**قياماً**﴾ حال من الواو في اذكروا، ﴿**وقعوداً**﴾ معطوف على قياماً، ﴿**وعلى جنوبكم**﴾ جار ومجرور متعلق

بمحذوف حال، وهو معطوف على قياماً كذلك. ﴿**فإذا**﴾ الفاء للعطف والتفريع، إذا كما علم سابقاً. ﴿**اطمأننتم**﴾ فعل وفاعل شرط لإذا. ﴿**فأقيموا**﴾ الفاء رابطة لجواب إذا، أقيموا فعل وفاعل. ﴿**الصلاة**﴾ مفعول به. ﴿**إنّ الصلاة**﴾ إنّ واسمها. ﴿**كانت**﴾ فعل ماض ناقص، واسمُها ضمير يعود على الصلاة. ﴿**على المؤمنين**﴾ جار ومجرور متعلق بالخبر بعده. ﴿**كتاباً**﴾ خبر كانت. ﴿**موقوتاً**﴾ نعت لكتاباً منصوب بالفتحة، وجملة كانت في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ الصلاة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ولا تهنوا**﴾ الواو للعطف، لا للنهي، تهنوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، ﴿**في ابتغاء**﴾ جار ومجرور متعلق بتهنوا، ﴿**القوم**﴾ مضاف إلى ابتغاء مجرور بالكسرة.

﴿**إنْ**﴾ شرطية، ﴿**تكونوا**﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والواو اسم تكون، ﴿**تألمون**﴾ فعل وفاعل في محل نصب خبر تكون، ﴿**فإنّهم**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، إنّهم إنّ واسمها، ﴿**يألمون**﴾ فعل وفاعل في محل رفع خبر إنّ، وجملة فإنّهم يألمون في محل جزم جواب الشرط، ﴿**كما**﴾ الكاف بمعنى مثل نعت لمصدر مقدّر، أي: يألمون ألماً مثل ألمكم، وألماً مفعول مطلق، ما مصدرية، ﴿**تألمون**﴾ فعل وفاعل وهو مع ما مصدر كما قُدّر سابقاً، ﴿**وترجون**﴾ معطوف على ما قبله، ﴿**من الله**﴾ جار ومجرور متعلق بترجون، ﴿**ما لا يرجون**﴾ ما اسم موصول في محل نصب مفعول به، لا حرف نفي، يرجون فعل وفاعل، والجملة صلة ما، والرابط بين الصلة والموصول ضمير مفعول ليرجون، أي: ترجون من الله الثواب الذي لا يرجونه. ﴿**وكان الله عليماً حكيماً**﴾: جملة من كان واسمها وخبرها تذييلية لا محل لها من الإعراب.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**فمالكم في المنافقين فئتين**﴾: هذا تفريع عن أخبار المنافقين التي تقدّمت؛ لأنّ ما وصف من أحوالهم لا يترك شكّاً عند المؤمنين في خبث طويتهم وكفرهم. والاستفهام للتعجيب واللوم. والتعريف في المنافقين للعهد. والمراد من هذا الاستفهام إنكار أن يكون للمخاطبين شيء مصحح لاختلافهم في أمر المنافقين، وبيان وجوب بث القول بكفرهم وإجرائهم مجرى المجاهرين بالكفر في جميع الأحكام. وذَكَرَهُم بعنوان النفاق باعتبار وصفهم السابق. . .

﴿**أتريدون أنْ تهدوا. .**﴾ إلخ، هذا تجريد للخطاب وتخصيص له بالقائلين بإيمانهم من الفئتين، وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك وإشعار بأنّه يؤدّي إلى محاولة المحال الذي هو هداية مَنْ أضلّه الله تعالى، وذلك لأنّ الحكم بإيمانهم وادّعاء اهتدائهم وهم بمعزل عن ذلك سعْيٌ في هدايتهم وإرادةٌ لها. ووضع الموصول (مَنْ) موضع ضمير المنافقين (أن تهدوهم) لتشديد الإنكار، وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر في حيز الصلة، وتوجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلقها، بأن يقال: أتهدون. . . الخ، للمبالغة في إنكاره ببيان أنّه مما لا يمكن إرادته فضلاً عن إمكان نفسه. وقيمة تقرير هذه الحقيقة هي إثارة اليقظة في ضمير الإنسان ليسأل نفسه دائماً: في أيّ طريق يسير؟ وليحاول دائماً ألاّ يغْفل وألاّ يستنيم على شهواته ودفعاته وغواياته، وأن يكبح جماحها ويعود إلى الطريق السوي كلما انحرف عن الطريق، وألاّ يعتمد على أنّ ما قدر له من هداية أو من غواية لابد أن يكون، فإنّه لا يدري ما قدّر له، ولابد إذنْ من أن يحاول بنفسه، فسنة الله التي لا تتخلف قد شاءت أن تكون له القدرة على اختيار الطريق، فأيّما مصير اتجه إليه، فهو تحقيق لمشيئة الله التي وهبته القدرة على الاختيار، ثم كلّفته أن يختار.

ولقد نوت هذه الطائفة من المنافقين الشرَّ وبيّتت الخديعة، وكان أمامها أن تؤمن إيماناً صادقاً، وأن تلحق بركب المسلمين، ولكنها حادت عن هذا المنهج، واختارت الضلال، فحق عليها الضلال، ونفذت فيهم إرادة الله الأزليّة: أنّ مَنْ يسلك هذا الطريق يضل ولا يعود. . . ﴿**ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء**﴾: ضمير ودُّوا عائد على المنافقين المذكورين في أوّل الآية السابقة. فضح الله هذا الفريق فأعلم المسلمين بأنّهم مضمرون الكفر، وأنّهم يحاولون رَدَّ مَنْ يستطيعون ردّه من المسلمين إلى الكفر. وما أبلغ التعبير في جانب محاولة المؤمنين بالإرادة في قوله: أتريدون أن تهدوا. . .، وفي جانب محاولة المنافقين بالودّ؛ لأنّ الإرادة ينشأ عنها الفعل، فالمؤمنون يستقربون حصول الإيمان في المنافقين لأن الإيمان قريب من فطرة الناس والمنافقون يعلمون أن المؤمنين لا يرتدّون عن دينهم، ويرون منهم محبتهم إياه، فلم يكن طلبهم تكفير المؤمنين إلاّ تمنِيّاً، فعبّر عنه بالودّ المجرّد. وقوله: فتكونون سواء تفيد تأكيد مضمون قوله: كما كفروا، قصد منها تحذير المسلمين من الوقوع في حِبَالَةِ المنافقين.

وقوله. . . ﴿**فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله**﴾: أقام الله

للمسلمين بهذا القول علامة على كفر المتظاهرين بالإسلام، حتى لا يعود بينهم الاختلاف في شأنهم، وهي علامة بيّنة، فلم يبق من النفاق شيء مستور إلاّ نفاق منافقي المدينة. فلم يكن هذا الحكم هو حكم المنافقين بوجه عام، فلقد كان المنافقون في المدينة بين ظَهْرَانَي المسلمين، وكان المسلمون مأمورين أن يقبلوا ظاهر الإيمان متى أعلنوه. إنّه حكم خاص بهذه الفئة ـ فيما يبدو منافقي غير أهل المدينة ـ لأنّهم ليسوا من أهل المدينة، إنّما دخلوها متظاهرين بالإسلام لغرض معين، ثم خرجوا فانضموا إلى الكفار، فهم إذن خطر إذا تُرِكُواْ يدخلون ويخرجون، فتقرر هذا الحكم بخصوصهم، وهو القتل حيثما وجدهم المسلمون. أمّا أهل المدينة فإنّ شرهم على أية حال أخف، لأنّهم بين أيدي المسلمين في كل وقت؛ هم وأموالهم ومساكنهم، فالاحتياط قائم. ومن ثَمَّ يكتفي منهم بإعلان الإسلام وترك النوايا لله، لأنّها غير ظاهرة للناس.

فأمّا أولئك الذين دخلوا ثم خرجوا فنيّتهم ظاهرة، فإذا دعوا إلى الهجرة في سبيل الله فأبوا فذلك إذنْ هو اليقين. وهكذا يمضى السياق مبيناً علاقة المسلمين فيما بينهم وبين بقية الناس؛ من كافرين محاربين ومن كافرين معاهدين وممن دخلوا في عهد المعاهدين من الكافرين المحايدين ومن الكافرين المتلاعبين، فيحدد لكل فريق موقفه «ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيي عن بينة، وإنّ الله لسميع عليم». وفي هذه القواعد نجد الأسس للمعاملات التي تقوم عليها العلاقات الدولية بين المسلمين وغير المسلمين قائمة على الوضوح والصراحة والاستقامة، قائمة كذلك على الوفاء والأمانة والمسالمة، فلا يتقرّر قتال إلاّ حينما تدعو الضرورة إلى قتال. . .

«والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم» ذلك الحكم الذي تقدم يكون في المنازعات بين الأمم المختلفة، فأمّا بين المسلمين فلا قتل ولا قتال لسبب كائناً من كان، إنّ دم المسلم على المسلم حرام؛ حرام البتة، وما يمكن أن يوجد سبب مهما عظم يبيح القتال بين المسلمين، وليس المسلم مسلطاً على المسلم بأية حال من الأحوال ـ عدا القصاص بطبيعة الحال ـ. إنّ المبدأ مستبعد من أساسه فلا يمكن أن يكون بحال. . .

﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطئاً﴾!. وانتقال العرض يعيد نشاط

السامع بتفنن الأغراض، فانتقل من تحديد أعمال المسلمين مع العدوّ، إلى أحكام معاملة المسلمين بعضهم مع بعض، من وجوب كف عدوان بعضهم على بعض. والمناسبة بين الغرض المنتقل منه والمنتقل إليه؛ أنّه قد كان الكلام في قتال المتظاهرين بالإسلام الذين ظهر نفاقُهم؛ فلا جرم أن تتشوف النفس إلى حكم قتل المؤمنين الخلّص. هوَّل اللهُ تعالى أمر قتل المسلم أخاه المسلم، وجعله في حيّز ما لا يكون فقال: وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطئاً، فجاء بصيغة المبالغة في النفي، وهي صيغة الجحود، فكان الكلام حصراً، وهو حصرادّعائي مراد به المبالغة، كأنّ صفة الإيمان في القاتل والمقتول تنافي الاجتماع مع القتل في نفس الأمر منافاة الضدين؛ لقصد الإيذان بأنّ المؤمن إذا قتل مؤمناً فقد سُلب عنه الإيمان وما هو بمؤمن، على نحو «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»، فتكون هذه الجملة مستقلة عما بعدها، غير مراد بها التشريع، بل هي كالمقدمة للتشريع، لقصد تفظيع حال قتل المؤمنِ المؤمنَ قتلاً غير خطإ، وتكون خبريةً لفظاً ومعنًي، ويكون الاستثناء حقيقياً من عموم الأحوال، بمعنى: ينتفي قتل المؤمن مؤمناً في كل حال إلاّ في حال عدم القصد، وهذا أحسن ما يبدو في معنى الآية. . . ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً**﴾: هذا هو المقصود من التشريع لأحكام القتل، لأنّه هو المتوقع حصوله من الناس، وإنّما أُخر تهويل لأمره. وعندما ننظر في سياق الآية الكريمة نرى في أسلوبها الشيء الخطيرَ من التهديد الشديد والوعيد الأكيد، وفنون الإبراق والإرعاد، وقد تأيّدت بما روي من الأخبار الشداد، منها قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مؤمن»، لأنّه يضادّ إرادة الله في هذه الحياة ـ بلا ضرورة ولا مبرّر ـ، ومن ثم هذا الغضب وهذه اللعنة وهذا العذاب العظيم الخالد، إنّه يحارب الله واهب الحياة، ويحارب الفطرة الكامنة في كيانه ذاته، الفطرة التي ترتجف لإزهاق حياة أيّ حياة. . . ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا. . .**﴾ الخ الآية: لمّا بيّن الله حكم القتل بقسميه، وأنّ ما يُتَصَوَّرُ صدورُه عن المؤمن إنّما هو القتل خطئاً، شرع في التحذير عما يؤدي إليه من قلة المبالاة في الأمور. وعبارة الخطاب ـ يا أيُّها الذين آمنوا ـ تلوّح إلى أنّ الباعث على قتل من أظهر الإسلام منهي عنه، ولو كان قصد القاتل الحرص على تحقق أنّ وصف الإيمان ثابت للمقتول، فإنّ هذا التحقق غير مراد للشريعة،

وقد ناطت صفة الإسلام بقول «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله»، أو بتحية الإسلام. وقوله تعالى: ﴿**فعند الله مغانم كثيرة**﴾: تعليل للنهي عن أخذ المال بابتغاء عرض الدنيا، بما فيه من الوعد الضمني؛ كأنّه قيل: لا تبتغوا المال لحب عرض الدنيا، فعند الله مغانم كثيرة يغنمكموها، فيغنيكم عن ارتكاب ما ارتكبتموه، ولا يخفي ما في السياق من التوبيخ على ما فعل البعضُ. وقوله تعالى: ﴿**كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم**﴾: تعليل وتوبيخ كذلك للنهي عن القول المذكور، ولعلّ تأخيره لما فيه من نوع تفصيل، ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم مع ما فيه من مراعاة المقارنة بين التعليل السابق وبين ما علل به.

وتقديم خبر كان للقصر المفيد لتأكيد المشابهة بين طرفي التشبيه، وذلك إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة. والفاء في (فمنَّ) للعطف على كنتم، أي: مثل ذلك الذي ألقى إليكم كلمة الإسلام، كنتم أنتم أيضاً في مبادئ إسلامكم؛ لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من كلمة الإسلام ونحوها، فمنّ الله عليكم بأنْ قبل منكم تلك المرتبة، وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم. والفاء في قوله تعالى فتبيّنوا، فصيحة، أي: إذا كان الأمر كذلك فاطلبوا بيان هذا الأمر البيّن، وقيسوا حاله بحالكم، وافعلوا به ما فُعِل بكم في أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال، من غير وقوف على تواطؤ الظاهر والباطن.

ولقد دلّت الآية على حكمةٍ عظيمةٍ في حفظ الجامعة الدينيّة، وهي بَثُّ الثقةِ والأمانِ بين أفراد الأمّة، وطرح ما من شأنه إدخال الشك؛ لأنّه إذا فتح هذا البابُ عسُر سدُّه، وكما يتهم المتهم غيره فللغير أن يتهم من اتّهمه، وبذلك ترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق، إذ قد أصبحت التهمة تُظِلُّ الصادق والمنافق؛ وانظر معاملة النبيء ﷺ المنافقين معاملة المسلمين. على أنّ هذا الدين سريع السريان في القلوب، فيكتفي أهله بدخول الداخلين فيه من غير مناقشة، إذ لا يلبثون أن يأْلَفُوهُ وتخالط بشاشتُه قلوبَهم، فهم يقتحمونه على شك وتردُّدٍ فيصير إيماناً راسخاً.

ومما يُعين على ذلك ثقة السابقين فيه باللاحقين بهم، ومن أجل ذلك أعاد

اللهُ الأمرَ فقال: فتبيّنوا تأكيداً لتبيّنوا المذكور قبله، وذيَّله معلّلا بقوله: ﴿**إنّ الله كان بما تعملون خبيراً**﴾، وهو يجمع وعيداً ووعداً...

﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً**﴾: ولمّا لام الله بعض المجاهدين على ما صدر منهم من التعمق في الغاية من الجهاد، عقب ذلك ببيان فضل المجاهدين كيلا يكون ذلك اللومُ مُوهِماً انحطاط فضليتِهم في بعض أحوالهم، على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالبشارة؛ دفعاً لليأس من الرحمة عن أنفس المسلمين. فبناء العقيدة الجديدة، وبناء الأمة التي تحرس هذه العقيدة، يحتاج إلى تكاليف في النفس والمال، ويحتاج إلى تجنيد جميع القادرين، وليس الوقت وقت قعود ولا راحة، وما يستوي المجاهدون والقاعدون ولو كانوا جميعاً من المؤمنين؛ فأمّا أولوا الضرر الذين لا يقدرون على جهاد فلهم عذرُهم ولا تثريب عليهم.

ويظهر من هذا السياق أنّ القاعد عن الجهاد لا يساوي المجاهد في سبيل الله لا في نصرة الدين ولا في ثوابه على ذلك... فتعيّن التعريض بالقاعدين وتشنيع حالهم، وبهذا يظهر موقع الاستثناء بقوله: غير أولي الضرر، كي لا يحسب أصحاب الضرر أنّهم مقصودون بالتحريض، فيخرجوا مع المسلمين فيكلفوهم مؤنة نقلهم وحفظهم بلا جدوى، أو يظنوا أنّهم مقصودون بالتعريض، فتنكسر لذلك نفوسهم، زيادة على انكسارها بعجزهم؛ ولأنّ في استثنائهم إنصافاً لهم وعذراً بأنّهم لو كانوا قادرين لما قعدوا، فذلك الظن بالمؤمن. فالسياق في أمثال هذا التركيب مقصود به الكناية، ولو كان المقصود صريح المعنى لما كان للاستثناء موقع، فليحفظ هذا؛ فالاستثناء مقصودٌ وله موقع من البلاغة لا يُضاع، ولو لم يذكر الاستثناء، لكان تجاوزُ التعريض أصحاب الضرر معلوماً من سياق الكلام، فالاستثناء عدول عن الاعتماد على القرينة إلى التصريح باللفظ، ويدل لهذا ما في الصحيحين عن زيد بن ثابت أنّه قال: نزل الوحي على رسول الله وأنا إلى جنبه ثم سُرِّيَ عنه فقال: اكتب، فكتبت في كتفٍ «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم» وخلف النبي ابن أم مكتوم فقال:

يارسول الله لو أستطيع الجهادَ لجاهدت، فنزلت مكانها «لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم» الآية، فابن أم مكتوم فهم المقصود نفي الاستواء، فظن أنّ التعريض يشملُه وأمثالَه؛ فإنّه من القاعدين، ولأجل هذا الظن عدل عن حراسة المقام إلى صراحة الكلام، وهما حالان متساويان في عرف البلغاء، هما حال مراعاة خطاب الذكي وخطاب الغبيّ، فلذلك لم تكن زيادة الاستثناء مغنية مُقْتَضَى حال من البلاغة، ولكنها معوضته بنظيره؛ لأنّ السامعين أصناف كثيرة.

وعبّر بالمجاهدين في مقابل القاعدين، وفي سبيل الله لمدحهم بذلك والإشعار بعلّة استحقاقهم لعلوّ المرتبة، مع ما فيه من حسن موقع السبيل في مقابل القعود. وتقديم القاعدين في الذكر للإيذان من أوّل الأمر بأنّ القصور الذي ينبئ عنه عدم الاستواء، من جهتهم لا من جهة مقابلهم. وقوله عزّ وجل: **﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾** استئناف مسوق لتفضيل ما بين الفريقين من التفاضل المفهوم، من ذكر عدم استوائهما إجمالاً، ببيان كيفيته وكميته، مبني على ما ينساق إليه المقال، كأنّه قيل كيف وقع ذلك؟ فقيل «فضل الله إلخ». وجملة «فضل الله المجاهدين» بيان لجملة «لا يستوي القاعدون من المؤمنين». والدرجة هنا مستعارة للعلو المعنوي كما في قوله تعالى: «وللرجال عليهن درجة». والعلوّ هنا مرادٌ به علو الفضل ووفرة الأجر. وجيء بدرجة بصيغة الإفراد، وليس إفرادها للوحدة؛ لأنّ درجة هنا جنس معنويّ لا أفرادَ له، ولذلك أعيد التعبير عنها في الجملة التي جاءت بعدها، تأكيداً لها بصيغة الجمع بقوله: درجات منه؛ لأنّ الجمع أقوى من المفرد. وتنوين درجة للتعظيم، وهو يساوي مفاد الجمع في قوله الآتي: درجات منه. وتنوين (كلاًّ) تنوين عوض عن مضاف إليه، والتقدير: وكلا من المجاهدين والقاعدين.

هذا ويفهم من هذا السياق أن تكرير التفضيل بطريق العطف المنبئ عن المغايرة، وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات مع اتّحاد المفضّل والمفضّل عليه حسبما يقتضيه الكلام، ويستدعيه حُسْنُ النظام. وقوله: **﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾**: تذييل مقرر لما وعد من المغفرة والرحمة... **﴿إنّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم**

تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾: فلما جاء ذكر القاعدين عن الجهاد من المؤمنين بعذر وبدونه في الآية السابقة، كان حال القاعدين عن إظهار إسلامهم من الذين عزموا عليه بمكة أو بغيرها، أو اتبعوه ثم صدهم الكفار عنه وفتنوهم، حتى أرجعوهم إلى عبادة الأصنام بعذْرٍ وبدونه، بحيث يخطر ببال السامع أن يتساءل عن مصيرهم إنْ هم استمروا على ذلك حتى ماتوا، فجاءت هذه الآية مجيبة عما يجيش بنفوس السامعين من التساؤل عن مصير أولئك، فكان موقعها استئنافاً بيانياً لسائل مُتَرَدِّدٍ ولذلك فصلت، ولذلك صدرت بحرف التوكيد، فإنّ حالهم يوجب شكّاً في أن يكونوا ملحقين بالكفار؛ كيف وقد ظهر ميلهم إلى الإسلام، ومنهم من دخل فيه بالفعل ثم صُدَّ أو فُتِنَ لأجله. والموصول هنا في قوة المعرف بلام الجنس، وليس المراد شخصاً أو طائفة، بل جنس من مات ظالماً نفسه، ولما في الصلة من الإشعار بعلّة الحكم، وهو قوله: فأولئك مأواهم جهنّم، أي: لأنّهم ظلموا أنفسهم.

إنّه التوبيخ على قعود الهمّةِ وضُعْفِ العزيمة، والرضوخ للذل، والاحتجاج بالضعف، حيث لا يقوم عذرٌ حقيقي من هذا الضعف، وهو لا يسميهم مظلومين، إنّما يسميهم ظالمي أنفسهم؛ فهم الذين استكانوا للظلم يقع عليه فلا يدفعونه، ولا يهجرون الأرض التي تُذِيقُهُم الظُّلْمَ - إن عجزوا عن دفعه فيها -، فهم إذنْ ظالموا أنفسهم، وكان في وسعهم أن ينصفوها. لقد ظلموا أنفسهم حين تركوا الظالمين يظلمونها، ولقد ظلموها مرّةً أخرى حين قبلوا لها هذا الهوان وأرخصوا ما أعزه الله في الإنسان. ومن ثَمَّ يُسْألون في استنكار وفي احتقار: فيم كنتم؟. في أيّ شأن وفي أيّ شيء قضيتم حياتكم؟. فما لحياتكم وجود، وما لحياتكم ثمرَة. هكذا يقول لهم الذين يتوفونهم من الملائكة، وهم على هذه الحال من ظلم أنفسهم. وما يعذرهم أنْ يقولوا: كنّا مستضعفين في الأرض، فهو اعتذار لا يقره الإسلام، ولا يتفق مع روح القوة والاستعلاء التي بثّها في النفوس «قالوا ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها»!.

إنّ الاستسلام للضعف جريمةٌ، فلا تصلُح الجريمةُ أن تكون معذِرَةً!. فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً، فالفاء في قوله: «فأولئك مأواهم جهنّم» للتفريع على ما حكى من توبيخ الملائكة إيّاهم وتهديدهم. وجيء باسم الإشارة في قوله:

فأولئك للتنبيه على أنّهم أحرياء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة من أجل الصفات المذكورة قبله، لأنّهم كانوا قادرين على التخلص من فتنة الشرك بالخروج من أرضه.

وقوله: ﴿**إلاّ المستضعفين**﴾ استثناء من الوعيد، والمعنى إلاّ المستضعفين حقّاً. والتبيين بقوله: ﴿**من الرجال والنساء والولدان**﴾ لقصد التعميم. والمقصد التنبيه على أنّ من الرجال مستضعفين، فلذلك ابتدئ بذكرهم ثم ألحق بهم النساء والولدان لأنّ وجودهم في العائلة يكون عذراً لوليهم إذا كان لا يجد حيلة. وجملة ﴿**لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا**﴾ موضحة للاستضعاف ليظهر أنّه غير الاستضعاف الذي يقوله الذين ظلموا أنفسهم: «كنّا مستضعفين في الأرض»، وجملة ﴿**فأولئك عسى الله أن يَعْفُوَ عنهم**﴾ الفاء فيها للفصيحة، والإتيان بالإشارة للتنبيه على أنّهم جديرون بالحكم المذكور من المغفرة، ومعنى الرجاء المستفاد من (عسى) هنا معنى مجازيٌّ بأنّ عفوَه عن ذنبهم عفوٌ عزيز المنال، فمُثّل حال العفو عنهم بحال من لا يقطع بحصول العفو عنه. والمقصود من ذلك تَضْيِيقُ تحقق عذْرِهم، لئلا يتساهلوا في شروطه اعتماداً على عفو الله؛ فإنّ عُذْرَ اللهِ لهم باستضعافهم رخصةٌ وتوسعةٌ من الله تعالى، لأن البقاء على إظهار الشرك أمر عظيم وكان الواجب العزيمة أن يكلّفوا بإعلان الإيمان بين ظهرانَي المشركين ولو جلب لهم التعذيب والهلاك. وهذا الاستعمال هو محمل موارد عسى ولعلّ إذا أُسْنِدَ إلى اسم الله تعالى. وهذا معنى قول كثير من العلماء: إنّ عسى ولعلّ في القرآن لليقين. ومُرادُهم إذا أُسْنِد إلى الله تعالى بخلاف نحو قوله: «وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا». وقوله: ﴿**وكان الله عفوّاً غفوراً**﴾ تذييل مقرر لما قبله...

﴿**ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعةً**﴾: هذا الكلام ترغيب في المهاجرة وتأنيس لها، بحيث يجد فيها المهاجرُ متحوَّلاً، ومهاجراً بحيث يصل فيه من الخير والنعمة إلى ما يكون سبباً لرغم أنف قومه الذين هاجرهم. ثم نوّه اللهُ بشأن الهجرة؛ بأن جعل ثوابها حاصلاً بمجرد الخروج من بلد الكفر ولو لم يبلغ إلى البلد المهاجَرِ إليه بقوله... ﴿**ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركْه الموت فقد وقع أجره على الله**﴾!. ومعنى

المهاجرة إلى الله المهاجرة إلى الموضع الذي يرضاه الله. وعطف الرسول على اسم الجلالة للإشارة إلى خصوص الهجرة إلى المدينة، للالتحاق بالرسول وتعزيز جانبه. ووقوع الأجر على الله ثبوته القاطع الذي لا يتخلف، فلا راد له ولا ممانع...

﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾: وهو تذييل مقرر لثبوت الأجر الواقع... ﴿**وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾: هذا شروع في بيان كيفية الصلاة، عند الضرورات من السفر ولقاء العدوّ، وفيه تأكيد لعزيمة المهاجرعلي المهاجرة، وترغيب له فيها لما فيه من تخفيف المؤونة. وقوله: إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا شرط جاء على مقتضى الأمر الواقع، فليس القصر مقصوراً على الخوف فقط... ﴿**إنّ الكافرين كانوا لكم عدوّاً مبيناً**﴾: هذا تعليل لذلك باعتبار تعلّله بما ذكر...

﴿**وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة...**﴾ الخ: هذا بيان لما قبله من النص المجمل الوارد في مشروعية القصر بطريق التفريع، وتصوير لكيفيته عند الضرورة التامة، وتخصيص البيان بهذه الصورة مع الاكتفاء فيما عداها بالبيان بطريق السنة، لمزيد حاجتها إليه لما فيها من كثرة التغيير عن الهيئة الأصلية. ومن ههنا ظهر لك أنّ مورد النص الشريف على المقصورة، وحكم ماعداها مستفاد من حكمها. والخطاب لرسول الله ﷺ بطريق التجريد، وبظاهره يتعلق من لا يرى صلاة الخوف بعده، بل هي خاصة به ﷺ. ولا يخفي أن الأئمة بعده نوابه؛ قوام بما كان يقوم به، فيتناولهم حكم الخطاب الوارد للنبيء ﷺ، كما في قوله تعالى: «خذ من أموالهم صدقة». وفي نظم الآية إيجاز بديع؛ فإنه لما قال: ﴿**فلتقم طائفة منهم معك**﴾، علم أن ثمة طائفة أخرى، فالضمير في قوله: ﴿**وليأخذوا أسلحتهم**﴾، للطائفة باعتبار أفرادها، وكذلك ضمير قوله: ﴿**فإذا سجدوا**﴾، للطائفة التي مع النبيء، لأنّ المعية معية الصلاة، وقد قال: فإذا سجدوا. وضمير قوله: ﴿**فليكونوا من ورائكم**﴾، للطائفة الأخرى المفهومة من المقابلة؛ لظهور أن الجواب وهو (فليكونوا من ورائكم) متعين لفعل الطائفة المواجهة للعدوّ.

وقوله: ﴿**ولتأت طائفة أخرى**﴾، هذه هي المقابلة لقوله: فلتقم طائفة منهم معك. وقد أجملت الآية ما تصنعه كل طائفة في بقية الصلاة، ولكنها أشارت إلى

أن صلاة النبيء ﷺ واحدة؛ لأنه قال: ﴿**فليصلوا معك**﴾، فجعلهم تابعين لصلاته، وذلك مؤذن بأن صلاته واحدة. وقوله: ﴿**وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم**﴾؛ استعمل الأخذ في حقيقته ومجازه؛ لأنّ أخذ الحذر مجاز، إذ حقيقة الأخذ التناول، وهو مجاز في التلبس بالشيء والثبات عليه. وجاء بصيغة الأمر؛ لأنّ أخذ السلاح فيه مصلحة شرعية. وقوله: ﴿**فيميلون عليكم ميلة واحدة**﴾، مفرع عن قوله: ﴿**لو تغفلون**﴾، وهو محل الودّ. ولما كان المقصود من الميل هنا الكر والشدّ عُدّي بعلي، بمعنى: يشدون عليكم في حال غفلتكم. وانتصب ميلةً على المفعولية المطلقة، لبيان العدد بمعنى شدة مفردة. واستعملت صيغة المرّة هنا كناية عن القوة والشدة، وذلك أنّ الفعل الشديد القويّ يأتي بالغرض منه سريعا دون معاودة علاج، فلا يتكرر الفعلُ لتحصيل الغرض.

وأكّد معنى المرة المستفاد من صيغة فَعْلة بقوله (واحدة) تنبيها على قصد معنى الكناية؛ لئلا يتوهم أنّ المصدر لمجرد التأكيد لقوله (فيميلون). والسياق يكشف عن حكمة هذا الاحتياط، لأنّ هذه الرغبة في نفوس الكفار تجاه المسلمين دائمة. وقوله... ﴿**إنّ الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً**﴾: تعليل للأمر بأخذ الحذر وهو تذييل لتشجيع المسلمين، لأنه لما كرر الأمر بأخذ السلاح والحذر، خيف أن تثور في نفوس المسلمين مخافة من العدو من شدّة التحذير منه، فعقب ذلك بأنّ الله أعدّ لهم عذاباً مهيناً، وهو عذاب الهزيمة والقتل والأسر، فليس الأمر بأخذ الحذر والسلاح إلاّ لتحقيق أسباب ما أعدَّ الله لهم، لأنّ الله إذا أراد أمراً هيّأ أسبابه، وفيه تعليم المسلمين أن يطلبوا المسببات من أسبابها، أي: إن أخذتم حذركم أمنتم من عدوكم...

﴿**فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً**﴾: إنّ الصلاة على أية حال كانت في السفر والحضر في الأمن وفي الخطر، فهي الصلة الدائمة بين الله والمجاهدين في سبيل الله، الصلة التي تتمثل في الصلاة كما تتمثل في ذكر الله في جميع الأحوال، والتي لا يشغل القلب عنها حربٌ ولا كربٌ، فهي سلاحه في الحرب، وهي ملاذه في الكرب؛ فأمّا حين الاطمئنان، فأقيموا الصلاة؛ أقيموها كاملة تامّة على أصولها المتبعة...

إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً: فريضة ذات وقت محدد لأدائها، فلما زالت أسباب الرخصة في صفة من صفاتها عادت إلى صفتها الدائمة المفروضة... **﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً﴾**: في هذا الكلام زيادة في التشجيع على قتال الأعداء، وتهوين الأعداء في قلوب المسلمين، لأنّ الكفار كانوا أكثر عدداً من المسلمين وأتمّ عُدّة، وما كان شرْعُ قصر الصلاة وأحوال صلاة الخوف، إلاّ تحقيقاً لنفي الوهن في الجهاد، وزيادة في التشجيع على طلب العدوّ؛ بأنّ تألُّم الفريقين المتحاربين واحدٌ؛ إذ كل يخشي بأس الآخر، وبأنّ للمؤمنين مزيّةٌ على الكافرين، وهي أنّهم يرجون من الله ما لا يرجوه الكفار، وذلك رجاء الشهادة إنْ قتلوا، ورجاء ظهور دينه على أيديهم إن انتصروا، ورجاء الثواب في الأحوال كلّها... وكان الله عليماً حكيماً: هذا تذييل يقرر الحقيقة التي يختم السياق آيات الجهاد بها. «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم»!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾: هذا مرتب على ما قبله؛ من بيان المؤمن الحق المجاهد في سبيل الله، ومن بيان المنافق المبطّئ المتردّد الذي لا غاية له إلاّ ما فيه مصلحته. بيّن هنا ما يجب أن يكون عليه المؤمنون مع هؤلاء المنافقين، فاستفهم مستنكراً من موقف بعضهم نحْوَهم. والقصد منه ضمُّ شمل المؤمنين بوحدة الصف واتّحاد الهدف، حتى تتكوّن الأمة تكويناً سليماً؛ لتكون خير أمة أخرجت للناس، ولو تُرِكُوا كما هو واقع العرب وقْتَ قيام الدعوة، متأثرين ببيئتهم القبلية، وبعُنْصِريَّةِ حميّة الجاهلية ـ انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ـ، لضاع الغرض من تكوين هذه الأمة. فعلي المؤمن الحق أن يقف موقف الصدق، فلا يتأثّر لقريب أو لحميم أو لحليف أو لمُوَالٍ قويّ أو ضعيف، ويتجه الاتّجاه الصحيح السليم؛ لتكون كلمة المؤمنين كلمةً واحدةً، فلا يكونوا فئتين مختلفتين في شأن المنافقين الذين وضح أمرُهم، عندما انقلبوا إلى الضلال والكفر بسبب أعمالهم ونياتهم، فسقطوا في هاوية الكفر والضلال أيضاً.

وينكر القرآن كذلك على المسلمين بما فيهم من حسن النيّة وإرادة الخير للغير، أن يحاولوا هداية هؤلاء الضالين بعد ما انتهوا إلى غاية الضلال، ولم يعد هنالك رجاءٌ من عودتهم إلى الهدى. فقد بيّتوا النيّة السيّئة، وحادوا عن الاستقامة والأمانة، فحقّت عليهم سنة الله في إضلال من يسلك طريق الضلالة، فلم يعد أحد من البشر بقادر على إخلاف سنّةِ الله وتحويلها ووقف مفعولها. لقد نوت هذه الطائفة من المنافقين الشرّ، وبيّتت الخديعة بوُدِّها أن يكفر المسلمون الصادقون، كما كفروا هم؛ ليكونوا مثلهم سواء. تلك تمنّياتهم وتلك أمانيّهم الكاذبة التي لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة، وهو ما يتخيّلونه ويبيّتونه للمؤمنين. وشتّان بين ما يريده المؤمنون بهم، وبين ما يتمنّونه هم للمؤمنين!. وهو شرُّ ما يريده قوم للمؤمنين!. فهم إذنْ لا يستحقّون أن يختلف المسلمون في أمرهم، وأن يلتمسوا المعاذيرَ لَهُم، وأن يحاولوا ردّهم إلى الهُدي وقلوبهم تحتوي على هذه النيّة الخبيثة، فهم ليسوا بغافلين ولا مخطئين، إنّما هم خاطئون مبيّتون للشر عامدون.

ويتقرّر الحكم على هؤلاء، وما يجب على المسلمين أن يعاملوهم به!.. **﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإنْ تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليّاً ولا نصيراً﴾**: فلا يجوز أنْ يأمنهم المسلمون، حتى يهاجروا في سبيل الله، ويقطعوا ما بينهم وبين الكفر والكفّار من صلة، وينحازوا إلى وطن الإسلام الوحيد وقت التنزيل - وهي دار الهجرة المدينة المنورة - دار الإسلام ومدينة المسلمين أصحاب الرسول الأمين محمد ﷺ. وقد كانت الهجرةُ إلى المدينة واجبةً على كل مسلم، وعلى كل من يريد أنْ يدخل في الإسلام أنْ يهاجر؛ وهذا الوجوب استمر من يوم هجرة الرسول إلى المدينة إلى يوم فتح مكة السنة الثامنة للهجرة. فإنْ تولوا عن الإيمان المؤيّد بالهجرة الصحيحة، فحكمهم حُكْم سائر المشركين، فخذوهم واقتلوهم حيث وجدْتُموهم في أي مكان كان، ولا تتخذوا منهم في هذه الحالة وليّاً يتولى شيئاً من مهماتكم، ولا نصيراً ينصركم على أعدائكم... **﴿إلاّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾**: هذا بيان لحكم مقاتلة الكفار المستثنين من الحكم الأول، وهو مقاتلة الكفار الذين أبوا الدخول في الإسلام والهجرة إلى مدينة المسلمين، وهم أقسام: قسم من الكفار دخل في عهد من المسالمة مع الرسول. وقسم ثانٍ انحاز إلى

المعاهدين فأُعْطوا حكْمَهم من المسالمة، وهذا معنى قوله: إلاّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق.

وقسم ثالث محايدٌ يَمْنَعُ الإسلامُ قتالَهم، وهم الذين يتحرجون وتضيق صدورهم عن قتال المسلمين، وعن قتال قومهم الذين يُعادون المسلمين، ويشتبكون معهم في قتال، وهو ما تشير إليه عبارة: **﴿أو جاءوكم حصرت صدورُهم أن يُقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾**، فماداموا قد اختاروا الحيادَ والعُزْلَة وعدم القتال وجنحوا إلى السلم، فلا يجوز أن تمتد إليهم يدُ المسلمين، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى. . . **﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإنْ اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوْا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾**!.

وقسم رابع متلاعب يريد أن يأكل على جميع الموائد ـ كما يقولون ـ، لا يتسامح معه هذه السماحة؛ لأنّه لا يضمر الخير للمسلمين، ولا يكف عن حربهم كالفريق المحائد، ولكنه يراوغ لتحقيق مصالحه. . . **﴿ستجدون آخرين يريدون أنْ يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردُّوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإنْ لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾**: إنَّ هؤلاء الآخرين يتظاهرون بالمودّة للمسلمين حين يخالطونهم، ويعلنون حقيقة نياتهم عندما يرجعون إلى قومهم، وذلك لكي يأمنوا جانب الفريقين، ويُحَقِّقُوا مصالحهم هنا وهناك؛ هذا الفريق عنصر خطر غير مأمون؛ هذا الفريق من الناس كلما عاد إلى أرض الكفار وفُتن عن الإسلام الذي يتظاهر به وقع بشدة في هاوية الكفر والفتنة، فعلي المسلمين ألاّ يسمحوا لهم بالتسلّل إليهم وأن يقتلوهم حيثما تمكنوا منهم، فهم مطلقوا الأيدي بإزاء هذا الفريق الخطر غير المأمون. والحكمة في هذا الحكم هي الاحتياط وكشف الموقف، وقطع خط الرجعة على المخادعين والمستغلين الذين لا يعلنون موقفهم ليعاملهم المسلمون على أساسه؛ وقد عُدّلت هذه الأحكام فيما يختص بمشركي العرب في سورة التوبة.

التوجيه الثاني: ﴿وما كان لمؤمن أنْ يقتل مؤمنا إلاّ خطئاً﴾: في هذا التوجيه بيان حكم القتل غير المشروع، أما القتل المشروع فهو قتل الكافر المحارب، أو قتل المؤمن المرتكب جريمة توجب القتل قصاصا، «ولكم في القصاص

حياة. . .»، «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله». والقتل في غير الجهاد وغير القصاص، فلا يكون مشروعاً، ولا يمكن أنْ يكون في أيّ حالة من الحالات إلاّ في حالة الخطإ؛ يقتل المؤمنُ مؤمناً يظنه محارباً، أو يرميه بشيء ليس من شأنه القتل، أو يكون سبباً في قتله دون إرادة منه، وهذا ما يقع كثيراً في حوادث السيارات، وفي الأعمال التي يتعرض أصحابها لما فيها من الخطورة، كالمصانع يقع فيها مثل هذا كثيراً.

وكل ما يقع من القتل في مثل هذه يُعدّ من القتل الخطإ، ومع هذا فلابد من رادعٍ ومانعٍ يخفّفُ من وقوع هذه الأحداث؛ لئلا يكون هذا الخطأ ذريعة لارتكاب القتل. فشُرعت الدّيَةُ: وهي مال يعطيه القاتل خطئاً، أو عاقلته الأقربون نسبا أو جواراً، كما هو مقرر في الفقه، وشُرعت الكفّارة: وهي تحرير رقيق من الأرقاء المؤمنين، عندما كان الرق معترفاً به في العالم؛ فإن لم يكن رقيق كما هو الآن، فصيام شهرين متتابعين، يصومهما القاتل جَبْراً لما حصل منه، أو زَجْراً لغيره، فيقلّ ارتكاب قتل الخطإ، وهو ما يشير إليه قوله تعالى. . . ﴿**ومن قتل مؤمنا خطئاً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلاّ أن يصّدّقوا**﴾: بتنازلهم عن حقهم صدقة لله - ﴿**فإنْ كان من قوم عدو**﴾ - محاربين - ﴿**وهو مؤمن**﴾: المقتول مؤمن وأهله كفار - ﴿**فتحرير رقبة مؤمنة**﴾: فليس فيه دية؛ لأنّ أهل القتيل لا يستحقونها وهم محاربون؛ لتكون سبباً في زيادة قوتهم على محاربة المسلمين. . .

﴿**وإنْ كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾: عهد أو ذمة، ويكون المقتول منهم. . . ﴿**فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً**﴾: واختلف الفقهاء في حكم قتيل المعاهدين وأهل الذمة، هل يشترط فيه أنْ يكون مؤمناً أو لا؟ وهل تكون ديته كدية المسلم أو لا؟. هذا ما كان من حكم قتل الخطإ. أمّا حكم قتل المؤمن عمداً، فهي جريمة لا تغتفر، وعمل فظيع لا مبرّر له. . . ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً**﴾: المتعمّد: القاصد للقتل، والتعمّدُ هنا معروف، وهو بأنْ يكون فعلا لا يفعله أحد بأحد، إلاّ وهو قاصد إزهاق روحه بخصوصه بما تزهق به الأرواح في متعارف الناس. والوعيد على قتل العمد شديد لا يُستهان به، وما تَجرّأ أحدٌ على قتل

مؤمن، إلاّ وفيه من الأوصاف التي تبعده عن الخوف من الله، وتقرّبُه من أوصاف الكافرين الذين لا يخشون الله ولا يؤمنون بثواب ولا عقاب!. وهذا الوعيد الشديد في الآية جعل العلماءَ يختلفون في قبول توبة القاتل عمداً، ويختلفون في أبدية خلوده في النار. . .

﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾: بعد أنْ بيّن الله تعالى في الآيات السابقة أنّه ليس من شأن المؤمن أن يقتل مؤمنا إلاّ على سبيل الخطإ، وأنّ من قتل مؤمناً متعمداً فلا جزاء له إلاّ جهنم، والغضب عليه من الله، واللعن والطرد من رحمة الله، أراد هنا أنْ ينبّه المؤمنين إلى ضرب من ضروب قتل الخطإ عندما يخرجون غزاة، ألاّ يبدأوا بقتال أحد حتى يتبيّنوا ويتأكّدوا إنْ كان قد أسلم وهم لا يعلمون. ولقد حدث أنْ عداء جماعة من غزاة المسلمين على رجل بعدما أقرأهم السلام وأظهر السلم، ظنّاً منهم أنّه عدو لهم، واستاقوا غنماً كانت معه إلى الرسول ﷺ غنيمة.

وهناك روايات أخرى تتحدث عن وقائع من هذا النوع، ولا مانع من تعددها قبل نزول هذه الآية، وأنّ النبيء ﷺ كان يقرؤها بعد نزولها على أصحاب كل واقعة حصلت لهم فيرون أنّهم سبب نزولها. وفي هذا وعيد وتحذير شديد من الوقوع في مثل هذا الخطأ. . . **﴿فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبيّنوا إنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾**!. ولما بيّن الله حكم قتل الخطإ وجزاء قتل العمد، وحذر من وقوعه ولو كان في ساحة الجهاد، بيّن هنا قيمة الجهاد وجزاءه في الدنيا والآخرة. . .

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما: ذُكرت في هذه الآية ثلاث طوائف من المؤمنين: الأولي القاعدون عن الجهاد بغير عذر. الثانية القاعدون عن الجهاد بعذر. الثالثة المجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. والتفضيل هنا جاء من قبيل الثواب ورفع الدرجات، كما هو واضح في نص الآية. وما وقع من الخلاف

بين المفسرين في هذا الموضوع لا يؤثر على وضوح النص. ولما بيّن الله قيمة الجهاد وأجر المجاهدين، ونوّه بالمؤمنين جميعا ـ وهم الذين هاجروا مع الرسول ومن كان من أهل المدينة من المهاجرين والأنصار، والذين جاءوا بعد الهجرة من كل جنس ومن كل قبيل ـ بيّن حكم من قعد عن الهجرة وتخلّف مع أقاربه وهو قادر على الهجرة إلى المدينة، فقال... ﴿**إنّ الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً**﴾: هذا الحكم كان في أول سنوات الهجرة قبل فتح مكة، عندما كانت الهجرة واجبةً لأسباب ثلاثة، تتعلق بحال الفرد وحال الجماعة:

السبب الأول: البعد عن الاضطهاد في أمور الدين بإقامة شعائره، بحيث يكون المسلم حراً في تصرفه كما يعتقد.

السبب الثاني: تلقّي الدّين والتّفقّه فيه، وهذا التلقي لا يكون إلاّ من صاحبه مباشرة، وقد كان ذلك قبل فتح مكة حين كان إرسال الدعاة والمرشدين متعذراً، لتصدي المشركين لهم وحرمانهم من أداء وظائفهم لما لهم من القوة والبطش.

السبب الثالث: وجوبُ قيامِ دولةٍ تجمع كافة المؤمنين في صف واحد وهدف واحد، ولا يكون ذلك ممكنا إلاّ في حماية المهاجرين والأنصار في المدينة، وقد تكونت هذه الدولة بالفعل بقيادة الرسول ﷺ، حيث استطاعت الدفْعَ بجنودها البواسل إلى إخْضَاعِ العرب تحت لوائها، ودخولهم في دين الله أفواجاً، وقد كانت هذه الأسباب موقورة قبل فتح مكة، فلما يسّر الله فتحها وقوّى الإسلامُ على الشرك في جزيرة العرب كلها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأرسل النبيء ﷺ إلى أطراف الجزيرة وغيرها من يعلّم الناس شرائع الإسلام زالت هذه الأسباب. ووجوب الهجرة خاص بمن يستطيع الخروج بأي سبب كان ولو بالحيلة، أمّا الذي لا يستطيع بأي طريق، لاستضعافه بمرض أو زمانة أو عمي، وضاقت به الحيل فلم يستطع ركوب واحدة منها، وعميت عليه الطرق فلم يهتد طريقاً منها بحيث لو خرج لهلك. وهذا ما تشير إليه هذه الآية...

﴿**إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّاً غفوراً**﴾!. ثم رغّب سبحانه

في أمر الهجرة، ونشّط المستضعفين لما جرت به العادة، من أنّ الإنسان يتهيب الأمر المخالف لما اعتاده وأنِسَ به، ويتخيل مصاعب ومشقّات لا توجد إلاّ في خياله، وأنّ ما يتصوره بعض الناس من عسر الهجرة لا محل له، وأنّ عسرها إلى يسر، فقال. . . **﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركْه الموْتُ فقد وقع أجرُه على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾**: في هذا وعْدٌ للمهاجرين في سبيله، بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءَهم، ووعد من يموت قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم، الذي ضمنه له عزّ وجلّ؛ إذا كان يقصد بهجرته رضى الله ونصرة رسوله. وكان مستحقّاً لهذا الأجر ولو مات بعد أن تجاوز عتبة الباب ولو لم يصب تعباً ولا مشقّة.

التوجيه الثالث: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أنْ تقصروا من الصلاة إنْ خفتم أنْ يفتنكم الذين كفروا إنّ الكافرين كانوا لكم عدوّاً مبينا﴾: في هذا التوجيه رخصة يبيحها الله للمهاجرين الضاربين في الأرض رخصة القصر في الصلاة. إنّ المهاجر الضارب في الأرض في حاجة إلى صلة دائمة بربه تعينه على ما هو فيه، ومثله المهاجر المسافر المبتغي فضل الله من التجارة أو من العلم. وهؤلاء يخفف الله عنهم بقصر الصلاة على حسب حاله الذي هو عليه قائما أو قاعداً أو مختفياً أو راكباً أو سائراً، فالرخصة هنا هي في القيام بلا حركة، وفي القعود أو على أي حال هو، وقد يقتصر على الإيماء فقط، وهذا هو المناسب للسياق لمجيء هذه الرخصة في صدد الهجرة وللتعقيب عليها بقوله: إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا. وجعل الصلاة ركعتين ليس متوقفاً على هذا الشرط، فهو المتبع في كل سفر ولو كان سفرَ أمْنٍ وراحة، وهذا قسم خاص بنفسه.

وهناك قسم آخر من أقسام الصلاة، وهو حكم صلاة الخوف في ميدان المعركة. . . **﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إنْ كان بكم أذًي من مطر أو كنتم مرضى أنْ تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إنّ الله أعدّ للكافرين عذاباً**

مهيناً﴾: هذه هي كيفية صلاة الخوف في ميدان المعركة؛ بأنْ يقسم الإمام الجيش طائفتين؛ طائفة تقف مع الإمام يصلي بها الركعة الأولي، ويقف الإمام للركعة الثانية، ويقف معه المصلون غير أنّ الإمام يبقى قائماً، والمصلون خلفه يتممون الركعة الثانية بأنفسهم ويسلمون لتمام صلاتهم، ثم يذهبون إلى صف القتال، فتأتي الطائفة الأخرى التي لم تصل فلتكبر وتدخل على صلاة الإمام ليتمم بهم غير أنّ الإمام يسلّم لتمام صلاته بالركعة الثانية، والمصلّون خلْفه يُتممّون صلاتهم بعد سلام الإمام، مثل المسبوق في الصلاة العادية، وهذه الصفة هي التي أخذ بها الإمام مالك، وهناك صفات أُخَرُ أخذ بها بقية الأئمة. والسياق يكشف عن حكمة هذا الاحتياط: ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة.

والقرآن الكريم وهو يربي هذه الأمّة المسلمة، ويُعِدُّها لتكاليف وظيفتها الشاقّة في الأرض؛ وظيفة القوامة على هذه الإنسانية، وتوجيهها إلى الخير والصلاح، وإقامتها على الحق والعدل، يعتمد في هذه كلّها على يقظة روحها، واتّصالها الدائم بخالقها، ومن ثَمَّ يجعل التوجيه إلى الله والصلة به في الصلاة، عوْنَها وسندَها في جميع الأحوال. وللتوفيق بين ضرورات القتال، وما يجب له من تهيّؤ وحذر لمواجهة مكائد العدوّ وهجماته المباغتة، وبين اتخاد عدّة النصر كاملة، وفي أولها الصلة بالله في الصلاة، يجيء هذا الحكم هنا في صفة صلاة الخوف مع رسول الله، ومع خلفائه وأئمة المسلمين السائرين على سُنّته...

﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾: هذه هي الصلة الدائمة بين الله والمجاهدين في سبيل الله، الصلة التي تتمثل في الصلاة كما تتمثل في ذكر الله في جميع الأحوال؛ قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم، والتي لا يشغل القلبَ عنها حرْبٌ ولا كرْب، فهي سلاحُه في الحرب، وهي ملاذُه في الكرب... **﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا﴾**: أقيموها كاملة تامّة على أصولها المتّبعة، فهي فريضة مكتوبة ذات وقت محدد لأدائها، فمتى زالت أسبابُ الرخصة في صفة من صفاتها عادت إلى صفتها الدائمة المفروضة.

وعلى هذا التوجيه يمكن أن تؤخذ الخلاصة الآتية: أولاً: حالة السفر، وفيه

ثلاث حالات: السفر العادي، وهو السفر الذي لا خوف فيه ولا قتال، وفيه حكم قصر الصلاة الرباعية وحكم جمعها جمع تقديم وتأخير، وهذا الحكم موجود بالتفصيل في كتب الفقه، وهذا الحكم مشروع بالسنة العملية. السفر لغير القتال ولكن يحصل فيه الخوف من قُطّاعِ الطرق أو اللصوص، أو غيرهما مما يخاف المسافر فيه على نفسه أو على ماله، وهو ما أشارت إليه الآية هنا في قوله تعالى: وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إنْ خفتم أن يفتنكم الذين كفروا. . .، وتقدم الكلام عليه قريباً. السفر للقتال ويكون الخوف فيه من العدوّ المقاتل، فحكم الصلاة فيه هي صلاة الخوف المبيّنة في قوله: وإذا كنت فيهم فأقمت لهم. . . الخ، وسبق الكلام عليها قريباً أيضاً. ثانياً: الاطمئنان في مكان والاستقرار في السكن، فحكم الصلاة فيه أداؤها بشروطها وأركانها وآدابها في أوقاتها المحددة، المفصّل حكمها في كتب فقه العبادة بالكمال والتمام.

التوجيه الرابع: **﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إنْ تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما﴾**: في هذا التوجيه تشجيع المؤمنين والتحريض على متابعة الجهاد في سبيل الله. ويظهر في هذا التوجيه فضل العقيدة في الله في كل كفاح، فهناك لحظات تعلو فيها المشقّة على الطاقة، فيحتاج القلب الإنساني إلى مَدَدٍ يستعلي به على ضعفه، ويضاعف به قوته وطاقته على الاحتمال، ولن يكون هذا المدد إلاّ من ذلك المعين الذي لا ينضب لحْظَةً ولا يَغيض، وإلاّ من تلك القوة التي لا تضعف لحْظَةً ولا تغيب. . . وكان الله عليما حكيما: يعلم كيف تحسّ المشاعر، ويصف للنفس ما يطيب لها من الضعف، وما يُقَوِّيها في لحظة الكلال.

7 ـ إنزال القرآن فضل من الله للإنسان

النص

*إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ
بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (104)
وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (105) وَلَا تُجَادِلْ
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا
أَثِيمًا (106) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ
وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (107) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (108) وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ
نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (109) وَمَن يَكْسِبْ
إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (110)
وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا
فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (111) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ

وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿112﴾

* لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿113﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿114﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿115﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿116﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿117﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿118﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿119﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿120﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (121) * لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (122) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (123) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (124) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (125)

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**لتحكم بين الناس**﴾: الحكم القضاء، ويجمع على أحكام، ويقال: حكم عليه، وحكم بينهم حُكماً وحكومة، والحاكم منفذ الحكم، والمراد هنا لتقضي بين الناس بما أوحاه إليك من الكتاب المُنزَّل. . . ﴿**ولا تكن للخائنين خصيماً**﴾: الخائنون جمع خائن، وهو من لا يؤتمن على ما يجب الائتمان به، بمعنى كتمان الأمانة، ويطلق هنا على إسرار الكفر وكتمانه. والخصيم هنا بمعنى المنتصر المدافع. . . ﴿**ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم**﴾: جادل يُجادل مجادلة، والمجادلة: مفاعلة من الجدل، وهو القدرة على الخصام والحجة فيه، وهي منازعة بالقول لإقناع الغير برأيٍ معيّن، ولم يسمع للجدل فعل مجرد أصلي

(جَدَل) والمسموع منه جادل؛ لأنّ الخصام يستدعي خصمين، وأمّا قولهم: جدله، فهو بمعنى غلبه في المجادلة، فليس فعلاً أصليا في الاشتقاق، ومصدر المجادلة الجدال، وأمّا الجَدَل بفتحتين، فهو اسم المصدر، وأصله مشتق من الجدْل، وهو الصرع على الأرض. ويختانون بمعنى يخونون، وهو افتعال دال على التكلف والمحاولة لقصد المبالغة في الخيانة. والخوّان: من يلتزم الخيانة ويتمرّن عليها. والأثيم كثير الإثم، ويطلق على الكذاب. . .

﴿**يستخفون من الناس**﴾: استخفى: استتر وتواري فلم يظهر ولم يُر، والمراد هنا: أنّهم يستترون بجريمتهم خوفاً من الناس. . . ﴿**ولا يستخفون من الله وهو معهم**﴾: المعيّة هنا معية علم محيط بكل ما يبيّتون ويُدبّرون. والتبييت تدبير الأمر ليلاً، ثم أطلق على كل شيء يُدَبَّرُ في الخفاء مستتراً عن سمع الناس وبصرِهم. . . ﴿**ما لا يرضى من القول**﴾: من تهمة البرئ والحلف الكاذب وشهادة الزور. . . ﴿**وكان الله بما يعملون محيطاً**﴾: ثبتت إحاطة علم الله بكل عمل يعمله الإنسان. والوكيل هنا المدافع والمحامي من بأس الله وانتقامه. . . ﴿**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه**﴾: السوء الفعل القبيح الذي يسوء به الغير. وظلم النفس تورطها فيما يعود عليها بالخزي والوبال. والاستغفار: التوبة الصادقة. والكسب: تحصيل الشيء وجمعه بالاختيار. والخطيئة: الذنب؛ لأنّ صاحبه مخطئ غير مصيب. والإثم: الذنب الذي يعود على صاحبه بالضرر، والمراد به هنا الذنب المتعمد صاحبُه به الضرَرَ لغيره. . .

﴿**ثم يرم به بريئاً**﴾: الرمي: القذف وإسناد الشيء إلى الغير. والبريء: المفارق المتباعد والبريء هنا: المفارق للذنب والمبتعد عنه. احتمل: أخذ على عاتقه شيئاً ثقيلاً. والبهتان: الكذب على الغير بما يبهت منه، ويتحيّر عند سماعه لفظاعته وهوله. والإثم المبين: البيّن الفاحش، أي: إثماً ظاهراً لاشبهة في كونه إثماً. . . ﴿**ولولا فضل الله عليك ورحمته**﴾: والمراد بالفضل والنعمة هنا: نعمة إنزال الكتاب تفصيلاً، لوجوه الحق في الحكم وعصمته من الخطإ فيه. والهمّ: محاولة فعل شيء، ويطلق على العزم على الفعل والثقة به. . .

﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة**﴾: الكتاب القرآن، والحكمة ما في الكتاب من الحكم والآداب، وهو معنى قوله: ﴿**وعلمك ما لم تكن تعلم. . .**﴾

﴿**لا خير في كثير من نجواهم**﴾: النجوى المسارة في الحديث، مشتقة من النجو، وهو المكان المستتر... ﴿**ومن يشاقق الرسول**﴾: المشاقة: المخالفة المقصودة، مشتقة من الشق؛ لأنّ المخالف كأنّه يختار شقاً يكون فيه غير شق الآخر... ﴿**ويتّبع غير سبيل المؤمنين**﴾: سبيل كل قوم: طريقتهم التي يسلكونها في وصفهم الخاص. ويُستعمل السبيل للاعتقادات والأفعال والعادات التي يلازمها أحد، ولا يبتغي التحول عنها، كما يلازم قاصد المكان طريقاً يُبَلِغُه إلى قصده... ﴿**نُوَلِه ما تولى**﴾: نجعله والياً لما تولاه من الضلال... ﴿**إن يدعون من دونه إلاّ إناثاً**﴾: اللات والعزى؛ لأنّ العرب في الجاهلية كانوا يُسمّون أصنامهم أنثى بني فلان، والإناث جمع أنثى... ﴿**وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً**﴾: المريد والمارد والمتمرد بمعنى واحد، وأصل المرد الملاسة ومنه صرح ممرّد، وشابٌّ أَمْرَدٌ، ويطلق على العتوّ والارتفاع وزيادة الشر الذي لا خير فيه... ﴿**ولأمنّينّهم**﴾: يقال: مناه، إذا وعده المواعيد الباطلة، وأطمعه في وقوع ما يُحبُّه مما لا يَقَعُ، ومنه سمّى بالتمنّي طلب ما لا طمع فيه أو ما فيه عسر...

﴿**فليبتّكُنَّ آذان الأنعام**﴾: البتك القطع، والتبتيك التقطيع... ﴿**ولا يجدون عنها محيصاً**﴾: المحيص: الملجأ والمهرب والمحيد. ودابة حيوص: نَفُورٌ من فسحة المجال وحرية الحركة. والقيل: القول، وهو اسم مصدر بوزن فِعل يجيء في الشر والخير. الخليل: الخليل في كلام العرب: الصاحب الملازم، الذي لا يخفى عنه شيء من أمور صاحبه، مشتق من الخلال، وهو النواحي المتخللة للمكان، ومعناه هنا: شدّة رضا الله عن إبراهيم عليه السلام.

مبحث الإعراب

﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أنزلنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**إليك**﴾ جار ومجرور متعلق بأنزلنا. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**بالحق**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الكتاب، أي: ملتبساً بالحق، وجملة إنّا أنزلنا ابتدائيّة لا محل لها من الإعراب. ﴿**لتحكم**﴾ اللام للتعليل، تحكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه الفتحة، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**بين**﴾ ظرف مكان منصوب بالفتحة متعلق بتحكم. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى الظرف مجرور بالكسرة، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل

مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بأنزلنا، والتقدير: أنزلنا إليك الكتاب بالحق لأجل الحكم بين الناس. ﴿**بما**﴾ جار ومجرور متعلق بتحكم.

﴿**أراك**﴾ فعل ماض، والضمير فيه مفعول به. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل مرفوع بالضمة، والجملة صلة ما، والرابط بين الصلة والموصول ضمير مقدر وهو المفعول الثاني لأرى، والتقدير: لتحكم بين الناس بالوحي الذي أراكه الله. ﴿**ولا تكن**﴾ الواو للعطف، ولا ناهية، تكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه السكون، واسم تكن ضمير المخاطب (أنت). ﴿**للخائنين**﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿**خصيماً**﴾ خبر تكن منصوب بالفتحة. ﴿**واستغفر**﴾ الواو للعطف، استغفر فعل أمر مبني على السكون وحُرّك بالكسرة لالتقاء الساكنين، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**الله**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**كان**﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿**غفوراً رحيماً**﴾ خبران لكان منصوبان بالفتحة، وجملة كان في محل رفع خبرُ إنّ، وجملة إنّ الله تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿**ولا تجادل**﴾ إعرابها مثل ولا تكن. ﴿**عن الذين**﴾ جار ومجرور متعلق بتجادل. ﴿**يختانون**﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿**أنفسهم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا**﴾ نافية. ﴿**يحب**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**كان**﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على مَنْ. ﴿**خوّاناً أثيماً**﴾ خَبَرَانِ لكان منصوبان بالفتحة، وجملة كان صلة مَنْ. ﴿**يستخفون**﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل. ﴿**من الناس**﴾ جار ومجرور متعلق بيستخفون. ﴿**ولا**﴾ الواو للعطف، ولا للنفي. ﴿**يستخفون من الله**﴾ مثل يستخفون من الناس. ﴿**وهو**﴾ الواو واو الحال، هو مبتدأ في محل رفع. ﴿**معهم**﴾ ظرف منصوب بالفتحة متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، والجملة في محل نصب حال من اسم الجلالة. ﴿**إذ**﴾ ظرف زمان متعلق بالخبر قبله. ﴿**يبيّتون**﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف.

﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**لا**﴾ نافية. ﴿**يرضى**﴾ فعل

مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والفاعل ضمير يعود على الله، وجملة لا يرضى صلة ما، والرابط الضمير المفعول المقدر في يرضى. ﴿**من القول**﴾ جار ومجرور متعلق بيرضى. ﴿**وكان الله**﴾ كان واسمها معطوفة على ما قبلها. ﴿**بما**﴾ جار ومجرور متعلق بالخبر بعده. ﴿**يعملون**﴾ فعل وفاعل صلة ما، والرابط الضمير المفعول المقدّر في يعملون. ﴿**محيطاً**﴾ خبر كان منصوب بالفتحة. ﴿**هاأنتم**﴾ مبتدأ. ﴿**هؤلاء**﴾ خبره. ﴿**جادلتم**﴾ فعل وفاعل جملة بيانية لا محل لها من الإعراب. ﴿**عنهم**﴾ جار ومجرور متعلق بجادلتم. ﴿**في الحياة**﴾ كذلك. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة مجرور بكسرة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**فمن**﴾ الفاء للتعقيب، من اسم استفهام مبتدأ. ﴿**يجادلُ**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**الله**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**عنهم**﴾ جار ومجرور متعلق بيجادل. ﴿**يوم**﴾ ظرف منصوب بالفتحة متعلق بيجادل. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم مجرور بالكسرة.

﴿**أم**﴾ حرف عطف. ﴿**مَنْ**﴾ اسم استفهام. ﴿**يكون**﴾ فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على مَنْ، وجملة يكون خبر مَنْ. ﴿**عليهم**﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿**وكيلاً**﴾ خبر يكون منصوب بالفتحة. ﴿**ومَنْ**﴾ الواو للعطف، من اسم شرط جازم. ﴿**يعمل**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**سوءاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**أو**﴾ حرف عطف. ﴿**يظلم**﴾ معطوف على يعمل مجزوم بالسكون. ﴿**نفسَه**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ثُمّ**﴾ حرف عطف. يستغفر معطوف على ما قبله مجزوم بالسكون، وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**الله**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**يجد**﴾ جواب الشرط مجزوم بالسكون وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**الله**﴾ مفعول أول منصوب بالفتحة. ﴿**غفوراً**﴾ المفعول الثاني. ﴿**رحيماً**﴾ كذلك منصوبان بالفتحة.

﴿**ومن يكسب إثماً**﴾ مثل ومن يعمل سوءاً. ﴿**فإنّما**﴾ الفاءُ رابطة لجواب الشرط، إنّما كافّة ومكفوفة لا عمل لها. ﴿**يكسبُه**﴾ فعل مضارع، والضمير فيه

مفعول به، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**على نفسه**﴾ جار ومجرور متعلق بيكسب، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة فإنّما يكسبه في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وكان الله عليماً حكيماً**﴾ تقدم إعرابها وهو معروف. ﴿**ومن يكسب خطيئةً**﴾ مثل ومن يعمل سوءاً. ﴿**أو**﴾ حرف عطف. ﴿**إثماً**﴾ معطوف على خطيئة منصوب بالفتحة. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف. ﴿**يرم**﴾ معطوف على يكسب مجزوم بحذف الياء. ﴿**به**﴾ جار ومجرور متعلق بيرم. ﴿**بريئاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**فقد**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، قد حرف تحقيق. ﴿**احتمل**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**بهتاناً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**وإثماً**﴾ معطوف على بهتاناً. ﴿**مبيناً**﴾ نعت لإثماً، وجملة فقد احتمل في محل جزم جواب الشرط. ﴿**ولولا**﴾ الواو للعطف، لولا حرف امتناع لوجود متضمن معنى الشرط. ﴿**فضل**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى فضل مجرور بالكسرة. ﴿**عليك**﴾ جار ومجرور متعلق بفضل. ﴿**ورحمته**﴾ معطوف على فضل مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه، وخبر المبتدإ محذوف، أي: موجود، والجملة فعل الشرط لا محل لها من الإعراب. ﴿**لهمّت**﴾ اللام واقعة في جواب الشرط، همّت فعل ماض. ﴿**طائفة**﴾ فاعل مرفوع بالضمة.

﴿**منهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لطائفة. ﴿**أنْ**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**يضلوك**﴾ فعل مضارع منصوب بحذف النون، وواو الجماعة فاعل، وضمير الخطاب مفعول به، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدّر، والتقدير: لهمت طائفة منهم بإضلالك، وجملة لهمت جواب لولا الشرطية لا محل لها من الإعراب. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، ما للنفي. ﴿**يضلون**﴾ فعل مضارع مرفوع بالنون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرّغ. ﴿**أنفسهم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وما يضرونك**﴾ مثل وما يضلون. ﴿**من**﴾ حرف جر زائد. ﴿**شيء**﴾ مجرور لفظاً منصوب محلاً على المصدرية مفعول مطلق، أي: شيئاً من المضرّة. ﴿**وأنزل الله**﴾ الواو للعطف، أنزل فعل ماض، الله فاعل مرفوع بالضمة. ﴿**عليك**﴾ جار ومجرور متعلق بأنزل. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**والحكمة**﴾ معطوف على الكتاب منصوب بالفتحة. ﴿**وعلمك**﴾ الواو للعطف، علّم فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، وضمير الخطاب مفعول به. ﴿**ما**﴾ اسم

موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**لم**﴾ حرف نفي وجزم. ﴿**تكن**﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون، واسمها ضمير المخاطب (أنت). ﴿**تعلم**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير المخاطب (أنت)، والجملة في محل نصب خبر تكن. ﴿**وكان**﴾ الواو حرف عطف، كان فعل ماض ناقص. ﴿**فضل**﴾ اسم كان مرفوع بالضمة. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى فضل مجرور بالكسرة. ﴿**عليك**﴾ جار ومجرور متعلق بفضل. ﴿**عظيماً**﴾ خبر كان منصوب بالفتحة.

﴿**لا خير**﴾ لا نافية للجنس، خير اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**في كثير**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لا. ﴿**من نجواهم**﴾ كذلك، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول في محل نصب على الاستثناء. ﴿**أمر**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة الموصول. ﴿**بصدقة**﴾ جار ومجرور متعلق بأمر مجرور بالكسرة. ﴿**أو معروف**﴾ معطوف على صدقة. ﴿**أو إصلاح**﴾ كذلك. ﴿**بين**﴾ ظرف متعلق بإصلاح. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى بين مجرور بالكسرة. ﴿**ومن**﴾ الواو للعطف، من اسم شرط جازم. ﴿**يفعل**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**ذلك**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**ابتغاء**﴾ مفعول لأجله منصوب بالفتحة. ﴿**مرضات**﴾ مضاف إلى ابتغاء مجرور بالكسرة. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى مرضات مجرور بالكسرة. ﴿**فسوف**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، سوف حرف تسويف. ﴿**نؤتيه**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير (نحن)، وضمير الغائب مفعول به أول. ﴿**أجراً**﴾ المفعول الثاني منصوب بالفتحة. ﴿**عظيماً**﴾ نعت لأجراً منصوب بالفتحة، وجملة فسوف نؤتيه في محل جزم جواب الشرط.

﴿**ومَنْ**﴾ الواو للعطف، من اسم شرط جازم. ﴿**يشاقق**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**الرسول**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**من بعد**﴾ جار ومجرور متعلق بيشاقق. ﴿**ما**﴾ مصدرية. ﴿**تبيّن**﴾ فعل ماض. ﴿**له**﴾ جار ومجرور متعلق بتبيّن. ﴿**الهدى**﴾ فاعل مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور مضاف إلى بعد، أي: بعد تبيّن الهدى له. ﴿**ويتّبع**﴾

معطوف على يشاقق مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**غير**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**سبيل**﴾ مضاف إلى غير مجرور بالكسرة. ﴿**المؤمنين**﴾ مضاف إلى سبيل مجرور بالياء. ﴿**نولّه**﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف الياء، والفاعل ضمير تقديره (نحن)، والضمير فيه مفعول به أوّل. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب المفعول الثاني. ﴿**تولى**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة ما، والرابط الضمير المقدر في تولي، أي: تولاّه. ﴿**ونُصْله**﴾ معطوف على نوله، وهو مثله في الإعراب. ﴿**جهنّم**﴾ المفعول الثاني منصوب بالفتحة. ﴿**وساءت**﴾ الواو للعطف، ساءت فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على جهنم. ﴿**مصيراً**﴾ تمييز منصوب بالفتحة.

﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا**﴾ نافية. ﴿**يغفر**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**أنْ**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**يُشركَ**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بالفتحة. ﴿**به**﴾ جار ومجرور ناب مناب الفاعل، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول به، والتقدير: إنّ الله لا يغفر الإشراك به، وجملة لا يغفر في محل رفع خبر إنّ. ﴿**ويغفر**﴾ معطوف على لا يغفر. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**دون**﴾ ظرف متعلق بفعل صلة ما. ﴿**ذلك**﴾ مضاف إلى دون في محل جر. ﴿**لمن**﴾ جار ومجرور متعلق بيغفر. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة مَنْ، والرابط ضمير في المفعول المقدر، والتقدير: لمن يشاء غفرانَه. ﴿**ومن**﴾ الواو للعطف، من شرطية. ﴿**يشرك**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**بالله**﴾ جار ومجرور متعلق بيشرك. ﴿**فقد**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، قد حرف تحقيق. ﴿**ضل**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، وجملة فقد ضل في محل جزم جواب الشرط. ﴿**ضلالا**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿**بعيداً**﴾ نعت لضلال منصوب بالفتحة.

﴿**إنْ**﴾ حرف نفي. ﴿**يدعون**﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**من دونه**﴾ جار ومجرور متعلق بيدعون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**إناثاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**وإنْ يدعون إلاّ شيطاناً مريداً**﴾ معطوف على إنْ يدعون قبله، وهو مثله في الإعراب، ومريداً

نعت لشيطاناً منصوب بالفتحة. ﴿**لعنه**﴾ فعل ماض، والضمير فيه مفعول به. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل مرفوع بالضمة، والجملة نعت ثان لشيطاناً. ﴿**وقال**﴾ معطوف عليه، والفاعل ضمير يعود على الشيطان. ﴿**لأتخذنّ**﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أتّخذنّ فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل ضمير يعود على الشيطان، وجملة لأتخذنّ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، أمّا جملة القسم فهو في محل نصب مقول القول. ﴿**من عبادك**﴾ جار ومجرور متعلق بلأتّخذنّ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**نصيباً**﴾ مفعول به. ﴿**مفروضاً**﴾ نعت له. ﴿**ولأضلنّهم ولأمنّينّهم ولآمرنّهم**﴾ كل هذه الجمل معطوفة على لأتخذنّ، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**فليبتّكنّ آذان الأنعام**﴾ الفاء للعطف والتعقيب، واللام لتأكيد الخبر، يبتّكنّ فعل مضارع دخلت عليه نون التوكيد الثقيلة فحذفت نون الفعل لتوالي الأمثال، وحذفت واو الجماعة لالتقاء الساكنين، وأصله يبتّكونَنّ، والفاعل ضمير الجماعة المحذوف، آذان مفعول به منصوب بالفتحة. الأنعام مضاف إلى آذان مجرور بالكسرة.

﴿**ولآمرنّهم فليغيّرن خلق الله**﴾ مثل ما قبله في الإعراب. ﴿**ومن**﴾ الواو حرف عطف، مَنْ شرطية. ﴿**يتّخذ**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين، والفاعل ضمير يعود على من. ﴿**الشيطانَ**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**وليّاً**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**من دون**﴾ جار ومجرور متعلق بوليّاً. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى دون مجرور بالكسرة. ﴿**فقد**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، قد حرف تحقيق. ﴿**خسر**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**خسراناً**﴾ مفعول مطلق. ﴿**مبيناً**﴾ نعت له منصوبان بالفتحة، وجملة فقد خسر في محل جزم جواب الشرط. ﴿**يعدهم**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الشيطان، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**ويمنّيهم**﴾ معطوف على يعدهم. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، ما للنفي. ﴿**يعدهم**﴾ مثل السابقة. ﴿**الشيطان**﴾ فاعل مرفوع بالضمة. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرّغ. ﴿**غروراً**﴾ مفعول ثانٍ ليعد. ﴿**أولئك**﴾ مبتدأ. ﴿**مأواهم**﴾ مبتدأ ثانٍ. ﴿**جهنّم**﴾ خبر المبتدإ الثاني، والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدإ الأول. ﴿**ولا**﴾ الواو للعطف، لا للنفي. ﴿**يجدون**﴾ فعل مضارع مرفوع بالنون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**عنها**﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿**محيصاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة.

﴿**والذين**﴾ الواو للعطف، الذين مبتدأ في محل رفع. ﴿**آمنوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**وعملوا**﴾ معطوف على آمنوا. ﴿**الصالحات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة؛ لأنّه جمع مؤنث سالم. ﴿**سندخلهم**﴾ السين للتنفيس، ندخلهم فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير تقديره (نحن)، والضمير المتصل بالفعل مفعول أوّل. ﴿**جنّات**﴾ مفعول ثانٍ منصوب بالكسرة. ﴿**تجرى**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل. ﴿**من تحتها**﴾ جار ومجرور متعلق بتجري. ﴿**الأنهار**﴾ فاعل مرفوع بالضمة، وجملة تجرى في محل نصب نعت لجنات. ﴿**خالدين**﴾ حال من الضمير المفعول منصوب بالياء. ﴿**فيها**﴾ جار ومجرور متعلق بخالدين. ﴿**أبداً**﴾ ظرف زمان منصوب بالفتحة متعلق بخالدين. ﴿**وعد الله**﴾ وعد مصدر منصوب على أنّه مفعول مطلق، اللهِ مضاف إلى وعد. ﴿**حقّاً**﴾ نعت لوعد. ﴿**ومن**﴾ الواو للعطف، مَنْ للاستفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**أصدق**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالضمّة. ﴿**من الله**﴾ جار ومجرور متعلق بأصدق. ﴿**قيلاً**﴾ تمييز منصوب بالفتحة.

﴿**ليس**﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الجزاء، وخبره محذوف يتعلق به الجار والمجرور، والتقدير: ليس الجزاء حاصلا. ﴿**بأمانيّكم**﴾ جار ومجرور. ﴿**ولا أمانيّ**﴾ معطوف على أمانيّكم. ﴿**أهل**﴾ مضاف إلى أمانيّ مجرور بالكسرة. ﴿**الكتاب**﴾ مضاف إلى أهل مجرور بالكسرة. ﴿**مَنْ**﴾ شرطية. ﴿**يعمل**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**سوءاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**يُجْزَ**﴾ فعل مضارع مبنيّ للمفعول جواب الشرط مجزوم بحذف الألف. ﴿**به**﴾ نائب الفاعل. ﴿**ولا**﴾ الواو حرف عطف، ولا حرف نفي. ﴿**يجدْ**﴾ معطوف على يجز مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**له**﴾ جار ومجرور متعلق بيجد. ﴿**من دون**﴾ كذلك. ﴿**اللهِ**﴾ مضاف إلى دون مجرور بالكسرة. ﴿**وليّاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**ولا نصيراً**﴾ معطوف عليه. ﴿**ومن**﴾ الواو للعطف، من شرطية. ﴿**يعملْ**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**من الصالحات**﴾ جار ومجرور متعلق بيعمل. ﴿**من ذكر**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال. ﴿**أو أنثى**﴾ معطوف على ذكر مجرور بكسرة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**وهو مؤمن**﴾ جملة حالية من مبتدإ وخبر في محل نصب حال من مَنْ يعمل. ﴿**فأولئك**﴾ الفاء

رابطة لجواب الشرط، أولئك مبتدأ في محل رفع. ﴿**يدخلون**﴾ فعل وفاعل في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**الجنّةَ**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**ولا**﴾ الواو للعطف، لا للنفي. ﴿**يُظلمون**﴾ فعل مضارع مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل واو الجماعة. ﴿**نقيراً**﴾ مفعول ثانٍ ليُظلمون منصوب بالفتحة.

﴿**ومن**﴾ الواو للعطف، مَنْ للاستفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**أحسنُ**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالضمة. ﴿**ديناً**﴾ تمييز منصوب بالفتحة. ﴿**ممن**﴾ جار ومجرور متعلق بأحسن. ﴿**أسلم**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة مَنْ. ﴿**وجْهَهُ**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير المتصل به مضاف إليه. ﴿**لله**﴾ جار ومجرور متعلق بأسلم. ﴿**وهو محسن**﴾ جملة حالية في محل نصب حال مِن مَنْ. ﴿**واتبع**﴾ معطوف على أسلم، وهو مثله في الإعراب. ﴿**ملّة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**إبراهيم**﴾ مضاف إلى ملّة مجرور بالفتحة، لأنّه اسم لا ينصرف والمانع له من الصرف العلمية والعجمة. ﴿**حنيفاً**﴾ حال من إبراهيم منصوب بالفتحة. ﴿**واتخذ الله**﴾ فعل وفاعل معطوف على ما قبله. ﴿**إبراهيم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**خليلاً**﴾ مفعول ثان لاتخذ منصوب بالفتحة. ﴿**ولله**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿**في السماوات**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿**وما في الأرض**﴾ معطوف على ما في السماوات. ﴿**وكان الله**﴾ كان واسمها. ﴿**بكل شيء**﴾ جار ومجرور متعلق بالخبر بعده. كل مضاف وشيء مضاف إليه. ﴿**محيطاً**﴾ خبرُ كان منصوب بالفتحة.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله**﴾: هذا الحديث يربط بين الماضي من الأمر بالأمانة والعدل، والقيام بواجب الجهاد وما يتبع ذلك من أحكام وآداب، وبين ما سيأمر به من الوقوف مع الحق مهما كان، فلا ينحاز الحاكم إلى واحد دون آخَر، وإنّما عليه أن يأخذ بمبدإ العدل المطلق لجميع الناس، فالعدل الذي جاء به الكتاب هو الحق؛ لأنّه منزّل من الحق بالحق فلتحكم به بين الناس. وقد أطلعك الله وعلّمك كيف تحكم؛ فاحكم على حسب ما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً. وقوله: بما أراك الله، الباء للآلة، جعل

ما أراه الله إياه بمنزلة آلة للحكم؛ لأنّه وسيلة إلى مصادفة العدل والحق ونفي الجور؛ إذ لا يحتمل علم الله الخطأ. والرؤيةَ هنا عرفانية وحقيقتها الرؤية البصرية، فأُطْلِقَتْ على ما يدرك بوجه اليقين لمشابهته الشيء المشاهد، فكل ما جعله الله حقا في كتابه فقد أمر بالحكم به بين الناس. . .

﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾: فاللام لام العلة وليست لام التقوية، والخطاب للنبيء ﷺ والمراد الأمة؛ لأنّ الخصام للخائنين لا يتوقع من النبيء، وإنّما المراد تحذير الذين دفعتهم الحميّة إلى الانتصار لمن يريدون حمايته. وقوله: **﴿واستغفر﴾**، **﴿ولا تجادل﴾**، كل ذلك توجيهات إلى الأمة في شخص الرسول؛ لأنّه المكلف الأوّل بهذا، والمراد نهي الأمة عن ذلك؛ لأنّ مثله لا يترقب صدوره من الرسول ﷺ كما دل عليه قوله تعالى: ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا. وقوله: (يختانون) بمعنى يخونون، وهو افتعال دلّ على التكلّف والمحاولة لقصد المبالغة في الخيانة. وجملة **﴿يستخفون من الناس﴾** بيان ليختانون، وجملة **﴿ولا يستخفون من الله﴾** حال، وذلك هو محل الاستغراب من حالهم وكونهم يختانون أنفسهم، والاستخفاء من الله مستعمل مجازاً في الحياء؛ إذ لا يعتقد أحد يؤمن بالله أنّه يستطيع أن يستخفي من الله. وقوله: **﴿ها أنتم هؤلاء﴾** تلوين للخطاب وتوجيه له إليهم بطريق الالتفات، إيذاناً بأنّ تعديد جنايتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع. . .

﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾: المراد بالاستغفار التوبة وطلب العفو من الله عما مضى من الذنوب قبل التوبة. ومعنى يجد الله غفوراً رحيماً يتحقق ذلك، فاستُعير فعلُ يَجِد للتحقّق؛ لأنّ فِعْلَ وَجَدَ حقيقَتُه الظَفْرُ بالشيء ومشاهدته، فأُطلق على تحقيق العَفْوِ والمغفرة على وجه الاستعارة. ومعنى غفوراً رحيماً: شديد الغفران وشديد الرحمة، وذلك كناية عن العموم والتعجيل. . . **﴿ومن يكسب إثماً فإنّما يكسبه على نفسه﴾**: هذه هي القاعدة العامّة، فكل إنسان مأخوذ بما تكسب نفسه، فلن ينفعَه أن يجادل عنه أحدٌ، ولن يشاركه في حمل وزره أحدٌ. . . **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾**: يعلم ما تكسب كلُّ نفس، ويعلم ما يصلح من الجزاء وما يُحقّقُ العدلَ والقسط. . .

﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يَرْمِ به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾:

احتمل بهتاناً في رَمْيِ غيرِه البريء بما اقترف هو من خطيئة أو إثم، ثم ينسبه إليه ويحتال لترويج ذلك، فكأنّه ينزع ذلك الإثم عن نفسه ويرمي به البريءَ. وجُعل الرمْيُ بالخطيئة وبالإثم مرتبةً واحدةً في كون ذلك إثماً مبيناً؛ لأنّ رمْيَ البريءِ بالجريمة في ذاته كبيرة، لما فيه من الاعتداء على حق الغير. ودل على عظم هذا البهتان بقوله: احتمل؛ تمثيلاً لحال فاعله بحال عناء الحامل ثقلاً... **﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أنْ يضلوك﴾**: سياق هذا الكلام يعطينا دلالات على ما وقع من المنافقين، من محاولاتٍ للكيد والمكر ومؤامراتٍ على تغطية الخيانة والغدر، غير أنّ الله تفضّل على رسوله والمؤمنين بكشف حالهم، وبيان ما هم عليه من الكيد والكفر والضلال، وهو معنى: **﴿وما يُضلُّون إلاّ أنفسهم وما يضرونك من شيء﴾**؛ لأنّ الله تعالى يُطلعه على ما يُدبّر المدبّرون ويبيت المبيّتون، وإنّما يَضرّون أنفسهم بتوريطها في الذنوب والآثام...

﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾: هذا زيادةٌ لتقرير معنى قوله: **﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾**، ولذلك ختمها بقوله: **﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾**، فهو مثل رد العجز على الصدر... **﴿لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾**: بمناسبة الحديث عن المؤامرات التي تجرى في السر، ويتناجى في شأنها المبيّنون والماكرون، يقرّر السياق هنا أنّ معظم نجوى الناس لا خير فيها، وأنّ النجوى الخيرة هي التي تتعلق بالحضّ على صدقةٍ أو أمر بالمعروف أو إصلاح بين الناس، وأنّ أجْرَ مَن ينهض بهَذَا لِوَجْهِ الله، بلا رياءٍ ولا سمعةٍ ولا شهرةٍ أجْرٌ عظيمُ. ويدع الصدقةَ والمعروف والإصلاحَ مجملة لا يُفصّل أنواعها، ويدع كذلك الأجر العظيم مجملاً لا يذكر نوعَه ولا صفتَه؛ لأنّ الغرض هو التوجيه العام بلا تفصيل ولا تحديد في هذا المقام. والمقصود من الآية تربية اجتماعية دعت إليها المناسبة، فإن شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة. ومعنى لا خير أنّه شرٌّ بنَاءً على المتعارف في نفي الشيء أن يراد به إثباتُ نقيضه، لعدم الاعتداد بالواسطة، كقوله تعالى: «فماذا بعد الحق إلاّ الضلال»؟، ولأنّ مقام التشريع إنّما هو بيان الخير والشر. والإشارة في قوله (ذلك) إلى الأمور الثلاثة: الصدقة والمعروف والإصلاح، فقد يشار بذلك إلى المتعدّد، بمعنى المذكور، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بها؛ للإيذان ببعد منزلتها ورفعة شأنها.

وترتيب الأجر العظيم على فعلها إثرَ بيان خيرية الأمر بها؛ لما أنّ المقصود الأصلي هو الترغيب في الفعل، وبيان خيرية الأمر به للدلالة على خيرته بالطريق الأولي؛ لما أنّ مَدَار حُسْن الأمر وقبحه حسن المأمور به وقبحه، فحيث ثبت خيرية الأمر بالأمور المذكورة فخيريّة فعلها أثبت. وفيه تحريض للآمر بها على فعلها. وقوله: ابتغاء مرضات الله، معللة للفعل والتقييد به؛ لأنّ الأعمال بالنيات، وأنّ من فعل خيراً لغير ذلك لم يستحق به غيرَ الحرمان. وفي قوله: نؤتيه التفات من الغيبة إلى التكلم تنويهاً بقيمة الفاعل على هذا الوجه. وقوله: أجراً عظيماً تنويه بعظم الأجر الذي يقصر عنه الوصفُ. فأمّا الذين يبتغون مرضات الله فيشاقّون الرسول ويغاضبُونه، فإنّ لهم مصيراً سيّئاً يناسب جريمَتَهم؛ وجريمتهم هي الكفر بعينه...

﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولي ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾: ووصل هذه الآية بما قبلها بالعطف لمناسبة تضادّ الحالين. والتعرض لعنوان الرسالة (ومن يشاقق الرسول) لإظهار كمال شناعة ما اجْترَءُوا عليه من المشاقة والمخالفة. وتعليل الحكم الآتي بذلك... **﴿إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاءُ ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً﴾**: هذا تمهيد لما بعده من وصف أحوال الشرك وتعقيب الآية السابقة لهذه يشير إلى أنّ المراد باتباع غير سبيل المؤمنين، اتباع سبيل الكفر من شرك وغيره، فعقّبه بالتحذير من الشرك، وأكّده (بإنّ) للدلالة على رفع احتمال المبالغة، أو المجاز. وقد خاطب أهل الكتاب بمثل هذه الآية فيما سبق وختمها بقوله: **﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾**؛ لأنّ شرك أهل الكتاب افتراء على الله بدعوى أنّهم على دينه. وختم هذه الآية بقوله: فقد ضل ضلالا بعيداً؛ لأنّ الخطاب هنا موجَّهٌ إلى المسلمين تحذيراً لهم من الافتراء، وتنبيهاً على أنّ الشرك من الضلال البعيد. وأكّد الخبر هنا اهتماماً به؛ لأنّ المواجه بالكلام هنا المؤمنون، وهم لا يشكون في تحقق ذلك. والبعيد أريد به القوى في نوعه، الذي لا يُرجى لصاحبه اهتداء، فاستعير له البعيد؛ لأنّ البعيد يُقصِي الكائن فيه عن الرجوع إلى حيث صدر...

﴿إنْ يدعون من دونه إلاّ إناثاً﴾: هذا بيان لقوله: فقد ضل ضلالاً بعيداً، وأيُّ

ضلال أشد من أنْ يُشرك أحدٌ بالله غيَره، ثم يدّعي أنْ شركاءَه إناث، وقد علموا أنّ الأنثى أضعف الصنفين من كل نوع، وأعجب من ذلك أن يكون هذا صادراً من العرب، وقد علم الناس حال المرأة بينهم، وقد حَرمُوها من حقوقٍ كثيرةٍ واستضعفوها. فالحصر في قوله: إنْ يدعون من دونه إلاّ إناثاً قصرٌ ادّعائيٌّ، لأنّه أعجب أحوال إشراكهم، ولأنّ أكبر آلهتهم يعتقدونها أنثى؛ وهي اللات، والعزّي، ومناة. فهذا كقولك: لا عالِمَ إلاّ زيدٌ!. وإيرادها بهذا الاسم للتنبيه على فرط حماقة عبدتها وتناهي جهلهم!..

﴿**وإنْ يدعون إلاّ شيطانا مريداً لعنه الله**...﴾ الخ: هذه هي حال أهل الشرك شكلاً وموضوعاً: فهي إنّهم إنّما يدْعُون الشيطان المريد الماسح العاتي الطريد!. يستوحونه ويستمدّون منه هذا الضلال البعيد. ومعنى الحكاية عنه بقوله: ﴿**لأتّخذن من عبادك نصيباً مفروضاً**﴾: أنّ الله خلق في الشيطان عِلْماً ضروريّاً، أيقن بمقتضاه أنّ فيه المقدرة على فتنة البشر وتسخيرهم لغوايته، وكانت في نظام البشر فُرص تَدَخُّل في خلالها آثار فتنة الشيطان؛ فذلك هو النصيب المفروض، أي: المجعول بفرض الله وتقديره في أصل الجِبلَّة. وقوله: من عبادك: خروج عن أدب الخطاب، ودلالة على جلافة الطبع الناشئة عن خباثة التفكير المتأصّلة في جبلّته، وجملة: ﴿**ومن يتخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً**﴾: تذييل دالٌّ على أنّ ما دعاهم إليه الشيطان: من تبتيك آذان الأنعام، وتغيير خلق الله، إنّما دعاهم إليه لما يقتضيه من الدلالة على استشعارهم بشعاره، والتدين بدعْوته. وقوله: ﴿**يعدُهم ويمنّيهم**﴾، استئناف لبيان أنّه أنْجزَ عَزْمَهُ فوعد ومنّى وهو لا يزال يعد ويُمنّي، فلذلك جيء بالفعل المضارع هنا. وجيء باسم الإشارة في قوله: ﴿**أولئك مأواهم جهنّم**﴾، لتنبيه السامعين إلى ما يَردُ بعد اسم الإشارة من الخبر، وأنّ المشار إليهم أحرياء به، عقب ما تقدم من ذكر صفاتهم...

﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**...﴾ الخ: وصل الآية بما قبلها بالعطف جرْياً على عادة القرآن في تعقيب الإنذار بالبشارة، والوعيد بالوعد. وجملة: ﴿**ومن أصدق من الله قيلاً**﴾، تذييل للوعد وتحقيق له، أي: هذا من وعد الله، ووُعُودُ الله وُعُودُ صدق؛ إذ لا أصدق من الله قيلاً. فالْوَاوُ اعتراضية؛ لأنّ التذييل من أصناف الاعتراض، وهو اعتراض في آخر الكلام. والاستفهام إنكاري.

والصدق المطلق هنا في وعد الله، ويقابل الغرور الخادع، والأماني الكاذبة في وعد الشيطان. وشتّان بين من يثق في الله، ومن يثق بالشيطان!.. ﴿**ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب**﴾: هذا كلام مستأنف للتنويه بفضائل الأعمال وللتشويه بمساويها. واسم ليس ضمير عائد على الجزاء المفهوم من قوله: يُجْزَ به، بمعنى أنّ الجزاء ليس تابعاً لأماني الناس ومشتهاهم، بل هو أمْرٌ مقدَّر من الله تقديراً بِحَسَبِ الأعمال...

﴿**من يعمل سوءاً يُجْزَ به**﴾: هذا استئناف بياني ناشئ عن جملة: ليس بأمانيكم؛ لأنّ السامع يتساءل عن بيان هذا النفي المجمل... ﴿**ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً**﴾: هذا زيادة تأكيد لردّ عقيدة من يتوهم أنّ أحداً يُغْنِي عن عذاب الله... ﴿**ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن...**﴾: قصد من قوله: من ذكر أو أنثى التعميم والردّ على من يحرم المرأة حظوظاً كثيرةً من الخير من أهل الجاهلية. (ومِن) لبيان الإبهام في (مَنْ) الشرطية... ﴿**ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً**﴾: لما ذكر ثواب المؤمنين أعقبه بتفضيل دينهم. والاستفهام إنكاري.

وإسلام الوجه كناية عن تمام الطاعة والاعتراف بالعبودية، وهو أحسن الكنايات، لأنّ الوجه أشرف الأعضاء وفيه ما كان به الإنسان إنساناً. وإظهار اسم إبراهيم عليه السلام مكان إضماره لتفخيم شأنه والتنصيص على أنّه الممدوح، وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية. وفائدة الاعتراض هذا جمّةٌ: من جملتها الترغيب في اتّباع ملّته عليه السلام، فإنّ من بلغ من الزلفى عند الله تعالى مبلغاً مصحّحاً لتسميته خليلاً، حقيق بأن يكون اتباعُ طريقته أهمَّ ما يمتد إليه أعناق الهمم وأشرف ما يرمق نحوه أحداق الأمم!..

﴿**ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً**﴾: هذه جملة سبقت لتقرير وجوب طاعة الله تعالى على أهل السماوات والأرض، ببيان أنّ جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خَلْقاً ومُلْكاً، لا يخرج عن ملكوته شيء منها، فيجازى كُلاً بموجب أعماله خيراً أو شرّاً. وفي هذا كناية عن عبودية إبراهيم عليه السلام؛ لأنّه من جملة ما في السماوات وما في الأرض. وقولُه

سبحانه: وكان الله بكل شيء محيطاً، تذييل مقرّر لمضمون ما قبله على الوجه المذكور، فإنّ إحاطته تعالى عِلْماً وقُدْرَةً بجميع الأشياء، التي من جملتها ما فيهما من المكلفين وأعمالهم بما يقرّر ذلك أكمل تقرير.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾: من المعلوم أنّ توجيهات القرآن أول ما تصدر تُوجّه إلى من أنزل إليه هذا القرآن، وهو الرسول ﷺ ثم تُوزّع على حسب المقام والأحوال. فالله سبحانه أنزل إلى رسوله القرآن؛ ليحكم به بين الناس بما فيه من الأحكام العادلة والتوجيهات الحكيمة الفاضلة، وكذلك كل من أراد أنْ يحكم بين الناس فليحكم بما أنزل الله. ولا تكن للخائنين خصيماً: هذا النهي موجّه إلى الرسول والمراد به غيرُه، لأنّ الخصام عن الخائنين لا يتوقع من النبيء المعصوم، وإنّما المراد تحذير الذين دفعتْهُم حميّة الجاهلية إلى الانتصار لمن يتحيّزون له، كما حدث في وقت نزول هذه الآية من تلاعب بعض المنافقين، من التدخل في الأحكام لغرض خبيث في نفوسهم، وقد أظهر الله نبيئه على هذا التلاعب، وأمره أنْ يسير معهم حسب الحق والعدل، لا حسب أغراضهم وشهواتهم... **﴿واستغفر الله إنّ الله كان غفوراً رحيماً﴾**: الأمر بالاستغفار جرى على أسلوب توجيه الخطاب إلى الرسول، والمراد به غيرُه؛ أرشدهم إلى ما هو أنفع لهم من استغفار الله مما اقترفوه، أو استغفار الرسول لهم، ليلهمهم إلى التوبة. وكذلك قوله...

﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إنّ الله لا يحب من كان خوّاناً أثيماً﴾: لأنّ مثله لا يُترقب صدُوره من الرسول بدليل قوله... **﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أمّن يكون عليهم وكيلا﴾**! فعليكم أنْ تراقبوا الله في مثل ذلك، ولا تظنوا أنّ مَنْ أمْكَنَه أنْ ينال الغلبة بالحكم، له بغير حق يمكنه أنْ يظفر به في الآخرة... يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله: وفي هذا إيماء إلى أنّ حكم الحاكم في الدنيا لا يُجيز للمحكوم له أن يأخذ به؛ إذا عَلِمَ أنّه حكم له بغير حقه.

التوجيه الثاني: الترغيب في التوبة والترهيب من الذنوب... **﴿ومن يعمل**

سوءاً أو يَظْلِم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً. ومن يكسب إثماً فإنّما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً. ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾: عمل السوء: الفعل القبيح يسوء به غيرَه. وظلم النفس: هو فعل المعصية التي تختص به كالحلف الكاذب. واستغفار الله: طلب العفو منه بالتوبة الصادقة. يجد الله غفوراً رحيماً: غفّاراً لذُنُوبِهِ رحيماً متفضلاً عليه بالعفو والمغفرة. وفي ذلك حثٌّ وترغيب لكل من ارتكب ذنباً في التوبة والاستغفار، وفيها بيان للمخرج من الذنب بعد وقوعه، وفيها تحذير من أعداء الحق والعدل الذين يحاولون هدمهما، وهما أسس الشرائع. . .

﴿ومن يكسب إثماً فإنّما يكسبه على نفسه﴾: تحذير من فعل الذنوب ببيان عظيم ضرّها؛ لأنّ كسب الإثم وبال على صاحبه وضرر لا نفْعَ له فيه؛ كما يخطر على بال من يجهل عواقب الآثام في الدنيا والآخرة. . . **﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾**: هذه أكبر من التي قبلها، لأنّ في هذه ارتكاب ذنبين: الإثم في نفسه ورمي البريء به. ولقد تعدّدت هنا أسماء لذنوبٍ حذّر القرآنُ منها: الخيانة، وعدم الاستحياء من الله، وتبييت المكروه من القول، والمجادلة بالباطل، وعمل السوء، وظلم النفس، وكسب الإثم، وكسب الخطيئة، ورمي البريء والبهتان عليه، كل هذه الذنوب حذّر الله منها.

ولها ثلاث مراتب باعتبار فاعلها: المرتبة الأولي: قد يرتكب الإنسانُ الذنب فيشعر بخطره عاجلاً وآجلاً، فيقلع عن ذنبه وتعتريه ندامةٌ عن كل ذنب فرط منه، ويعزم ألاّ يعود إليه مرّة أخرى، فهذا إنسان تاب إلى الله فتاب الله عليه. المرتبة الثانية: قد يرتكب الإنسان الذنب ويستمر عليه، فيتعود على ارتكاب السيّآت حتى ينسى خطر خطيئاته، فيموت وهو مصر على ذنبه دون توبة منه، فلا شك أنّ هذا الإنسان إنّما ضرّ نفسَه ولم يضر أحداً سواه. المرتبة الثالثة: قد يرتكب الإنسان الذنب ثم يرمي به غيره، وهو بريء، فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً، لأنّه بكسب الإثم أثيم، وبرمي البريء باهت، فهو جامع بين الأمرين، فلا جرم أنّه يلحقه الذم في الدارين.

التوجيه الثالث: يلفت فيه نظر المؤمنين وفي مقدمتهم الرسول الأمين إلى ما آتاهم الله من فضله ورحمته، من إنزال الكتاب والحكمة، وتعليم ما لم يكن

يعلمه أحد من الناس. . . **﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهَمّت طائفة منهم أن يضلّوك وما يضلون إلاّ أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾**: وأيّ رحمة وأيّ فضل أعظم مما جاء به القرآن الكريم، من تعليم وتوجيه وتنبيه، يلفت النظر فيه إلى ما عليه الناس في الواقع، وما ينبغي أن يكونوا عليه في هذا الهدْيِ القاطع. . . **﴿لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾**: فبدلاً من ارتكاب المآثم فعلَ الخير والأمرَ به وانتشاره بين الناس، لما فيه من المآثر والمغانم. . .

﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾: فالأجر العظيم لمن يأمر غيره بالبر ولا ينسى نفسه، بل يأمر ويفعل وقصدُه مرضاةُ الله لا مرضاة الناس، كما يفعله المراءون المعجبون بما يعملون، أو الذين يقولون ما لا يفعلون؛ فهؤلاء إنّما يبتغون الربح بما يَبْذُلُون. هذا هو الهدْيُ الذي جاء به هذا الكتاب الهادي للتي هي أقوم، فاهتدى به المؤمنون الصادقون. أمّا الذين لا يبتغون مرضاة الله، أو من بقي في ضلالة دون هدى مولاه، فأولئك الذين استحبوا العمي على الهدى، فليكن له ما ابتغاه. . .

﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنّم وساءت مصيراً﴾: هذه هي سنة الله التي أرادها؛ ليعمل الإنسان بمقتضاها بإرادته واختياره، مستقلاً حرّاً في الوجهة التي يتولاها ويختارها لنفسه؛ يوليه الله إياها. وقد بيّن في هذا الوعيد أنْ يتبيّن له الهدى، أما من لم يتبين له الهدى؛ بأنْ لم تبلغه الدعوة أو بلغته مشوّهة، مثل الذين يدّعون أنّهم يبلغون دعوة الإسلام، وهم يبلغون دعوة الساسة اللئام. كما هو مشاهد ومسموع في هذه الأيّام!. فلا يغرنّك ما يقال فخذ حذرك من هذا الكلام. أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام كما جاءت في القرآن وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، فلا عذر لهم بجهل حقيقة الإسلام.

التوجيه الرابع: يؤكد الله فيه لعباده أنّه لا يغفر لأحد أشرك به سبحانه وتعالى!. ذلك أنّ الشرك هو منتهى فساد الأرواح وضلال العقول. . .

﴿إنّ الله لا يغفر أنْ يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله

فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾! . فجريمة الشرك جريمة لا تُغفر؛ لأنّه ظلم عظيم. وعندما نتتبع القرآن في وصفه لهذه الجريمة، ولوصفه للغارقين في أوحالها أو التائهين في ضلالها، نجده قد أحاط بكل أحوالها وأظهر على جميع أهوالها. ومع هذا التحذير نرى ونسمع بعض الناس الذين يسمون أنفسهم بالموحدين، يفعلون كما يفعل سائر المشركين، ويُبرّرون هذا الفعل بقربهم إلى الله؛ لأنّهم يتقربون إلى الله بدعائهم أولياء الله، فيدعونهم دون الله، ويذكرون أسماءهم بدل ذكر اسم الله، ملاحظين أنّهم بهذا الدعاء يقربونهم إليه زلفى، فهذا ضلال يفسد العقل، ويكدّر صفاء الروح، ويجعله يخضع لعبد مثله، ويبتهل أمام عبد مخلوق لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فيجعل نفسه عبداً للخرافات والأوهام. وأيُّ ضلال أبعد من هذا الضلال. غير أنّ الشيطان زيّن للناس هذه الجريمة، فاسْتَسْهَلوها ورغبوا في بهرجها؛ يَعشقونها وماتوا دونها، وعابوا على من يحذّر منها أو ينالها بسوء أو مكروهٍ، وما هي إلا إناث ضعيفة، أو أموات أو حجارة تافهة سخيفة. . .

﴿إنْ يدعون من دونه إلاّ إناثاً وإنْ يدعون إلاّ شيطاناً مريداً لعنه الله وقال لأتخذنّ من عبادك نصيباً مفروضاً. ولأضلّنّهم ولأمنّينّهم ولآمرنّهم فليبتّكُنّ آذان الأنعام ولآمرنّهم فليغيّرنّ خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً. يعدُهم ويمنّيهم وما يعدُهم الشيطان إلاّ غروراً. أولئك مأواهم جهنّم ولا يجدون عنها محيصاً﴾: إنّ من شأن الشيطان ومقتضى طبعه، إضلال الناس، وشغلهم بالأماني الباطلة، يمنيهم بالرحمة للمجرمين بغير توبة، وإنّ أمامهم شفعاء شرفاء، وأولياء يشفعون لهم. ومن شأن الشيطان تغيير دين الله؛ دين الفطرة الذي يناسب الفطرة الإنسانية الطاهرة المستقيمة على النظر السليم والمعرفة الحقّة إلى الأباطيل والرذائل والمنكرات، بالوعود الكاذبة والأماني الزائفة، يلقيها إليهم عن طَريقه بالوسوسة، أو عن طريق أوليائه من الإنس وهم قرناء السوء الذين يزينون للناس الضلال والمعاصي، ويمدونهم في الطغيان وينشرون مذاهبَهم الفاسدة وآراءهم الضالّة، التي يبتغون بها الرفعة والجاه والمال، وهؤلاء يوجدون في كل زمان ومكان، وما أكثرَهُم اليوم!.

﴿ومن يتخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً. يعدهم ويمنّيهم ومايعدهم الشيطان إلاّ غروراً. أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها

محيصاً﴾: أولئك الذين يعبث بهم الشيطان بوسوسته، أو بإغواء دُعاة الباطل من أوليائه، ومأواهم جهنم لا يجدون عنها محيصاً ـ مهرباً ـ يفرون إليه؛ إذ هُمْ بطبيعتهم ينجذبون ويتهافتون عليها تهافُت الفراش على النار. . . **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعْد الله حقّاً ومن أصدق من الله قيلا﴾**: لا يستوي أصحاب النار أتباعُ الشيطان الذي خدعهم وغرّهم فأهلكهم، وأصحابُ الجنّة أولياءُ الرحمان، الذي وعدهم وعْد الصّدقِ وأنجز لهم ما وعدهم به من الحقّ، فهم أهل الفوز والنجاح!. .

﴿ليس بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجدْ له من دون الله وليّاً ولا نصيراً﴾: من التمنيات الباطلة التي اغتر بها أهل الكتاب من الغرور بدينهم؛ إذ كانوا يرون أنّهم شعب الله الخاص، ويقولون إنّهم أبناء الله وأحباؤه، وإنّ النار لن تمسهم إلاّ أيّاماً معدودةً، وقد سرى لهم هذا الغرور من اتكالهم على الشفاعات، وزعمهم أنّ فضلهم على غيرهم من البشر، بمن بُعث فيهم من الأنبئاء، فهم يدخلون الجنة بكرامتهم لا بأعمالهم. ومن المؤسف أنّ هذه الأمانيّ دبّت إلى ضعفاء المسلمين، وانطلت عليهم خديعة الشيطان وزعموا كما زعم أهل الكتاب أنّ انتسابهم للإسلام يغنيهم عن العمل والتباعد عن أكاذيب الأمل. ليس الإيمان بالتمنّي ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل. فكانت هذه الآية حكماً فَصْلاً بين الفِرَقِ، وتعليماً لهم أنْ ينظروا في تَوَفُّرِ حقيقة الإيمان الصحيح، وتوفر العمل الصالح معه، ولذلك جمع الله أماني الفرق بقوله: ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب.

ومن المعلوم أنّ الكلام هنا شامل لجميع الفرق ـ فيدخل فيه المسلمون ـ، والمقصود منه التعميم في تفويض الأمور إلى حُكْم الله ووعْدِه، وأنّ ما كان على خلاف ذلك لا يُعتدّ به، وما وافقه هو الحقُّ. هذا هو القانون الثابت، وهذه هي السنّة النافذة، فلا يعلق أحد نفسه بالأماني الخادعة، وليختر طريقه على هدى وفي وضح النور بلا جدالٍ ولا محال!. من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً: لا من الأنبئاء الذين تَفَاخَرَ بهم، ولا من غيرهم من المخلوقات التي اتخذها بعضُ البشر آلهةً وأرباباً، فكل تلك الأماني تكون أضغاث أحلامٍ، وإنّما يكون المدَارُ في ذلك على الإيمان والأعمال الصالحة كما قال. . .

﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾: في هذه الآية وما قبلها من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأماني، التي يأوي إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين الذين يظنون أنّ الله يُحابي من يسمي نفسه مسلماً، ويفضله على اليهودي والنصراني لأجل هذا اللقب، فالذين يفخرون بالانتساب إليه ـ وقد نبذوه وراء ظهورهم، وحرموا الاهتداء بهديه ـ، هم في ضلال مبين. فإذا انتهى إلى تقرير هذه القاعدة الأصلية في هذه الصورة الحاسمة راح يحبّب في الإسلام؛ إسلام الوجه خالصا لله مع الإحسان، وراح يرد هذا الإسلام إلى أصل قديم يضم المسلمين وأهل الكتاب... **﴿ملّة إبراهيم حنيفاً﴾**: الذي فاز بالقرب من الله قرباً شديداً...

﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾: والله لا يتخذ خُلاّناً ـ على نحو ما يعهد البشر ـ، إنّما هو الأثر المترتب على الصداقة، وهو القرب والرضوان. فما أجْدَرَ الناسَ أن يخلصوا أنفسهم لله، وأن يسلموا له بلا شريك، وكل ما في السماوات والأرض له؛ خلقاً وملكاً وعبيداً، وهو بكل شيء محيط... **﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً﴾**: فلمن يتوجه الناس غيره، ومن ذا الذي يعصمهم من الله في هذه الأرض وفي تلك السماوات سواه؟!.

وفي هذه الخاتمة فوائد: الأول: بيان الدليل على أنّه المستحق وحده لإسلام الوجه له، والتوجّه إليه في كل حال؛ لأنّه هو المالك لكل شيء، وغيره لا يملك لنفسه شيئاً.

الثاني: نفي ما يتوهم في اتخاذ الله إبراهيم خليلاً، من أنّ هناك شيئاً من المقاربة في حقيقة الذات والصفات.

الثالث: التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده في الآيات التي قبلها؛ إذْ من له ما في السماوات والأرض؛ خلقاً وملكاً وعبيداً، فهو أكرم من وعد.

8 ـ إعادة الكلام يؤكّد ما سبق من الأحكام

النص

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ
يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ
اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ
وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿126﴾
وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ
وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿127﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا
بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ
فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿128﴾ * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ
كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿129﴾ وَلِلَّهِ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ

مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (130) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (131) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (132) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (133) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (134) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (135)

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ويستفتونك**﴾: الاستفتاء طلب الفتيا، وهو الإعلام بالحكم وتوضيح المشكل، يقال: استفتاه في مسألة فأفتاه ومصدره الإفتاء والاسم الفتيا والفتوى، وهو تبين المبهم مأخوذ من الفتي، وهو الشاب الذي قوي وكمُل؛ كأنّه قوي ببيانه ما أشكل، فشب وصار فتيا قويّاً... ﴿**وما يتلى عليكم**﴾: التلاوة التتابع، يقال: تلوته وتليته تبعته، وتلوت القرآن، أو كل كلام قرأته، وتتالت الأمور تتابعت،

والمراد هنا تتابع الأحكام التي تتعلق بالنساء اليتيمات. . . ﴿**اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن**﴾: أي: ما فرض لهن من الميراث وغيره. . . ﴿**وترغبون أنْ تنكحوهن**﴾: رغب فيه أراده، ورغب عنه لم يرده، ومصدره رَغْباً ورُغْباً ورَغْبة، ورغب إليه رَغَباً: ابتهل. . .

﴿**وإن امرأة خافت**﴾: الخوف توقع المكروه في المستقبل. . . ﴿**من بعلها**﴾: البعل الزوج، وجمعه بُعولة، وأصل البعل في كلامهم السيد، وهي كلمة قديمة تطلق على السيد المعبود عندهم «أتدعون بعلاً»، وسمي به الزوج لأنّه مَلَك أمر عصمةِ زوجه، ولأنّ الزوج كان يعتبر مالكاً للمرأة وسيّداً، فكان حقيقاً بهذا الاسم عند القدماء، غير أنّ العرب أطلقوا لفظ الزوج على كل من الرجل والمرأة اللذين بينهما عصمة نكاح، وهو إطلاق عادل. والقرآن عبّر بالزوج في الأغلب، وعبّر بالبعل عندما يحكي فيها على أحوال الأمم الماضية، أو عندما يريد التذكير بما للزوج من سيادة كما هنا، وأصل البعولة القوّة والجمع. . . ﴿**نشوزاً أو إعراضاً**﴾: تجافياً عنها وترفّعاً عن صحبتها كراهة لها ومنْعاً لحقوقها، أو إعراضاً بأن يقلّ محادثتَها ومؤانستها. . . ﴿**فلا جناح عليهما أنْ يصالحا بينهما صلحاً**﴾: الصُلح السلم والوفاق وترك المشاحّة والمنافرة، يقال: صالحه مصالحة واصطلحا واصّالحا وتصالحا، كل بمعنى تسالما وتوافقا، وأصله الصلاح الذي هو ضد الفساد. . .

﴿**وأحضرت الأنفس الشح**﴾: الشح ـ مثلثة ـ: البخل والحرص، والمراد هنا ما جبلت عليه النفوس من المشاحّة وعدم التساهل وصعوبة الشكائم. . . ﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء**﴾: محال أنْ تقدروا على العدل بينهن، بحيث لا يقع ميلٌ ما إلى جانب إحداهن في شأن من الشؤون البتّة. . . ﴿**ولو حرصتم**﴾: الحرص شدة التمسك بالشيء والرغبة فيه. . . ﴿**فلا تميلوا كل الميل**﴾: الميل هنا: الجور والظلم، يقال: مال الحاكم في حكمه؛ جار وظلم، ويقال: مال عن الطريق حاد عنه وتركه، ومال الحائط تحول عن استوائه، ويَشْمَلُ معنى هذا كله الانحراف. . . ﴿**فتذروها كالمعلقة**﴾: هي المرأة التي يهجرها زوجها هجُراً طويلاً، فلا هي مطلّقة ولا هي زوجة، ومعلوم أنّ الشيء المعلق رهين لا يتخلص من المعلق به. . .

﴿**وإنْ يتفرقا**﴾: تفرّق تفرُّقاً: ضد تجمّع، ومعناه هنا انفصلا بالطلاق. . .

﴿**يغن الله كلاً من سعته**﴾: يجعلْه مستغنيا عن الآخر ويكْفِهِ مُهِمّاتِه، والسعة الغني. . . ﴿**وكان الله واسعاً حكيماً**﴾: مقتدراً متقناً في أفعاله وأحكامه. . . ﴿**ولقد وصَّينا**﴾: أوصى ووصّى توصية: عهد إليه بالأمرالمهمّ، والمراد بالوصية هنا: الأمر بالشيء النافع الجامع للخير الكثير، والتقوى تجمّع الخيرات، لأنّها امتثال الأوامر واجتناب المناهي، والتقوى المأمور بها هنا: الإيمان بالله ورسله، لأنّها قوبلت بجملة: ﴿**وإنْ تكفروا. . .**﴾ ﴿**إنْ يشأ يذهبْكم**﴾: الذهاب هنا: الهلاك والاستئصال. . . ﴿**ويأت بآخرين**﴾: بناس آخرين غير كافرين. . . ﴿**من كان يريد ثواب الدنيا**﴾: جزاؤه في الدنيا منها وثوابه فيها، هو ما يصيب من المغنم وأمنه على نفسه وذريته وماله وما أشبه ذلك. . . ﴿**كونوا قوّامين**﴾: مجتهدين في اختيار العدل. . . ﴿**بالقسط شهداء لله**﴾: شهادة لأجل الحق. . . ﴿**ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين**﴾: فقوموا فيها بالقسط والعدل. . .

﴿**إنْ يكن غنياً أو فقيراً**﴾: الغني ضد الفقير، فالغني هو الذي لا يحتاج إلى شيء، وهو مقول عليه بالتفاوت، وفي العرف يطلق على من له ثروة يستطيع بها تحصيل حاجاته من غير فضل لأحد عليه، فوجدانُ أجورِ الأجراء غنيٌّ، وإنْ كان المستأجر محتاجاً إلى الأجراء، لأنّ وجدان الأجور يجعله كغير المحتاج، والغني المطلق لا يكون إلاّ لله تعالى. والفقير هو المحتاج، إلاّ أنّه يقال: افتقر إلى كذا، بالتخصيص، فإذا قيل: هو فقير، فمعناه في العرف أنّه كثير الاحتياج إلى فضل الناس، أو إلى الصبر على الحاجة لقلة ثروته، وكل مخلوق فقير فقراً نسبياً. . .

﴿**وإن تلووا أو تعرضوا**﴾: تلووا: مضارع لوي، واللّيّ الفتْلُ والتنْيُ، وتفرعت من هذا المعنى الحقيقي، معان شاعت فساوت الحقيقة، منها: عدول عن جانب وإقبال على جانب آخر، فإذا عدي بعن فهو انصراف عن المجرور بعن، وإذا عدي بإلى فهو انصراف عن جانب كان فيه، وإقبال على المجرور بعلي، مثل: ولا تلوون على أحد، ومن معانيه: لوى عن الأمر تثاقل، ولوى أَمَره عنِّي أخفاه، ومنها: ليُّ اللسان بمعنى تحريف الكلام في النطق به أو في معانيه. وأمّا الإعراض فهو الامتناع من القضاء ومن أداء الشهادة والمماطلة في الحكم مع ظهور الحق، وهو غيرُ الليّ.

مبحث الإعراب

﴿ويستفتونك﴾ جملة من فعل وفاعل ومفعول معطوفة على ما سبق من الأحكام المتعلقة بالنساء. ﴿في النساء﴾ جار ومجرور متعلق بالفعل. ﴿قل﴾ فعل أمر، وفاعله (أنت). ﴿اللهُ﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿يفتيكم﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدّرة على الياء منع من ظهورها الثقل، وضمير المخاطبين فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ، وجملة الله يفتيكم في محل نصب مقول القول. ﴿فيهن﴾ جار ومجرور متعلق بيفتيكم. ﴿وما﴾ الواو للعطف، ما اسم موصول في محل رفع معطوف على الله. ﴿يُتلى﴾ فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، وجملة يتلى صلة الموصول. ﴿عليكم﴾ جار ومجرور متعلق بيتلى. ﴿في الكتاب﴾ جار ومجرور متعلق بيتلى أيضا. ﴿في يتامى﴾ جار ومجرور مثل السابقيْن. ﴿النساء﴾ مضاف إلى يتامى مجرور بالكسرة. ﴿اللاتي﴾ اسم موصول في محل جر نعت للنساء.

﴿لا تُؤتونهن﴾ لا نافية، تؤتونهن فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿ما﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول ثان لتؤتونهن. ﴿كُتِبَ﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، وجملة كُتِبَ صلةُ ما. ﴿لهن﴾ جار ومجرور متعلق بكُتِبَ. ﴿وترغبون﴾ فعل وفاعل معطوف على لا تؤتونهن لا محل له من الإعراب صلة اللاتي. ﴿أنْ تنكحوهن﴾ أنْ حرف مصدر ونصب، تنكحوهن فعل مضارع منصوب بحذف النون، والواو فاعل، والضمير فيه مفعول به، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف الجر، والتقدير: وترغبون في نكاحهن أوْ عن نكاحهن، على حسب غرض القاصد. ﴿والمستضعفين﴾ معطوف على يتامى النساء مجرور بالياء. ﴿من الوِلدان﴾ جار ومجرور متعلق بالمستضعفين. ﴿وأنْ تقوموا﴾ الواو للعطف، أنْ حرف مصدر ونصب، تقوموا فعل مضارع منصوب بحذف النون، والواو فاعل، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور، معطوف على يتامى النساء، أي: يفتيكم في قيامكم لليتامى بالقسط.

﴿لليتامى﴾ جار ومجرور متعلق بتقوموا. ﴿بالقسط﴾ كذلك. ﴿وما﴾ الواو

للعطف، ما اسم شرط جازم. ﴿**تفعلوا**﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل. ﴿**من خير**﴾ جار ومجرور متعلق بتفعلوا. ﴿**فإنّ**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، إنّ حرف توكيد ونصب. ﴿**اللهَ**﴾ اسم إنّ منصوب بالفتحة. ﴿**كان**﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿**به**﴾ جار ومجرور متعلق بالخبر بعده. ﴿**عليماً**﴾ خبر كان منصوب بالفتحة، وجملة كان به عليماً في محل رفع خبر إنّ، وجملة فإنّ الله في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وإنْ**﴾ الواو للعطف، إنْ حرف شرط جازم. ﴿**امرأةٌ**﴾ فاعل بفعل الشرط المقدر بعد إنْ. ﴿**خافت**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على امرأة. ﴿**من بعلها**﴾ جار ومجرور متعلق بخافت، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**نشوزاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**أو إعراضاً**﴾ معطوف عليه. ﴿**فلا**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، لا نافية للجنس تعمل عمل إنّ. ﴿**جناح**﴾ اسم لا مبنيٌّ على الفتح في محل نصب. ﴿**عليهما**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبرُ لا، وجملة فلا جناح عليهما في محل جزم جواب الشرط. ﴿**أنْ**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**يصالحا**﴾ فعل مضارع منصوب بحذف النون، وألف المثنى فاعل. ﴿**بينهما**﴾ جار ومجرور متعلق بالفعل قبله. ﴿**صلحاً**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف الجر المقدّر، والتقدير: فلا جناح عليهما في التصالح.

﴿**والصلح خير**﴾ جملة من المبتدإ والخبر معطوفة على ما قبلها. ﴿**وأُحضرت**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**الأنفسُ**﴾ نائب الفاعل مرفوع بالضمة. ﴿**الشح**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، وهذان الجملتان ـ والصلح خير، وأحضرت الأنفس الشح ـ معترضتان لا محل لهما من الإعراب. ﴿**وإنْ**﴾ الواو للعطف، إنْ حرف شرط جازم. ﴿**تحسنوا**﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل. ﴿**وتتقوا**﴾ معطوف على تحسنوا مثلها في الإعراب. ﴿**فإنّ الله**﴾ الفاء رابطة للجواب، إنّ الله إنّ واسمها. ﴿**كان**﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿**بما**﴾ جار ومجرور متعلق بالخبر بعده. ﴿**تعملون**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**خبيراً**﴾ خبر كان منصوب بالفتحة، وجملة كان الله في محل رفع خبر إنّ، وجملة فإنّ الله في محل جزم جواب الشرط، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ولن**﴾ الواو حرف عطف، لن حرف نفي ونصب.

﴿**تستطيعوا**﴾ فعل مضارع منصوب بحذف النون، والواو فاعل. ﴿**أنْ**﴾ حرف

مصدر ونصب. ﴿تعدلوا﴾ فعل مضارع منصوب بحذف النون، والواو فاعل، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول به، أي: ولن تستطيعوا العدل. ﴿بين﴾ ظرف مكان منصوب بالفتحة متعلق بالفعل قبله. ﴿النساء﴾ مضاف إلى بين مجرور بالكسرة. ﴿ولو حرصتم﴾ جملة من الفعل والفاعل دخلت عليه لو الوصلية، القصد منها غاية المبالغة. ﴿فلا﴾ الفاء للتعقيب، ولا للنهي. ﴿تميلوا﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف النون، والواو فاعل. ﴿كل﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿الميل﴾ مضاف إلى كل. ﴿فتذروها﴾ الفاء للعطف والترتيب، تذروها معطوف على تميلوا، والضمير فيه مفعول به. ﴿كالمعلقة﴾ الكاف للتشبيه، والمعلقة مجرور بها. ﴿وإنْ تصلحوا وتتقوا فإنّ الله كان غفوراً رحيماً﴾ إعرابها مثل إعراب الجملة السابقة في قوله: وإن تحسنوا وتتقوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً. ﴿وإنْ﴾ الواو حرف عطف، إنْ حرف شرط جازم. ﴿يتفرّقا﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف النون، والألف فاعل. ﴿يُغْنِ﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف الياء. ﴿اللهُ﴾ فاعل مرفوع بالضمة. ﴿كُلاًّ﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿من سعته﴾ جار ومجرور متعلق بيغن، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾ جملة من كان واسمها وخبرها معطوفة على ما قبلها تذييلية لا محل لها من الإعراب.

﴿ولله﴾ الواو للعطف، لله جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿ما﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿في السماوات﴾ جار ومجرور متعلق بفعل محذوف صلة الموصول. ﴿وما في الأرض﴾ معطوف على ما في السماوات. ﴿ولقد﴾ الواو للعطف، واللام للتوكيد، وقد للتحقيق. ﴿وصّينا﴾ فعل وفاعل. ﴿الذين﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿أُوتوا﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿الكتاب﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، وجملة أوتوا الكتاب صلة الذين. ﴿من قبلكم﴾ جار ومجرور متعلق بوصّينا. ﴿وإيّاكم﴾ معطوف على الذين في محل نصب. ﴿أنْ﴾ تفسيرية لما في الوصيّة من معنى القول دون حروفه. ﴿اتّقوا﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿اللهَ﴾ مفعول منصوب بالفتحة، والجملة تفسيرية لا محل لها من الإعراب. ﴿وإنْ تكفروا﴾ جملة فعل الشرط معطوفة على ما قبلها. ﴿فإنّ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، إنّ حرف توكيد ونصب.

﴿**لله**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبرُ إنّ. ﴿**ما**﴾ اسمها. ﴿**في السماوات**﴾ متعلق بفعل محذوف صلة ما. ﴿**وما في الأرض**﴾ معطوف على ما في السماوات. ﴿**وكان الله غنياً حميداً**﴾ جملة من كان واسمها وخبرها تذييلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ولله ما في السماوات وما في الأرض**﴾ مثل ما سبق. ﴿**وكفى بالله وكيلاً**﴾ تقدم إعراب مثلها مراراً. ﴿**إنْ**﴾ حرف شرط جازم. ﴿**يشأْ**﴾ فعل مضارع مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**يُذهبْكم**﴾ جواب الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على الله أيضاً، وضمير المخاطبين فيه مفعول به. ﴿**أيُّها**﴾ منادى مبنيٌّ على الضم في محل نصب، وها فيه للتنبيه. ﴿**الناسُ**﴾ نعت لأيُّ باعتبار لفظها. ﴿**ويأت**﴾ معطوف على يذهبكم مجزوم بحذف الياء. ﴿**بآخرين**﴾ جار ومجرور متعلق بيأت. ﴿**وكان الله**﴾ كان واسمها. ﴿**على ذلك**﴾ جار ومجرور متعلق بالخبر بعده. ﴿**قديراً**﴾ خبر كان منصوب بالفتحة، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب.

﴿**مَنْ**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**كان**﴾ فعل الشرط في محل جزم. ﴿**يُريدُ**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، وجملة يريد في محل نصب خبر كان. ﴿**ثوابَ**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**الدنيا**﴾ مضاف إلى ثواب مجرور بكسرة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذّر. ﴿**فعند**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، عند ظرف منصوب بالفتحة. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى الظرف مجرور بالكسرة، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدّم. ﴿**ثوابُ**﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة. ﴿**الدنيا**﴾ مضاف إلى ثواب مجرور بكسرة مقدّرة على الألف. ﴿**والآخرة**﴾ معطوف على الدنيا مجرور بالكسرة، وجملة فعند الله في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وكان الله سميعاً بصيراً**﴾ جملة من كان واسمها وخبرها تذييلية. ﴿**يا أيُّها**﴾ يا حرف نداء، أيُّ منادى مبني على الضم في محل نصب، ها للتنبيه. ﴿**الذين**﴾ نعت لأيُّ في محل نصب. ﴿**آمنوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**كونوا**﴾ كان واسمها. ﴿**قوّامين**﴾ خبرها منصوب بالياء. ﴿**بالقسط**﴾ جار ومجرور متعلق بقوّامين. ﴿**شهداء**﴾ خبر آخر لكان منصوب بالفتحة. ﴿**لله**﴾ جار ومجرور متعلق بشهداء. ﴿**ولو على أنفسكم**﴾ الجملة حالية، ولو فيها وصلية يُقصد منها المبالغة في الأمر المطلوب. ﴿**أو الوالدين**﴾ معطوف على أنفسكم. ﴿**والأقربين**﴾ كذلك. ﴿**إنْ يكن غنيّاً**﴾ جملة شرطية من كان واسمها وخبرها. ﴿**أو فقيراً**﴾ معطوف على

غنياً، وجملة إن يكن غنيا تعليلية. ﴿**فالله أَوْلَىٰ بهما**﴾ جملة من مبتدإ وخبر جواب الشرط في محل جزم، والرابط له الفاء، وهو دليل ناب مناب الشرط. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتفريع، لا للنهي. ﴿**تتبعوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف النون، والواو فاعل. الْهَوَىٰ مفعول به منصوب بفتحة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**أنْ تعدلوا**﴾ أنْ حرف مصدر ونصب، تعدلوا فعل مضارع منصوب بحذف النون، وواو الجماعة فاعل، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف يُقَدَّرُ على حسب مقتضى الحال، والتقدير: فلا تتبعوا الهوى منحرفين عن العدل.

﴿**وإنْ**﴾ الواو للعطف، إنْ حرف شرط جازم. ﴿**تلوُوا**﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف النون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**أو تُعرضوا**﴾ معطوف على تلووا. ﴿**فإنّ الله**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، إنّ الله إنّ واسمها. ﴿**كان**﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿**بما**﴾ جار ومجرور متعلق بالخبر بعده. ﴿**تعملون**﴾ فعل وفاعل صلةُ ما. ﴿**خبيراً**﴾ خبر كان منصوب بالفتحة، وجملة كان في محل رفع خبر إنّ، وجملة فإنّ في محل جزم جواب الشرط. ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا**﴾ تقدم إعرابها قريباً. ﴿**آمِنُوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**بالله**﴾ جار ومجرور متعلق بآمنوا. ﴿**ورسوله**﴾ معطوف على الله مجرور بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**والكتاب**﴾ معطوف على الله مجرور بالكسرة. ﴿**الذي**﴾ في محل جر نعت للكتاب. ﴿**نزّل**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة الذي. ﴿**على رسوله**﴾ جار ومجرور متعلق بنزّل، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿**والكتاب الذي أنْزَلَ**﴾ معطوف على الكتاب الذي نزّل، وهو مثله في الإعراب. ﴿**من قبلُ**﴾ جار ومجرور، غير أنّ قَبْلُ بُنِيَتْ على الضمّ لحذف المضاف إليه ونيّة معناه. ﴿**ومن يكفر**﴾ جملة شرطية. ﴿**بالله**﴾ جار ومجرور متعلق بيكفر. ﴿**وملائكته**﴾ معطوف على الله مجرور بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وكتبه ورسله واليوم الآخر**﴾ كذلك. ﴿**فقد**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، قد حرف تحقيق. ﴿**ضلّ**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**ضلالاً**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿**بعيداً**﴾ نعت له، ونعت المنصوب منصوب وعلامة نصبه الفتحة.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ويستفتونك في النساء**﴾: الجملة موصولة بما قبلها بواوالعطف؛ عَطْفُ تشريع على إيمان وحكمة وعظة. يربط الأحكام اللاحقة بالأحكام السابقة التي ذُكرت من قبلُ في أول السورة المتعلقة بالنساء واليتامى والقرابة، وذُكر بَعْدَها ما يتعلق بعبادة الله، وما يتعلق بالأحكام العامّة في أُسُسِ الدين وأصوله وأحوال أهل الكتاب والمنافقين والقتال، ثُمَّ عاد الكلامُ هنا إلى أحكام النساء لشعور الناس بالحاجة إلى زيادة البيان في تلك الأحكام. فالآيات السابقة أوجبت مراعاةِ حقوقِ الضعيفين: المرأة واليتيم، والآيات اللاحقة تبيّن أتمّ البيان لتوضح ما خفي في هذا التشريع الحكيم. . .

﴿**قل الله يفتيكم فيهن وما يُتْلَىٰ عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أنْ تنكحوهن**﴾: هذا وعد باستيفاء الإجابة عن الاستفتاء، وهو ضرب من تبشير السائل المتحيّر بأنّه قد وجد طَلَبَتَه، وذلك مثل قولهم: على الخبير سقطت. وفي تقديم اسم الجلالة (الله يفتيكم) تنويه بشأن هذه الفُتيا. وقوله: وما يُتْلَىٰ عليكم عطف على اسم الجلالة (الله) بمعنى: ويفتيكم فيهن وما يتلي عليكم في الكتاب (القرآن). وإيثار صيغة المضارع ـ يُتْلَي ـ للإيذان باستمرار التلاوة ودوامها.

وإسناد الإفتاء إلى ما يُتْلَىٰ إسناد مجازي، لأنّ ما يُتْلَىٰ دال على إفتاء الله فهو سبب فيه، فآل المعنى إلي: قل الله يفتيكم فيهن بما يُتْلَىٰ عليكم في الكتاب. ولِحَذْفِ حَرْفِ الجرّ بعد (ترغبون) هنا موقع عظيم من الإيجاز وإكثار المعنى، أي: ترغبون عن نكاح بعضهن لذمامتهن، وترغبون في نكاح بعضهن لحسنهن، فإنّ فِعْلَ رغب يتعدى بحرف (عن) للشيء الذي لا يُحَبُّ، وبحرف (في) للشيء المحبوب، فإذا حُذف حرف الجر احْتُمل المعنيين إن لم يكن بينهما تنافٍ. وقوله: في يتامى النساء الفاء للظرفية المجازية، أي: في شأنهنّ، أو للتعليل، أي: لأجلهن. وقوله: ﴿**والمستضعفين من الولدان**﴾: تكميل وإدْماج. . . ﴿**وأنْ تقوموا لليتامى بالقسط**﴾: الجملة موصولة بما قبلها بالعطف، أي: ما يتلى عليكم في القيام لليتامى بالقسط وهو شامل ليتامى النساء. . . ﴿**وما تفعلوا من خير فإنّ الله كان به عليماً**﴾: هذا تعقيب وتذييل، الغرضُ منه ربْطُ القلوب بالله والتوجيه

إلى الخير ابتغاء وجه الله، والله عليم بهذا الخير مثيبٌ عليه، فلن يَضِيعَ شيءٌ مما يُفْعَلُ مع اليتامى واليتيمات. . .

﴿وإنْ امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أنْ يصَّالحا بينهما صلحا﴾: هذا شروع في بيان ما لم يُبيّن فيما سلف من الأحكام، وفيه تحريض على الصلح بين الزوجين قَبْلَ أن يشتدَّ النزاع وينتهي بالفراق، بذكر كلمة (لا جناح)، فهي من صيغ الإباحة، فنَفْيُ الجناح من الاستعارة التلميحيّة. والمقصود الأمر بأسباب الصلح. . . والصلح خير: هذه جملةٌ تقريرية لما قبلها للأمر بالصلح والترغيب فيه. وأل في الصلح لتعريف الجنس، وهي أوْلي من تعريف العهد، لأنّ المقصود إثبات أنّ ماهية الصلح خير للناس. وقوله: خير ليس هو تفضيلا، ولكنه صفة مشبّهةٌ، وقد دلّت الآية على شدّة الترغيب في هذا الصلح بمؤكدات ثلاثة: المصدر المؤكد ـ صلحا ـ، والإظهار في مقام الإضمار ـ والصلح خير ـ، وبالصفة المشبّهة ـ خير ـ، فإنّها تدل على فعل سجيّة لازمة. . .

﴿وأُحضرت الأنفس الشح﴾: جملة تقريريّة مثل الجملة السابقة في قوله: والصلح خير، وهو تحقيق للصلح المقصود. وقوله. . . **﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾**: ففي خطاب الأزواج بطريق الالتفات، والتعبير عن رعاية حقوقهنّ بالإحسان، ولفظ التقوى المنبئ عن كون النشوز والإعراض ممّا يُتوقّى منه، وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة، والترغيب في حسن المعاملة ما لا يخفي. ثم عذّر الناس في شأن النساء فقال. . . **﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾**: أي: تمام العدل. وجاء بلن للمبالغة في النفي، لأنّ أمر النساء يُغالب النفس، فالله جعل حسن المرأة وخلقها مُؤثِّراً أشدّ التأثير، فرُبَّ امرأة لبيبة خفيفة الروح، وأخرى ثقيلة حمقاء، فتفاوتهنّ في ذلك وخلو بعضهن منه، يؤثر لا محالة تفاوتاً في محبة الزوج بعض أزواجه، ولو كان حريصاً على إظهار العدل بينهن، فلذلك قال: **﴿ولو حرصتم﴾**.

وأقام الله ميزان العدل بقوله. . . **﴿فلا تميلوا كل الميل﴾**: أي: لا يَفْرَطُ أحدُكم بإظهار الميل إلى إحداهن أشدّ الميل حتى يسوءَ إلى الأخرى، بحيث تصير كالمعلقة، فظهر أنّ متعلق تميلوا مقدر بإحداهن، وأنّ ضمير تذروها المنصوب عائد إلى غير المتعلق المحذوف بالقرينة، وهو إيجاز بديع. وقد دلّ هذا الكلام

على أنّ المحبّة أَمْرٌ قَهْرِيٌّ، وأنّ للتعلق بالمرأة أسباباً تُوجِبُهُ قد لا تتوفّر في بعض النساء، فلا يكلف الزوج بما ليس في وسعه من الحب والاستحسان، ولكنّ من الحب حظاً هو اختياري، وهو أنْ يروّض الزوج نفسه على الاحسان لامرأته، وتَحَمُّلِ ما لا يلائمه من خلقها أو أخلاقها ما استطاع، وحسن المعاشرة لها، حتى يحصل من الإلف بها والحنوّ عليها اختياراً، بطول التكرر والتعود ما يقوم مقام الميل الطبيعي. فذلك من الميل إليها الموصّى به في قوله: فلا تميلوا كل الميل، أي: إلى إحداهُنَّ أو عن إحداهن. ثم وَسَّعَ اللهُ عليهما إنْ لم تنجح المصالحة بينهما فأَذِنَ لهما في الفراق بقوله. . . **﴿وإنْ يتفرقا يُغْنِ الله كلاً من سعته﴾**: وفي قوله يغن الله كلاً من سعته إشارة إلى أنّ الفراق قد يكون خيراً لهما؛ لأنّ الفراق خير من سوء المعاشرة. ومعنى إغناء الله كُلاً: إغناؤه عن الآخر. وفي الآية إشارة إلى أنّ إغناء الله كُلاً إنّما يكون عن الفراق المسبوق بالسعي في الصلح.

وقوله. . . **﴿وكان الله واسعاً عليماً﴾**: تذييل وتَنْهِيَةٌ للكلام في حكم النساء. . . **﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض. . .﴾** الخ الآيات: جملة ولله ما في السماوات وما في الأرض معترضة بين الجمل التي قبلها المتضمنة التحريض على التقوى والإحسان وإصلاح الأعمال، من قوله: وإن تحسنوا وتتقوا. وإن تصلحوا وتتقوا، وبين جملة: **﴿ولقد وصينا. . .﴾** الآية. فهذه الجملة تضمّنت تذييلاتٍ لتلك الجمل السابقة، وهي مع ذلك تمهيدٌ لما سيذكر بعدها من قوله: **﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب. . .﴾** الخ؛ لأنّها دليل لوجوب تقوى الله. والمناسبة بين هذه الجملة والتي سبقتها ـ وهي جملة يغن الله كلاً من سعته ـ، أنّ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادرٌ على أن يُغني كُلَّ أحدٍ من سعته، وهذا تمجيدٌ لله تعالى، وتذكير بأنّه رب العالمين، وكناية عن عظيم سلطانه واستحقاقه للتقوي.

وتكررت جملة: ولله ما في السماوات وما في الأرض هنا ثلاث مرات متتالياتٍ مُتّحِدَةً لَفْظاً ومَعْنًى أصليا، ومختلفةَ الأغراض الكنائية المقصودة منها، وسبقتها جملة نظيرتهن؛ وهي ما تقدم من قوله: ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً، فحصل تكرارها أربع مرات في كلام متناسق. فأمّا الأولي السابقة، فهي واقعة موقع التعليل لجملة: **﴿إنّ الله لا يغفر**

أنْ يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، ولقوله: **﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾**، والتذييل لهما، والاحتراس لجملة: **﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾**. وأمّا الثانية التي بعدها، فواقعة موقع التعليل لجملة: يغن الله كُلاً من سعته. وأمّا الثالثة التي تليها، فهي علة للجواب المحذوف، وهو جواب قوله: **﴿وإنْ تكفروا﴾**، فالتقدير: وإنْ تكفروا فإنّ الله غَنِيٌّ عن تقواكم وإيمانكم فإنّ له ما في السماوات وما في الأرض، وكان ولا يزال غنيّاً حميداً. وأمّا الرابعة التي تليها، فعاطفة على مقدر معطوف على جواب الشرط، وتقديره: وإنْ تكفروا بالله ورسوله فإنّ الله وكيل عليكم، ووكيل على رسوله وكفى بالله وكيلاً. وجملة إنْ يشأ يذهبكم واقعةٌ موقع التفريع من قوله: غنياً حميداً.

والخطاب بقوله: **﴿أيُّها الناس﴾**: للناس كلهم الذين يسمعون الخطاب تنبيها لهم بهذا النداء. وفي الآية إشارة إلى أنّ الله سيخلف من المشركين قوماً آخرين مؤمنين، فإنّ الله أهلك بعض المشركين على شركه بعد نزول هذه الآية، ولم يشأ إهلاك جميعهم، وفي الحديث: (لعل الله أنْ يخرج من أصلابهم من يعبده)...
﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾: لما كان شأن التقوى عظيماً على النفوس؛ لأنّها يصرفها استعجال الناس لمنافع الدنيا على خيرات الآخرة، نبّهَهُم اللهُ إلى أنّ خير الدنيا بيد الله، وخير الآخرة أيضاً، فإن اتّقُوهُ نَالوا الخيرين. ويجوز أنْ تكون الآية تعليماً للمؤمنين أنْ لا يصدهم الإيمان عن طلب ثواب الدنيا؛ إذِ الْكُلُّ من فضل الله، ويجوز أنْ تكون تذكيراً للمؤمنين بأنْ لا يلهيهم طلبُ خير الدنيا عن طلب الآخرة؛ إذِ الجمع بينهما أفضل، وكلاهما من عند الله، على نحو قوله: «فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، أو هي تعليم للمؤمنين أنْ لا يطلبوا خير الدنيا من طرق الحرام، فإنّ في الحلال سعة لهم ومندوحة، وليتطلّبُوه من الحلال يُسَهِّلُ لهم الله حصوله؛ إذ الخير كله بيد الله، فيوشك أنْ يُحرم من يتطلبه من وجه لا يرضيه أو لا يبارك له فيه. والمراد بالثواب في الآية معناه اللغوي دون الشرعي، وهو الخير وما يرجع به طالب النفع من وجوه النفع، مشتق من ثاب بمعنى رجع. وعلى الاحتمالات كلها فجواب الشرط في قوله: من كان يريد ثواب الدنيا محذوف، تدل عليه علّتُه، والتقدير: من كان يريد ثواب الدنيا فلا يعرض عن دين الله، أو فلا يصدّ عن

سؤاله، أو فلا يقتصر على سؤال الدنيا فقط، أو فلا يحصله من وجوه لا تُرْضي الله تعالى، وليتطلبه من وجوه البر؛ لأنّ فضل الله يسع الخيرين، والكل من عنده سبحانه وتعالى. وقوله: ﴿**وكان الله سميعاً بصيراً**﴾ تذييل للموضوع مقرر له على التمام والكمال، أي: عالماً بجميع المسموعات والمبصرات فيندرج فيها ما صدر عنهم من الأقوال والأفعال المتعلقة بمراداتهم اندراجاً أوّليّاً. . .

﴿**يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله**﴾: انتقال من الأمر بالعدل في أحوال معينة من معاملات اليتامى والنساء، إلى الأمر بالعدل الذي يعم الأحوال كلّها، وما يقارنه من الشهادة الصادقة، فإنّ العدل في الحكم وأداء الشهادة بالحقّ هو قوام صلاح المجتمع الإسلامي، والانحراف عن ذلك ولو قَيْدَ أنْمُلَةٍ يَجُرُّ إلى فسادٍ مُتَسَلْسَلٍ. وصيغةُ قوامين دالّة على الكثرة المراد لازمها، وهو عدم الإخلال بهذا القيام في حال من الأحوال، وكلمة القسط هنا أدَقُّ من كلمة العدْل؛ لأنّ العدل أعمُّ من القسط، فالقسط ميزان دقيق. . . شهداء لله: لأجل الله لا لغرض سواه. ولم يذكر تعلق المشهود له بمتعلقه، وهو وصف شهداء؛ لإشعار الوصف بتعيينه، أي: المشهود له بحق، وقد جمعت الآية أصْلي التَّحاكُم؛ وهما القضاء والشهادة. . . ﴿**ولو على أنفسكم**﴾: يتعلق بكل من قوّامين وشهداء ليشمل القضاء والشهادة، وفي هذا مبالغة شديدة على النفس؛ لأنّ حرف على مؤذِنٌ بأنّ متعلقه شديد، فيه كلفة على المجرور بعلي، وهذا أقصى ما يبالغ عليه في الشدة والأذي، لأنّ أشقَّ شيء على المرء ما يَنالُهُ من أذى وضر على ذاته. . .

﴿**أو الوالدين والأقربين**﴾: زيادة في مبالغة الطالب وأداء الشهادة على وجهها، لأنّ أقضية القاضي وشهادة الشاهد فيما يلحق ضُرّاً ومشقةً بوالديه وقرابته أكثر من قضائه وشهادته فيما يؤول بذلك على نفسه. . . ﴿**إنْ يكن غنيّاً أو فقيراً**﴾: هذا واقع موقع العلة لمجموع جملة: كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، بمعنى إنْ يكن المُقسَط في حقه أو المشهود له غنيّاً أو فقيراً، فلا يكن غناه ولا فقره سبباً للقضاء له أو عليه، والشهادة له أو عليه. والمقصود من ذلك التحذير من التأثر بأحوال يلتبس فيها الباطلُ بالحق، لما يحفّ بها من عوارض يتوهم أنَّ رَعْيَهَا ضرْبٌ من إقامة المصالح وحراسة العدالة، فلما أبطلت الآية التي قبلها المتأثر للحمية أعقب بهذه الآية لإبطال التأثر بالمظاهر التي تستجلب النفوس إلى مراعاتها، فيتمحّضُ نظرها إليهما، وتقضي بسببها عن تمييز الحق من الباطل وتذهل عنه، فمن النفوس

من تتوهم أنَّ الغِني يربأ بصاحبه عن أخذ حق غيره، يقول في نفسه: هذا في غنية عن أكل حقّ غيره، وقد أنعم الله عليه بعدم الحاجة.

ومن الناس من يميل إلى الفقير رقّة له، فيحسبه مظلوماً، أو يحسب أنّ القضاء له بمال الغَنِيّ لا يضر الغَنِيَّ شيئاً، فنهاهم الله عن هذه التأثرات بكلمة جامعة: إن يكن غنيّاً أو فقيراً فالله أولي بهما.

وهذا التردد صالح لكل من أصحاب هذين التوهُّمين، فالذي يعظم الغَنِيَّ يدحض لأجله حق الفقير، والذي يَرِقُّ للفقير يدحض لأجله حق الغَنِيِّ، وكلا ذلك باطل، فإنّ الذي يراعي حال الغني والفقير ويقدر إصلاح حال الفريقين هو الله تعالى. فقوله: ﴿**فالله أَوْلَى بهما**﴾ ليس هو الجواب، ولكنه دليله وعلته، والتقدير: فلا يهمكم أمرهما عند التقاضي، فالله أولي بالنظر في شأنهما، وإنّما عليكم النظر في الحق، ولذلك فرع عليه قوله: ﴿**فلا تتبعوا الهوى أنْ تعدلوا**﴾، فجعل الميل نحو النفس والأقارب من الهوى، والنظر إلى الفقر والغِني من الهوى. واسم يكن ضمير عائد إلى معلوم من السياق يدل عليه قوله: قوامين بالقسط شهداء لله، من معنى التخاصم والتقاضي، والتقدير: إنْ يكن أحد الخصمين من أهل هذا الوصف أو هذا الوصف، والمراد الجنسان، وأوْ للتقسيم وتثنية الضمير في قوله: فالله أولي بهما؛ لأنّه عائد إلى (غنياً أو فقيراً) باعتبار الجنس؛ إذْ ليس القصد إلى فرد معيّن ذي غِنًى، ولا إلى فرد معين ذي فقر، بل فرد شائع في هذا الجنس وفي ذلك الجنس.

وقوله: أن تعدلوا، محذوف منه حرف الجر، كما هو الشأن مع أنْ المصدرية، فاحتمل أنْ يكون المحذوف لام التعليل، فيكون تعليلاً للنهي، واحتمل أنْ يكون المحذوف (عن)، أي: فلا تتبعوا الهوى عن العدل. وبعد أن أمر الله ونهي وحذّر، عقّب ذلك كله بالتهديد، فقال. . . ﴿**وإن تلووا أو تعرضوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً**﴾: فموقع فعل تلووا هنا موقع بليغ؛ لأنّه صالح لتقدير متعلقه المحذوف مجروراً بحرف (عن)، أو مجروراً بحرف (على)، فيشمل معاني العدول عن الحق في الحكم، والعدول عن الصدق في الشهادة، أو التثاقل في تمكين صاحب الحق من حقه، وأداء الشهادة لطالبها، أو الميل إلى أحد الخصمين في القضاء والشهادة.

وأمّا الإعراض فهو الامتناع من القضاء ومن أداء الشهادة، والمماطلة في الحكم مع ظهورالحق، وهو غيرُ الليّ كما رأيْتَ. وقوله: فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً، كناية عن وعيد؛ لأنّ الخبير بفاعل السوء، وهو قدير لايعجزه أن يعذبه على ذلك. وأُكدت الجملة بإنّ وبكان... ﴿**يا أيُها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله...**﴾ الخ الآية: هذا تذييل عُقِّب به أمر المؤمنين؛ بأن يكونوا قوّامين بالقسط شهداء لله، فأمرهم الله عقب ذلك بما هو جامع لمعاني القيام بالقسط والشهادة لله: بأنْ يؤمنوا بالله ورسوله وكتبه ويداوموا على إيمانهم، ويحذروا مسارب ما يخل بذلك. إنّ هنالك ارتباطاً خفيّاً بين التمحُّص لله والتجرد في الآية السابقة، وبين الأمر بالإيمان هنا وتهديد مَنْ يحيدون عن هذا الإيمان. إنّ قضية العدل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقضية الإيمان، فمن لم يقم بالقسط، ومن لم يشهد لله فهو في سبيله إلى الضفّة الأخرى؛ ضفة الكفر بالله والتنكر لما أنزل الله...

﴿**ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً**﴾: ضلالاً لا ترجي منه أوْبَةٌ، ولا تنتظر بعده هداية، لأنّه بعيد موغل في التيه والضلال. وجمع الكتب والرسل لما أنّ الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل. وتقديم الرسول فيما سبق لذكر الكتاب بعنوان كونه منزلاً عليه. وتقديم الملائكة والكتب على الرسل؛ لأنّهم وسائل بين الله عزّ وجلّ وبين الرسل في إنزال الكتب.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: في حكم النساء واليتامى... ﴿**ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أنْ تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأنْ تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإنّ الله كان به عليماً**﴾: أحسن الترتيبات اللائقة بالدعوة إلى الدين الحق والبعث على قبول التكاليف، هو ما عليه القرآن الكريم من اقتران الوعد بالوعيد وخلط الترغيب بالترهيب، وضم الآيات الدالة على العظمة والكبرياء إلى بيان الأحكام. فهذه الآية تدل على أنّ هناك استفتاءً وَرَدَ على النبيء ﷺ من الناس، في شأن النساء عموماً، واليتامى والصغار من الولدان خصوصا. فأُمِرَ النبيء ﷺ بأنْ يقول لهم إنّ الله يفتيكم بما نزل في الكتاب وهو يتلى عليكم، فاستمعوا له وخذوا بحكمه.

والذي يتلى عليهم ما جاء في حكم المرأة واليتيم، وهو ما تقدم في أول السورة، وأنّ الله يُذَكِرُهم بتلك الآيات المفصّلة؛ ليتدبروها ويتأمّلوا معانيها، ثم يعملوا بها؛ إذ قد جرت طبائع البشر بأن يتغافلوا عن دقائق الأحكام والعظات التي تُرجعهم عن أهوائهم، وتُؤنّبهم على اتّباع شهواتهم. وقد جرت عادة الجاهليّة أنْ لا يعطوا النساءَ والصغارَ حقوقهم في الميراث، وقد كان الرجل منهم يضم اليتيمة ومالَها إلى نفسه، فإنْ كانت جميلة تزوجها وأكل المال، وإنْ كانت ذميمة عضلها عن التزوج حتى تموت فيرثها. وكذلك المستضعفون ـ وهم الصغار ـ، فكانوا لا يعطونهم حقوقهم، إنّما كانوا يُورّثون الرجال دون النساء والأطفال، فأمرهم أنْ يقوموا لليتامى بالقسط؛ بأن يهتموا بهم اهتماماً خاصّاً ويُعْنُوا بشأنهم، ويَجْرِي العدْلُ في معاملتهم على أكمل الوجوه وأتمها؛ فإنّ ذلك هو الواجب الذي لاَ هَوَادَةَ فيه، ولا خيرة في شأنه. ثم رغّبهم في العمل بما فيه فائدة، وحبّب إليهم العدل، فقال. . . وما تفعلوا من خير فإنّ الله كان به عليماً: فكل ما يفعل الإنسان من خير، فهو مجاز به خيراً؛ لأنّ الله عليم به لا يضيع منه شيئاً.

التوجيه الثاني: في حكم المرأة المتزوجة التي تتوقع من زوجها المكروه. . . **﴿وإنْ امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أنْ يصالحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإنْ تحسنوا وتتقوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾**: معنى هذه الآية؛ إنْ توقعت إمرأةٌ من زوجها تكبُّراً وترفُّعاً عليها، بما لاح لها من مخائل ذلك وأماراته: بأنْ منعها نفسه ونفقته والمودَّة والرحمة التي تكون بين الزوجين، أو آذاها بسب أو ضرب أو نحو ذلك، أو إعراضاً عنها؛ بأن قلل من محادثتها ومؤانستها لبعض أسباب؛ من طعن في سنّ أو ذمامة أو شيء في الأخلاق، أو ملال لها أو طموح إلى غيرها أو نحو ذلك، غير أنّ الواجب على الزوجة أن لا تسارع فتظهر النفور قبل أن تتحقّق أو يغلب على ظنها، فربما كان الذي شغل الزوج عن ملاطفة الزوجة ومسامرتها ومباعلتها مسائل من مشاكل الحياة، وهي أسباب خارجية لا دخل له فيها، ولا تعلق لها بكراهيتها والجفوة عنها، وحينئذ عليها أن تعذره، وتصبر على ما لا تحب من ذلك. أما إذا استبان وتَحَقَّق عندها أنّ ذلك لكراهته إيّاها ورغبته عنها، فحينئذ لا جناح عليهما أنْ يصالحا بينهما صلحاً، وذلك بأنْ تسمح له ببعض حقها عليه في النفقة أو المبيت معها، أو بحقها كله فيهما أو في أحدهما لتبقى في عصمته مستورة محترمة.

وقد وردت في معنى هذا روايات كثيرة حصلت لبعض الزوجات، فتنازلن عن حقوقهن رغبة في بقائهن مع أزواجهن، تجدُها في كتب التفاسير. وهذا الصلح خير من الفراق كما جاء مصرحاً به في هذه الآية: والصلح خير، لأنّ رابطة الزوجية من أعظم الروابط وأحقها بالحفظ، وميثاقها من أغلظ المواثيق، وعروض الخلاف بين الزوجين وما يترتب عليه من نشوز وإعراض وسوء معاشرة من الأمور الطبيعية التي لا يمكن زوالها من البشر، وأجمل ما جاء في الإسلام لمنعه، هو المساواة بينهما في كل شيء، إلاّ القيام برئاسة الأسرة؛ لأنّه أقوى من المرأة بدناً وعقلاً وأقدر على الكسب، وعليه النفقة، كما جاء في قوله: «ولهنّ مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة»، فيجب على الرجل أن يعاشرها بالمعروف وأن يتحرى العدلَ بقدر المستطاع. . .

وأُحضرت الأنفس الشح: معناه أنّ النفوس عرضة له، فإذا عرض لها داعٍ من دواعي البذل ألمّ بها الشح والبخل ونهاها أن تبذل ما ينبغي بذله لأجل الصلح، فالنساء حريصات على حقوقهن في المبيت والنفقة وحسن العشرة، والرجال حريصون على أموالهم أيضاً، فينبغي أن يكون التسامُحُ بينهما كاملاً؛ إذْ هما قد ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بذلك الميثاق العظيم وأفضى بعضهما إلى بعض. ثم رغّب في بقاء الرابطة الزوجية جهد المستطاع فقال. . . وإن تحسنوا وتتقوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً: ومعنى ذلك أنّ إحسان العشرة فيما بينكم، باتقاء أسباب النشوز والإعراض وما يترتب عليهما من الشقاق، فإنّ الله كان خبيراً بذلك لا يخفي عليه شيء منه، فهو يجازي مَنْ أحسن بالحسنى ويثيبه على ذلك.

التوجيه الثالث: فيه بيان الفرق بين العدل الواجب تنفيذُه، والعدل الذي فوق طاقة البشر فلا يمكن تنفيذه، فقال. . . **﴿ولن تستطيعوا أن تَعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾**: مهما حرصتم على العدل والمساواة بين المرأتين حتى لا يقع ميل إلى إحداهما ولا زيادة ولا نقص، فلن تَستَطيعوا ذلك ولو قدرتم عليه لما قدرتم على إرضائها به، ومن ثَمَّ رفع الله ذلك عنكم وما كلفكم إلاّ العدل فيما تستطيعون، بشرط أنْ تبذلوا فيه وسعكم، لأنّ الباعث على الكثير من هذا الميل هو الوجدان النفسي، والميل القلبي الذي لا يملكه المرء، ولا يحيط به اختياره، ولا يملك آثاره الطبيعية، ولهذا خفّف الله ذلك عنكم، وبيّن أنّ العدل الكامل غير مستطاع ولا يتعلق به تكليف. . .

﴿فلا تميلوا كل الميل﴾: أي: إذا كان ذلك غير مستطاع فعليكم أن لا تميلوا كل الميل إلى من تحبون منهن وتعرضوا عن الأخرى. . . **﴿فتذروها كالمعلقة﴾**: أي: فتجعلوها كأنّها ليست بالمتزوجة ولا بالمطلقة؛ فإنّ الذي يغفره لكم من الميل هو ما لا يدخل في اختياركم، ولا يكون فيه تعمد التقصير أو الإهمال، أمّا ما يقع تحت اختياركم فعليكم أن تقوموا به؛ إذ لا هوادة فيه. . . **﴿وإنْ تصلحوا وتتقوا فإنّ الله كان غفوراً رحيماً﴾**: وإنْ تصلحوا في معاملة النساء وتتقوا ظلمهن وتفضيل بعضهن على بعض فيما يدخل في اختياركم، مثل المبيت والنفقة، فإنّ الله يغفر لكم ما دون ذلك مما لا يدخل في اختياركم، مثل الحب القلبي وزيادة الإقبال وغير ذلك.

وفي الآية عبرة وعظة لمن تأملها من عُبّاد الشهوات الذين لا يقصدون من الزوجية إلاّ التمتع باللذات الحيوانية دون مراعاة أهم الأُسُس التي بُنيت عليها الحياة الزوجية التي ذكرها الله في قوله: «ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة»، ولا يلاحظون أمر النسل وإصلاح الذرية ـ هؤلاء السفهاء الذواقون الذين يكثرون من الزواج ما استطاعوا، ولا بَاعِثَ لهم إلاّ حب التنقل والملل من السابقة، ولا يخطر لهم أمر العدل في بال ـ، عليهم أنْ يتّقوا ويُفكروا في ميثاق الزوجية وفي حقوقها المؤكدة، وفي عاقبة نسلهم وشؤون ذريتهم وفي حال أمتهم التي تتألف من هذه البيوت المبنية على أُسس الشهوات والأهواء، وفي حال ذريتهم التي تنشأ من أمهات متعاديات.

التوجيه الرابع: في بيان ما إذا فشلت محاولة الصلح بين الزوجين، وأن لا وفاق يمكن بينهما فعلى كل واحد أنْ يذهب إلى سبيله. . . **﴿وإنْ يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً﴾**: وإنْ يتفرق الزوجان اللذان يخافان ألاّ يقيما حدود الله؛ بأنْ كره الرجل امرأته لذمامتها أو كبرها وأراد أن يتزوج غيرها، أو كان عنده زوجان ولم يقدر على العدل بينهما، يغن الله كلاً منهما عن صاحبه بسعة فضله ووافر إحسانه وجوده، فقد يسخر للمرأة رجلاً خيراً منه، كما يهيئ له امرأة أخرى تحصنه وترضيه وتقوم بشؤون بيته وأولاده، ولن يكون كل منهما جديراً بعناية الله وإغنائه عن الآخر، إلاّ إذا التزما حُدُودَ الله، بأن اجتهدا في الوفاق والصلح وظهر لهما بعد التفكير والتروّي في الأسباب، أنّه غير مستطاع،

فافترقا وهما حافظان لكرامتهما عمّا يجعلهما عُرْضَة للنقد ونهش العِرْضِ. وكان الله واسعاً حكيماً: وكان الله ولا يزال واسع الفضل والرحمة، حكيماً فيما شرعه من الأحكام التي جعلها وفق مصالح العباد.

التوجيه الخامس: فيه دعوة الناس جميعاً إلى الإيمان والتقوى والتحذير من الكفر... ﴿**ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتقوا الله وإنْ تكفروا فإنّ لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيّاً حميداً. ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً. إنْ يشأ يذهبْكم أيُّها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً. من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً**﴾: فالوصية التي تذكر هنا هي تقوى الله؛ هي وصيّة الله للذين أوتوا الكتاب من قبلُ، وللمسلمين من بعد.

التقوى ذلك الإحساس الخاص برقابة الله، وبأنّ الله أقرب إلى الإنسان من نفسه، وما يشعُّه ذلك الإحساسُ في القلب البشري من حساسية وإرهاف. فهنا يجمل هذه الوصية ويفردها؛ لأنّ الجوّ في حاجة إلى مشاعرالتقوى وحساسية الوجدان. وإنْ تكفروا فإنّ لله ما في السماوات وما في الأرض، فهو غني عنكم إن يشأ يذهبكم - أيّها الناس - ويأت بآخرين يحققون وصيّته؛ إذا أنتم لم تُحقّقوها، وكان الله على ذلك قديراً. وإذا كنتم تتعجلون ثواب الدنيا، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة جميعاً. وابتغاء ثواب الدنيا يقتضي التوجه لله، كابتغاء ثواب الآخرة، لأنّه هوالذي يعطي هذا وذاك. وله ما في السماوات وما في الأرض، وما من أحد يملك عطاء ولا حرماناً سواه. إنّ الجو كله جوُّ توجيه للمشاعر والاتجاهات إلى الله؛ لكي تستشعر القلوب أنّها ملك يديه، وأنّ الخير كله في ابتغاء رضاه، وفي تنفيذ وصاياه!.

التوجيه السادس: في دعوى المؤمنين الصادقين بأنْ يقوموا بالعدل المطلوب منهم تنفيذُه... ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إنْ يكن غنيّاً أو فقيراً فالله أَوْلَى بهما فلا تتبعوا الهوى أنْ تعدلوا وإنْ تلووا أو تعرضوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً**﴾: إنّها الأمانة التي نيطت بكم في الأرض يا أيُّها الذين آمنوا، أمانة القسط والعدل ودفع

البغي والظلم فلتنهضوا بها، بل لتكونوا قوّامين لا تكلوا ولا تفتروا عن القيام؛ لتكونوا قوّامين بالقسط، غير متعلق هذا القسط بأمر دون أمر، ولا بقضيّة دون قضيّة، إنّما هو القسط المطلق والعدل المجرّد.

وكونوا شهداء، فهي إذَنْ حُسْبَةٌ لله لا لحساب أحد من المشهود عليهم أو المشهود لهم، وهي إذن تجرد لله من كل ميل ومن كل هوًى ومن كل مصلحة، وهي إذَنْ وظيفة عند الله لا عند قاضٍ ولا متقاضٍ. ومتى كانت لله على هذا النحو فقد خلصت من كل تأثير، وقد تجردت عن النفس والوالدين والأقربين: ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، كما تجرّدت عن كل الاعتبارات والقيم الأرضية المتعلقة بدنيا الناس: إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولي بهما، فما يهم أنْ يكون المشهود له أو عليه غنيّاً أو فقيراً، وقد ارتفع الأمر كله عن أن يكون لملابساتِ هذه الأرض دخْلٌ فيه، منذ أن دعوا إلى التجرُّد عن كل شيء سوى الله، ومنذ أنْ دعوا إلى أنْ يكونوا شهداء لله. فأين يذهب الميل إلى النفس أو الميل إلى الوالدين والأقربين في هذا المرتقى العلويّ الكريم؟! وأين تذهب اعتبارات الغني والفقر في هذا المجال الإلهي العظيم؟! وإلاّ تكن الشهادة لله، فهي إذن للهوى: فلا تتبعوا الهوى أنْ تعدلوا، لا تتبعوا الهوى فيمنعكم أن تعدلوا، ويلوى بكم عن العدل، أو يصدكم عن الحق: وإن تلووا أو تعرضوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً، وهو تهديد خفيٌّ يدركه الذين آمنوا ولا يجهلونه، إنّه التهديد بخبرة الله تعالى العميقة بالنوايا والاتجاهات، والتهديد بعاقبة هذه الخبرة حين تلتوي الطوايا وتفسد النيات، وحين ينصرف الناس عن العدل المطلق إلى الهوي والشهوات.

التوجيه السابع: الدعوة إلى الإيمان الخالص والتهديد بسوء العاقبة لمن يخالف هذه الدعوة... ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً**﴾: في هذا التوجيه خمسة مسالك يستطيع المتتبع لآراء المفسرين أن يستخلصها منهم، على وحي ما تُومي إليه كلمة آمَنُوا المتبعة بكلمة آمِنُوا. المسلك الأول: تأويل الإيمان في قوله: يا أيُّها الذين آمنوا بأنّه إيمان مختل منه بعض ما يحق الإيمان به، فيكون فيها خطاب لنفر من اليهود

آمنوا واشترطوا أن يكون إيمانُهم بالقرآن والتوراة دون الإنجيل.

المسلك الثاني: أن يكون التأويل في الإيمان المأمور به، أنّه إيمان كامل لا تشوبه كراهية بعض كتب الله، تحذيراً من ذلك. فالخطاب للمسلمين؛ لأنّ وصف الذين آمنوا صار كاللقب للمسلمين، ولا شك أنّ المؤمنين قد آمنوا بالله وما عطف على اسمه هنا، فالظاهر أنّ المقصود بأمرهم بذلك؛ إمّا زيادة تقرير ما يجب الإيمان به، وتكرير استحضارهم إيّاه حتى لا يذهلوا عن شيء منه اهتمام بجميعه، وإمّا النهي عن إنكار الكتاب المنزل على موسى وإنكار نبوته، لئلا يدفعهم بغض اليهود، وما بينهم وبينهم من الشنآن إلى مقابلتهم ما يصرح به اليهود من تكذيب محمد ﷺ، وإنكار نزول القرآن. وإمّا أريد به التعريض بالذين يزعمون أنّهم يؤمنون بالله ورسله، ثم ينكرون نبوءة محمد ﷺ وينكرون القرآن حسداً من عند أنفسهم، ويكرهون بعض الملائكة لذلك وهم اليهود، والتنبيه على أنّ المسلمين أكمل الأمم إيماناً، وأوْلَى الناس برسل الله وكتبه، فهم أحرياء بأن يسودوا غيرهم؛ لسلامة إيمانهم من إنكار فضائل أهل الفضائل، ويدل لذلك قوله عقبه: ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه، ويزيد ذلك تأييداً أنّه قال: واليوم الآخر، فعطفه على الأشياء التي من يكفر بها فقد ضل، مع أنّه لم يأمر المؤمنين بالإيمان باليوم الآخر فيما أمرهم به، لأنّ الإيمان به يشاركهم فيه اليهود فلم يذكره فيما يجب الإيمان به، وذكره بعد ذلك تعريضاً بالمشركين. المسلك الثالث: أن يراد بالأمر بالإيمان الدوام عليه تثبيتاً لهم على ذلك، وتحذيراً لهم من الارتداد، فيكون هذا الأمر تمهيداً وتوطئة لقوله: ومن يكفر بالله. المسلك الرابع: أنّ الخطاب للمنافقين، يعني: يا أيّها الذين أظهروا الإيمان أخلصوا إيمانكم حقّاً.

المسلك الخامس: أنّه طلب لثباتهم على الإيمان الذي هم عليه، وهو المختار والمشهور، حيث جعل العلماء الآية هذه شاهداً لاستعمال صيغة الأمر في طلب الدوام. وعلى كل حال تحتوي الآيات جميعُ الأقوال التي تقدمت في المسالك الخمسة، والعبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقال.

وحكم من فرّق بين كتب الله ورسله فآمن ببعض وكفر ببعض كاليهود والنصارى، فلا يعتد بإيمانه، لأنّه إمّا اتّباعٌ للهوي، أو تقليد الآباء عن جهل وغباء!.

ذلك أنّ سر الرسالة هي الهداية، ولم يكن بعض النبيئين فيها بأكمل من بعض، فإذا كفر ببعض الكتب أو الرسل كان كفره بها دليلا على أنّه لم يؤمن بشيء منها إيماناً صحيحاً مبْنِيّاً على فهم حقيقتها والبصر بحكمتها، وكل ذلك من الضلال البعيد عن طريق الهداية.

9 ـ توجيه السياق إلى المزيد من توضيح النفاق

النص

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا
كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿136﴾
* بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿137﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ
الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿138﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ
أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا
مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ
إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿139﴾
الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ
قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ
قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ
فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿140﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ
وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ
وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿141﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ

هَٰؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿142﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿143﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿144﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿145﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿146﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

الإيمان هنا الثقة وقبول الشريعة، والمتصف بهما مؤمن صادق، والمتصف بأضدادهما المنافق. وزيادة الكفر بلوغ منتهى الجحودِ بالدين. . . ﴿**لم يكن الله ليغفر لهم**﴾: هذه الصيغة وضعت للدلالة على أنّ اسم كان لم يجعل ليصدر منه خبرها، ولا شك أنّ الشيء الذي لم يجعل لشيء يكون نابياً عنه، لأنّه ضد طبعه، ولقد أبدع النحاة في تسمية اللام التي بعد كان المنفية (لام الجحود). . . ﴿**ولا ليهديهم سبيلاً**﴾: مثل ما كان الله ليغفر لهم في تأدية المعني. وهداية السبيل: الإرشاد إلى ما فيه بغية القاصد، والسبيل هنا: دين الإسلام، فالمتقون يهتدون إليه، والمعاندون لا يهتدون لأنّهم لا يتدبّرون. . . ﴿**بشّر المنافقين**﴾: التبشير: هو الْخَبَرُ بما يفرح المُخْبَرَ به، فجاء على طريقة التهكم، وللعرب في التهكم أساليب. والمنافقون: جمع منافق، وهو من ينافق في الدين بإظهاره وستر كفره. . . ﴿**الذين**

يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾: يوالونهم ويجعلونهم أنصاراً متجاوزين ولاية المؤمنين. أيبتغون عندهم العزة: أيطلبون بموالاة الكفرة القُوَّةَ والغَلَبَة والمنعة... **﴿فإنّ العزة لله جميعاً﴾**: لا عزّة إلاّ بالله فإنّ الاعتزاز بغيره باطل، كما يقال: من اعتز بغير الله ذل...

﴿وقد نُزّل عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزؤ بها﴾: وقد نَزّلَ اللهُ عليكم الحكم في القرآن: إذا سمعتم كلاماً يقصد به الكفر والاستهزاء بأحكام الله... **﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾**: إنّكم إذن مثلهم. الهزؤ: السخرية والمذمّة والتحقير. والخوض: الدخول في الشيء، وأصله الدخول في الماء، ومعناه هنا الدخول في كلام غير المقصود منه السخرية بالدّين، ومعنى حتى هنا: هي حرف يعطف غاية الشيء عليه، فالنهي عن القعود معهم غايته أن يكفوا عن الخوض في الكفر بالآيات والاستهزاء بها. ومعنى إذنْ هنا: هي حرف جواب وجزاء لكلام ملفوظ به أو مُقدَّرٌ، والمجازاة هنا لكلام مقدر دلّ عليه النهي عن القعود معهم. ووقوع إذن لكلام مقدر شائع في كلام العرب. ومعنى المثلية هنا على اعتبار المخاطب...

﴿الذين يتربصون بكم﴾: التربص هنا: انتظار الخير أو الشر بهم، وأصله المكث بالمكان، فالمنافقون يمكثون قابعين في مكان آمن يتربصون ماذا يكون من نصر أو هزيمة؛ فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم؟! والفتح الانتصار، والنصيب ما يحصل عليه الكافرون من بعض المال أو بعض الأسرى... **﴿وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾**: الاستحواذ: الغلبة والإحاطة والاستيلاء، ومعناه هنا: ألم نتولّ شؤونكم ونحيط بكم إحاطة العناية والنصرة ونمنعكم من المؤمنين من أن ينالكم بَأْسُهم؟!.. **﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾**: المراد بالسبيل طريق الوصول إلى المؤمنين بالهزيمة والغلبة...

﴿إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾: الخداع مصدر خادع، وهو يدل على معنى المحاولة للخدع، والخدع: الختل وإرادة المكروه بمن لا يعلم، والمخادعة هنا: إظهار غير ما في النفس، ومعنى وهو خادعهم: فاعل بهم مايفعل الغالب في الخداع، حيث عصموا دماءهم وأموالَهم بما ظهر من أقوالهم...

﴿**وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى**﴾: وكسالى جمع كسلان، والكسلان: المتصف بالكسل، وهو الفتور في الأفعال لسآمة أو كراهية، والكسل في الصلاة مُؤْذِن بقلة اكتراث المصلّي بها وزهده في فعلها، فلذلك كان من شيم المنافقين... ﴿**يراءون الناس**﴾: يقصدون بصلاتهم الناس... ﴿**ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً**﴾: يُصلُّون للناس أمام الناس، وهذا ذكر لا يُعْتَدُّ به عند الله...

﴿**مذبذبين بين ذلك**﴾: مذبذبون: جمع مذبذَب اسم مفعول من الذبذبة يقال ذبذبة متذبذب والذبذبة: شبه الاضطراب من خوف أو خجل. قيل: إن الذبذبة مشتقّة من تكرير ذبّ إذا طُرِدَ، لأنّ المطرود يعجل ويضطرب، فهو من الأفعال التي أفادت كثرة المصدر بالتكرير، مثل زلزل ولملم بالمكان وصلصل وكبكب... ﴿**إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار**﴾: الدرك: اسم جمع دَرَكة، ضد الدرج اسم جمع درجة، والدركة المنزلة في الهبوط، فالشيء الذي يقصد أسفله تكون منازل التدلي إليه دركات، والشيء الذي يقصد أعلاه تكون منازل الرقي إليه درجات.

مبحث الإعراب

﴿**إنّ الذين**﴾ إنّ واسمها. ﴿**آمنوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**ثم كفروا**﴾ معطوف على آمنوا. ﴿**ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا**﴾ كلها جُمَلٌ معطوفة على ما قبلها. ﴿**كُفْراً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**لم**﴾ حرف نفي وجزم. ﴿**يكن الله**﴾ يكن مجزوم بلم وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين، الله اسمُ يكن مرفوع بالضمة. ﴿**ليغفر**﴾ اللام لام الجحود، يغفر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بيغفر، وخبر يكن محذوف، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور باللام متعلق بالخبر، والتقدير: لم يكن الله مريداً لغفرانهم، وجملة لم يكن في محل رفع خبر إنّ في قوله: إنّ الذين آمنوا... الخ. ﴿**ولا ليهديهم**﴾ معطوف على ليغفر لهم. ﴿**سبيلاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**بشّر**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**المنافقين**﴾ مفعول به منصوب بالياء. ﴿**بأنّ**﴾ الباء حرف جر، أنّ حرف مصدر ونصب. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر أنّ مُقدّم. ﴿**عذاباً**﴾ اسم أنّ منصوب بالفتحة. ﴿**أليماً**﴾ نعت له منصوب بالفتحة، وأن واسمها وخبرها

في تأويل مصدر مجرور بالباء متعلق ببشّر، والتقدير: بشر المنافقين بكون العذاب الأليم ثابتاً لهم. ﴿**الذين**﴾ اسم موصول في محل نصب بيان للمنافقين. ﴿**يتخذون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**الكافرين**﴾ مفعول أول. ﴿**أولياءَ**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**من دون**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل يتخذون. ﴿**المؤمنين**﴾ مضاف إلى دون مجرور بالياء. ﴿**أيبتغون**﴾ الهمزة للاستفهام، يبتغون فعل وفاعل. ﴿**عندهم**﴾ ظرف منصوب بالفتحة متعلق بالفعل قبله، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**العزة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿**فإنّ**﴾ الفاء للعطف، وإنّ للتعليل. ﴿**العزة**﴾ اسم إنّ منصوب بالفتحة. ﴿**لله**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**جميعاً**﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر، والجملة تعليلية لامحل لها من الإعراب.

﴿**وقد**﴾ الواو للحال، وقد للتحقيق. ﴿**نُزّل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بنزل نائب الفاعل. ﴿**في الكتاب**﴾ جار ومجرور متعلق بنزل. ﴿**أنْ**﴾ تفسيرية. ﴿**إذا سمعتم**﴾ فعل وفاعل مضاف إلى الشرط وهو فعله. ﴿**آيات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة، لأنّه جمع مؤنث سالم. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى آيات مجرور بالكسرة. ﴿**يكفر**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿**بها**﴾ متعلق بيكفر نائبُ الفاعل. ﴿**ويستهزؤ بها**﴾ معطوف على يكفر، وجملة يكفر بها حال من الآيات، وجملة إذا سمعتم آيات الله مفسّرة لا محل لها من الإعراب، وجملة وقد نزل عليكم، في محل نصب حال من المنافقين. ﴿**فلا**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، ولا للنهي. ﴿**تقعدوا**﴾ فعل وفاعل، وهو مجزوم بلا الناهية. ﴿**معهم**﴾ ظرف منصوب بالفتحة متعلق بالفعل قبله، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**حتى يخوضوا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى منصوب بحذف النون، والواو فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور، والتقدير فلا تقعدوا معهم إلى تغيير كلامهم بكلام غيره. ﴿**في حديث**﴾ جار ومجرور متعلق بيخوضوا. ﴿**غيره**﴾ نعت لحديث، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إنّكم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**إذنْ**﴾ حرف جواب وجزاء لا عمل له هنا. ﴿**مثلهم**﴾ خبرُ إنّ مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**جامعُ**﴾ خبرُها مرفوع بالضمة. ﴿**المنافقين**﴾ مضاف إلى جامع مجرور بالياء. ﴿**والكافرين**﴾ معطوف على المنافقين.

﴿في جهنم﴾ جار ومجرور متعلق بجامع. **﴿جميعاً﴾** حال منصوب بالفتحة. **﴿الذين﴾** اسم موصول بيان للمنافقين. **﴿يتربصون﴾** فعل وفاعل صلة الذين. **﴿بكم﴾** جار ومجرور متعلق بيتربصون. **﴿فإنْ﴾** الفاء للترتيب، إنْ حرف شرط جازم. **﴿كان﴾** فعل الشرط. **﴿لكم﴾** جار ومجرور خبر كان مُقدّم. **﴿فتحٌ﴾** اسمها مؤخّر. **﴿من الله﴾** جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لفتح. **﴿قالوا﴾** فعل وفاعل جواب الشرط. **﴿ألم﴾** الهمزة للاستفهام، ولم للنفي. **﴿نكن﴾** مجزوم بلم، واسمها ضمير (نحن). **﴿معكم﴾** متعلق بمحذوف خبر نكن، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة ألم نكن مقول القول في محل نصب. **﴿وإنْ كان للكافرين نصيب﴾** معطوف على فإنْ كان لكم فتح. **﴿قالوا ألم نستحوذ﴾** مثل قالوا ألم نكن معكم. **﴿عليكم﴾** جار ومجرور متعلق بنستحوذ. **﴿ونمنعْكم﴾** معطوف على نستحوذ مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير (نحن)، وكاف المخاطبين مفعول به. **﴿من المؤمنين﴾** جار ومجرور متعلق بنمنعكم. **﴿فالله﴾** الفاء فاء الفصيحة، الله مبتدأ مرفوع بالضمة. **﴿يحكم﴾** فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. **﴿بينكم﴾** ظرف منصوب بالفتحة متعلق بيحكم، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿يوم﴾** ظرف كذلك. **﴿القيامة﴾** مضاف إلى يوم مجرور بالكسرة، وجملة فالله يحكم جوابية لا محل لها من الإعراب.

﴿ولن﴾ الواو حرف عطف، لن حرف نفي ونصب. **﴿يجعل﴾** فعل مضارع منصوب بالفتحة. **﴿الله﴾** فاعل مرفوع بالضمة. **﴿للكافرين﴾** جار ومجرور متعلق بيجعل. **﴿على المؤمنين﴾** جار ومجرور متعلق بما بعده. **﴿سبيلاً﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿إنّ المنافقين﴾** إنّ واسمها. **﴿يخادعون﴾** فعل مضارع مرفوع بالنون، والواو فاعل، والجملة في محل رفع خبر إنّ. **﴿الله﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿وهو خادعهم﴾** جملة من مبتدإ وخبرٍ معطوفة على إنّ المنافقين يخادعون. **﴿وإذا﴾** الواو للعطف، إذا ظرف متضمن معنى الشرط. **﴿قاموا﴾** فعل وفاعل؛ فعل الشرط في محل جر مضاف إلى إذا.

﴿إلى الصلاة﴾ جار ومجرور متعلق بقاموا. **﴿قاموا﴾** جواب الشرط. **﴿كسالى﴾** حال من الواو في قاموا منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. **﴿يراءون﴾** فعل وفاعل، والجملة في محل نصب حال من

صاحب الحال الأول. ﴿**الناس**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**ولا يذكرون**﴾ معطوف على يراءون. ﴿**الله**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**قليلاً**﴾ منصوب بالفتحة. ﴿**مذبذبين**﴾ حال من فاعل يراءون. ﴿**بين**﴾ ظرف منصوب بالفتحة متعلق بمذبذبين. ﴿**ذلك**﴾ في محل جر مضاف إلى الظرف. لا حرف نفي. إلى هؤلاء جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من مذبذبين. ﴿**ولا إلى هؤلاء**﴾ مثلها، أي: مذبذبين غير منتسبين إلى هؤلاء ولا منتسبين إلى هؤلاءِ. ﴿**ومن**﴾ الواو للعطف، مَن اسم شرط جازم. ﴿**يضلل**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل مرفوع بالضمة. ﴿**فلن**﴾ الفاء رابطة للجواب، لن حرف نفي ونصب. ﴿**تجد**﴾ فعل مضارع منصوب بالفتحة، والفاعل ضمير (أنت). ﴿**له**﴾ جار ومجرور متعلق بتجد. ﴿**سبيلاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، وجملة فلن تجد في محل جزم جواب الشرط.

﴿**يا أيُّها الذين آمنوا**﴾ إعرابها معلوم. ﴿**لا تتخذوا**﴾ لا ناهية، تتخذوا فعل مضارع مجزوم بحذف النون، والواو فاعل. ﴿**الكافرين**﴾ مفعول أول. ﴿**أولياء**﴾ مفعول ثانٍ.

﴿**من دون**﴾ جار ومجرور متعلق بلا تتخذوا. ﴿**المؤمنين**﴾ مضاف إلى دون مجرور بالياء. ﴿**أتريدون**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه همزة الاستفهام. ﴿**أنْ تجعلوا**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه أنْ المصدرية الناصبة، وهي وما دخلت عليه في تأويل مصدر. ﴿**لله**﴾ جار ومجرور متعلق بالفعل قبله. ﴿**عليكم**﴾ كذلك. ﴿**سلطاناً**﴾ مفعول به. ﴿**مبينا**﴾ نعت له. ﴿**إنّ المنافقين**﴾ إنّ واسمها. ﴿**في الدرك**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**الأسفل**﴾ نعت للدرك. ﴿**من النار**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الدرك. ﴿**ولن تجد لهم نصيراً**﴾ الواو للعطف، لن للنفي والنصب، تجد منصوب بالفتحة وفاعله ضمير (أنت)، له جار ومجرور متعلق بما بعده، نصيراً مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب على الاستثناء. ﴿**تابوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**وأصلحوا**﴾ معطوف على تابوا. ﴿**واعتصموا بالله**﴾ كذلك. ﴿**وأخلصوا دينهم لله**﴾ مثلها. ﴿**فأولئك**﴾ الفاء للتعقيب، أولئك في محل رفع مبتدأ. ﴿**مع**﴾ ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدإ.

﴿**المؤمنين**﴾ مضاف إلى الظرف. ﴿**وسوف**﴾ الواو للعطف، سوف حرف يدل على زمن مستقبل. ﴿**يؤتى**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل مرفوع بالضمة. ﴿**المؤمنين**﴾ مفعول أول. ﴿**أجراً**﴾ مفعول ثان. ﴿**عظيماً**﴾ نعت له. ﴿**ما**﴾ اسم استفهام. ﴿**يفعل**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة. ﴿**الله**﴾ فاعل. ﴿**بعذابكم**﴾ جار ومجرور متعلق بيفعل، والضمير فيه مضاف إليه، وما الاستفهامية مبتدأ، وجملة يفعل الله بعذابكم خبره، أي: أيُّ شيء يستفاد من تعذيبكم؟. لا شيء!. ﴿**إنْ**﴾ حرف شرط جازم. ﴿**شكرتم**﴾ فعل الشرط. ﴿**وآمنتم**﴾ معطوف عليه، وجواب الشرط دل عليه الاستفهام السابق، أي: إنْ شكرتم فلا يعذبكم؛ لأنّ تعذيبكم كان بسبب كفركم لا بسبب نفع يعود على الله. ﴿**وكان الله شاكراً عليماً**﴾ جملة من كان واسمها وخبرها عُطفت تذييلا على ما سبق مما يترتب على الجحود والكفر، وما يترتب على الإيمان والشكر.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**إنّ الذين آمنوا ثم كفروا...**﴾ الخ الآية: إنّ الآية تبيّن وتوضّح حال من يتلاعب ويتأرجح من إيمان إلى كفر ومن كفر إلى إيمان، ثم يرميه هذا التأَرْجُحُ إلى تيه الضلال البعيد الذي لا رجوع بعده إلى الهدى من جديد!. فيدخل في الآيات كلُّ ما ذُكرَ في الروايات من يهود ونصارى ومنافقين، ومن اقتفى أثرهم من المخادعين إلى يوم الدين. وفي الآية توكيدات عدة من أولها إلى آخرها، وما على المسلم إلاّ أن يمعن النظر فيها!..

﴿**بشر المنافقين بأنّ لهم عذابا أليما**﴾: لما كان التظاهر بالإيمان مع ما يخفى أصحابه من الكفر ضرباً من التهكم بالإسلام وأهله، جيء في جزاء عملهم بوعيد مناسب لتهكمهم واستهزائهم بمن دخل مخلصا في الدّين، فجاء به على طريقة التهكم إذ قال: بشر المنافقين!.. ﴿**الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين**﴾: تدل هذه الجملة على شيئين: الشيء الذي يجعل الشخص منافقاً ليكون دليلاً واضحاً على نفاقه. الشيء الذي يستحقه المنافق جزاء لنفاقه. الأول اتخاذ الكافرين أولياء. الثاني: تبشيرهم بالعذاب، وقدم الثاني في الذكر تعجيلاً بهذا التبشير الخطير.

﴿**أيبتغون عندهم العزة**﴾؟: في ذلك إيماء إلى أنّ المنافقين لم تكن موالاتهم للمشركين لأجل المماثلة في الدين والعقيدة، لأن معظم المنافقين من اليهود، بل اتخذوهم ليعتزُّوا بهم على المؤمنين، وإيماء إلى أنّ المنافقين شعروا بالضعف فطلبوا الاعتزاز بالمشركين، وفي ذلك نهاية التجهيل والذم. والاستفهام إنكارٌ وتوبيخ، ولذلك صح التفريعُ عليه بقوله: فإنّ العزّة لله جميعا... ﴿**وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزؤ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره**﴾: هذا خطاب للمنافقين بطريق الالتفات مفيد لتشديد التوبيخ الذي يستدعيه تعداد جناياتهم.

وهذه الجملة حالية مفيدة لكمال قباحة حالهم ونهاية استعصائهم عليه سبحانه، ببيان أنّهم فعلوا ما فعلوا من موالاة الكفرة مع تحقق ما يمنعهم من ذلك، وهو ورود النهي الصريح عن مجالستهم، المستلزم للنهي عن موالاتهم على أبلغ وجه وآكده، إثر بيان انتفاء ما يدعوهم إليه بالجملة المعترضة، كأنّه قيل: تتخذونهم أولياء والحال أنّ الله تعالى قد نَزّل عليكم قبل هذا في الكتاب: أنْ إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويُستهزؤ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وذلك قوله تعالى: «وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره». وهذا يقتضي الانزجار عن مجالستهم في تلك الحالة القبيحة، فكيف بموالاتهم والاعتزاز بهم؟!. ﴿**إنّكم إذنْ مثلُهم**﴾: هذا استلزام لما حصل من المنافقين من الموالاة للكافرين والاعتزاز بهم والكفر والاستهزاء بآيات الله...

﴿**إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً**﴾: هذا إعلام بأنّ الفريقين سواء في عداوة المؤمنين، ووعيد للمنافقين بعدم جدوى إظهارهم الإسلام... ﴿**الذين يتربصون بكم**﴾: تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين بتعديد بعضٍ آخَرَ من جنايات المنافقين وقبائحهم، وزيادة في الدليل على كفرهم... ﴿**فإنْ كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإنْ كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين**﴾: هذا تفسير للتربص وزيادة توضيح لموقف المنافقين... ﴿**فالله يحكم بينكم يوم القيامة**﴾: هذا الكلام إنذار للمنافقين واستبشار للمؤمنين؛ بأنّ الله سيجازي كُلَّ فريق بما عمل، ويعطي كل ذي حق حقَّه!. هذا في الآخرة، أمّا في الدنيا فلابد من نصر المؤمنين...

﴿**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً**﴾: وهذا تثبيت للمؤمنين؛ لأنّ مثل هذه الأخبار عن دخائل الأعداء وتألبهم؛ من عدوّ مجاهرٍ بكفره، وعدو مصانع مظهر للأخوة، وبيان هذه الأفعال الشيطانية البالغة أقْصى المكرِ والحيلة، يثير مخاوف في نفوس المسلمين، وقد يخيل لهم مهاوي الخيبة في مستقبلهم، فكان من شأن التلطف بهم أن يعقب ذلك التحذير بالشد على العضد والوعد بحسن العاقبة، فوعدهم الله بأن لايجعل للكافرين ـ وإن تألبت عصاباتهم واختلفت مناحي كفرهم ـ سبيلاً على المؤمنين. والمراد بالسبيل طريق الوصول إلى المؤمنين بالهزيمة والغلبة بقرينة تعدّيه بعلي، ولأنّ سبيل العدو إلى عدوه هو السعي إلى مضرّته، ولو قال لك الحبيب: لا سبيل إليك لتحسّرت، ولو قال لك العدو: لا سبيل إليك لتهللت بِشْراً. فإذا عُدِّيَ بعلي صار نصاً في سبيل الشر والأذي، فالآية وعد محض دنيويّ، وليست من التشريع في شيء، ولا من أمور الآخرة في شيء لنبوّ المقام عن هذين. . .

﴿**إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم**﴾: في هذا زيادة بيان لمساوي المنافقين، والمناسبة ظاهرة، وتأكيد الجملة بحرف إنّ لتحقيق حالتهم العجيبة، وتحقيق ما عقبها من قوله: وهو خادعهم. ومعنى وهو خادعهم: قابلهم بمثل صنيعهم، فكما كان فعلهم مع المؤمنين المتبعين أمر الله ورسوله، خداعاً لله تعالى، كأن إمهال الله لهم في الدنيا حتى اطمأنوا وحسبوا أنّ حِيلَتَهم وكيْدَهم رَاجا على المسلمين وأنّ الله ليس ناصرهم. وإنذاره المؤمنين بكيدهم حتى لا تنطلي عليهم حِيَلُهم، وتقدير أخذه إياهم بأَخَرَة، شبيهاً بفعل المخادع جزاءً وفاقاً. فإطلاق الخداع على استدراج الله إيّاهم استعارة تمثيلة وحسَّنَتْها المشاكلة؛ لأنّ المشاكلة لا تَعْدُو أن تكون استعارة لفظ لغير معناه مع مزيد مناسبة مع لفظ آخر مثل اللفظ المستعار. فالمشاكلة ترجع إلى التلميح. . . ﴿**وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى**﴾: فكسالى حال لازمة من ضمير قاموا؛ لأنّ قاموا لا يصلح أن يكون وحده لإذا التي شرطها، لأنّه لو وقع مجرداً لمكان الجواب عين الشرط، فلزم ذكر الحال كقوله تعالى: «وإذا مَرُّوا باللغو مرّوا كِراماً». وجملة يراءون الناس حال ثانية، والمفاعلة هنا لمجرد المبالغة في الإراءة، وهذا كثير في باب المفاعلة. . .

﴿**مذبذبين بَين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء**﴾: هذا جامع لكل خصال

النفاق التي تقدّمت. والإشارة بقوله: بين ذلك إلى ما استُفيد من قوله: يراءون الناس، لأنّ الذي يقصد من فعله إرضاءَ الناسِ لا يلبث أن يصير مذبذباً، إذ يجد في الناس أصنافاً متباينة المقاصد والشهوات. وجملة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء صفة لقصد الكشف عن معناه، لما فيه من خفاء الاستعارة. وإلى متعلقه بمحذوف دلّ عليه معنى الانتهاء، بمعنى: لا ذاهبين إلى هذا الفريق ولا إلى الفريق الآخر. والذهاب الذي دلّت عليه إلى ذهاب مجازي، وهو الانتماء والانتساب، بمعنى: هم أضاعوا النسبتين، فلا هم مسلمون ولا هم كافرون ثابتون. والعرب تأتي بمثل هذا التركيب المشتمل على لا النافية مكررة في غرضين: تارة يقصدون به إضاعة الأمرين، مثل «فلا صدّق ولا صلى»، وتارة يقصدون به إثبات حالة وسط بين حالين، مثل «لا شرقية ولا غربية...».

﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾: تقرير لما قبله من أوصاف المنافقين، والخطاب فيه لغير معين، والمعنى فلن تجد له سبيلاً إلى الهدى، بقرينة مقابلته بقوله: ومن يضلل الله...

﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾: أقبل على المؤمنين بالتحذير من موالاة الكافرين بعد أن شرح دخائلَهم واستصناعَهم للمنافقين لقصد أذى المسلمين، فعلم السامع أنّه لولا عداوة الكافرين لهذا الدّين لما كان النفاق، وما كانت تصاريف المنافقين، فقال: يا أيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فهي استئناف ابتدائي، لأنّها توجيه خطاب بعد الانتهاء من الإخبارِعن المنافقين بطريق الغيبة. وهذه آية جامعة للتحذير من موالاة الكافرين والمنافقين، ومن الوقوع في النفاق، لأنّ المنافقين تظاهروا بالإيمان ووالوا الكافرين، فالتحذير من موالاة الكافرين تحذير من الاستشعار بشعار النفاق، وتحذير من موالاة المنافقين الذين هم أولياء الكافرين، وتشهير بنفاق المنافقين، وتسجيل عليهم أن لا يقولوا: كنا نجهل أنّ الله لا يحب موالاة الكافرين.

وقوله... **﴿أتريدون أنْ تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾**: استئناف بياني، لأنّ النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء مما يبعث الناس على معرفة جزاء هذا الفعل، فهو تعريض بالمنافقين. فالاستفهام مستعمل في معنى التحذير والإنذار مجازاً مرسلاً. وتوجيه الإنكار الذي هو التحذير والإنذار إلى الإرادة دون متعلقها؛ بأن

يقال: أتجعلون لله عليكم... الخ، للمبالغة في إنكاره وتهويل أمره، ببيان أنّه مما لا يصدر عن العاقل إرادته فضلا عن صدور نفسه، كما في قوله تعالى: أم تريدوَن أن تسألوا رسولكم... ﴿**إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار**﴾: عقّب التعريض بالمنافقين من قوله: لا تتخذوا الكافرين أولياء، بالتصريح بأنّ المنافقين أشد أهل النار عذاباً، فإنّ الانتقال من النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء إلى ذكر حال المنافقين، يؤذن بأنّ الذين اتخذوا الكافرين أولياء معدودون من المنافقين، فإنّ لانتقالات جُمل الكلام معانيَ لا يفيدها الكلام، لما تدل عليه من ترتيب الخواطر في الفكر. وجملة إنّ المنافقين مستأنفة استئنافاً بيانياً ثانياً، إذ هي عود إلى أحوال المنافقين.

وتأكيد الكلام بإنّ لإفادة أنّه لا محيص لهم عن حكمه. وإنّما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار، أي: في أذل منازل العذاب؛ لأنّ كفرَهم أسوأ الكفر، لما حَفَّ به من الرذائل. والخطاب في قوله... ﴿**ولن تجد لهم نصيراً**﴾: لكل من يصح منه سماع الخطاب، وهو تأكيد للوعيد وقطع لرجائهم، لأنّ العرب ألفوا الشفاعات والنجدات في المضائق، فلذلك كثر في القرآن تذييل الوعيد بقطع الطمع في النصير والفداء ونحوهما.

إنّ صورة المنافقين وهم في الدرك الأسفل تتفق تماماً مع ثقل الأرض التي تشدهم إلى الدرك الهابط الذي كانوا فيه في الدنيا، تقل المطامع والرغائب، من تملق الكافرين ومداراة المؤمنين والوقوف في ذلك الموقف المهين، فمن ثقل نفوسهم وثقل ضروراتهم وثقل مطامعهم؛ تجيء صورة الدرك الأسفل من النار، بلا أعوان هنالك ولا أنصار. جزاءً وفاقاً يرسمه التعبير على طريقة التصوير...
﴿**إلاّ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين**﴾: هذا استثناء من الوعيد الذي أُعِدَّ للمنافقين، فاستثني مَنْ آمن منهم وأصلح حاله واعتصم بالله دون الاعتزاز بالكافرين، وأخلص دينه لله، فأخبر أنّ من صارت حاله إلى هذا الخير، فهو مع المؤمنين؛ فالتفضيل هنا والنص على الاعتصام والإخلاص يؤكد بعد ذكر التوبة والإصلاح على معنى التخلص من تلك المشاعر المذبذبة، ومن تلك الأخلاق المتخلخلة؛ ليكون في الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك، وفي الإخلاص لله وحده خُلوصٌ وتجرُّدٌ. بذلك يَخِفُّ ذلك الثقلُ

الذي يهبط بالمنافقين إلى الدرك الأسفل، ويرتفع التائبون منهم إلى مصافّ المؤمنين المعتزّين بالله، المُسْتَعْلِين بالإيمان، والارتفاع إلى هذا المستوى جزاءً على الإخلاص والإحسان.

وفي لفظ مع إيماءٌ إلى فضيلةِ مَنْ آمن من أول الأمر ولم يصم نفسه بالنفاق، لأنّ مع تدخل على المتبوع وهو الأفضل. وجيء باسم الإشارة في قوله: فأولئك مع المؤمنين، لزيادة تمييز هؤلاء الذين تابوا، وللتنبيه بأنّهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة. وقد علم الناس ما أعد الله للمؤمنين بما تكرر في القرآن، ولكن زادَهُ هُنَا تأكيداً بقوله: ﴿**وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً**﴾. وحرف التنفيس هنا دل على أنّ المراد من الأجر أجر الدنيا، وهو النصر وحسن العاقبة وأجر الآخرة؛ إذ الكل مستقبل، وأن ليس المرادِ منه الثواب؛ لأنّه حصل من قبل...

﴿**ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم**﴾: تذييل لكلتا الجملتين؛ جملة إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار، مع الجملة المتضمنة لاستثناء من يتوب منهم ويؤمن، وما تضمنته من التنويه بشأن المؤمنين من قوله: وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً. والاستفهام في قوله: ما يفعل الله بعذابكم...؟ أريد به الجواب بالنفي، فهو إنكاري؛ إذ ليس عذابه لشهوة التعذيب، ولا لرغبة في التنكيل، تعالى الله عن الرغبات والشهوات، فمتى اتقى تم بالشكر والإيمان، فهنالك النعيم والغفران، هنالك رحمة الله الواسعة التي لا تضيق بالواردين، وهنالك فضل الله الشامل الذي لا يَرُدّ التائبين... ﴿**وكان الله شاكراً عليماً**﴾.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: فيه بيان معنى الكفر الواضح المستمر بصاحبه حتى النهاية، وبيان جزاء هذا الكفرِ، وبيان وصف صاحبه... ﴿**إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا**﴾: نأخذ من هذا النص حقيقة الكفر الذي لا يكون معه لصاحبه مخلص، وهو أن يستمر مذبذباً بين الإيمان والكفر، حتى ينتهي به المطاف أخيراً إلى الدرك الأسفل من النار. وهذا الوصف ينطبق على المنافقين الذين آمنوا في الظاهر، وكان الكفر قد استحوذ على قلوبهم ولم يجعل فيها مكاناً للاستعداد للفهم، ومن ثَمَّ لم يمنعهم

ذلك من الرجوع إلى الكفر مرة بعد أخرى؛ إذ هم لم يفهموا حقيقة الإيمان، ولا ذاقوا حلاوته، ولا أشربت قلوبُهم حبَّه، ولا عرفوا فضائله ومناقِبَه، ومثلهم لا يرجي لهم ـ بحسب سنن الله في خليقته ـ أن يهتدوا إلى الخير، ولا أن يسترشدوا إلى نافع، ولا أن يسلكوا سبيل الله، فجديرٌ بهم أن يمنع الله عنهم رحمته ورضوانه، ومغفرته وإحسانه، لأنّ أرواحهم قد دُنِّسَتْ وقلوبَهم قد عميت، فلم يكن محلاً للمغفرة ولا للرجاء في ثواب...

﴿بشر المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً﴾: هذه نهاية المنافقين أخيراً يرسمها التنزيل في صورة تهكم وازدراء، كما كانوا يتهكّمون ويستهزءون بالمؤمنين الصادقين عندما يتخذون الكافرين أولياء يستعزّون بهم ويعتبرونهم الملجأ الأخير... **﴿أيبتغون عندهم العزة﴾**؟: وهم يجهلون حقيقة العزة، ولا يدْرُون أين مصدرها؟... فإنّ العزة لله جميعاً: فليست للكفر عزةٌ، ولا الناس يستطيعون أن يمنحوها لأحد... «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون».

التوجيه الثاني: يحذر فيه المنافقين الذين يقعدون مع الكافرين المستهزئين بآيات الله، يواجههم فيه بالخطاب المباشر بقوله: **﴿وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزؤ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنّكم إذنْ مثلُهم﴾**: وإنّما لم يحكم بكفر من يستمع للمشركين الخائضين في مكة، وحكم بنفاق من يستمع إلى أحبار اليهود وغيرهم من المستهزئين في المدينة، لأنّ مجالسة الكافرين في مكة كانت للضرورة، وفي أوان ضعف المسلمين وقلتهم، ولم يَرِدْ نَهْيٌ بَعْدُ، ومجالسة هؤلاء المنافقين كانت في وقت الاختيار وقوّة المسلمين وبَعْدَ وُرُودِ النَّهْي. ودلت الآية هنا على أنّ من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر يراه وخالط أهله ـ وإن لم يباشره ـ كان شريكَهم في الإثم. ثم حقق كون المنافقين مثل الكافرين بقوله: **﴿إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾**. والمعنى أنّهم كما اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا، فكذلك يجتمعون في عذاب جهنم يوم القيامة، ثم زاد بياناً وتوضيحاً بما ذَكَرَ مِنْ أحوال المنافقين فقال... **﴿الذين يتربصون بكم﴾**: ينتظرون ما يحدث من خير أو شر...

﴿فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم. وإن كان للكافرين نصيب

قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً. إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً. مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾: هكذا حال المنافقين الذين كشف حالَهم هذا الكتابُ المبينُ بما لهم من هذا الوصف المشين. يخادعون ويكذبون، ويكيدون ويغُشُّون، ويتولَّوْن أعداء المؤمنين، ويبتغون عندهم العزّة والتأييد؛ يتربصون بالمؤمنين الدوائر، يفرحون بمصيبتهم ويحزنون لعزّهم ونصرتهم، ومن كان هذا حاله فلا قيمة له ولا مكان له؛ لأنّه لا حقيقة له، فهو مذبذب حائر في هذه الحياة، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً.

التوجيه الثالث: يحذّر فيه المؤمنين من اتخاذ الكافرين أولياء كما اتخذهم المنافقون، فيقول... **﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أنْ تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾**: معنى هذا الكلام: أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بيّنة في استحقاقكم للعقاب، إذا اتخذتم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإنّ عملاً كهذا لا يصدر إلاّ من منافق. والمقصود من هذا التوجيه التحذير والتخويف من مغبّة ما يحصل من موالاة الكافرين، وهو البطش والتنكيل، ليريهم أنّ اتخاذ الكافرين أولياء لا يأتي لهم بنصر، ولا يُمكّن لهم في الأرض، ولا يُحقّق لهم العزة التي يرجونها. ثم يعقب على النهي والتحذير بتصوير المنافقين في صورة مزرية حقيرة هابطة تدعو إلى التحقير والتنفير...

﴿إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾: وإنّما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار، لأنّهم شرُّ أهلها؛ إذ هم جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة الرسول والمؤمنين وغشهم، فأرواحهم أسفل الأرواح، ونفوسهم أحط النفوس، ومن ثَمَّ كانوا أجْدَرَ الناس بالدرك الأسفل منها، فلا أعوان هناك ولا أنصار... **﴿إلاّ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾**: بعد التحذير والترهيب يأتي التحريض والترغيب، ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيي عن بينة، وهذا نهج في القرآن عجيب. فالذين تابوا إلى الله وتركوا النفاق، وأصلحوا

العمل وحسّنوا الأخلاق، واعتصموا بحبل الله ونبذوا الخلاف والشقاق، وأخلصوا لله في العمل، وابتعدوا عن الرياء والزلل، فأولئك مع المؤمنين أهل الصدق والوفاء، فلهم ما للمؤمنين من الثواب والجزاء، وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً. وفي نهاية التحذير والتبشير، وفي نهاية العقاب والثواب تجيء تلك الآيات العجيبة . . .

﴿ما يفعل الله بعذابكم إنْ شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما﴾: فالله لا يعذب أحداً من خلقه انتقاماً منه، فهو منزّه عن جلب منفعة له، وعن دفع مضرة عنه، وما ذاك إلاّ لكفرهم ونفاقهم وجحودهم نِعَمَ الله التي أنعم الله بها عليهم، حتى فسدت فطرتُهم ودُنِّست أرواحُهم، ولو آمنوا وشكروا لطهرت أرواحُهم، وظهرت آثار ذلك في عقولهم وسائر أعمالهم التي تصلحهم في معاشهم ومعادهم، واستحقوا بذلك رضوان الله. وكان الله شاكراً عليماً، فالله شاكر يعطي أكثر مما يستحق العامل، وهو عليم بكل قول وفعل، فيجازي كُلاً بما عمل، لئن شكرتم لأزيدنّكم . . . ، فهو يجزي بيسير الطاعات رفيع الدرجات، ويُعطي بالعمل في أيام معدودةٍ، نِعَماً في الآخرة غير محدودةٍ!. نسأل الله حسن الختام، والصلاة والسلام على خير الأنام.

1 ـ توضيح المقال في الفرق
بين قول أهل الحق وأهل الضلال

النص

* لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
سَمِيعًا عَلِيمًا (147) إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (148) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ
سَبِيلًا (149) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابًا مُّهِينًا (150) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟
بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا (151) يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ
جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ
مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا
مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (152) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ
بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ
لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (153)

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿154﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا
عَظِيمًا ﴿155﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ
وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿156﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿157﴾ * وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ
قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿158﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ
ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿159﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ
ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿160﴾
لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿161﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**لا يحب**﴾: الحب ضد الكراهة، وحب الله لشيء هو الرضا به والإثابة عليه، ومعنى لايحب هنا يكره، وكراهة الله لشيء بغضه وعقوبته عليه... ﴿**الجهر**﴾: جهر بالكلام أعلن به، وجهر بصوته أعلاه، وجهر الصوتُ ارتفع، ومعنى الجهر هنا الكلام الذي يبلغ أسماع الناس، وضد الجهر السر... ﴿**بالسوء**﴾: السُّوء كل آفة، فيطلق على القول القبيح وكل شيء فيه شر وضر، يقال: ساءه سَوْءاً ومساءة فعل به ما يكره فاستاء هو، والسوء الاسم منه، ومعناه هنا المكروه من القول... ﴿**ظُلِمَ**﴾: أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومعنى ظلم هنا وقع عليه شيء لا يستحقه مما يضره... ﴿**إن تبدوا**﴾: الإبداء الإظهار، وضده الإخفاء... ﴿**أو تعفوا عن سوء**﴾: العفو: ترك عقوبة المستحق، يقال: عفا عنه وعفا له وعفا عن ذنبه ويطلق العفو على خيار الشيء وأجوده، والفضل والمعروف، ورجل عفوّ عن الذنب فهو عافٍ، وأعفاه من الأمر برّأه...

﴿**ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله**﴾: فرّق بين الشيئين تفريقاً فصل بينهما، والفرق الاختلاف؛ فرّقوا دينهم: اختلفوا فيما بينهم في العقيدة، فالتفريق هنا بين الله ورسله تفريق في الدين الواحد الذي لا يصح فيه التفرّق... ﴿**ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا**﴾: اتخاذ السبيل سلوك طريق يحسبها توصل إلى المطلوب، والمقصود منه في الآية التنصل من الكفر ببعض الرسل، أي فلا لوم عليهم في ذلك على حسب اعتقادهم... ﴿**أولئك هم الكافرون حقا**﴾: حقيق عليهم هذا الاسم فلا يستحقون غيره... ﴿**وأعتدنا**﴾: هيّأنا وقدّرنا، والتاء في أعتدنا بدل من الدال، وأصله عتد، أدغمت منه التاء في الدال، والعتيد الحاضر المهيّأ، والمعتدّ المعدّ، يقال: عتدته وأعتدته تعتيداً، وكل شيء مُهَيّأ وحاصل وثابت باق فهو عتيد...

﴿**سوف نؤتيهم أجورهم**﴾: الأجور جمع أجر، والأجر الجزاء على العمل، ومعناه هنا ثواب الإيمان والطاعة... ﴿**يسألك أهل الكتاب**﴾: يطلب منك اليهود أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء؛ والكتاب هنا إما اسم للشيء المكتوب، كما نزلت

ألواح موسى، وإما اسم لقطعة ملتئمة من أوراق مكتوبة. . . ﴿**أرنا الله جهرة**﴾: طلبوا من موسى أن يجعلهم ينظرون الله عياناً أمامهم. . . ﴿**فأخذتهم الصاعقة**﴾: تُطلق الصاعقة على الصوت الشديد الملتهب، وعلى صيحة العذاب، وعلى الهدّة الشديدة، وعلى الموت وعلى كل عذاب مُهْلِك. . . ﴿**ثم اتخذوا العجل**﴾: العجل ولد البقرة، وعجل بني إسرائيل معبودهم الذي اتخذوه إلها وهي صورة مجسّدة من حليّهم على شكل العجل. . . ﴿**ورفعنا فوقهم الطور**﴾: الطور الجبل، وهو مثل قوله: «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلّة. . .» ﴿**وقلنا لهم ادخلوا الباب سجّداً**﴾: خاضعين خاشعين متواضعين مطأطئين. . .

﴿**لا تعدّوا في السبت**﴾: أصل لا تَعَدُّوا لا تعتدُوا، والاعتداء افتعال من العدو، يقال: اعتدى على فلان، أي تجاوز حدّ الحق معه. والسبت: اليوم المعروف، وهو اليوم الذي حُرم فيه العمل على اليهود، فتحايلوا على الحكم وخالفوا أمر الله فيه. . . ﴿**وأخذنا منهم مثياقاً غليظاً**﴾: الميثاق العهد، والوثاق ما يشد به، ووثّقه توثيقاً أحكمه. والغليظ التخين الصلب، ويطلق على القوة والشدة وهو المقصود هنا، ونقضه؛ إفساده بترك العمل به، ونقْضُ الغزلِ حلُّه، ونقض البنيان سقوطها. . .

﴿**قلوبنا غلف**﴾: الغُلْفُ جمع غلاف، وهو الغطاء، والقصد منه هنا القلوب التي لا تعي شيئاً. والطبع على الشيء الختم عليه بالطابع بحيث لا يمكن حله إلاّ بإفساده. والبهتان مصدر بَهَتَهُ إذا أتاه بقول أو فعل لا يترقبه ولا يجد له جواباً، والذي يتعمّد ذلك بَهوت. والصلب: هو أن يوثق المعدود للقتل على خشبة بحيث لا يستطيع التحرك ثم يطعن أو يرمى، والصُّلْب: الشديد والمحجّر، وما اشتد من عظم، والصُّلْب: سلسلة الظهر، والمصلوب مشدود الظهر على شيء ثابت مثل الخشبة والعمود، «ولأصلبنكم في جذوع النخل. . .» ﴿**وما قتلوه وما صلبوه**﴾: نفي للقتل والصلب، أي: فلم يحصل قتلٌ ولا صلبٌ للمسيح أصلا، وإنّما هو كلام جاء من اليهود كذباً فاعتقدت النصارى صحّته. . .

﴿**ولكن شبّه لهم**﴾: الأمر المشبّه والمشبَه المشكل والملتبس بغيره، وشبّه عليه الأمر تشبيها لُبّس عليه فلم تظهر له حقيقتُه، والمعنى في الآية: لكنّ شُبّه لليهود الأولين والآخرين خبرُ صلب المسيح، فلبس الخبر كذبه بالصدق لتضليلهم

ليبردوا غليلهم من الحنق على عيسى إذ جاء بإبطال ضلالاتهم، فتأيد بذلك اضطراب الناس في وقوع قتله وصلبه ولم يقع، وإنّما اختلق اليهود خبر قتله وصلبه... **﴿وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شك منه﴾**: اختلفوا في كيفية الصلب والقتل فلم يتفقوا على كيفية معيّنة، فهم في شك منه... **﴿ما لهم به من علم إلاّ اتّباع الظن﴾**: الشك خلاف اليقين، والعلم إدراك الشيء على ما هو عليه، واتباع الظن الأخذ بالوهم والتخيلات... **﴿وما قتلوه يقيناً﴾**: اليقين العلم الجازم الذي لا يحتمل الشك، فهو اسم مصدر، والمصدر المستعمل منه الإيقان، ومعناه في الآية: أنّ انتفاء قتلهم وصلبهم عيسى عليه السلام أمر متيقن... **﴿بل رفعه الله إليه﴾**: فلم يظفروا به، والرفع هنا رفع قربى وزلفى وتشريف...

﴿وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته﴾: جميع أهل الكتاب اليهود والنصارى يقرون بصلب المسيح وأنّه مات على الصليب... **﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾**: الشهيد الشاهد، يشهد بأنّه بلّغ لهم دعوة ربهم فأعرضوا... **﴿فبظلم من الذين هادوا﴾**: الذين هادوا: اليهود، وظلم اليهود ما ارتكبوا من المحرّمات بتعدّيهم حدود الله. وتحريم الطيبات هي ما في قوله تعالى: «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلاّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم...» **﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾**: فاليهود صدوا الناس كثيراً وعاندوا الأنبئاء، وحاولوهم على كتم المواعظ وكذّبوا عيسى وعارضوا دعوة محمد ﷺ، وسوّلوا لكثير من الناس جهراً ونفاقاً البقاء على الجاهلية... **﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾**: حقيقة الراسخ الثابت القدم في المشي لا يتزلزل، ومعناه هنا التمكن من الوصف مثل العلم، بحيث لا تغرّه الشُّبَهُ.

مبحث الإعراب

﴿لا﴾ حرف نفي. **﴿يحب﴾** فعل مضارع مرفوع بالضمة. **﴿الله﴾** فاعل مرفوع بالضمة. **﴿الجهر﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿بالسوء﴾** جار ومجرور متعلق بالجهر. **﴿من القول﴾** جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من السوء. **﴿إلاّ﴾** أداة استثناء. **﴿مَنْ﴾** في محل نصب. **﴿ظلم﴾** فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة مَنْ. **﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾**

جملة من كان واسمها وخبرها معطوفة على ما قبلها تذييلاً لا محل لها من الإعراب. ﴿إنْ﴾ حرف شرط جازم. ﴿تبدوا﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف النون والواو فاعل. ﴿خيراً﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿أو تخفوه﴾ معطوف على تبدوا مجزوم مثله. ﴿أو تعفوا﴾ كذلك. ﴿عن سوء﴾ جار ومجرور متعلق بتعفوا. ﴿فإنّ الله﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، إنّ الله إنّ واسمها. ﴿كان﴾، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿عفوّاً قديراً﴾ خبران لكان منصوبان بالفتحة، والجملة في محل جزم نابت مناب الجواب، وتقدير الجواب يعف عنكم مع قدرته عليكم.

﴿إنّ الذين﴾ إنّ واسمها. ﴿يكفرون﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿بالله﴾ جار ومجرور متعلق بيكفرون. ﴿ورسله﴾ معطوف على الله مجرور بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿ويريدون﴾ معطوف على يكفرون. ﴿أنْ﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿يفرّقوا﴾ فعل مضارع منصوب بحذف النون، والواو فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول يريدون. ﴿بين﴾ ظرف منصوب بالفتحة متعلق بالفعل قبله. ﴿الله﴾ مضاف إلى بين مجرور بالكسرة. ﴿ورسله﴾ معطوف على الله مجرور بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿ويقولون﴾ معطوف على يكفرون. ﴿نؤمن﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير (نحن). ﴿ببعض﴾ جار ومجرور متعلق بنؤمن، وجملة نؤمن في محل نصب مقول القول. ﴿ونكفر ببعض﴾ معطوف على نؤمن، وهي مثلها في الإعراب. ﴿ويريدون﴾ معطوف على يقولون. ﴿أنْ﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿يتّخذوا﴾ فعل مضارع منصوب بحذف النون، والواو فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول يريدون. ﴿بين﴾ ظرف منصوب بالفتحة. ﴿ذلك﴾ مضاف إلى بين في محل جر. ﴿سبيلاً﴾ مفعول به منصوب بالفتحة.

﴿أولئك﴾ مبتدأ في محل رفع. ﴿هم﴾ ضمير فصل. ﴿الكافرون﴾ خبر أولئك مرفوع بالواو، وجملة أولئك في محل رفع خبر إنّ. ﴿حقّاً﴾ مصدر وهو مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿وأعتدنا﴾ الواو للعطف، أعتدنا فعل وفاعل. ﴿للكافرين﴾ جار ومجرور متعلق بأعتدنا. ﴿عذاباً﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿مهيناً﴾ نعت له منصوب بالفتحة. ﴿والذين﴾ الواو للعطف، الذين في محل رفع مبتدأ. ﴿آمنوا﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿بالله﴾ جار ومجرور متعلق بآمنوا.

﴿**ورسله**﴾ معطوف على الله مجرور بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ولم**﴾ الواو للعطف، ولم حرف نفي وجزم. ﴿**يفرقوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف النون، والواو فاعل. ﴿**بين**﴾ ظرف منصوب بالفتحة متعلق بيفرقوا. ﴿**أحد**﴾ مضاف إلى بين مجرور بالكسرة. ﴿**منهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لأحد. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**سوف**﴾ حرف تسويف. ﴿**نؤتيهم**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدّرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير (نحن)، والضمير فيه مفعول به أوّل. ﴿**أجورهم**﴾ مفعول ثانٍ، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة سوف نؤتيهم خبر أولئك، وجملة أولئك خبر المبتدإ (والذين آمنوا بالله ورسله). ﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ جملة تذييلية من كان واسمها وخبرها.

﴿**يسألك**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والضمير فيه مفعول به. ﴿**أهلُ**﴾ فاعل يسأل مرفوع بالضمة. ﴿**الكتاب**﴾ مضاف إلى أهل مجرور بالكسرة. ﴿**أنْ**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**تنزّل**﴾ فعل مضارع منصوب بالفتحة، والفاعل ضمير (أنت). ﴿**عليهم**﴾ جار ومجرور متعلق بتنزّل. ﴿**كتاباً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**من السماء**﴾ جار ومجرور متعلق بتنزّل، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول ثانٍ ليسألك. ﴿**فقد**﴾ الفاء فاء الفصيحة، وقد للتحقيق. ﴿**سألوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**موسى**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**أكبر**﴾ المفعول الثاني منصوب بالفتحة. ﴿**من ذلك**﴾ جار ومجرور متعلق بأكبر. ﴿**فقالوا**﴾ الفاء تفسيرية، قالوا فعل وفاعل. ﴿**أرنا**﴾ فعل أمر مبني على حذف الياء، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير (أنت). ﴿**الله**﴾ منصوب على المفعولية، وهو المفعول الثاني. ﴿**جهرةً**﴾ نعت لمصدر مقدر، وجملة أرنا في محل نصب مقول القول. ﴿**فأخذتهم**﴾ الفاء للتعقيب، أخذتهم فعل ماض، والضمير فيه مفعول به. ﴿**الصاعقة**﴾ فاعل أخذت مرفوع بالضمة. ﴿**بظلمهم**﴾ جار ومجرور متعلق بأخذت، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿**ثم**﴾ حرف عطف. ﴿**اتخذوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**العجل**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**من بعد**﴾ جار ومجرور متعلق باتخذوا. ﴿**ما**﴾ اسم موصول وصف لموصوف مقدر، أي: بعد الوقت الذي ﴿**جاءتهم**﴾ فيه ﴿**البينات**﴾، وهو مضاف

إلى بعد. ﴿**فعفونا**﴾ الفاء للتعقيب، عفونا فعل وفاعل. ﴿**عن ذلك**﴾ جار ومجرور متعلق بعفونا. ﴿**وآتينا**﴾ معطوف على عفونا. ﴿**موسى**﴾ مفعول به أوّل. ﴿**سُلطاناً**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**مبيناً**﴾ نعت له. ﴿**ورفعنا**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**فوقهم**﴾ ظرف مكان منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه وهو متعلق برفعنا. ﴿**الطور**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**بميثاقهم**﴾ جار ومجرور متعلق برفعنا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وقلنا**﴾ معطوف مثل ما قبله. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بقلنا. ﴿**ادخلوا**﴾ فعل أمر، وفاعله واو الجماعة. ﴿**الباب**﴾ مفعول به. ﴿**سجّداً**﴾ حال من فاعل ادخلوا منصوب بالفتحة، وجملة ادخلوا في محل نصب مقول القول.

﴿**وقلنا لهم**﴾ مثل سابقتها. ﴿**لا**﴾ ناهية. ﴿**تعدُّوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف النون، وواو الجماعة فاعل، وهو في محل نصب مقول القول. ﴿**في السبت**﴾ جار ومجرور متعلق بتعدّوا. ﴿**وأخذنا**﴾ معطوف كذلك. ﴿**منهم**﴾ جار ومجرور متعلق بأخذنا. ﴿**ميثاقاً**﴾ مفعول به. ﴿**غليظاً**﴾ نعت له. ﴿**فبما**﴾ الفاء للتعقيب، وما زائدة. ﴿**نقضهم**﴾ مجرور بالباء، وهو متعلق بحرّمنا الآتي، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ميثاقهم**﴾ مفعول المصدر منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وكفرهم**﴾ معطوف على نقضهم. ﴿**بآيات**﴾ جار ومجرور متعلق بكفرهم. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى آيات مجرور بالكسرة. ﴿**وقتلهم**﴾ معطوف كذلك. ﴿**الأنبئاء**﴾ مفعول المصدر منصوب بالفتحة. ﴿**بغير**﴾ جار ومجرور متعلق بقتلهم. ﴿**حقّ**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**وقولهم**﴾ مثل سابقه. ﴿**قلوبُنا**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**غلف**﴾ خبرُه مرفوع بالضمة، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**بل**﴾ حرف إضراب. ﴿**طبع الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليها**﴾ جار ومجرور متعلق بطبع. ﴿**بكفرهم**﴾ كذلك. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتعقيب، لا نافية. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**قليلاً**﴾ مستثنى بإلا منصوب بالفتحة. ﴿**وبكفرهم**﴾ معطوف على فبما نقضهم. ﴿**وقولهم**﴾ معطوف على كفرهم. ﴿**على مريم**﴾ جار ومجرور متعلق بقولهم. ﴿**بهتاناً**﴾ مفعول به. ﴿**عظيماً**﴾ نعت له. ﴿**وقولهم**﴾ كذلك.

﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**قتلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**المسيح**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**عيسى**﴾ بدل منه منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها

التعذر. ﴿**ابن**﴾ نعت لعيسى. ﴿**مريم**﴾ مضاف إلى ابن مجرور بالفتحة لمنعه من الصرف للعلمية والتأنيث. ﴿**رسول**﴾ نعت لعيسى. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى رسول، وجملة قتلنا في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّا قتلنا في محل نصب مقول القول. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما للنفي. ﴿**قتلوه**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**وما صلبوه**﴾ معطوف عليه مثله في الإعراب. ﴿**ولكن**﴾ الواو للعطف، لكن للاستدراك. ﴿**شبّه**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بشبّه هو نائب الفاعل. ﴿**وإنّ**﴾ الواو للعطف. ﴿**الذين**﴾ اسم إنّ في محل نصب. ﴿**اختلفوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**فيه**﴾ جار ومجرور متعلق باختلفوا. ﴿**لفي شك**﴾ اللام لتوكيد الخبر، في شك جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر إنّ، ﴿**منه**﴾ جار ومجرور متعلق بالخبر. ﴿**ما**﴾ نافية تعمل عمل ليس. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ما مقدّم. ﴿**به**﴾ جار ومجرور متعلق بعلم. ﴿**من علم**﴾ اسم ما مؤخر جُرّ بحرف مِن الزائدة. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**اتّباع**﴾ مستثنى منصوب بالفتحة. ﴿**الظن**﴾ مضاف إلى اتباع مجرور بالكسرة. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما للنفي. ﴿**قتلوه**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**يقينا**﴾ مصدر مؤكّد لنفي القتل، بمعنى حقاً، والمعنى: حُقَّ انتفاء قتله حقّاً.

﴿**بل**﴾ حرف إضراب. ﴿**رفعه**﴾ فعل ماض، والضمير فيه مفعول به. ﴿**الله**﴾ فاعل مرفوع بالضمة. ﴿**إليه**﴾ جار ومجرور متعلق برفع. ﴿**وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾ جملة تذييلية من كان واسمها وخبرها. ﴿**وإنْ**﴾ الواو للعطف، إنْ حرف نفي. ﴿**من أهل الكتاب**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لمقدر، والتقدير: وما أحد كائن من أهل الكتاب... الخ. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**ليؤمنن**﴾ فعل مضارع مؤكد بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة، والفاعل ضمير (هو) يعود على أحد. ﴿**به**﴾ جار ومجرور متعلق بيؤمنن. ﴿**قبل**﴾ ظرف زمان متعلق بيؤمنن. ﴿**موته**﴾ مضاف إلى قبل، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة ليؤمنن في محل رفع خبر المبتدإ الذي هو متعلق الجار والمجرور (أحد)، وجملة وإن من أهل الكتاب معطوفة على جملة وما قتلوه. ﴿**ويوم**﴾ الواو حرف عطف، يوم ظرف منصوب بالفتحة. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم مجرور بالكسرة، والظرف متعلق بخبر يكون الآتي. ﴿**يكون**﴾ فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على عيسى. ﴿**عليهم**﴾ جار ومجرور متعلق بالخبر بعده. ﴿**شهيداً**﴾ منصوب بالفتحة.

﴿**فبظلم**﴾ الفاء للتعقيب، بظلم جار ومجرور متعلق بحرمنا. ﴿**من الذين**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لظلم. ﴿**هادوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**حرمنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليهم**﴾ جار ومجرور متعلق بحرمنا. ﴿**طيّبات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة، لأنّه جمع مؤنث سالم. ﴿**أحلّت**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على الطيبات. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بأُحلّت، وجملة أُحلّت في محل نصب نعت لطيبات. ﴿**وبصدّهم**﴾ معطوف على ظلم. ﴿**عن سبيل**﴾ جار ومجرور متعلق بصدّهم. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى سبيل مجرور بالكسرة. ﴿**كثيراً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**وأخذهم**﴾ معطوف على ظلم. ﴿**الربا**﴾ مفعول المصدر منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**وقد**﴾ الواو واو الحال، قد للتحقيق. ﴿**نهوا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل واو الجماعة. ﴿**عنه**﴾ جار ومجرور متعلق بنهوا، والجملة في محل نصب حال من ضمير الذين هادوا. ﴿**وأكلهم**﴾ من جملة المعطوفات. ﴿**أموال**﴾ مفعول المصدر منصوب بالفتحة. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أموال مجرور بالكسرة. ﴿**بالباطل**﴾ جار ومجرور متعلق بأكلهم. ﴿**وأعتدنا**﴾ الواو للعطف، أعتدنا فعل وفاعل. ﴿**للكافرين**﴾ جار ومجرور متعلق بأعتدنا. ﴿**منهم**﴾ جار ومجرور متعلق بالكافرين. ﴿**عذاباً**﴾ مفعول به. ﴿**أليماً**﴾ نعت له.

﴿**لكن**﴾ حرف استدراك. ﴿**الراسخون**﴾ مبتدأ مرفوع بالواو. ﴿**في العلم**﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿**منهم**﴾ جار ومجرور متعلق بالراسخون. ﴿**والمؤمنون**﴾ معطوف على الراسخون. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل وفاعل في محل نصب حال. ﴿**بما**﴾ جار ومجرور متعلق بيؤمنون. ﴿**أُنزل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما. ﴿**إليك**﴾ جار ومجرور متعلق بأُنزل، وجملة أُنزل صلة ما.

﴿**وما أُنزل من قبلك**﴾ معطوف على ما أُنزل إليك، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**والمقيمين**﴾ منصوب على المدح. ﴿**الصلاة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**والمؤتون**﴾ معطوف على الراسخون. ﴿**الزكاة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**والمؤمنون**﴾ من جملة المعطوفات. ﴿**بالله**﴾ جار ومجرور متعلق بالمؤمنون. ﴿**واليوم الآخر**﴾ معطوف على الله. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**سنؤتيهم**﴾ فعل مضارع دخلت عليه سين الاستقبال، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير

(نحن). ﴿أجراً﴾ مفعول به. ﴿عظيماً﴾ نعت له، وجملة سنؤتيهم في محل رفع خبر أولئك، وجملة أولئك في محل رفع خبر «الراسخون».

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظُلم**﴾: هذا الكلام يرتبط بما قبله من حيث ما حصل من المنافقين من الأقوال والأفعال تظاهراً ورئاءً، وأنّهم يظهرون خلاف ما يبطنون، كان ذلك مما يثير في النفوس خشية أن يكون إظهار خلاف ما في الباطن نفاقاً. وكذلك يرتبط بما بعده من حيث أقوال أهل الكتاب الكاذبة. بيّن الله الفرق بين الأقوال الممنوعة المردودة، والأقوال الجائزة المحمودة، وفصلت الجملة عما قبلها لأنّها استئناف ابتدائي لهذا الغرض الذي بيّنّاه. وقد علم المسلمون أنّ المحبة والكراهية تستحيل حقيقتُهما على الله تعالى، لأنّهما انفعالان للنفس نحو استحسان الحسن واستنكار القبيح، فالمراد لازمهما المناسب لله، وهما الرضا والغضب المترتب عليهما الثواب والعقاب.

وصيغة لا يحب ـ بحسب قواعد الأصول ـ صيغة نفي الإذن، والأصل فيه التحريم، وهذا المراد هنا؛ لأنّ لا يحب يفيد معنى يكره، وهو يرجع إلى معنى النهي. والمراد بالجهر ما يبلغ إلى أسماع الناس؛ إذ ليس السر بالقول في نفس الناطق مما ينشأ عنه ضر، وتقييده بالقول؛ لأنّه أضعف أنواع الأذى، فيعلم أنّ السوء من الفعل أشد تحريماً. واستثنى من ظُلِم فرخّص له الجهر بالسوء من القول، والمستثنى منه هو فاعل المصدر المقدر الواقع في سياق النفي المفيد للعموم؛ إذ التقدير: لا يحب الله جهر أحد بالسوء. ويصح أن يكون المستثنى مضافاً محذوفاً، أي: إلاّ جهر من ظلم، والمقصود ظاهر، وقد قضى في الكلام حق الإيجاز. ورخص الله للمظلوم الجهر بالقول السيئ ليشفى غضبه، حتى لا يرجع إلى السيف أو إلى البطش باليد، ففي هذا الإذن توسعة على من لا يمسك نفسه عند لحاق الظلم به، والمقصود من هذا هو الاحتراس في حكم لا يحب الله الجهر بالسوء من القول. وجملة ﴿**وكان الله سميعاً عليماً**﴾ تذييلية، القصد منها أنّ الله عليم بالأقوال الصادرة كلها، عليم بالمقاصد والأمور كلها، فذكر عليماً بعد سميعاً لقصد التعميم في العلم تحذيراً من أن يظنوا أنّ الله غيرُ عالم ببعض ما يصدر منهم...

﴿**إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإنّ الله كان عفواً قديراً**﴾: بعد أن نهى ورخص ندب المرخص لهم إلى العفو وقول الخير؛ سواء كان ظاهراً أو خفياً، حتى لا يظن ظان أنّ المطلوب هو إبداء الخير دون إخفائه. والعفو عن السوء بالصفح وترك المجازاة، فهو أمر عدميّ. وجملة فإنّ الله كان عفواً قديراً دليل جواب الشرط وعلة له، وتقدير الجواب: يعف عنكم عند القدرة عليكم، كما أنّكم فعلتم الخير جهراً وخفية وعفوتم عند المقدرة على الأخذ بحقكم، لأنّ المأذون فيه شرعاً يعتبر مقدوراً للمأذون، فجواب الشرط وعدٌ بالمغفرة لهم في بعض ما يقترفونه جزاء عن فعل الخير وعن العفو عمن اقترف ذنباً، فَذِكْرُ إن تبدوا خيراً أو تخفوه تكملة لما اقتضاه قوله: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول استكمالاً لموجبات العفو عن السيئات. . .

﴿**إنّ الذين يكفرون بالله ورسله**﴾: هذا نوع من الجهر بالسوء من أشنع أنواع الجهر بالسوء؛ ذلك هو الجهر بالكفر، لذلك ينتقل السياق إلى الحديث عنه بعد بيان القاعدة العامة في الجهر بالسوء. والتعبير بطريق الموصول دون الإسم لما في الصلة من الإيماء إلى وجه الخبر، ومن شناعة صنيعهم ليناسب الإخبار عنهم باسم الإشارة بعد ذلك. وجيء بالمضارع هنا للدلالة على أنّ هذا أمر مُجَدَّدٌ فيهم مستمر. ومعنى قوله: ﴿**ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله**﴾ أنّهم يحاولون ذلك، فأطلقت الإرادة على المحاولة، وفيه إيذان بأنّه أمر صعبُ المنالِ، وأنّهم لم يبلغوا ما أرادوا من ذلك؛ لأنّهم لم يزالوا يحاولونه كما دلّ عليه التعبير بالمضارع. ومعنى التفريق بين الله ورسله أنّهم ينكرون صِدْقَ بعض الرسل الذين أرسلهم الله، ويعترفون بصدق بعض الرسل دون بعض، ويزعمون أنّهم يؤمنون بالله، فقد فرقوا بين الله ورسله إذْ نفوْا رسالتهم فأبعدوهم منه تعالى. وهذا الكلام استعارة تمثيلية؛ شُبّه الأمر المتخيل في نفوسهم بما يضمره مريد التفريق بين الأولياء والأحباب، فهي تشبيه هيئة معقولة بهيئة معقولة، والغرض من التشبيه تشويه المشبه، إذ قد علم الناس أنّ التفرقة بين المتصلين ذميمةٌ. . .

﴿**ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض**﴾: وصلت هذه االجملة بما قبلها بالعطف ولم تفصل لأنّها شأن خاص من شؤونهم؛ إذ مدلولها قول من أقوالهم الشنيعة، ومدلول يريدون هيئة حاصلة من كفرهم، فلذلك حسُن العطفُ باعتبار

المغايرة ولو في الجملة، ولو فصلت لكان صحيحاً. . . ﴿**أولئك هم الكافرون حقاً**﴾: الجملة خبر إنّ، والإشارة إلى أصحاب تلك الصفة الماضية، وموقع الإشارة هنا لقصد التنبيه على أنّ المشار إليهم لاستحضارهم بتلك الأوصاف أحرياء بما سيحكم عليهم من الحكم المعاقب لاسم الإشارة.

وأفاد تعريف جزْئَي الجملة والإتيان بضمير الفصل تأكيد قصر صفة الكفر عليهم، وهو قصر ادّعائي مجازي بتنزيل كفر غيرهم في جانب كفرهم منزلة العدَمِ، ومثل هذا القصر دليل على كمال الموصوف في تلك الصفة المقصورة، ووجه هذه المبالغة: أنّ كفرهم قد اشتمل على أحوال عديدة من الكفر، وعلى سفالة في الخُلُقِ، وسفاهة في الرأي بمجموع ما حكى عنهم من تلك الصِلاَتِ، فإنّ كل خصلة منها إذا انفردت هي كفر، فكيف بها إذا اجتمعت. وحقاً مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي قبلها. . . ﴿**وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا**﴾: صرح بالكفر هنا دون قوله: ذمّاً لهم وتذكيراً لوصفهم، أو ليكون دليلاً على استحقاقهم هذا العذاب لأنّه معدّ للكافرين، ووصف العذاب بالمهين ليتفق مع فعلتهم الكريهة في الدنيا، ومع جهرهم بهذا المنكر الذي نهى الله عنه الجهر بأقل منه، وقال: إنّه لا يحبّه ولا يرضاه. . .

﴿**والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف نؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً**﴾: تأتي المقابلة هنا ليبين الفرقُ بين المسيئين وبين المحسنين؛ وكما هي عادة القرآن يقارن بين النذارة والبشارة، وبين الترهيب والترغيب. والقول في الإتيان بالموصول وباسم الإشارة في هذه الجملة كالقول في مقابله. وهذا الوصف الذي ذكر هنا ينطبق انطباقاً كاملاً على المسلمين، فهم الذين لم يفرقوا بين الله ورسله، وهم الذين ينتظهم الأجل. . . وهم الذين يستحقون الغفران والرحمة على خطاياهم الاخرى بعدما وحدوا أساس العقيدة الأولى.

والإسلام إنّما يتشدّد هذا التَّشَدُّد في توحيد العقيدة في الله؛ لأنّ هذا التوحيد هو الأساس اللائق بوجود منظم غير متروك للتعدد والفوْضَى، ولأنّه هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة النظام أينما امتد بصرُه، ولأنّه هو النظام الكفيل بربط البشرية كلها برباط واحد فلا تُتْرك للخلاف والهوى!. ولو آمن الناس جميعاً إيمان

المسلمين بالرسل وبما جاءوا به من ربّهم لتغيّر وجْهُ العالم إلى خيرٍ مؤكّدٍ!، ومن ثم كانت الأمة الإسلامية هي خير أمّة أخرجت للناس. بعد تركيز تلك القاعدة الأساسية في الكفر والإيمان، وبيان حدود الكفر واضحة، وحدود الإيمان... يأخذ السياق في استعراض بعض مواقف اليهود في هذا المجال وفي مجال الجهر بالسوء الذي بدأ به في هذا الموضوع؛ يبدأ موقف اليهود من محمد ﷺ ورسالته، ويقرن بين موقفهم هذا وما كان لهم من مواقف مع نبيئهم موسى...

﴿**يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك**﴾... الخ: إنّهم يسألونك أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء فلا عجب ولا غرابة؛ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ﴿**فقالوا: أرنا الله جهرةً**﴾، ولم تبلغ الآيات البينات التي أظهرها لهم الله على يد نبيئهم موسى ومنقذهم أن تلمس وجدانهم، أو أن تصل إلى مَكْمَنِ العقيدة في نفوسهم، فطلبوا رؤية الله عياناً، وهو مطلب سخيف، يحمل فوق اسْتِحَالَةِ قدرتهم عليه طابع التبجّح الذي لا يصدر عن إيمان... ﴿**فأخذتهم الصاعقة بظلمهم**﴾: وتجاوزهم لحدود العقل والإيمان. ونعرف نحن أنّ الله قد عفا عنهم بعد هذه الفعلة المنكرة وردهم إلى الحياة، فماذا كان منهم من شكر ومن توبة ومن إيمان؟!.. ﴿**ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات**﴾: جرياً على طبيعتهم الغليظة التي لا تَتَخَلَّلُهَا بشاشة الإيمان... ﴿**فعفونا عن ذلك**﴾ كذلك: ولكن اليهود هم اليهود لا يفلح معهم إلاّ القهر والخوف...

﴿**وآتينا موسى سلطاناً مبيناً. ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم**﴾: فالآن فقط وقد وهب الله موسى ذلك السلطان، وقد رفع فوقهم الطور يرونه فوق رؤوسهم ويخافون ثقله أن يطحنهم؛ الآن فقط أعطوا الميثاق، على أن يدخلوا باب مدينة معينة ـ لم يذكر القرآن اسمها لأن اسمها لا يزيد شيئاً من العظة أو العبرة في السياق ـ وهم ساجدون، وأعطوا الميثاق أن يحترموا سبت بني إسرائيل؛ أعطوا ميثاقاً غليظاً يذكر بهذه الصفة ليتناسق مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم، وغلظ القلب الذي تضُمُّهُ صِوَرُهُم، وليعطي إلى جانب هذا التناسق فكرة الجسامة والوثاقة ومتانة العلاقة، ولكن ماذا كان؟. إنّهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم، وغياب القهر لهم، تَمَلَّصُوا من الميثاق الغليظ فنقضوه، وكفروا بآيات الله وقتلوا

أنبئائهم بغير حق، وتبجّحوا فقالوا: إنّ قلوبنا لا تقبل موعظة؛ لأنّها مغلقة لا يصل إليها قول! - والحقُّ أنّ الله طبع عليها بسبب الكفر الذي يأخذونها به، ويطمسون عليها بثقله - فلم يَعُدْ ينفذ إليها الإيمان، اللهم إلاّ قليلاً من تلك القلوب التي لم تتحجر فيغلب عليها الضلال!. فبسببٍ من نقض الميثاق، والكفر بآيات الله، وقتل الأنبئاء، والتبجح بالضلال، وبسببٍ كذلك من كفرهم بما جاء بعدهم من ديانة، وبما جاء بعدهم من رسول، وقولهم على مريم الطاهرة من بهتان، وادّعائهم أنّهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم وتبجّحهم بأنّهم قتلوه بصفته رسول الله، وبسببٍ من صدّهم الناس عن سبيل الله وتضليلهم وإبقائهم على الكفر...

﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾: بسببٍ من هذا كله حرّمَ اللهُ عليهم كثيراً من الطيبات في الدنيا، وقد كانت مباحة لهم من قبلُ، وأعد للكافرين منهم في الآخرة عذاباً أليماً. يعرض السياق هذا كله رداً على ما يطلبونه من الرسول ﷺ أن ينزّل عليهم كتاباً من السماء لبيان طبيعة القوم، ونفي الغرابة عن هذا الطلب وهم له أهل، وليس عليهم شيء من هذا بغريب!. ويعود السياق إلى بني إسرائيل ليستثني منهم القلّة التي اهتدت إلى الإيمان وهم الراسخون في العلم منهم والمؤمنون...

﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾... الخ: فالعلم الراسخ والإيمان المنيركلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالرسول ﷺ وإلى الإيمان بما أُنزل من قبله كذلك، كلاهمايقود إلى توحيد الإيمان الذي جاء به الإسلام، أما العلم الناقص والكفر الجاحد فهما اللذان يفرقان الديانات ويفرقان الرسل ويفرقان الناس. ثم يقرر السياق حكم الذين يؤمنون هذا الإيمان فيقيمون الصلاة...الخ: **﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾**!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: يبيّن الله فيه الفرق بين القول المقبول والقول المردود...
﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظُلم وكان الله سميعاً عليماً﴾:
المعنى أنّ الله تعالى لا يحب من الناس أن يجهروا فيما بينهم بذكر العيوب والسيّئات والكفر والمنكرات، لما في ذلك من المفاسد بما يحصل من سوء

المقاصد. المفسدة الأولى: ما يترتب عليه من مجلبة العداوة والبغضاء بين من يجهر بالسوء ومن ينسب إليه هذا السوء، وقد يصل الأمر إلى هضم الحقوق وسفك الدماء. المفسدة الثانية: إنّه يؤثر في نفوس السامعين تأثيراً ضارّاً بهم، فقد جرت العادة بأنّ الناس يقتدي بعضهم ببعض، فمن رأى إنساناً فسمعه يسب آخر لضغائن وقعت بينهما أو لكراهته إياه قلّده في ذلك، ولا سيما إذا كان من الأحداث الذين يغلب عليهم التقليد، أوْ مَن مِن طبقة دون طبقته، إذ عامَّةُ الناس يُقلّدون خواصَّهم، فإذا ظهرت المنكرات في الخاصة لا تلبث أن تصل إلى العامّة وتفشو بينهم، ومن تميل نفسه إلى منكر أو فاحشة يجترئ على ارتكابهما إذا علم أنّ له سلفاً وقدوة فيهما، فسماع السوء كعمل السوء، فذاك يُؤثر في نفس السامع وهذا يؤثر في نفس الرائي والناظر، وأقل هذه الأضرار أن يضعف في النفس استقباحه واستبشاعه خصوصاً إذا تكرر السماع أو النظر.

وكثير من الناس يجهل مبلغ تأثير الكلام في القلوب، فلا يُنزّهون أَلْسِنَتَهُم عن السوء من القول ولا أسماعهم عن الإصغاء إليه. المفسدة الثالثة: ما يترتب على نشرة قالة السوء من ظلم ومن تعدّ على الأفراد والجماعات حين يصبح الجهر بالسوء هيّناً مألوفاً، فإنّ البريء قد يُتَقَوَّلُ عليه مع المسيء، ويختلط الْبَرُّ بالفاجر بلا تَحرُّجٍ من فرية أو اتهام، ويسقط الحياء الاجتماعي الذي يعصم الكثيرين من الإقدام على الشرور. إنّ الجهر بالسوء يبدأ في أوّل الأمر اتهاماتٍ فردية وينتهي انحلالاً اجتماعياً وفوضى أخلاقية، تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض أفراداً وجماعات، وتنعدم فيها ثقة الناس بعضهم ببعض، وقد شاعت الاتهامات!.

لذلك لا يحب الله الجهر بالسوء من القول، إلاّ أن يكون ذلك انتصاراً من ظُلم، ودفعاً لعدوانٍ، وردّاً لسوءٍ قد وقع بالفعل على إنسان معين؛ إلاّ من ظلم، فيكون الجهر عندئذ محدد المصدر مُحدّد السبب موجهاً إلى شخص بذاته أو إلى جهة بذاتها بقصد الانتصاف، وبقصد تحذير الآخرين أن يلدغوا من الجحر الذي لُدغ منه المظلوم، عندئذ يكون هنالك من الخير الذي يتحقق بهذا الجهر كفاء الشر الذي يُحصر حينئذ في أضيق الحدود.

وهكذا يُوفق الإسلام بين مبدئه في العدل الذي لا يطيق به ظُلما، ومبدئه في الأخلاق الذي لا يطيق به خدشاً للحياء الاجتماعي. فمن ظُلم وحده هو الذي

يحق له أن يجهر بالسوء على من ظلمه، بدعاء عليه أو رفع مظلمته إلى من ينصفه، أو إعلانها بين من يخشاه الظالم؛ ليتحقق العدل وينتصف المظلوم، ويبقى الظلمُ مُعَلَّقاً على رقاب فاعليه وحدهم.

التوجيه الثاني: لا يقف السياق عند الحد السلبي في كبت السوء وكظمه، إنّما يوجه إلى الخير الإيجابي الذي يتحقق سواء أبْدوه أو أخفوه، وإلى العفو عن السوء ـ عند المقدرة على رفعه ـ فلا عفو بغير مقدرة، إنّما العفو عندئذ ضعف ومذلّة... **﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإنّ الله كان عفوّاً قديراً﴾**: عندئذ يشيع الخير إذا أبدوه، ويؤدي دوره إذا أخفوه، فالخير طيب في العلن والسر. وعندئذ يشيع العفو بين الناس، فلا يكون للجهر بالسوء مجال، على أن يكون عفو القادر المتفضل، لا عفو العاجز الذي لا ينتصر ولا ينتصف ولا يرضاه الله، فهو يعفو عن قدرة ويحب لعباده أن يعفوا عن قدرة في عالم الناس وفي محيط الناس.

التوجيه الثالث: يبيّن فيه الفرق بين الكفر الصريح والإيمان الصحيح... **﴿إنّ الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقّاً وأعتدْنا للكافرين عذاباً مهيناً. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف نؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما﴾**: يدخل الفريق الأول اليهود الذين أنكروا رسالة محمد ﷺ ورسالة عيسى ـ عليه السلام ـ، ويدخل كذلك النصارى الذين أنكروا رسالة الإسلام، وتمسكوا برسالة عيسى وموسى بزعمهم؛ ففرقوا بين الله وبين رسله، بأن أنكروا ما صدّقه الله بمعجزة القرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ فهذا هو التفريق الواضح الصريح. ويدخل في الفريق الثاني من آمن من أهل الكتاب برسالة الإسلام الذي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام، وكل من يدخل في هذا الدين الصحيح من جميع الأنام.

التوجيه الرابع: يعدد فيه مساوي اليهود بما نقضوه من المواثيق والعهود:

أولاً: **﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء﴾**: فقد قال اليهود لمحمد ﷺ إنّ موسى جاء بالألواح من عند الله فأتنا بألواح من عنده تكون بخط سماوي يشهد أنّك رسول الله إلينا.

ثانياً: ﴿**فقد سألوا موسى أكبرمن ذلك فقالوا أرنا الله جهرة**﴾: وهو ردٌّ على ما طلبوا أولاً، واستنكار على ما طلبوا من موسى ثانياً، والمعنى: لا تعجب يا محمد من سؤالهم وتستنكره، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك. وكل من السؤالين يدل على جهل أو عناد... ﴿**فأخذتهم الصاعقة بظلمهم**﴾: هذا عقاب على طلبهم من موسى أن يريهم الله جهرة.

ثالثاً: ﴿**ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات**﴾: اتخاذ اليهود العجلَ معبوداً معروف في القرآن؛ سبباً وغرضاً ونتيجة، ومع هذا... ﴿**فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبينًا**﴾: فقد حطّم العجل وفرض عليهم التوبة منه، ومن بقى قتله لردّته وكفره.

رابعا: ﴿**ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم**﴾: ذلك عندما أمروا بأخذ الكتاب بقوة فتقاعسوا وتكاسلوا وهم تحت الجبل فرفع على رؤوسهم فخافوا فتقبلوا الميثاق «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلة وظنوا أنّه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون».

خامساً: ﴿**وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً**﴾: وذلك عندما أمروا بدخول باب القرية خاضعين متواضعين معترفين بنعمة الله عليهم بالنصر والتأييد، «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون».

سادساً: ﴿**وقلنا لهم لا تعدّوا في السبت**﴾: وذلك أنّ الله أمرهم بأن يحافظوا على حكم السبت، ونهاهم عن الاكتساب فيه ليتفرغوا فيه للعبادة بقلب خالص من الشغل بالدنيا، فخالفوا وتحيلوا بشتى أنواع الحيل: «واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون»، فغضب الله عليهم لمخالفتهم في حكم السبت حرصا على الدنيا...

ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين.

سابعاً: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله**﴾: فهذا النقض سببه كفرهم بآيات الله.

ثامناً: ﴿**وقتلهم الأنبئاء بغير حق**﴾: وهذا تَعدٍّ صارخ حصل من أسلاف اليهود الذين قتلوا العديد من الأنبئاء حقيقة وادّعاء... إنّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم.

تاسعاً: ﴿**وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلا**﴾: فالقلوب المغلفة لا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الكفر بل تبقى كما هي: صم بكم عمي فهم لا يعقلون، وليس بعد هذا الكفر كفر. وهذا كما قال أهل مكة لرسول الله ﷺ: «وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب».

عاشراً: ﴿**وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً**﴾: هذا لون آخر من ألوان الكفر سابق على الكفر الأول، وهو كفرهم بعيسى ورمي أمه الطاهرة بالبهتان. ووصف هذا البهتان بالعظم وقرنه بالكفر؛ إظهاراً لفظاعة الجريمة، ووقاحة هذه القولة اللئيمة التي لا تصدر إلاّ من لسان بذيء سخيف، ولا يرضى بها ولا بسماعها ذو عقل شريف!.

حادي عشر: ﴿**وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله**﴾: هذا قول اليهود الكافرين بعيسى رسول الله عليه السلام. والقرآن ينفي هذا القول من أساسه... ﴿**وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم**﴾: والتشبيه واقع على القول بالقتل والصلب، وأكثر المفسرين هنا تابعوا ما روته أناجيل النصارى واعتبروا التشبيه واقعاً على عيسى، وأنّ عيسى شبّه بغيره فقتلوه، وهي رواية تخالف نص القرآن، فالقرآن يؤكد أنّ النصارى مختلفون في وقوع القتل من أساسه، لأنّ روايات الأناجيل ليس لها سند يُعتدّ به؛ لأنّها كتبت بعد عهد عيسى بمدّة طويلة، وهذه الكتابة لم تنقل من أصل مكتوب، وإنّما نقلت عن روايات شفهية يكتنفها الغموض وتتحكم فيها الخيالات...

﴿**وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلاّ اتّباع الظن**﴾:

هكذا يصرح القرآن بوقوع الاختلاف في وقوع القتل والصلب، وأنّ الذين ادّعوه من اليهود والنصارى لا سند لهم من التاريخ يؤكد لهم هذا، فليس لهم به علم، وإنّما اتّبعوا الظنون والأوهام... ﴿**وما قتلوه يقيناً**﴾: هذا هو القول الفصل، وليس لهم فيما ادّعوه فرع ولا أصل... ﴿**بل رفعه الله إليه**﴾: نجاه الله من كيد اليهود ومؤامراتهم، فلم يحصل له منهم قتل ولا صلب... ﴿**وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾: هذا هو الدليل القاطع على نفي دعواهم؛ لأنّ الله عزيز يعز رسله وأولياءه، والله حكيم فلا يجعل لأحد حجة فيما يدعيه من الأكاذيب والأباطيل...

﴿**وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته**﴾: اضطرب المفسرون في توجيه هذه الآية عندما اختلفوا في معناها، فبعضهم يقول: ما من أحد من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن بعيسى عندما تظهر له حقيقته بأنّه رسول الله وقت الاحتضار، ولكن هذا الإيمان لا ينفعه، لأنّه جاء في غير أوانه. وبعضهم يقول: وما من أحد من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن بعيسى بعدما ينزل إلى الأرض آخر الزمان استناداً إلى روايات تذكر نزول عيسى آخر الزمان، فيؤمن به اليهود والنصارى، وهذا القول مردود؛ لأنّ الآية تعمم، وما يقع عند نزوله مخصص بمن يحضر نزوله من أهل الكتاب.

والذي يفهم من الآية: أنّ اليهود قالوا بالصلب وأنّ عيسى مات بهذا الصلب، عندما شد على الخشبة ومات عليها، والنصارى أخذوا بهذا عندما جعلوا الصلب والموت على الصليب من أصول عقيدتهم، فهم يؤمنون ويقرون بهذا الصلب على مختلف مذاهبهم القديمة والحديثة، ونص العقيدة يكررونها في صلواتهم كل يوم، ولا بأس أن أسجلها هنا كوصمة عار للنصارى عندما انخدعوا بأكاذيب اليهود، أعداء عيسى وأعداء الأنبئاء جميعاً وأعداء البشرية كلهم!.

يقول ابن كثير في كتابه قصص الأنبئاء ـ عاطفاً على ما حصل من النصارى من الكفر والخيانة ـ: وجميع الملكية، والنسطورية ـ أصحاب نسطورس ـ أهل المجمع الثاني، واليعقوبية ـ أصحاب يعقوب البراذعي ـ أصحاب المجمع الثالث، يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها. وها أنا أحكيها ـ وحاكي الكفر ليس بكافر ـ على ما فيها من ركّة الألفاظ، وكثرة الكفر والخيال المفضي بصاحبه إلى النار ذات

الشواظ. فيقولون: «نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السماوات والأرض كل ما يرى وكل ما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء، من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء، وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطي وتألم وقبر، وقام في اليوم الثالث ـ كما في الكتب ـ وصعد إلى السماء وجلس على يمين الأب، وأيضا فسيأتي بجسده ليدبر الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه، وروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب، والابن مسجود له، ويُمجد الناطق في الأنبياء، كنيسةٌ واحدة جامعة مقدسة يهولية، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، وأنّه حيٌّ قيامة الموتى وحياةَ الدهر العتيد كونه. . . آمين»(*). أتيت بهذا الكلام ليتأكد كل مسلم من صحة ما يحكي القرآن الكريم عن خرافات اليهود والنصارى وكفرياتهم لاشتراكهم في الكذب على رسول الله عيسى عليه السلام. . . **﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾**: هذا مما يؤكد ما قلته لك من اضطراب المفسرين في موضوع ما يحكى عن عيسى مما ينقل من أكاذيب اليهود والنصارى، وما على المسلم إلاّ أن يأخذ بما دل عليه الدليل القاطع، من المصدر الموثوق به (القرآن العظيم) لأنّه النور الساطع.

ثاني عشر: **﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾**: فبظلم زائد على ما تقدم من المظالم السابقة، إنّه ظلم هائل فظيع لا يماثله ظلم؛ لأنّه ليست له صفة تجعله في حيّز متميّز، فهو ظلم اليهود الذي لا يستطيع الإنسان أن يدرك كنهه!.

ثالث عشر: **﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾**: إنّ من تتبع تاريخ اليهود ـ قديماً وحديثاً ـ يجدهم هم العائق لنشر الأمن والسلام في العالم، فهم الذين يوقدون نيران الحروب، وهم الذين يزرعون الحقد في القلوب، وهم الذين يبثّون المجاعات في كل الشعوب!.

(*) قصص الأنبياء لابن كثير. الجزء الثاني ـ المكتبة الاسلامية بيروت ـ الطبعة الثانية 1402 هـ، ص 457.

رابع عشر: **﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾**: فمن المعلوم عند الخاص والعام أنّ اليهود هم أساطين وأساتذة المرابين مع أنّهم يدّعون أنّهم على دين!.

خامس عشر: **﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾**: زيادة على أخذ الربا، يأكلون أموال الناس بأيّ صورة من صور الأكل، فهم أبشع خلق الله نهماً وجشعاً، فلا يبالون بأيّ طريق من طرق الكسب يأخذون، ولذلك يجزئ الجزاءَ الرادع والمناسب لهذه الفظائع؛ تحريم الطيبات عليهم في الدنيا، والعذاب الأليم في الأخرى، **﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً...﴾**

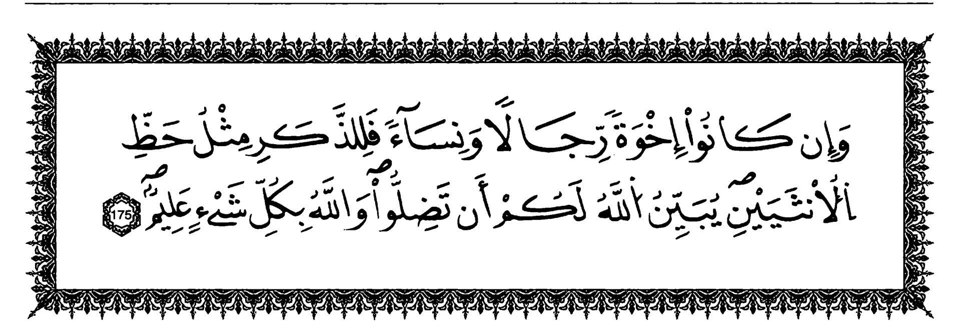
﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾: سبق في هذا الموضوع ذكر لأهل الكتاب في قوله تعالى: «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلاّ ما دمت عليه قائماً، ذلك بأنّهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»، وفي قوله: «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين»، وهنا لمّا ذكر قبائحهم وكفرهم وظلمهم وما تسبب عليه من عنت وشقاء، استثنى الذين ذكرت أوصافهم فيما سبق وما سيكونون عليه فيما لحق. والقرآن دائماً يفتح أبواب الخير لأهل الخير، وكل من يرجع إلى الله يجد الباب مفتوحاً أمامه، سواء كان منافقاً أو مشركاً، يهودياً أو نصرانياً صابئا أو مجوسياً، «قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين».

2 ـ رسالة الرسول محمد
تكملة لبناء الدين الموحّد

النص

إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ
بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ
وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿162﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ
مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿163﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿164﴾
* لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿165﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿166﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟
لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿167﴾
إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿168﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ
مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿169﴾

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ
وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ
إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿170﴾ * لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ
أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن
يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿171﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ
وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟
فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿172﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم
بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿173﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ
مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿174﴾
يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ
لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ
إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ



البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**إنّا أوحينا إليك**﴾: الوحي يطلق في اللغة على عدة معان؛ منها الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك، والجمع وُحِيٌّ، وأوحى إليه بعثه، وأوحى إليه ألهمه. والمراد بالوحي هنا: العرفان الذي يجده الشخص الموحى إليه في نفسه مع اليقين بأنّه من قِبَل الله بواسطة أو بغير واسطة، والوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ هو القرآن الذي جاءه به جبريل ـ عليه السلام ـ من عند الله تعالى. ﴿**نوح**﴾: هو أول رسول دعا قومه فكفروا به، فأهلكهم الله بالغرق (الطوفان). ﴿**إبراهيم**﴾: أبو الأنبئاء المعروفين عند علماء التاريخ. ﴿**إسماعيل**﴾: ابن إبراهيم. ﴿**إسحاق**﴾: أخو إسماعيل. ﴿**يعقوب**﴾: ابن اسحاق. ﴿**الأسباط**﴾: أبناء يعقوب ومنهم يوسف ـ عليه السلام ـ. ﴿**عيسى**﴾: ابن مريم. ﴿**أيوب**﴾: النبي الصالح والعبد الصبور الشاكر. ﴿**يونس**﴾: ذو النون ـ صاحب الحوت ـ، وهو يونس بن متّى كما سماه الرسول ﷺ. ﴿**هارون**﴾: أخو موسى، كان رسولاً مع أخيه موسى. ﴿**سليمان**﴾: ابن داوود، وكان رسولاً وملكاً لبني إسرائيل. ﴿**داوود**﴾: أبو سليمان، مهّد المُلك لابنه بانتصاره على الجبّارين، وقتل طاغيتهم (جالوت)...

﴿**ورسلاً قد قصصناهم عليك**﴾: مثل هود وصالح وشعيب وزكرياء ويحيى وإلياس واليسع ولوط... ﴿**ورسلاً لم نقصصهم عليك**﴾: لم يَرِدْ ذكرُهم في القرآن... ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾: أوحى إليه بكلام خاص به، أي: أنّ موسى سمع كلاماً من عند الله، بحيث لا يحتمل أنّ الله أرسل إليه جبريل للكلام، أو أوحى إليه في نفسه... ﴿**رسلاً مبشّرين ومنذرين**﴾: يبشرون المؤمنين

بالنعيم، وينذرون الكافرين بالجحيم. . . **﴿لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل﴾**: المراد بالحجة هنا: العذر البيّن الذي يوجب التَّنصُّلَ من الغضب والعقاب، والحُجَّة في اللغة اسم لمصدر حجّه يحُجّه حَجّاً غلبه بالحُجّة. . . **﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾**: لكن حرف استدراك، والاستدراك: تعقيب الكلام برفع ما يُتوهم ثبوته أو نفيه. وحقيقة الشهادة هنا: الإخبار بتصديق الرسول وتكذيب اليهود، لأنّ أصلها إخبار لتصديق مخبر وتكذيب مخبر آخر. . . **﴿أنزله بعلمه﴾**: بالغاً الغاية في باب الكتب السماوية، شأن ما يكون بعلم من الله تعالى. . .

﴿إنّ الذين كفروا﴾: يطلق على كل كافر؛ فيدخل فيه اليهود الذين كان الكلام معهم. . . **﴿وصدُّوا﴾**: الصد قد يكون لازماً بمعنى امتنع وأعرض، وأن يكون متعدّيا بمعنى منع غيره من الدخول في الإسلام، يقال: صد عنه صدوداً: أعرض، وصدّ فلاناً عن كذا: منعه وصرفه، مأخوذ من التصدي وهو التعرُّض، والصد: الجبل؛ لأنّه يتعرض المارة، ومنه قوله: أنا بصدده، أي: قبالته متعرّضاً له. . . **﴿عن سبيل الله﴾**: الإسلام؛ لأنّه يدعو إلى طريق الخير، وأصل السبيل الطريق، يؤنث ويذكّر ويفرد ويجمع على وزن واحد. . . **﴿قد ضلوا﴾**: الضلال ضد الهدى، والضلال: الضياع والموت، وصار تراباً وعظاماً. والمراد به هنا: الكفر لأنّه ضياع عن الإيمان. . . **﴿ياأيّها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾**: الناس: البشر جميعاً. والرسول: محمد خاتم الأنبئاء؛ فالتعريف للعهد. والحق: الشريعة. ومن ربكم القرآن الذي جاءه من عند الله. . .

﴿ياأهل الكتاب﴾: خطاب للنصارى. . . **﴿لا تغلوا في دينكم﴾**: غلا في الأمْرِ غُلُوّاً: جاوز حدّه، والغلوّ مشتق من غَلْوَةِ السهم، وهي منتهى اندفاعه، والمراد هنا: البعد في الضلال بتجاوزهم حدود الدين الحقّ. . . **﴿إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾**: سمي عيسى بالمسيح؛ لأنّه خلق مباركاً، ويطلق المسيح على كثير السياحة، وقولهم: فلان يُتمسّح به لفضله، وسمي بكلمة الله، لأنّه جاء من غير أب، «إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون»، ويسمى بروح الله، لأنّه جاء عن طريق بشارة روح الله جبريل، أو جاء بسبب نفخ الله (خلق الله) الروح فيه،

مثل: «ونفخت فيه من روحي». والروح في أصل اللغة ما به حياة الأنفس، ثم أطلق في الشرع على الوحي وعلى القرآن وعلى جبريل وعلى عيسى، والروح يذكر ويؤنث. . . ﴿**ولا تقولوا ثلاثة**﴾: لا تنطقوا بهذه الكلمة فتتّخِذُوها شعاراً، ولا تَعْتَقِدوا ما يقول رؤساؤكم في كيفية التثْليث من التلفيق والتزييف. . .

﴿**سبحانه**﴾: اسم مصدر سبّح بمعنى تنزّه تنزيها، والمصدر من سبّح التسبيح. . . ﴿**لن يستنكف المسيح**﴾: استنكف: استكبر بشدّة، ونكف عنه: أنف منه وامتنع، فالاستنكاف أشد من الاستكبار؛ لأنّه امتناع عن استكبار وأنفة. مفردات بقية السورة معلومة من مماثلها في السابق.

مبحث الإعراب

﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أوحينا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**إليك**﴾ جار ومجرور متعلق بأوحينا. ﴿**كما**﴾ الكاف بمعنى مثل، وهو منصوب نعت لمصدر مقدّر، وما مصدرية. ﴿**أوحينا**﴾ فعل وفاعل، والتقدير: أوحينا إليك وحياً مثلَ وحينا ﴿**إلى نوح والنبيئين**﴾ معطوف على نوح. ﴿**من بعده**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت للنبيئين، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وأوحينا**﴾ معطوف على أوحينا الأول. ﴿**إلى إبراهيم**﴾ جار ومجرور متعلق بأوحينا. ﴿**وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط**﴾ معطوفة على إبراهيم مجرورة بالفتحة لمنعها من الصرف للعلمية والعجمة، والأسباط مجرورة بالكسرة لأنّه جمع تكسير. ﴿**وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان**﴾ كذلك. ﴿**وآتينا**﴾ فعل وفاعل معطوف على أوحينا. ﴿**داوود**﴾ مفعول أوّل. ﴿**زبوراً**﴾ مفعول ثان كل منهما منصوب بالفتحة.

﴿**ورسلاً**﴾ مفعول به لفعل مقدّر، أي: أرسلنا رسلاً. ﴿**قد قصصناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة نعت لرسل. ﴿**عليك**﴾ جار ومجرور متعلق بقصصنا. وكذلك ﴿**من قبل**﴾. ﴿**ورسلاً لم نقصصهم عليك**﴾ مثلها. ﴿**وكلّم الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**موسى**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذّر. ﴿**تكليماً**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿**رسلاً**﴾ منصوب على البدلية، أو على المدح، أو مفعول بأرسلنا مقدّرة، أو على الحال، وأنت بالاختيار على

كل حال. ﴿**مبشرين**﴾ نعت. ﴿**ومنذرين**﴾ عطف عليه. ﴿**لئلاّ**﴾ اللام للتعليل، وأن للمصدر والنصب، ولا للنفي. ﴿**يكون**﴾ فعل مضارع ناقص منصوب بالفتحة. ﴿**للناس**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر يكون. ﴿**على الله**﴾ كذلك. ﴿**حجّةٌ**﴾ اسم يكون. ﴿**بعد**﴾ ظرف منصوب بالفتحة متعلق بمحذوف نعت لحجّة. ﴿**الرسل**﴾ مضاف إلى الظرف مجرور بالكسرة. ﴿**وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾ جملة تذييلية من كان واسمها وخبرها. ﴿**لكن**﴾ حرف استدراك مخفف لا عمل له. ﴿**الله**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**يشهد**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**بما**﴾ جار ومجرور متعلق بيشهد. ﴿**أنزل**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة ما. ﴿**إليك**﴾ جار ومجرور متعلق بأنزل. ﴿**أنزله**﴾ مثل أنزل، والضمير فيه مفعول به. ﴿**بعلمه**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ضمير المفعول، والجملة تفسيرية لا محل لها من الإعراب. ﴿**والملائكة**﴾ مبتدأ. ﴿**يشهدون**﴾ فعل وفاعل خبره والجملة معطوفة على قوله: لكن الله يشهد. ﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾ تذييلية معلوم إعرابها مما سبق.

﴿**إنّ الذين**﴾ إنّ واسمها. ﴿**كفروا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**وصدُّوا**﴾ معطوف على كفروا. ﴿**عن سبيل**﴾ جار ومجرور متعلق بصدوا. ﴿**اللهِ**﴾ مضاف إلى سبيل مجرور بالكسرة. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**ضلوا**﴾ فعل وفاعل، وهو في محل رفع خبر إنّ. ﴿**ضلالاً**﴾ مفعول مطلق. ﴿**بعيداً**﴾ نعت له. ﴿**إنّ الذين كفروا وظلموا**﴾ مثل إنّ الذين كفروا وصدوا في الإعراب. ﴿**لم**﴾ حرف نفي وجزم. ﴿**يكن**﴾ فعل مضارع ناقص. ﴿**الله**﴾ اسم يكن مرفوع بالضمة. ﴿**ليغفر**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بيغفر، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: لم يكن الله مريداً للغفران لهم. ﴿**ولا ليهديهم طريقاً**﴾ مثلها. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**طريق**﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿**جهنّم**﴾ مضاف إلى طريق مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث. ﴿**خالدين**﴾ حال من الضمير المنصوب الدالة عليه جهنم، أي يدخلهم جهنم خالدين. ﴿**فيها**﴾ جار ومجرور متعلق بخالدين. ﴿**وكان ذلك على الله يسيراً**﴾ جملة تذييلية من كان واسمها وخبرها.

﴿**ياأيُّها الناس**﴾ تقدم إعرابها في أول السورة. ﴿**قد جاءكم الرسول**﴾ فعل

وفاعل دخلت عليه حرف التحقيق. ﴿**بالحق من ربكم**﴾ متعلقان بجاءكم. ﴿**فآمنوا**﴾ فعل أمر دخل عليه فاء التعقيب، وواو الجماعة فاعل. ﴿**خيراً**﴾ خبر يكن مقدر، أي: يكن الإيمان خيراً. ﴿**لكم**﴾ فلكم متعلق به. ﴿**وإن تكفروا**﴾ جملة فعل الشرط معطوفة على آمنوا. ﴿**فإنّ**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، إنّ حرف توكيد ونصب. ﴿**لله**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبرُ إنّ. ﴿**ما**﴾ اسمها مؤخّر. ﴿**في السماوات**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات مجرور بالكسرة، وجملة فإنّ لله في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وكان الله عليماً حكيماً**﴾ جملة تذييلية من كان واسمها وخبرها.

﴿**ياأهل**﴾ منادى منصوب بالفتحة. ﴿**الكتاب**﴾ مضاف إلى أهل مجرور بالكسرة. ﴿**لا تغلوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف النون بلا الناهية، وواو الجماعة فاعل. ﴿**في دينكم**﴾ جار ومجرور متعلق بتغلوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ولا تقولوا**﴾ معطوف على النهي السابق، وهو مثله في الإعراب. ﴿**على الله**﴾ جار ومجرور متعلق بتقولوا. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء لا عمل لها هنا. ﴿**الحقَّ**﴾ بدل من المفعول المستثنى منه، أي: لا تقولوا على الله شيئا إلاّ الحقّ. ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**المسيحُ**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**عيسى**﴾ بيان له مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**ابن**﴾ نعت لعيسى مرفوع بالضمة. ﴿**مريم**﴾ مضاف إلى ابن مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث. ﴿**رسول**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالضمة. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى رسول مجرور بالكسرة. ﴿**وكلمته**﴾ معطوف على رسول مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ألقاها**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، والضمير فيه مفعول به. ﴿**إلى مريم**﴾ جار ومجرور متعلق بألقاها.

﴿**وروح**﴾ معطوف على رسول. ﴿**منه**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لروح، وجملة إنّما المسيح تعليلية لا محل لها من الإعراب، وجملة ألقاها نعت لكلمة. ﴿**فآمنوا**﴾ الفاء للتفريع، وآمِنو فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**بالله**﴾ متعلق بآمنوا. ﴿**ورسله**﴾ معطوف على الله مجرور بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ولا تقولوا**﴾ معطوف على آمنوا، وهو فعل دخلت عليه لا الناهية فجُزم بحذف النون. ﴿**ثلاثة**﴾ خبر لمبتدإ محذوف، والجملة في محل نصب مقول

القول. ﴿**انتهوا**﴾ فعل أمر. ﴿**خيراً**﴾ منصوب خبر ليكن مقدّرة أي: يكن الإيمان خيراً. ﴿**لكم**﴾ متعلق بخيراً.

﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**الله**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**إله**﴾ خبره. ﴿**واحد**﴾ نعت له، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**سبحانه**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أن يكون**﴾ أن حرف مصدر ونصب، يكون فعل مضارع ناقص. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر يكن مقدم. ﴿**ولد**﴾ اسمها مؤخر، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بعن متعلق بسبحان، أي: تنزّه عن كينونة الوالدية. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**ما**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**في السماوات**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**وما في الأرض**﴾ معطوف على ما في السماوات، وجملة له ما في السماوات تعليل لقوله: سبحانه، لا محل لها من الإعراب. ﴿**وكفى بالله وكيلاً**﴾ جملة تذييلية تقدّم إعرابها.

﴿**لن يستنكف المسيح**﴾ جملة فعلية منفية بلن جيء بها استدلالاً على تنزيه الله عن كون المسيح ولداً له، وإنّما هو عبد من عباده. ﴿**أن يكون عبداً**﴾ جملة مؤولة بمصدر مجرور بحرف جر مقدّر، أي: لن يتكبر ويأنف المسيح عن كونه عبداً من عباد الله. ﴿**ولا الملائكة**﴾ معطوف على المسيح مرفوع بالضمة. ﴿**المقربون**﴾ نعت للملائكة مرفوع بالواو. ﴿**ومن يستنكف**﴾ فعل مضارع مجزوم بالشرط، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**عن عبادته**﴾ متعلق بيستنكف، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ويستكبر**﴾ معطوف على يستنكف مجزوم بالسكون. ﴿**فسيحشرهم**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، والسين دالة على الاستقبال، والضمير في الفعل مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى. ﴿**إليه**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**جميعاً**﴾ حال من المفعول. ﴿**فأمّا**﴾ الفاء للتفريع، أما تفصيلية.

﴿**الذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**وعملوا**﴾ معطوف على الصلة. ﴿**الصالحات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة، لأنّه جمع مؤنث سالم. ﴿**فيوفيهم**﴾ الفاء للتعقيب، يوفي فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير يعود على الله، والضمير (هم) مفعول أوّل. ﴿**أجورهم**﴾ مفعول ثانٍ منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ويزيدهم**﴾ معطوف على يوفي. ﴿**من فضله**﴾ متعلق بيزيد، والضمير فيه مضاف إليه،

والجملة خبر الذين. ﴿**وأمّا الذين استنكفوا**﴾ معطوف على فأمّا الذين آمنوا، وهو مثله في الإعراب. ﴿**فيعذبهم**﴾ جملة فعلية خبر الذين استنكفوا. ﴿**عذاباً**﴾ مفعول به. ﴿**أليماً**﴾ نعت له. ﴿**ولا يجدون**﴾ جملة فعلية منفية بلا معطوفة على يعذبُهم. ﴿**لهم**﴾ متعلق بيجدون. ﴿**من دون الله**﴾ كذلك. ﴿**وليّاً**﴾ مفعول به. ﴿**ولا نصيراً**﴾ معطوف عليه.

﴿**ياأيُّها الناس**﴾ إعرابها معلوم. ﴿**قد جاءكم**﴾ قد للتحقيق، جاء فعل ماض، والضمير (كم) مفعول به. ﴿**برهانٌ**﴾ فاعل. ﴿**من ربّكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لبرهان. ﴿**وأنزلنا**﴾ معطوف على جاءكم. ﴿**إليكم**﴾ متعلق بأنزلنا. ﴿**نوراً**﴾ مفعول به. ﴿**مبيناً**﴾ نعت له. ﴿**فأمّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً**﴾ إعرابها مثل فأمّا الذين آمنوا السابقة، وقوله صراطاً مفعول ثانٍ ليهدي، ومستقيماً نعت لصراطاً. ﴿**يستفتونك**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**الله**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. وجملة ﴿**يفتيكم**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**في الكلالة**﴾ متعلق بيفتيكم. ﴿**إن**﴾ حرف شرط جازم. ﴿**امرؤ**﴾ فاعل للفعل المقدر الدال عليه هلك. ﴿**هلك**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو. ﴿**ليس**﴾ فعل ماض ناقص. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر ليس. ﴿**ولد**﴾ اسم ليس مرفوع بالضمة. ﴿**وله أخت**﴾ جملة من مبتدإ وخبر معطوفة على ليس له ولد، وجملة ليس له ولد نعت لامرؤ. ﴿**فلها**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، لها متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**نصفُ**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضافة إلى نصف.

﴿**ترك**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الهالك، وجملة ترك صلة ما، وجملة فلها نصف في محل جزم جواب الشرط في قوله: إن امرؤ هلك. ﴿**وهو**﴾ مبتدأ. ﴿**يرثها**﴾ الجملة من الفعل والفاعل والمفعول خبر المبتدإ، وهي معطوفة على قوله: إن امرؤ هلك. ﴿**إن**﴾ حرف شرط جازم. ﴿**لم**﴾ حرف نفي وجزم. ﴿**يكن**﴾ مجزوم بلم. ﴿**لها**﴾ متعلق بمحذوف خبر يكن. ﴿**ولد**﴾ اسم يكن، وجملة لم يكن لها ولد في محل جزم فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: وهو يرثها، والتقدير: إن لم يكن لها ولد فيرثها أخوها. ﴿**فإن**﴾ الفاء للتفريع، إن شرطية. ﴿**كانتا**﴾ كان واسمها. ﴿**اثنتين**﴾ خبرها منصوب بالياء، لأنّه

مثنى. ﴿**فلهما**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، لهما متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**الثلثان**﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالألف. ﴿**مما**﴾ متعلق بمحذوف حال من الثلثان. ﴿**ترك**﴾ صلة ما، والفاعل ضمير يعود على الهالك، وجملة فلهما الثلثان في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وإن كانوا إخوة**﴾ جملةٌ من كان واسمها وخبرها معطوفة على قوله: فإن كانتا اثنتين. ﴿**رجالاً**﴾ بدل من إخوة. ﴿**ونساءً**﴾ معطوف على رجالاً. ﴿**فللذكر**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، للذكر متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**مثلُ**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**حظّ**﴾ مضاف إلى مثل. ﴿**الأنثيين**﴾ مضاف إلى حظ مجرور بالياء لأنّه مثنى، وجملة فللذكر مثل في محل جزم جواب الشرط.

﴿**يبيّن الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لكم**﴾ متعلق بيبيّن. ﴿**أن**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**تضلوا**﴾ فعل وفاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مضاف إلى مقدّر، أي: يبيّن الله لكم كراهة ضلالكم، وهناك تقادير أخرى مذكورة في كتب التفسير. ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾ جملة تذييلية من المبتدإ والخبر، والجار والمجرور متعلق بعليم، أي: والله عليم بكل شيء، وشيء مضاف إلى كل مجرور بالكسرة، والجملة التذييلية لا محل لها من الإعراب.

مبحث الأسلوب البلاغي:

﴿**إنّا أوحينا إليك**﴾.. الخ: يرتبط الكلام بما قبله ردّاً لزعم اليهود وتكذيباً لهم، وبيان لتعنّتهم في طلبهم من الرسول أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، ويرتبط كذلك بما يأتي من أكاذيب النصارى وتكفيرهم بما ادعوه على عيسى من الأكاذيب. وبصدد توحيد العقيدة وتوحيد الرسل، يقرر السياقُ أن الإيحاء للرسول ليس بدعاً وليس غريباً، فهو سنة الله في إرسال الرسل جميعاً من عهد نوح إلى عهد محمد، وكلهم رسل أُرسلوا للتبشير والإنذار؛ للإعذار للناس قبل الحساب. وسِرُّ البداية بذكر نوح، لأنّه أول نبيء عذبت أمته لردهم دعوته. وذكر أسماء بعض الأنبئاء بالخصوص تشريفاً لهم وإظهاراً لفضلهم، وتصريحاً بمن ينتمي إليهم اليهود من الأنبئاء. وتكرير الفعل لمزيد تقرير الإيحاء، والتنبيه على أنّهم طائفة خاصّة مستقلة بنوع مخصوص من الوحي.

وفي السياق تحقيقُ مماثلةِ محمد لبقيّة الرسل من ثلاثة وجوه: الوجه الأول:

الإيحاء. الوجه الثاني: إيتاء الكتاب. الوجه الثالث: الإرسال، وهو تعجيب من سؤال اليهود بإنزال كتاب من السماء بالخصوص على محمد ﷺ. وتأكيد الكلام بإنّ (إنّا أوحينا إليك) للاهتمام بالخبر، ولتنزيل منزلة المردود عليهم منزلة من ينكر الوحي بهذه الكيفية. وقوله. . . ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾: غُيّرَ الأسلوبُ فعُدل عن العطف إلى ذكر فعل آخر؛ لأنّ لهذا النوع من الوحي مزيدُ أهميّة، وهو مع تلك المزيّة ليس إنزال كتاب من السماء، فإذا لم تكن عبرة إلاّ إنزال كتاب من السماء حسب اقتراحهم فقد بطل أيضاً ما أوحى الله به إلى موسى من الكلام. وقوله: «وكلّم الله موسى تكليماً» فتكليماً توكيد لكلّم.

وقوله. . . ﴿**لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل**﴾: تعليل لإرسال الرسل. والإظهار في مقام الإضمار في قوله: بعد الرسل. . للاهتمام بهذه القضية، واستقلالها في الدلالة على معناها حتى تسير مَسْرى الأمثال. ومناسبة التذييل بالوصفين في قوله: ﴿**عزيزاً حكيماً**﴾؛ أما بوصف الحكيم فظاهرة، لأنّ هذه الأخبار كلها دليل حكمته تعالى؛ وأمّا بوصف العزيز، فلأنّ العزيز يناسب عزته أن يكون غالباً من كل طريق؛ فهو غالب من طريق المعبودية لا يسأل عما يفعل، وغالب من طريق المعقولية؛ إذ شاء ألاّ يؤاخذ عبيده إلاّ بعد الأدلة والبراهين والآيات. وتأخير وصف الحكيم؛ لأنّ إجراء عزته على هذا التمام هو أيضاً من ضروب الحكمة الباهرة. . .

﴿**لكن الله يشهد بما أنزل إليك**﴾. . . الخ الآية: هذا استدراك على معنى أثاره الكلام، لأنّ ما تقدم من قوله: يسألك أهل الكتاب، مسوق مساق بيان تعنّتِهِم ومكابرتهم عن أن يشهدوا بصدق الرسول وصحة نسبة القرآن إلى الله تعالى، فكان هذا المعنى يستلزم أنّهم يأبون من الشهادة بصدق الرسول، وأن ذلك يحزن الرسول، فجاء الاستدراك بقوله: لكن الله يشهد. والشهادة أطلقت على الإخبار بنزول القرآن من الله إطلاقاً مجازياً، لأنّ هذا الخبر تضمّن تصديق الرسول وتكذيب معانديه، وهو إطلاق على وجه الاستعارة. . .

﴿**إنّ الذين كفروا**﴾: هذا تعقيب على الكلام السابق بالتهديد على كل من كفر. . . ﴿**وصدوا عن سبيل الله**﴾: حذف المفعول لقصد التكثير، فقد كان اليهود يتعرضون للمسلمين بالفتنة، ويُقوُّون أوهام المشركين بتكذيبهم النبيء ﷺ. . . ﴿**قد**

ضلُّوا ضلالاً بعيداً﴾: وصف الضلال بالبعيد مع أنّ البعد من صفات المسافات، ففي الضلال استعارة مبنية على استعارة الطريق المستقيم للإيمان. وفي الوصف بالبعد استعارة أخرى، هو استعارة البعد لشدة الضلال وكماله في نوعه، بحيث لا يدرك مقداره، وهو تشبيه شائع في كلام العرب؛ أن يشبهوا بلوغ الكمال بما يدل على المسافات والنهايات، كقولهم: بعيد الغور، وبعيد القعر، ولا نهاية له، ولا غاية له، ورجل بعيد الهمة، وبعيد المرمى، ولا منتهى لكبارها، وبحر لا ساحل له، وقولهم: هذا إغراق في كذا. ومن بديع مناسبته هنا أنّ الضلال الحقيقي يكون في الفيافي والمرامي فإذا اشتد التيه والضلال بعد صاحبه عن المعمور، فكان في وصفه بالبعيد تعاهد للحقيقة، وإيماء إلى أنّ في إطلاقه على الكفر والجهل نقلاً عُرْفيّاً. . .

﴿إنّ الذين كفروا وظلموا﴾: في هذه الجملة بيان للجملة السابقة لأنّ السامع يترقب جزاء هذا الضلال فبيّنتْه هذه الجملة. وإعادةُ الموصول وصلته دون ذكر ضميرهم، لتبنى عليه صلته «وظلموا»، ولأنّ في تكرير الصلة تنديداً عليهم. وعطف الظلم على الكفر ليشمل أهل الكتاب بظلمهم ما ارتكبوا من المعاصي والمآسي، ويشمل أهل الشرك «إنّ الشرك لظلم عظيم». وحذف المفعول في قوله: وظلموا، ليعم ظلم النفس وظلم الغير بارتكاب المفاسد والجرائم مما استقر عند أهل العقول أنّه ظلم وعدوان. وقوله: **﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾** صيغة جحود، فهي تقتضي تحقيق النفي، وهو تحذير من البقاء على الكفر والظلم، لأنّ هذا الحكم نِيطَ بالوصف ولم يعلق بأشخاص معروفين، فإن هم أقلعوا عن الكفر والظلم لم يكونوا من الذين كفروا وظلموا. ومعنى نفي أن يهديهم طريقاً: إن كان طريقا يومَ القيامة فهو واضح، أي: لا يهديهم طريقاً يوصلهم إلى مكان إلاّ طريقاً يوصل إلى جهنم. ويجوز أن يراد من الطريق الآيات في الدنيا، كقوله: «اهدنا الصراط المستقيم»، فنفي هديهم إليه إنذار بأنّ الكفر والظلم من شأنهما أن يخيّما على القلب بغشاوة تمنعه من وصول الهدى إليه، ليحذر الملتبس بالكفر والظلم من التوغل فيهما، فلعله أن يصبح ولا مخلص له منهما.

ونفي هدى الله إيّاهم على هذا الوجه مجاز عقلي في نفي تيسير أسباب الهدى بحسب قانون حصول الأسباب وحصول آثارها بعدها. وقوله: **﴿إلاّ طريق**

جهنّم﴾، استثناء متصل إن كان الطريق الذي نفى هديهم إليه الطريقَ الحقيقيَّ، ومنقطع إن أريد بالطريق الأول الهدى، وفي هذا الاستثناء تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه؛ لأنّ الكلام مسوق للإنذار، والاستثناء فيه رائحة إطماع، ثم إذا سمع المستثنى تبيّن أنّه من قبيل الإنذار. وفيه تهكم؛ لأنّه استُثْني من الطريق المعمول ليهديهم، وليس الإقحام بهم في طريق جهنم بهُدًى؛ لأنّ الهدى هو إرشاد الضال المكانَ المحبوبَ، ولذلك عقبه بقوله: **﴿وكان ذلك﴾**، أي: الإقحام بهم في طريق النار **﴿على الله يسيراً﴾**؛ إذ لا يعجزه شيء، وإذ هم عبيده يصرفهم إلى حيث يشاء. . .

﴿ياأيُّها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربّكم﴾: بعد انتهاء الكلام مع اليهود، ثم خطاب أهل الكفر بما هو صالح لأن يكون شاملاً لأهل الكتاب وجّه الخطاب إلى الناس جميعاً؛ ليكون تكملة وتأكيداً لما سبقه، إذ قد تهيّأ من القوارع السالفة ما قامت به الحجّة واتسعت المحجة، فكان المقام للأمر باتباع الرسول والإيمان. والتعريف في الرسول للعهد، وهو محمد المعهود بين المخاطبين وقت التنزيل. والحق القرآن. ومن للابتداء المجازي. وتعدية جاء إلى ضمير المخاطبين ترغيب لهم في الإيمان؛ لأنّ الذي يجيء مهتما بناس يكون حقّاً عليهم أن يتبعوه، وأيضا في طريق الإضافة من قوله: ربكم، ترغيب ثانٍ لما تدل عليه من اختصاصهم لهذا الدين الذي هو آت من ربّهم، فلذلك أتى بالأمر بالإيمان مفرعا على هذه الجمل بقوله: **﴿فآمنوا خيراً لكم. . .﴾**

﴿وإن تكفروا فإنّ لله ما في السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾: إن تصرُّوا وتبقوا وتستمروا على الكفر بالله وبالرسول فإنّ لله ما في السماوات خلقا ومُلكا وتصرفا لا يخرج من ملكوته وقهره شيء منها، فمن كان كذلك فهو غني عنكم وعن غيركم. فجملة فإنّ لله ما في السماوات والأرض تعليل ودليل على ما يترتب عن الكفر من الإهانة والتعذيب؛ لأنّ من كان هذا شأنه فهو يتصرف في ملكه كما يشاء، وفيه تعريض بالمخاطبين. . .

﴿ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾: استئناف ابتدائي موجه إلى النصارى خاصة، وخوطبوا بعنوان أهل الكتاب تعريضاً بأنّهم خالفوا كتابهم. وابتُدئت موعظتهم بالنهي عن الغلو في الدين؛ لأنّ النصارى غلوا في تعظيم عيسى، فادعوا

له بنوّة الله، وجعلوه ثالث الآلهة. . . ﴿**ولا تقولوا على الله إلاّ الحق**﴾: عطف خاص على عام؛ للاهتمام بالنهي عن الافتراء الشنيع. وفعل القول إذا عدي بحرف على دل على أنّ نسبة القائل القول إلى المجرور بعلى نسبة كاذبة. . .

﴿**إنّما المسيح عيسى ابن مريم**﴾: جملة مبيّنة للحدّ الذي كان الغلو عنده، ومبيّنة للمراد من قول الحق، ولكونها تتنزّل من التي قبلها منزلة البيان فُصلت عنها. . . ﴿**رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه**﴾: ثلاث كلمات أفادت قصر المسيح على صفات ثلاث فقط: صفة الرسالة، وصفة كونه كلمة الله ألقيت إلى مريم، وصفة كونه روحاً من عند الله؛ فالقصر قصر موصوف على صفة، والقصد من هذا القصر إبطال ما أحدثه غلوُّهم في هذه الصفات غلواً أخرجها عن كنهها، فإنّ هذه الصفات ثابتة لعيسى، وهم مثبتون لها فلا ينكر عليهم وصف عيسى بها، لكنهم تجاوزوا الحد المحدود لها فجعلوا الرسالة البنوّة، وجعلوا الكلمة اتحاد حقيقة الإلهية بعيسى في بطن مريم، فجعلوا عيسى ابناً لله ومريم صاحبة لله ـ سبحانه ـ، وجعلوا معنى الروح على ما به تكونت حقيقة المسيح في بطن مريم من نفس الإلهية. والقصر إضافي، وهو قصر إفراد؛ فعيسى مقصور على صفة الرسالة والكلمة والروح، لا يتجاوز ذلك إلى ما يزاد على تلك الصفات من كون المسيح ابناً لله، واتحاد الإلهية به، وكون مريم صاحبة. وتصدير جملة القصر بأنّه رسول الله ينادى على وصف العبودية؛ إذ لا يرسل الإله إلها مثله، ففيه كفاية من التنبيه على معنى الكلمة والروح. . . ﴿**فآمنوا بالله ورسله**﴾. . . الخ: الفاء للتفريع عن جملة القصر وما بنيت عليه، فالمعنى: إذا وضح كل ما بيّنه الله من وحدانيته وتنزيهه وصدق رسله، بتفرع أن آمُركم بالإيمان بالله ورسله.

والمقصود من قوله. . . ﴿**ولا تقولوا ثلاثة**﴾: النهي عن النطق بالمشتهر من مدلول هذه الكلمة وعن الاعتقاد، لأنّ أصل الكلام الصدق فلا ينطق أحد إلا عن اعتقاد. فالنهي هنا كناية بإرادة المعنى ولازمِهِ، والمخاطب هنا خصوص النصارى. والقصر في قوله: ﴿**إنّما الله إله واحد**﴾ قصر موصوف على صفة، لأنّ إنّما يليها المقصور، وهو هنا قصر إضافة، فالله إله واحد ليس بثلاثة.

وقوله. . . ﴿**سبحانه أن يكون له ولد**﴾: إظهارٌ لغلطهم في إفهامهم، وفي إطلاقاتهم لفظ الأب والابن كيفما كان محملهما لأنّهما؛ إمّا ضلالة وإمّا إيهاماً،

فكلمة سبحانه تفيد قوة التنزيه لله تعالى عن أن يكون له ولد، والدلالة على غلط مثبتيه، فإنّ الإله ينافي كونه أباً واتخاذْ ابن. وجملة ـ **﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾** ـ تعليل لقوله: سبحانه، لأنّ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قد استغنى عن الولد، ولأنّ من يزعم أنّه ولد له هو مما في السماوات والأرض كالملائكة أو المسيح، فالكل عبيده وليس الابن بعبد! وقوله... **﴿وكفى بالله وكيلاً﴾**: تذييل مقرّر لما سبق من الكلام... **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾**: استئناف واقع موقع تحقيق جملة له ما في السماوات وما في الأرض، أو موقع الاستدلال على ما تضمنته جملة «سبحانه أن يكون له ولد». ونفي استنكاف عيسى اعتراف منه بأنّه عبد الله كما حقّقته آية «قال: إنّي عبد الله»، وفيه احتجاج على النصارى بما في بعض عبارات أناجيلهم مما يدل على أنّ المسيح عبد الله وأنّ الله إلهه وربُّه. وعدل عن طريق الإضافة في قوله ـ عبد الله ـ فأظهر الحرف الذي تقدر الإضافة عليه، لأنّ التنكير هنا أظهر في العبودية، فهو عبد من جملة العبيد، ولو قال: ـ عبدَ الله ـ لأوهمت الإضافة أنّه العبد الخصّيص، أو أنّ ذلك عَلَمٌ له.

وعبّر بقوله: عبداً لله، ولم يقل عبادة الله؛ ليفيد كمال نزاهته عن الاستنكاف بالكلية، فإنّ كونه عبداً لله حالة مستمرة مستتبعة لدوام العبادة قطعاً، فعدم الاستنكاف عنه مستلزم لعدم الاستنكاف عن عبادته تعالى بخلاف عبادته تعالى فإنها حالة متجدد غير مستلزمة للدوام يكفي في اتصاف موصوفها بها تحققها مرّة، فعدم الاستنكاف عنها لا يستلزم عدم الاستنكاف عن دوامها... **﴿ولا الملائكة المقربون﴾**: عطف على المسيح، والقصد منه ادماجُ كلِّ من ادعيت له بنوة الله ليشمله الخير بنفي استنكافه أن يكون عبداً لله...

﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر﴾... الخ الآية: تخلص إلى تهديد بقية الكافرين بعد تهديد النصارى على ترْكِهم عبادة الله عناداً واستكباراً. وضمير الجمع في قوله: فسيحشرهم عائد إلى غير مذكور في الكلام، بل إلى معلوم من المقام؛ فسيحشر الناس إليه جميعاً كما دلّ عليه التفصيل المفرع عليه. وضمير ولا يجدون عائد إلى الذين استنكفوا، وفيه تأييس لهم، إذ عرف عند العرب وغيرهم من أمم ذلك العصر الاعتماد عند الضيق على الأولياء والنصراء؛ ليكفوا عنهم

المصائب بالقتال أو الفداء، ولذلك كثر في القرآن نفي الولي والنصير والفداء. . .

﴿**ياأيُها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم**﴾: فذلكة للكلام السابق مما هو جامع للأخذ بالهدى ونبذ الضلال مما اشتمل عليه القرآن من دلائل الحق وكَبْحِ الباطل، فالجملة استئناف وإقبال على خطاب الناس كلهم بعد أن كان الخطابَ موجهاً لأهل الكتاب من النصارى، وهي مثل الدعوة التي أعقبت الجدل مع اليهود في الموضوع الذي قبل هذا. والبرهان دلائل النبوّة، والنور المبين القرآن. . . ﴿**فأمّا الذين آمنوا بالله**﴾. . . الخ: أمّا هنا قد تكون تفصيلية، تفصل بين قابل للبرهان وبين متمسك بالنكران، وبيّن نتيجة الأول وترك نتيجة الثاني للتهويل. وقد تكون أمّا شرطية، بمعنى: مهما يكن من شيء، وفي هذه الحالة لا تفيد التفصيل ولاتطلب مقابلاً. والاعتصام هنا استعارة للحماية بالدّين. . .

﴿**يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة**﴾: في أول السورة ذكر حكم الأموال عموماً، وحكم ما يتعلق من الميراث خصوصاً، وذكر هنا الكلالة مع الاسترسال مع بقية ما يتعلق بعلاقات الإنسان مع ربه، ومع بني نوعه من مخالف وموافق، وبيّنت حكم ما يتعلق بالحكم وما يتطلبه من رعاية وحماية، ثم ختم آخرها ببقية حكم الكلالة؛ لِيَكْتَمِلَ بذلك الغرضُ المقصودُ من تقوى الله وتقوى الأرحام. كل ذلك ليبيّن الهدى من الضلال، والصحيح من الباطل في الأحكام، فضمير الجماعة في قوله: يستفتونك غير مقصود به جمع، بل أريد به جنس السائلين، وهذا كثير في الكلام. والتعبير بصيغة المضارع في مادة السؤال طريقةً مشهورة، لأنّ شأن السؤال يتكرر، فشاع إيرَادُهُ بصيغة المضارع. والأمر في قوله: قل الله يفتيكم في الكلالة للتنويه بشأن الفريضة، فتقديم المسند إليه للاهتمام لا للقصر (الله يفتيكم). وقوله. . .

﴿**إن امرؤ هلك**﴾. . . الخ: إيجاز بديع، ومع غاية إيجازه فهو في غاية الوضوح. وقوله: يبيّن الله لكم أن تضلوا، امتنان، وأن تضلوا تعليل ليبيّن حذفت منه اللام، وحذفُ الجار مع أنْ شائعٌ، والمقصود التعليل بنفي الضلال لا لوقوعه. وقوله. . . ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾: تذييل، وفيه إيذان بختم الكلام، وهي صيغة جامعة شاملة لكل شيء من الميراث وغير الميراث؛ من علاقات الأسر وعلاقات الجماعات، من الأسباب والنتائج، من الأحكام والعلل؛ ختام يَرُدُّ الأمور كلها

لمن هو بكل شيء عليم، وفيه براعة المقطع، مع بلاغة ردّ العجز على الصدر.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح﴾... الخ: يبيّن الله هنا لمحمد ﷺ أنّ الوحي الذي جاءه منزلاً من عند الله هو مثل الوحي الذي أوحاه إلى نوح، الذي أرسله الله إلى قومه، وأوحاه إلى النبيئين من بعده عموماً، والذين ذكرت أسماؤهم هنا خصوصاً. والغرض من هذا الرد على أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالرسول ﷺ وأنكروا القرآن الذي أوحاه الله إليه. والرسل الذين قصهم الله في القرآن خمسة وعشرون رسولاً: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح ولوط وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وشعيب وهارون وموسى وداوود وسليمان وأيوب وذو الكفل ويونس وإلياس واليسع وزكرياء ويحيى وعيسى ومحمد خاتمُهم عليهم السلام. فبمُحَمَّدٍ ﷺ تمّ دين الله وتوحّد وخُتم، فلم يبق لأحد عذر في تركه، وإنكارُه جريمةٌ لا تُغْتَفَرُ. والله يشهد على حقيقة ما أنزله على هذا الرسول، والملائكةُ يشهدون، حيث أعجز جميع البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن وكفى بالله شهيداً!.

التوجيه الثاني: ﴿إنّ الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً. إنّ الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً. إلاّ طريق جهنّم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً﴾: في هذا بيان وتوضيح لأوصاف الكافرين، فقد وقفوا عرضة يمنعون من يريد الدخول في الإسلام بشتّى الطرق؛ من إغراء وتحذير وتمويه باللّسانِ والسِّنَان، بالنفس والمال والولد، والذي يفعل هذا الفعل لا شكّ أنّه لا يرجع إلى الهدى، وإنّما يذهب بعيداً في ضلاله وكفره وعناده، فهو ظالم لنفسه بكفره، وظالم لغيره بصدّه، ويصرّ عليه بعناده فلا غفران له؛ لأنّ الكفر والظلم قد أفسدا فطْرَتَه، ورانا على قلبه فلم يفق حتى وجد نفسه في غياهب الهلاك، وانتهى به المطافُ إلى مصير لا يمكن منه انفكاك. نعوذ بالله من الكفر والضلال والخيبة والخبال.

التوجيه الثالث: ﴿ياأيّها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربّكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإنّ لله ما في السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾: يُوَجِّهُ

الخطابُ في هذا النداء إلى الناس كافّةً بعد ما بيّن حقيقة الكفر ومصير الكافرين، يُبَيِّنُ لهم فيه حقيقة الرسول الذي أرسله الله بالحق، ليبيّن لهم الرشد من الغي والهدى من الضلال، بدعوة مدعومة بكل صدق؛ فآمنوا خيراً لكم من البقاء في غياهب الكفر ومتاهات الفجور والفسوق، فالبقاء على الكفر لن يَضُرَّ الله شيئاً؛ لأنّ الله غني عن العالمين فَكُلُّهُمْ مُلْكُهُ؛ إيجاداً وإمداداً وإشقاءً وإسعاداً، فبعلمه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وبحكمته سيّر كما يُريدُ كُلَّ الأمور!.

التوجيه الرابع: ﴿ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحق﴾: هذا التوجيه وهذا التحذير وهذا التشهير لقوم أورثهم الكتاب، وأرسل إليهم رسولاً يدعوهم إلى الصواب، فضيَّعُوا الكتاب وغيّروا الجواب، وقالوا على الله ما لم يقل، ووصفوا رسولهم بما لا يُحتمل. وهؤلاء القوم الذين يتّجه الخطاب إليهم هم النصارى، يأمرهم أن لا يَتَعَدُّوا الحدودَ التي رسمها لهم رسول الله عيسى ابن مريم، ولا يقولوا فيه إلاّ ما قال هو على نفسه: «إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيئاً وجعلني مباركاً أينما كنت. . .الخ»، حتى يكونوا منصفين لعيسى، ويكونوا منصفين لعقيدتهم في الله مما خلطوا فيهما من أوهام وأساطير. والقرآن يهتم دائماً بتوضيح معنى الرسالة عندما يتصف بها الرسول، وبتوضيح العقيدة في الله مرسل هذا الرسول، جرياً على منهجه في بيان سنته في العدل والحق، وفي توحيد الله وتوحيد دينه، ذلك التوحيد المطلق الواضح المحدد المبرَّأ من الغموض.

ذلك هو أساس العقيدة الإسلامية، وهو أساس كُلِّ عقيدة جاء بها رسول من عنده تعالى، وبدونه تختلط التخيلات بالأضاليل، ويدخل الناس في متاهةٍ لا هادي لهم فيها ولا دليل. والقضية التي يعرضها السياق هنا هي قضية التَّثْلِيث. . .

﴿إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة﴾: فعيسى عليه السلام رسول الله كبقية الرسل إنسان من بني البشر، خلقه الله بكلمة منه ألقاها إلى أمّه مريم عندما جاءها المَلَكُ وبشرها به، «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً، قالت إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّا، قال إنّما أنا رسول ربّك لأَهَبَ لك غلاماً زكيّا، قالت

أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيّاً، قال كذلكِ قال ربُّكِ هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيّاً»، هذا هو النص الواضح المحدد الذي يعطي حقيقة عيسى ووظيفته الأصلية، فهو عبد الله ورسوله.

وإنّما جاء التثليث إلى النصارى بعد فترة طويلة من بعثة عيسى تزيد على القرن من الزمن، ودخلت إليهم في فترات متدرجة من قوم سوء أرادوا بالنصارى سوءاً؛ من المنافقين اليهود والمنافقين الرومان، مثل بولص ومرقس وقسطنطين امبراطور الروم، فهم الذين أدخلوا على دين عيسى والحواريين من أتباعه التثليث وعبادة الصور والأقنُومات، وتقديس الصليب والكنيسة وآبائها من البابوات والمطارنة والقساوسة وكل من ينتمي إلى الكنيسة بمنصب، وسموه بالمسيحية ونسبوه إلى المسيح زوراً وكذباً، وشتان بين دين صرّح أتباعُه بأنّهم مسلمون، وبين دين تفرق أتباعُه شيعاً وأحزاباً مختلفة، ومذاهب متفرقة متنوّعة ملطخة بعار الوثنية وتعدد الآلهة، تندى لها جباه البشرية خجلاً وعاراً.

وقد ناضل الموحّدون وجاهدوا في سبيل رفعة التوحيد ليلاً ونهاراً، ولكنهم أخيراً شُرّدوا فاستتروا حتى جاء الإسلام بدعوته، فدخلوا فيه لما عرفوا من حجته «وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين». والْتَمَّ شملهم بما كان من إخوانهم الحواريين الذين قالوا نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين. وهذا مصداق قوله: «فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين».

وبقي من بقي من النصارى مرتكساً في أوحال الوثنية غارقاً في الخرافات الكَنَسِيَّةِ، ولم يسمعوا النداء ولم يلبوا الدّعاء في قوله تعالى... **﴿فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنّما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾**: والتثليث جاء إلى النصارى من عدة أقوام: فالهند عندهم ثالوث مؤلف من برهما وفُشْنُو وسِيفا، والبوذيون عندهم ثالوث مؤلف من ثلاثة أقانيم، والمصريون القدماء عندهم ثالوث مقدس يقولون عنه: إنّ الأول خلق الثاني، وهما خلقا الثالث، واليونانيون كانوا

يقولون: إنّ الإله مثلث الأقانيم، ويعتقدون أنّ الحكماء قالوا: إنّه يجب أن تكون جميع الأشياء المقدسة مثلثة، وكان لهم اعتناء بهذا العدد في جميع شعائرهم الدينية، وقد اقتبست الكنيسة بعد دخول قسطنطين امبراطور الرومان فيها، وأخذت بهذه الشعائر كلها ونَسَخَتْ بها شريعة عيسى عليه السلام، وحوّلها الكهنةُ إلى ديانة وثنية تقول بتثليث غير معقول، أخذوه من تثليث اليونان والرومان المقتبس من تثليث المصريين والهنود ـ براهمة وبوذيين ـ اقتباساً مشوهاً، ونسخوا شريعة جاء بها رسول من عند الله برمتها، واستبدلوا بها بدعاً وتقاليد غريبة عنها. وهنا في هذه الآية يحذر الله النصارى من هذا الغلو المشين المشوه بالادّعاء والافتراء، ويدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسله... الخ الآية...

﴿**لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون**﴾: هذه الآية تزيد توضيحاً وبياناً لحقيقة المسيح، وتُكَذّبُ النصارى ومعهم العرب الذين جعلوا الملائكة بنات الله؛ فلن يأنف المسيح ولن يترفع عن أن يكون عبداً لله لعلمه بعظمة الله، وما يجب له من العبودية والشكر، ولا الملائكة المقربون يستنكف أحد منهم أن يكون عبْداً لله. وفي هذا تعجيب من قول النصارى في المسيح، مع أن الملائكة مخلوقة من غير أب ولا أم، وتستطيع أن تعمل ما هو أكبرُ من عمل المسيح!. وكلهم عباد الله، وأنّ العبودية لله لا تنقص من قدر عيسى ولا من قدر بقية رُسُلِ الله!، ولا من قدر الملائكة المقربين؛ فالعبودية لله مرتبة لا يأباها إلاّ كافر بنعمة الله الخالق المصوّر، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم...

﴿**ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً**﴾: هنا في هذه الآية يعطينا الله حكماً على كل مستنكف متكبر رافع أنفه عن الخضوع لله، كما أمر الله لا كما سولت نفوسُ الكافرين لهم عبادة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان. سيحشر اللهُ هؤلاء المستنكفين المستكبرين ليروا ما أعد الله لعباده المؤمنين، وما أعد لعبيد الشيطان الملاعين... ﴿**فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيُوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله**﴾: لا يستطيع أحد من البشؤ أن يزيد شيئاً عن هذا الأجر وهذا الفضل، ولا يستطيع أحد أن يوضح أكثر من هذا التوضيح. وكل كلام يؤتى به ليوضح هذا الكلام، ما هو إلاّ غطاء وتشويه لجمال العبارة، وتقصير لما تهدف إليه الإشارة!..

﴿وأمّا الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً﴾: أقول في هذا مثل ما قلت في سابقه، وإن أردت أن تعرف ما أقول لك فقارن بين هذا النص المعجز، وبين ما قيل في تفسيره من مطنب وموجز!.

التوجيه الخامس: ﴿ياأيّها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾: في هذا التوجيه يوجه فيه أنظار الناس جميعاً إلى ما جاء في الرسالة الأخيرة المتمّمةِ لدين الله، المبيّنة بالحجة والبرهان على صحتها، وهذا النور المبين الكاشف للظلمات والشبهات، فمن اهتدى به واعتصم بالله من الشبهات المهلكة فسيجد رحمة الله تؤويه، وسيجد فضل الله يشمله ويحويه، وهو الهدى القويم والصراط المستقيم...

﴿فأمّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾: هذا النداء الأخير في هذه السورة ليربط آخرها بأولها، فقد كان النداء في أول السورة إلى الناس جميعاً بتقوى الله خالق أول مخلوق من الناس، وهو آدم أول رسول من عند الله. وكان النداء هنا إلى الناس وهم مع آخر رسول من عند الله، وهو محمد خاتم النبيئين، وبه تكمّلت دعوة المرسلين، وظهرت حجتُه ساطعة باهرة، وقوة نوره في كتابه قاطعة قاهرة، فمن اتّبعه واعتصم به فقد هُدِي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور...

﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾: بعد أن تكلم في أول السورة في أحكام الأموال ومن بينها أحكام الميراث، ختم آخرها بتكميل ميراث الإخوة الأشقاء من الأب والأم، أو الإخوة من جهة الأب فقط، فيكمل بذلك حكم من يستحق الميراث، وهم الآباء والأمهات والأبناء والبنات والأزواج والزوجات والإخوة والأخوات من جميع الجهات. وكان هذا الحكم الأخير جواباً لسؤال وارد ممن يهمه أمر الكلالة. والكلالة: من يموت ولا أصل له من أب أو جد، ولا فرع له من ولد أو ولد ولد...

﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك﴾: وهو أن يموت إنسان ذكر بدون أصل ولا فرع، ولم يترك إلاّ أختاً واحدة فتأخذ نصف ما له إن

لم يكن للهالك زوج، أو نصف ما بقي من ميراث الزوج، وكذلك إن هلكت امرأة ولم يكن لها أصل ولا فرع، ولها أخ شقيق أو من الأب، فيأخذ جميع ما لها إن لم يكن لها زوج، وما بقي من ميراث الزوج إن كان لها زوج... **﴿وهو يرثها إن لم يكن لها ولد. فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾**: وهو أن يموت الميت ويترك أختين فأكثر فيأخذان الثلثين أو ثلثي ما بقي من ميراثه كما تقدم في الأخت... **﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾**: فيما تقدم حكم ميراث الأخت والأخوات، وهنا حكم ميراث الإخوة والأخوات جميعاً، فيقسم بينهم الميراث على القاعدة الشرعية للذكر مثل حظ الأنثيين كما عُلِم من أول السورة. أما حكم ميراث الأخوة من جهة الأم فقد تقدم مفصّلا عند قوله تعالى «وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة...الخ».

وقد فصل حكم الميراث في كتب الفقه تفصيلاً كاملاً، حتى صار عِلْماً مختصّاً بقواعد مرتبة على أبواب وفصول، وسموه علم الفرائض، وهو مفرع عن هذا الأصل الذي ذكر في هذه السورة، وبهذا تتمُّ أحكام هذه السورة على أوضح بيان؛ لأنّ فيها كلّ ما يتعلق بأمر الإنسان، وذلك كله لهدايته في دينه ودنياه، وما عليه إلاّ أن يختار الطريق التي توصله إلى سعادته أو شقواه... **﴿يبيّن الله لكم أن تضلوا﴾**: ففي هذا البيان وَضَح الهدى من الضلال؛ «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأمّا الزبد فيذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال..» **﴿والله بكل شيء عليم﴾**: في هذا يفوح مسك الختام، وهو يربط ما سبق في أول السورة من الكلام، فهناك الخلق والرفق والعناية والرعاية والمراقبة والدراية، وهنا العلم الشامل بما يعمل هذا الخلق من قول أو فعل مليح أو قبيح، من معروف أو منكر، من أمانة أو خيانة، من عدل أو جور، كل ذلك محيط به من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وفي هذا براعة المقطع وفيه الربط بينه وبين المطلع!.

3 ـ توجيه المؤمنين إلى توفية العقود من أمور الدين

سُورَةُ المَائِدَةِ

النص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ
إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (2)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ
وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا
مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ
أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ
وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (3)
* حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ
لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ
أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟
بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ
فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (4)

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم
مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا
مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (5) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ
الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا
آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ
وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (6)
* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا
وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم
مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا
صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ
مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ
لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ (7) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

وَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**أوفوا بالعقود**﴾: الإيفاء إعطاء الشيء وافياً غير منقوص. والعقود: جمع عقد، وهو الالتزام الواقع بين جانبين في فعل ما، والأصل فيه ربط الحبل بالعروَة ونحوها، وشدَ الحبل في نفسه عقد، وصار حقيقة عرفية في الالتزامات المتعلقة بين شخص وآخر، ويطلق العقد على المصدر، وعلى الشيء المعقود إطلاقاً للمصدر على المفعول، والموضع المشدود من الحبل يُسمّى عُقدة... ﴿**أُحلت لكم بهيمة الأنعام**﴾: البهيمة ما لا نطق له، لما في صوته من الإبهام، وخص العرف العام بما عدا السباع والطير، فتشمل بقر الوحش وحماره والظباء. والأنعام تطلق على ثمانية أزواج من الحيوان: الضأن والمعز والإبل والبقر، ذكر وأنثى...

﴿**غير محلي الصيد**﴾: الصيد ما يصاد من الحيوان الوحشي الذي يعيش طليقاً في الفضاء، ويطلق على ما يعيش في البحر. والحُرم جمع حرام، وهو الشخص المُحْرِم بحج أو عمرة. . .

﴿**إنّ الله يحكم ما يريد**﴾: الحكم تنفيذُ ما يُرَادُ تنفيذه، وهو القضاء في أمر من الأمور، ويطلق الحرام أيضاً على من كان حالاً في الحرم. والحرَم: هو المكان المحدود المحيط بمكة من جهاتها على حدود معروفة. . . ﴿**ياأيُّها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله**﴾: الشعائر جمع شعيرة، وهي معالم دينيّة، وغلب في العرف على مناسك الحج، وهي أمكنة وأزمنة وذوات، مثل الصفا والمروة، والأشهر الحرم والهدي. . . ﴿**الشهر الحرام**﴾: المراد به جنس الشهر الحرام، وهي الأشهر الحرم الأربعة؛ ذو القعدة وذو الحجة والمُحَرَّم ورجب. . . ﴿**الهدي**﴾: هو ما يُهْدَى إلى مناسك الحج ليُنحر أو ليذبح في منى أو في مكة. . . ﴿**القلائد**﴾: جمع قلادة، وهي ظفائر من صوف أو وبر أو حبل يُربط فيها نعْلانِ، أو قِطْعَةٌ من قشر الشجر، وتوضع في أعناق الهدايا مشبّهةٌ بقلائد النساء. . . ﴿**آمِّينَ البيت الحرام**﴾: آمين جمع آمٍّ، وهو القاصد نحو كذا. والبيت الحرام: المسجد الذي حول الكعبة. . .

﴿**وإذا حللتم فاصطادوا**﴾: حلّ المُحْرِمُ أتمَّ مناسك الحج أو العمرة. والاصطياد صيغة افتعال اسْتُعمِلَت في الكلام لغير معنى المطاوعة التي هي مَدْلُولُ صيغة الافتعال في الأصل، واصطاد في كلامهم مبالغة في صاد. . . ﴿**ولا يجرمنكم**﴾: يكسبنكم، يقال: جرمه يجرمه مثل ضربه يضربه، وأصله كَسْبُ من جَرَمَ النخلة إذا جزّ عراجينها، فلما كان الجرم لأجل الكسب شاع إطلاق جرم بمعنى كسب، قالوا: جرم فلان لنفسه كذا. والشنآن: البغض، وقد يطلق على البغض الشديد، وهو من المصادر الدالّة على الاضطراب والتقليد؛ لأنّ الشنآن فيه اضطراب النفس، فهو مثل الغليان والنزوان. . .

﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾: التعاون التجمّع والتضامن على المساعدة في الأمر المهم الذي يحتاج فيه إلى التعاضد. البر: كل ما فيه نفع وخير، والتقوى: كل ما يقي من المضرّة. والإثم: كل ذنب ومعصية تعود بالمضرة في العاجل والآجل. والعدوان: تجاوز حدود الشرع والعرف في المعاملة والخروج عن العدل

فيها. . . ﴿**حُرّمت عليكم الميتة**﴾: الحرمة هنا حرمة الأكل، والميتة: الحيوان الذي زالت منه الحياة، والموت حالة معروفة تنشأ عن وقوف حركة الدم باختلال عمل أحد الأعضاء الرئيسية أو كلها. . . ﴿**والدم**﴾: هو الذيَ يخرج من عروق جسد الحيوان بسبب قطع العرق وما عليه من الجلد، وهو سائل لزج أحمر اللون متفاوت الحمرة باختلاف السن واختلاف أصناف العروق. . . ﴿**ولحم الخنزير**﴾: الخنزير: حيوان يعيش على أكل القذُرات والعفونات الناتجة من المياه الآسنة والمستنقعات الوسخة، جسمه يشبه الفأر غير أنّه كبير الجسم قد يكون في حجم الضأن وقد يكون مثل العجول الضخام، والكلمة تدل على الخبث والنتن والضخامة والوخامة. . .

﴿**وما أهل لغير الله به**﴾: هو ما سمي عليه عند الذبح، وما يقوم مقامه، اسم غير الله. والإهلال الجهر بالصوت، ومنه الإهلال بالحج، واستهل الصبيّ صارخاً، وهو مأخوذ من اسم الهلال؛ لأنّ العرب كانوا إذا رأوا الهلال لأول ليلة من الشهر رفعوا أصواتهم بذلك ليعلم الناس ابتداءَ الشهر، ويحتمل العكس بأن يكون اسم الهلال مشتق من رفع الصوت عند ذكر أصنامهم، وكانوا إذا ذبحوا لها يرفعون أصواتهم باسمها. . . ﴿**والمنخنقة**﴾: هي التي عرض لها ما يخنقها، والخنق: سدُّ مجاري النفَس بالضغط على الحلق. . . ﴿**والموقوذة**﴾: المضروبة بحجر أو عمود أو عصا ضرباً تموت به دون إهراق الدم، وهو اسم مفعول من وقذ، إذا ضرب ضرباً متخنا. . . ﴿**والمتردية**﴾: هي التي سقطت من عُلُوّ أو سقطت في حفرة أو بئر سقوط تموت به. . . ﴿**والنطيحة**﴾: فعيلة بمعنى مفعولة، والنطح ضرب الحيوان بقرونه حيواناً آخر، والمراد التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت. . . ﴿**وما أكل السبع**﴾: بهيمة أكلها السبع، والسبع كل حيوان يفترس الحيوان، كالأسد والنمر والضبع والذئب والثعلب، وهو كل ما قتله السبع بنهش أو ضرب بأحد أعضائه. . . ﴿**إلاّ ما ذكيتم**﴾: تذكية الحيوان موته بسبب مأذونٍ فيه شرعاً، وهو الذبح والنحر والعقر وجرح الصيد وما يموت به من نحو جراد وحلَزُون وخشاش أرض فيما جاز أكله. . . ﴿**وما ذبح على النصب**﴾: هو ما كانوا يذبحونه من القرابين فوق الأنصاب، والنُّصُب الحجر المنصوب فهو مفرد مراد به الجنس، وقيل: هو جمع وواحده نصاب، ويقال: نَصْبٌ، وهو قد يطلق بما يرادف الصنم، وقيل الأصنام مصورة، والأنصاب غير مصوّرة. . .

﴿**وأنِ تستقسموا بالأزلام**﴾: الاستقسام له معنيان: تقسيم اللحم المجهول الاسم مافي الزلم، وما يكون فيه الأمر أو النهي لفعل شيء أو تركه. والأزلام: جمع زَلَم، ويقال له: قدح، وهو عود سهم لا حديدة فيه... ﴿**ذلكم فسق**﴾: هذا خروج منكم عن الدين وعن الخير...

﴿**اليوم يئس الذين كفروا من دينكم**﴾: اليوم يطلق على زمن الحال. واليأس: قطع الأمل فيما يُرجى منه ما يُتَمَنَّى، وهو ما يتمناه الكفار من فتور الدين وعدم انتشاره... ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾: إكمال الدين هنا: هو إكمال البيان المراد لله تعالى الذي اقتضت الحكمة تَنْجِيمَهُ... ﴿**وأتممت عليكم نعمتي**﴾: إتمام النعمة، هو خلوصها مما يخالطها من الحرج والضيق والتعب... ﴿**ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾: الرضى بالشيء الركون إليه وعدم النفرة منه ويقابله السخط، ورضيت له بمعنى اخترت له ما فيه نفعُه وصلاحُه...

﴿**فمن اضطر**﴾: الاضطرار الوقوع في الضرورة، وفعله غُلِبَ عليه البناء للمجهول. والمخمصة: المجاعة، اشتقت من الخمص وهو ضمور البطن. والتجانف: التمايل، والجنف الميل... ﴿**قل أحل لكم الطيّبات**﴾: الطيبات جميع الأطعمة الطيبة، وأصل معنى الطيب معنى الطهارة والزكاء والوقع الحسن في النفس عاجلاً وآجلاً...

﴿**وما علّمتم من الجوارح مُكلّبين**﴾: الجوارح جمع الجارح أو الجارحة، جرى على صيغة جمع فاعلة؛ لأنّ الدواب مراعى فيها تأنيث جمعها، كما قالت العرب للسباع: الكواسب. والمُكلِّبُ: معلّم الكلاب، يقال: مكلِّب، ويقال: كلاَّب... ﴿**تعلمونهن مما علمكم الله**﴾: هي المواهب التي أودعها الله في الإنسان، والمواهب التي جعلها الله في بعض الحيوان إذ جعله قابلاً للتعلم...

﴿**وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم**﴾: الطعام في كلام العرب ما يطعمه المرء ويأكله، وإضافته إلى أهل الكتاب للملابسة، بمعنى أن ما يعالجه أهل الكتاب بطبخ أو ذبح. والذين أوتوا الكتاب: هم أتباع التوراة والإنجيل خاصّة. ﴿**والمحصَنات**﴾: لها عدة إطلاقات: تطلق على المتزوجة، وعلى المسلمة، وعلى الحرّة، والمقصود هنا الحرائر... ﴿**ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله**﴾: الإيمان

المعهود عند المسلمين، وهو الإسلام المتضمن الإيمان بالله والرسل وما يتعلق بذلك. والمحبط: فساد الشيء الذي كان صالحاً. . .

﴿**إذا قمتم إلى الصلاة**﴾: القيام في كلام العرب يطلق على الشروع في الفعل، وعلى العزم على الفعل، والقيام هنا كذلك بقرينة تعدّيه بإلى لتضمينه معنى عمدتم إلى أن تصلوا. . . ﴿**فاغسلوا**﴾: الغَسْل: إسالة الماء على الشيء لإزالة ما عليه من وسخ ونَحْوِه. والوجوه: واحدها وجْه، وحدُّه من أعلى الجبهة إلى أسفل اللحيين طُولاً، وما بين شحمتي الأذنين عرضاً. والأيدي واحدها يَدٌ، وهي مجموع الكفّ والذراع والعضد، وحدُّها في الوضوء من أعلى الأصابع إلى آخر المرفق، والمرافق: جمع مرفق، وهو العظم الناتئ بين الذراع والعضد، سمي مرفقاً لأنّ الإنسان يرتفق به في الاتّكاء. والرأس: حدّه في الوضوء من أعلى الجبهة إلى نقرة القفا طولاً وما علا الأذنين عرضاً. والأرجل واحدها رجل، وهي مجموع القدم والساق والركبة والفخذ، وحدُّها في الوضوء القدم بما فيه الأصابع والكعبين، وفي كل رجل كعبان، وهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين. . .

﴿**وإن كنتم جنباً فاطّهّروا**﴾: الجنب لفظ يستعمل للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، والمراد به المضاجعة والوقاع، وتطهّر هنا: غسل البدن كلُّه بالماء. . . ﴿**أو جاء أحد منكم من الغائط**﴾: الغائط المكان المنخفض من الأرض، ويراد به شرعاً قضاء الحاجة البشرية من بول أو غائط (فضلة الإنسان) وما يتبعهما من خروج الريح، ويسميّه الفقهاء الخارج المعتاد من المخرج المعتاد، وهو الحدث الأصغر موجب الوضوء، والغسل من الجنابة الحدث الأكبر. . . ﴿**أو لامستم النساء**﴾: المباشرة المشتركة بين الرجال والنساء والمراد هنا موجب الغسل. . . ﴿**فتيمّموا**﴾: اقصدوا. . . ﴿**صعيداً طيباً**﴾: تُراباً أو حجراً أو رملا وكل ما ظهر على وجه الأرض من جنسها طاهراً لا نجاسة عليه. . . ﴿**فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه**﴾: هذه كيفية التيمّم. . .

﴿**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج**﴾: الحرج الضيق والمشقّة وما فيه عَنَتٌ وإرهاق. . . ﴿**ولكن يريد ليطهركم**﴾: يشرع لكم هذه الأحكام لتكونوا طاهرين من الأذران والرذائل، فتكونوا أنظف الناس أَبْدَاناً وأزكاهم نفوساً، وهذا هو إتمام

النعمة. . . ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به**﴾: نعمة الله هنا: ما بينه لهم من أحكام الدين المتعلقة بالدنيا والآخرة. والميثاق العهد الذي أخذ على من يدخل في الإسلام تنفيذه عندما قالوا سمعنا وأطعنا. وذات الصدور: كل ما يتعلق بالصدور من خفايا الأمور، وما تنطوي عليه السرائر من إخلاص أو رياء من أجل الله أو من أجل الفخفخة والظهور. . .

﴿**كونوا قوامين لله شهداء بالقسط**﴾: القوّام: المهتم بما طلب منه. شهداء بالقسط: مظهرين الأمر على ما هو عليه دون حَيْفٍ. . . ﴿**ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا**﴾: تقدم معنى هذه الكلمات. . . ﴿**إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم**﴾: همّ بالشيء هَمّاً: نواه وأراده وعزم عليه وقصده ولم يفعله، والهمّ عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل من خير أو شر، والمراد هنا الشر. وبسط يده: مدّها، والمراد هنا: بسط اليد بقصد الشر بالضرب والأخذ. وكفُّ الأيدي عن الفعل: دفعها وصرفها ومنعها، وأصله المنع بالكف؛ لأنّها تكف الأذى عن البدن. . . ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾: توكل على الله واتكل استسلم إليه، وأصل التوكل إظهار العجز والاعتماد على الغير، وعرف في الشرع بالاعتماد على الله مع الأخذ في الأسباب، فصار الفرق واضحاً بينه وبين التواكل.

مبحث الإعراب

﴿**ياأيّها الذين آمنوا**﴾ إعراب هذه الجملة معلوم. ﴿**أوفوا**﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**بالعقود**﴾ متعلق بأوفوا. ﴿**أُحلت**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**لكم**﴾ متعلق بأُحلت. ﴿**بهيمةُ**﴾ نائب الفاعل مرفوع بالضمة. ﴿**الأنعام**﴾ مضاف إلى بهيمة مجرور بالكسرة. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب على الاستثناء. ﴿**يتلى**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، والجملة صلة ما. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بيتلى. ﴿**غيرَ**﴾ حال من ضمير لكم منصوب بالفتحة. ﴿**محلي**﴾ مضاف إلى غير مجرور بالياء لأنّه جمع مذكر. ﴿**الصيد**﴾ مضاف إلى محلي مجرور بالكسرة. ﴿**وأنتم حرم**﴾ جملة حالية من المبتدإ والخبر مثلُ غَيْر. ﴿**إنّ الله يحكم**﴾ إنّ الله إنّ واسمها، وجملة يحكم خبرها.

﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول. ﴿**يريد**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة ما، وجملة إنّ الله تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ياأيّها الذين آمنوا**﴾ إعرابها معلوم. ﴿**لا تحلوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وواو الجماعة فاعل. ﴿**شعائر**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**الله**﴾ مضاف إليه مجرور بالكسرة. ﴿**ولا الشهر**﴾ معطوف على شعائر. ﴿**الحرام**﴾ نعت للشهر. ﴿**ولا الهدي**﴾ معطوف عليه. ﴿**ولا القلائد**﴾ معطوف على الهدي. ﴿**ولا آمين**﴾ معطوف على شعائر الله. ﴿**البيتَ**﴾ مفعول بآمّين. ﴿**الحرام**﴾ نعت للبيت. ﴿**يبتغون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب حال من ضمير آمّين. ﴿**فضلاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**من ربّهم**﴾ متعلق بيبتغون. ﴿**ورضواناً**﴾ معطوف على فضلاً. ﴿**وإذا حللتم**﴾ فعل وفاعل؛ فعل شرط إذا في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**فاصطادوا**﴾ جواب الشرط، وهو عامل في الظرف إذا النصب، والجملة معطوفة على قوله: لا تحلوا.

﴿**ولا يجرمنّكم**﴾ الفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم بلا الناهية، والضمير فيه مفعول أوّل. ﴿**شنآنُ**﴾ فاعل. ﴿**قوم**﴾ مضاف إليه. ﴿**أن صدُّوكم**﴾ مؤول بمصدر مجرور بلام التعليل، أي: لصدّهم إياكم. ﴿**عن المسجد**﴾ متعلق به. ﴿**الحرام**﴾ نعت للمسجد. ﴿**أن تعتدوا**﴾ مؤول بمصدر منصوب مفعول ثانٍ ليجرمنّكم. ﴿**وتعاونوا**﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**على البر**﴾ متعلق بتعاونوا. ﴿**والتقوى**﴾ معطوف على البر مجرور بكسرة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**ولا تعاونوا**﴾ مجزوم بلا الناهية معطوف على تعاونوا. ﴿**على الإثم والعدوان**﴾ مثل على البر والتقوى. ﴿**واتقوا**﴾ معطوف على تعاونوا. ﴿**الله**﴾ مفعول به. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**شديد**﴾ خبرُها. ﴿**العقاب**﴾ مضاف إليه، والجملة تعليلية. ﴿**حرمت**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بحرمت. ﴿**الميتة**﴾ نائب الفاعل. ﴿**والدمُ**﴾ معطوف عليه. ﴿**ولحم**﴾ كذلك. ﴿**الخنزير**﴾ مضاف إلى لحم. ﴿**وما**﴾ معطوف على الميتة. ﴿**أُهلَّ**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، والجملة صلة ما. ﴿**لغير**﴾ متعلق بأهل. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**به**﴾ متعلق بأُهلّ. ﴿**والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة**﴾ كلها معطوفة على الميتة. ﴿**وما أكل السبع**﴾ الفعل والفاعل صلة ما، وهي معطوفة على الميتة. ﴿**إلاّ**﴾ أداة

استثناء. ﴿**ما**﴾ في محل نصب على الاستثناء. ﴿**ذكيتم**﴾ الفعل والفاعل صلة ما. ﴿**وما ذبح**﴾ مثل وما أُهل. ﴿**على النصب**﴾ متعلق بذبح.

﴿**وأن تستقسموا**﴾ الفعل والفاعل مؤول بمصدر مرفوع معطوف على الميتة. ﴿**بالأزلام**﴾ متعلق به، أي: واستقسامُكم بالأزلام من المحرمات. ﴿**ذلكم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**فسْقٌ**﴾ خبرُه مرفوع بالضمة. ﴿**اليوم**﴾ ظرف زمان منصوب بالفتحة متعلق بالفعل بعده. ﴿**يئس**﴾ فعل ماض. ﴿**الذين**﴾ فاعله. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**من دينكم**﴾ متعلق بيئس. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتعقيب، لا ناهية. ﴿**تخشوهم**﴾ مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، وضمير المخاطب مفعول به. ﴿**واخشوني**﴾ معطوف عليه، وهو فعل أمر، والواو فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به مبني على السكون في محل نصب. ﴿**اليوم**﴾ منصوب على الظرفية متعلق بالفعل بعده. ﴿**أكملت**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لكم**﴾ متعلق بأكملت. ﴿**دينكم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وأتممت عليكم**﴾ معطوفة على أكملت ﴿**نعمتي**﴾: مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها المناسبة، وياء المتكلم مضافة إلى نعمة في محل جر. ﴿**ورضيت**﴾ معطوف على أكملت. ﴿**لكم**﴾ متعلق برضيت. ﴿**الإسلام**﴾ مفعول به. ﴿**ديناً**﴾ حال من الإسلام، أو تمييز لما في المفعول من الإبهام. ﴿**فمن**﴾ يصح أن تكون الفاء للفصيحة أو للتفريع، مَن اسم شرط جازم. ﴿**اضطر**﴾ فعل الشرط، ونائب الفاعل ضمير يعود على مَنْ.

﴿**في مخمصة**﴾ متعلق باضطر. ﴿**غير**﴾ حال من نائب الفاعل. ﴿**متجانف**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**لإثم**﴾ متعلق بمتجانف. ﴿**فإنّ الله غفور رحيم**﴾ جملة مرتبطة بفاء الجواب من إنّ واسمها وخبرها، وهي دالة على الجواب الأصلي، والتقدير: فلا إثم عليه، لأنّ الله غفور رحيم، فهي جملة تعليلية، وقد جاء مصرحاً بالجواب والعلة معاً في قوله في سورة البقرة: «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم». ﴿**يسألونك**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**ماذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أُحل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على المسؤول عنه. ﴿**لهم**﴾ متعلق بأُحلّ، وجملة أُحلّ خبر المبتدإ. ﴿**قل**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**أُحل**﴾ مثل أُحلّ الأولى. ﴿**لكم**﴾ متعلق

بها. ﴿**الطيبات**﴾ نائب الفاعل مرفوع بالضمة. ﴿**وما علمتم**﴾ حذف مضاف، أي: وصيد ما علّمتم، معطوف على الطيبات، فما اسم موصول. علّمتم صلته. ﴿**من الجوارح**﴾ متعلق بعلّمتم. ﴿**مكلّبين**﴾ حال من فاعل علّمتم. ﴿**تعلمونهن**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة حال ثانية. ﴿**ممّا**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**علّمكم الله**﴾ الفعل والمفعول والفاعل صلة ما. ﴿**فكلوا**﴾ الفاء للتفريع، كلوا فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**ممّا**﴾ متعلق بكلوا. ﴿**أمسكن**﴾ فعل ماض، ونون الإناث فيه فاعل، والجملة صلة ما. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بأمسكن. ﴿**واذكروا**﴾ معطوف على كلوا. ﴿**اسم**﴾ مفعول به. ﴿**اللهِ**﴾ مضاف إلى اسم. ﴿**عليه**﴾ متعلق باذكروا.

﴿**واتقوا الله**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**إنّ الله سريع الحساب**﴾ جملة من إنّ واسمها وخبرها تعليلية. ﴿**اليوم أُحلّ لكم الطيبات**﴾ إعرابها مثل ما تقدم. ﴿**وطعام**﴾ مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل جر مضاف إلى طعام. ﴿**أُوتوا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، والواو نائب الفاعل. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول به، وجملة أُوتوا صلة الذين. ﴿**حل**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**لكم**﴾ متعلق بحل. ﴿**وطعامكم حل لهم**﴾ مثله في الإعراب. ﴿**والمحصنات**﴾ مبتدأ. ﴿**من المؤمنات**﴾ متعلق بالمحصنات، والخبر محذوف يدل عليه الخبر المقدم. وكذلك ﴿**والمحصنات من الذين أوتو الكتاب من قبلكم**﴾. ﴿**إذا**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**آتيتموهن**﴾ فعل الشرط. ﴿**أُجورَهن**﴾ مفعول ثانٍ، والضمير فيه مضاف إليه، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما تقدم، والتقدير: فهُنَّ حِلٌّ لكم. ﴿**محصنين**﴾ حال من فاعل آتيتموهن. ﴿**غير**﴾ حال ثانية. ﴿**مسافحين**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**ولا متخذي**﴾ معطوف على غير. ﴿**أخدانٍ**﴾ مضاف إلى متخذي.

﴿**ومن**﴾ الواو للعطف، ومن اسم شرط جازم. ﴿**يكفرْ**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**بالإيمان**﴾ متعلق بيكفر. ﴿**فقد**﴾ الفاء رابطة للجواب، قد حرف تحقيق. ﴿**حبط**﴾ فعل ماض. ﴿**عملُه**﴾ فاعل مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة فقد حبط عمله في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وهو**﴾ الواو حرف عطف، هو في محل رفع مبتدأ. ﴿**في الآخرة**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**من الخاسرين**﴾ متعلق بالخبر، والجملة معطوفة على جواب الشرط. ﴿**ياأيُّها الذين آمنوا**﴾ إعرابها معلوم. ﴿**إذا**﴾ ظرف متضمن

معنى الشرط. ﴿**قمتم**﴾ فعل وفاعل في محل جر مضاف إلى إذا، وهو فعل الشرط.

﴿**إلى الصلاة**﴾ متعلق بقمتم. ﴿**فاغسلوا**﴾ الفاء رابطة للجواب، اغسلوا فعل أمر مبني على حذف النون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**وجوهكم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وأيديكم**﴾ معطوف على وجوهكم. ﴿**إلى المرافق**﴾ متعلق باغسلوا. ﴿**وامسحوا**﴾ مثل اغسلوا. ﴿**برؤوسكم**﴾ متعلق بامسحوا. ﴿**وأرجلكم**﴾ معطوف على وجوهكم. ﴿**إلى الكعبين**﴾ متعلق باغسلوا.

﴿**وإن كنتم جنباً**﴾ جملة شرطية من كان واسمها وخبرها. ﴿**فاطّهّروا**﴾ جواب الشرط في محل جزم. ﴿**وإن كنتم مرضى**﴾ مثل جملة وإن كنتم جنباً. ﴿**أو على سفر**﴾ معطوفة على وإن كنتم مرضى. ﴿**أو**﴾ حرف عطف ﴿**جاء أحد**﴾ فعل وفاعل. ﴿﴿**منكم**﴾﴾ متعلق بجاء. ﴿**من الغائط**﴾ كذلك. ﴿**أو لامستم**﴾ معطوف على جاء. ﴿**النساء**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**فلم**﴾ الفاء للعطف والترتيب، لم حرف نفي وجزم. ﴿**تجدوا**﴾ مجزوم بحذف النون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**ماءً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**فتيمّموا**﴾ جواب الشرط في محل جزم. ﴿**صعيداً**﴾ مفعول به. ﴿**طيباً**﴾ نعت له. ﴿**فامسحوا**﴾ مرتب على تيمّموا. ﴿**بوجوهكم**﴾ متعلق بامسحوا. ﴿**وأيديكم**﴾ معطوف على وجوهكم. ﴿**منه**﴾ متعلق بامسحوا. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**يريد الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ليجعل**﴾ فعل مضارع منصوب بأنْ مضمرة بعد لام العلّة، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بيجعل. ﴿**من حرج**﴾ كذلك. ﴿**ولكن**﴾ حرف عطف مستدرك. ﴿**يريد**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**ليطهركم**﴾ الفعل منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير يعود على الله، وضمير المخاطب مفعول به. ﴿**وَلِيُتِمَّ**﴾ معطوف على ليطهركم. ﴿**نعمته**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بيُتِمَّ. ﴿**لعلكم**﴾ لعل واسمها. ﴿**تشكرون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعل.

﴿**واذكروا**﴾ معطوف على قوله: ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج. ﴿**نعمة**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى نعمة. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بمحذوف وصف للنعمة، أي: النعمة التي أنعمها عليكم. ﴿**وميثاقه**﴾ معطوف على نعمة، والضمير

فيه مضاف إليه. ﴿**الذي**﴾ في محل نصب نعت للميثاق. ﴿**واثقكم**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، وضمير المخاطبين مفعول به. ﴿**به**﴾ متعلق بواثقكم، وجملة واثقكم صلة الذي. ﴿**إذ**﴾ ظرف للزمن الماضي. ﴿**قلتم**﴾ فعل وفاعل، وهو في محل جر مضاف إلى الظرف. ﴿**سمعنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب مقول القول.

﴿**وأطعنا**﴾ معطوف على سمعنا. ﴿**واتقوا الله**﴾ فعل أمر، وفاعل، ومفعول، والجملة معطوفة على قوله: واذكروا نعمة الله. ﴿**إنّ الله عليم بذات الصدور**﴾ جملة من إنّ واسمها وخبرها. بذات متعلق بعليم. الصدور مضاف إلى ذات. ﴿**ياأيُّها الذين آمنوا**﴾ إعرابها معلوم. ﴿**كونوا**﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، وواو الجماعة اسم كان. ﴿**قوّامين**﴾ خبرها. ﴿**لله**﴾ متعلق به. ﴿**شهداء**﴾ خبر ثان لكونوا. ﴿**بالقسط**﴾ متعلق بشهداء. ﴿**ولا يجرمنكم**﴾ فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد في محل جزم بلا الناهية، معطوفة على كونوا قوّامين. ﴿**شنآنُ**﴾ فاعل يجرمنكم. ﴿**قوم**﴾ مضاف إلى شنآن. ﴿**على أن لا تعدلوا**﴾ أنْ وما دخلت عليه من الفعل المنفي في تأويل مصدر مجرور بعلى، والتقدير: ولا يجرمنكم شنآن قوم على عدم عدلكم وقيامكم بما يجب عليكم. ﴿**اعدلوا**﴾ أمر بالعدل. ﴿**هو**﴾ مبتدأ. ﴿**أقربُ**﴾ خبره. ﴿**للتقوى**﴾ متعلق بأقرب. ﴿**واتقوا الله**﴾ معطوف على اعدلوا. ﴿**إنّ الله خبير**﴾ جملة تعليلية من إنّ واسمها وخبرها. ﴿**بما**﴾ متعلق بخبير. ﴿**تعملون**﴾ فعل وفاعل صلةُ ما.

﴿**وعد اللهُ**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**وعملوا**﴾ معطوف على آمنوا. ﴿**الصالحات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**مغفرةٌ**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**وأجْرٌ**﴾ معطوف على مغفرة. ﴿**عظيمٌ**﴾ نعت لأجر، وجملة لهم مغفرة مبينة لجملة وعد الله الذين آمنوا، فاستغني بالبيان عن المفعول الثاني. ﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا**﴾ الواو للعطف، الذين في محل رفع مبتدأ، كفروا صلة الذين، وكذبوا معطوف على كفروا، بآياتنا متعلق بكذبوا. ﴿**أولئك**﴾ مبتدأ ثانٍ. ﴿**أصحاب**﴾ خبره. ﴿**الجحيم**﴾ مضاف إلى أصحاب، وجملة أولئك في محل رفع خبر الذين كفروا. ﴿**ياأيّها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم**﴾ تقدم إعراب مثلها.

﴿إذ همّ قوم﴾ جملة من الفعل والفاعل في محل جر مضافة إلى الظرف (إذ). ﴿أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ أن وما دخلت عليه من الفعل والفاعل والمفعول في تأويل مصدر مجرور بحرف جرّ مقدّر، والتقدير: إذ همّ قوم ببسط أيديهم إليكم، بمعنى هموا بالبطش بكم. ﴿فكفّ﴾ الفاء للتعقيب، وكف فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿أيديهم﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿عنكم﴾ متعلق بكفّ. ﴿واتّقوا﴾ معطوف على اذكروا. ﴿اللهَ﴾ مفعول به. ﴿وعلى الله﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿فليتوكل﴾ الفاء للتعقيب، واللام لام الأمر، يتوكل مجزوم بلام الأمر، وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين. ﴿المؤمنون﴾ فاعل مرفوع بالواو.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿ياأيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾: مناسبة هذه السورة لما قبلها يظهر للباحث المتأمّل المنقّب عن أسرار القرآن، وما في وضْع سوره من الحكمة والإتقان واضحاً كما يلي: من خصائص هذه السورة أنّها فصَّلَت ما جاء مجملاً فيما قبلها، مثل تحريم الخمر بتاتاً، وشرط الطهارة للصلاة تفصيلاً، وزيادة بعض الحدود والكفارات، وأحكام ما يتعلق بالحج، وتفصيل محرم الأكل، وتحليل طعام أهل الكتاب ونكاح نسائهم، وفيها من تفاصيل الأحكام ما تنبئ بأنّها أُنزلت لاستكمال شرائع الإسلام، ولذلك افتتحت بالوصاية بالوفاء بالعقود، وتصير السورة بهذا مؤذنة بأنها سترد بعدها أحكام وعقود يجب الوفاء بها، وهي براعة استهلال من أول ما يذكر في الأغراض المهمّة عند العقلاء. والتعريف في العقود تعريف الجنس للاستغراق؛ ليشمل العقود التي عاقد المسلمون عليها ربَّهُم، والتي عاقدوا عليها المشركين قبل أن ينتهي أمرها. والعقود التي تجري بينهم في جميع المعاملات. واستعمل العقد مجازاً في الالتزام...

﴿أُحلّتْ لكم بهيمة الأنعام﴾: هذا تمهيد لما سَيَرِدُ بعدها من المنهيات امتناناً واستئناساً ليتلقّوا التكاليف بنفوس مطمئنّة. والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائيا. وإضافة بهيمة إلى الأنعام من إضافة العام للخاص، والإضافة بيانية... ﴿إلاّ ما يتلى عليكم﴾: الاستثناء من عموم الذوات والأحوال... ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾: هو حال مقيّد معنى الاستثناء من عموم أحوال وأمكنة. وقوله: وأنتم حرم

استعمالُ اللفظ في معنيين يجمعهما قدر مشترك بينهما، وهو الحرمة؛ حرمة في الحرم أو خارجه، وفي حرمة الحَرَم محرمين أو متحللين، وفي هذا إيجاز بديع في نظم الكلام استفيد منه إباحةٌ وتحريمٌ!.

وجملة... ﴿**إنّ الله يحكم ما يريد**﴾: تعليل لقوله: أوفوا بالعقود، فالله أعلم بمصالحكم منكم. وفيه رد على من استقبح ذبح الحيوان لما فيه من تعذيب الحيّ... ﴿**ياأيّها الذين آمنوا لا تُحلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من الله ورضواناً**﴾: هذا الكلام معترض بين الجمل التي قبله وبين جملة ﴿**وإذا حللتم فاصطادوا**﴾، ولذلك أعيد الخطاب بالنداء بقوله: ياأيّها الذين آمنوا. والمقصود من الخطاب توجيه المؤمنين إلى التحرز من الاعتداء على الشعائر الإلهية التي يأتيها المشركون كما يأتيها المؤمنون، بحيث لا يأنفون من عملها؛ فعطف الشهر الحرام والهدي وما بعدهما من شعائر الله عطف الجزئيّ على كليّه للاهتمام به. والمراد بالشهر الحرام هنا الجنس، وهي الأشهر الحرم الأربعة؛ لأنّه في سياق النفي. وفي هذا الكلام فتح الباب للناس جميعاً؛ ليتسنى لهم باختلاطهم الظهور على محاسن الاسلام والدخول فيه طواعية، فوجه النهي هنا عن التعرض للحجيج بسوء ـ وإن كانوا مشركين ـ.

إنّ الحالة التي قصدوا فيها الحج وتلبسوا عندها بالإحرام، حالة خير وقرب من الإيمان بالله وتذكر نعمه، فيجب أن يُعانوا على الاستكثار منها؛ لأنّ الخير يتسرّب إلى النفس رُوَيْداً، كما أن الشر يتسرّب إليها كذلك، ولذلك سيجيءُ عقب هذه الآية قوله: وتعاونوا على البر والتقوى... وإذا حللتم فاصطادوا: تصريح بمفهوم قوله: غير محلي الصيد وأنتم حرم، لقصد تأكيد الإباحة، واصطادوا صيغةُ افتعال استعملت في الكلام لغير معنى المطاوعة، التي هي مدلول صيغة الافتعال في الأصل، فاصطاد في كلامهم مبالغة في صاد، ونظيره: اضطرّه إلى كذا. وقد نُزل اصطادوا منزلة فعل لازم فلم يُذكر له مفعول... ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا**﴾: وصل هذا الكلام بما قبله بالعطف لزيادة تقرير مضمونه، بمعنى: لا تحلوا شعائر الله ولو مع عدوكم إذا لم يبدءوكم بحرب...

﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾: تعليل للنهي الذي في قوله: ولا يجرمنكم شنآن قوم، وكان مقتضى الظاهر أن تكون الجملة مفصولة، ولكنها وُصِلَت بالعطف ترجيحاً لما تضمنته من التشريع على ما اقتضته من التعليل، يعني: أنّ واجبكم أن تتعاونوا فيما بينكم على فعل البر والتقوى، وإذا كان هذا واجبَهم فيما بينهم كان الشأن أن يعينوا على البر والتقوى؛ لأنّ التعاون عليها يُكْسِبُ محبَّة تحصيلها، فيصير تحصيلها رغبة لهم، فلا جرم أن يعينوا عليها كل ساع إليها، ولو كان عدواً. والحجُّ بِرٌّ فأعينوا عليه وعلى التقوى، فهم وإن كانوا كفار يُعانون على ما هو بِرٌّ؛ لأنّ البرّ يهدي للتقوى، فلَعَلَّ تَكْرِير فعْلِه يقرّبُهم من الإسلام، فالضمير والمفاعلة في قوله: وتعاونوا للمسلمين.

وفائدة التعاون تيسير العمل، وتوفير المصالح، وإظهار الاتّحاد والتناصر، حتى يُصْبِحَ ذلك خُلُقاً لِلأمّة. وهذا قبل نزول قوله تعالى: «ياأيُّها الذين آمنوا إنّما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا...» ﴿**ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾: هذا تأكيد لمضمون قوله: وتعاونوا على البر والتقوى، لأنّ الأمر بالشيء وإن كان يتضمن النهي عن ضده، فالاهتمام بحكم الضد يقتضي النهي عنه بخصُوصه... ﴿**واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب**﴾: تذييل وتعريض بالتهديد إن لم تقوموا بما أُمِرْتُم. وتكرير اسم الله وإظهاره هنا لادخال الروعة وتربية المهابة في نفوس السامعين، ولتقوية استقلال الجملة... ﴿**حرمت عليكم الميتة**﴾... الخ المحرمات: استئناف بياني ناشِئٌ عن قوله: أُحلّت لكم بهيمة الأنعام إلاّ ما يتلى عليكم، فهو بيان لما ليس بحلال من الأنعام.

ومعنى تحريم هذه المذكورات تحريم أكلها، لأنه المقصود من مجموع هذه المذكورات هنا. وقوله: وأن تستقسموا بالأزلام معطوف على ما قبله من المحرّمات، والشأن في العطف التناسب بين المتعاطفات، فيكون هذا المعطوف من نوع المتواطئات التي قبله، فالمراد هنا: النهي عن أكل اللحم الذي يستقسمون عليه بالأزلام. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وما استقسمتم عليه بالأزلام، فغير الأسلوب وعدل إلى أن تسْتقسموا بالأزلام؛ ليكون أشمل للنهي عن طريقتي الاستقسام كِلْتَيْهِمَا وذلك إدْماجٌ بديع!. والطريقة الثانية التي يستقسمون عليها بالأزلام ما كانوا يفعلونه في الجاهلية يتطلبون به معرفة عاقبة ما يفعلون من أي

أمر. . . ﴿**ذلكم فسق**﴾: الإشارة راجعة إلى المصدر وهو الاستقسام بالأزلام، وجيء بالإشارة للتنبيه عليه حتى يقع الحكم على مُتميِّز معيّن. . .

﴿**اليوم يئس الذين كفروا من دينكم**﴾: هذه الجملة وما بعدها وقعت معترضة بين آية المحرمات المتقدمة، وبين آية الرخصة الآتية وهي قوله: فمن اضطر في مخمصة؛ لأنّ اقتران الآية بفاء التفريع يقضي باتصالها بما تقدمها، ولا يصلح للاتصال بها إلا قوله: حرمت عليكم الميتة. والمناسبة في هذا الاعتراض: أنّ الله لما حرّم أموراً كان فعلها من جملة دين الشرك، وهي ما أهل لغير الله به، وما ذبح على النصب، وتحريم الاستقسام بالأزلام، وكان في كثير منها تضييق عليهم بمفارقة معتادهم، والتقليل من أقواتهم؛ أعقب هذه الشدة بإيناسهم بتذكير أنّ هذا كله إكمال لدينهم، وإخراج لهم من أحوال ضلال الجاهلية، وأنّهم كما أُيّدُوا بدين عظيم سمْح فيه صلاحهم، فعليهم أن يقبلوا ما فيه من الشدة الراجعة إلى إصلاحهم، أذكرهم بفوزهم على من يُنَاوِيهِم، وفيها بشارة للمؤمنين ونكاية بالمشركين. وكلمة اليوم هنا مراد به يوم معين جدير بالامتنان بزمانه. . .

﴿**فلا تخشوهم واخشوني**﴾: تفريع على قوله: ﴿**اليوم يئس الذين كفروا من دينكم**﴾، وهو تطمينُ المسلمين من بأس عدوّهم، وتذكير لهم بما حصل لهم من الانتصارات السابقة. وأفاد هذا الكلامُ مُفَادَ صِيغَةِ الْحَصْرِ؛ لما في الجملتين من النفي والإثبات، وهو مقصود هنا فلا يحسن طيْ إحداهما، وهو من الدواعي الصارفة عن صيغة الحصر، حيث يقال: فإياي فاخشوني. . .

﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾: أعيدت كلمة اليوم تعداداً لِمِنَّةٍ أُخْرَى، وكان فصلها على التي قبلها جارياً على سنن الجمل التي تساق للتعداد في منّة أو توبيخ. . . ﴿**وأتممت عليكم نعمتي**﴾: هذه منّة أخرى، وهي نعمة النصر والأخوّة وما نالوه من المغانم، ومن جملتها إكمال الدين، فهو عطف عام على خاص. . .

﴿**ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾: معطوف على الجملتين السابقتين داخل تحت حكم الظرف (اليوم)، فمعناه أعلمتكم في هذا اليوم بهذا الرضى، فدلالة الخبر على معنى الإعلام من دلالة الكلام على لازم معناه، وفيه دلالة على أنّ هذا الدين أبديّ، لأنّ الشيء المختار المدخر لا يكون إلاّ أحسنَ وأعظمَ وأنفس ما أُظهر من الأديان، والأَنْفَسُ لا يُبطله شيء إذ ليس بعده غاية، فتكون الآية مشيرة إلى أنّ

نسخ الأحكام قد انتهى. . . **﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإنّ الله غفور رحيم﴾**: هذه الجملة متفرعة عما سبقها من الكلام؛ تفريعُ مِنَّةٍ جزئيّةٍ على منّةٍ كليّة، وذلك أنّ الله تعالى امتنّ في هذه الجمل الثلاث بالإسلام ثلاث مرات: مرة بوصفه في قوله: دينكم، ومرة بالعموم الشامل له في قوله: نعمتي، ومرة باسمه في قوله: الإسلام، فقد تقرر بينهم: أنّ الإسلام أفضل صفاته السماحة والرفق من آيات كثيرة قبل هذه الآية؛ فلمّا عَلِمَهم يُوجِسون خيفة الحاجة في الأزمات بعد تحريم ما حرم عليهم من المطعومات وأعقب ذلك بالمنة، ثم أزال عقب ذلك ما أوجسوه في نفوسهم بقوله: فمن اضطر في مخمصة. .الخ، فناسب أن تعطف هاته التوسعة وتفرع على قوله: ورضيت لكم الإسلام ديناً، وتعقب المنّة العامة بالمنّة الخاصّة.

ووقع قوله: فإنّ الله غفور رحيم مغنياً عن جواب الشرط؛ لأنّه كالعلة له، وهي دليل عليه، والاستغناء بمثله كثير في كلام العرب وفي القرآن، والتقدير: فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فله تناول ذلك إنّ الله غفوررحيم، كما في الآية نظيرتها « فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم. . . ».

﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات﴾: إن كان الناس قد سألوا عما أحل لهم من المطعومات، بعد أن سمعوا ما حرم عليهم في الآية السابقة أو قبل أن يسمعوا ذلك، وأريد جوابهم عن سؤالهم الآن، فالمضارع مستعمل للدلالة على تجدُّد السؤال بتكرره أو توقع تَكَرُّرِهِ، وعليه فوجه فصل جملة (يسألونك) أنّها استئناف بياني ناشئ عن جملة (حرمت عليكم الميتة)، وقوله: (فمن اضطر في مخمصة)، أو هي استئناف ابتدائي للانتقال من بيان المحرّمات إلى بيان الحلال بالذات. وإن كان السؤال لم يقع وإنّما قصد به توقُّع السؤال، كأنّه قيل: إن سألوك، فالإتيان بالمضارع بمعنى الاستقبال، لتوقع أن يسأل الناس عن ضبط الحلال؛ لأنّه مما تتوجَّه النفوسُ إلى الإحاطة به، وإلى معرفة ما عسى أن يكون قد حرم عليهم من غير ما عدّد لهم في الآيات السابقة، فعلم من هذا أنّ صيغة يسألونك في القرآن تحتمل الأمرين. والطيبات وصف للأطعمة قرن به حكم التحليل، فدلّ على أنّ الطيب علة التحليل. . .

﴿وما علمتم من الجوارح مكلّبين﴾. . . الخ الآية: معطوف على الطيبات على نية حذف المضاف، والتقدير: وصيدُ ما علمتم من الجوارح، يدل عليه قوله: **﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾**، فما في قوله: وما علّمتم موصولة، وفاء **﴿فكلوا﴾** للتفريع، وفيه رأي آخران ما شرطية، والفاء واقعة في جواب الشرط، وعلى هذا يكون العطف عطف جملة على جملة. وقوله: **﴿تعلمونهن مما علّمكم الله﴾** مقصود به الامتنان والعبرة والمواهب التي أودعها الله في الإنسان. وحرف من في قوله: **﴿مما أمسكن عليكم﴾** للتبعيض، وهذا تبعيض شائع الاستعمال في كلام العرب عند ذكر المتناوَلات، كقوله: «كلوا من ثمره»، وليس المقصود النهي عن جميع ما يصيده الصائد، ولا أنّ ذلك احتراس عن أكل الريش والعظم والجلد والقرون؛ لأنّ ذلك كله لا يتوهّمْهُ السامع حتى يحترس منه. وحرف على في قوله: مما أمسكن عليكم بمعنى لام التعليل، وهو احتراز عن أن يجد أحد صيداً لم يصده هو، ولا رأى الجارحَ حين أمسكه، لأنّ ذلك قد يكون موته على غير المعتاد فلا يكون ذكاة.

وقوله. . . **﴿واتقوا الله﴾**. . . الخ الآية: تذييل عام ختمت به آية الصيد، وهو عام المناسبة؛ ليربط أمور الحلال والحرام من الصيد والطعام بذلك المحور الكلي الذي يرجع إليه المؤمن في الصغيرة كالكبيرة سواء. . . **﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم﴾**: يجيء في التقييد باليوم هنا ما جاء في قوله: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم»، وقوله: اليوم أكملت لكم دينكم، عدا وجه تقييد حصول الفعل حقيقة بذلك اليوم، فلا يجيء هنا؛ لأنّ إحلال الطيبات أمر سابق؛ إذ لم يكن شيء منها محرما، ولكن ذلك اليوم كان يوم الإعلام به بصفة كلية، فيكون كقوله: ورضيت لكم الإسلام ديناً، في تعلق قوله: اليوم به. ومناسبة ذكر ذلك عقب قوله: اليوم يئس، واليوم أكملت، أنّ هذا أيضا منّة كبرى؛ لأنّ إلقاء الأحكام بصفة كلية نعمة في التفقه في الدين. وعطف جملة وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم على جملة اليوم أحل لكم الطيبات لأجل ما في هذه الرخصة من المنّة لكثرة مخالطة المسلمين أهلَ الكتاب، فلو حرم الله عليهم طعامهم لشق ذلك عليهم. وقوله: وطعامكم حل لهم قصد به التيسير في مخالطة أهل الكتاب، فنعلم من الحكمين - إباحة طعامهم لنا، وإباحة طعامنا لهم - الحاجة إلى مخالطتهم، وهو تمهيد لما يأتي بعدُ من

قوله: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب؛ لأنّ ذلك يقتضي شدّة المخالطة معهم لتزوج نسائهم والمصاهرة معهم... **﴿والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾**... الخ: توسط قوله: والمحصنات من المؤمنات بين قوله: وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وبين قوله: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، إشارة إلى أنّهن أَوْلَى بالمؤمنين من محصنات أهل الكتاب...

﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾: تعقيب فيه تهديد وفيه تعديد، وهو تعبير فيه جدّة وطرافة. والمقصود منه التنبيه على أنّ إباحة تزوج نساء أهل الكتاب لا يقتضي تزكيةً لحالهم، ولكن ذلك تيسير على المسلمين. والمراد بالإيمان: الإيمان المعهود، وهو إيمان المسلمين لا إيمان أهل الكتاب. ومع التيسير تحذير للمسلمين بأن لا يغترُّوا بمخالطة أهل الكتاب فقد يكون في مخالطتهم إفساد ومضار لا تظهر لهم لخفائها، كما تختفي مضار خضراء الدمن!.

ملاحظة مهمة ينبغي التنبّه إليها: قد أباح الله للمسلمين مخالطة المشركين في موسم الحج مؤقّتاً، حتى يعلم كل مشرك فساد ما هو عليه من عبادة الأصنام، وأكل الخبائث والميتة من بهيمة الأنعام، والاستقسام بالأزلام، ويرى ما عليه المسلم من محاسن الإسلام، فإن استمر بعد ذلك في ضلاله فلا حرمة له ولا اعتصام: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلاّ الذين عاهدتم عند المسجد الحرام»، وأباح مخالطة أهل الكتاب، حتى يقارنوا ما هم عليه من أمر دينهم، وما عليه المسلمون من أمر الإسلام، ويتبيّن لهم صحّة دعوة الرسول على المعاينة والتجربة؛ لتكون الحُجَّةُ على أهل الكتاب بالغة، وعلى المشركين كذلك...

﴿ياأيّها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾... الخ الآية: هذه أحكام تتعلق بالصلاة، لأنّها من شروطها، تأتي بعد ذكر ما يتعلق بالطيبات من الطعام والطيبات من النساء، ويجيء ذكر الصلاة، فلا يجيء مصادفة ولا اتّفاقاً، ولا يجيء بعيداً عن جوّ السياق، إنّما هي لفتة إلى نوع آخر من الطيبات؛ طيبات الروح الخالصة في هذه المرّة. إنّ الصلاة لقاء ووقوف بين يدي الله، فلابد لهذا اللقاء من استعداد، لابد له من تطهُّرٍ جسدي يؤدي إلى تطهُّر رُوحي.

وما ذكر هنا من أعضاء الوضوء هو الواجب المتّفق عليه عند جميع الفقهاء، والمختلف عليه إنّما هو في كيفية الأداء. وحددت الآيةُ الأيديَ والأرجلَ إلى المرافق وإلى الكعبين في الوضوء؛ لقصد المبالغة في النظافة، وسكتت في التيمم فلم تحدّد، فعلمنا أنّ السكوت مقصود، وأنّ التيمّم لمّا كان مبناه على الرخصة اكتفى بصورة الفعل وظاهر العضو، ولذلك اقتصر قوله: وأيديكم في التيمم، وهذا من طريق الاستفادة بالمقابلة، وهو طريق بديع في الإيجاز أهمله علماء البلاغة وعلماء الأصول. وجملة **﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾** تعليل لرخصة التيمّم. ونفي الإرادة هنا كناية عن نفي الجَعْل؛ لأنّ المريد الذي لا غالب له لا يحول دون إرادته عائق.

وقوله: **﴿لعلكم تشكرون﴾**، علّة لإتمام النعمة على طريقة المجاز، بأن استُعِيرت صيغة الرجاء إلى الأمر لقصد الحثّ عليه، وإظهاره في صورة الأمر المستقرب الحصول... **﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إنّ الله عليم بذات الصدور﴾**: في هذا تذكير للمؤمنين بنعمة الله، وفي ظل التذكير بنعمة الله يُذكّرُهم بميثاقه الذي واثقهم به، فالنعمة والقيام بالعهد عَقْدٌ ذُو طَرَفَيْن، وقد وفى الله لهم بنعمته فليوفوا هُمْ بميثاقه، والمرجع في هذا العقد للتقوى **﴿واتقوا الله﴾**، والتقوى شعور في الضمير مطويٌّ في الصدور. والكلام مرتبط بما افتتحت به هذه السورة، لأنّ في التذكير بالنعمة تعريضاً بالحثّ على الوفاء. ومعنى سمعنا وأطعنا الاعتراف بالتبليغ، والاعتراف بأنّهم سمعوا ما طُلِبَ منهم العهدُ عليه، فالسمع مجاز في الامتثال والطاعة تأكيد له.

وجملة إنّ الله عليم بذات الصدور تذييل وتحذير من إضمار المعاصي، ومن توهم أنّ الله لا يعلم إلاّ ما يبدو منهم، وهي علة لما قبلها. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الحكم. والتعبير (بذات الصدور) تعبير مُصَوِّرٌ نَمُرُّ به كثيراً في القرآن، فيحسن أن ننتبه لما فيه من دقّة وجمال. وذات الصدور، أي: صاحبة الصدور الملازمة لها الّلاصقة بها، وهي كناية عن النيات المقيمة، والأسرار الدفينة، والمشاعر التي لها صفة الملازمة للقلوب والاستقرار في الصدور، وهي على خفائها هناك مكشوفة لعلم الله والله بها عليم...

﴿**ياأيُّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط**﴾. . . الخ الآية: لقد سبق نَهْيُ المسلمين أن يحملهم الشنآن على جريمة الاعتداء، فها هم الآن يُنْهَوْنَ أن يحملهم الشنآن على الميل عن العدل، وهذه مرتبة أدَقُّ، وإنْ خُيّل للقارئ أن الاعتداء الأول سواء هو وعدم العدل الثاني، إنّهما يتفقان في الصفة العامّة؛ فالاعتداء اعتداء، وعدم العدل اعتداء، ولكن التكليف الأول أيسر؛ لأنّه إجراء سلبي بالكفّ عن الاعتداء، فأمّا التكليف الثاني فأشق؛ لأنّه إجراء إيجابي بتحقيق العدل مع المبغُوضِينَ المشنُوئين، وتمكينهم من نتائج هذا العدل، والشهادة لهم أو عليهم بالقسط، وهو تكليف أبْعَدُ أُفُقاً في رياضة النفوس من غير جدال، لذلك يقدّم النص أمر القيام لله فرضاً على المسلمين، ليتم التجرد عن ملابسات الأرض في ظل القيام لله، ثم يعقب على التكليف بالتقوى، ويُعرّض بأنّ الله رقيب وهو خبير بما يعملون. . .

﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم**﴾: هذا عقد كتبه الله للمؤمنين في مقابل التكاليف التي يقومون بها، تنسيقاً له مع جوّ السورة والسياق، ويقابله عقد آخر؛ عقد تمليك، ولكنه تمليك الجحيم. ووعد المؤمنين مُتَقرر ثابت، ووعيد الكافرين ملك لهم خاص لا يشاركهم فيه أحد من الناس!. . ﴿**ياأيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم**﴾. . . الخ الآية: بعد قوله تعالى: ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به**﴾، أُعيد تذكيرهم بنعمة أخرى عظيمة على جميعهم إذا كانت فيها سلامتهم.

تلك هي نعمة إلقاء الرعب في قلوب أعدائه؛ لأنها نعمة يحصل بها ما يحصل من النصر دون تجشم مشاق الحرب ومتالفها. وافتتاح الاستئناف بالنداء ليحصل إقبال السامعين على سماعه. ولفظ ياأيّها الذين آمنوا وما معه من ضمائر الجمع يؤْذَنُ بأنّ الحادثة تتعلق بجماعة المؤمنين كلهم، وقد أجمل النعمة ثم بينها بقوله: ﴿**إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديَهُم**﴾، وكفُّ اليد مجاز في البطش، وكف اليد مجاز عن الإعراض عن السوء. والأمر بالتقوى عقب ذلك؛ لأنّها أظهر الشكر، فعطف الأمر بالتقوى بالواو للدلالة على أنّ التقوى مقصودة لذاتها، وأنّها شكر لله بدلالة وقوع الأمر عقب التذكير بنعمة عُظْمَى. وقوله: ﴿**وعلى الله**

فليتوكل المؤمنون﴾، أمْرٌ لهم بالاعتماد على الله دون غيره، وذلك التوكل يعتمد امتثال الأوامر واجتناب المنهيات فناسب التقوى، وكان من مظاهره تلك النعمة التي ذُكّرُوا بها. ولا ننسى أن نقف وقفة فنية أمام التعبير القرآني **﴿إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾** في مقام إذ همّ قوم أن يُؤْذوكم أو يبطشوا بكم فحماكم من البطش والأذى؛ إنّ صورة بسط الأيدي وكفها تصوّر حركة حسيّة حيّة.

والتعبير القرآني يختار الصورة للتعبيرات عن الدلالة المجردة؛ لأنّ الصورة الحيّة أوقع في النفس، وهي تطلق الشحنة الكامنة في التعبير كما لو كان هذا التعبير يطلق لأول مرة مصاحباً للواقعة الحسيّة التي يعبر عنها، وتلك في الغالب ـ طريقة القرآن في التعبير ـ طريقة التصوير. ولزيادة الإيضاح نقول: جملة **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** تذييل مقرر لما قبله، وإيثار صيغة أمر الغائب وإسنادها إلى المؤمنين، لإيجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهاني، وللإيذان بأنّ ما وصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان داعٍ إلى ما أمروا به من التوكّل، والتقوى وازع عن الإخلال بهما، وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة التذييلية.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: **﴿ياأيُّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أُحلت لكم بهيمة الأنعام إلاّ ما يُتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إنّ الله يَحْكُمُ ما يريد﴾**: هذا التوجيه يتعلق به عدّة أحكام: الحكم الأول وجوب الوفاء بالعقد الذي عقدوه مع الله على أنفسهم، والعقود في معناها الواسع تشمل جميع ما يتعلق بالفرد وبالجماعة؛ من العبادات والمعاملات والمعاهدات؛ لأنّ هذه كلها عقود ترتبط بها النفس، ويتحدّد بها العمل والسلوك، والإسلام يربط هذه العقود كلها بالله، ويجعل الوفاء بها فريضة، ويوجه الأمر للذين آمنوا فكتبوا بقلوبهم عقد الإيمان أن يفوا بسائر العقود التي ارتبطوا بها مع عقد الإيمان.

ثم يبدأ هنا في تفصيل بعض هذه العقود: أُحلّت لكم بهيمة الأنعام إلاّ ما يتلى عليكم، فحَلاَلٌ لكم أن تأكلوا كل ما يدخل تحت مدلول بهيمة الأنعام؛ وهي

الإبل والبقر والضأن والمعز ذكورها وإناثها، وما تجدونه في بطونها بعد ذبحها؛ إذ ذكاة الجنين ذكاة أمه، أما ما يتعلق ببقية الحيوان الوحشي فسيأتي في حكم الصيد. والمستثنى في هذا قسمان: صيدُ الْحَرَم وصيدُ الْمُحْرِم، وسيأتي تفصيل حكم الصيد في قوله تعالى: «ياأيُّها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم»...الخ الآيتين.

وما يأتي قريباً من حكم الميتة وما عطف عليه، وهذا ما يتعلق بالحكم الثاني في التوجيه. الحكم الثالث تحريم التعدي على شعائر الله من مناسك الحج، وما فيها من ممنوعات على المحرم حتى يُنْهِي إحرامه، بنحر الهدي الذي ساقه إلى البيت الحرام، والأشهر الحرم التي لا يحل فيها قتال، والهدي الذي لا يذبح إلاّ يوم النحر، والقلائد وهي ما كان يتخذ من شجر الحرم، فيتقلد به من يريد الأمان، ويحرم إيذاؤه وعليه هذه القلائد ما لم يَبْدَأْ بالعُدْوان، والذين يَؤُمُّونَ البيتَ الحرامَ للتجارة الحلال وطلب الرضوان من الله، كل أولئك محرّمات لا تجوز استباحتها، داخلة في العقود التي يجب الوفاء بها. هذا هو الأمان الذي يعم جميع الناس ولو كانوا من الذين تعدوا على المسلمين وصدوهم عن المسجد الحرام عام الحديبة، وهذه الأوامر والنواهي تدخل تحت قاعدة عامة جاء بها الإسلام...

﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب﴾. الحكم الرابع تحريم أكل لحم الميتة وما عطف عليه، ويدخل في هذا الحكم عشرة أقسام: الأول: أكل الميتة وهي في عرف الشرع ما ماتت دون ذكاة شرعية، والحكمة في تحريم أكل الميتة لما فيها من الضرر الناشئ عن أكلها مما تحمله من عُفونة وجراثيم وسموم. الثاني: أكل الدم المسفوح، وحكمة التحريم لما في الدم من الأضرار الناشئة عنه من فضلات عالقة به، مثل الجراثيم وثاني أكسيد الفحم وغيرهما. الثالث: أكل لحم الخنزير، وحكمة تحريم أكله لما فيه من العفونة والجراثيم القاتلة الناشئة من أغذية الخنزير القذرة، فهو يأكل كل شيء يمر به؛ خصوصاً مستنقعات المياه المجمّعة من الأوساخ، والفضلات من الحيوان والإنسان، ويأكله النصارى بشراهة فائقة، ومن العجيب أنّ كتّابهم عندما يتعرضون لذكره، يقولون عنه: ولحمه لذيذ الطعم جداً!.

وهذا من تأثير الكنيسة عندما جعلته مُقَدَّساً مُحْتَرماً. الرابع: ما أهل لغير الله

به، وهو ما ذبح لقصد تعظيم صنم أو هيكل أو ضريح أو نصب تذكاري، ويدخل فيه كل ما عظمه الناس تعظيماً دينيّاً، مثل ما يذبح الآن في بلادنا لدفع شر الجن أو جلب المطر أو إدخال البركة للبيت الجديد، أو في الزيارات السنوية والموسمية، مما يكون فيه رجاء من مخلوق أو خوف منه، وحكمة التحريم في هذا أنّه من عبادة غير الله، فالأكل منه مشاركة لأهله ومشايعة لهم عليه، وهو مما يجب إنكارُه لا إقْرَارُه، ويدخل في ذلك كل ما يفعله النصارى واليهود من تعظيم زعمائهم وذكر أسمائهم على ما يأكلون في حفلاتهم، وما يفعله جهلة المسلمين الذين اتّبعوهم في مآتمهم وجنائزهم وأعيادهم، وساروا على نهجهم بَاعاً فباعاً وذراعاً فذراعا وشبراً فشبراً، حتى قلّدوهم في أخس كفرياتهم من تشييد الأضرحة، وتنويرها بالسرج، وحمل باقات الزهور ووضعها على جثث القبور!. الخامس: المنخنقة، وهي التي تموت خنقاً كيفما كان هذا الخنق مقصوداً أو غير مقصود، والحكمة فيه كما في الميتة. السادس: الموقوذة، وهي المضروبة بشيء ماتت منه، وهي مثل الميتة في حكمة التحريم. السابع: المتردية، وهي الساقطة من علو، أو تقع في حفرة أو بئر فتموت، وهي مثل الميتة. الثامن: النطيحة، وهي التي تموت بنطح حيوان آخر كذلك. التاسع: ما أكل السبع، وهي التي تموت بنهش حيوان مفترس، والأكل ليس شرطاً، وإنّما هو نظر للغالب. إلاّ ما ذكيتم: الاستثناء هنا يشمل الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، أمّا الخنزير وما أهل لغير الله فلا تعمل فيه الذكاة شيئاً للحرمة الذاتية غير العارضة. والتذكية تشتمل على النحر والذبح والعقر والصيد، وهي مذكورة بالتفصيل في كتب الفقه. العاشر: ما ذبح على النصب، وهي المذبوحة على شيء يجعله أهلُه لذبح القرابين التي يتقرب بها إلى من يعتقدون فيه البركة والنجدة لدفع الشدّة.

ومن المحرمات الاستقسام بالأزلام، وذلك ما كان يفعله أهل الجاهلية من أخذ ثلاثة سهام كتب على أحدها أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، والثالث لا شيء عليه، فإذا أراد أحدهم سفراً أو غزواً أو زواجاً أو بيعاً أو نحو ذلك حرك هذه السهام في بعضها، فإن خرج السهم المكتوب عليه الأمر خرج وفعل ما قصده، وإن خرج ما عليه النهي امتنع ولم يفعل ما قصده، وإن خرج المجرد من الكتابة أعاد الاستقسام حتى يظهر له السهم الذي فيه الأمر أو النهي، وحكمة هذا

التحريم أنّه من الخرافات والأوهام التي لا يركن إليها إلاّ من كان ضعيف العقل، يفعل ما يفعل من غير بيّنة وبصيرة، ويترك ما يترك كذلك، ويجعل نفسه ألعوبة للكهنة والسدنة (خدمة المعابد والأضرحة) والمنجّمين والمشعوذين.

وقد استن بعض جهال المسلمين بهذه السنة السيّئة المشينة، فتراهم يذهبون إلى التكازين وضاربي الكف وفاتحي كتب التنجيم، وأشهر كتاب في هذا الوقت كتاب أبي معشر الفلكي، وحظك اليوم في الصحف والإذاعة، وأخطر كتاب في هذا الموضوع كتاب شمس المعارف الكبرى للشيخ البوني فهو جامع لكل كبيرة وصغيرة من هذه الخرافات المحرّمة الخطيرة. ومنهم من يأخذ الفأل من المصحف يفتحه فيقرأ ما يراه من أول وهلة؛ فإن كان كلمة ثواب استبشر، وإن كان كلمة عقاب تطيّر، ويصبغون عملهم هذا بصبغة الدين، ويلبسون الباطل ثوب الحق، وكذلك من يكتب منه للناس الأحجبة والتعاويذ التي لم يَرِدْ بها دليلٌ صحيحٌ قاطع، وإنّما هو اتباع للأهواء وأكل أموال الناس بالباطل «ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله؟!...».

﴿**ذلكم فسق**﴾: هذا العمل المشين الدال على خفّة العقل وخسّة الطبع خروج عن الدين وعن الخير. وجعل الله الاستقسام بالأزلام لطلب البخت ومعرفة الاطلاع على الغيب فسقاً؛ لأنّ فيه ما هو مُقامرة، وفيه ما هو من شرائع الشرك، لتطلب المسببات من غير أسبابها؛ إذ ليس الاستقسام سبباً عاديّاً مضبوطاً، ولا سبباً شرعياً منصوصاً عليه نصّاً قطعيّاً، فَتَمَحَّضَ لأن يكون كذباً وافتراءً، مع أنّ ما فيه من توهم الناس إيّاه كاشفاًعن مراد الله بهم من الكذب على الله، لأنّ الله نصب لمعرفة المسببات أسباباً عقلية؛ هي العلوم والمعارف المنتزعة من العقل، أو من أدلته كالتجربة المبنيّة على الحس والمشاهدة.

وجعل أسباباً لا تعرف سببيتها إلا بتوقيف منه على لسان الرسل كجعل الزوال سبباً للصلاة، والهلال لمعرفة ما يهم الإنسان من الأوقات، وما عدا ذلك كذب وبهتان، فمن أجل ذلك كان فسقاً، ولذلك أجمع الفقهاء المعتد بفقههم على تجريح من ينتحل ادّعاء معرفة الغيب، فلا تقبل منه شهادة، ولا يُصلَّى خلفه مثل أهل الطرق.

التوجيه الثاني: يبيّن فيه الفرق بين ما كانوا عليه من الشرك والإفك والفسوق

والفجور، وبين ما جاء به الإسلام من صلاحهم والحرص على فوزهم ونجاحهم بنصرهم على الكافرين أعدائهم، فلا مطمع لهم فيه؛ لأنّ الله ناصرهم ومرشدهم وهاديهم. . .

﴿**اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾: وهذا البيان والتذكير هنا جاء مناسباً في صلب ذكر ما تفعله الجاهلية من كفرة العرب وأهل الشرك وكفرة اليهود والنصارى، من تلاعب بالدين واستهتار بالعقل الرزين، وتباعد عن الصدق واليقين. فمِنْ هنا جاء التصريح بيأسِ الكافرين من هذا الدين، وبإكماله على هذا الأصل الثابت الرصين؛ إذ تمت نعمة الله على المؤمنين.

والدين: هو ما كلف الله به الأمة من مجموع العقائد والأعمال والشرائع والنظم، فإكمال الدين هو إكمال البيان المراد لله تعالى الذي اقتضت الحكمة تَنْجيمَه، فكان بعد نزول أحكام الاعتقاد التي لا يسع المسلمون جهلها، وبعد تفاصيل أحكام قواعد الإسلام - التي آخِرُها الحجُّ - بالقول والفعل، وبعد بيان شرائع المعاملات وأصول النظام الإسلامي، كان بعد ذلك كله قد تمّ البيان المراد لله تعالى في قوله: «ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء»، وقوله تعالى: «لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم»، بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة كافياً في هدْي الأمة في عبادتها ومعاملتها وسياستها في سائر صورها بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافياً في كل وقت بما يحتاجه المسلمون، ولكن ابتدأت أحوال جماعة المسلمين بسيطة، ثم اتسعت جامعتُهم، فكان الدين يكفيهم لبيان الحاجات في أحوالهم بمقدار اتساعها، إذ كان تعليم الدين بطريق التدريج ليتمكن رسوخه، حتى استكملت جامعة المسلمين كل شؤون الجوامع الكبرى، وصاروا أمة كأكمل ما تكون أمة، فكمل من بيان الدين ما به الوفاء بحاجاتهم كلها، فذلك معنى إكمال الدين.

والذي يتتبّع أحوال المؤمنين يعلم بدون ريب أنّ أمر الإسلام بدأ بسيطاً في مكة؛ اقتصر على التوحيد وبعض العبادات، مع مراعات حسن التصرف في المعاملات، ثم أخذ يظهر رويداً رويداً ظُهُور سنا الفجر، وهو في ذلك كله دين يبيّن لأتباعه الخير والشر والحلال والحرام، فما هاجر الرسول ﷺ إلاّ وقد أسلم

كثير من أهل مكة ومعظم أهل المدينة، فلما هاجر ﷺ أخذ الدين يظهر في مظهر شريعة مستوفاة، فيها بيان عبادة الأمة وآدابها وقوانين تعاملها، ثم لما فتح الله مكة وجاءت الوفود مسلمين، وغلب الإسلام على بلاد العرب، تمكن الدين وخدمته فأصبح مرهوباً بأسه، ومنع المشركين من الحج بعد عام مضى من فتح مكة، فحج الرسول حجة الوداع عام عشرة وليس معه غير المسلمين، فكان ذلك أجلى مظاهر كمال الدين. . .

﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإنّ الله غفور رحيم﴾: هذه تكملة لما تقدم من الأحكام، تأتي هنا بعد ذكر نصرة الدين وإكماله، وإتمام النعمة على أتباعه، وأنّه الدين الذي ارتضاه الله لعباده، فهذه الكلمات الهائلة تَرِدُ ضمْن آيات التحريم والتحليل لبعض الطعام، لأنّ شريعة الله كلٌّ لا صغير فيه ولا كبير، كلٌّ لا يؤخذ منه ببعض ويستهان فيه ببعض، كلٌّ متكامل؛ الذي يختص منه بالشعائر والعبادات، كالذي يختص منه بالطعام والمباحات، فكل جزئيّة من هذه الشريعة لها قيمتُها في بناء هذه الشريعة، وفي بناء الأمة التي تنظمها تلك الشريعة، وفي إنشاء المجتمع الذي يقوم عليها ويسير على هداها، فهاهو ذا إعلان الكمال والتمام لهذا الدين يجيء ملحقاً بآية في تحريم بعض المآكل من الطعوم. هذه الدلالة لها قيمتها في كل زمان، وبخاصة في هذا الزمان الذي يهم فيه قوم بفصل الدنيا عن الشريعة، وتركها إلى تقدير الناس واجتهادهم، حتى فيما نزل فيه قرآن!.

فهاهو ذا القرآنُ يعلن إعلانه الهائل عن إكمال الدين في ظل آية متعلقة بتحريم بعض الأطعمة على المسلمين، لِيَدُلَّ على أنّ كل حرف في شريعته يُكمل الآخر، وأنّ كمالها لا يكون إلاّ أن يؤخذ بكل حرف فيها من غير تفرقة ولا تقسيم. . .

﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات﴾: من مظاهر هذا الإكمال وضْعُ هذه القاعدة في صرح بناء الإسلام الشامخ الراسخ؛ وضعت هذه القاعدة للإعلام بأن ما أحله الله لهم فهو طيب؛ إبطالاً لما اعتقدوه في زمن الشرك في تحريم ما لا مُوجب في تحريمه، وتحليل ما هو خبيث. والواقع أنّ كل ما حُرِّم تستقذره الفطرة السليمة بطبعها من الناحية الحسية كالميتة والدم ولحم الخنزير، أو ينفر منه القلب السليم كالذي أهل به لغير الله، أو ما ذبح على النصب أو الإستقسام بالأزلام. . . **﴿وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله**

فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إنّ الله سريع الحساب﴾: هذا قسم يدخل في قسم الطيبات، ولكن صرح به؛ لأنّ طيبه قد يخفى من جهة خفاء معنى الذكاة في جرح الصيد. ومعنى هذا الكلام إباحة أكل ما صادته الجوارح؛ من كلاب وفهود وسباع طير كالبزاة والصقور، وشرط الإباحة: أن تكون معلَّمة، وأمسكت بعد إرسال الصائد، وأن يذكر اسم الله عليه عند الإرسال؛ لأنّه قد يموت بجرح الجارح، أما إذا أمسكه حيّاً فقد تعيّن ذبحُه فيذكر اسم الله عليه حينئذ، وفي كتب الفقه تفاصيل متنوعة في حكم الصيد فلتراجع هناك. . .

﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾: أعيد الكلام على الطيبات ليبنى عليه قوله: وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وإضافة الطعام إلى أهل الكتاب للملابسة، بمعنى ما يعالجه أهل الكتاب بطبخ أو ذبح، بخلاف الطعام الذي يؤكل بدون محاولة علاج من أحَدٍ، والمراد من أهل الكتاب: اليهود والنصارى؛ لأنّهم يتحرزون من أكل الميتة والخبائث على أصل ما جاء به الدين في رسالة موسى وعيسى، ولا عبرة بما ابتدعوه في دينهم من أكل الخنزير وشرب الخمر؛ لأنّ هذا محرم على المسلمين بالأصالة، فلا يدخل في الطعام المباح.

وقد فصّل الفقهاء هذا الحكم في كتبهم مما لا مزيد عليه لمستزيد. أمّا حل طعام المسلمين لأهل الكتاب، فهو من جهة التيسير للمسلمين في مخالطة الناس عموماً، وفي مخالطة أهل الكتاب خصوصاً، حتى يظهر للناس محاسن الإسلام وحسن معاملة المسلمين. فمن هذه الجهة لم يكتف الإسلام بحل الطعام فقط، بل أباح للمسلمين ما هُوَ أَدْخَلُ في المخالطة وأشد تعمُّقاً فيها، وهو نكاح المرأة العفيفة الحرة من أهل الكتاب!. وهذا النكاح مشروط بما يأتي: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان. بمعنى أن يكون هذا النكاح نكاحاً شرعياً حسب ما فُصّل في الشريعة وأجمع عليه المسلمون، فلا يكون زواجاً عرفيّاً، ولا عقداً مدنيّاً. ونتاج هذا النكاح حق للمسلمين، فليس للكافرين عليه من سبيل، فالولد تابع لأبيه في

نسبه ودينه وثقافته وتربيته، فليس للأم إلاّ الرضاعة ورعاية شؤونه المادّية. . .

﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهوفي الآخرة من الخاسرين﴾: هنا فلنقف لتأمّل هذا التذييل (التعليق) ما الغرض منه هنا؟. للظاهر أنّ المقصود منه التنبيه على أنّ إباحة تزوج نساء أهل الكتاب، وإباحة أكل طعامهم لا يقتضي تزكية لحالهم، حتى يغتروا بدينهم ويرونه مُعْتَدّاً به عندهم، ولا ينخدع المسلم بهم إن ظهر من نسائهم جمال وحسن معاملة مع الغير، وظهر من تفوقهم في مظاهر الحضارة، التي سببها معرفة نواميس الحياة وما تقتضيه من رُقِيٍّ وتقدم في الغنى والرفاهية، كما هو حالهم اليوم!. فقد انخدع بعض المسلمين بهذه المظاهر فتزوج منهم وقلدهم في حياتهم عيشة ومظهراً وسلوكاً، حتى خرج عن منهج الإسلام العام، فتزوج منهم وغُلِبَ على أمره؛ فأصبح تحت تصرف زوجته، وأخضعته لأمرها وربّت أولاده على ذوقها، وما هذا إلاّ انسلاخ ومسخ لطبيعة المسلم الذي عَلِمَ دينَه حقّ العلم، وفهم حقيقته حق الفهم، وهذا هو سر التعبير بقوله: ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين: خسران أهل الكتاب ببقائهم على دينهم لاغترارهم بما هم عليه، وخسران المرتدّ عن الإسلام بانخداعه بمظاهر حضارة أهل الكتاب.

والإيمان هنا: الإيمان المعهود، وهو إيمان المؤمنين الحق الذي بسببه سُمُّوا بالمؤمنين، وفي هذا التعبير (حبط عمله) تحذير المؤمنين بأن لا ينخدعوا بمظاهر أهل الكفر التي تخلب العقول وتبهر الأنظار، كما يحصل للحيوان عندما يجد خضرة النبات ووفرة المرعى في مكان رطب وَوَخْمٍ، فيأكل منه بشراهة حتى تنتفخ بطنه فَيَهْلِكْ!.

التوجيه الثالث: **﴿ياأيُّها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾**. . . الخ الآية: هذا التوجيه فيه لفتة إلى نوع آخر من الطيبات؛ طيبات الروح الخالصة في هذه المرة، الطيبات التي تستمتع بها الروح المؤمنة، وتطمئن بها النفوس المطمئنة. تجد فيها ما لا تجده في سائر المتاع، إنّها متاع اللقاء مع الله في جوٍّ من الطهر والخُشوع والنقاء، والصلاة عقد بين المؤمن وربه كبقية العقود التي أمر الله بالوفاء بها. والآية هنا بيّنت مشروعية الوضوء، وأنّه شرط من شروط الصلاة فرضاً كانت أو نفلاً، كما أعيد ذكر الغسل وما يقوم

مقامهما من التيمم. والوضوء مشروع مع الصلاة لا محالة، وهذه الآية قررت حكم الوضوء ليكون ثبوته بالقرآن، ومثله الاغتسال، فهو مشروع من قبل كما شرع الوضوء، بل هو أسبق من الوضوء؛ لأنّه من بقايا الحنيفيّة التي كانت معروفة حتى أيامَ الجاهلية، ولما كان الوضوء شرطاً في الصلاة، فنعلم منه أنّه مادام باقياً فلا تطلب إعادته لكل صلاة على جهة الوجوب.

والآية بينت جميع ما يطلب في الوضوء من الواجب، فنعلم من قوله: إذا قمتم وجوب النية والقصد، ومن قوله فاغسلوا وجوب غسل الأعضاء المغسولة، ووجوب مسح العضو الممسوح، ونعلم من الغسل وجوب الدلك، ومن ذكر الأعضاء معطوفة وجوب الفور، أمّا غسل اليدين إلى الكوعين أولاً، والمضمضة والاستنشاق ومسح الأذنين ورد مسح الرأس فمعلومة من السنة العملية التي جاءت ببيان كيفية وضوء النبيء ﷺ، وفي الوضوء مطالب أخرى على وجه الندب والفضيلة، وقد تكفلت ببيانها كتب الفقه بالتفصيل، وهذه هي الطهارة الصغرى. والطهارة الكبرى الاغتسال كما ذُكر في سورة النساء، والتطهير كما ذُكر هنا، وهو تعميم الجسد بالماء مع الدلك وتخليل الشعر وتتبع ما خفي من مغابن الجسد. والقرآن اقتصر على الواجب من الغسل، والسنة بيّنت المطلوب على وجه الكمال والفضيلة.

وبيّنت الآية موجب الوضوء، وهو نقضه بقضاء الحاجة البشرية المعبر عنه ﴿**أوْ جا أحد منكم من الغائط**﴾، وفيه ثلاثة نواقض: خروج البول ومثله المذي والودي من قبل الإنسان، وخروج الغائط (الفضلة) والريح من دبره، المعبر عنه عند الفقهاء: الخارج المعتاد من المخرج المعتاد على سبيل الصحة والاعتياد، وهذه العبارة مفصلة تفصيلاً كاملاً في كتب الفقه. وبيّنت موجب الغسل، وهو وجود الجنابة باحتلام أوبوقاع؛ المعبر عنه بلامستم النساء. وهذان الشرطان ـ من الوضوء والغسل ـ لازمان لغير المريض الذي يضره استعمال الماء من زيادة المرض أو تأخر البرء، والمسافر الذي لا يجد الماء، أو يحتاجه لضرورة طبخ أو شرب، أما المريض والمسافر بالشرط المتقدم ففرضه التيمم، وهو استعمال الصعيد الطاهر، بضرب اليدين عليه ويُمسح الوجه واليدان، ولم يحدد هنا مسح اليدين؛ لأنّ المسح مبني على التخفيف، فيكفي أقل ما يطلق عليه المسح.

وقد فصّل الفقهاء حكم الصعيد الطاهر وكيفية التيمم وما يجب فيه وما يُسن ويُندب وشرط التيمم، ومن المهم هنا في الطهارتين ـ الكبرى والصغرى ـ، وما ناب عنهما من التيمم توضيح الحِكْمَةِ في مشروعيتهما؛ نفي الحرج في هذا الدين، وإرادة التطهير، وهو تطهير حسّيٌّ؛ لأنّه تنظيف وتطهير نفسي، جعله الله فيه لمّا جعله عبادة، فإنّ العبادات كلها مشتملة على عدة أسرار، منها ما تهتدي إليه الأفهام، وتعبر عنها بالحكمة الظاهرة، ومنها ما لا يعلمها إلاّ الله، وتعبر عنها بالحكمة الخفية، وهو التعبد، مثل عدد ركعات الصلاة، فإذا ذكرت حكم للعبادات، فليس المراد أن الحِكَم منحصرة فيما علمناه، وإنّما هو بعض من كل، ومن الحكم الخفية حكمة نيابة التيمم عن الوضوء أو الغسل، لأنّ التيمم ليس فيه تطهير حسّيّ، لكن فيه التطهير النفسي، وهو سِرٌّ خفيّ في الحكمة من التيمم. وهذا التخفيف والتطهير بنوعيه زيادة في إتمام النعمة، بزيادة أنواع من النعم لم تكن، أو بتكثير فروع النوع من النعم، وهذه كلها تقتضي الشكر. . .

﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إنّ الله عليم بذات الصدور﴾: هذا الكلام يبين كيفية الشكر، ويذكّر بِنِعَمٍ مضت في السابق، يُقْصَدُ منه الحثُّ على الشكر وعلى الوفاء بالعهود، والعهود التي يذكّر بها هنا كثيرة: أولها: عهد الإسلام لكل من يدخل فيه وهو العهد العام. وثانيها: عهود خاصة، منها بيعة العقبة وبيعة الرضوان، ومنها بيعة عبر عنها ببيعة النساء؛ لأنّه كان يبايع المؤمنين على مثل بيعة النساء التي ذكرت في قوله: «ياأيُّها النبيء إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إنّ الله غفور رحيم».

التوجيه الرابع: **﴿ياأيُّها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾**. . . الخ الاية: في هذا التوجيه طلب إقامةِ العدل، وهو من الميثاق الذي واثق الله به الأمة المسلمة؛ العدل المطلق الذي لا يُميل ميزانَه المودّةُ والشنآن، ولا تؤثر فيه قرابة أو مصلحة أو عصبية أو هوى أو شعور خاص. إنّه عدل مستمد من التجرد من كل الملابسات، والقيام لله وحده بمنجاة من المؤثِّرَات، ومن ثمَّ يطالبهم بهذا العدل المطلق عقب تذكيرهم بذلك الميثاق. وحكم هذا العدل فرض على

المسلمين القيام به، وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوئين كما يكفله لهم هذا الدين، ذلك أنّه رسالة الله للناس كافة؛ ليجد فيه الناس كلهم الحماية والرعاية في ساحة العدل ما لم يكونوا بغاة ظالمين... ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم**﴾: في هذا بيان ثواب من يوفي بهذه الأوامر المتقدمة من أول السورة إلى هنا، وبيان عقاب من يَخِلُّ بها ويتغاضى عنها وكأنها لا تهمه ولا يلتفت إليها.

التوجيه الخامس: ﴿**ياأيُّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾: في هذا التوجيه تذكير بنعمة أخرى عظيمة على جميع المؤمنين؛ إذ كانت فيها سلامتهم، تلك هي نعمة إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم؛ لأنّها نعمة يحصل بها ما يحصل من النصر دون تجشم مشاق الحرب ومتالفها. والآية هنا عمت ولم تخصص قوماً بأعيانهم؛ ليشمل كل من أراد في السابق البطش بالمسلمين والكيد لهم، ومن يريد البطش في اللاّحق بالمسلمين؛ ليكون النص أشمل وأكمل، وعلى هذا يستفاد من التوجيه تذكير المتأخرين من المسلمين، لتقوية ترغيبهم في التأسي بالسابقين الأولين، من الأصحاب الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه من الأنصار والمهاجرين، فيقومون حقّ القيام بما جاء به هذا الدينُ، وليكونوا حقاً من التابعين الصادقين.

4 ـ المواثيق التي أخذها الله على اليهود والنصارى نقضوها عمداً جهاراً نهاراً!

النص

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ
لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى
وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ
عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ
ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (13) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ
لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ
عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ
تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ
عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (14)
وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ
فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ
ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ
يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (15) يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ

قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿16﴾ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿17﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ السَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿18﴾ * لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿19﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿20﴾ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿21﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ

ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿22﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿23﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿24﴾ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿25﴾

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿26﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿27﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿28﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

ميثاق بني إسرائيل الذي أخذه الله عليهم: الإيمان الخالص الذي لا يشوبه شكّ ولا شرك، والعبودية لله وحده، والإيمان بجميع الكتب وجميع الرسل. . .

﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾: البعث أصله التوجيه والإرسال، ويطلق البعث

على الإنهاض «من بعثنا من مرقدنا؟»، ويطلق على ما في النفس من إثارة الخواطر ـ هذا أمر يبعث السرور، وهذا أمر يبعث الحزن ـ، ومعناه هنا التوجيه، بمعنى: جعلنا منهم وجهاء يوجهون قومهم حسب شريعتهم. والنقيب: فعيل بمعنى فاعل، مشتق من النقب بمعنى الحفر، ومن التنقيب بمعنى التفتيش؛ لأنّه يبحث ويفتش عن أحوال القوم وأسرارهم؛ فهو موكول إليه تدبير القوم، فيطلق على الرئيس وعلى قائد الجيش وعلى الرائد، ونقباء بني إسرائيل كمشايخ القبائل عند العرب. . .

﴿**وقال الله إنّي معكم**﴾: القصد من معية الله لغيره لازم معناه، فالذي معك مطلع عليك يراك ويسمعك، والمعنى هنا: إنّي معكم أسمع كلامكم وأرى أعمالكم وأعلم ضمائركم فأجازيكم بذلك. والتعزير في قوله: ﴿**وعزرتموهم**﴾: المراد به النصر، يقال: عزَرَه بالتخفيف، وعزّرَه بالتشديد، وهو مبالغة في عزره عزراً إذا نصره، وأصله المنع، لأنّ الناصر يمنع المعتدي على منصوره، ويقصد به هنا الذب والمنع عن الرسل ما يؤذيهم مع احترامهم وتوقيرهم. والقرض الحسن هنا: إنفاق المال بأريحيّة وسماحة نفس. . . ﴿**فقد ضلّ سواء السبيل**﴾: حاد عن الطريق المستقيم السوي الذي لا يُوقع السائر فيه في الحَيْرَةِ في مسارب قد تختلط عليه وتفضي به إلى التيه في الضلال. . .

﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية**﴾: المراد باللعن هنا: الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن هديه؛ إذ استوجبوا غضب الله لأجل نقض الميثاق. وقساوة القلوب هنا لا تتأثر بالمواعظ والنُّذُرِ، وأصل القسوة الغلظة والشدة والصلابة، ويطلق على الشيء الرديء المغشوش وعلى اليابس الخشن. . . ﴿**يحرفون الكلم عن مواضعه**﴾: التحريف الميل بالشيء إلى الحرف ـ الجانب ـ، فينحرف به إلى غير القصد المطلوب، والمراد هنا تبديل معاني الكتب التي جاء بها الأنبئاء السابقون. . . ﴿**ونسوا حظّاً ممّا ذكروا به**﴾: النسيان هنا مراد به الإهمال المفضي إلى النسيان. . .

﴿**ولا تزال تطلع على خائنة منهم**﴾: الاطلاع افتعال من طلع، والطلوع الظهور، نحو طلع النجمُ، والصعود نحو طلع الجبل، ومعنى تطّلع هنا مثل تتطلّع، وهو تكلف الفعل لتظهر نتيجته واضحة. والخائنة: مصدر كالعاقبة، ومنه:

«يَعْلَمُ خَائِنَة الأعين»، والخائنة مؤنث الخائن، ومعناه فرقة خائنة، ويطلق على الخائن مبالغة. . . ﴿**ومن الذين قالوا إنّا نصارى**﴾: النصارى كلمة أطلقت على الأمّة التي زعمت أنّها على دين المسيح، وتُسمى بالمسيحية، وتطلق الآن على كل من جعل شعاره الصليب وآمن بالصلب، وقال بالتثليث وتأليهِ المسيح، ومفرد الكلمة نصراني منسوب إلى النصر، وهذا في أصل التسمية عندما كانوا على دين الإسلام؛ لأنّهم قالوا: «نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنَّا مسلمون. . .».

﴿**فأغرينا بينهم العداوة**﴾: حقيقة الإغراء حثّ أحدٍ على فعل وتحسينه إليه حتى لا يتوانى في تحصيله. والعداوة والبغضاء: اسمان لمعنيين من جنس الكراهية الشديدة، وهما ليسا مترادفين؛ لأنّ العداوة سبب في البغضاء، وهي كراهية تصدر عن صاحبها؛ معاملة بجفاء أو قطيعة أو إضرار؛ لأنّ العداوة مشتقة من العدو، وهو التجاوز والتباعد، فإنّ مشتقات (ع د و) كلها تحوم حول التفرق وعدم الوئام. . . ﴿**وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون**﴾: نبّأ تنبيئاً: خبَّر، يتعدى بنفسه وبالباء. صنعَ يَصنع صَنعاً وصُنعاً: عمل، والمراد هنا: عملهم السيّئ الذي صنعوه في الدين. . .

﴿**ياأهل الكتاب**﴾: خطاب شامل لليهود والنصارى، والكتاب الشامل للتوراة والإنجيل. . . ﴿**قد جاءكم رسولنا**﴾: محمد ﷺ. . . ﴿**يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب**﴾: يُظهِرُ لكم حقيقة ما كنتم تخفونه من أحكام التوراة والإنجيل. . . ﴿**ويعفو عن كثير**﴾: العفوُ هنا الإعراض والإخفاء، وهو أصل مادة العفو، يقال: عفا الرسم، بمعنى لم يَظهر، وعفاه: أزال ظهوره، ثم قالوا: عفا عن الذنب، بمعنى أعرض، ثم قالوا: عفا عن المذنب، بمعنى ستر عنه ذنبه، وفي هذا معنى الصفح والمغفرة، بمعنى ويصفح عن ذنوب كثيرة حصلت لكم بسبب جهلكم. . . ﴿**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين**﴾: النور: محمد ﷺ، والكتاب المبين: القرآن الكريم المبيّن حقيقة كل شيء. . . ﴿**يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام**﴾: اتبع رضوانه كان همّه من الدين ابتغاء رضوان الله. وسبل السلام: طرق السلامة التي لا خوف على السائر فيها، وللعرب طرق معروفة بالأمن وطرق معروفة بالمخافة. . .

﴿**ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه**﴾: ويخرجهم مما كانوا فيه من

ظلمات الكفر إلى نور الإسلام. بإذنه: بتيسيره وتوفيقه وإرادته... **﴿لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم﴾**: تحقق كفر من قالوا صراحة مع اعتقاد جازم مؤكد بامتزاج حقيقة الله بحقيقة ذات عيسى، وهذا ما يعبر عنه النصارى الآن باتحاد اللاهوت بالناسوت، وفسروا ذلك بقولهم: اللاهوت: المعنى الإلهي، والناسوت: المعنى الإنساني، إلى حد أن اعتقدوا أنّ الله سبحانه قد اتحد بعيسى، وامتزج وجود الله بوجود عيسى، وهذا مبالغة في اعتقاد الحلول... **﴿قل فمن يملك من الله شيئاً﴾**: لاأحد يستطيع التدخل ليمنع الله من فعل شيء ما... **﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾**: فلا أحد يملك أن يصد الله عن إهلاك المسيح وأمه وأهل الأرض بدون استثناء... **﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾**: الأبناء جمع ابن، والأحباء جمع حبيب، ومثله أحبّة وأحباب، يطلق على المحب، تقول: أنا حبيبكم، وعلى المحبوب تقول: هذا حبيبي... **﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾**: البشر: الإنسان، ويطلق على الذكر والأنثى، والمفرد والمثنى والجمع...

﴿يبيّن لكم على فترة من الرسل﴾: الفترة المدّة التي انقطع فيها وحي الله إلى الخلق، ومعناها هنا: المدة التي بين عيسى ومحمد عليهما السلام، فهذه المدة انقطع فيها الوحي وهدئ وسكن. والبشير والنذير: الرسول الذي يبشر المؤمنين بالجنّة وينذر الكافرين بالنار... **﴿وإذ قال موسى لقومه﴾**: قوم موسى أمته التي بعث إليها، والذين خرجوا معه من أرض مصر من بني إسرائيل خاصة... **﴿إذ جعل فيكم أنبئاء﴾**: يبلّغون رسالة الله... **﴿وجعلكم ملوكاً﴾**: متحررون من عبودية الملوك... **﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾**: خُصّصتم بمزايا دون غيركم من بقية البشر... **﴿ادخلوا الأرض المقدسة﴾**: الأرض المقدسة: أرض فلسطين طُهِرّت وبُوركت بظهور كثير من الأنبئاء فيها، وأنّها مهجر إبراهيم أبي الأنبئاء ـ عليهم السلام ـ، ومسرى محمد عليه الصلاة والسلام... **﴿كتب الله﴾**: قضى وقدّر، وهو وعد الله إبراهيم أن يسكنها ذريته... **﴿ولا ترتدوا على أدباركم﴾**: الارتداد افتعال من الرد، يقال ردّه فارتدّ، والرد إرجاع السائر عن الإمضاء في سيره وإعادته إلى المكان الذي سار منه. والأدبار: جمع دبر، وهو الظهر، ومعناه هنا الرجوع إلى الوراء بدل السير إلى الأمام. والانقلاب: الرجوع، وأصله الرجوع إلى المنزل، والمراد هنا مطلق المصير...

﴿**إنّ فيها قوماً جبّارين**﴾: القوم الجماعة من الرجال والنساء، سموا بذلك لقيامهم بشؤونهم بالحفظ والرعاية ومقاومة من يريدهم بسوء. والجبّار القويّ، مشتق من الجبر، وهو الإلزام؛ لأنّ القوي يُجبر الناس على ما يُريد، ويطلق الجبّار على العاتي المتكبّر... ﴿**ادخلوا عليهم الباب**﴾: يطلق الباب على المدخل إلى المكان المراد دخوله، وعلى مدخل البيت وما مثاله من المنازل والمساكن، ويطلق عُرْفاً على ما تركب من خشب أو حديد يجعل دفّة أو دفتين يلصق بالجدار، بكيفيّة تسمح لأن يكون سادّاً للمدخل يفتح ويغلق عند الحاجة... ﴿**يتيهون في الأرض**﴾: التيْه والتِّيه، الضلال في الأرض الواسعة (المفازة)، وتاه تَيها وتِيها وتَيَهَاناً، فهو تيّاه وتيهان، وأرض تِيهٌ وتَيْهاء ومتْيَهَةٌ: مُضِلَّةٌ، وتيّهه: ضَيَّعَهُ... ﴿**فلا تأس**﴾: الأسى: الحزن، يقال: أسِيَ على وزْنِ فَرِح إذا حزن.

مبحث الإعراب

﴿**ولقد**﴾ الواو للعطف، واللام للتوكيد، وقد للتحقيق. ﴿**أخذ الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ميثاق**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**بني**﴾ مضاف إلى ميثاق مجرور بالياء. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بني مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**وبعثنا**﴾ فعل وفاعل معطوف على أخذ. ﴿**منهم**﴾ متعلق ببعثنا. ﴿**اثني**﴾ مفعول به منصوب بالياء. ﴿**عشر**﴾ مبني على الفتح. ﴿**نقيباً**﴾ تمييز منصوب بالفتحة. ﴿**وقال الله**﴾ فعل وفاعل معطوف على أخذ. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمُها. ﴿**معكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ، وجملة إنّي معكم في محل نصب مقول القول. ﴿**لئن**﴾ اللام موطئة للقسم، إنْ حرف شرط جازم. ﴿**أقمتم الصلاة**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وفعل الشرط في محل جزم. ﴿**وآتيتم الزكاة**﴾ معطوف على أقمتم الصلاة، وهو مثلها في الإعراب. ﴿**وآمنتُم**﴾ فعل وفاعل معطوف على أقمتم. ﴿**برسلي**﴾ متعلق بآمنتم، وياء المتكلم مضاف إلى رسل. ﴿**وعزرتموهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على آمنتم.

﴿**وأقرضتم الله**﴾ فعل وفاعل ومفعول، معطوف على أقمتم. ﴿**قرضاً**﴾ مفعول مطلق. ﴿**حسناً**﴾ نعت لقرضاً منصوب بالفتحة. ﴿**لأكفرن**﴾ اللام رابطة لجواب القسم، أكفرن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والفاعل ضمير المتكلم (أنا). ﴿**عنكم**﴾ متعلق بأكفرن. ﴿**سيّآتكم**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة،

والضمير فيه مضاف إليه، وجملة جواب القسم سدّت مسدّ جواب الشرط. ﴿**ولأدخلنّكم**﴾ معطوف على لأكفرنّ، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**جنّات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**تجري**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدّرة على الياء منع من ظهورها الثقل. ﴿**من تحتها**﴾ متعلق بتجري، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الأنهار**﴾ فاعل تجري مرفوع بالضمة، وجملة تجري في محل نصب نعت لجنات. ﴿**فمن**﴾ الفاء للترتيب والتعقيب، مَنْ اسم شرط جازم. ﴿**كفر**﴾ فعل الشرط في محل جزم، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**بعد**﴾ متعلق بكفر. ﴿**ذلك**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل كفر. ﴿**فقد**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، قد حرف تحقيق. ﴿**ضل**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**سواء**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**السبيل**﴾ مضاف إلى سواء مجرور بالكسرة، وجملة فقد ضل في محل جزم جواب الشرط.

﴿**فبما**﴾ الفاء للتعقيب، والباء حرف جر للسببية، ما صلة. ﴿**نقضهم**﴾ مجرور بالباء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ميثاقهم**﴾ مفعول بالمصدر منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لعنّاهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، تعلق به الجار والمجرور قبله. ﴿**وجعلنا**﴾ معطوف على لعنّاهم. ﴿**قلوبهم**﴾ مفعول أول. ﴿**قاسيةً**﴾ مفعول ثان. ﴿**يحرفون**﴾ فعل وفاعل، والجملة بيان لما قبلها. ﴿**الكلم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**عن مواضعه**﴾ متعلق بيحرفون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ونسوا**﴾ فعل وفاعل معطوف على يحرفون. ﴿**حظّاً**﴾ مفعول به. ﴿**ممّا**﴾ متعلق بمحذوف نعت لحظاً. ﴿**ذُكروا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، والواو نائب الفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بذُكروا. ﴿**ولا**﴾ الواو للعطف، ولا للنفي. ﴿**تزال**﴾ فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير المخاطب (أنت). ﴿**تطّلع**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المخاطب (أنت)، وجملة تطّلع في محل نصب خبر تزال. ﴿**على خائنة**﴾ متعلق بتطّلع. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لخائنة. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**قليلاً**﴾ مستثنى منصوب بالفتحة. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لقليلاً.

﴿**فاعف**﴾ الفاء للتعقيب، اعف فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**عنهم**﴾ متعلق باعف. ﴿**واصفح**﴾ معطوف على اعف. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها.

﴿**يحب**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**المحسنين**﴾ مفعول به منصوب بالياء، وجملة يحب في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ الله تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم**﴾ الواو للعطف، من الذين متعلق بأخذنا. قالوا فعل وفاعل صلة الذين. إنّا إنّ واسمها. نصارى خبرُ إنّ مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وجملة إنّا نصارى في محل نصب مقول القول. أخذنا فعل وفاعل. ميثاقهم مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فنسوا**﴾ الفاء للترتيب، نسوا. ﴿**حظّاً ممّا ذكروا به**﴾ تقدم إعراب مثلها قريباً. ﴿**فأغرينا**﴾ الفاء للترتيب، أغرينا فعل وفاعل. ﴿**بينهم**﴾ متعلق بأغرينا، والضمير في الظرف مضاف إليه. ﴿**العداوة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**والبغضاء**﴾ معطوف على العداوة. ﴿**إلى يوم**﴾ متعلق بأغرينا. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**وسوف**﴾ الواو للعطف، سوف حرف تسويف (تأخير). ﴿**ينبئهم**﴾ فعل مضارع، والضمير فيه مفعول به.

﴿**الله**﴾ فاعل. ﴿**بما**﴾ متعلق بينبئ. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يصنعون**﴾ فعل وفاعل في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا صلة ما. ﴿**ياأهل**﴾ يا حرف نداء، أهل منادى منصوب بالفتحة لإضافته. ﴿**الكتاب**﴾ مضاف إلى أهل. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**جاءكم**﴾ فعل ماض، والضمير فيه مفعول به. ﴿**رسولُنا**﴾ فاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يبيّن**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الرسول، والجملة في محل نصب حال من رسولنا، أو رفع نعت لرسولنا. ﴿**لكم**﴾ متعلق بيبيّن. ﴿**كثيراً**﴾ مفعول به. ﴿**ممّا**﴾ متعلق بمحذوف نعت لكثيراً. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**تخفون**﴾ فعل وفاعل، وهو في محل نصب خبر كان، وجملة كنتم صلة ما. ﴿**من الكتاب**﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المقدر العائد على الموصول. ﴿**ويعفو**﴾ معطوف على يبيّن. ﴿**عن كثير**﴾ متعلق بيعفو. ﴿**قد جاءكم من الله نور**﴾ الجملة بدل من قد جاءكم رسولنا. ﴿**وكتاب**﴾ معطوف على نور. ﴿**مبين**﴾ نعت لكتاب.

﴿**يهدي**﴾ فعل مضارع. ﴿**به**﴾ متعلق بيهدي. ﴿**الله**﴾ فاعل يهدي، والجملة نعت لكتاب، أو حال منه لوصفه. ﴿**مَن**﴾ مفعول به في محل نصب. ﴿**اتبع**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**رضوانه**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة اتبع صلة مَن. ﴿**سبل**﴾ منصوب على نزع الخافض، أو

مفعول ثان ليهدي. ﴿**السلام**﴾ مضاف إلى سبل مجرور بالكسرة. ﴿**ويخرجهم**﴾ معطوف على يهدي. ﴿**من الظلمات**﴾ متعلق بيخرج. ﴿**إلى النور**﴾ كذلك. ﴿**بإذنه**﴾ مثله. ﴿**ويهديهم**﴾ مثل يخرجهم في الإعراب. ﴿**إلى صراط**﴾ متعلق بيهديهم. ﴿**مستقيم**﴾ نعت لصراط مجرور بالكسرة.

﴿**لقد كفر الذين**﴾ إعرابها معلوم مما سبق من أول المبحث. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**المسيحُ**﴾ خبرُ إنّ. ﴿**ابن**﴾ نعت للمسيح. ﴿**مريم**﴾ مضاف إلى ابن مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث، وجملة إنّ الله في محل نصب مقول القول. ﴿**قل**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**فمن**﴾ الفاء للتعقيب، مَن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**يملك**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**من الله**﴾ متعلق بيملك. ﴿**شيئاً**﴾ مفعول به. ﴿**إن أراد**﴾ حرف شرط وفعله. ﴿**أن يهلك**﴾ فعل مضارع منصوب بأن، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**المسيح**﴾ مفعول به. ﴿**ابن**﴾ نعت للمسيح منصوب بالفتحة. ﴿**مريم**﴾ مضاف إلى ابن، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول بأراد، أي: إن أراد إهلاك المسيح. . .الخ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله، أي: فلا أحد يملك شيئا. ﴿**وأمه**﴾ معطوف على المسيح. ﴿**ومَنْ**﴾ كذلك.

﴿**في الأرض**﴾ متعلق بمحذوف صلة مَنْ. ﴿**جميعاً**﴾ حال من مَنْ. ﴿**ولله**﴾ الواو للعطف، لله متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**ملك**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**السماوات**﴾ مضاف إلى ملك. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**وما**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**بينهما**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**يخلق**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة بيانية. ﴿**ما**﴾ نكرة موصوفة مفعول يخلق في محل نصب. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، أي: يخلق أيّ شيء يشاءُ خلْقَهُ، وجملة يشاء صلة ما. ﴿**والله**﴾ مبتدأ والخبر قدير. ﴿**على كل**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**قدير**﴾ خبر المبتدإ، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب.

﴿**وقالت اليهود والنصارى**﴾ جملة من الفعل والفاعل معطوفة على ما قبلها. والنصارى معطوف على اليهود مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها

التعذر. ﴿**نحن**﴾ مبتدأ في محل رفع. ﴿**أبناءُ**﴾ خبره مرفوع بالضمة. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى أبناء. ﴿**وأحباؤه**﴾ معطوف على أبناء مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة نحن أبناء الله في محل نصب مقول القول. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**فلم**﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن كان الأمر كما زعمتم فلماذا هذا التعذيب الذي وقع عليكم بذنوبكم، ولم اسم استفهام دخل عليه لام الجر فحذف منه الألف، واسم الاستفهام مبتدأ. ﴿**يعذبكم**﴾ فعل مضارع، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**بذنوبكم**﴾ متعلق بيعذب، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بل**﴾ حرف عطف وإضراب. ﴿**أنتم**﴾ مبتدأ. ﴿**بشر**﴾ خبره، أي: ليس الأمر كما زعمتم بل أنتم بشر. ﴿**ممن**﴾ متعلق بمحذوف نعت لبشر. ﴿**خلق**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة مَنْ. ﴿**يغفر لمن يشاء**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، لمن متعلق بيغفر، يشاء فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة مَنْ. ﴿**ويُعذب من يشاء**﴾ معطوف على يغفر.

﴿**ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما**﴾ تقدم إعراب مثلها قريباً. ﴿**وإليه**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**المصير**﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة تذييلية. ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم**﴾ تقدم إعراب مثلها قريباً. ﴿**على فترة**﴾ متعلق بجاءكم. ﴿**من الرسل**﴾ متعلق بمحذوف نعت لفترة، أي: فترة كائنة من الرسل - مبتدِئة من جهتهم -. ﴿**أن تقولوا**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالإضافة أي: كراهة قولكم. ﴿**ما جاءنا**﴾ ما نافية، جاءنا فعل ماض، والضمير فيه مفعول به. ﴿**من بشير**﴾ فاعل جاءنا دخلت عليه مِن الزائدة؛ مجرور لفظاً ومرفوع محلاً. ﴿**ولا نذير**﴾ معطوف عليه. ﴿**فقد**﴾ الفاء للتعقيب، قد للتحقيق. ﴿**جاءكم بشير**﴾ فاعل جاء، والضمير فيه مفعول به. ﴿**ونذير**﴾ معطوف عليه. ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ جملة تذييلية من مبتدإ وخبر.

﴿**وإذ**﴾ الواو للعطف، إذ ظرف لزمان ماض معمول لفعل مقدر، والتقدير: اذكر وقت قول موسى. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**موسى**﴾ فاعل. ﴿**لقومه**﴾ متعلق بقال. ﴿**ياقوم**﴾ منادى منصوب بفتحة مقدّرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها المناسبة، وياء المتكلم المحذوفة تخفيفاً في محل جر مضافة إلى قوم.

﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ فعل أمر، وفاعله واو الجماعة. نعمة مفعول به. الله مضاف إلى نعمة. عليكم متعلق بنعمة باعتبارها مصدراً، أو متعلق بمحذوف حال باعتبارها اسماً، وجملة اذكروا في محل نصب مقول القول. **﴿إذ﴾** معمول لاذكروا في محل نصب. **﴿جعل﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله. **﴿فيكم﴾** متعلق بجعل. **﴿أنبئاء﴾** مفعول به. **﴿وجعلكم﴾** معطوف على جعل، والضمير فيه مفعول أول. **﴿ملوكاً﴾** مفعول ثانٍ. **﴿وآتاكم﴾** معطوف على جعل، والضمير فيه مفعول أول. **﴿ما﴾** مفعول ثانٍ. **﴿لم يُؤْتِ﴾** فعل مضارع منفي بلم، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة ما. **﴿أَحَداً﴾** مفعول به. **﴿من العالمين﴾** متعلق بمحذوف نعت لأحد. ياقوم مثل الأولى.

﴿ادخلوا الأرض﴾ مثل اذكروا نعمة. **﴿المقدسة﴾** نعت للأرض. **﴿التي﴾** نعت آخر. **﴿كتب اللهُ﴾** فعل وفاعل صلة التي. **﴿لكم﴾** متعلق بكتب. **﴿ولا ترتدُّوا﴾** مجزوم بلا الناهية معطوف على ادخلوا. **﴿على أدباركم﴾** متعلق بترتدوا، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿فتنقلبوا﴾** الفاء للعطف والترتيب، والفعل مجزوم معطوف على الفعل المجزوم. **﴿خاسرين﴾** حال من الضمير الفاعل. **﴿قالوا ياموسى﴾** منادى مبني على ضم مقدر على الألف لتعذر ظهوره في محل نصب لأنّه علم مفرد. **﴿إنّ﴾** حرف توكيد ونصب. **﴿فيها﴾** متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدّم. **﴿قوماً﴾** اسمها مؤخر. **﴿جبّارين﴾** نعت له منصوب بالياء، وجملة إنّ فيها في محل نصب مقول القول. **﴿وإنّا﴾** إنّ واسمها. **﴿لن ندخلها﴾** فعل مضارع منصوب بلن، والفاعل ضمير المتكلمين (نحن)، والضمير فيه مفعول به، وجملة لن ندخلها في محل رفع خبرُ إنّ. **﴿حتى﴾** حرف غاية. **﴿يخرجوا﴾** منصوب بأن مضمرة بعد حتى، أي: إلى أن يخرجوا منها. **﴿فإن﴾** مترتب على ما قبله. **﴿يخرجوا﴾** مجزوم بإن فعل الشرط. **﴿منها﴾** متعلق بيخرجوا. **﴿فإنّا داخلون﴾** جملة من إنّ واسمها وخبرها جواب الشرط مربوطة بالفاء في محل جزم. **﴿قال رجلان﴾** فعل وفاعل. **﴿من الذين﴾** متعلق بمحذوف نعت لرجلان. **﴿يخافون﴾** فعل وفاعل صلة الذين. **﴿أنعم الله﴾** فعل وفاعل نعت ثانٍ لرجلان. **﴿عليهما﴾** متعلق بأنعم.

﴿ادخلوا﴾ الجملة في محل نصب مقول القول. **﴿عليهم﴾** متعلق بادخلوا. **﴿الباب﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿فإذا﴾** الفاء للتعقيب، إذا ظرف لِزَمَانٍ

مستقبل في محل نصب معمول لجوابه. ﴿**دخلتموه**﴾ فعل وفاعل ومفعول فعل الشرط. ﴿**فإنّكم غالبون**﴾ الجملة من إنّ واسمها وخبرها جواب الشرط مرتبطة بالفاء في محل جزم. ﴿**وعلى الله**﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿**فتوكلوا**﴾ الفاء للترتيب ولمراعاة ربط الجواب المقدر بعد إن كنتم مؤمنين، أي: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ فتوكلوا على الله. ﴿**قالوا ياموسى**﴾ مثل ما تقدم وكذلك ﴿**إنّا لن ندخلها**﴾. ﴿**أبداً**﴾ ظرف زمان منصوب بالفتحة. ﴿**ما**﴾ ظرفية مصدرية بيان لأبداً. ﴿**داموا**﴾ دام واسمها. ﴿**فيها**﴾ متعلق بمحذوف خبرُ دَامَ، وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مقدر مجرور بالإضافة إلى المصدر، أي: مُدَّةَ دوامِهم فيها. ﴿**فاذهب**﴾ الفاء للتعقيب، اذهب فعل أمر، والفاعل ضمير. ﴿**أنت**﴾ توكيد للضمير جيء به للفصل بين المعطوف والضمير المعطوف عليه. ﴿**وربُّك**﴾ معطوف على الفاعل مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فقاتلا**﴾ مرتب على ما قبله، والألف في قاتلا فاعل. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**ههنا**﴾ ظرف مكان في محل نصب متعلق بالخبر بعده. ﴿**قاعدون**﴾ خبر إنّ مرفوع بالواو. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على موسى.

﴿**ربّ**﴾ منادي حذفت منه ياء النداء وياء المتكلم تخفيفاً. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا أملك**﴾ فعل مضارع منفي بلا، والفاعل ضمير يعود على موسى، وجملة لا أملك في محل رفع خبرُ إنّ، وجملة إنّي لا أملك في محل نصب مقول القول. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**نفسي**﴾ بدل من المستثنى منه المفعول منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، وياء المتكلم مضاف إلى نفس. ﴿**وأخي**﴾ معطوف على نفسي، وهو مثلها في الإعراب. ﴿**فافرق**﴾ الفاء للترتيب، افرق فعل دعاء، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**بيننا**﴾ مضاف ومضاف إليه متعلق بافرق. ﴿**وبين القوم**﴾ كذلك. ﴿**الفاسقين**﴾ نعت للقوم. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل يعود على الله. ﴿**فإنّها**﴾ الفاء للترتيب، إنّها إنّ واسمها. ﴿**مُحَرَّمَةٌ**﴾ خبرُها، والجملة مقول القول. ﴿**عليهم**﴾ متعلق به. ﴿**أربعين**﴾ كذلك. ﴿**سنةً**﴾ تمييز. ﴿**يتيهون**﴾ فعل وفاعل بيان لما قبلها. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بيتيهون. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتفريع، ولا ناهية. ﴿**تأس**﴾ مجزوم بلا الناهية، والفاعل ضمير يعود على موسى. ﴿**على القوم**﴾ متعلق بتأس. ﴿**الفاسقين**﴾ نعت للقوم.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل**﴾. . . الخ: ناسب ذكر ميثاق بني إسرائيل عقب ذكر ميثاق المسلمين؛ تحذيراً من أن يكون ميثاقنا كميثاقهم!. وهكذا شأن القرآن في التفنن ومجيء الإرشاد في قالب القصص، والتنقل من أسلوب إلى أسلوب. وتأكيد الخبر الفعلي بقد وباللام للاهتمام به. وفي قوله: ﴿**وبعثنا**﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم. وقدم الجار والمجرور ﴿**منهم**﴾ على المفعول ﴿**اثني عشر**﴾ للاهتمام بالمقدم، والتشويق إلى المؤخّر. . .

﴿**وقال الله إنّي معكم**﴾: هذا القول خاص ببني إسرائيل؛ لأنّهم محتاجون إلى الترغيب والترهيب، كما ينبئ عنه الالتفات مع ما فيه من المهابة مِنْ ذكر اسم الجلالة!. وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد بقوله: إنّي معكم بالعلم والقدرة والنصرة، فالمعيّة معيّة مجازية، وهي تمثيل لما ذكر من العناية والحفظ والنصر. . . ﴿**لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً**﴾: هذا هو الطرف الأول من الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل، وفي مقابله. . . ﴿**لأكفرنّ عنكم سيآتكم ولأدخلنّكم جنّات تجري من تحتها الأنهار**﴾: ويترتب على هذا شرط جزائيٌّ في حالة نقض الميثاق. . .

﴿**فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل**﴾: ذلك كان ميثاق الله مع بني إسرائيل، فما الذي كان منهم بعد ذلك؟. لقد نقضوا ميثاقهم مع الله؛ قتلوا أنبئاءهم بغير حق، وبيّتوا الصلب والقتل لعيسى ابن مريم، وحرّفوا كلمات التوراة عن معانيها وعن مواضع الاستشهاد بها، واشتروا بهذا التحريف ثمناً قليلاً عرض هذه الحياة الدنيا، ونسوا بعض شرائع التوراة وأهملوها، وخانوا محمداً ـ رسول الله ـ أحد الرسل الذين أُخِذَ عليهم الميثاقُ أن ينصروهم، فباءوا بالطرد من رحمة الله، وقست قلوبهم ببعدهم عن هذه الرحمة. . . ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظّاً مما ذكّروا به ولا تزال تطّلع على خائنة منهم**﴾: بهذا التعبير الحسيّ المصور المجسّم للقسوة يتضح الأسلوب اتضاحاً تظهر منه الغرابة والطرافة، ويزيد التعبير طرافة في قوله: ولا تزال تطلع على خائنة منهم، على الفعلة الخائنة والحركة الخائنة والنظرة الخائنة والنية الخائنة، يحملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة، فتبقى الصفة

وحدها تملأ الجوّ، وتُلقي ظلالها وحدها على كل ما يصدر عن القوم، وكل ما يكمن منهم في الصدور. . . ﴿**إلاّ قليلاً منهم**﴾: ممن أسلم، أو ممّن بَقِيَ على العهد مع رسول الله لم يَخُنْ. . .

﴿**فاعف عنهم واصفح**﴾: العفو والصفح يستحقه ممن ذكر بعد الاستثناء، وهو تخريج وجيه خرّجه بعض العلماء. . . ﴿**إنّ الله يحب المحسنين**﴾: هذا تعليل للأمر وحث على الامتثال به، وتنبيه على أنّ العفو على الإطلاق من باب الإحسان. . . ﴿**ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم**﴾: هذا بيان لقبائح النصارى وجناياتهم إثر بيان قبائح اليهود وخياناتهم. وتقديم الجار والمجرور (من الذين) للاهتمام به، ولأنّ ذكر حال إحدى الطائفتين مما يوقع في ذهن السامع أنّ حال الأخرى ماذا؟، فكأنّه قيل: ومن الطائفة الأخرى أيضاً أخذنا ميثاقهم، وضمير ميثاقهم راجع إلى الموصول ﴿**الذين**﴾. وجاءت الجملة على شبه اشتغال العامل عن المعمول بضميره، حيث قدم متعلق أخذنا ميثاقهم وفيه اسم ظاهر، وجيء بضميره مع العامل للنكتة الداعية للاشتغال من تقرير المتعلق وتثبيته في الذهن؛ إذ يتعلق الحكم باسمه الظاهر وبضميره، فالتقدير: وأخذنا من الذين قالوا إنّا نصارى ميثاقهم. ويفيد لفظ ﴿**قالوا**﴾ بطريق التعريض الكنائي أنّ هذا القول غير موفى به، وأنّه يجب أن يوفى به، وهذا تعبير خاص يعطي دلالة خاصة بأنّه لم يؤمن النصارى الإيمان الحق بما جاء به عيسى عليه السلام، إنّما هي دعوة يقولونها لمجرد الكلام. . .

﴿**فنسوا حظّاً ممّا ذكروا به**﴾: إنّها السرعة المفرطة دون تأنٍّ وتروٍّ، فتورّطوا كما تورّط اليهود من قبل في الكفر والانحراف. . . ﴿**فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة**﴾: هذا نتيجة الانحراف الذي تورّط فيه النصارى، تنهال عليهم مصائب الاختلاف التي فرّقت بينهم، وجعلتهم طوائف تتعادى وتتباغض إلى آخر المطاف، وفي التركيب استعارة: حيث شبّه تكوين العداوة والبغضاء مع استمرارهما فيهم، بإغراء جماعةٍ جماعةً أخرى بعمل تعمله، تشبيه معقول بمحسوس. وقوله. . . ﴿**وسوف ينبّئهم الله بما كانوا يصنعون**﴾: تهديد ووعيد شديد بالجزاء والعذاب. وسوف لتأكيد الوعيد. والالتفات إلى ذكر الاسم الجليل (الله) لتربية المهابة، وإدخال الروعة لتشديد الوعيد. والتعبير عن العمل بالصنع

(يصنعون) للإيذان برسوخهم في ذلك، وعن المجازاة بالتنبئة (ينبئهم) للتنبيه على أنّهم لا يعلمون حقيقة ما يعملونه من الأعمال السيئة واستتباعها للعذاب، فيكون ترتيب العذاب عليها في إفادة العلم بحقيقة حالها بمنزلة الإخبار به! ويالها من نبوءة لا تقف عند حد النبوءة، ولكن يقف بها النص هنا ليدع الخيال يرسم هول ما وراءها من نتائج ومعقبات. . .

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم﴾. . . الخ: وحين يبلغ السياق هذا المبلغ من استعراض ماضي اليهود والنصارى ومواقفهم من ميثاق الله ورسل الله ودين الله، عندئذ يتجه الخطاب لأهل الكتاب جميعاً؛ هؤلاء وهؤلاء، بأنّ الرسول محمداً ﷺ قد جاء ليكشف لهم عن كثير ممّا كانوا يخفونه من كتاب الله، ويعفو كذلك عن كثير ممّا أثقلهم به الله من تكاليف، فالفرصة إذن سانحة ليتداركوا ما فات. وعنوان الكلام بأهلية الكتاب؛ لانطواء الكلام المصدر به على ما يتعلق بالكتاب، وللمبالغة في التشنيع واللوم والتوبيخ، فإنّ أهلية الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام، وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا وهم يعلمون!. وفي قوله: **﴿قد جاءكم رسولنا﴾**: في الإضافة التشريف، والإيذان بوجوب اتّباعه، وفي يبيّن لكم إثار الجملة الفعلية على غيرها للدلالة على تجدد البيان، وفي قوله: **﴿يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب﴾** تأخير كثيراً عن الجار والمجرور (لكم) من إظهار العناية بالمقدّم، لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخّر؛ لأنّ ما حقه التقديم إذا أُخر لا سيَّمَا مع الإشعار بكونه من منافع المخاطب، تبقى النفس مترقبة إلى وروده فيتمكن عندها إذا ورد فضل تمكّن، ولأنّ في المؤخر ضرب تفصيل ربّما يخلّ تقديمُه بتجاذب أطراف النظم الكريم!. والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل (كنتم تخفون) للدلالة على استمرارهم على الكتم والإخفاء. وفي قوله: **﴿ويعفو عن كثير﴾**، صيانة لهم عن زيادة الافتضاح، كما يفصح عنه التعبير عن عدم الإظهار بالعفو، وفيه حثّ لهم على عدم الإخفاء ترغيباً وترهيباً.

وفي قوله: **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾**: بيان أنّ فائدة مجيء الرسول ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه، بل له منافع لا تُحْصَى. وتقديم الجار والمجرور **﴿من الله﴾** على الفاعل (نورٌ وكتابٌ مبينٌ)

للمسارعة إلى بيان كون المجيء من جهته تعالى والتشويق إلى الجائي، وتنوين (نورٌ) للتفخيم. . . ﴿**يهدي به الله**﴾: توحيد الضمير المجرور (به)، أي: بما ذكر، وتقديمه للاهتمام. وإظهار اسم الله لإظهار كمال الاعتناء بأمر الهداية. . . ﴿**سبل السلام**﴾: استعارة لطريق الحقّ المنجي، والظلمات والنور استعارة للضلال والهدى، والصراط المستقيم مستعار للإيمان. . .

﴿**لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم**﴾: هذا من ضروب عدم الوفاء بميثاق الله تعالى، وهو يبيّن ويوضح كفر النّصارى؛ لأنّهم هم الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم!. والكلام هنا مؤكد من عدّة وجوه: لام التوكيد، وقد التي تفيد تحقيق الوقوع، ووقوع الكفر بما قالوا صراحة جهاراً نهاراً بأنّ الله هو المسيح، وهذا التعبير يسميه المناطقة بحمل المواطأة، بمعنى: هو هو، وذلك حين يكون كل من المسند إليه والمسند معلوماً للمخاطب، ويراد بيان أنّهما شيء واحد. وإقحام ضمير الفصل (هو) بين المسند إليه (إنّ الله) والمسند (المسيح) في مثل هذه الأمثلة استعمال معروف لا يكاد يتخلف قصْداً لتأكيد الاتّحاد. . .

﴿**قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير**﴾: هذا بيان لكيفية الرد عليهم بالحجة القاطعة وذلك من عدة وجوه: ربط الرد بالدعوى بالفاء، والاستفهام الانكاري على الدعوى للدلالة على أنّ الإنكار ترتب على هذا القول الشنيع، فهي للتعقيب الذكري، وهذا استعمال كثير في كلام البلغاء. وتنكير (شيئاً) للتقليل والتحقير، ولما كان الاستفهام هنا بمعنى النفي كان نفي الشيء القليل مقتضياً نفي الكثير بطريق الأَوْلى. ومعنى فمن يملك: فمن يقدر، فهو مستعمل في لازم معناه على طريق الكناية. قوله: إن أراد أن يهلك المسيح: فيه بيان عجز المسيح ليظهر كونه بمعزل ممّا تقوّلوا في حقه. وإظهار المسيح على الوجه الذي نسبوا إليه الألوهية في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتنصيص على أنّه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره وملكوته تعالى.

ونفي المالكية المذكورة بالاستفهام الإنكاري عن كل أحد مع تحقق الإلزام والتبكيت بنفيها عن المسيح فقط؛ بأن يقال: فهل يملك شيئاً من الله إن أراد. . .الخ؛ لتحقيق الحق بنفي الألوهية عن كل ما عداه سبحانه، وإثبات

المطلوب في ضمنه بالطريق البرهاني، فإنّ انتفاء المالكية المستلزم لاستحالة الألوهية متى ظهر بالنسبة إلى الكل، ظهر بالنسبة إلى المسيح على أبلغ وجه وآكده، فتظهر استحالة ألوهيته قطعاً. وتعميم إرادة الإهلاك لكلٍ مع حصول ما ذكر من التحقيق بقصرها عليه؛ بأن يقال: فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح؛ لتهويل الخطب وإظهار كمال العجز ببيان أنّ الكل تحت قهره تعالى وملكوته، لا يقدر أحد على دفع ما أريد به فضلا عن دفع ما أريد بغيره!. والإيذان بأنّ المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضة للهلاك، كما أنّه أسوة بها فيما ذكر من العجز وعدم استحقاق الألوهية.

وتخصيص أمّه بالذكر مع اندراجها في ضمن من في الأرض لزيادة تأكيد عجز المسيح، ولعل نظمها في سلك من فرض إرادة إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك؛ لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أنموذجا لحال بقية من فرض إهلاكه؛ كأنّه قيل: قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح وأمّه ومن في الأرض وقد أهلك أمّه، فهل منعه أحد؟، فهكذا حال من عداها من الموجودين. وقوله: ﴿**ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما**﴾، تقرير وتنصيص وتحقيق لاختصاص الألوهية به تعالى، إثر بيان انتفائها عن كل ما سواه. وقوله: ﴿**يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير**﴾: فيه تعظيم شأن الله تعالى، وهو ردٌّ آخرُ على النصارى بأنّ الله هو الذي خلق السماوات والأرض وملك ما فيهما من قبل أن يظهر المسيح، فالله هو الإله حقّاً، وأنّه يخلق ما يشاء، فهو الذي خلق المسيح خلقاً غَيْرَ مُعْتَادٍ، فكان مُوجِبُ ضلال من نسب له الألوهية. . .

﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن**﴾. . . الخ: هذا مقال آخر مشترك بينهم وبين اليهود يدل على غباوتهم في الكفر؛ إذ يقولون ما لا يليق بعظمة الله تعالى!. والرد عليهم من جهتين. . . ﴿**قل فلم يعذبكم بذنوبكم**﴾: فمن يكتسب الذنوب يعذب، والحبيب لا يعذب حبيبه، والأب لا يعذب أبناءه. ﴿**بل أنتم بشر ممّن خلق**﴾: أي: لستم كما تدّعون، وإنّما أنتم بشر ينالكم ما ينال البشر، وفي هذا تعريض أيضاً بأنّ المسيح بشر؛ لأنّه ناله ما ينال البشر من الأعراض والخوف، وزعموا أنّه صُلب وقُتِلَ، وهذا الزعم اتفق عليه اليهود والنصارى. وجملة قوله: ﴿**يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾ كالاحتراس، لأنّه لما رتب على نوال العذاب

إيّاهم أنّهم بشر دفع توهم النصارى أنّ البشرية مقتضية استحقاق العذاب لوراثة تُبعة خطيئة آدم فقال: يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

﴿**ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير**﴾: هذا الكلام يكرر مرّة أخرى ليؤكد ويبيّن أنّ الصلة العامة التي تربط كل المخلوقات به؛ خلقا ومُلكا وتصرُّفا، وبعد ذلك تصير إليه فيجازي كُلاً حسب مقتضى حكمته وسنته التي تسري على الجميع سواء... ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرسل**﴾... الخ: هذا نداءٌ مكرّر إلى أهل الكتاب يقطع به حجتهم ومعذرتهم، وليذكّرهم بأنّ كتبهم مصرحة بمجيء رسول عقب رسلهم، وليريهم أنّ مجيئه لم يكن بِدْعاً من الرسل. وجاءت الآية مفصولة؛ لأنّها تأكيد لما قبلها. ﴿**وعلى فترة**﴾: على للاستعلاء المجازي، بمعنى بعدُ؛ لأنّ المُسْتَعْلَى يستقر بعد استقرار ما يستعلي هو فوقه، فشبه استقراره بعده باستعلائه عليه، فاستعير له الحرف الدال على الاستعلاء. والمجيء مستعار لأمْرِ الرسول بتبليغ الدّين، فكما سمي الرسول رسولاً سمي تبليغه مجيئاً، تشبيهاً بمجيء المرسل من أحد إلى آخر...

﴿**وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم**﴾: جملة مستأنفة مسوقة لبيان ما فعلت بنو إسرائيل بعد أخذ الميثاق منهم، وتفصيل كيفية نقضهم له. وتعلقه بما قبله بوصله بالعطف، من حيث أن ما ذكر فيه من الأمور التي وصف النبيء ﷺ ببيانها، ومن حيث اشتماله على انتفاء فترة الرسل فيما بينهم. وإذ - كما هو معلوم - معمول بعامل مقدّر - وهو هنا اذكر - خوطب به الرسول ﷺ بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن أهل الكتاب؛ ليُعَدِّدَ عليهم ما صدر عن بعضهم من الجنايات. وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنّها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها، لما أنّ إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني، ولأنّ الوقت مشتمل على ما يقع فيه تفصيلاً، فإذا استحضر كان ما وقع فيه حاضراً بتفاصيله كأنّه مشاهد عياناً... ﴿**إذ جعل فيكم أنبئاء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين**﴾: الكلام في هذا كالكلام فيما سبقه، وقوله: وجعلكم ملوكاً، عطف على جعل فيكم داخل في حكمه، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين كذلك. وهذه ثلاث نعم خصصها بالذكر لما فيها من رفع شأنهم إن هم استجابوا...

﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾: هذا هو الغرض من الخطاب، فهو كالمقصد بعد المقدّمة، ولذلك كرر اللفظ الذي ابتدأ به مقالته، وهو النداء بياقوم لزيادة استحضار أذهانهم. والأمر بالدخول أمر بالسعي في أسبابه. ومعنى كتب قضى وقدّر، وليس ثمة كتابة، ولكنه تعبير مجازي شائع في اللغة. وقوله: **﴿ولا ترتدوا على أدباركم﴾** تحذير مما يوجب الانهزام... **﴿فتنقلبوا خاسرين﴾**: هذا مرتب على الارتداد، فإنّ ترتيب الخيبة والخسران على الارتداد، يدل على اشتراط الكتب بالمجاهدة المترتبة على الإيمان والطاعة قطعاً... **﴿قالوا ياموسى إنّ فيها قوماً جبّارين﴾**: هذا ردهم على رسولهم. ماذا تأخذ من هذا الأسلوب؟. إنّه الجبن والوقاحة والنكوص والهروب، وزيادة على هذا...

﴿وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون﴾!. هل يستطيع أحدٌ أن يُعَلِّقَ على هذا الكلام بأبلغ وأوضح وأوفى؟؛ لما عليه حقيقة اليهود من سقوط الهمّة، وشدة الخوف والفزع وحب الراحة، وكراهة بذل الجهد والتمسك بالمألوف من العيش، والبعد عن الخطر وأسبابه مهما تكن المشجعات والمُغْرِيات والوعود!. وهذا الأسلوب هو الذي يُظهر طبيعة اليهود لتبدو للسامع على أصلها مكشوفة بلا حجاب ـ ولو رقيق ـ من التجمل؛ لأنّهم أمام الخطر فلا بقية إذنْ من تجمل ولا محاولة للتشجع، لأنّ الخطر ماثل قريب، لا يعصمهم من الفزع منه وعد من الله أنّهم منتصرون...

﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون﴾: فُصلت هذه الجمل الأربع فلم تعطف على ما قبلها جرياً على طريقة المحاورة، ونُكِّرَ رجلان؛ لأنّ الغرض الوصف لا الشخص. هذان رجلان من الذين يخافون الله، ينشيء لهما الخوف من الله شجاعة في وجه الخطر، لقد أنعم الله عليهما من الإيمان به والخوف منه، وفي هذا تعريض لبقية القوم الذين عصوهما بأنّهم لا يخافون الله. وتقديم الجار والمجرور في قوله: ادخلوا عليهم الباب لاهتمام به؛ لأنّ المقصود إنّما هو دخول الباب وهم في بلدهم. فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون: بيان لفائدة الشجاعة والإقدام، لأنّ من دخل على عدوّه في داره انكسر وانخذل وانهارت قواه، فلا يجد أمامه إلاّ الاستسلام.

وبعد أن أمرا القوم باتخاذ الأسباب والوسائل أمراهم بالتوكل على الله والاعتماد على وعده ونصره وصدق رسوله، ولذلك ذُيّلا بقولهما: **﴿إن كنتم مؤمنين﴾**؛ لأنّ الشك في صدق الرسول مُبْطِلٌ للإيمان، ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟. لليهود!..

﴿قالوا ياموسى إنّا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾: زيادة في الإصرار على موقفهم الأول، وتصريح بمخالفتهم لموسى وزيادة في الوقاحة، يُظهرون الاستهزاء والاستهانة بالله ورسوله فلا يبالون بهما!. وما على القارئ إلاّ أن يركز ذهنه على أسلوب هذه العبارة «اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون». وفي نهاية المطاف يرتفع من موسى هذا الهتاف... **﴿قال ربّ إنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخي﴾**: فلا إجابة ولا اعتراف من هؤلاء القوم السخاف... **﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾**: فلا ملاقاة بين الاستقامة والانحراف... **﴿قال فإنّها محرمة عليهم أربعين سنة﴾**: هكذا ينتهي موسى مع اليهود إلى فراق فاصل، ويتركهم السياق كذلك في التيه أمام الأرض المقدسة التي وُعِدُوها، ولكنهم بعدُ لم يستحقّوها!.. **﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾**: إنّها مأساة يحزن لها كل سامع يسمع مصير هؤلاء التعساء، التائهين الحائرين في فيافي القفار، التائهين في ضلال الشرك والفسق والإنكار! ولكن هل يستحق هؤلاء الحزن والأسى على هذا المصير؟. لا تأس على هؤلاء فهذه نتيجة الإهمال والتقصير.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: **﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾**: يوعظ ويُحذّر الله فيه المؤمنين؛ ليكونوا على بينة من ربّهم من توفية العقود والمواثيق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل. والميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل: الشريعة التي فيها حكم الله، من الأوامر والنواهي المنصوص عليها في كتاب موسى (التوراة). ونُقَبَاءُ بني إسرائيل الاثنا عشر ورؤساؤهم من كل سبط من بني إسرائيل، رجل يقوم بشؤونهم، ويكون كفيلاً وشهيداً عليهم: فكل نقيب مسؤول عن سبطه، والسبط في بني إسرائيل مثل القبيلة في العرب، يربطهم نسب واحد بالجد الأول، والأسباط في بني إسرائيل هم أبناء يعقوب عليه السلام. وفائدة هذا

الحصر بالإحصاء الدقيق خوف ضياع المسؤولية بالتفريق لهذه العهود والمواثيق. . .

﴿وقال الله إنّي معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرنّ عنكم سيآتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار. فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل﴾: هذه هي خلاصة الشريعة التي واثقهم الله بها، بشروطها وما يترتب عليها من نتائج، فشرطها أن يوفوا بها كاملة؛ ليكون الله معهم بالنصر والحفظ والتأييد في الدنيا، وبالمغفرة والرضوان وسكنى الجنان في الأخرى. فمن خالف وأعرض فلم يوف بهذا العهد والميثاق، فقد ضل طريق الهدى وضاع في فيافي الردى. هذه هي الشريعة التي جاء بها موسى، وهذه هي الأحكام التي فرضت على بني إسرائيل: إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، الإيمان بكل الرسل، والوقوف معهم بالنصر والتأييد والتعظيم والتوقير والتمجيد، مع الإخلاص في هذا العمل لله لا لغرض آخر من أعراض الدنيا؛ ليكون قَرْضاً حسناً موفورَ الرِّبْحِ مأمون النتيجة في العقبى. . .

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾: لقد فعل بنو إسرائيل نقيض ما أُمِرُوا؛ نقضوا ميثاقهم مع الله، قتلوا الأنبئاء بغير حق، وادّعَوْا أنّهم صلبوا وقتلوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وحرّفوا كلمات التوراة عن معانيها ولفظها، وعن مواضع الاستشهاد بها، واشتروا بهذا التحريف ثمناً قليلاً؛ عرض هذه الحياة الدنيا، ونسوا جانباً كبيراً من شرائع التوراة وأهملوها، وخانوا محمداً ـ صلى الله عليه سلم ـ رسولَ الله، أحدَ الرسل الذين أُخِذَ عليهم الميثاقُ أن ينصروهم، وكم حاول معاصروه من اليهود قتله، وتآمروا مع أعدائه ونصبوا الشراك له ولأصحابه!. وقد جمعت الآية الدلائل على قلة اكثرات اليهود بالدين ورِقّة أتباعهم، ثلاثة أصول من ذلك: التعمد إلى نقض ما عاهدوا عليه من الامتثال، والغرور بسوء التأويل، والنسيان الناشئ عن قلة تعهد الدين وقلّة الاهتمام به، والمقصود من هذا أن نعتبر بحالهم ونتعظ من الوقوع في مثلها.

التوجيه الثاني: يوجه فيه الرسولَ إلى الحذر منهم، والوقوف في وجههم، والمعاملة معهم معاملة من لا يعبأ بشأنهم. . .

﴿ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلاّ قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إنّ الله يحبّ المحسنين﴾: تحدّث القرآنُ كثيراً عما فعل اليهود في الماضي، وهاهو هنا يتحدث عما وقع منهم للرسول محمد ﷺ من خيانتهم التي علقت بهم وأحاطت بهم من كل جانب؛ في سوء النية المبيّتة، وسوء القولة المُؤْذِيَة، وسوء الفعلة المزرية، وهذه الأخبار كلها التي جاء بها القرآن من أعظم الأدلة على أنّه من عند الله، فلا يستطيع الناس منفردين ومجتمعين مهما أوتوا من العلم والخبرة والمواهب أن يأتوا بهذه الأخبار الدقيقة الصحيحة اليقينية مائة في المائة!. ولقد وقف الرسول معهم موقف الحزم، فلم يستطع أحد من اليهود أن ينال منه شيئا!. وبعدما ظهر عليهم فلم ينتقم لنفسه منهم، ولكنه وقف الموقف الذي أمره الله أن يوقفه فيه، فيعفو عندما يُؤمر بالعفو، ويبطش عندما يؤمر بالبطش، ففي هذه الآية أُمر بالعفو؛ لأنّ المقام يقتضي العفو، وفي آية براءة أمروا بالقتال «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»؛ لأنّ المقام يقتضي القتال ولكل مقام مقال.

التوجيه الثالث: **﴿ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظّاً ممّا ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾**: هذا مِثْلُ التوجيه الأوّلِ يبيّن فيه ما فعل النصارى في الميثاق الذي يأخذه الله عليهم، وميثاق النصارى الشريعة التي جاء بها عيسى مكتوبة في الإنجيل، أمرهم الله فيها أن يأتوا بها كاملة دون إفراط أو تفريط، ولكن النصارى جميعاً لم يؤمنوا الإيمان الحق بما جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ، إنّما هي دعوى يقولونها. ولقد أخذ عليهم الميثاق أن يكونوا عندما جاء به رسولهم من عند الله، فقد نسوا جانباً عظيماً من تعاليمه، نسوا الجانب الأساسي من تعاليمه فيه، وهو التوحيد الذي تقوم عليه شريعة عيسى. وعند هذا الانحراف كان بين طوائف النصارى التي لا تُعدُّ ولا تحصى هذا الخلاف، وانتشر بينهم وتوارثه الأخلاف عن الأسلاف؛ إذ أن هنالك فرقاً كثيرة صغيرة داخل كل فرقة من الفرق المعلومة الكبيرة: الأرثوذكس، والكاثوليك، والبروتستانت، والمارون اليوم، ومن قبل كان اليعاقبة والملكانية والنساطرة. وهذه العداوة التي يشير إليها النص إنّما جاءت من انقسام النصارى من قديم إلى فِرَقٍ نشأت من الانحراف عن التوحيد، وتفرّقت بها

السبل، وهي عداوة حقيقية شهدتها المسيحية منذ القرن الأول للميلاد، وكانت على أشدها بين الملكانية واليعاقبة والنساطرة، وهي اليوم على أشدها بين الفرق القائمة، فلا يكاد الإنسان يتصوّر العداء الذي بين الكاثوليك والبروتستانت أو بينهم وبين الأرثوذكس، أو بين الموارنة والبروتستانت أو سواهم، ذلك جزاء الانحراف ونسيان الميثاق في الدنيا. أمّا في الآخرة فهناك يجدون نتيجة ما صنعوا من كفر وفساد وإفساد.

وهذا الخبر عن النصارى مثل الخبر السابق عن اليهود، فالحكم عليهم واحد، فهم غيّروا وبدّلوا ونسوا حظّاً مما ذكروا. ونستطيع أن نأخذ نتيجةً أُخْرَى زيادةً على ما تقدّم؛ بأنّ إغراء العداوة بينهم تنسحب على اليهود كذلك؛ لأنّ النص لا يحدّد. والعداوة التي بين اليهود والنصارى اليوم ظاهرة للعيان، فكل ما وقع من حروب بين النصارى في القرون الأخيرة كان سبب إشعالها اليهود، فالذين ضلّلوا النصارى وورّطوهم في الكفر الصريح هم اليهود، والذين بثُّوا تعاليم الإلحاد في أُوربًا هم اليهود، والذين اخترعوا المذاهب الهدامة؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية هم اليهود، ولازال اليهود إلى اليوم ظاهرين على كل حركة هدّامة، والمعركة اليوم حامية الوطيس!.

التوجيه الرابع: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾: هذه دعوى إلى أهل الكتاب الذين ذكرت أفعالهم وأقوالهم فيما تقدم؛ يبيّن لهم فيها طريق النجاة، وذلك بالإيمان بالرسول الذي جاءهم من عند الله. وفي هذا البيان تفصيل وتوضيح لما ارتكبه أهل الكتاب من أنواع الزيغ والضلال والكفر، فكان هذا البيانُ من دلائل نبوّة محمد ﷺ ليس لأهل الكتاب فقط، وإنّما للناس جميعاً حتى يروا معجزته ظاهرة لا تخفى على أحد. والأمر واضح لا خَفَاءَ فيه كما قيل:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل!

فالفرصة إذنْ سانحة لأهل الكتاب ليتداركوا ما فات، ولينجوا مما كتب عليهم في الدنيا والآخرة عقاباً على الخلاف والإِخْلاَف. وتظهر نتيجة هذه الدعوة، وما

فيها من فوائد فيما يلي: أولا: يخرج من يستجيب لها من ظلمات الوثنية والأوهام والخرافات التي أفسد بها المضلّون عقولَ متّبعيهم إلى نور التوحيد الخالص، الذي يجعل صاحبه حراً كريماً بين الخلق، خاضعاً للخالق وحده بلا وسيط ولا شفيع. ثانيا: هذه الدعوة تهدي إلى الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين، إذا اعتصم به من اتّبعه على الوجه الصحيح الذي أُنزِلَ لأجله. فهل استجاب أهل الكتاب إلى هذه الدعوة الموجهة إليهم؟. لم يستجيبوا فبقوا على ما هم عليه من كفر وضلال. . .

﴿**لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم**﴾: هذا حكم صريح على النصارى بكفرهم؛ لأنّهم يقولون: إنّ الله هو المسيح ابن مريم، وجميع فرق النصارى في هذا العصر تقول هذا القول، وهذا ما أسنده القرآن إليهم. والرد على ذلك بالحجة القاطعة التي أمر الله نبيئه بأن يقولها لهم. . . ﴿**قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً**﴾: هذه واحدة. . . ﴿**ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما**﴾: هذه ثانية. . . ﴿**يخلق ما يشاء**﴾: هذه ثالثة. . . ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾: رابعة!. . ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه**﴾: حكاية أخرى اشترك فيها اليهود والنصارى، يَتَحَمَّلُون جميعاً نتيجتها، فاليهود والنصارى يقولون: إنّهم أبناء الله وأحباؤه، فيزعمون لله بنوّة ـ على تصور من التصورات ـ إن لم تكن بنوّة الجسد فهي بنوّة الروح، وهي أياً كانت تلقي ظِلاً على عقيدة التوحيد تجعل ملامحه خفيّة غامضةً. ويزعمون لله تعالى صلة بالخلق لا تنبع من قيامهم بالحق، ولكن تنبع من عواطف خاصة من الله لذوات اليهود والنصارى. . .

﴿**قل فلم يعذبكم بذنوبكم**﴾: هذا ردٌ من الله بواسطة رسوله على اليهود والنصارى في هذه الدعوى المُخْتَلَقَةِ، التي لا تعتمد على دليل؛ لا شرعي ولاعقلي، فالرد عليهم من ناحية الشرع أنّهم أهل ذنوب يعترفون بها، والقاعدة في الشرع أنّ كل من يرتكب ذنباً ولم يرجع إلى الله يستحق العذاب. . . ﴿**بل أنتم بشر ممن خلق**﴾: هذا الرد الثاني العقلي، فاليهود والنصارى بشر كبقية البشر، ومخلوقون كبقية المخلوقات، فكل ما يجري على مخلوقات الله يجري عليكم فلا ميزة لكم إذَنْ!. ولما كان الأمر كذلك فيجري على القاعدة العامة: ﴿**يغفر لمن**

يشاء ويعذب من يشاء﴾، فالمغفرة نتيجة الاستقامة، والتعذيب نتيجة الانحراف، فالأمر كله موكول إلى سنته التي تسري على الجميع سواء، لا تعترضها عواطف خاصّةٌ، ولا صِلاَتٌ شخصية. . . **﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾**: هذه هي الصلة العامة التي تربط كل المخلوقات بالله. وبعد ذلك إليه المصير وما وراء المصير من حساب وثواب وعقاب، وبذلك يجرّد وينفي عن الله كل مشابهة فيها تلميح لمشابهة الخلق في صفة من الصفات. والخلاصة: إنّ هذه الآيات تبيّن لنا سنة الله في البشر، وأن الجزاء إنّما يكون على الأعمال لا على الأسماء والألقاب!. .

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾: هذا نداء مرة أخرى إلى أهل الكتاب يقطع به حُجّتَهم ومعذرَتهم أن يقولوا: إنّ فترة طويلة مرّت عليهم لم يأتهم فيها بشير يقربهم إلى الله، أو نذير يخوفهم الانحراف. فها هو الرسول الخاتم يبيّن لهم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبديّة، وأنّها منوطة بالإيمان والأعمال، وأنّ الله لا يُحابِي أحداً.

التوجيه الخامس: ﴿وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾: يلفت فيه النظر إلى ما فعل اليهود مع موسى. في هذا التوجيه الأخير مع موضوع الكلام مع قوم موسى ـ بني إسرائيل ـ، بيان شامل لما حصل منهم معه من نكوص ونفور، وكيف كان موسى معهم في محاولة إقناعهم واستحالتهم إليه. وإنّا لنلمح في كلمات موسى ـ عليه السلام ـ إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب، فقد جرّبهم في مواطن كثيرة في خَطِّ سير الرحلة الطويل؛ جربهم وقد أخرجهم من أرض الذل والهوان باسم الله، فإذا هم يتخذون العجل إلهاً يعبدونه من دون الله، وجربهم في مواطن أخرى كثيرة، ثم هاهو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة يدعوهم دعوته الأخيرة، فيَحْشِدُ فيها ألمع الذّكرياتِ وأكبر المغريات، وأضخم المشجّعات وأشد التحذيرات.

وفي هذا التشجيع يذكر لهم ثلاث نعم خصهم الله بها: الأولى: وهي أرفعها قدراً وأعلاها ذكراً، أنّه جعل كثيراً منهم أنبئاء، كموسى وهارون وغيرهم ممن لحقهم وممّن سبقهم. الثانية: أنّه جعلهم ملوكاً، وأوّلهم يوسف حيث مكنه الله

من أرض مصر، كما حكى عنه القرآن «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء» وطالوت وداوود وسليمان، وهؤلاء هم الذين ذكروا في القرآن بأنّهم تولوا مناصب الحكم. الثالثة: أنّه آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، وذلك ما خصوا به في ذلك الوقت من الحريّة بعد قهر عدوهم، وأنزل عليهم المن والسلوى. وآتاهم الشريعة الصحيحة التي لم تكن من صنع الملوك، أو صادرةً بأمرهم، وتولى تربية نفوسهم بواسطة رسله. . .

﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾: هذا هو الغرض من الخطاب، والأرض المقدسة أرض فلسطين، وهذا الوعد المكتوب لبني إسرائيل أنّ لهم الأرض المقدسة مشروط بشروط لم يوفوا بها؛ فحرموها في أوقات عديدة، وفي بعض الأوقات دخلوها مع أنبئائهم عندما يكونون مستقيمين عاملين بالشريعة، كما حصل لهم في عهد داوود وابنه سليمان، ولكنها مدّة قليلة إذا قيست بالمدد التي أذيقوا فيها عذاب الملوك من غيرهم وقهر الجبارين، كما حصل لهم في عهد ملوك بابل، وملوك الرومان، ولم يروا صفاوة العيش ويتذوقوا لذّة الحياة إلاّ مع المسلمين، عندما هدأت نوبتهم وانطفأت فورتهم، وما أمر اليهود وما وقع لهم مع هتلر الألماني ببعيد. واليوم تتحرك فيهم نعرتهم، فينطلقون بلا وعي ليعيدوا الحلم من جديد. وهاهو ذا القرآن يصرخ في آذان مسلمي اليوم يعلن ما صرح به أسلافهم من قديم. . .

﴿قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون. وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين. قالوا ياموسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون﴾: هذا ما صرح به القوم أمام موسى؛ أعلنوا له الخوف والجبن والهلع، فخالفوا أمره واستهزأوا به وأصروا على العناد والتمرد من شدة الفزع. وهذا القول الذي صدر منهم، يدل على منتهى الجفاء والبعد عن الأدب، بما فيهم من قساوة القلب وغلظة الطبع!. .

﴿قال ربّ إنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾: هذه هي نهاية المطاف بموسى عليه السلام، نهاية الجهد الجهيد والسفر الطويل

واحتمال الرذالات من بني إسرائيل، نعم هاهي ذي نكولاً عن الأرض المقدسة وهو معهم على أبوابها، فماذا يصنع وبمن يستجير؟. قال ربّ إنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين؛ إنّ موسى ليعرف أنّ ربه يعلم بأنّ لا يملك إلاّ نفسه وأخاه، ولكنه في ضعف الإنسان المخذول من قومه، وفي إيمان النبيء الكليم لا يجد متوجهاً إلاّ لله، يشكو له بثَّه ونجواه، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين من ناواه. بعد الجهد الجهيد، والصبر المديد والهدف الأسمى منه قريب غير بعيد. . .

﴿قال فإنّها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾: هذه هي الكلمة الفاصلة ممن يملك الكلمة الفاصلة، إنّها محرمة عليهم؛ لأنّهم لم يلتزموا بشروطها، ولم يخضعوا لأوامر مَنْ حرّضهم على دخولها؛ ليعلم كل أحد أن للنصر ثمناً، وللعزة والمجد مهْراً، وأنّ النصر الرخيص حتى لو تحقق لا يحافظ عليه مَنْ لم يشتروه بالثمن الذي يليق. أربعين سنة يتيهون في الأرض: هذا عقاب آخر يحيق بالمجرم الوقح الذي يرضى بعقاب الحرمان، بما فيه من مهانة النفس وعدم الإحساس إلاّ بما يجده في نفسه لا ينفك عنه في كل مكان!. وهكذا انتهى أمر موسى مع بني إسرائيل إلى فراق فاصل لا رجعة فيه ولا أمان، ويتركهم السياق كذلك في التيه أربعين سنة عقوبة لكُلّ وغْدٍ جَبَانٍ!.

5 ـ حكاية أول مجرم يرتكب القتل المحرّم

النص

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا
وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۖ ﴿29﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠
بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ
رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۖ ﴿30﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ
مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۖ ﴿31﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ
نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۖ ﴿32﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ
غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۖ
قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ
فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿33﴾

* مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا
بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ
جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ
وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ
فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿34﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟
أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ
أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ
وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿35﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟
مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿36﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿37﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم
مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿38﴾
يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ
مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿39﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ
فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ
وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿40﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ
فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿41﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ
ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ
وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿42﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**واتل**﴾: التلاوة: القراءة في عرف الشرع، وهي خاصة بقراءة كلام الله تعالى، وأصلها المتابعة، من تتالت الأمور إذا تتابعت، والمعنى هنا: اقرأ عليهم ما نزل في قصة ابني آدم... ﴿**نبأ**﴾: النبأ: الخبر الذي له وقع وشأن عظيم، وجمعه أنباء. ﴿**ابني آدم**﴾: ولداه لصلبه... ﴿**إذ قرّبا قرباناً**﴾: القربان ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح وغيرها، وأصله مصدر كالشكران والغفران، وأُفْرِدَ القربانُ في الآية لإرادة الجنس... ﴿**بسطت**﴾: البسط هنا: مد اليد بالقتل، ومعناه في الأصل التوسع والانتشار، ومنه البساط ينشر على الأرض، ويده مبسوطة: واسعة العطاء، والبساط: الأرض الواسعة... ﴿**إني أريد أن تبوء**﴾: الإرادة هنا: القصد والعزم على فعل الشيء أو تركه، والمعنى هنا: أقصد من إمساكي عن الدفاع. والبوء: الرجوع، والأصل في البوء اللزوم، «ولقد بوّأنا بني إسرائيل مبوأ صدق»، وباءوا بغضب: رجعوا ملازمين بالغضب، والمعنى هنا: أن ترجع ملتبساً بإثمي وإثمك، والإثمان هنا: إثم القتل وإثم العصيان... ﴿**أصحاب النار**﴾: الملازمون لها دون فراقٍ، مثل ما يلازم الصاحبُ صاحبَه... ﴿**فطوّعت**﴾: سهَلت وزيَنت وشجَعت، أي: مكّنته من القتل بتسويلها إيّاه...

﴿**فبعث الله غراباً**﴾: البعث هنا مستعمل في الإلهام بالطيران إلي ذلك المكان. والغراب طائر معروف تضرب به العرب المثل في التشاؤم... ﴿**يبحث في الأرض**﴾: يحفر فيها، وأصل بحث أفتّش عن شيء مهمّ... ﴿**يواري**﴾: يخفي... سوأة: السوأة ما تسوء رؤيته، وهي هنا تغير القتيل من العفونة والمنظر الكريه... ﴿**ياويلتا**﴾: هي من صيغ الاستغاثة المستعملة في التعجيب، وأصله ياويلَتي فعوضت الألف عن لام الاستغاثة... ﴿**من النادمين**﴾: الندم: أسف الفاعل على فعل صدر منه لم يتفطن لما فيه عليه من مضرة... ﴿**من أجل ذلك**﴾: الأجل: الجرّاء والتسبب وأصله مصدر أجل يأجُل أجْلاً، بمعنى جنى واكتسب، واستعمل هنا في سبب خاصٍّ وهو القتل العمد الأول في حياة الإنسان، وذلك إشارة لما حصل في قصة ابني آدم... ﴿**كتبنا**﴾: شرعنا حكم القاتل وما عليه من الوزر.. ﴿**لمسرفون**﴾: الإسراف في كل أمر: التباعد عن حد الاعتدال

مع عدم مُبَالاَةٍ به، ومعناه هنا: لمسرفون في القتل غير مبالين به... ﴿يحاربون﴾: يقاتلون بالسلاح عُدْوَاناً لقصد الإغارة... ﴿ويسعون﴾: السعي: التحرك للحصول على شيء مرغوب فيه... ﴿فساداً﴾: الفساد هنا: أخذ المال ظلماً وإتلاف الأنفس لأجله... ﴿يُقَتَّلُوا﴾: تقتيل مشدّدٌ بدون لين ولا رفْقٍ. والتصليب كذلك، والصلب: وضع الجاني مشدوداً على خشبة أو نحوها. والتقطيع: إزالة الشيء عن شيء آخر بقصد وشدّة، والقطع: الإبانة. والنفي من الأرض: الإبعاد من المكان المألوف له سكناً، وأصل النفي عدم الوجود. والخزي: الذل والإهانة بسبب ما ارتكب من ورطة وفضيحة.

﴿الوسيلة﴾: العمل المقرّب إلى الله تعالى، وأصلها المنزلة عند الملوك، وهي كالوصيلة وزناً ومعنًى، وفعْلُ وَصَلَ قريبٌ من فعْلِ وَسَلَ، ومعناها: التقرب إلى الله بالطاعة... ﴿والسارق﴾: السرقة أَخْذُ أحدٍ شيئاً لا يملكه خفية عن مالكه مخرجاً إياه من موضع هو حِرْزُ مِثْلِهِ لم يؤذن آخذه بالدخول إليه... ﴿جزاء﴾: الجزاء: المكافأة على العمل بما يتناسب ذلك العمل من خير أو شر... ﴿نكالاً﴾: النكال: العقاب الشديد الذي من شأنه أن يَصُدَّ المُعاقَبِ عن العودة إلى مثل عمله الذي عوقب عليه، وهو مشتق من النكول عن الشيء. وبقية كلمات الآيات واضحات.

مبحث الإعراب

﴿واتل﴾ فعل أمر معطوف على ما كان لموسى مع قومه، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿عليهم﴾ متعلق باتل، ﴿نبأ﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿ابني﴾ مضاف إلى نبأ مجرور بالياء لأنّه مثنى. ﴿آدم﴾ مضاف إلى ابني مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة، أو لوزن الفعل. ﴿بالحق﴾ متعلق باتل. ﴿إذ﴾ ظرف الزمن الماضي متعلق بمحذوف نعت لنبأ. ﴿قرّبا﴾ فعل ماض، وألف المثنى فاعل. ﴿قرباناً﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿فتُقبل﴾ الفاء للترتيب، تُقبل فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على القربان. ﴿من أحدهما﴾ متعلق بتُقبل، وضمير المثنى في أحدهما مضاف إلى أحد. ﴿ولم يُتقبل﴾ فعل مضارع مجزوم مبني للمجهول معطوف على تُقبل. ﴿من الآخر﴾ متعلق بالفعل المجزوم. ﴿قال﴾ فعل ماض، والفاعل هو يعود على الآخر. ﴿لأقتلنك﴾ اللام

لام القسم، أقتلنك فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على فاعل قال، وجملة لأقتلنك جواب قسم مقدر، والقسم وجوابه في محل نصب مقول القول. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على من تقبل منه. ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**يتقبل**﴾ فعل مضارع. ﴿**اللهُ**﴾ فاعله. ﴿**من المتقين**﴾ متعلق بيُتقبل، وجملة إنّما يُتقبل في محل نصب مقول القول.

﴿**لئن**﴾ اللام واقعة في جواب قسم مقدّرٍ، إنْ حرف شرط جازم. ﴿**بسطت**﴾ فعل وفاعل؛ فعل الشرط. ﴿**إليّ**﴾ متعلّق ببسطت. ﴿**يدك**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لتقتلني**﴾ اللام للتعليل، تقتل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير المخاطب (أنت)، والنون المكسورة للوقاية، وياء المتكلم مفعول به. ﴿**ما**﴾ نافية مجازية. ﴿**أنا**﴾ في محل رفع اسم ما. ﴿**بباسط**﴾ خبر ما جُرَّ بحرف الجر الزائد لفظاً. ﴿**يَدِيَ**﴾ مفعول بباسط منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها المناسبة، ويد مضاف وياء المتكلم مضاف إليه. ﴿**إليك**﴾ متعلق بباسط. ﴿**لأقتلك**﴾ مثل إعراب لتقتلني، وأن المقدّرة وما دخلت عليه فيهما مؤوّل بمصدر مجرور بلام التعليل، أي: لقتلك إيّاي ولقتلي إيّاك. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أخاف**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلم (أنا). ﴿**اللهَ**﴾ مفعول به. ﴿**ربَّ**﴾ نعت لله. ﴿**العالمين**﴾ مضاف إلى ربّ، وجملة إني أخاف في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّي أخاف تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أُريد**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير ـ أنا ـ، والجملة خبرُ إنّ. ﴿**أن تبوء**﴾ فعل مضارع منصوب بأن، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول أريد. ﴿**بإثمي**﴾ متعلق بأُريد. ﴿**وإثمك**﴾ معطوف على إثمي. ﴿**فتكون**﴾ معطوف على أن تبوء، واسمها ضمير المخاطب (أنت). ﴿**من أصحاب**﴾ متعلق بمحذوف خبرُ تكون. ﴿**النار**﴾ مضاف إلى أصحاب. ﴿**وذلك**﴾ مبتدأ. ﴿**جزاءُ**﴾ خبرُه. ﴿**الظالمين**﴾ مضاف إلى جزاء، والجملة معطوفة على ما قبلها للتذييل. ﴿**فطوّعت**﴾ الفاء للترتيب، طوّعت فعل ماض. ﴿**له**﴾ متعلق بطوّعت. ﴿**نفسُه**﴾ فاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**قتْلَ**﴾ مفعول به. ﴿**أخيه**﴾ مضاف إلى قتل، والضمير في أخيه مضاف إليه. ﴿**فقتله**﴾ معطوف على طوّعت.

﴿**فأصبح**﴾ كذلك. ﴿**من الخاسرين**﴾ متعلق بمحذوف خبرُ أصبح. ﴿**فبعث**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل بعث. ﴿**غراباً**﴾ مفعول به. ﴿**يبحث**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الغراب، وجملة يبحث في محل نصب نعت لغراب. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بيبحث. ﴿**ليُريَه**﴾ اللام للتعليل، يُري فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على الغراب، والضمير فيه مفعول أول. ﴿**كيف**﴾ في محل نصب حال من ضمير ﴿**يواري**﴾، والجملة مفعول ثانٍ ليُري، وفاعل يواري ضمير يعود على القاتل. ﴿**سوأة**﴾ مفعول به. ﴿**أخيه**﴾ مضاف إلى سوأة، والضمير مضاف إليه.

﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على القاتل. ﴿**ياويلتا**﴾ منادى، والألف عوض عن ياء المتكلم. ﴿**أعجزت**﴾ الهمزة للاستفهام، عجزت فعل وفاعل. ﴿**أن**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**أكون**﴾ فعل مضارع ناقص منصوب بأن، واسمها ضمير يعود على القاتل. ﴿**مثلَ**﴾ خبرُه. ﴿**هذا**﴾ في محل جر مضاف إلى مثل. ﴿**الغراب**﴾ بيان لهذا مجرور بالكسرة، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف الجر المقدّر، والتقدير: أعجزت عن مماثلة هذا الغراب. ﴿**فأواري**﴾ معطوف بالفاء على أن أكون. ﴿**سوأة أخي**﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿**فأصبح**﴾ الفاء للترتيب، واسم أصبح ضمير يعود على القاتل. ﴿**من النادمين**﴾ متعلق بمحذوف خبر أصبح. ﴿**من أجل**﴾ جار ومجرور متعلق. ﴿**ذلك**﴾ في محل جر مضاف إلى أجل. ﴿**كتبنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**على بني**﴾ متعلق بكتبنا. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بني مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**أنّه**﴾ أنّ واسمها. ﴿**مَنْ**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**قتل**﴾ فعل الشرط، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**نفساً**﴾ مفعول به. ﴿**بغير**﴾ متعلق بقتل. ﴿**نفسٍ**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**أو فسادٍ**﴾ معطوف على نفس. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بمحذوف نعت لفساد. ﴿**فكأنّما**﴾ الفاء لربط الجواب كأنّما للتشبيه. ﴿**قتل الناس**﴾ مفعول به. ﴿**جميعاً**﴾ حال من الناس منصوب بالفتحة، وجملة فكأنّما في محل جزم جواب الشرط، وجملة مَنْ قَتَلَ نفساً خبرُ أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول بكتبنا، وتقديره: كتبنا مشابهة قتلِ نفسٍ بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض بقتل الناس أجمعين في عظيم الجُرْمِ.

﴿**ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً**﴾ معطوف على من قتل نفساً، وهي

مثلها في الإعراب. ﴿**ولقد**﴾ الواو للقسم، واللام موطئة لجوابه، وقد للتحقيق. ﴿**جاءتهم**﴾ الضمير فيه مفعول به. ﴿**رسلُنا**﴾ فاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بالبيّنات**﴾ متعلق بجاءت. ﴿**ثم**﴾ للترتيب والتراخي. ﴿**إنّ كثيراً**﴾ إنّ واسمها. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لكثير. ﴿**بعد**﴾ ظرف. ﴿**ذلك**﴾ مضاف إليه. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بمسرفون وكذلك الظرف. ﴿**لمسرفون**﴾ خبر إنّ مرفوع بالواو. ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**جزاءُ**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**الذين**﴾ في محل جر مضاف إلى جزاء. ﴿**يحاربون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**اللهَ**﴾ مفعول به. ﴿**ورسوله**﴾ معطوف عليه، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ويسعون**﴾ معطوف على يحاربون. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بيسعون. ﴿**فساداً**﴾ حال من فاعل يسعون، أي: مفسدين. ﴿**أن يُقتّلوا**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع خبر المبتدإ (جزاءُ)، أي: جزاء الذين يحاربون... التقتيل. ﴿**أو يصلّبوا**﴾ معطوف على يقتّلوا. ﴿**أو تقطّع**﴾ معطوف على يصلّبوا منصوب بالفتحة. ﴿**أيديهم**﴾ نائب فاعل تقطع. ﴿**وأرجلُهم**﴾ معطوف على أيديهم، والضمير فيهما مضاف إليه. ﴿**من خلاف**﴾ جار ومجرور متعلق بتقطع. ﴿**أو ينفوا**﴾ معطوف على تقطع. ﴿**من الأرض**﴾ متعلق بينفوا.

﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ أول. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدّم. ﴿**خزيٌ**﴾ مبتدأ ثانٍ، وجملة المبتدإ الثاني وخبره خبر المبتدإ الأوّل (ذلك). ﴿**في الدنيا**﴾ جار ومجرور متعلق بالخبر المقدم. ﴿**ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ مثل لهم خزي في الدنيا في الإعراب. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب بالاستثناء. ﴿**تابوا**﴾ صلة الذين. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بتابوا. ﴿**أن تقدروا عليهم**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مضاف قبل، والتقدير: تابوا من قبل قدرتكم عليهم. ﴿**فاعلموا**﴾ الفاء فاء الفصيحة، اعلموا فعل أمر، وفاعله واو الجماعة. ﴿**أنّ الله**﴾ أنّ واسمها. ﴿**غفور**﴾ خبرها. ﴿**رحيم**﴾ خبر ثانٍ، وأنّ واسمها وخبرها في تأويل مصدر مفعول اعلموا. ﴿**ياأيُّها الذين آمنوا**﴾ معلوم إعرابها مما سبق. ﴿**اتقوا**﴾ فعل أمر، وفاعله واو الجماعة. ﴿**الله**﴾ مفعول به. ﴿**وابتغوا**﴾ معطوف على اتقوا. ﴿**إليه**﴾ متعلق بابتغوا. ﴿**الوسيلة**﴾ مفعول به. ﴿**وجاهدوا**﴾ كذلك. ﴿**في سبيله**﴾ متعلق بجاهدوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لعلكم**﴾ لعل واسمها. ﴿**تفلحون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعلّ.

﴿**إنّ الذين كفروا**﴾ الذين اسم إنّ، كفروا صلة الذين. ﴿**لو**﴾ حرف امتناع لامتناع متضمّناً معنى الشرط. ﴿**أنّ**﴾ حرف توكيد ونصب. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر أنّ مقدم. ﴿**ما**﴾ في محل نصب اسم أنّ مؤخر. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بالخبر. ﴿**جميعاً**﴾ حال من ما، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر فاعل بفعل مقدّر بعد لو، والتقدير: لو ثبت كون ما في الأرض جميعاً لهم. ﴿**ومثله**﴾ معطوف على اسم أنّ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**معه**﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال من مثل. ﴿**ليفتدوا**﴾ اللام للتعليل، يفتدوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وواو الجماعة فاعل. ﴿**به**﴾ متعلق بيفتدوا، ولام التعليل حرف المصدر المؤول من الفعل المنصوب، والتقدير: لو ثبت ما ذكر لأجل الافتداء به. ﴿**من عذاب**﴾ متعلق بالفعل يفتدوا. ﴿**يوم**﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**تُقبل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما. ﴿**منهم**﴾ متعلق بتقبل، وجملة ما تُقبّل جواب لو، وجملة لو خبر إنّ. ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ الجملة من المبتدإ المؤخر والخبر المقدم تذييلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**يريدون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أن يخرجوا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن. ﴿**من النار**﴾ متعلق بيخرجوا. ﴿**وما هم**﴾ ما واسمها. ﴿**بخارجين**﴾ خبرها. ﴿**منها**﴾ متعلق به. ﴿**ولهم عذاب مقيم**﴾ جملة تذييلية.

﴿**والسارق**﴾ مبتدأ. ﴿**والسارقة**﴾ معطوف عليه. ﴿**فاقطعوا**﴾ جملة خبرية. ﴿**أيديهما**﴾ مفعول به. ﴿**جزاءً**﴾ مفعول لأجله منصوب بالفتحة. ﴿**بما**﴾ متعلق بجزاء. ﴿**كسبا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**نكالاً**﴾ مفعول لأجله بدل من جزاء. ﴿**من الله**﴾ متعلق بمحذوف نعت لنكالاً. ﴿**والله عزيز حكيم**﴾ جملة من مبتدإ وخبر تذييل. ﴿**فمن**﴾ الفاء للتعقيب، من شرطية. ﴿**تاب**﴾ فعل الشرط، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بتاب. ﴿**ظلمه**﴾ مضاف إلى بعد، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وأصلح**﴾ معطوف على تاب. ﴿**فإنّ الله**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، إنّ الله إنّ واسمها. ﴿**يتوب**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**عليه**﴾ متعلق بيتوب، وجملة يتوب في محل رفع خبرُ إنّ، وجملة فإنّ في محل جزم جواب الشرط. ﴿**إنّ الله غفور رحيمٌ**﴾ جملة من اسم إنّ وخبرها تعليل. ﴿**ألم**﴾ الهمزة للاستفهام، لم حرف نفي وجزم. ﴿**تعلم**﴾ مجزوم بلم، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**أنّ الله**﴾ أنّ واسمها. ﴿**له**﴾ متعلق

بمحذوف خبر مقدّم. ﴿مُلْكُ﴾ مبتدأ مؤخّر، وجملة له ملك خبر أنّ. ﴿السماوات﴾ مضاف إلى ملك.

﴿والأرض﴾ معطوف على السماوات، وجملة أنّ الله له ملك سدّت مسدّ مفعولي علِم. ﴿يُعَذّب﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿مَنْ﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿يشاء﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة مَنْ. ﴿ويغفر﴾ معطوف على يعذب. ﴿لمن﴾ متعلق بيغفر. ﴿يشاء﴾ مثل ما سبقها، والجملة خبر ثانٍ لأنّ. ﴿والله على كل شيء قدير﴾ جملة تذييلية من مبتدإ وخبر.

مبحث الأسلوب البلاغي

ربط هذا الكلام بما قبله لمناسبة ما وقع من بني إسرائيل وما وقع لابني آدم، فإنّ في القصتين عدم الرضى بما حكم الله تعالى؛ فبنوا إسرائيل عصوا أمر رسولهم إيّاهم بالدخول إلى الأرض المقدسة، وأَحَدُ ابْنَيْ آدم عصى حكم الله تعالى بعدم قبول قربانه؛ لأنّه لم يكن من المتقين، وفي كلتيهما جرأة على الله بعد المعصية، فبنوا إسرائيل قالوا: «اذهب أنت وربك. . . !»، وابن آدم قال: لأقتلن الذي تقبل الله منه؛ في هذا تماثل كامل من حيث التعدي على حكم الله. ونجد في الأسلوب التضاد من حيث إنّ في إحداهما إقداماً مذموماً من ابن آدم، وإجحافاً مذموماً من بني إسرائيل، وفي إحداهما اتّفاق أخوين ـ موسى وهارون ـ على امتثال أمر الله، وفي الأخرى اختلاف أخوين بالصلاح والفساد. . .

﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنّك قال إنّما يتقبل الله من المتّقين﴾: فإنّ الأسلوب هنا ـ في هذه القصة ـ يعطينا أمراً مُهِمّاً حيث صدر الأمر بالتلاوة المتكررة لهذا النبإ الخطير، الملتبس بالحق الصريح المثير. والغرض من هذا السياق ما في القصة من العظة والعِبْرَة؛ ليرتدع كل من يسمعها عن ارتكاب مثلها لعلمه بأول من بذر هذه البذْرَة. وفي السياق فرق بين الحِوَارَيْنِ؛ إذ يبدو قول المعتدي نابياً مثيراً للاستنكار؛ لأنّه ينبعث من غير موجب إلاّ ذلك الشعور اللئيم المنكر؛ شعور الحسد الذي لا يَعْمُرُ نفْساً طيّبة. ويبدو قولُ المعتدَى عليه هدوء نفس ووداعة جأش وطيبة قلب في

براءة تردّ الأمر إلى وضعه الطبيعي، وفي إيمان يدرك أسباب القبول، وفي توجيه رقيق للمُعْتَدِي إلى تقوى الله، وهداية له إلى الطريق التي تؤدي إلى القبول، وتعريض لطيف به لا يصرح بما يخدشه أو يثيره!. ثم يمضي ذلك الأخ المؤمن الوديع المسالم يكسر من شرَة أخيه الهائج المعتدِي الشرير...

﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إنّي أخاف الله رب العالمين﴾: وهكذا يبدو لنا نموذج الوداعة والسلام والتقوى في أشد المواقف استجاشة للضمير الإنساني، وحماسة له ضد المعتدى عليه، وإعجاباً بِهُدُوئِهِ واطمئنانِهِ أمام نُذْر الاعتداء، وتقوى قلبه وخوفه من الله رب العالمين. ولقد كان في هذا القول الليّن ما يفتأ الحقد، ويُهدّئ الحسد، ويسكنُ الشر، ويمسح على القلب المهتاج، ويَرُدُّه إلى حنان الأخوة وبشاشة الإيمان وإشراق التقوى، ومع هذا فقد أضاف الأخ الصالح إلى هذا كله صوتَ النذير... **﴿إنّي أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين..﴾** بذلك عرض له إشفاقه هو من جريمة القتل ليحملَهُ على الاقتداء به، وعرض له وِزْرَ جريمته ليُنَفِّرَهُ منه. ولكن النموذج الشرير لا يكمل تصويره إلاّ حين نعلم كيف كانت استجابته...

﴿فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾: بعد هذا كله، بعد التذكير والعظة والمسالمة والتحذير، بعد هذا كله اندفعت النفس الشريرة فوقعت الجريمة، وقعت وقد ذللت له نفسه كُلَّ عقبة، طوّعت له كل مانع، طوعت له نفسه القتل. وقتلُ مَنْ؟ قَتْلُ أخيه!. فأصبح من الخاسرين: خَسِرَ أخاه، والأخ ناصر ورفيق ومُعين، وخسر نفسه، فقد أصبحت له عدوة وهي تطوع له هذا الشر اللئيم، وخسر دنياه بما يحيك في نفس القاتل من ندم وهواجس وقلق وعذاب للضمير، وخسر آخرته بذلك الذنب الذي يقترن بالشرك عند الله. وفي الكلام إطناب مقصود لتوضيح المقام... **﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين﴾**: هنا تتمثل له سوأة جريمة القتل في مظهر حسّيّ، وهو لا يدري كيف يواري جُثَّة أخيه، وهي ـ وقد فارقتها الحياة المطهرة ـ سوأة لا تستريح لمرآها النفوس، وشاءت حكمة الله أن تُظْهِرَ له عجزَه ـ وهو الباطش القاتل الفاتك ـ عن أن يكون كالغراب في أُمّة الطير!. والغرض منه إظهارُه في هذه الصورة المنكرة المشؤومة!..

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنّه من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً﴾: إنّ الموعظة لا تجدي في بعض النفوس، والمسالمة لا تكف الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور، وما تبلغ عظة ما بلغته عظات الأخ المؤمن الوديع الودود، وما تبلغ مسالمة ما بلغته في هذا المثال المصور لأَعْلَى درجات المسالمة الممكنة في الوجود، وهكذا لا يكون إلاّ التشريع وإلاّ القصاص رادعاً لمثل تلك النفوس. من أجل وجود هذه النماذج في البشرية، من أجل الاعتداء الذي لا موجب له ولا مبرّر على المسالمين الوادعين، الذين لا يريدون شراً ولا مدافعة. . .

من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل. . . : وهذا لا يَتَنافى أن يكون قد كتب على سواهم، إنّما المناسبة في السياق هي مناسبة بني إسرائيل، ومع أخذ العهد من بني إسرائيل على صيانة الأرواح والدماء، ومع بيان الرسل وتحذيرهم فإنّ كثيراً منهم لا يزالون بعيدين عن القصد والاعتدال، مُنْدفعين مع النزوات والشهوات. . . **﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾**: هذا تذييل لحكم شرع القصاص على بني إسرائيل، وهو خبر مستعملٌ كنايةً عن إعراضهم عن الشريعة، وأنّهم مع ما شدّد عليهم في شأن القتل لم يزالوا يقتلون، كما أشعر به قوله: بعد ذلك، وهو مجيء الرسل إليهم بالبينات. وحذف متعلق مسرفون لقصد التعميم، والمراد مسرفون في المفاسد. وثُمّ للتراخي في الرتبة؛ لأنّ مجيء الرسل بالبينات شيء عجيب، والإسراف في الأرض بعد تلك البينات أعجب!. وكلمة (في الأرض) لتصوير هذا الإسراف عند السامع وتفظيعه، وتقديمه للاهتمام، وهو يفيد زيادة تفظيع الإسراف فيها مع أهمية شأنها.

وعندما نمعن النظر في أسلوب هذه الآية نجد فيها الآتي: أكدت بالتوكيد القسمي وحرف التحقيق (ولقد) لكمال العناية بتحقق مضمونها. وقال جاءتهم ولم يقل أرسلنا؛ للتصريح بوصول الرسالة إليهم، فإنّه أدل على تناهيهم في العتوّ والمكابرة. ووضع اسم الإشارة موضع الضمير للإيذان بكمال تميّزه وانتظامه بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد (ذلك) للإيماء إلى علوّ درجته وبعد منزلته في عظم الشأن. . . **﴿إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف**

أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾: لقد قرن الله في الآية السابقة قتل النفس بالفساد في الأرض، وجعل كُلاً منهما مبرراً للقتل؛ ذلك أنّ أمن الجماعة ضروري كأمن الأفراد، ولأنّ الخروج بالقوة على شريعة الله والقائمين عليها ينشأ عنه استباحة كلها، ومنها حرمة الدماء، لذلك وضعت لهذا الخروج والإفساد عقوبات مخيفة تترتب على ذاتٍ لأعْلَى مفردات الجرائم التي تقع بسببه، فالخروج ذاته هو الجريمة، لما يتضمنه من إضعاف السلطة التي تضبط الأمْنَ وتمنع وقوع الجرائم.

والحصر هنا يفيد تأكيد النسبة؛ لرد اعتقادٍ مقدَّرٍ، وهو اعتقاد من يستعظم هذا الجزاء ويميل إلى التخفيف منه، فالآية تقتضي وجوب عقاب المحاربين بحيث لا ينقص عن ذلك الجزاء، وهو أحد الأمور الأربعة. وعُطف (ويسعون في الأرض فساداً) لبيان القصد من محاربة الله ورسوله، فصار الجزاء على مجموع الأمرين، فمجموع الأمرين سبب مركَّب للعقوبة. والتعبير بيُقتّلوا أو يُصلّبوا للمبالغة المقصود منها هنا إيقاعه بدون لينٍ ولا رفْقٍ تشديداً عليهم. . .

ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم: اسم الإشارة يعود على الجزاء، فالجزاء من جنس العمل؛ لأنّ الجماعة المسلمة يجب أن تعيش آمنةً، والسلطة المسلمة يجب أن تكون مُطَاعَةً، فإذا ارتدع هؤلاء الخارجون المفسدون عن غيهم وإفسادهم نتيجة استشعارهم نكارة الجريمة، وثوبة منهم إلى الله ورجوعاً إلى طريقه المستقيم وهم ما يزالون في قوتهم، لم تنلهم يدُ السلطان؛ لتكون هذه التوبة خالصة لله، صادرة عن اقتناع ومثاب، فقد سقطت جريمتُهم، ولم يَعُدْ للسلطان عليهم من سبيل. . .

﴿إلاّ الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أنّ الله غفور رحيم﴾: والحكمة واضحة في سقوط الجريمة وكف يد السلطان عنهم في هذه الحالة من ناحيتين: الناحية الأولى: أنّهم تابوا وهم يملكون العدوان. والثانية: تشجيعهم على التوبة قبل أن يقدر عليهم السلطان. . . **﴿ياأيُها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾**: بعد ما بيّن الله جريمة المحاربة والفساد في الأرض، وما يترتب عليها من العقاب وشروط التوبة منها، بيّن طريق النجاح والفلاح وكيفية السير فيها. . .

﴿إنّ الذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم. يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم﴾: هذا مشهد الكفار يرسمه السياق في صورة مجسّمة شاخصة متحركة، لا في أوصاف، ولكن في حركات وانفعالات ومحاولات. إنّ أقصى ما يتصوره خيالٌ أن يكون للذين كفروا كل ما في الأرض جميعاً، ولكن السياق يفترض ما هو فوق الخيال؛ ليتصور أنّ معهم كذلك مثل ما في الأرض جميعاً، ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا وبذاك؛ لينجوا مما ينتظرهم من هلاك، ولكن هيهات هيهات!. ثم يستمر السياق ليصور لنا مشهدهم في جهنم يحاولون منها الخروج، ولكن كذلك هيهات!. إنّه مشهد مجسّم فيه الكفار ومعهم ما في الأرض ومثله معه، وهم يعرضونه فلا يُقبل، وهم يدخلون جهنم، وهم يحاولون الخروج، وهم يُرغَمُون على البقاء. ويسدل الستار ونتركهم مقيمين هناك ونحن نلمحهم بعين الخيال، وما من شك أنّ هذا التصوير أوقع في الحس وأعمق في النفس من كل تعبير ذهني عن فوات الفرصة ودوام العذاب. وفي نهاية هذا الدرس يرد حكم السرقة بعد القتل والحرابة...

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾: في قوله: نكالاً علة للجزاء، وفي قوله: جزاء علة للقطع... **﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإنّ الله يتوب عليه إنّ الله غفور رحيم﴾**: في هذا الكلام ترغيب في التوبة، وبشارة لمن يقلع عن المعاصي. وفي قوله: إنّ الله غفور رحيم تعليل لما قبله، وإظهار اسم الله بَدَلَ الضمير للإشعار بعلّة الحكم، وتأييد استقلال الجملة. وقوله... **﴿ألم تعلم أنّ الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير﴾**: فيه تكرير الإسناد لتقوية الحكم، والخطاب للرسول ﷺ بطريق التلوين، أو لكل أحد صالح للخطاب. والاستفهام الإنكاري لتقرير العلم، والمراد به الاستشهاد بذلك على قدرته تعالى. وتقديم التعذيب على المغفرة لمراعاة ما بين سببهما من الترتيب، والجملة تقرير لكون ملكوت السماوات والأرض له سبحانه، وجملة والله على كل شيء قدير تذييل مقرر لما قبلها.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾. . . الخ: يأمر الله فيه رسوله بتلاوة ما وقع لابني آدم على بني إسرائيل، مبيّناً لهم حقيقة الأمر دون زيف أو تهويل، فلا نقص فيها ولا زيادة عليها. والقرآن لم يذكر اسم كل منهما، وما يقال: إنّ اسم القاتل قابيل واسم المقتول هابيل إنّما هي رواية من كتب اليهود، التي ليس لها سند يُعتمد عليه. وسبب القتل هنا واضح بأنّ أحدهما صالح مطيع، والآخر مفسد مخالف. وأبوهما آدم أول رسول أرسله الله في الأرض يُبيّن لأولاده حكم الله المتعلق بأعمالهم الاختيارية؛ ومن بينها التقرب إلى الله بالعبادة، والابتعاد عن سوء السمعة وقباحة العادة. والقربان الذي قرّبه ابنا آدم لم يبيّن لنا القرآن نوعه، وإنّما بيّن لنا سبب القبول وعدمه، فالذي تُقبل قربانه مؤمن مخلص مطيع، والذي لم يُتقبل منه مخالف لما جاء به آدم من التشريع، وهو ما دلّت عليه محاورة الأخوين عندما ظهر حقد العاصي على أخيه المطيع: **﴿إذ قرّبا قرباناً فتُقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلّنك قال إنّما يتقبل الله من المتقين﴾**!. إنّ التقوى وحدها هنا هي سبب القبول، فليس هنا شيء آخر يحمل الأخ على قتل أخيه:

﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله ربّ العالمين﴾: وهنا تظهر حقيقة كل من الأخوين الشقيقين في صورتين مختلفتين؛ صورة لإنسان وادعٍ خاضعٍ طائع، وصورة أخرى لإنسان متهوّر متنكر متجبّر، لا يعرف عطف الأخوة ولا احترام الأبوّة، ذلك ما بيّنته الآيات بوضوح لا غموض فيه ولا إبهام. وهكذا تتضح تعاليم الإسلام من أول ما نزلت على أول رسول (آدم) أبي البشر عليه السلام، فالتقرب إلى الله مشروع بشرط الإخلاص فيه لله مع التذلّل والخضوع، والقتل عمداً دون مبرّرٍ شرعي ممنوع!. من أجل ذلك كتب الله على بني إسرائيل ما كتب من حرمة الدماء، ووجوب المحافظة على النفوس البريئة السليمة، ولكن اليهود تعدّوا الحدود ونقضوا العهود، فقتلوا الأنبئاء بغير حق، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس، وأظهروا الفساد في الأرض دون وعْيٍ أو إحساس. . .

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنّه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في

الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾: من هذا السياق نستطيع أن نفرّق بين فرد وفرد آخر، وبين جماعة وجماعة أخرى، فابن آدم المجرم جاءه شرع الله بوساطة أبيه، يدلّه على الطاعة وعمل الخير والإخلاص لله فيه، ويصده عن المعصية وعن التعدي على الحقوق، فلا يستحلّ الأخُ قتل أخيه، وبنوا إسرائيل المفسدون في الأرض جاءهم شرع الله بوساطة كثير من رسل الله، يَدُلُّونهم على الطاعات وفعل الخيرات، ويُحذِّرونهم من المعاصي والمخالفات، فخالفوا الأمْرَ وارتكبوا جميع المحرمات.

التوجيه الثاني: يبيّن فيه الجزاء الذي يعتبر حداً رادعاً لكل من يحاول تعكير أمن الجماعة المسلمة؛ لأنّ أمن الجماعة ضروريٌّ كأمن الأفراد، ولأنّ الخروج بالقوّة على شريعة الله والقائمين عليها، ينشأ عنه استباحة الحرمات كلها، ومنها حرمة الدماء؛ لذلك وُضِعَت لهذا الخروج والإفساد عقوباتٌ مُخِيفَةٌ، تترتب على ذات الخروج لا على مفردات الجرائم التي تقع بسببه، فالخروج ذاته هو الجريمة؛ لما يتضمنه من إضعاف السلطة التي تضبط الأمْنَ ووقوع الجرائم. . .

﴿إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾: والمراد بحرب الله ورسوله حرب شريعة الله وشعائره وحرماته، وتهديد الجماعة الإسلامية التي كفلت لها الشريعة حرماتِها جميعاً إلاّ بحقها. وإنّما أراد بهذا النصّ أنّ السلطان الذي يحق له أن يعاقب الخارجين بعقوبة الله، هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله، ويُنفّذ شريعة الله ورسوله، فأمّا الذين يخرجون على غير نظام الله ورسوله فليس لأحد أن يأخذهم باسم هذه الشريعة، ولا أن يعاقبهم بعقوبات هذه الشريعة، إنّما جزاء هذه العصابات المسلحة التي تُروّع الناس وتسلبهم أموالهم وأرواحهم وتعتدي على أعراضهم وحرماتهم؛ سواء كان هذا وقع منها فعلاً أو في طريقه إلى الوقوع، جزاؤهم أن يُقتلوا تقتيلاً عاديّاً، إن كان يكفي مجرد القتل في إزالة الخوف منهم، أو يصلبوا حتى يموتوا إن كان تمكن خوف الناس منهم، فلا يزول الخوف عن الناس حتى يروهم مصلوبين أمام أعينهم، أو أن تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف

عندما يكون تعديهم على الأموال، أو أن يُنفوا من الأرض عندما يكون النفي كافياً لبث الأمن بين الناس.

وحكم المحاربين وبيان أوصافهم وما يترتب عليه أَخَذَ مجالاً واسعاً في كتب الفقه. ثم بيّن الله آثار هذه العقوبة في الدنيا والآخرة، فقال... ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم: وهذا الجزاء القاطع الرادع يدلُّ دلالةً واضحة على أنّ مستحقّيه بخروجهم على جماعة المسلمين معتدون قاصدون مرتدّون عن الإسلام، فلا تنفع توبتهم بعد القدرة عليهم، أمّا إن يتوبوا ويرجعوا إلى الله فيدخلوا في جماعة المسلمين نادمين، فلا عقوبة عليهم بهذا الجزاء الصارم...

﴿إلاّ الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أنّ الله غفور رحيم﴾: وهذه التوبة ترفع عنهم حقّ الله كلَّه من عقاب في الدنيا والآخرة، ولكن تبقى حقوق العباد في ذمة المتعدي قبل التوبة إنْ عُلِمَ بعينه، فلصاحب الحق المطالبة بها إن كان مالاً أو نفساً، فيأخذ حقه على مقتضى أحكام الفقه في ذلك، فإن جُهِل الفردُ المعتدي بعينه فعلى الحاكم أن يضمنه من بيت المال بحسب الحق المطلوب.

التوجيه الثالث: تمهيد الطريق الواضح للإيمان والعمل الصالح... **﴿ياأيّها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾**: من هذا النص القاطع نعلم علم اليقين ما تهدف إليه هذه الآية، وما تطلبه من كل مؤمن صادق الإيمان أن يلتزم بهذه الأوامر، وهي تقوى الله قبل كل شيء، بامتثال أمره واجتناب نهيه، وبأن يتوسل إليه سبحانه بالعمل الصالح الذي شرعه الله لعباده، وبأن يُجاهد في سبيله بكف نفسه عن أهوائها وحملها على عمل الخير والعدل في جميع الأحوال، ويكف أعداء الدعوة عن أن ينالوا ما يريدون من تهوينها أو القضاء عليها. بهذا التوجيه السليم ينال المؤمن كلَّ سعادة وفلاح وتقدُّم ونجاح، هكذا نفهم الوسيلة كما بيّنها الله في كتابه، وعمل بها النبيء ووضحها لأصحابه، ولا نعلم للوسيلة معنى آخر، ولم يؤثر عن صحابي ولا تابعي ولا أحد من علماء السلف أنّهم ذكروا أنّ الوسيلة هي التقرب إلى الله بغير ما شرعه الله للناس من الإيمان والعمل كالدعاء ونحوه، ولا يغرنّك ما ترى وتسمع في هذه

الأيام من أنّ الوسيلة هي التوسل بالقبور وما فيها من الأموات؛ لطلب قضاء الحاجات ودفع المصائب والكربات، وكثُرَ هذا حتى صار الناس يَدْعُون مع الله أصحاب الأضرحة والمقامات، وقد ألّف بعض الناس كتباً في هذا الشأن، وزعم أنّهم يسمعون ويستجيبون للداعي، وشغف العامة بمثل هذا القول المخالف لقول الله تعالى: «فلا تدعوا مع الله أحداً»، وقوله: «إنّ الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم»، وقوله: «والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا يُنبئك مثل خبير». وخلاصة القول: إنّ الوسيلة ماتتقّرب به إلى الله، وترجو أن تصل به إلى مرضاته بما شرعه لتزكية نفسك، وقد دلّ كتاب الله في جملته وتفصيله على أنّ مدار النجاة والفلاح هو الإيمان والعمل الصالح، وأنّ العمدة في تقرب المؤمن إلى الله وابتغاء مرضاته، إنّما هو إيمانه وعمله لنفسه، فإذا لم يعمل لنفسه ما شرعه الله وجعله سبب فلاحه، فهل يكون قد ابتغى إليه الوسيلة بطلب الدعاء من بعض العباد الذين يعتقد فيهم أنّهم مقربون إلى الله بادعائهم الكاذب، أو يطلب من الأموات ما يظن أنّهم يفعلونه بوهمه الخائب؟!. كلاّ!. إنّ الطلب من الميت غير مشروع، فضلاً عن أنّه لا يعلم إن كان مقبولاً أوغير مقبول، فإنّ ذلك من أمور الآخرة مغيّبة وبعيدة عن إدراك العقول!.

ثم أكّد ما سبق من أنّ مدار الفوز والفلاح تقوى الله وتزكية النفس فقال: ﴿**إنّ الذين كفروا لو أنّ لهم مافي الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم**﴾: هذا هو الفارق بين حكم الإسلام وما يدّعيه أهل الباطل من الأقوام: فالنصارى يزعمون أنّ خلاصهم وسعادتهم تكون بالمسيح؛ فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم، واليهود يزعمون أنّهم شعب الله المختار، وهكذا كل أمّة تدَّعِي أنّها بفضل الآباء والأجداد ينالون ما يتمنونه من الخير والإسعاد!. والمؤمنون الصادقون يعتقدون أنّ العمدة في النجاة تزكية النفس بالأعمال الصالحة المشروعة.

التوجيه الرابع: يبيّن فيه حدَّ السرقة وجزاء السارق والسارقة؛ ليجمع السياق بين الوازع الداخلي وهو الإيمان والصلاح، والوازع الخارجي وهو الخوف من

العقاب والنكال، وليربط بين حقوق النفوس والأموال تمشياً مع ما يقتضيه الموضوع من بلوغ الكمال: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم. .**﴾ السارق: من يتعدى على المال المحفوظ الذي له قيمة تُعَدُّ عُرْفاً، ولهذا نجد الفقهاء هنا يحددون معنى السارق، ومعنى المال المسروق، ومعنى الحرز الذي يصونه وكيفية أخذه، وسببه، وكيفية قطع اليد، ومن يتولى هذا التنفيذ، كل ذلك فُصّل تفصيلاً كاملاً في كتب الفقه من باب الحدود.

ولا يشك مسلم في أنّ هذه العقوبة هي أجدر بمنع السرقة وتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم، فالأرواح كثيراً ما تتبع الأموال إذا قاوم أهلها السراق، وحاولوا منعهم من أخذها. وفي التعليق بقوله: والله عزيز حكيم حكمة عظيمة؛ فعزّة الله تقتضي ردع المتعدّي بما يليق به، وحكمته تقتضي وضع الحد بما يناسبه، فهو يضع الحدود والعقوبات بحسب الحكمة التي توافق المصلحة، فما أَمَرَ بأمْرٍ إلاّ وهو صلاح، ولا نهى عن شيء إلاّ وهو فساد، وكأنّه يقول: اشتدوا على السراق فاقطعوهم يداً يداً دون هوادة. كما قال في حد الزنى: «ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله. . .» ﴿**فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإنّ الله يتوب عليه إنّ الله غفور رحيم**﴾: هنا يبيّن حكم السارق بعد التوبة، أي: فمن تاب من السراق ورجع عن السرقة بعد ظلمه لنفسه، بعمله ما نهاه الله عنه من سرقة أموال الناس، وأصلح نفسه وزكاها بأعمال البر، فإنّ الله يتوب عليه بقبول توبته ورجوعه إليه بالرضى، ويغفر له ما فرط منه، ويرحمه بأن يوفقه إلى العمل في مستقبل عمره. هذا العفو يتعلق بحق الله، أما حق العبد فلا يسقط بالتوبة بل عليه إعادة ما سرق من المال بعينه إن بقي عنده، أو بقيمته إن فُقِدَ وهو قادر على الدفع، فإن كان عاجزاً فعلى بيت المال، أو عفو صاحب الحق، أو يتبع به في ذمته.

ثم ختم الله هذا الموضوع ببيان الحكمة في عقوبة السرقة والعفو عنها عند التوبة منها. . . ﴿**ألم تعلم أنّ الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير**﴾. وخلاصة القول في ذلك: أنّ الله وضع هذا العقاب لكل من يسرق ما يُعَدُّ به سارقاً، كما وضع العقاب للمحاربين المفسدين في الأرض، وأنّه يغفر للتائبين من هؤلاء وهؤلاء ويرحمهم إذا صدقوا

في التوبة، وأصلحوا عمَلَهم، وأنّه يعذب من يشاء تعذيبه من العصاة تربية له، وتأميناً لعباده من أذاه وشرّه، كما أنّه يرحم من شاء من التائبين برحمته وفضله، والله على كل شيء قدير.

6 ـ تهوين تألُّب المنافقين واليهود
وتوهين ما هم عليه من المكر والجحود!

النص

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ
مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ
وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ
ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ
يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ
وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ
لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿43﴾
سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ
فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ
فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿44﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ
أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿45﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ
يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟

وَالرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَٰبِ اللَّهِ
وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ
وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْكَٰفِرُونَ (46) * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا
أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ
وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ
فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ
يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ (47)
وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (48) وَلْيَحْكُمْ
أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ (49) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ
فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ
مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ
فِي مَا ءَاتَىٰكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَٰتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿50﴾ * وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿51﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿52﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**لا يُحزنك**﴾: لا يجعلك حزيناً، يقال: أحزنه الأمر جعله حزيناً، والحزن ألم يجده الإنسان عند فوت ما يُحِبُّ... ﴿**يسارعون في الكفر**﴾: سارع وأسرع: بادر، يقال: سارع إلى الشيء إذا أسرع إليه من خارج ليصل إليه، وسارع فيه إذا أسرع فيه وهو داخل فيه، وهنا كان الكفار داخلين في ظرف الكفر محيطاً بهم... ﴿**الذين قالوا آمنا بأفواههم**﴾: المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم... ﴿**ومن الذين هادوا**﴾: من اليهود؛ مأخوذ من قول موسى عليه السلام: «إنّا هدنا إليك»، وأصل الهَوْدِ: التوبة والرجوع إلى الحق، والهوادة: اللين والمصالحة، وكلمة اليهود الآن أصبحت حقيقة عرفية لا تطلق إلاّ على اليهود المعروفين... ﴿**سمّاعون للكذب**﴾: مبالغون في اختراع الأراجيف والأقاويل الكاذبة وإشاعتها بين الناس... ﴿**يحرفون الكلم من بعد مواضعه**﴾: يبدلون معناه الأصلي إلى معنى آخر يوافق أغراضهم، بدليل قوله...

﴿**يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا**﴾: فالإشارة في قوله:

إن أوتيتم هذا إلى الكلم المحرَّف. والإيتاء هنا: الإفادة، كقوله: «وآتاه الله الملك والحكمة»، والأخذ: القبول، أي: إن أُجِبْتُم بمثل ما تَهْوُون فاقبلوه، وإن لم تُجابوه فاحذروا قبوله. والحِذر: الاحتراز والتيقظ الشديد... ﴿**ومن يرد الله فتنته**﴾: إرادة الله فتنة المفتون قضاؤها له في الأزل، وعلامة ذلك التقدير عَدمُ إجداء الموعظة والإرشاد فيه، وأصل الفتنة الإحراق، ثم استعمل في الاختبار للشيء بإظهار طيّبه من خبيثه، كاحتراق الذهب بالنار لإظهار جودته، ولها معان أخرى: مثل الضلال والكفر والفضيحة والمِحْنَة والمال والأولاد واختلاف الناس في الآراء...

﴿**سمّاعون للكذب أكّالون للسحت**﴾: السحت هنا: الحرام وكل ما لا يحل كسبه، والفعل منه سَحَتَ وأَسْحَتَ بمعنى استأصل، والمال المسحوت: الذي لا بركة فيه ولا نفع منه، ورجل مسحوت المعدة إذا كان أكولاً لا يشبع، ومنه الرشوة في الحكم، وكل ذلك يرجع إلى الحرام الخسيس ممحوق البركة جالب للعار وسوء السمعة... ﴿**فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم**﴾: إن جاء من يريد التحكيم إلى محمد ﷺ من اليهود، فهو مخير بين الحكم بينهم بما أنزل الله، وبين أن يترك الحكم. والقسط: العدل، والمقسطون: العادلون في الحكم، وأمّا القاسطون، فمعناه الجائرون المنحرفون... ﴿**وكيف يحكمونك**﴾: كيف يجعلون محمداً حكماً، وهم لم يؤمنوا به؛ فهذا شيء عجيب!.. ﴿**وعندهم التوراة**﴾: الكتاب المنزل على موسى... ﴿**فيها حكم الله**﴾: الذي يجب على اليهود العمل به... ﴿**ثم يتولون من بعد ذلك**﴾: ثم يعرضون عن حكم كتابهم، ويأتون إلى إنسان لم يؤمنوا به!.. ﴿**وما أولئك بالمؤمنين**﴾: ليس هؤلاء اليهود من المؤمنين؛ لأنّهم لم يؤمنوا بكتابهم، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ...

﴿**إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور**﴾: الهدى الأمر الموصل إلى المطلوب، والمراد هنا: الأحكام الشرعية التي في التوراة. والنور: المبيّن والموضّح لتلك الأحكام... ﴿**يحكم بها النبيئون**﴾: أنبئاء بني إسرائيل؛ موسى ومن جاء بعده المأمورين بحكم التوراة... ﴿**الذين أسلموا**﴾: الذين كانوا على الملّة الحنفية؛ ملّة إبراهيم وأبنائه وأحفاده؛ وهو دين الله الحق... ﴿**للذين هادوا**﴾: لأجل اليهود الذين كانوا ملزمين بتنفيذ حكم التوراة... ﴿**والربانيون**﴾: جمع رباني،

وهو العالم المنسوب إلى الرب، أو هو العالم المربي غيْرَهُ... ﴿**والأحبار**﴾: جمع حَبر، وهو العالم بالملّة عند اليهود، وأصله في العربية من قولهم: فلان حسن الحَبْر والسَّبْر، إذا كان جميلاً حسن الهيئة... ﴿**بما استحفظوا من كتاب الله**﴾: الاستحفاظ: الاستئمان، وكتاب الله: التوراة... ﴿**وكانوا عليه شهداء**﴾: مَنْ ذُكِرَ كانوا شهداء مؤمَّنين على حفظه من التبديل والتأويل...

﴿**فلا تخشوا الناس**﴾: بالخوف والطمع والملق... ﴿**واخْشون**﴾: بامتثال الأمر واجتناب النهي وتحقيق الحقّ... ﴿**ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً**﴾: الثمن: الرشوة وأكل الدنيا بالدين، والقليل عِدَّةً ومُدَّةً، فهو معدود محدود... ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله**﴾: من لم يحكم بذلك مستهيناً به منكراً له... ﴿**فأولئك**﴾: إشارة إلى مَنْ... ﴿**هم الكافرون**﴾: الجاحدون لما أنزل الله لاستهانتهم به... ﴿**وكتبنا**﴾: فرضنا... ﴿**عليهم**﴾: على اليهود... ﴿**فيها**﴾: مكتوباً في التوراة على وجه اللزوم، والمكتوب عليهم هو المصدر المستفاد من أنَّ، والمصدر في مثل هذا يؤخذ من معنى حرف الباء الذي هو التعويض، أي: كتبنا تعويض النفس بالنفس، وهو المساواة في القصاص، والنفس: الذات، أي: أنّ ذات القاتل تُتلف كما أتلف ذات المقتول، وعين الفاقئ تُفقأ، وأنف الجاذع يجذع، وأذن الصالم تصلم، وسن القالع تقلع... ﴿**والجروح قصاص**﴾: القصاص مصدر قاصّه الدال على المفاعلة؛ لأنّ المجني عليه يقاص الجاني والجاني يقاص المجني عليه. والقصاص: المماثلة في العقوبة... ﴿**فمن تصدق**﴾: عفا عن القصاص... ﴿**فهو كفارة له**﴾: الكفارة هنا: محو ذنوب العافي مقابل عفوه... وقفّينا على آثارهم: التقفية: مصدر قفّاه إذا جعله يقفوه ـ يأتي بعده ـ، وفعله المجرد قفا، ومعنى قفاه: سار نحو قفاه، والقفا: الظهر، فالتقفية الاتباع، مشتقة من القفاء، ونظيره توجّه مشتقاً من الوجه، وتعقب من العقب، والآثار جمع أثر وهو التبع والعقب، معناه يتبعه ماشياً خلفه ناظراً إلى أثر قدميه... ﴿**مصدقاً لما بين يديه**﴾: المصدق المخبر بتصديق مُخْبِرٍ، ومعناه هنا: المؤيِّد المقرِّر... ﴿**وهدى وموعظة للمتقين**﴾: الموعظة: الكلام الذي يلين القلب ويزجر عن فعل المنهيات...

﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب**﴾: الكتاب الأول القرآن، فتعريفه للعهد، والكتاب الثاني جنس يشمل كل الكتب المتقدمة، فتعريفه

للجنس. . . ﴿**ومهيمناً عليه**﴾: المهيمن: اسم فاعل هيمن بوزن فيعل، ونظيره في الوزن سيطر وهينم، ومعناه الرقيب والحافظ والغالب. . . ﴿**ولا تتبع أهواءهم**﴾: الأهواء جمع الهوى، وهو ميلانُ النفس إلى ما تستلذ من الشهوات من غير داعية للشرع، وقيل سُمِيَ الهوى هوى؛ لأنّه يهوي بصاحبه إلى النار، ولا يستعمل في الغالب إلاّ فيما ليس بحق وفيما لا خَيْرَ فيه. . .

﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾: أصل الشرعة والشريعة الماء الكثير من نهر أو وادٍ، وسميت الديانة شريعة؛ لأنّ فيها شفاء النفوس وطهارتها، ولما فيها من الوسع والسهولة. والمنهاج: الطريق الواسع، والأصل الطريق الموصل إلى الماء. . . ﴿**ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة**﴾: معنى الجعل هنا: التقدير. والأمّة: الجماعة العظيمة الذين دينهم ومعتقدهم واحد، وأصل الأمّة في كلام العرب: القوم الكثيرون الذين يرجعون إلى نسب واحد، ويتكلمون بلسان واحد. . . ﴿**ولكن ليبلوكم فيما آتاكم**﴾: ليختبركم بظهور استعدادكم لاختيار طرق الخير وأضدادها. فيما آتاكم من العقل والنظر فيظهر مقدار عملكم بها. . . ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾: الاستباق: التسابق والتبادر بالمنافسة في أخذ الصالح المُفيد.

مبحث الإعراب

﴿**ياأيُّها**﴾ يا حرف نداء، أيُّ منادى مبني على الضم في محل نصب. ها للتنبيه. ﴿**الرسولُ**﴾ نعت لأيُّ على لفظها. ﴿**لا**﴾ ناهية. ﴿**يحزنك**﴾ مجزوم بلا، والضمير فيه مفعول به. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع فاعل. ﴿**يسارعون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**في الكفر**﴾ متعلق بالفعل. ومثله ﴿**من الذين**﴾ لأنّه بيان له. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**آمنا**﴾ كذلك، وهو في محل نصب مقول القول. ﴿**بأفواههم**﴾ متعلق بقالوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ولم تؤمن**﴾ الفعل مجزوم بلم. ﴿**قلوبهم**﴾ فاعل، والجملة معطوفة على قالوا. ﴿**ومن الذين**﴾ معطوف على الذين قالوا. ﴿**هادوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**سمّاعون**﴾ مرفوع بالواو خبر لمبتدإ محذوف، أي: هم سمّاعون. ﴿**للكذب**﴾ متعلق بسمّاعون. ﴿**سمّاعون**﴾ مثلها من كونها مبتدأ وخبراً. ﴿**لقوم**﴾ متعلق بسمّاعون. ﴿**آخرين**﴾ نعت لقوم مجرور بالياء. ﴿**لم يأتوك**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، والواو فاعل،

والكاف مفعول به، والجملة صفة ثانية لقوم. ﴿**يحرّفون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الكلم**﴾ مفعول به. ﴿**من بعد مواضعه**﴾ الضمير مضاف إلى مواضع، ومواضعه مضاف إلى بعد، ومن بعد متعلق بالفعل قبله، وجملة يحرّفون صفة ثالثة لقوم. ﴿**يقولون**﴾ جملة بيانية. ﴿**إن أوتيتم**﴾ فعل الشرط. ﴿**هذا**﴾ مفعول ثان. ﴿**فخذوه**﴾ جواب الشرط في محل جزم، والجملة في محل نصب مقول القول.

﴿**وإن لم تؤتوه فاحذروا**﴾ جملة من فعل الشرط وجوابه معطوفة على جملة الشرط السابق. ﴿**ومن يرد الله فتنته**﴾ جملة من فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه شرطية. جوابها ﴿**فلن تملك له من الله شيئاً**﴾. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع خبره. ﴿**لم يرد**﴾ الفعل مجزوم بلم. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل. ﴿**أن يطهّر قلوبهم**﴾ في تأويل مصدر مفعول يرد، أي تطهيرَ قلوبهم وجملة لم يرد الله صلة الذين. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**في الدنيا**﴾ مثلها. ﴿**خزي**﴾ مبتدأ مؤخّر. ﴿**ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ معطوف على لهم في الدنيا، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**سمّاعون للكذب**﴾ مثل سمّاعون السابقة. ﴿**أكّالون**﴾ كذلك. ﴿**للسحت**﴾ متعلق بأكّالون. ﴿**فإن جاءوك**﴾ فعل الشرط مفرّع عمّا قبله. ﴿**فاحكم**﴾ جواب الشرط. ﴿**بينهم**﴾ متعلق باحكم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أو أعرض عنهم**﴾ معطوف على فاحكم بينهم، وهما في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وإن تعرض عنهم**﴾ جملة شرطية معطوفة على ما قبلها. ﴿**فلن يضروك شيئاً**﴾ جواب الشرط في محل جزم، وشيئاً هنا مفعول مطلق. ﴿**وإن حكمت**﴾ فعل الشرط. ﴿**فاحكم بينهم**﴾ جوابه. ﴿**بالقسط**﴾ متعلق باحكم.

﴿**إنّ الله يحبُّ**﴾ جملة يُحِبُّ خبرُ إنّ، والله اسمها. ﴿**المقسطين**﴾ مفعول يحب، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**وكيف يحكمونك**﴾ كيف استفهام تعجيبي في محل نصب حال من فاعل يحكمونك، ويحكمونك جملة من فعل وفاعل ومفعول. ﴿**وعندهم التوراةُ**﴾ جملة حالية. ﴿**فيها**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدّم. ﴿**حكمُ**﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى حكم مجرور بالكسرة. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف. ﴿**يتولون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بيتولّون. ﴿**ذلك**﴾ مضاف إلى بعد في محل جر. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، ما بمعنى ليس. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع اسم ما. ﴿**بالمؤمنين**﴾ خبرها مجرور بحرف الجر

الزائد لفظاً وفي محل نصب معنًى. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أنزلنا**﴾ فعل وفاعل في محل رفع خبرُ إنّ. ﴿**التوراة**﴾ مفعول به. ﴿**فيها**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدّم. ﴿**هدًى**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**ونورٌ**﴾ معطوف على هُدًى، والجملة في محل نصب حال من التوراة. ﴿**يحكم**﴾ فعل مضارع. ﴿**بها**﴾ متعلق بيحكم. ﴿**النبيئون**﴾ فاعل مرفوع بالواو.

﴿**الذين**﴾ في محل رفع نعت. ﴿**أسلموا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**للذين**﴾ متعلق بيحكم. ﴿**هادوا**﴾ صلة الذين. ﴿**والربانيون**﴾ معطوف على النبيئون. ﴿**والأحبارُ**﴾ مثله. ﴿**بما**﴾ متعلق بيحكم. ﴿**استحفظوا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿**من كتاب**﴾ متعلق باستحفظوا. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى كتاب مجرور بالكسرة. ﴿**وكانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**عليه**﴾ متعلق ﴿**بشهداء**﴾ وهو خبر كان منصوب بالفتحة. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتفريع والترتيب، ﴿**لا**﴾ ناهية. ﴿**تخشوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف النون، والواو فاعل. ﴿**الناس**﴾ مفعول به. ﴿**واخشوني**﴾ فعل أمر، والواو فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول، والجملة معطوفة على قوله فلا تخشوا. ﴿**ولا تشتروا**﴾ معطوف على قوله فلا تخشوا الناس واخشون. ﴿**بآياتي**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ثمناً**﴾ مفعول به. ﴿**قليلاً**﴾ نعت له. ﴿**ومَنْ**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**لم**﴾ حرف نفي وجزم. ﴿**يحكم**﴾ مجزوم بلم، وجملة لم يحكم في محل جزم فعل الشرط. ﴿**بما**﴾ متعلق بيحكم. ﴿**أنزل الله**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**فأولئك**﴾ الفاء رابطة للجواب، أولئك في محل رفع مبتدأ. ﴿**هم**﴾ ضمير فصل. ﴿**الكافرون**﴾ خبر المبتدإ، وجملة فأولئك في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وكتبنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بكتبنا. ﴿**فيها**﴾ كذلك. ﴿**أنّ النفس**﴾ أنّ واسمها. ﴿**بالنفس**﴾ متعلق بمحذوف خبر أنّ، أي: أنّ النفس تقتل بالنفس. ﴿**والعين**﴾ معطوف على النفس. ﴿**بالعين**﴾ مثل بالنفس، أي: أنّ العين تُفقأ بالعين وكذلك ﴿**الأنف بالأنف والأذن بالأذن والسّن بالسّن والجروح**﴾ معطوف على النفس. ﴿**قصاص**﴾ خبرُ أنّ، ومفعول كتبنا المصدر المنسبك مع أنّ النفس. ﴿**فمن**﴾ الفاء للتفريع، ومن اسم شرط جازم. ﴿**تصدّق**﴾ فعل الشرط، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**به**﴾ متعلق بتصدّق. ﴿**فهو**﴾ الفاء رابطة للجواب، هو مبتدأ. ﴿**كفّارةٌ**﴾ خبرُه. ﴿**له**﴾ متعلق بكفّارة، أو بمحذوف نعت لكفارة. ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم**

الظالمون﴾ إعرابها مثل إعراب قوله: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. **﴿وقفّينا﴾** فعل وفاعل. **﴿على آثارهم﴾** متعلق بقفينا. **﴿بعيسى﴾** كذلك. **﴿ابن﴾** نعت لعيسى. **﴿مريم﴾** مضاف إلى ابن مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث. **﴿مصدقاً﴾** حال من عيسى. **﴿لما﴾** متعلق بمصدقاً. **﴿بين﴾** ظرف متعلق بمحذوف صلة ما. **﴿يديه﴾** مضاف إلى بين، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿من التوراة﴾** بيان لما. **﴿وآتيناه الإنجيل فيه﴾** آتيناه فعل وفاعل ومفعول، الإنجيل مفعول ثانٍ والجملة معطوفة على ما قبلها. **﴿فيه﴾** جار ومجرور متعلق بما قبله خبر مقدم. **﴿هدًى﴾** مبتدأ مؤخر وأصلها هديٌ. **﴿ونورٌ﴾** مبتدأ معطوف على هدًى. **﴿ومصدقاً﴾** حال من الإنجيل. **﴿لما بين يديه من التوراة﴾** مثل ما سبق إعرابه. **﴿وهدًى﴾** معطوف على مصدقاً. **﴿وموعظة﴾** معطوف على هدًى. **﴿للمتقين﴾** متعلق بموعظة. **﴿وليحكم﴾** الواو للعطف، واللام لام الأمر، يحكم فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. **﴿أهلُ﴾** فاعل يحكم. **﴿الإنجيل﴾** مضاف إلى أهل. **﴿بما﴾** متعلق بيحكم. **﴿أنزل الله﴾** فعل وفاعل، والجملة صلة ما. **﴿فيه﴾** متعلق بأنزل. **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾** مثل ما سبق في إعراب قوله: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. **﴿وأنزلنا﴾** فعل وفاعل. **﴿إليك﴾** متعلق بأنزلنا. **﴿الكتاب﴾** مفعول به. **﴿مصدقاً﴾** حال من الكتاب.

﴿لما﴾ متعلق بمصدق. **﴿بين﴾** متعلق بمحذوف صلة ما. **﴿يديه﴾** مضاف إلى بين، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿من الكتاب﴾** بيان لما. **﴿ومهيمناً﴾** معطوف على مصدقاً. **﴿عليه﴾** متعلق بمهيمنٍ. **﴿فاحكم﴾** الفاء للتعقيب، احكم فعل أمر. **﴿بينهم﴾** ظرف متعلق باحكم، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿بما﴾** متعلق باحكم. **﴿أنزل الله﴾** فعل وفاعل، والجملة صلة ما. **﴿ولا﴾** الواو للعطف، لا ناهية. **﴿تتبع﴾** فعل مضارع مجزوم بلا الناهية. **﴿أهواءهم﴾** مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿عمّا﴾** جار ومجرور متعلق بقوله: ولا تتبع. **﴿جاءك﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على ما، وضمير المخاطب مفعول به. **﴿من الحق﴾** متعلق بجاءك. **﴿لكل﴾** جار ومجرور متعلق بجعلنا. **﴿جعلنا﴾** فعل وفاعل. **﴿منكم﴾** متعلق بمحذوف نعت لما تضمنه التنوين. **﴿شرعة﴾** مفعول به. **﴿ومنهاجاً﴾** معطوف عليه، أي: جعلنا لكل أمة كائنة منكم شرعة ومنهاجاً. **﴿ولو﴾** الواو

للعطف، لو حرف امتناع لامتناع شرطية. ﴿**شاء الله**﴾ فعل الشرط. ﴿**لجعلكم**﴾ جواب الشرط. ﴿**أُمَّةً**﴾ مفعول ثان. ﴿**واحدةً**﴾ نعت له. ﴿**ولكن**﴾ الواو حرف عطف، لكن حرف استدراك.

﴿**ليبلوكم**﴾ اللام للتعليل، يبلو فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير يعود على الله، وضمير المخاطب مفعول به، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، والجار والمجرور متعلق بمحذوف يُؤْخَذُ من سياق الكلام، أي: ولكن شاء ذلك لأجل بلائكم، بمعنى الاختبار وإظهار حقيقة الإيمان. ﴿**فاستبقوا**﴾ الفاء للتفريع، استبقوا فعل أمر. ﴿**الخيرات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة لأنّه جمع مؤنث سالم. ﴿**إلى الله**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدّم. ﴿**مرجعُكم**﴾ مبتدأ مؤخر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**جميعاً**﴾ حال من ضمير المخاطب. ﴿**فينبئكم**﴾ الفاء للتعقيب، ينبئ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، وضمير المخاطب مفعول به. ﴿**بما**﴾ متعلق بينبئ. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**فيه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**تختلفون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وجملة كنتم فيه تختلفون صلة ما. ﴿**وأن**﴾ حرف تفسير. ﴿**احكم**﴾ فعل أمر. ﴿**بينهم**﴾ متعلق به وكذلك بما أنزل الله فعل وفاعل صلة ما. ﴿**ولا تتبع أهواءهم**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**واحذرهم**﴾ معطوف على احكم. ﴿**أن يفتنوك**﴾ فعل مضارع مؤول بمصدر مفعول احذر. ﴿**عن بعض**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل جر مضاف إلى بعض. ﴿**أنزل الله**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**إليك**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**فإن**﴾ الفاء للتفريع، إن حرف شرط جازم. ﴿**تولّوا**﴾ فعل وفاعل في محل جزم فعل الشرط. ﴿**فاعلم**﴾ جواب الشرط. ﴿**أنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**يريد الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أن يصيبهم**﴾ أنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول يريد. ﴿**ببعض**﴾ متعلق بيصيب. ﴿**ذنوبهم**﴾ مضاف إلى بعض، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿**وإنّ كثيراً**﴾ إنّ واسمها. ﴿**من الناس**﴾ متعلق بمحذوف نعت للناس. ﴿**لفاسقون**﴾ خبرُ إنّ. ﴿**أفحكم**﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء عاطفة، والمعطوف عليه مقدّر يقتضيه المقام، أي: أيتولون عن حكمك فيرضون حكم الجاهلية! ﴿**الجاهلية**﴾ مضاف إلى حكم. ﴿**يبغون**﴾ فعل وفاعل، ومفعول يبغون حكم

الجاهلية. ﴿**ومن**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**أحسن**﴾ خبره. ﴿**من الله**﴾ متعلق بأحسن. ﴿**حكماً**﴾ تمييز. ﴿**لقوم**﴾ لا متعلق له، مثل: سقياً لك، وهيتَ لك. ﴿**يوقنون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر نعت لقوم.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ياأيّها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾: خوطب عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للتشريف والإشعار بما يوجب عدم الحزن. وربط هذا الموضوع بما سبقه واضح جليّ؛ لأنّ اليهود والنصارى أخذ الله عليهم العهد بأن يلتزموا بشريعة الله التي أنزلها على أنبيائه فنقضوا العهد بما ذكر عنهم فيما تقدم، وأنّ الله تعالى بعث رسولَه محمداً ﷺ ليدعوا الناس إلى شريعة الله التي حاد عنها اليهودُ والنصارى؛ فأبطلوا أحكامَها وحكّموا العرف وما اصطلح عليه الناس، وأنّ عليه أن يحكم بينهم بما أنزل الله، ويحذّره أن يتسامح في تنفيذ شريعة الله كاملة، أوْ أن يتبع أهواءهم تأليفاً لقلوبهم أو اتّقاءً لشرّهم، وأن لا يحفل بمن يتولى منهم حين يحكم بينهم بالحق، فلا يعجبه هذا الحق؛ لأنّ شريعة الله يجب أن تنفذ رضي الناس أم كرهوا، ولا يجوز أن تخضع أبداً لأهواء الناس، إنّما يجب أن تخضع لها أهواء الناس.

فالقضية هنا ليست قضية كونه محمد بن عبدالله، وإنّما القضية قضية كونه رسول الله، فلا يحزنه ما يقع من مسارعة بعض الناس في الكفر، فلا على الرسول إلاّ أداء الرسالة، وليس له أن يتراضى معهم على حلٍّ وسط، فإنّه لا يملك إلاّ التبليغ. واختير في عبارة (يسارعون في) على عبارة (يسارعون إلى) للإيماء إلى أنّهم مستقرون في الكفر لا يبرحونه، وإنّما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلى بعض آخر منها!. والتعبير عن الكافرين بالموصول (الذين يسارعون في الكفر) للإشارة بما في حيّز صلته إلى مدار الحزن، وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهياً للكفرة عَنْ أَنْ يُحْزِنُوا الرسولَ بمسارعتهم في الكفر، لكنه في الحقيقة نهي للرسول ﷺ عن التأثر من ذلك والمبالاة بهم على أبلغ وجه وآكده، فإنّ النهي عن أسباب الشيء ومبادئه المؤدية إليه، نهي عنه بالطريق البرهاني وقلع له من أصله، أي: لا تجعلهم يحزنوك، بمعنى لا تهتم بما يفعلون مما شأنه أن يُدخل الحُزْن على نفسك، وهذا استعمال شائع، وهو من استعمال المركب في معناه الكنائي.

وإسناد الإحزان إلى الذين يسارعون في الكفر مجاز عقلي ليست له حقيقة؛ لأنّ الذين يسارعون سبب في الإحزان، وأما مثير الحزن في نفس المحزون فهو غير معروف في العرف، فهو من المجاز الذي ليست له حقيقة. ومعنى المسارعة في الكفر إظهار آثاره عند أدنى مناسبة وفي كل فرصة، فشبه إظهاره المتكرر بإسراع الماشي إلى الشيء، وعُدِّيَ بفي الدالة على الظرفية للدلالة على أنّ الإسراع مجاز بمعنى التوغل؛ فيكون في قرينة المجاز، فجعل الكفر بمنزلة الظرف، وجعل تخبطهم فيه وشدّة ملابستهم إيّاه بمنزلة جولان الشيء في الظرف؛ جولاناً بنشاط وسرعة!. ونظيره قوله: يسارعون في الإثم ـ نُسارع لهم في الخيرات ـ «أولئك يسارعون في الخيرات»، فهي استعارة متكررة في القرآن وكلامِ العرب...

﴿**من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم**﴾: هذا بيان للذين يسارعون في الكفر، والمراد بهم المنافقون... ﴿**ومن الذين هادوا**﴾: معطوف على الذين قالوا آمنا بأفواههم، والمراد بهم اليهود، وبه يتم بيان المسارعين في الكفر بتقسيمهم إلى قسمين: المنافقين واليهود... ﴿**سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تُؤتوه فاحذروا**﴾: جملةُ سمّاعون للكذب جارية مجرى التعليل للنهي، فإنّ كونهم سمّاعين للكذب وابتناء أمورهم على ما أُصّل له من الأباطيل والأراجيف مما يقتضي عدم المبالاة بهم، وترك الاعتداد بما يأتون وما يذرون؛ للقطع بظهور بطلان أكاذيبهم، واختلال ما بنوا عليها من الأفاعيل الفاسدة المؤدّية إلى الخزي والعذاب. وقوله: سماعون لقوم آخرين لم يأتوك خبر ثانٍ عن المبتدإ المحذوف، والمعنى: أنّهم يقبلون ما يأمرهم به قوم آخرون لم يأتوك، وهم الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه، ويقولون لهم محرّضين: إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تُؤْتَوْهُ فاحذروا. وقال هنا: من بعد مواضعه، وفي سورة النساء: عن مواضعه؛ لأن آية سورة النساء في وصف اليهود كلهم وتحريفهم في التوراة، فهو تغيير كلام التوراة بكلام آخر؛ عن جهلٍ أو قصد أو خطإ في تأويل معاني التوراة أو في ألفاظها، فكان إبعاداً للكلام عن مواضعه، وأمّا هاتِهِ الآية ففي ذكر طائفة معينة أبطلوا العمل بكلام ثابت في التوراة؛ إذ ألغوا كثيراً من الأحكام، مثل الرجم في الزنى، والقصاص في القتل، فهذا أشدّ جرأة من التحريف الآخر، فكان قوله: من بعد مواضعه أبلغ في تحريف الكلام؛ لأنّ لفظ (بعد) يقتضي أنّ مواضع الكلم

مستقرة، وأنّه أبطل العمل بها مع بقائها قائمة في كتاب التوراة. تأمّل!!..

﴿**ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً**﴾: هذه الجملة مقررة لما قبلها ومبينة لعدم انفكاكهم عن القبائح المذكورة أبداً. وما في اسم الإشارة من معنى البعد في قوله: ﴿**أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم**﴾، للإيذان ببعد منزلتهم في الفساد، والجملة مبيّنة لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم وقبح صنيعهم الموجب لها... ﴿**لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾: ضمير لهم في الجملتين للمنافقين واليهود، وتكرير لهم مع اتحاد المرجع لزيادة التقرير والتأكيد، وتنكير خزي للتضخيم والتهويل، وكذلك عذاب، مع زيادة وصفه بالعظمة!. والجملتان استئناف مبني على سؤال نشأ من تفصيل أفعالهم وأحوالهم الموجبة للعقاب، كأنّه قيل: فما لَهُم من العقوبة؟. فقيل: لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم!.. ﴿**سمّاعون للكذب**﴾: هذا تأكيد لما قبله وتمهيدٌ لما بعده من قوله... ﴿**أكّالون للسحت**﴾: ومعنى أكّالون للسحت: أخّاذون له، فالأكل استعارة لتمام الانتفاع الجسمي... ﴿**فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم**﴾: لمّا بيّن تفاصيل أمورهم الواهية وأحوالهم المختلفة الموجبة لعدم المبالاة بهم وبأفاعيلهم حسبما أمر الله به نبيئه، خوطب ببعض ما يبتنى عليه من الأحكام بطريق التفريع...

﴿**وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً**﴾: هذا بيان لحال الأمرين إثر تخييره بينهما. وتقديم حال الإعراض على قوله: ﴿**وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط**﴾، للمسارعة أن لا ضرر فيه حيث كانت مظنة الضرر، وتنكير شيئاً للتحقير... ﴿**إنّ الله يحب المقسطين**﴾: تعليل للحكم بالعدل وتحريض عليه... ﴿**وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين**﴾: هذا الأسلوب فيه تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، والحال أنّ الحكم منصوص عليه في كتابهم الذي يدّعون الإيمان به، وتنبيه على أنّهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنّما طلبوا به ما هو أهون عليهم، وإن لم يكن ذلك حكم الله على زعمهم!. والإشارة في قوله: من بعد ذلك إلى الحكم المستفاد من قوله: يحكّمونك، وهذه غاية التعنّت المستوجبة للعجب في كلتا الحالتين!..

وما أولئك بالمؤمنين: تذييل مقرّرٌ لفحوى ما قبله، ووضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للقصد إلى إحضارهم في الذهن بما وُصِفُوا به من القبائح إيماءً إلى علة الحكم؛ وإلى أنّهم قد تميزوا بذلك عن غيرهم أكمل تمييز، حتى انتظموا في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد مصيرهم في العتوّ والمكابرة!.. **﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾**: لمّا وصف التوراة بأنّ فيها حكم الله استأنف ثناءً عليها وعلى الحاكمين بها، ووصفها بالنزول ليدل على أنّها وحي من الله، فاستعير النزول لبلوغ الوحي؛ لأنّه بلوغ شيء من لدن عظيم، والعظيم مكانتُه عالية. والنّورُ استعارة للبيان والحق... **﴿يحكم بها النبيئون﴾**: هذه الجملة بيان لرفعة رتبة التوراة وسموّ طبقتها. وتقديم الجار واالمجرور على الفاعل للاعتناء بشأن المقدّم، والتشويق إلى المؤخّر...

﴿الذين أسلموا﴾: صفةٌ أُجريت على النبيئين على سبيل المدح. وهذه الصفة ذات دلالة هنا: فالإسلام هو صفةُ الأنبئاء جميعاً، كُلُّهم أسلموا أمورهم كلّها لله جميعاً، وفيه رفع لشأن المسلمين وتعريض باليهود، وأنّهم بمعزل عن الإسلام والاقتداء بدين الأنبئاء عليهم السلام، لا سيّما مع ملاحظة ما وصفوا به في قوله: **﴿للذين هادوا... والربّانيون والأحبار﴾**: معطوف على قوله: يحكم بها النبيئون. وتوسيط المحكوم لهم بين المعطوفين؛ للإيذان بأنّ الأصل في الحكم بها وحمل الناس على ما فيها هم النبيئون، وإنّما الربانيّون والأحبار خلفاء ونوّابٌ لهم في ذلك، كما ينبئ عليه قوله... **﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾**: الاستحفاظ: الذي هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم والتبليغ للأمة بما هو عليه. وكتاب الله: هو التوراة، فهو من الإظهار في مقام الإضمار، ليتأتّى التعريف بالإضافة المفيدة لتشريف التوراة وتمجيدها بإضافتها إلى الله تعالى...

﴿وكانوا عليه شهداء﴾: شهداء على حفظه من التبديل، فحرف (على) هنا دال على التمكن، بمعنى: وكانوا حفظة على كتاب الله وحراساً له من سوء الفهم وسوء التأويل، ويحملون أتباعَه على حق فهمه وحق العمل به، ولذلك عقبه بجملة **﴿فلا تخشوا الناس واخْشونِ﴾** المتفرعة بالفاء على قوله: وكانوا عليه شهداء؛ إذ الحفيظ على الشيء الأمين حق الأمانة لا يخشى أحداً في القيام بوجه أمانته، ولكنه يخشى الذي استأمنه... **﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾**: هذه

الجملة وما قبلها خطاب عام يتناول فيه السابقين والحاضرين واللاحقين، بأن لا تقف خشية الناس في طريق الشريعة؛ سواء منهم الطغاة الذين ينحرفون عن شريعة الله ويعطلونها، أو الجماهير المضلّلة التي قد تستثقل أحكام الشريعة وتشغب عليها. كذلك لا يجوز أن يسكت حماة الشريعة عن مخالفتها لقاء ثمن قليل من عرض الدنيا؛ مهما يكثر فهو قليل، ومهما يعظم فهو ضئيل؛ لأنّه معدود محصور الكميّة، ومحدود مقصور على الدنيا الدنّية. ومن ثم يعقب بهذا الحكم الصارم الجازم الحازم الذي لا تردد فيه ولا عوج ولا تصافح فيه ولا وسط. . .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾: لأنّهم زعموا لأنفسهم بُصُراً بمصالح العباد أنفذ من بصر الله، أو لأنّهم جحدوا ما أنزل فأطرحوه، أو لأنّهم علموا فيه الخير، ولكنهم آثروا هواهم ومصالحهم على طاعة أمر الله. وفي مقدمة هؤلاء من يقول: إن شريعة الله لا تصلح لهذا الزمان، وإنّهم يراعون مصلحة الأمّة حين يحكمون بشرائع أخرى غير شريعة الله. والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير، وتحذير عن الإخلال به أشد تحذير، حيث علق فيه الحكم بالكفر لمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى، فكيف وقد انضم إليه الحكم لخلافه، لا سيّما مع مباشرة ما نهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضعه، وادّعاء أنّه من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. . .

﴿وكتبنا عليهم فيها أنّ النفس بالنفس﴾. . . الخ: مناسبة عطف هذا الحكم على ما تقدم أنّ اليهود غيروا أحكام القصاص، كما غيّروا أحكام حد الزنى والسرقة. والكتْبُ هنا مجاز في التشريع والغرض، بقرينة تعدّيه بحرف على، وهذا الحكم مسطور في التوراة كما اقتضت تعدية فعل كتبنا بحرف في، فهو من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه. ولام التعريف في المواضع الخمسة داخلة على عضو المجني عليه، ومجرورات الباء الخمسة على أعضاء الجاني. وفائدة الإعلام ـ بما شرع الله لبني إسرائيل في القصاص هنا ـ زيادة تسجيل مخالفتهم لأحكام كتابهم، وأنّ هذا القصاص وارد ومقرر في جميع شرائع الأنبئاء، فمن حكم بغيرها فقد تعدى حدود الله، غير أنّ النص يفتح ثغرة للعفو ويحرص عليه؛ لأنّ العفو لما كان من حق ثابت بيد مستحق الأخذ بالقصاص جعل إسقاطه كالعطية؛ ليشير إلى فرط ثوابه، وبذلك يتبيّن أنّ معنى كفارة له: أنّه يكفر عنه ذنوباً عظيمة، لأجل

ما في هذا العفو من جلب القلوب وإزالة الإِحَن واستبقاء نفوس وأعضاء الأمة.

وعاد فحذّر من مخالفة حكم الله فقال: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾**: لينبّه على أنّ الترغيب في العفو لا يقتضي الاستخفاف بالحكم وإبطال العمل به؛ لأنّ حكم القصاص شُرع لِحِكَمٍ عظيمةٍ؛ منها الزجر، ومنها جبر خاطر المعتدى عليه، ومنها التفادي من ترصّد المعتدى عليهم للانتقام من المعتدين أو من أقوامهم، فإبطال الحكم بالقصاص يعطل هذه المصالح، وهو ظلم؛ لأنّه غمط لحق المعتدى عليه أو وليه، وأمّا العفو عن الجاني فيحقق جميع أو يزيد مصلحة التحابب؛ لأنّه عن طيب نفس. وقد تغشى غباوة حكام بني إسرائيل على أفهامهم فجعلوا إبطال الحكم بمنزلة العفو، فهذا وجه إعادة التحذير عقب استحباب العفو، وبه يتعين رجوع هذا التحذير إلى بني إسرائيل مثل سابقه...

﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً﴾... الخ: هذا بيان نوع آخر من إعراض اليهود عن الأحكام التي كتبها الله عليهم، وحيث أعرضوا عن حكم الرسول ﷺ وأعرضوا عن حكم التوراة، وهذا إعراض ثالث، حيث أعرضوا عن حكم ما جاء في الإنجيل، وبهذا تتكامل فيهم أوصاف ثلاث: الكفر والظلم والفسق. ودخل النصارى مع اليهود في نتيجة الحكم؛ لأنّهم كفروا بمحمد ﷺ كما كفر اليهود...

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾... الخ: أخيراً يصل السياق إلى الرسالة الأخيرة، وإلى الشريعة الخاتمة في الكتاب الأخير؛ فكل الحكم يجب أن يرجع إلى هذا الكتاب الذي يتضمن الباقي من شريعة الله كلها في كل كتاب، ويضمها في الصورة الأخيرة الباقية إلى يوم القيامة. وسياقُ قوله: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق، إتمامٌ لترتيب نزول الكتُب وتمهيد لقوله: **﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾**، وسياق قوله: فاحكم بينهم بما أنزل الله سياقُ التخلص المقصود؛ فجاءت الآيات كلها منتظمة متناسقة على أبدع وجه. وقد أشارت الآية إلى حالتي القرآن بالنسبة لما قبله من الكتب، فهو مؤيد لبعض ما في الشرائع مقرِّرٌ له من كل حكم كانت مصلحته كليّة، لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف محقِّقٌ ومقرِّرٌ، وهو أيضاً مبطل لبعض ما في الشرائع السالفة، وناسخ لأحكام

كثيرة من كل ما كانت مصالحه جزئية مؤقتة مراعى فيها أحوال أقوام خاصة.

وقوله... ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾: كالتعليل للنهي، أي: إذا كانت أهواءهم في متابعة شريعتهم أو عوائدهم فدعهم وما اعتادوه وتمسكوا بشرعكم. وسميت الديانة شريعة على التشبيه بالماء الكثير لما فيهما من حياة النفوس، والعرب تُشبّهُ بالماء وأحوالِه كثيراً. والمنهاج: الطريق الواسع، وهو هنا تخييل أُرِيدَ به طريق القوم إلى الماء... ﴿**وأن احكم بينهم**﴾... الخ: تكرير الكلام توكيد لما سبق، وليبنى عليه ما لحق، فتأكّد الغرض بذكره مرتين مع تفنُّنِ الأسلُوب وبداعته، فصار التقدير: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق أن احكم بينهم بما أنزل الله فاحكم بينهم به، ومما حسّن عطف التفسير هنا طول الكلام الفاصل بين الفعل المفسر وبين تفسيره. وذيل هذا الكلام بقوله: وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون؛ ليهون عنده بقاؤهم على ضلالهم إذ هو شنشنة أكثر الناس فهؤلاء منهم، فالكلام كناية عن كونهم فاسقين...

﴿**أفحكم الجاهلية**﴾... الخ: فرعت الفاء على مضمون قوله: فإن تولوا فاعلم... الخ استفهاماً عن مرادهم من ذلك التولي. والاستفهام إنكاري؛ لأنّهم طلبوا حكم الجاهلية... ﴿**ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾: إنّه استنكار لا يقف عند اليهود، إنّه استنكار لكل من يريد حكماً غيرَ حكم الله، فكل حكم سواه حكمُ جاهليةٍ، والجاهلية ليست فترة من التاريخ، إنّما هي حالة تتحقّق كلما تحققت مقوماتها في الحياة. الجاهلية رجوع بالحكم إلى غير قاعدة ثابتة، فتتحكم فيه أهواء الأفراد وأهواء الطبقات، وأهواء العصبيات والقوميات، ولا تثوب إلى أصل غير متأثر بكل تلك الملابسات، يشرّع فردٌ لجماعة فإذا هي جاهلية؛ لأنّ هواه هو القانون، أو رأيُه هو القانون؛ لكن أين القوم الذين يوقنون فيطبقون شريعة الله؟!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**ياأيُّها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾: الغرض من هذا التوجيه. يكاد يكون هذا الدرس خاصاً بموضوع الحكم والشريعة والتقاضي!. أيكون ذلك كله حسب ما أنزل الله على رسله، من مواثيقه وعهوده

وشرائعه التي استحفظ عليها الأمم واحدة بعد أخرى، وكتبها على الرسل، ثم على من يتولون الأمر من بعدهم؛ ليسيروا على هداهم؟. أم يكون حسب الأهواء المتقلبة والمصالح التي لا ترجع إلى أصل ثابت، والعرف الذي يصطلح عليه جيل أو أجيال؟.

والله يقول: إنّ شرائعه التي سنّها للناس وعاهدهم عليها وعلى القيام بها، هي التي يجب أن تحكم هذه الأرض، وهي التي يجب أن يتحاكم عليها الناس، وهي التي يجب أن يقضي بها الأنبئاء والحكام. والله يقول: إنّه لا هوادة في هذا الأمر ولا ترخُّصَ ولا انحراف، وأنّه لا عبرة بما تواضع عليه جيلٌ، أو لما اصطلح عليه قبيل مخالفاً لشرائع الله في كثير أو قليل. والله يقول: إنّه لا وسط بين الكفر والإيمان في هذه المسألة، فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله، والكافرون والظالمون والفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله، فالله هو الذي خلق الناس يعلم ما يَصْلُح للناس، ويضع شرائعه لتحقيق مصالح الناس، فليس لواحد من الناس أن يقول: إنّي أبصر بمصلحة الخلق من خالق الخلق ـ سواء لفظ بها أو لم يلفظ ـ هي التي ترتب عليها صفة الكفر؛ لأنّه يزعم أنّه أعلم من الله بمصالح العباد. وصفة الظلم؛ لأنّه مجاوز حدّه، فيظلم من يحكمهم ومن يقضي بينهم. وصفة الفسق؛ لأنّه يخرج عن طريق الله المرسوم في شريعته إلى طرائق قِدَداً ما أنزل الله بها من سلطان. وفي هذا الدرس يبيّن الله أنّ أصل التشريعات واحدٌ، وأنّ كثيراً منها فيها مشترك، فإذا انحرف الناس عنها فحكموا العرف والاصطلاح فما على الرسول الذي جاء مُصْلِحاً ومنفّذاً ومبشّراً إلاّ إظهارها للناس، وليس عليه بَعْدَ ذلك من شيء رضى الناس أم كرهوا!..

﴿ياأيُّها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إنْ أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تُؤْتَوْهُ فاحذروا﴾: في هذا العرض يظهر بوضوح الذين يسارعون في الكفر، وهم فريقان: فريق المنافقين؛ سواء كانوا من اليهود أو من غيرهم، وفريق اليهود الذين بقوا على يهوديتهم؛ سواء كانوا بجوار المسلمين في المدينة أو في غيرها من البقاع، ويدخل هذا العرض كذلك من سلك طريقهم في كل مكان وفي كل زمان

من مختلف الأشكال والألوان. وهؤلاء وهؤلاء من السابقين واللاحقين يسارعون في الكفر بتلاعبهم بأحكام الله التي أنزلها على رسله، فهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه؛

يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا، وهم يتعاملون مع الغير حسب ما عندهم من الأحكام الملفقة على حسب أغراضهم وشهواتهم، فإن جاء ما عند غيرهم مطابقاً لما عندهم قبلوه وعملوا به، وإن جاء مخالفاً رفضوه وجحدوه، واعتبروه مخالفاً لطبيعة الأشياء ونظام الحياة. وما روي أنّ هذه الآيات نزلت في قوم من اليهود ارتكبوا جرائم ـ يختلف الرواة في تحديدها ـ ذات عقوبات محددة ومعينة في التوراة اصطلح القوم على غيرها؛ لأنّهم لم يريدوا تطبيقها على الشرفاء منهم في مبدإ الأمر، ثم تهاونوا فيها بالقياس إلى الجميع، وأحلوا محلها عقوبات أخف، أو عقوبات تتأثر بمركز الناس وطبقاتهم، ثم أرادوا أن يستفتوا الرسول ﷺ فيها، حتى إذا أفتى بالعقوبات المخففة عملوا بها، وكانت لهم حجّة عند الله ـ في زعمهم ـ، فقد أفتاهم فيها رسول، وإن حكم فيها بمثل ما عندهم لم يأخذوا بحكمه، فدسُّوا بعضَهم يستفتيه. فلا يتعارض مع القاعدة التي تؤخذ من عرض التوجيه الشامل المبيّن لحكم كل من يتلاعب بشريعة الله تعالى. كيف العمل مع هؤلاء؟.

الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ لا عليك منهم، ولا يحزنك أن يكفروا ويتولّوا، فالله يجري سنته التي لا تتخلف، ومن سلك سبيل الفتنة فلابد أن يُفْتَن، وما من أحد يملك أن يَرُدَّ عنه هذه الفتنة، ولا أنت يا محمد... ﴿**ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً**﴾: لأنّ سنة الله لابد أن تجري ولا تتوقف، وهؤلاء ساروا في طريق الدنس، وعمرت قلوبهم بالشهوات فآثروها على الحق: ﴿**أولئك الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾!. وهكذا يتركهم هائمين في تيه الشهوات متلبسين بالخزي والعار في الحياة وفي الممات، عذاب لا يدخل تحت الحصر والتقييم!.

التوجيه الثاني: ﴿**سمّاعون للكذب أكّالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إنّ الله يحب المقسطين**﴾: في هذا التوجيه لفت النظر إلى ما عليه اليهود

من الأوصاف، وسوء القصد والمعاملة مع رسول الله محمد ﷺ؛ في هذا تأكيد عندما أعاد الله وصف اليهود بكثرة السّماع للكذب؛ زيادة لتقرير هذا الوصف الراسخ فيهم، وليهتم السامع بهذا الكلام ببيان أنّ أمرهم كله مبنيٌّ على الكذب، الذي هو شرُّ الرذائل وأضرُّ المفاسد، وليُدلّ على مَهَانَةِ نفوسِهِم ودناءة أخلاقهم، وكذلك انتشر بين أفرادها أكل السحت؛ لأنّها كانت تعيش بالمحاباة والرشاوى في الأحكام، ففسدت بينها أمور المعاملات، وكذلك استبدلت الطمع بالعفة.

وكان أحبار اليهود ورؤساؤهم في كل عصر من العصور الطويلة المليئة بالدنايا والمخازي، كذّابين أكّالين للسحت؛ من رشوة وغيرها من الدناءات، حتى صاروا قادة العالم في هذه الأوصاف ومعلميه!. ومادام هذا وصفهم، فكيف يكون الحال معهم؟. إنّ الآية توضح للرسول كيف يتعامل معهم بالوقوف أمامهم موقف الحاكم القادر على ردّ كيدهم، العادل في الحكم بينهم حسب المنهج المقرّر عنده لا كما يريدون هم... **﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾**: إنّ هؤلاء تركوا حكم التوراة التي يدّعون الإيمان بها؛ لأنّه لم يوافق أهواءهم، وجاءوك يطلبون حكمك رجاء أن يوافق أهواءهم، ثم يتولون ويعرضون عنه؛ إذ لم يأت وفق مرادهم. وقوله: وما أولئك بالمؤمنين حكم على اليهود بالكفر بالتوراة... **﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾**: إنّ التوراة كتاب الله فيها الهدى والنور، كما أنّ القرآن كتاب الله فيه الهدى والنور، فحكمهما واحد في الحدود والقصاص، والتوراة أنزلها الله ليحكم بها النبيئون الذين أسلموا، أي: النبيئون الصادقون الذين تمسكوا بدين الله؛ وهو الإسلام، أمّا الأدْعياء من اليهود الذين افتروا على الله الكذب، وقالوا أوحي إلينا، ونستطيع أن نوفق بين أهواء الناس وشهواتهم، وبين ما يدّعونه كذباً أنّها من مظاهر الدين، مثل الاحتفالات الدينية التي اخترعها هؤلاء الأدعياء!. **﴿والربانيون والأحبار﴾**: خلفاء الأنبئاء الصادقون، وهم الحكماء المربون البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم. والأحبار: الخبراء في الشريعة المطبّقون لأحكامها دون تحريف أو تبديل...

﴿بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾: والله سبحانه وتعالى أوصى الأنبياء والربانيين والأحبار بالخوف من الله وترك الخوف من الناس...

﴿**فلا تخشوا الناس واخشونِ**﴾!. وزيادة على هذا... ﴿**ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً**﴾!. وكل من لا ينفذ هذه الأحكام كما أنزلها الله يدخل تحت طائلة هذا الحكم الصارم الحاسم... ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾: هذا الحكم جاء مناسبة بما فعل اليهود في أحكام الله في التوراة، وهو يشمل كُلَّ من يفعل فعلهم من بقية الناس خصوصاً من يدّعي الإسلام من ولاة الأمور من القضاة والحكام، مثل من يلزم الناس بالحكم بغير ما أنزل الله من قوانين العالم وتشريعاته المناقضة لأحكام الله في القرآن، مثل ما هو واقع الآن!.

التوجيه الثالث: يوضح فيه الأحكام التي جاءت بها كتب الله المنزلة إلى الأنام؛ من التوراة والإنجيل والكتاب الجامع المهيمن المنزل على محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ. أولاً التوراة: ﴿**وكتبنا عليهم فيها**﴾... الخ: القصاص الذي جاءت به التوراة من الأحكام التي لم تُنسخ في حكم القرآن، فتبقى كما هي ما بقي الزمان.

ثانياً الإنجيل... ﴿**وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل**﴾... الخ: الإنجيل احتضن تشريعات التوراة فيما عدا بعض الأحكام التي فرضها الله عقوبات على اليهود، وحرّم عليهم بها بعض الطيبات التي كانت لهم حلالاً قبل المعصية، فجاء عيسى ـ عليه السلام ـ ليحل لهم بعض الذي حُرِّم عليهم. فأهل الإنجيل كانوا مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التي جاء بها الإنجيل؛ سواء منها ما تضمنته التوراة والتعديلات التي جاء بها عيسى؛ لأنّ القاعدة هي الحكم بما أنزل الله في كل زمان وفي كل مكان. ثالثاً القرآن الكريم: ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق**﴾... الخ: فيه الرسالة التي جاءت تعرض الإسلام ـ كما أراده الله كاملاً لا يناله بعد ذلك تعديل، أساساً للحياة البشرية المُقبلة كلها، تستمد منه آدابها وأخلاقها وشرائعها وقوانينها، بما تضمّن من مبادئ كلية تسمح للحياة بالنمو المتجدد، وتلبّي حاجات الحياة المتجدّدة دون اصطدام بالأصول الثابتة، والمبادئ العامة.. المسايرة لحاجات البشر ومداركهم، حتى إذا كشف للناس عن الحقائق الكبرى التي تقوم عليها أسس الحياة، انقطع الوحي ليتصرف العقل البشري في حدود تلك الحقائق الكبرى، بدون خوف من الزلل مادام يرعى تلك الحدود، ومن ثم فكل الحكم يجب أن يرجع إلى هذا

الكتاب الأخير، الذي يتضمن الباقي من شريعة الله كلها في كل كتاب، ويضعها في الصورة الأخيرة الباقية إلى يوم القيامة، وكل تشريع لا يستمد مما أنزل الله، فهو هوًى لا يثبت على قاعدة، ولا يرجع إلى مقياس واحد يتبيّن به الخطأ من الصواب، وهذا هو حكم الجاهلية الذي ارتضاه اليهود، ويرتضيه كل منحرف لا يخضع لما أنزل الله من الحدود، وهم الخاسرون في النهاية، وهم الكافرون، وهم الظالمون، وهم الفاسقون.

7 ـ تحذير المؤمنين من تولي الكافرين

النص

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (53) فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ (54) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ (55) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (56) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ (57) وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ

ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿58﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ
هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿59﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ
ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿60﴾ * قُلۡ
يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿61﴾ قُلۡ هَلۡ
أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ
أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿62﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ
بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿63﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ
وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿64﴾ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ
عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿65﴾
وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ
بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم
مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ
وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ

وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿66﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿67﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿68﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**أولياء**﴾: الولاية: الوفاق والوئام والصلة والمصافاة والمعاشرة، والأولياء: جمع ولي، وهو المحبُّ والصديق والنصير، ومصدره الوَلْيُ، وهو القرب... ﴿**بعضهم أولياء بعض**﴾: يوالي كل فريق بعض أهل فريقه، فاليهود موالون لبعضهم والنصارى موالون لبعضهم... ﴿**في قلوبهم مرض**﴾: مرض القلوب هنا: وهن الإيمان وضعفه... ﴿**دائرة**﴾: الدائرة اسم فاعل من دار إذا عكس سَيْرَهُ، فالدائرة تغير الحال، وغلب إطلاقها على تغير الحال من خير إلى شر، ودوائر الدهر نُوبُه ودوله... ﴿**أن يأتي بالفتح**﴾: يشمل الفتح فتح مكة، وفتح معاقل اليهود، والقضاء بالنصر على الأعداء، وإعزاز الدين... ﴿**أسروا في أنفسهم**﴾: ما كانوا يكتمونه من الكفر والشكّ في أمر محمد ﷺ... ﴿**نادمين**﴾: جمع نادم، وهو الآسف المتحسر على فوات الفرصة... ﴿**جهد أيمانهم**﴾: جهد الأيمان: أغلظها، وحقيقة الجهد التعب والمشقة ومنتهى الطاقة؛ أقسموا أقوى قسم، وذلك بالتوكيد والتكرير ونحو ذلك مما يُغْلظ به اليمين عُرْفاً... ﴿**حبطت**﴾: تلفت وفسدت... ﴿**يرتدد**﴾: الارتداد: مطاوع الرد، يقال: ردّه فارتدّ، ومعناه الإرجاع

إلى مكان أو حالة، قال: ردّوها عليّ، وقد يطلق الرد بمعنى التصيير «ومنكم من يرد إلى أرذل العمر»، وقد لوحظ في إطلاق اسم الارتداد على الكفر بعد الإسلام ما كانوا عليه قبل الإسلام من الشرك وغيره، ثم غلب اسم الارتداد على الخروج من الإسلام، ولو لم يسبق للمرتد عند اتخاذ دين قبله... ﴿**يحبهم**﴾: محبّةُ الله عبده: رضاه عنه وتيسير الخير له... ﴿**ويحبونه**﴾: محبة العبد ربه: انفعال النفس نحو تعظيمه والأنس بذكره وامتثال أمره والدفاع عن دينه، فهي صفة تحصل للعبد من كثرة تصور عظمة الله تعالى ونعمه، حتى تتمكّن من قلبه، فَمَنْشَؤُهَا السمع والتصور، وليست هي كمحبة استحسان الذات...

﴿**أذلّة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾: الأذلة والأعزة؛ وصفان متقابلان، وصف بهما القوم باختلاف المتعلق بهما، فالأذلة: جمع الذليل وهو الموصوف بالذل، والذُّلُ: الهوان والطاعة، فهو ضد العز، والمراد بالذل هنا: لينُ الجانب والتواضع. والأعزة: جمع العزيز، فهو المتصف بالعز، وهو القوة والاستقلال، ولأجل ما في طباع العرب من القوة صار العز في كلامهم يدل على معنى الاعتداء، ففي المثل: من عزَّ بزّ... ﴿**يجاهدون في سبيل الله**﴾: الجهاد: إظهار الطاقة في دفاع العدو، ونهاية الجهد: التعرض للقتل، ولذلك جيء به على صيغة مصدر فاعل؛ لأنّه يُظهر جهده لمن يُظهر مثله...

﴿**ولا يخافون لومة لائم**﴾: اللومة الواحدة من اللوم مصدر لام، وهو لائم ومُليم، ومعنى لامه: كدّره بالكلام؛ لإتيانه ما ليس جائزاً، أو ما ليس ملائماً لحال اللائم أو حال الملوم... ﴿**ذلك**﴾: إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة والذلة والعزة والمجاهدة وانتفاء خوف اللوْمَة... ﴿**فضل الله**﴾: عطاؤه الزائد الذي لا يحدّه حدٌّ ولا يحصيه عدٌّ... ﴿**واسع**﴾: كثير الفواضل... ﴿**عليم**﴾: مبالغ في علم من يستأهل لهذه الفواضل... ﴿**فإنّ حزب الله هم الغالبون**﴾: المراد بحزب الله: الرسول والمؤمنون، وأصل الحزب: القوم يجتمعون لأمْرٍ حَزَبَهُمْ... ﴿**هزؤاً ولعباً**﴾: الهزؤ: الاستهزاء والسخرية. واللعب: ضد الجد، وهو الهزل وعدم الاكتراث بالأمرِ المُهِمَ، واللعب بالدين والاستخفاف به، ويطلق اللعب على الفعل الذي يقصد به اللذة أو التنزّه أو غير قاصد به مقصداً صحيحاً، ويطلق على عمل الصبيان المتعب بدون فائدة، وكل فعل لا يُجْدي نفعاً... ﴿**هل**

تنقمون منّا إلاّ أن آمنا﴾: ليس لنا ذنب ولا ركبنا مكروها غير الإيمان، والمراد منه: الطعن والقدح فيما عليه المسلمون من الإيمان بالله، ونقم منه الأمر: أنكره عليه وعابه به بالقول أو بالفعل... **﴿أنبئكم﴾**: التنبئة: الإشعار بالأمر الخطير الذي له شأن من خير أو شرّ... **﴿مثوبة﴾**: المثوبة مشتقّة من ثاب يثوب، بمعنى: رجع، وسمي به الشيء الذي يثوب به الشخص إلى منزله، إذا ناله جزاء عن عمل عمله، أو سَعْيٍ سعَاهُ... **﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾**: القِرَدَةَ: جمع قرد، وهو حيوان معروف يضرب به المثل في الحقارَة. والخنازير: جمع خنزير، وهو حيوان معروف يضرب به المثل في الوساخة والوقاحة... **﴿وعبد الطاغوت﴾**: الطاغوت: كل طاغ متجبر يخضع له الناس بدون حقّ...

﴿أولئك﴾: الملعونون الممسوخون... **﴿شرٌّ مكاناً﴾**: الحقارة في الدنيا وعقاب النار في الأخرى... **﴿وأضل﴾**: أبعد في الضلال عن قصد الطريق الموصل إلى النجاة... **﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾**: دخلوا كافرين وخرجوا كافرين... يكتمون: الكتمان والكتم: الإخفاء، والمراد به إخفاء الكفر... **﴿يسارعون﴾**: المسارعة: المبادرة والمباشرة للشيء بسرعة... **﴿في الإثم﴾**: الإثم هنا: الذنب الذي تعود مضرته عليهم... **﴿والعدوان﴾**: الظلم والتعدي على حقوق غيرهم... **﴿والسحت﴾**: المال الحرام المتناول بينهم... **﴿يصنعون﴾**: الصنعة: التمكن من العمل والتدرب عليه حتى يصير ماهراً فيه فهو أخص من العمل... **﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾**: المراد بكلمة اليد هذه: الإمساك والقبض عن العطاء، وتطلق اليد في اللغة على عدّة معانٍ: الجارحة، والنعمة، والقدرة، والمُلك...

﴿غُلَّتْ أيديهم﴾: أمسكت وانقبضت عن العطاء وهو دعاء عليهم... **﴿يداه مبسوطتان﴾**: كثير العطاء حسبما تقتضيه المشيئة... **﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾**: إلقاء العداوة والبغضاء بينهم سجية ثابتة لا تنفك عنهم بحال... **﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾**: أوقد النار: أشعلها وزاد إلهابَها بما يضع فيها من الوقود. ونار الحرب: شدّة المقاتلة بين الخصمين. والإطفاء: الإخماد وإذهاب اللهب... **﴿منهم أمة مقتصدة﴾**: المقتصد: يطلق على المطيع، ويقابله المسرف المسترسل في ارتكاب الذنوب.

مبحث الإعراب

﴿**ياأيُّها الذين آمنوا**﴾ علم إعرابه مما سبق. ﴿**لا**﴾ ناهية. ﴿**تتخذوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**اليهود**﴾ مفعول أول. ﴿**والنصارى**﴾ معطوف عليه منصوب بفتحة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**أولياء**﴾ مفعول ثان منصوب بالفتحة. ﴿**بعضهم**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أولياءُ**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالضمة. ﴿**بعض**﴾ مضاف إلى أولياء مجرور بالكسرة، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ومن**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**يتولّهم**﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف الألف، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والضمير فيه مفعول به. ﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل يتولى. ﴿**فإنّه**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، إنّه إنّ واسمها. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ، والجملة مجزومة محلاً في جواب الشرط. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يهدي**﴾ فعل مضارع منفي بلا مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**القوم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**الظالمين**﴾ نعت للقوم منصوب بالياء، وجملة لا يهدي في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ الله لا يهدي تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿**فترى**﴾ الفاء للعطف والتفريع، ترى فعل مضارع مرفوع بضمة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**الذين**﴾ مفعول به في محل نصب. ﴿**في قلوبهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**مرض**﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الذين. ﴿**يسارعون**﴾ فعل وفاعل، والجملة حال من الذين. ﴿**فيهم**﴾ متعلق بيسارعون. ﴿**يقولون**﴾ فعل وفاعل، والجملة حال من الفاعل في يسارعون. ﴿**نخشى**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والفاعل نحن، وجملة نخشى في محل نصب مقول القول. ﴿**أن تصيبنا**﴾ مؤول بمصدر منصوب مفعول نخشى. ﴿**دائرةٌ**﴾ فاعل تصيب مرفوع بالضمة. ﴿**فعسى**﴾ الفاء للتعقيب، عسى فعل ماض ناقص. ﴿**اللهُ**﴾ اسمها مرفوع بالضمة. ﴿**أن يأتي**﴾ مؤول بمصدر منصوب خبر عسى. ﴿**بالفتح**﴾ متعلق بيأتي.

﴿**أو أمر**﴾ معطوف على الفتح. ﴿**من عنده**﴾ متعلق بمحذوف نعت لأمر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فيصبحوا**﴾ الفاء عاطفة سببية، يصبحوا معطوف على

يأتي منصوب بحذف النون، وواو الجماعة اسم يصبح. ﴿**على ما**﴾ متعلق به. ﴿**أسروا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**في أنفسهم**﴾ متعلق به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**نادمين**﴾ خبر يصبح. ﴿**يقول الذين**﴾ فعل وفاعل. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين، والجملة بيان لما قيل. ﴿**أهؤلاء**﴾ الهمزة للاستفهام، هؤلاء في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع خبره. ﴿**أقسموا**﴾ صلة الذين. ﴿**بالله**﴾ متعلق بأقسموا. ﴿**جهد**﴾ مفعول مطلق. ﴿**أيمانهم**﴾ مضاف إلى جهد، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إنّهم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لمعكم**﴾ اللام لتأكيد الخبر، والظرف متعلق بمحذوف خبر إنّ، والجملة جواب القسم. ﴿**حبطت أعمالهم**﴾ فعل وفاعل، والجملة بيان لما تقدم. ﴿**فأصبحوا**﴾ الفاء للتعقيب، وأصبحوا أصبح واسمها. ﴿**خاسرين**﴾ خبرها. ﴿**ياأيُّها الذين آمنوا**﴾ تقدم إعراب مثلها فيما سبق. ﴿**مَنْ**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**يرتدد**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**منكم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**عن دينه**﴾ مثله. ﴿**فسوف**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، سوف حرف يقصد به التسويف. ﴿**يأتي**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل مرفوع بالضمة. ﴿**بقوم**﴾ متعلق بيأتي. ﴿**يحبهم**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**ويحبونه**﴾ معطوف على يحبهم، وهو فعل وفاعل ومفعول، وجملة فسوف يأتي في محل جزم جواب الشرط، وجملة يحبهم في محل جر نعت لقوم. ﴿**أذلة**﴾ نعت لقوم مجرور بالكسرة. ﴿**على المؤمنين**﴾ متعلق بأذلة. ﴿**أعزة على الكافرين**﴾ كذلك.

﴿**يجاهدون**﴾ فعل وفاعل، والجملة نعت آخر لقوم. ﴿**ولا يخافون**﴾ معطوف على يجاهدون. ﴿**لومة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**لائم**﴾ مضاف إليه. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**فضل**﴾ خبره. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى فضل. ﴿**يؤتيه**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**مَنْ**﴾ مفعول ثانٍ ليؤتي. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة مَنْ، وجملة يؤتيه نعت لفضل، وجملة ذلك فضل الله تذييل لا محل له من الإعراب.

﴿**والله واسع عليم**﴾ جملة أخرى تذييلية خبرية. ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة.

﴿**وليُّكم**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الله**﴾ خبره. ﴿**ورسوله**﴾ معطوف على الله مرفوع بالضمة والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**والذين**﴾ معطوف كذلك. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين، وجملة إنّما وليُّكم الله ورسوله تعليلية. ﴿**الذين**﴾ نعت للذين آمنوا. ﴿**يقيمون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**الصلاة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**ويؤتون الزكاة**﴾ معطوف على يقيمون الصلاة. ﴿**وهم راكعون**﴾ مبتدأ وخبر معطوف على صلة الذين. ﴿**ومَنْ**﴾ الواو للعطف، مَنْ اسم شرط جازم. ﴿**يتولّ**﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف الألف، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**الله**﴾ مفعول به. ﴿**ورسوله**﴾ معطوف عليه، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**والذين**﴾ معطوف على الله. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**فإنّ**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، إنّ حرف توكيد ونصب. ﴿**حزب**﴾ اسمها منصوب بالفتحة. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى حزب مجرور بالكسرة. ﴿**هم**﴾ مبتدأ. ﴿**الغالبون**﴾ خبره، والجملة في محل رفع خبر إنّ، وجملة فإنّ حزب الله في محل جزم جواب الشرط.

﴿**ياأيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**الذين**﴾ مفعول أول. ﴿**اتخذوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**دينكم**﴾ مفعول أول، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**هزؤاً**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**ولعباً**﴾ معطوف على هزؤاً. ﴿**من الذين**﴾ متعلق باتخذوا. ﴿**أوتوا**﴾ صلة الذين. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول ثانٍ لأوتوا. ﴿**من قبلكم**﴾ متعلق به، وهو بيان له. ﴿**والكفار**﴾ معطوف على الذين اتخذوا. ﴿**أولياء**﴾ مفعول ثان لقوله: لا تتخذوا الذين. ﴿**واتقوا الله**﴾ جملة تذييلية من فعل وفاعل ومفعول. ﴿**إنْ**﴾ حرف شرط جازم. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها في محل جزم فعل الشرط. ﴿**مؤمنين**﴾ خبر كان، وجواب الشرط معلوم من السياق. ﴿**وإذا**﴾ الواو للعطف، إذا ظرف للزمان المستقبل. ﴿**ناديتم**﴾ فعل وفاعل في محل جر مضاف إلى الظرف.

﴿**إلى الصلاة**﴾ متعلق بناديتم. ﴿**اتخذوها**﴾ فعل وفاعل ومفعول جواب إذا. ﴿**هزؤاً**﴾ المفعول الثاني لاتخذوها. ﴿**ولعباً**﴾ معطوف على هزؤاً. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**بأنّهم**﴾ الباء حرف جر، أنّهم أنّ واسمها. ﴿**قومٌ**﴾ خبرها. ﴿**لا يعقلون**﴾ جملة في محل رفع نعت لقوم، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالباء، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدإ (ذلك)، والتقدير:

ذلك كائن بسبب كونهم قوماً فاقدي العقل. ﴿قل﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير (أنت). ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿أهل﴾ منادى منصوب بالفتحة. ﴿الكتاب﴾ مضاف إلى أهل مجرور بالكسرة. ﴿هل﴾ حرف استفهام فيه معنى النفي. ﴿تنقمون﴾ فعل وفاعل. ﴿منا﴾ متعلق بتنقمون. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء. ﴿أنْ﴾ حرف مصدر. ﴿آمنا﴾ فعل وفاعل. ﴿بالله﴾ متعلق بآمنا. ﴿وما﴾ معطوف على الله. ﴿أنزل﴾ صلة ما. ﴿إلينا﴾ متعلق بأنزل. ﴿وما أنزل﴾ معطوف على ما أنزل. ﴿من قبل﴾ متعلق بأنزل. ﴿وأنّ أكثركم فاسقون﴾ جملة من أنّ واسمها وخبرها معطوفة على أنْ آمنا، وقوله أنْ آمنا مؤول بمصدر مستثنى بإلاّ منصوب، بدل من مفعول قوله: تنقمون، والتقدير: ما تنقمون منا ديننا لعلة من العلل، إلاّ لأنْ آمنا بالله وما أنزل إلينا من قبل من كتبكم، ولأنّ أكثركم متمرّدون غيرُ مؤمنين بواحد مما ذكر!.

﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿هل﴾ حرف استفهام. ﴿أنبئكم﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير المتكلم (أنا)، وضميرالمخاطبين (كم) مفعول به. ﴿بشرٍّ﴾ متعلق بالفعل. ﴿من ذلك﴾ متعلق بشرٍّ. ﴿مثوبة﴾ منصوب على التمييز. ﴿عند الله﴾ متعلق به. ﴿مَنْ﴾ خبر لمبتدإ مقدّر، وهو على حذف المضاف، والتقدير: هو دينُ من لعنه الله. ﴿لعنه الله﴾ الجملة من الفعل والفاعل والمفعول صلة مَنْ.

﴿وغضب عليه﴾ معطوف على لعنه الله. ﴿وجعل﴾ كذلك. ﴿منهم﴾ متعلق بجعل. ﴿القردة﴾ مفعول به. ﴿والخنازير﴾ معطوف عليه. ﴿وعبد﴾ الواو للعطف، عبد فعل ماض والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿الطاغوت﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والجملة معطوفة على صلة مَنْ. ﴿أولئك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿شرٌّ﴾ خبره. ﴿مكاناً﴾ تمييز. ﴿وأضل﴾ معطوف على شرٌّ. ﴿عن سواء﴾ متعلق بأضل. ﴿السبيل﴾ مضاف إلى سواء. ﴿وإذا جاءوكم﴾ فعل الشرط. ﴿قالوا آمنا﴾ جوابه. ﴿وقد دخلوا﴾ جملة حالية. ﴿بالكفر﴾ متعلق بحال من الفاعل. ﴿وهم قد خرجوا به﴾ مثلها. ﴿والله أعلم﴾ جملة تذييلية من المبتدإ والخبر. ﴿بما﴾ متعلق بأعلم. ﴿كانوا﴾ كان واسمها.

﴿يكتمون﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبرها. ﴿وترى﴾ الواو للعطف، ترى فعل مضارع مرفوع بضمة مقدّر على الألف منع من ظهورها التعذر، وفاعله ضمير المخاطب. ﴿كثيراً﴾ مفعول به. ﴿منهم﴾ متعلق بمحذوف نعت لكثيراً.

﴿**يسارعون**﴾ فعل وفاعل، والجملة حال من كثيراً لمجيئه منعوتاً. ﴿**في الإثم**﴾ متعلق بيسارعون. ﴿**والعدوان**﴾ معطوف على الإثم. ﴿**وأكلهم**﴾ كذلك. ﴿**السحت**﴾ مفعول بالمصدر. ﴿**لبئس**﴾ اللام واقعة في جواب القسم، بئس فعل ماض. ﴿**ما**﴾ في محل رفع فاعل. ﴿**كانوا يعملون**﴾ جملة من كان واسمها وخبرها وصف لما؛ بئس العمل الذي كانوا يعملونه. ﴿**لولا**﴾ حرف تحضيض. ﴿**ينهاهم**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والضمير (هم) مفعول به. ﴿**الربّانيون**﴾ فاعل مرفوع بالواو. ﴿**والأحبار**﴾ معطوف عليه. ﴿**عن قولهم**﴾ متعلق بالفعل (ينهى). ﴿**الإثم**﴾ مفعول بالمصدر منصوب بالفتحة. ﴿**وأكلهم السحت**﴾ مثله. ﴿**لبئس ما كانوا يصنعون**﴾ مثل سابقه.

﴿**وقالت اليهود**﴾ فعل وفاعل. ﴿**يد الله مغلولة**﴾ مبتدأ وخبر في محل نصب مقول القول. ﴿**غُلَّت**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**أيديهم**﴾ نائب الفعل مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والضمير (هم) مضاف إليه. ﴿**ولعنوا**﴾ مثل غُلَّت أيديهم. ﴿**بما**﴾ متعلق بلعنوا. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**بل**﴾ حرف إضراب. ﴿**يداه**﴾ مبتدأ مرفوع بالألف، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**مبسوطتان**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالألف. ﴿**ينفق**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**كيف**﴾ ظرف. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، وجملة ينفق كيف يشاء بيانية، وجملة وقالت اليهود معطوفة على قوله: وإذا جاءوكم قالوا آمنا. ﴿**وليزيدن**﴾ الواو للعطف، واللام للتأكيد، يزيدّن فعل مضارع مبنيّ على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. ﴿**كثيراً**﴾ مفعول أول. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لكثيراً. ﴿**ما**﴾ فاعل يزيدنّ. ﴿**أنزل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، والجملة صلة ما. ﴿**إليك من ربّك**﴾ متعلقان بأنزل. ﴿**طغياناً**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**وكفراً**﴾ معطوف عليه. ﴿**وألقينا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل معطوفة على قوله: ولعنوا بما قالوا. ﴿**بينهم**﴾ متعلق بألقينا. ﴿**العداوة**﴾ مفعول به. ﴿**والبغضاء**﴾ معطوف عليه. ﴿**إلى يوم**﴾ متعلق بألقينا. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**كلما**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**أوقدوا**﴾ فعل الشرط، وواو الجماعة فاعل. ﴿**ناراً**﴾ مفعول به. ﴿**للحرب**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**أطفأها**﴾ جواب الشرط، والضمير فيه مفعول به. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل. ﴿**ويسعون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق به. ﴿**فساداً**﴾ مفعول له.

﴿والله﴾ مبتدأ. **﴿لا يحب﴾** فعل مضارع منفي بلا، والفاعل ضمير يعود على الله. **﴿المفسدين﴾** مفعول به، والجملة خبر المبتدإ. **﴿ولو﴾** حرف امتناع لامتناع متضمن معنى الشرط. **﴿أنّ أهل﴾** أنّ واسمها. **﴿الكتاب﴾** مضاف إلى أهل. **﴿آمنوا﴾** فعل وفاعل، والجملة خبر أنّ. **﴿واتقوا﴾** معطوف على آمنوا. **﴿لكفرنا﴾** جواب لو، وفعلها مقدّر قبل أنّ، والتقدير: لو حصل الإيمان والتقوى من أهل الكتاب لكفرنا. **﴿ولو أنّهم﴾** مثل ولو أنّ أهل الكتاب. **﴿أقاموا التوراة والإنجيل﴾** مثل آمنوا واتقوا. **﴿وما أنزل﴾** معطوف على التوراة. **﴿إليهم من ربّهم﴾** متعلقان بأنزل. **﴿لأكلوا﴾** مثل لكفرنا. **﴿من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾** متعلقان بأكلوا. **﴿منهم﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدّم. **﴿أمّة﴾** مبتدأ مؤخّر. **﴿مقتصدة﴾** نعت لأمّة. **﴿وكثير﴾** مبتدأ. **﴿منهم﴾** متعلق بمحذوف نعت لكثير. **﴿ساء﴾** فعل ماض. **﴿ما﴾** فاعل. **﴿يعملون﴾** فعل وفاعل، والجملة بيان لما، والتقدير: ساء شيء هو عملُهُم!.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿ياأيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾: ربطُ هذا الموضوع بما قبله. لمّا بيّن أن أهل الكتاب لا يقيمون شريعتهم ولا يحكمون بما أنزل الله، وأنّهم إذ يحتكمون إلى الرسول إنّما يحتالون للتهرب من شريعة الله المكتوبة عليهم عندهم. وقد توّجه الأمر مشدّداً إلى الرسول أن لا يتبع أهواءهم وأن يحكم بينهم بما أنزل الله، ويوجه الآن الخطاب للذين آمنوا؛ يتكرر ثلاث مرات يحذرهم أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بهذا النداء العالي، وبهذا القرار الحاسم يتوجه القرآن إلى الذين آمنوا. إنّه النهي المطلق عن الولاء لليهود والنصارى!؛ لأنّ الولاية تنبني على الوفاق والوئام والصلة، وليس أولئك بأهل لولاية المسلمين؛ لبعد ما بين هؤلاء وهؤلاء من القيم والأخلاق، ولهذا عقبه بقوله... **﴿بعضهم أولياء بعض﴾**: لأنّ كل فريق منهم تتقارب أفراده في الأخلاق والأعمال، فاليهودي لليهودي، والنصراني للنصراني. وتنوينُ بَعْضٍ أعطى هذا المعنى، وهو كناية عن نفي موالاتهم للمؤمنين، وعن نهي المؤمنين عن موالاة فريق من اليهود والنصارى.

وإنّما أُوثِرَ الإجمال في البيان تعويلاً على ظهور المراد؛ لوضوح انتفاء الموالاة

بين فريقي اليهود والنصارى رأساً. والجملة مسبوقة لتعليل النهي وتأكيد إيجاب الاجتناب عن المنهي عنه، فاليهود متفقون فيما بينهم على عداوة الإسلام، والنصارى كذلك. فمن ضرورة هذا إجماع الكل على مضادّة ومضارّة المسلمين، بحيث يسومونهم السوء ويبغونهم الغوائل. فكيف يتصور بين هؤلاء موالاة؟..
﴿**ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم**﴾: هذا الحكم مُسْتَنْتَجٌ مما سبقه، فإنّ انحصار الموالاة فيما بينهم يستدعي كون من يواليهم منهم ضرورة، وفيه زجر شديد للمؤمنين على إظهار صورة الموالاة لهم؛ وإن لم تكن موالاة في الحقيقة. وهذا الأسلوب من التشبيه البليغ، فكل من يتولاّهم بأفعاله ويساعدهم بأقواله فهو مثلهم في المقت والمذمّة الواقعة عليهم...

﴿**إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾: هذه الجملة تعليل لكون من يتولاّهم منهم. ووضع المظهر ﴿**القوم الظالمين**﴾ موضع ضميرهم تنبيهاً على أنّ توليهم ظلم؛ لما أنّه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالد، ووضعٌ للشيء في غير موضعه. وبعد هذا القرار الحاسم والنهي الجازم يأخذ السياق في تصوير حالة كانت واقعة وما تزال واقعة: ﴿**فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم: يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة**﴾: إنّها حجة واهية قالها المنافقون السابقون من قبل، ويقولها المنافقون اللاحقون في الحاضر والمستقبل، يُسوّغون بها موالاتهم لليهود والنصارى في كل زمان وفي كل مكان!. والفاء للإيذان بترتبه على عدم الهداية، والخطاب موجه للرسول ولكل من يتأتى منه الخطاب، وفيه مزيد تشنيع على التشنيع السابق. ووضع الموصول موضع الضمير ليشار بما في حيز صلته إلى أنّ ما ارتكبوه من التولي بسبب ما في قلوبهم من مرض النفاق ورخاوة العقد في الدّين. والرؤية بصرية لظهور صورة النفاق أمام المشاهدين، وإنّما قيل فيهم مبالغة في بيان رغبتهم فيها وتهالُكِهم عليها، وإيثار كلمة في على كلمة إلى للدلالة على أنّهم مستقرون في الموالاة، وإنّما مسارعتهم من بعض مراتبها من بعض آخر منها. يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة: الدائرة من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها، وغلب إطلاقها على تغير الحال من خير إلى شر، وأصل تأنيثها للمرة ثم غلبت على التغير ملازمة لصيغة التأنيث... ﴿**فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين**﴾: هذا الكلام ردٌّ من جهة الله تعالى لِعِلَلِهِم الباطلة، وقَطْعٌ لأطماعهم الفارغة، وتبشير للمؤمنين بالظفر، فإنّ

عسى منه سبحانه وَعْدٌ مَحْتُومٌ لما أنّ الكريم إذا أطمع أطعم ولا محالة، فما ظنّك بأكرم الأكرمين؟!. وعلّق الندامة هنا بما كانوا يسرونه في أنفسهم؛ لما أنّه كان يحملهم على الموالاة ويغريهم عليها، فدلّ ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها...

﴿**يقول الذين آمنوا**﴾... الخ: قرأ الجمهور يقول بدون واو في أوله، فهو بيان مستأنف ناشئ جواباً لمن يسأل: ماذا يقول الذين آمنوا حينئذ؟. والاستفهام مستعمل في التعجب من نفاقهم، وقد دلَّ هذا التعجب على أنّ المؤمنين يَظْهرُ لهم من حال المنافقين يوم إتيان الفتح ما يفتضح به أمرهم، فيتعجبون من حلفهم على الإخلاص لليهود. واستعمل هنا جَهْدُ الأيمان في معنى أوْكَد الأيْمان وأغْلظها، وشاع هذا الاستعمال في القرآن كثيراً، والمعنى: يقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون دولتهم، ويظهرون لهم على غاية المحبة وعدم المفارقة عنهم في السراء والضراء، عند مشاهدتهم لخيبة رجائهم وانعكاس تقديرهم بوقوع ضد ما كانوا يترقّبونه ويتعللون به؛ تعجيباً للمخاطبين من حالهم، وتعريضاً بهم...

﴿**حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين**﴾: هذا الكلام جاء خبراً مقرراً لبيان مآل ما صنعوه من ادّعاء الولاية والإقسام على المعية في المَنْشطِ والمُكْرَهِ، إثر الإشارة إلى بطلانه بالاستفهام الإنكاري...

﴿**ياأيُّها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾: عندما ينتهي السياق من النداء الأول للذين آمنوا يحذرهم من الارتداد إلى جبهة اليهود والنصارى إذا هم اتخذوهم أولياء، يجيء بالنداء الثاني يهدد من يرتد منهم عن دينه بهذا الولاء أو بسواه من الأسباب، وفيه وعد بأنّ هذا الدين لا يَعْدَمُ أتباعاً بررة مخلصين!.

ومعنى هذا الوعد إظهار الاستغناء عن الذين في قلوبهم مرض وعن المنافقين، وقلة الاكثرات بهم، فهذه حقيقة قرّرها القرآن فجاءت مدعّمة لصدقه، وهو أنّ المنافقين ومرضى القلوب لا غناءَ فيهم، ولا يُعْتَدُّ بهم في نصر الدين، وأن لدين الله أولياء وناصرين مدّخرين وصورة هؤلاء المدَّخَرِينَ لنصرة دين الله؛ هم الذين يحبهم الله ويحبون الله، فتقوم الصلة بينهم وبينه على الحب ـ أطهر

المشاعر وأشقّها وأعْلاها ـ، وهم أذلّة على المؤمنين، فما في الذل على المؤمنين ذلّة ولا هوان، إنّما هي الرحمة والحب والبر، وإنّما هي السماحة والعفو والتجمّل، وإنّما هي الأخوة التي ترفع الحواجز وتزيل التكلف، وتمنع أن تثور عصبية جاهلية للنفس أو للعشيرة، وتجعل كرامة الأخ المسلم من كرامة الأخ المسلم، فلا حاجة إذَنْ إلى الاستعلاء أو الاستخذاء، وحين يخلط الأخ نفسه بنفوس إخوانه في العقيدة، فما الذي يبقى له يثور من أجْلِهِ عليهم، أو يغضب من أجله منهم؟. إنّ حساسيته بذاته لهي التي تمنعه أن يتواضع وأن يتسامح، وإنّ شعوره بذاته لهو الذي يجعله شديد الحساسية بكل كلمة أو كل حركة أو كل نظرة توجه من الآخرين إليه!. فأمّا حين يخلط نفسه بنفوسهم فلن يجد في شيء من هذا كله ما يخدشه؛ لأنّه يومئذ لا يحسُّ بذاته منفصلة عن ذواتهم ـ وقد اجتمعوا في الله إخواناً ـ فاختفت فيما بينهم الذوات والأنساب. وهم أعزة على الكافرين، فهُنَا للعزّة مكان، وللاستعلاء موضع، إنّها ليست العزة للذات، ولا الاستعلاء للنفس، إنّما هي العزة للعقيدة، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين، إنّها الثقة بغلبة دين الله على دين الهَوَى، وبغلبة قوة الله على تلك القوى، وبغلبة حزب الله على جميع الأحزاب!، وهم ﴿**يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**﴾. وفيم الخوف من لوم الناس وهم قد ضمنوا رضا رب الناس؟.

وفيم الوقوف عند مألوف الناس ومتعارفهم، وهم يتبعون سنة الله ويعملون لإقرارها في الأرض؟. إنّما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس، أمّا من يرجع إلى مقاييس الله وأحكامه، ليجْعَلَهَا تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم، فما يبالي ما يقول الناس وهو ماض في سبيل الله. وإنّنا نحسب لما يقول الناس عنا؛ لأنّنا نغْفَل أو نسهو عن حُكْم الله علينا، فأمّا مَنْ يَمَّمَ وَجْهَ الله فما يجعل قول الناس ولا يضعه له في حساب!. ذلك الاختيار من الله لِمَنْ يُحِبُّهُم ويحبونه، وتلك السمات التي يجعلها طابعهم وعنوانهم، وهذا الاطمئنان إلى الله في نفوسهم، والسير على هُدَاه في جهادهم... ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم**﴾!. إنّه اختصاص من الله بالمختارين من عباده، وفضل الله واسع، وهو يعلم حيث يضعه فيمَنْ يستحقه من العباد. وعلى ضوء تلك السمات المختارة لعباد الله المختارين يقرر: أنّ الولاء لا يكون إلاّ لله ورسوله

والمؤمنين العاملين، وأنّ الذين يتولون الله ورسوله هم وحدَهم الغالبون المنتصرون، فيجيء هذا التقرير في مكانه المناسب، وقد مهدت له في الضمائر تلك الصورة الوضيئة لعباد الله المختارين. . .

﴿إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾!. هكذا يجيء الأسلوب على وجه القصر الذي لا يدع مجالاً لتمحّلٍ أو تأويل، ولابد أن يكون الأمر كذلك؛ لأنّ المسألة مسألة صميم العقيدة، فإمّا أن تكون الثقة بالله مطلقة فتمتد إلى الرسول بصفة الرسالة، وإلى الذين آمنوا بصفة الإيمان ـ وليس هو الإيمان السلبي، إنّما هو الإيمان العامل: الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، بمعنى أنّ سمتهم الأولى هي الركوع لله والخضوع. وإمّا لا تكون ثقة بالله، فيأمل الناس النصر بعون غير عونه، وبولاء غير الولاء لله، ومن ثَمَّ فهي قضية الإيمان أو الكفر في هذا المقام. لقد سلك السياق في هذا الدرس طرقاً عدَّة لتحذير الذين آمنوا من الولاء لغير الله ورسوله والمؤمنين العاملين؛ ذلك طريق النهي المباشر في النداء الأول، وطريق التخويف أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده فينكشف ستر المنافقين، وطريق التحذير من الردة الكامنة وراء موالاة أعداء الله ورسوله، وطريق التحبيب في أن يكونوا من المختارين الذين يحبهم الله ويحبونه، وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الذين يوالونه في النداء الثاني، ثُمَّ هاهو ذا في النداء الأخير للمؤمنين يثير في نفوسهم الحمية لدينهم ولعبادتهم ولصلاتهم التي يتخذها أعداؤهم هزؤاً ولعباً، فما يليق بهم أن يوالوا هؤلاء الذين يتخذون مقدساتهم للهزء والسخرية. . .

﴿ياأيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤاً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين. وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزؤاً ولعباً ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون﴾: عندما يصور الأسلوب هذه الصورة، فهي صورة مثيرة لكل من له حميَّةُ المؤمن الذي لا يرى لنفسه كرامة إذا أُهين دينُه، وأهينت عبادته، وأهينت صلاته، واتخذ موقفه بين يدي الله ـ وهو أقدس ما يقدسه المسلم ـ مادّةً للهزء واللعب من قوم لا يعقلون ولا يدركون طبيعة هذه العبادة وقيمتها في ميزان الله وميزان الحياة. ويجمع السياقُ بين المستهزئين

من أهل الكتاب والكفار، فهم سواء حين يصل بهم الاستهتار إلى حدّ الهزُء بدين الله وعبادته التي فرضها على عباده. ومن هنا كانت عقيدة الإسلام في احترام سائر الديانات قبله، وفي احترام شعائر المؤمنين بها وحماية معابدهم، حتى وهم لا يؤمنون به ولا يدينون لله على طريقته. فمن استهزأ بدين الله في صورة من صوره، فما هو مؤمن بالله في الحقيقة، وهو يلتقي بهذه الصفة مع الكفار. ويلمس السياق كذلك وجدانَ المسلمين من زاوية التقوى والإيمان...

واتقوا الله إن كنتم مؤمنين: فتقوى الله كفيلة بأن تجعل وَلاَءَهم لله، لا يخافون سواه، ولا يطلبون العزة من أعداء الله. وحين تتم النداءات الثلاثة للذين آمنوا - وبمناسبة عرض لاتخاذ أهل الكتاب دين المؤمنين وصلاتهم هزؤاً ولعباً - يتوجه الخطاب إلى الرسول أن يسأل أهل الكتاب: ماذا ينقمون من المسلمين؟. ولماذا يعادونهم ويتخذون دينهم ومقدساتهم هزؤاً ولعباً؟!. يسألهم لا ليتلقى منهم الجواب ولكن ليقول لهم حقيقة الأسباب...

﴿قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلاّ أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأنّ أكثركم فاسقون﴾: هذه هي الأسباب، وهي أسباب لم تكن تدعو إلى عداء، فماذا يطلب أهل الكتاب من أهل دين تلا دينهم إلاّ أن يؤمنوا بما أنزل لأهل الكتاب من قبل؟. أفهذه السماحة تُقَابَلُ بالعداء؟!. أفهذا الإدراك الكلي لطبيعة دين الله ووحدته واتصاله يدعو إلى الاستهزاء؟. هنا يكمل السياق أسباب النقمة فترى فيها ذلك السبب الحقيقي: وأنّ أكثركم فاسقون، فهذا الفسق هو سبب من أسباب هذه النقمة، بل هو السبب الأصيل، فهو الذي يحملكم على أن تنقموا منا؛ الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وبما أنزل من قبل. والفاسقون عن دين الله ينقمون - لا جرم - على المستقيمين في سبيل الله!، فتلك طبيعة النفوس وتلك سنة الحياة. ثم يمضي السياق يُعَرِّضُ بهم في سخرية جزاء سخريتهم بدين المؤمنين وعبادات المؤمنين...

﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾: إنّه يعرّض بهم في سخرية!. إنّهم ليدركون من هو الذي لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير؟. إنّهم بنو إسرائيل!. وإنّهم وقد تركوا شريعة الله

وحكمه لعبدة الطاغوت. ويزيد سخريته بأن يسمي ذلك كله مثوبة، وأنّهم شر مثوبة ممن يستهزءون بهم من المسلمين!. ولهذه النكتة يستخدم هذا اللفظ في مجال اللعنة والغضب والمسخ فيثير الهزء بالمستهزئين!. أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل!. وأخيراً يجيء التنفير من موالاتهم بعرض بعض سماتهم، وكلها منفِّرٌ شنيع، إنّها تبدأ بالنفاق والإصرار على الكفر مع التظاهر بالإيمان...

﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾: فهو النفاق الذي ليس لصاحبه ولاءٌ، ولا ثقة به ولا اطمئنان إليه. ثم هو المشهد المجسم: وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، فكأنّما هذا الكفر مادّةٌ تُحْمَلُ، يدخلون بها ويخرجون لا تفارقهم ولا يفارقونها، يدخلون والكفر معهم، ويخرجون به، لم تؤثّر فيهم موعظة، ولم يصل إلى قلوبهم نور: والله أعلم بما كانوا يكتمون. وإنّها لتثني بالمسارعة في المعصية والاعتداء وأكل المال الحرام... **﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون﴾**: والمسارعة إلى الآثام طبيعةُ مَنْ لَمْ يعمر قلبه الإيمان، أما المسارعة إلى العدوان فقد تستغرب من المنافق، ولكنها في الواقع ليست غريبة، فالمنافق لا يداهن إلاّ حين يرى القوة، فإذا أَمِنَ سارع إلى الاعتداء، شأن الضعفاء اللؤماء، أمّا أكل الحرام فتلك شنشنة اليهود من قديم!. وثالثة الأثافي ـ كما يقولون ـ أنّ الربانيين القائمين على أمر الشريعة، والأحبار القائمين على أمر العلم الديني، لا يُؤدُّون واجبَهم في أهل الكتاب، ولا ينهون عن المعاصي، ولا ينكرون على الشر والفساد...

﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾: إنّه تحضيض يحمل أقسى التأنيب إن الربانيين والأحبار هم الحفظة على الدين والشريعة، فإذا كانوا هم لا يقيمونها، فَمَنْ إذنْ يُقيمُها؟!. وما صورة المجتمع الذي يسكت علماؤه وحفاظ شريعته عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟. وإنّه لصوت النذير لكل أهل دين، فصلاح المجتمع وفساده رهن بقيام الحفظة على الدين فيه بواجبهم، لا يخافون لومة لائم، ولا يحسبون حساب الربح والخسارة، ولا يقيسون قوّتهم المادية إلى قوى المفسدين والخارجين، فهم يستمدون قوتهم من الله وحده، والله غالب على أمره. ولن يقفوا ليحسبوا حساب

الربح والخسارة، أو ليقيسوا قوتهم المادية إلى قوى الشر والفساد إلاّ وفي قلوبهم مرض، وفي عقيدتهم ضعف، وفي ثقتهم بالله نُدُوبٌ: لبئس ما كانوا يصنعون!. وكَمَثَلٍ من قولهم الإثم يحكي القرآنُ قولَ اليهود الغبيّ اللئيم... ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء**﴾: إنّهم يريدون أن يقولوا على الله سبحانه: إنّه بخيل لا يرزق الناس إلاّ بمقدار، ولكنهم يزيدون في التوبُّخ باختيار تعبير مجازي خُلُوٍّ من كل أدب، فيقولون: ﴿**يد الله مغلولة**﴾؛ لذلك يعاجلهم السياق بالرد فوراً: ﴿**غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء**﴾؛ فيختار تعبيراً مجازياً من جنس ما قالوا مُراعَاةً للنظير في التعبير، لقد أرادت اليهود أن تنسب البخل لله سبحانه، لتداري بُخْلَها وشُحَّها المقيت؛ فإذا كان الله بخيلاً فعذر اليهود إذَنْ في الشح قائم، وضَنُّها بالمال وأكلها السحت وحرصها على الثراء إذَنْ مفهوم!..

﴿**وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربّك طغياناً وكفراً**﴾: فبسبب من الحقد والحسد، وبسبب من افتضاح أمرهم على يديك، وردهم على هذا الافتضاح بالتبجُّح، سيزيد الكثيرين منهم طغياناً وكفراً؛ لأنّهم لا يريدون أن يطامنوا من حقدهم القومي ولا من حرصهم الشخصي، وهكذا يكون ما أنزل إلى الرسول، رحمة للمؤمنين ووبالاً على المنكرين، الذين يعلمون أنّه الحق، ولكنهم يعاندون ويكابرون... ﴿**وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله**﴾: ما تزال طوائف اليهود متعادية، وإن بدا في هذا الزمان أنّ اليهودية العاتية تتساند، وتوقد نار الحروب، إنّما ينبغي أن لا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان، ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كلها، ففي خلال تاريخ الإسلام ومن قبله واليهود في شحناء وفي ذل مهما.. تقم حولهم الإسناد، وهذا الإسناد يبقى ما بقيت الأمّة الإسلامية أمرُها أمْرُ الأفراد، وحكمها على ما هم عليه الآن من الظغائن والأحقاد. وعندما تعود الأمّة الإسلامية قويّة بحكمها متمسكة بشريعتها عاملة بأحكامها، ستنتهي خرافة اليهود من الوجود، وما يمكن لليهود أن تعز في الأرض وتسود، وهي أداة إفساد فيها، ولعنة تحسّها البشرية في كل مكان: ﴿**ويسعون في الأرض فساداً والله لايحب المفسدين**﴾.

وبعد هذا كله ماذا يريد هؤلاء؟. فإذا كانوا إنّما يحرّفون الكلم عن مواضعه،

ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويقاومون الدين الجديد، ويسعون في الأرض فساداً. كل ذلك لينالوا عرضاً من أعراض هذه الدنيا، أو ليكونوا وحدهم أصحاب الرسالات، فلقد كان أمامهم طريق أقوم وأسلم لكسب خير الدنيا والآخرة، بأضعاف ما ينالونه من سلوكهم المعوج في طريقهم الملعون. . .

﴿ولو أنّ أهل الكتاب آمنوا واتّقوا لكفرنا عنهم سيّآتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. ولو أنّهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾: إنّ طريق الإيمان والتقوى وإقامة شرائع الله، ليس طريقاً خاسراً في الدنيا كما يعتقد المنحرفون، فلصلاح هذه الأرض ونمائها نزلت هذه الشرائع، لا لتعطل الرزق ولكن لتطهّر ينابيعه، ولا لتحرم الناس الثراء ولكن لترزقهم من حلال، ولا لتوقف نماء الحياة ولكن لتنظف طريقة النماء، وما من لذّةٍ تنال من حرام إلاّ وفي الحلال ألذُّ منها وأطهر، وما من نتاج من حرام إلاّ وفي الحلال ما هو خير منه وأدوم!. وقوله: منهم أمّة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون، إنصاف لفريق منهم بعد أن جُرَّتْ تلك المذامُّ على أكثرهم

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ياأيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾: في هذا التوجيه النهي الحاسم والتحذير الصارم. بهذا القرار الجازم يتوجه القرآن إلى الذين آمنوا. في هذا النهي المطلق عن الولاء لليهود والنصارى، وعن الاستنصار بهم، والركون إليهم، والثقة بمودّتهم، والاعتقاد في قدرتهم على إيصال خير للمسلمين أو دفع أذى عنهم. وسبب هذا النهي هو ما وقع من يهود المدينة الذين عاهدوا رسول الله والمسلمين على الولاء وعدم التعدي، فنقضوا العهد وتحالفوا مع أعداء المسلمين وظهرت خيانتهم، ولكن لما أُريد النهي لم يقتصر عليهم، لكيلا يحسب المسلمون أنّهم مأذونون في موالاة النصارى، فدفع ذلك عطفُ النصارى على اليهود هنا؛ لأنّ السبب الداعي لعدم الموالاة واحدٌ في الفريقين. ولتوضيح هذا الأمر الخطير جاء التصريح باسم كل فريق من غير احتمال أو تقدير، وهو اختلاف الدين والنفرة الناشئة عن تكذيبهم رسالة محمد ﷺ؛ فالنصارى وإن لم تجئ منهم يومئذ أذيّة مثل اليهود، فيوشك أن تجيء منهم إذا

وجد داعيتها، كما حصل الآن فقد تمالأ اليهود والنصارى على المسلمين بشتى أنواع العدوان. ثم ذكر علة هذا النهي فقال. . . ﴿**بعضهم أولياء بعض**﴾: فتعصب اليهود لما هم عليه، وتعصب النصارى لما هم عليه علّة مانعة لا تسمح لهم بمولاة الغير، وإنّما اتفقوا على معاداة المسلمين؛ لأنّهم انحرفوا عن شريعة الله، واتبعوا أهواءهم بغير مقياس يعصم من الزلل ويردُّ إلى الصواب، ثم هم حرب على المسلمين يتعاونون فيما بينهم حين يواجهون المسلمين بالعداء!. ثم توعد من يفعل ذلك. . .

﴿**ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم**﴾: فإنّه لا يتولى متولٍّ أحداً إلاّ وهو به وبدينه وبما هو عليه راضٍ، وإذا رضيَه ورضِيَ دينه فقد عاد من خالفه وسخطه وصار حكمُه حُكْمَه. وهذا الحكم وارد في الموالاة التي يترتب عليها ضرر بالإسلام أو المسلمين من ضعف أو إذلال في الحال أو في المآل، أمّا المعاملة العامة بين المسلمين وغيرهم، فقد بيّنت حُكْمَه آية الممتحنة في قوله تعالى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين»، وقد عامل النبيء ﷺ يهود خيبر مساقاة على نخل خيبر، وأحسن إلى من عاملهم من اليهود والنصارى، وأمر أصحابه بأن يحسنوا إلى أهل الذمة، وهذا الأمر واضح من تاريخ المسلمين في عصورهم المختلفة. . .

﴿**إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾: تقرير لما تضمنه الحكم السابق بإظهار العلّة على حقيقتها، وليكون الحكم صادراً عن موجب تقتضيه؛ فالذين يتجهون بولائهم لغير الله يظلمون الحق في ذاته لوضعه في غير موضعه، ويظلمون أنفسهم بإلجائها إلى غير ملجإ، ويظلمون الناس لمساعدتهم المفسدين. . فمن لم يخلص اتجاهه لله اتبع الهوى وظلم وأفسد. ثم يأتي توضيح الصفات التي تميز المولّين من غيرهم: ﴿**فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة**﴾: هذه الأشكال يراها كل من يمعن النظر كامنة في زوايا القلب، يُظهرها اللسان نطقاً وتبرزها الحركات واللفتات جبناً وفرقاً، فهم في شك من نصر الله لنبيئه وإظهار دينه على الدّين كله، ويخشون أن تدول الدولة لليهود أو لغير اليهود من الكافرين على المؤمنين فيحل بهم العقاب.

وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان، وما أَمْرُ منافقينا اليوم بخاف على

إنسان!. ثم يأتي الرد القاطع بتزييف هذه المطامع، وتبشير المؤمنين بالفتح والفوز الساطع، ﴿**فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين**﴾: تأتي بشارة الفتح والنصر مترتبة على ما ظهر من أوصاف النفاق والكفر. والفتح هو فتح مكة الذي كان به ظهور الإسلام وانتشاره في الآفاق واضحاً، فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً، فانطفأت نار الشرك وخمدت، واندحرت ثائرة النفاق واندثرت، واندهست غوائل اليهود وتحطَّمَت أمام جحافل الإيمان التي انتصرت!. فقد جاء الحق وظهر أمر الله، ولقد جاء الله بالفتح يوماً وسيجيء به كذلك، فيظهر منافقوا اليوم على حقيقتهم كما ظهر المنافقون على عهد الرسول ﷺ وانكشف أمرُهم، واتّضح أنّه من مرض القلب، ومن ضعف العقيدة ووهن الإيمان كان ولاؤُهم لأعداء المسلمين؛ فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين...

﴿**يقول الذين آمنوا**﴾: لليهود أو لبعضهم... ﴿**أهؤلاء**﴾: المنافقون... ﴿**الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم: إنّهم لمعكم**﴾: وفحوى السياق يعطينا غرضين من الكلام: توجيه القول من بعض المؤمنين إلى البعض الآخر، مشيرين إلى فضيحة المنافقين وما صاروا إليه الآن، وما كان عليه في الماضي من ادّعاء الإيمان. وتوجيه القول من المؤمنين إلى اليهود الذين كان المنافقون يختلون بهم ويحلفون لهم «إنّا معكم إنّما نحن مستهزؤون». وفي قوله: ﴿**حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين**﴾: توجيهان: يحتمل أن يكون من كلام الذين آمنوا عندما ظهرت لهم حقيقة المنافقين واضحة جليّةً، فقد كانوا يجهدون أنفسهم في إظهار شعائر الإسلام، حتى لا يظهروا أمام المؤمنين بمظهر الضعف أو الخديعة؛ ولا شك أنّ هذا الأمر كدار ومشقة وتعب أكثر من اللازم.

ويحتمل أن يكون من كلام الله يحكم على عملهم بالإحباط والفساد، وعلى مصيرهم بالخسران يوم المعاد، وفي هذا موعظة وعبرة لكل من يلقي السمع لهذا الكلام المعجز للعقول النيّرة.

التوجيه الثاني: ﴿**ياأيُّها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم**﴾... الخ: يجيء بالنداء الثاني في هذا التوجيه يهدد من يرتد منهم عن دينه بهذا الولاء أو بسواه من الأسباب، بأنّ الله غنِيٌّ عنه، وأنّ لدين الله رجالاً مختارين بأوصاف تميزهم عن الآخرين:

الوصف الأول: أنّ الله سبحانه وتعالى يحبُّهم، وحب الله لعباده معروف في الشريعة الغراء، ومعقول لذوي النهى والحجا، وهو تيسير الخير له، وليفتح له باب القبول والوفاء.

الوصف الثاني: إنّهم يحبُّون الله تعالى، وحب المؤمنين لله جاء واضحاً في كتاب الله وفي سنة رسول الله، وهي معروفة لغة وعرفاً وشرعاً، والمعنى الجامع لها: هي انفعال النفس نحو تعظيمه تعالى والأنس بذكره وامتثال أمره والدّفاع عن دينه، فهي صفة تحصل للعبد من كثرة مراقبة عظمة الله تعالى، وكثرة تصور نعمه حتى تتمكن من قلبه، فمنشؤها السمع من الشريعة، والإدراك العقلي ومظاهر الطبيعة.

الوصف الثالث: إنّهم أذلة على المؤمنين، والذل هنا بمعنى لين الجانب وتوطئة الكنف، وهو شدة الرحمة والسعي للنفع، ولتضمين أذلة معنى مشفقين حانّين عُدّي بعلى دون اللام.

الوصف الرابع: إنّهم أعزة على الكافرين، والعزيز المتصف بالعز، وهو القوّة والاستقلال، ووجود وصفين متقابلين في شخص تلمح فيه الرأي الحصيف، فلا يندفع إلى فعلٍ ما إلاّ عن بصيرة، وليس ممن تنبعثُ أخلاقه عن سجيّة واحدة، بأن يكون ليناً في كل حال، وهذا هو معنى الخلق الأقوم، وهو الذي يكون في كل حال بما يلائم ذلك الحال «أشداء على الكفار رحماء بينهم».

الوصف الخامس: إنّهم يجاهدون في سبيل الله، وهو من أكبر العلامات الدالة على صدق الإيمان؛ ومن أعظم الجهاد بذلُ النفس والمال في قتال أعداء الله.

الوصف السادس: إنّهم لا يخافون لومة لائم، ومعناه هنا: أنّهم لا يخافون جميع أنواع اللوم من جميع اللائمين؛ إذ اللوم منه شديد ـ كالتهديد والتقريع ـ وخفيف. واللائمون منهم اللائم المخيف، واللائم: المتلطف في التعنيف، ولا يخفى ما في الجملة من عموم النفي، عموم الفعل في سياق النفي، وعموم المفعول، وعموم المضاف إليه. وهذا الوصف علامة على صدق الإيمان من هؤلاء المختارين حتى خالطَ قلوبهم، بحيث لا يصرفهم عنه شيء من الإغراء

واللوم؛ لأنّ الانصياع للملام آية ضعف العزيمة واليقين. ولم يزل الإعراض عن ملام اللائمين علامة على الثقة بالنفس وأصالة الرأي.

وفيم الخوف من لوم الناس وهم قد ضمنوا رضاء ربّ الناس؟. وفيم الوقوف عند مألوف الناس ومتعارفهم، وهم يتبعون سنة الله ويعملون لإقرارها في الأرض؟. إنّما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس، أمّا من يرجع إلى مقاييس الله وأحكامه؛ ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم فما يبالي ما يقول الناس، وهو ماضٍ في سبيل الله. وإنّنا نحسب حساباً لما يقوله الناس؛ لأنّنا نغفل أو نسهو عن حكم الله علينا، فأمّا من يبتغي مرضاة الله فما يهمه قولُ الناس، وما يضعه له في حساب. ذلك الاختبار من الله لمن يحبُّهم ويحبّونه، وتلك السمات التي يجعلها طابعهم وعنوانَهم، وهذا الاطمئنان إلى الله في نفوسهم والسير على هداه في جهادهم... **﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾**: إنّه اختصاص من الله بالمختارين من عباده، وفضل الله واسع، وهو يعلم حيث يضعه فيمن يستحقه من العباد!. وعلى ضوء تلك السمات المختارة لعباد الله المختارين يقرر: أنّ الولاء لا يكون إلاّ لله ورسوله والمؤمنين العاملين، وأنّ الذين يتولون الله ورسوله هم وحدهم الغالبون المنتصرون؛ فيجيء هذا التقرير في وقته المناسب، وقد مهّدت له في الضمائر تلك الصورة الوضيئة لعباد الله المختارين...

﴿إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾:
لابدّ أن تتمحص عقيدة المسلمين لله في الله؛ لكي يكونوا أمناء على الرسالة التي أعطاها لهم الله، والوصاية التي أقامهم بها على البشرية مُذْ جعل كتابهم آخرَ رسالاتِ الله، وجعله مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه. والله يَعِدُ المسلمين في مقابل الثقة به والالتجاء إليه والولاء له. النصر والغلبة والفوز، ويسميهم حزب الله. ومن بديهيات العقيدة أن ينتصر حزب الله، فهل هي من بديهيّات الواقع كذلك؟.

إنّ المسلم كمسلم يجب أن يصدّق بمجرد أن يصدر له هذا الوعد من الله، وإلاّ فما هو بمسلم. إنّه ما من مرة في تاريخ هذه الأمّة اعتمدت على الله الاعتماد

الصحيح، وأسلمت أمرها لله مُنفّذة أوامره في الأُهْبَةِ والاستعداد ـ وهذا التنفيذ جزء لايتجزأ من الإسلام الصحيح ـ ما من مرة تَمَّ فيها هذا إلاّ وكانت العاقبة النصر، مهما يكن في الخطوات الأولى من متاعب وحواجز ومشاق وتضحيات. وما من مرّة اعتمدت هذه الأمة على غير الله، ووالت أعداء الله، إلاّ أصيبت بالهزيمة والذل والخسارة على مدار التاريخ. فلتعرف الأمة المسلمة طريق النصر وطريق الهزيمة، وهي على مفترق الطرق اليوم، فهاهو وعد الله الحق؛ فإنّ حزب الله هم الغالبون.

التوجيه الثالث: ﴿ياأيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوءاً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾: لقد سلك السياق في هذا الدرس طُرُقاً عِدَّةً لتحذير المسلمين الذين آمنوا من الولاء لغير الله ورسوله والمؤمنين العاملين؛ سلك طريق النهي المباشر في النداء الأول، وطريق التخويف أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده فينكشف سر المنافقين، وطريق التحذير من الردّة الكامنة وراء موالاة أعداء الله ورسوله، وطريق التحبيب في أن يكونوا من المختارين الذين يحبهم الله ويحبونه، وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الذين يوالونهم. ثم هاهو ذا في النداء الأخير للمؤمنين يثير في نفوسهم الحمية لدينهم ولعبادتهم ولصلاتهم التي يتخذها أعداؤهم هزؤاً ولعباً!. وموجب النهي هنا واضح، فالدين هو ما عليه المرء من عقائد وأعمال ناشئة عن العقيدة، وهو عنوان عقل المتدين ورائد آماله وباعث أعماله، فالذي يتخذ دين امرئ هزؤاً فقد اتخذ ذلك المتدين هزؤاً ورَمَقَهُ بعين الاحتقار؛ إذ عَدَّ أعظم شيء عنده سخرية، فما دون ذلك أوْلَى. والذي يرمق بهذا الاعتبار ليس جديراً بالموالاة؛ لأنّ شرط الموالاة التماثل في التفكير، ولأنّ الاستهزاء والاستخفاف احتقار، والمودّة تستدعي تعظيم المودود!.

والذين استهزءوا بالمسلمين من أهل الكتاب هم مثل الكافرين من أهل مكة الذين استهزءوا بالمسلمين في ذاك الزمان. والنداء إلى الصلاة هو الأذان المعروف للإعلام بدخول وقت الصلاة؛ وما عبر عنه في القرآن إلاّ بالنداء، وهو يلهم المؤمن تأكيد طلب حضور الصلاة في الجماعات. والأذان شرع بالسنة وأقره القرآن وعرفه المسلمون جميعاً في كل مكان وزمان، فيكون من الأمور المعلومة

من الدّين بالضرورة والدليل القاطع من الكتاب والسنة والإجماع، فمن استهزأ به أو شك في مشروعيته أو تلاعب بتغييره أو تبديله، فقد دلّل على سخافة عقله وشناعة فعله ونكارة قوله، فالأذان ذكر مُؤثِّرٌ في النفوس السليمة، لا تخفى محاسنه على من يعقل الحكمة من إرسال الشرائع ويؤمن بالله العلي الكبير... **﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزؤاً ولعباً ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون﴾**!.

التوجيه الرابع: **﴿قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منّا إلاّ أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأنّ أكثركم فاسقون﴾**: هنا يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ أن يسأل أهل الكتاب ماذا ينقمون من المسلمين؟. ولماذ يعادونهم ويتخذون دينهم هزؤاً ولعباً؟. الجواب عن هذا واضح ملموس محسوس: العصبية الجنسية، والحسد الدفين في النفوس الشقيّة، والتقاليد الباطلة للموروثات السخيفة الغبيّة، والخروج عن حظيرة العقل والتعاليم المرَضيّة!. وعبارة وأنّ أكثركم فاسقون دقيقة جداً في إصدار هذا الحكم على الأمم أو الجماعات؛ إذ هو يصدر الحكم على الكثير أو الأكثر، وعندما يعمم يستثني، وقد كان في أهل الكتاب ناس تمسكوا واعتصموا بجوهر دينهم؛ من التوحيد وحب الحق والعدل، وهم الذين سارعوا إلى الإسلام عندما عرفوا حقيقة أمره، وتجلى لهم صدق الداعي إليه...

﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾: في هذا انتقال بهم من تبكيت لهم بإقامة الحجة على هزئهم ولعبهم بما ذكر، إلى ما هو أشد منه تبكيتاً وتشنيعاً عليهم؛ ذلك هو التذكير بسوء حال آبائهم مع أنبئائهم، وما كان من جزاء الله لهم على فسقهم وتمردهم بأشد ما جازى به الفاسقين ـ الذين ظلموا أنفسهم ـ من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت، وقد فصّل هذا الثواب الخطير في مواضعه. وفي هذا الجواب تهكّم واضح؛ لأنّ اللعن والغضب والمسخ ليست مثوبات، وهذا متعارف عند العرب في خطبها وأشعارها، والمقصود من ذكر ذلك هنا: تعيير اليهود المجادلين للمسلمين المستهزئين بدينهم بمساوي أسلافهم، إبكاتاً لهم عن التطاول، على أنّه إذا كانت شنشنتهم أزمان قيام الرسل وهم بين ظهرانيهم، فهم فيما بعد ذلك أسوأ حالاً وأجدر بكونهم شراً، ويكون الكلام من ذم القبيل كله، على أنّ كثيراً من موجبات اللعن والغضب والمسخ قد ارتكبتها الأخلاف، على أنّهم شتموا المسلمين بما زعموا أنّه دينهم!.

وعلى هذا كله فلا غضاضة ولا ملام على من ردّ عليهم بأنكى مما قالوا وفعلوا!؛ فالجزاء من جنس العمل. ولا غرابة في ذلك عندما يثير هذا الهزء بالمستهزئين، ويستخدم هذا اللفظ تنكيتاً وتوبيخاً. . . ﴿**أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل. وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون. وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون**﴾: خُصَّ بهذه الصفات المنافقون من اليهود من جملة الذين اتخذوا الدين هزؤاً ولعباً، فاستكمل بذلك التحذير ممن هذه صفَتُهُم المعلنين منهم والمنافقين.

إنّ قباحة هذا العمل الذي يعمله المجاهرون بالكفر، ووقاحة هذا القول الذي يقوله المنافقون بالخداع والمكر لمما يقوّض نظم المجتمع؛ فويل لمجتمع يعيش فيه أمثال هؤلاء الذين أفسدوا الأخلاق ودنّسوا النفوس!. . ﴿**لولا ينهاهم الربّانيّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون**﴾: هذا توبيخ شنيع ولوم فظيع على ترك الحبل على الغارب ـ كما يقولون ـ لأولئك الآثمين المفسدين دون ردعٍ من عالمٍ أو أمير!. والسياق يُلمِّح هنا عندما اقتصر في توبيخ الربّانيّين على ترك نَهيهم عنٍ قول الإثم وأكل السحت، ولم يذكر العدوان، إلى أن العدوان يزجرهم عنه من وقع عليهم هذا العدوان، ولا يلتجئون في زجرهم إلى غيرهم؛ لأنّ الاعتماد في النصرة على غير المجني عليه ضعف وخور وجبن، كما قيل:

ماحك جلدك مثل ظفرك فتول أنت شؤون أمرك!

. . لبئس ما كانوا يصنعون: في هذا التعليق الإنكار الشديد والتوبيخ والتهديد لكل من يقصّر في الهداية والإرشاد، لأي كائن كان من الرؤساء والحكام والقوّاد. فحق على العلماء وأهل العقد والحل أن يعتبروا بهذا النعْيِ على اليهود ساسة وعلماء ومُربّين، فيزدجروا ويعلموا أنّ هذه موعظة وذكرى إِن نفعت الذكرى!. «وذكر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين»!. «ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين. . . ».

﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة**﴾: هنا يُبَيِّنُ سوء معتقد اليهود وخبث طويتهم، والغرض منه إظهار فرط التنافي بين ما عليه اليهود من الدين، وبين ما عليه أهل

الحق من المسلمين؛ وهذا قول اليهود الصرحاء غير المنافقين!. ومعنى يد الله مغلولة: الوصف بالبخل في العطاء. وقول اليهود هذا حكى القرآن مثله: «لقد سمع الله قول الذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء»!. وفي هذا استخفاف ظاهر بالله ودينه، وما فيه من العجرفة والتأفف من تصرف الله تعالى!. فلا يقابل هذا إلاّ بقول أغلظ منه وأشدّ نكاية وأقوى زراية بالدعاء عليهم بهذا الداء الوبيل...

﴿**غُلَّت أيديهم ولعنوا بما قالوا**﴾: لقد تحقق فحو هذا الدعاء، حيث سجلت على اليهود لعنة البخل والشح، فلم يزالوا ولن يزالوا أبخل الأمم، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً إلاّ إذا كان يرى أنّ له من ورائه ربحاً أكثر مما أعطى، وتاريخ اليهود حافل بهذه المظاهر في جميع معاملاتهم. ثم ردّ الله سبحانه عليهم ما قالوه، وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء... ﴿**بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء**﴾: وعبارة اليدين تعني سعة الجود مع الدقة والضبط المقصود، لا كما يقول الناس: هيل بلا كيل!. وإنّما ينفق كيف يشاء بسطاً وتقديراً، وهي إشارة واضحة إلى أن تقتيره الرزق على بعض الناس، لمصلحة تقتضيها سيرتهم الاختيارية الحرة؛ مثل العقاب على كفران النعمة، وعلى مبدإ: «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، ولكن يُنَزِّلُ بقدر ما يشاء إنّه بعباده خبير بصير...» ﴿**وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربّك طغياناً وكفراً**﴾: هذا الكلام الغرض منه بيان السبب الذي بَعَثَهُم على تلك المقالة الشنيعة، حيث أعْماهُم الحسدُ فزادهم طغياناً وكفراً، وفي هذا إعداد للرسول والمؤمنين لأخذ الحذر منهم، وتسلية لهم بأنّ فرط حنقِهم هو الذي أنطقهم بذلك القول الفظيع، مع أنّ ما نطق به القرآن من خفيّ أمور اليهود المعاصرين، ومن أحوال سلفهم وشؤون كتبهم وحقائق تاريخهم؛ فأظهر هذه الحقائق التي قد تكون خفيت حتى على الذين يدّعون العلم من اليهود، فهذا أعظم دليل على صدق مَنْ أُنزل عليه هذا القرآن، فكان هذا من أقوى العوامل على إيمان اليهود بهذا الرسول الأمي الذي لا يعرف عن أحوال العالم شيئاً، لولا الوحي الذي أظهر له ما خفي من أمرهم، لكنّهم بطغيانهم وتجاوزهم الحدود في الكفر والحسد بك بوجه خاص وللعرب بوجه عام لم يجذبهم ذلك إلى الإيمان...

﴿**وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة**﴾: هذا عقاب على ما فرط

من اليهود في هذه الدنيا؛ بأن ألقى البغضاء بين بعضهم وبعض، فهو جزاء من جنس العمل. وفيه تسلية للرسول وللمؤمنين أن لا يهمهم أمْرُ عَدَاوتِهِم، فإنّ البغضاء سجيتهم حتى بين أقوامهم، وأنّ هذا الوصف دائمٌ لَهُم شأن التي عمى أصحابها عن مداواتها بالتخلق الحسن. ومن هذا يظهر الفرق بين قوله في حق النصارى: «فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء»، وبين قوله في حق اليهود: وألقينا بينهم العداوة والبغضاء؛ فالإغراء إطماع!، والإلقاء إيقاع!..

﴿**كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله**﴾: المعروف في اليهود قديماً وحديثاً أنّهم دعاة شرٍّ ومسعري نار الحرب، فقد كانوا يغرون المشركين بالنبي وأصحابه، وهم الذين حرّضوا الروم على غزوهم، ومنهم من كان يؤوي أعداءهم ويساعدهم، وما سبب ذلك إلاّ الحسد والعصبية، وخوف من الإسلام إزالة سيطرتهم الموهومة، ولم يكن حرب من الحروب سواء كانت بين المسلمين بعضهم مع بعض، أو بين المسلمين وبين غيرهم، أو بين غير المسلمين بعضهم مع بعض، إلاّ ولليهود فيها النصيب الأوفى...

﴿**ويسعون في الأرض فساداً**﴾: فسعي اليهود دائماً لإيقاظ الفتن وإيقاد الحروب بين البشر، فلم يكن بقصد الإصلاح للأخلاق وشؤون العمران والاجتماع، بل كانوا يقصدون السعي في الأرض للفساد، ويحاولون دائماً الكيد للمؤمنين ومنع اجتماع كلمتهم، ويودّون أن يكون الناس أمّيّين جاهلين، ويحاولون أن يسيطروا على مقومات الثقافة والعرفان؛ حسداً للناس وحُبّاً في دوام امتيازهم عنهم، ولكن اليهود هم اليهود مهما سيطروا على وسائل الاقتصاد والثقافة والسياسة وسائر شؤون الاجتماع، لازالوا ولا يزالون مبغوضين من جماهير الشعوب أفراداً أو جماعات، حتى أصبحت كلمة اليهوديّ وحدَها تثير البغض والاشمئزاز بمجرد النطق بها!..

﴿**والله لا يحب المفسدين**﴾: ومن هذا الحكم الربّاني نعلم علماً لا يحوم الشك حوله أنّ اليهود لا يصلون إلى هدفهم؛ فلا ينجح سعيهم ولا يصلح عملهم؛ لأنّهم يريدون أن يُبطلوا حِكْمَةَ الله في صلاح الناس وعمران البلاد...
﴿**ولو أنّ أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيآتهم ولأدخلناهم جنات النعيم**﴾: في هذا الكلام إعلام من الله بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيآتهم،

ودلالة سعة رحمة الله بفتحه باب التوبة أمامَهم وأمامَ كلّ عاصٍ، وإن عظمت معاصيه وبلغت مبلغ سيآت اليهود والنصارى، وإخبار من الله تعالى أنّ الإيمان لا يثمر إلاّ بالتقوى، والتقوى لا تكون إلاّ بتشريع منهج منزل من عنده تعالى: ﴿**ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾: إنّ إقامة منهج الله على ما يرضي الله هو سبب سعادة البشر، والتوراة والإنجيل فيهما نور التوحيد، والبشارة بالنبي المبعوث رحمة للعبيد، والقرآن الذي أنزله الله إلى البشر جميعاً، وبشرت به كتب الله والرسل جميعاً، لو أقام اليهود والنصارى هذا المنهج لوسّع الله عليهم رزقهم، ولأعطتهم السماء بركتها، والأرض نباتها وخيراتها، ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون». وفي هذا تنبيه إلى قاعدة عامّة، وهي أنّ ما يصاب الناس من الضنك والضيق وسوء الحال إنّما هو من شُؤم جناياتهم، لا من قصور في فيض الله وعظيم عطائه.

والذي عند اليهود والنصارى ليست التوراة والإنجيل المنزلة من عند الله، وإنّما هي أماني يتمنونها كتبت لهم حسب أغراض وشهوات سادتهم، وبدع وتقاليد يتوارثونها، فهم بين غلو وتقصير وإفراط وتفريط. وهذا الكلام لا ينطبق على جميع أهل الكتاب بل فيهم الصالحون، وهم الذين أسلموا، كعبدالله بن سلام وأضرابه من اليهود، والنجاشي وأصحابه من نصارى الحبشة، وغيرهم من بقية النصارى: ﴿**منهم أمّة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون**﴾. وهذه الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال لها نظائر في آيات أخرى، ومغزى هذا أنّ العبرة في الأديان هو العمل بها والاهتداء بهديها، وقد كان أهل الكتاب في ذلك أبعد ما كانوا عند هداية دينهم مع شدة عصبيتهم الجنسية له. ولا يخفى أن حال المسلمين اليوم مثل... ما كان عليه حال اليهود والنصارى بالأمس (لَتَتَّبِعُنَّ سنن من قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع..!). وهذا التقسيم بين أهل الكتاب من المحسن والمسيء ما كانوا عليه قبل مجيء الإسلام، أمّا بعد الإسلام فأهل الكتاب، إمّا سيّئ العمل، وهو من لم يسلم، وسابق في الخيرات، وهم الذين أسلموا من اليهود والنصارى كما سبق في التقسيم قريباً.

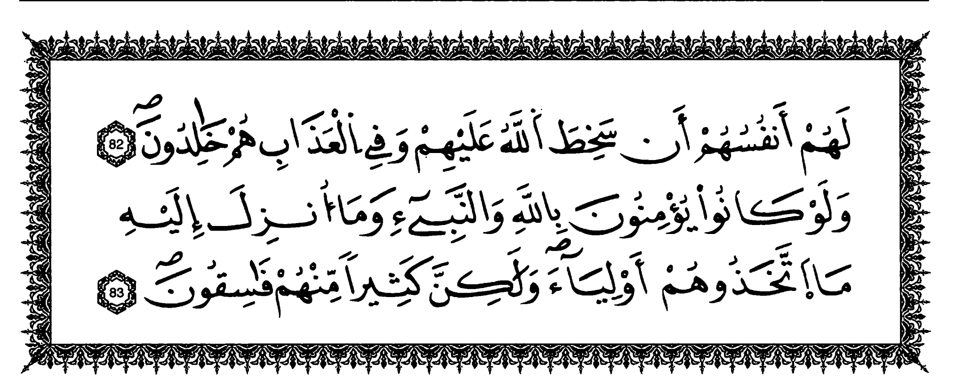
8 ـ توضيح الدلالة في إيجاب تبليغ الرسالة

النص

* يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ
وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (69) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ
طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (70)
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (71) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا
لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (72)
وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ (73) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ
هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا

ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ
عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ (74)
لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ
إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ (75) أَفَلَا يَتُوبُونَ
إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (76)

* مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ
وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ
نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ (77)
قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ
ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (78)
قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ
كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (79) لُعِنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى
ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ (80)
كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (81)
تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ



البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**بلّغ ما أنزل إليك من ربّك**﴾: أصل التبليغ: جَعْلُ الشيء بالغاً، والبلوغ: الوصول إلى المكان المطلوب وصولُه، والتبليغ المأمور به هنا: تبليغ ما أنزل من القرآن في تقريع أهل الكتاب... ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾: العصمة: الحفظ والرعاية والوقاية، يقال: عصم اللهُ فُلاناً من المَكْرُوهِ؛ حفظه ووقاه، والعصمة: ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها، ومعناها العام: هي كل ما يحفظ الشيء ويمسكه ويشدّه، مثل عصام القِرْبَة، والعصمة هنا: الحفظ والوقاية من كيد أعدائه... ﴿**ياأهل الكتاب**﴾: نداء لليهود والنصارى... ﴿**لستم على شيء**﴾: نفي أن يكونوا متّصفين بشيء من التديّن والتقوى، والشيء: اسم لكل موجود، فهو اسم متوغل في التنكير صادق بالقليل والكثير، ويُبَيِّنُه السياق أو القرائن، فالمراد هنا: شيء من أمور الكتاب، والمقصود نفيُ أن يكون لهم حظٌّ معتدٌّ به عند الله تعالى، ويقولون: هذا ليس بشيء، مع أنّه شيء لا محالة ومشار إليه، ولكنهم يُريدون أنّه غيرُ معتدّ به، والمقصود من الآية إنّما هو إقامة التوراة والإنجيل عند مجيء القرآن، من الاعتراف بما في التوراة والإنجيل من التبشير بمحمد ﷺ حتى يؤمنوا به وبما أُنزل إليه... ﴿**فلا تأس على القوم الكافرين**﴾: الأسى: الحزن وأصله اتباع الفائت بالغم، فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم، والمراد بالقوم الكافرين: هم الذين صار الكفر لهم سجية وصفة تتقوَّمُ بها شخصيتهم...

﴿**إنّ الذين آمنوا**﴾: هم الذين آمنوا بالله إيماناً مطلقاً دون تلبيس بدين فاسد مثل الوثنية والمجوسية، ولم يزيفوه مثل اليهودية والنصرانية والصابئة. . . ﴿**والصابون**﴾: هم فرقة من الناس كانوا وقت نزول القرآن يعبدون الكواكب ويتخذون لها هياكل في الأرض يتقرّبُون لها فيها. . . ﴿**كلّما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم**﴾: بما لا تحبّه أنفسهم، يقال: هوى يهوى: بمعنى أحبَّ ومالت نفسه إلى ملابسة شيء. . . ﴿**وحسبوا ألاّ تكون فتنة**﴾: الفتنة: مَرَجُ أحوال الناس واضطراب نظامهم من جراء أَضْرَارٍ وَمَصَائِبَ متوالية، وأصل الفتنة: الاختبار والتمحيص للشيء حتى يظهر على ما هو عليه من صلاح أو فساد. . . ﴿**ثالث ثلاثة**﴾: واحد من تلك الثلاثة؛ لأنّ العرب تصوغ من اسم العدد من اثنين إلى عشرة صيغة فاعل مضاف إلى اسم العدد المشتق هو منه؛ لإرادة أنّه جزء من ذلك العدد، نحو: ثاني اثنين، فإن أرادوا أنّ المشتق له وزن فاعل هو الذي أكمل العدد، أضافوا وزن فاعل إلى اسم العدد الذي هو أرقى منه فقالوا: رابع ثلاثة، بمعنى جاعل الثلاثة أربعة. . .

﴿**انظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون**﴾: انظر أيُّها السامع نظرة عقل وفهم كيف نبيّن لهؤلاء النصارى العلامات والبراهين البالغة أقصى الغايات في الوضوح على ما يدّعون في أمر عيسى، ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها ويُصرفون بسبب ما اعتراهم من السفه والطيش، فكأنّهم فقدوا عقولهم، وصارت أفئدتهم هَوَاء!. . ﴿**لا تغلوا**﴾: الغلو: الإفراط وتجاوز الحدّ. . . ﴿**ولا تتبعوا أهواء قوم**﴾: الأهواء جمع هوى، وهي الآراء التي تدعو إليها الشهوة دون الحجّة. . . ﴿**وسواء السبيل**﴾: وسطه، والمراد به هنا: الدين الحق الذي لا غلوّ فيه بإفراط أو تفريط، وهو الإسلام. بقية معنى الكلمات واضحة ظاهرة لا تحتاج إلى بيان.

مبحث الإعراب:

﴿**ياأيُّها الرسول**﴾ تقدم إعراب مثله. ﴿**بلّغ**﴾ فعل أمر، وفاعله المخاطب (أنت). ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول بلّغ. ﴿**أُنزل**﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما. ﴿**إليك من ربّك**﴾ متعلقان بأُنزل، والجملة صلة ما. ﴿**وإن لم تفعل**﴾ جملة معطوفة على بلّغ، والفعل مجزوم بلم، وجملة فعل الشرط في محل جزم، وفاعله ضمير المخاطب (أنت). ﴿**فما**﴾ الفاء

رابطة لجواب الشرط، وما حرف نفي. ﴿**بلّغت**﴾ فعل وفاعل. ﴿**رسالاته**﴾ مفعول بلّغت منصوب بالكسرة؛ لأنّه جمع مؤنث سالم، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة فما بلّغت في محل جزم جواب الشرط. ﴿**واللهُ**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**يعصمك**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**من الناس**﴾ متعلق بيعصمك، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يهدي**﴾ فعل مضارع منفي بلا مرفوع بضمّة مقدّرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**القوم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**الكافرين**﴾ نعت للقوم منصوب بالياء، وجملة لا يهدي في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ الله تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿**قل**﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير المخاطب (أنت). ﴿**يا**﴾ حرف نداء، ﴿**أهل**﴾ منادى منصوب بالفتحة. ﴿**الكتاب**﴾ مضاف إلى أهل مجرور بالكسرة. ﴿**لستم**﴾ ليس واسمها. ﴿**على شيء**﴾ متعلق بمحذوف خبر ليس. ﴿**حتى**﴾ حرف عطف ونصب وغاية. ﴿**تقيموا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، وواو الجماعة فاعل. ﴿**التوراة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**والإنجيل**﴾ معطوف على التوراة. ﴿**وما**﴾ في محل نصب معطوف على التوراة. ﴿**أُنزل**﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما. ﴿**إليكم من ربّكم**﴾ متعلقان بأُنزل، والجملة صلة ما. ﴿**وليزيدنّ**﴾ فعل مضارع دخلت عليه لام القسم، مبنيّ على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿**كثيراً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لكثيراً. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل رفع فاعل يزيدنّ. ﴿**أُنزل إليك من ربّك**﴾ إعرابها مثل ما تقدم. ﴿**طُغْيَاناً**﴾ مفعول ثانٍ ليزيدنّ منصوب بالفتحة. ﴿**وكفراً**﴾ معطوف عليه، وجملة ليزيدنّ جواب لقسَم مقدَّرٍ لا محل لها من الإعراب. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتعقيب، ولا ناهية. ﴿**تأس**﴾ فعلَ مضارع مجزوم بحذف الألف، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**على القوم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**الكافرين**﴾ نعت للقوم.

﴿**إنّ الذين**﴾ إنّ واسمها. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**والذين هادوا**﴾ معطوف على الذين آمنوا مثله في الإعراب. ﴿**والصابون**﴾ مبتدأ مرفوع بالواو، وخبره

محذوف تقديره كذلك، وهو معطوف على محل إنّ الذين آمنوا. ﴿**والنصارى**﴾ يمكن أن يُعطف على الذين آمنوا فيكون منصوباً، ويمكن أن يعطف على الصابون فيكون مرفوعاً. ﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ. ﴿**آمن**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة مَنْ. ﴿**بالله**﴾ متعلق بآمن. ﴿**واليوم**﴾ معطوف على الله. ﴿**الآخر**﴾ نعت لليوم. ﴿**وعمل**﴾ معطوف على آمن، وهو مثله في الإعراب. ﴿**صالحاً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**فلا خوف عليهم**﴾ خبر المبتدإ، وهي جملة من مبتدإ وخبر، وهو أظهر لوجود الجملة الثانية بعدها المعطوفة عليها. ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ دخلت الفاء لشبهها بالجملة الشرطية، وجملة من آمن بالله في محل رفع خبر إنّ.

﴿**لقد**﴾ اللام للتأكيد، وقد للتحقيق. ﴿**أخذنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ميثاق**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**بني**﴾ مضاف إلى ميثاق مجرور بالياء. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بني مجرور بالفتحة لمنعه من الصرف بالعلمية والعجمة. ﴿**وأرسلنا**﴾ معطوف على أخذنا. ﴿**إليهم**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**رسلاً**﴾ مفعول به. ﴿**كلّما**﴾ كلّ نصب على الظرفية، ما مصدرية مبهمة مضافة إلى كل، والتقدير ففي كل وقت من أوقات مجيء الرسل كذبوا ويقتلون. ﴿**جاءهم رسول**﴾ فعل وفاعل. وانتصب كلّما بالفعلين: كذّبوا ويقتلون على التنازع. وفريقاً في الموضعين مفعول به وجملة كذبوا في محل نصب حال من ضمير إليهم. ﴿**بما لا تهوى أنفسهم**﴾ متعلق بجاء، وجملة لا تهوى أنفسهم من الفعل والفاعل صلة ما لا محل لها من الإعراب. ﴿**فريقاً**﴾ مفعول به. ﴿**كذبوا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل نصب حال من ضمير إليهم كذلك، وانتصب كلما بالفعلين كذبوا ويقتلون على التنازع. ﴿**وحسبوا**﴾ عطف على قوله كذّبوا. ﴿**أنْ**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**لا**﴾ حرف نفي. ﴿**تكون**﴾ فعل مضارع منصوب بأنْ. ﴿**فتنة**﴾ فاعل تكون، وهي هنا تامّة لا تحتاج إلى خبر، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر سدّ مسدّ مفعوليْ حسب. ﴿**فعموا**﴾ الفاء للترتيب. عموا فعل وفاعل. ﴿**وصموا**﴾ معطوف على عموا.

﴿**ثم**﴾ للعطف المتراخي. ﴿**تاب الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بتاب. ﴿**ثم عموا وصموا**﴾ جملة معطوفة على عموا وصموا الأولين. ﴿**كثيرٌ**﴾ بدل من

واو الجماعة مرفوع بالضمة. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لكثير. ﴿**والله بصير**﴾ جملة تذييلية. ﴿**بما**﴾ متعلق ببصير. ﴿**يعملون**﴾ صلة ما. ﴿**لقدْ**﴾ اللام للقسم، قد للتحقيق. ﴿**كفر الذين**﴾ فعل وفاعل. ﴿**قالوا**﴾ صلة الذين. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**المسيحُ**﴾ خبر إنّ. ﴿**ابن**﴾ نعت للمسيح. ﴿**مريم**﴾ مضاف إلى ابن مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث، وجملة إنّ الله في محل نصب مقول القول. ﴿**وقال المسيح**﴾ فعل وفاعل معطوف على قالوا.

﴿**يا**﴾ حرف نداء، ﴿**بني**﴾ منادى منصوب بالياء. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بني. ﴿**اعبدوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**اللهَ**﴾ مفعول به. ﴿**ربيّ**﴾ نعت لله منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها حركة المناسبة، وياء المتكلم في محل جر مضافة إلى رب. ﴿**وربّكم**﴾ معطوف على رب منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة اعبدوا الله في محل نصب مقول القول. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**مَنْ**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**يشركْ**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**بالله**﴾ متعلق بيشرك. ﴿**فقد**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، قد للتحقيق. ﴿**حرّم اللهُ**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليه**﴾ متعلق بحرّم. ﴿**الجنّة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، وجملة فقد حرّم الله في محل جزم جواب الشرط، وجملة مَنْ يشرك في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّه من يشرك تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ومأواه النار**﴾ جملة من مبتدإ وخبر معطوفة على قوله: حرّم. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، ما نافية. ﴿**للظالمين**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**من أنصار**﴾ مبتدأ مؤخّر دخلت عليه من الزائدة فجُرَّ لفظاً ورفع محلاً، وجملة وما للظالمين من أنصار تذييل.

﴿**لقد كفر الذين قالوا إنّ الله**﴾ إعرابها مثل ما سبقها. ﴿**ثالث**﴾ خبر إنّ مرفوع بالضمة. ﴿**ثلاثة**﴾ مضاف إلى ثالث مجرور بالكسرة، وجملة إنّ الله ثالث في محل نصب مقول القول. ﴿**وما**﴾ الواو واو الحال، ما للنفي. ﴿**من إله**﴾ مبتدأ دخلت عليه من الزائدة مجرور لفظاً مرفوع محلاً. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**إله**﴾ بدل من خبر المبتدإ المقدر مرفوع بالضمة. ﴿**واحد**﴾ نعت له، وجملة وما من إله في محل نصب حال من ضمير قالوا، ويصح أن يكون لمجرد العطف على قالوا. ﴿**وإن**﴾ الواو للعطف، إنْ حرف شرط جازم. ﴿**لم**﴾ حرف نفي وجزم

وقلب. ﴿**ينتهوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، وواو الجماعة فاعل. ﴿**عمّا**﴾ متعلق بينتهوا. ﴿**يقولون**﴾ صلةُ ما، وجملة لم ينتهوا في محل جزم فعل الشرط. ﴿**ليمسنّ**﴾ اللام واقع في جواب القسم، يمسنّ فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد.

﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**كفروا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**منهم**﴾ بيانية. ﴿**عذاب**﴾ فاعل يمسنّ. ﴿**أليم**﴾ نعت له، وجملة ليمسنّ جواب القسم المقدّر، وهي بدورها نائبة عن جواب الشرط في قوله: وإن لم ينتهوا عمّا يقولون. ﴿**أفلا**﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء للعطف على مقدّر، لا حرف نفي. ﴿**يتوبون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إلى الله**﴾ متعلق يتوبون. ﴿**ويستغفرونه**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على يتوبون. ﴿**والله غفور رحيم**﴾ جملة من مبتدإ وخبر تذييلية. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**المسيحُ**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**ابنُ**﴾ نعت له. ﴿**مريم**﴾ مضاف إلى ابن مجرور بالفتحة. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرّغ. ﴿**رسول**﴾ بدل من خبر المبتدإ المقدّر مرفوع بالضمة. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**خلت**﴾ فعل ماض. ﴿**من قبله**﴾ متعلق بخلت. ﴿**الرسل**﴾ فاعل خلت. ﴿**وأمُّه صديقة**﴾ جملة من مبتدإ وخبر معطوفة على جملة خلت. ﴿**كانا**﴾ كان واسمها. ﴿**يأكلان**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل نصب خبر كان. ﴿**الطعامَ**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والجمل بعد قوله: إلاّ رسول أوصاف له. ﴿**انظر**﴾ فعل أمر. ﴿**كيف نبيّن لهم الآيات**﴾ في محل نصب معمول انظر. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف. ﴿**انظر أنّى يؤفكون**﴾ مثل انظر كيف. ﴿**قل**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب (أنت).

﴿**أتعبدون**﴾ الهمزة للاستفام، تعبدون فعل وفاعل. ﴿**من دون**﴾ متعلق بتعبدون. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى دون مجرور بالكسرة. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**لا**﴾ حرف نفي. ﴿**يملك**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على ما، والجملة صلة ما. ﴿**لكم**﴾ متعلق بيملك. ﴿**ضراً**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**ولا نفعاً**﴾ معطوف على ضراً. ﴿**والله هو السميع العليم**﴾ جملة من مبتدإ وخبر تذييلية، ويجوز أن تكون حالية. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**ياأهل الكتاب**﴾ منادى منصوب بالفتحة لأنّه مضاف، والكتاب مضاف إليه. ﴿**لا تغلوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وواو الجماعة فاعل. ﴿**في دينكم**﴾ متعلق بالفعل قبله،

وجملة لاتغلوا في دينكم في محل نصب مقول القول. ﴿**غير**﴾ منصوب على النيابة عن المفعول المطلق. ﴿**الحق**﴾ مضاف إلى غير.

﴿**ولا تتبعوا**﴾ معطوف على قوله: لا تغلوا. ﴿**أهواء**﴾ مفعول به. ﴿**قوم**﴾ مضاف إلى أهواء. ﴿**قد ضلوا**﴾ فعل وفاعل في محل جر نعت لقوم. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بضلوا. ﴿**وأضلوا**﴾ معطوف على ضلوا. ﴿**كثيراً**﴾ مفعول به. ﴿**وضلوا**﴾ كذلك. ﴿**عن سواء**﴾ متعلق بضلوا. ﴿**السبيل**﴾ مضاف إلى سواء. ﴿**لُعِنَ**﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول. ﴿**الذين**﴾ نائب الفاعل. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**من بني**﴾ متعلق بمحذوف حال من ضمير كفروا. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بني مجرور بالفتحة. ﴿**على لسان**﴾ متعلق بلُعن. ﴿**داوود**﴾ مضاف إلى لسان مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**وعيسى ابن مريم**﴾ معطوف على داوود. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**بما**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**عصوا**﴾ صلة ما. ﴿**وكانوا يعتدون**﴾ جملة من كان واسمها وخبرها معطوفة على عصوا. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها.

﴿**لا يتناهون**﴾ فعل مضارع منفي بلا، وواو الجماعة فاعل، والجملة في محل نصب خبر كان. ﴿**عن منكر**﴾ متعلق بيتناهون. ﴿**فعلوه**﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل جر نعت لمنكر. ﴿**لبئس**﴾ اللام واقعة في جواب قسم مقدّر مؤكد للحكم، بئس فعل ماض. ﴿**ما**﴾ اسم موصول فاعل بئس. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يفعلون**﴾ فعل وفاعل في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا يفعلون صلة ما. ﴿**ترى**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**كثيراً**﴾ مفعول به. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمقدّر بيان لكثيراً. ﴿**يتولون**﴾ فعل وفاعل في محل نصب حال من كثيراً لوصفه. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**لبئس**﴾ مثل سابقتها. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل رفع فاعل بئس. ﴿**قدّمت لهم أنفسهم**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**أن**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**سخط الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بسخط، والجملة بدل من قوله: ما قدّمت. ﴿**وفي العذاب**﴾ متعلق بخالدون.

﴿**هم**﴾ مبتدأ. ﴿**خالدون**﴾ خبر المبتدإ، والجملة معطوفة على أن سخط الله عليهم. ﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، لو حرف امتناع لامتناع متضمن معنى الشرط.

﴿**كانوا**﴾ كان واسمها، وهو فعل الشرط. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل وفاعل في محل نصب خبر كان. ﴿**بالله**﴾ متعلق بيؤمنون. ﴿**والنبيء**﴾ معطوف على الله. ﴿**وما**﴾ معطوف على الله. ﴿**أُنزل**﴾ إليه صلة ما. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**اتخذوهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**أولياء**﴾ مفعول ثانٍ لاتخذوا، وجملة ما اتخذوهم جواب الشرط (لو). ﴿**ولكنّ كثيراً**﴾ لكنّ واسمُها. ﴿**منهم**﴾ بيان له. ﴿**فاسقون**﴾ خبر لكنّ، والجملة معطوفة على قوله: ولو كانوا. . .الخ.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ياأيُّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك**﴾: ربط هذا الكلام بما قبله واضح جليّ؛ ذلك عندما عاد الخطاب للرسول ﷺ ثانية، بتثبيت قلبه وشرح صدره بأن يدوم على تبليغ الشريعة، ويجهد في ذلك، ولا يكترث بالطاعنين من أهل الكتاب والمنافقين والكفار أجمعين، وهم الذين هوّن الله أمْرَهُم في قوله: «ياأيُّها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا. . .الخ».

وأعيد الخطاب بنفس الوصف الذي تقدم في الخطاب الأول؛ لزيادة بيان منتهى شرفه؛ لأنّه هو الواسطة بين الله وبين خلقه، ففي هذا الخطاب الثاني موقع زائد على موقعه في الخطاب الأوّل، وهو ما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الكلام الآتي بعده، وهو قوله: «وإن لم تفعل فما بلّغت رسالاته»، كما قال تعالى: «ما على الرسول إلاّ البلاغ»، فكما ثبّت قلبه بالخطاب الأوّل أن لا يهتم بمكائد أعدائه، حذّره بالخطاب الثاني من ملاينتهم في إبلاغهم قوارع القرآن.

وقوله. . . ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾: عِدَةٌ كريمةٌ بِعِصْمَتِه من لُحُوقِ ضرَرِهِمْ، باعثة له على الجِدِّ في ما أُمِرَ به. وفي قوله. . . ﴿**إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ تعليل لعصمة الله تعالى لرسوله ﷺ؛ فحصل بآخر هذا الخطاب ردّ العجز على الصدر في الخطاب الأوّل الذي تضمنه قوله: ﴿**لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾، فإنهّم هم القوم الكافرون، والذين يسارعون في الكفر. ورد العجز على الصدر من الأسلوب البلاغي البديع. والإتيان بلفظ الرّبّ هنا دون اسم الجلالة في قوله: ﴿**بلّغ ما أنزل إليك من ربّك**﴾، لما في التذكير بأنّه ربّه من

معنى كرامته. ومن معنى أداء ما أراد بلاغه كما ينبغي؛ من التعجيل والإشاعة والحث على تناوله والعمل بما فيه. وقوله: **﴿وإن لم تفعل فما بلّغت رسالاته﴾**، جاء الشرط بإنْ التي شأنُها في كلام العرب عدم اليقين بوقوع الشرط؛ لأنّ عدم التبليغ غير مظنون بالرسول ﷺ وإنّما فرض هذا الشرط ليبني عليه الجواب، وهو قوله: فما بلّغت رسالاته، ليستفيق الذين يرجون أن يسكت الرسول عن قراءة القرآن النازل بفضائحهم من أهل الكتاب والمنافقين، وليبكّت من علم الله أنّهم سيغترُّون فيزعمون أنّ قرآناً كثيراً لم يبلغه رسول الله الأمّة. وقوله: والله يعصمك من الناس: افتتح باسم الجلالة للاهتمام به، فهو تثبيت للوعد وإدامة له، وأنّه لا يتغير بتغير صنوف الأعداء. ثم أعقبه بقوله: إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين: ليتبيّن أنّ المراد بالناس كفّارُهم، وليومي إلى أنّ سبب عدم هدايتهم هو كفرهم، والمراد بالهداية هنا تسديد أعمالهم وإتمام مرادهم، فهو وعدٌ لرسوله بأنّ أعداءه لا يزالون مخذولين لا يهتدون سبيلاً لكيد الرسول والمؤمنين؛ لُطْفاً منه سبحانه وتعالى، وليس المراد الهداية في الدين؛ لأنّ السياق غير صالح له...

﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربّكم﴾: إيراد هذا الكلام في تضاعيف الكلام الوارد في حقّ أهل الكتاب؛ لما أنّ الكل قوارع يسوء الكفار سماعها ويشق على الرسول مشافهتهم بها أعيد الأمر بقوله: قل...الخ، فتكون جملة ـ قل ياأهل الكتاب بياناً لجملة ـ بلّغ ما أنزل إليك من ربّك، ومعنى قوله: وما أنزل إليكم من ربّكم؛ ليكون القرآن داخلاً مع التوراة والإنجيل في طلب الإقامة، فإنّ إقامة الجميع لا تتأتى بغير ذلك. وتقديم إقامة الكتابين في الذكر على إقامة القرآن مع أنّها المقصودة بالذات لأنّه ناسخ للكتب السابقة؛ لرعاية حق الشهادة، واستنزالهم عن رتبة الشقاق. وإيراده بعنوان الإنزال إليهم للتصريح بأنّهم مأمورون بإقامته والإيمان به، لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب، وإضافة الرب إلى ضميرهم لبيان ما فيه من اللطف في الدّعْوَة.

وقوله تعالى: **﴿وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربّك طغياناً وكفراً﴾**: جملة مستأنفة مبيّنة لشدة شكيمتهم وغُلُوّهم في المكابرة والعناد، وعدم إقامة التبليغ نفعاً، وكونها متصلة بالعطف ومصدرة بالقسم لتأكيد مضمونها وتحقيق

مدْلُولها. ونسبة الإنزال إلى الرسول ﷺ مع نسبته فيما مر إليهم للإنباء عن انسلاخهم عن تلك النسبة... ﴿**فلا تأس على القوم الكافرين**﴾: ذكر لفظ القوم وأُتبع بوصف الكافرين ليدل على أنّ المراد بالكافرين هم الذين صار الكفر لهم سجية وصفة تتقوم بها شخصيتهم؛ تسجيلاً عليهم بالرسوخ في الكفر، وفي هذا إشارة إلى ما كان يعْتَلِجُ في صدر الرسول من رغبة في هدايتهم إلى الحق، ومن رحمة بهؤلاء الخلق، ومن أسف على إهلاكهم لأنفسهم من الكفر والفسق، ولعل هذه المشاعر الرحيمة التي كانت تعتلج في قلب الرسول الرحيم، هي التي اقتضت ذلك الأمر الجازم الحازم الذي يحمل ظل التهديد: ياأيُّها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالاته!..

﴿**إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾: تجيء هذه الآية هنا لمناسبتها للسياق الوارد مع موقف أهل الكتاب؛ لإيضاح أنّ العنوانات الدينية لا تجدي، إنّما تجدي حقيقة الإيمان مع العمل الإيجابي المصدق لحقيقة الإيمان. وفصلت الآية عما قبلها لتُجيب عن سؤال يخطر في نفس السامع لقوله: قل ياأهل الكتاب لستم على شيء، عن حال من انقرضوا من أهل الكتاب قبل مجيء الإسلام، هل هم على شيء أو ليسوا على شيء؟. وهل نفعهم اتباع دينهم أيَّامَئِذٍ؟. فوقع قوله: إنّ الذين آمنوا... الخ الآية جواباً لهذا السؤال المقدّر. وافُتتحت الآية بحرف إنّ للاهتمام بالخبر، وجمع الضمائر في خبر إنّ باعتبار معنى مَنْ، وأفردت صلة مَنْ باعتبار لفظها...

﴿**لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً**﴾: هذا كلام مبتدأ ـ جديد ـ مسوق لبيان بعضٍ آخر من جنايات اليهود المنادية باستبعاد الإيمان منهم. صُدِّرَتْ بالقسم والتحقيق ليتأكد الخبر تأكيداً قاطعاً دون احتمال أو تأويل... ﴿**كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم**﴾: هذه جملة تدل على فظاعة حالهم باستمرارهم في الكفر في كل وقت ومع كل رسول. وتقديم كلما على العامل شائعٌ لا يكاد يتخلف؛ لأنّهم يريدون بتقديمه الاهتمام به؛ ليظهر أنّه محل الغرض المسوقة له جملته، فإنّ استمرار صنيعهم ذلك مع جميع الرسل في جميع الأوقات دليل على أنّ التكذيب والقتل صارا سجيتين لهم لا تتخلّفان؛ إذ لم ينظروا إلى

حال رسول دون آخر. وبهذا التقديم يشرب ظرف كلّما معنى الشرطية فيصير العامل فيه بمنزلة الجواب له، وهو قوله: ﴿**فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون**﴾. وجيء بالمضارع هنا دون الماضي لاستحضار صورة القتل الهائلة للتعجيب منها، وللتنبيه على أنّ ذلك دَيْدَنَهُم المستمر، وللمحافظة على رؤوس الآي بشكل مستقر. وتقديم فريقاً في الموضعين للاهتمام به، وتشويق السامع إلى ما فعلوا به. . .

﴿**وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا**﴾: هذا الكلام يُبيّن فساد اعتقادهم الناشئ عنه فاسد أعمالهم؛ فعلوا ما فعلوا من الفظائع عن تعمد بغرور لا عن فلتة أو ثائرة نفس، حتى يُنيبُوا ويتوبوا، وظنّوا أنّ فعلتهم لا تلحقهم منه فتنة؛ فمن بديع إيجاز القرآن أن أومأ إلى سوء اعتقادهم في جزاء الآخرة، وأنّهم نبذوا الفكرة فيه ظِهْرِيّاً، وأنّهم لا يراقبون الله في ارتكاب القبائح، وإلى سوء غفلتهم عن فتنة الدنيا، وأنّهم ضالّون في كلا الأمرين!.

واستعير عموا وصمّوا للإعراض عن دلائل الرشاد من رسلهم وكتبهم؛ لأنّ العمى والصمم يوقعان في الضلال عن الطريق، وانعدام استفادة ما ينفع، فالجمع بين العمى والصمم جمع في الاستعارة بين أصناف حرمان الانتفاع بأفضل نافع، فإذا حصل الإعراض عن ذلك غلب الهوى على النفوس؛ لأنّ الانسياق إليه في الجبلة، فتجنّبه يحتاج إلى الوازع، فإذا انعدم الوازع جاء سوء الفعل، ولذلك كان قوله نعموا وصموا، مراراً منه معناه الكنائي أيضاً وهو أنّهم أساءوا الأعمال وأفسدوا، فلذلك استقام أن يعطف عليه قوله: ثم تاب الله عليهم، وقد تأكّد هذا المراد بقوله في تذييل الآية «والله بصير بما يعملون». وقد ناسب أن يذكر (بصير) هنا في صدد أولئك الذين عموا من باب المشاكلة في اللفظ. وقد استُفيد من قوله: «أن لا تكون فتنة»، وقوله: ﴿**ثم تاب الله عليهم**﴾، أنّهم قد أصابتهم الفتنة بعد ذلك العمى والصمم وما نشأ عنها عقوبة لهم، وأنّ الله لمّا تاب عليهم رفع عنهم الفتنة، ﴿**ثم عموا وصموا**﴾، أي عادوا إلى ضلالهم القديم وعملهم الذميم؛ لأنّهم مُصرُّون على حسبان أن لا تكون فتنة فأصابتهم فتنة أخرى.

وقد وقف الكلام عند هذا العمى والصمم الثاني ولم يذكر أنّ الله تاب عليهم بعده، فدلّ على أنّهم أعرضوا عن الحق إعراضاً شديداً مرة ثانية، فأصابتهم فتنة لم يتب الله عليهم بعدها!. وقد دلّت (ثم) على تراخي الفعلين المعطوفين بها عن

الفعلين المعطوف عليهما، وأنّ هناك عميين وصممين في زمنين؛ سابق ولاحق، ومع ذلك كانت الضمائر المتصلة بالفعلين المعطوفين عَيْنَ الضمائر المتصلة بالفعلين المعطوف عليهما، والذي سوّغ ذلك أنّ المراد بيان تكرر الأفعال في العصور وادعاء أنّ الفاعل واحد؛ لأنّ ذلك شأن الأخبار والصفات المثبتة للأمم والمسجّل بها عليهم توارث السجايا فيهم من حَسَنٍ أو قبيح، وقد علم أنّ الذين عموا وصمّوا ثانية غير الذين عموا وصمّوا أوّل مرة، ولكنهم لما كانوا خلفاً عن سلف، وكانوا قد أورثوا أخلاقهم أبناءهم اعتُبِرُوا كالشيء الواحد!. وإذ قد كان مرجع الضميرين الأخيرين في قوله: ثم عموا وصمّوا، هو عين مرجع الضميرين الأولين في قوله: فعموا وصمّوا، كان الإبدالُ من الضميرين الأخيرين المقيد تخصيصاً من عمومهما ـ وهو كثير ـ مفيداً خصيصاً من عموم الضميرين الذين قبلهما بحكم المساواة بين الضمائر، إذ قد اعتُبِرَتْ ضمائر أمّة واحدة. ومن الضروري أنّه لا تخلو أمّة ضالة في كل جيل من وجود صالحين فيها. . .

﴿**لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم**﴾: لما ذكر ما كان عليه اليهود من الكفر والضلال، وما حصل لهم من المصائب والوبال، ذكر ما كان عليه النصارى من الكفر وشناعة المقال؛ ليحكم عليهم بحكم واحد في نهاية المجال!. والرد على هذا الزعم بقول المسيح نفسه: ﴿**وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربّي وربّكم**﴾: فنفى المسيح هذه الشّبهة وكذّبهم في هذه الفِرْيَة، ثم عقب على هذه كلها بالحكم القاطع المدلل عليه بالبرهان الساطع: ﴿**إنّه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار**﴾: وهو تذييل لإثباتِ كفرهم، وزيادة تنبيه على بطلان معتقدهم، وتعريض بهم بأنّهم قد أشركوا بالله من حيث أرادوا التوحيد. والضمير المقترن بإنّ (إنّه) ضمير الشأن، يدلّ على العناية بالخبر الوارد بعده. . .

﴿**لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة**﴾. . . الخ: تكرير الكلام قُصد منه الانتقال إلى إبطال مقالة من مقالات طوائف النصارى. ونص الحكم بالكفر سواء. ومن مزيدة للاستغراق في قوله: ﴿**وما من إله إلاّ إله واحد**﴾، وهو بيانٌ للحق في الاعتقاد بعد ذكر الاعتقاد الباطل. وتفيد من كذلك تأكيد عموم النفي، فصار النفي بما المقترنة بمنْ مساوياً للنفي بلا النافية للجنس في الدلالة على نفي الجنس نصاً.

وعدل هنا عن النفي بلا إلى النفي بما ومنْ اهتماماً بإبراز حرف مِنْ الدال بعد النفي على تحقيقه، فإنّ النفي بلا تقدر معه من، وهنا ذكرت صراحة فأفادت وأغنت عن التقدير. ولمّا كان في الأسلوب حصر الألوهية في واحد انتفى التثليت من أساسه، وحيث ثبت التوحيد وانتفى التثليث فمن اعتقد غير هذا واستمر على كفره فلابد أن يأخذ جزاءه، وهو ما كان عليه الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة: وإن لم ينتهوا عمّا يقولون ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم!. وأكّد الوعيد بلام القسم والفعل المؤكد بالنون الثقيلة رَدّاً لاعتقادهم أنّ المسيح فداهم وأنقذهم. والمسّ مجاز في الإصابة؛ لأنّ حقيقة المسّ وضع اليد على الجسم، فاستُعمل في الإصابة بجامع الاتصال.

والمراد بالذين كفروا عين المراد بالذين قالوا: إنّ الله ثالث ثلاثة، فعدل عن التعبير عنهم بضميرهم إلى الصلة المقررة لمعنى كفرهم المذكور آنفاً بقوله: لقد كفر الذين قالوا. . .الخ؛ لقصد تكرير تسجيل كفرهم، وليكون اسم الموصول مُومِئاً إلى سبب الحكم المخبر به عنه، وعلى هذا يكون قوله: منهم، بياناً للذين كفروا قُصِد منه الاحتراس عن أن يتوهّم السامع أنّ هذا وعيد لكفار آخرين. ولمّا توعّدهم الله أعقب الترهيب بالترغيب في الهداية، فقال: ﴿**أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم**﴾: واجتمع في هذا الأسلوب؛ أسلوب التهديد، وأسلوب التحضيض، وأسلوب الدليل بالمنطق الحكيم، لينتهوا عما هم عليه من القول السقيم. ثم واجههم بالمنطق الواقعي القويم لعله يردعهم ويردهم إلى التفكير السليم: ﴿**ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾. . . الخ: ونظراً لوضوح هذا المنطق الواقعي ونصاعته التي لا يجادل فيها إنسان يَعْقِلُ؛ فإنّه يعقّب عليه بقوله: ﴿**انظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون**﴾: انظرْ واعْجَبْ كيف نبيّن لهم في يسر وبساطة ووضوح لا يقبل الجدل ولا الشك ولا التأويل، ثم انظر واعْجَبْ كيف يُصرفون عن هذا الحق السهل اليسير الواضح وينصرفون عنه إلى تعقيدات وتمويهات سوّلَتْها لهم شياطينهم فقلدوهم دون وعْيٍ أو تفكير!.

وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب، وجيء بثُمَّ بينهما لإظهار ما بين العَجْبين من التفاوت: إنّ بياننا للآيات أمر بديع في بابه بالغ لأقصى الغايات

القاصية من التحقيق والإيضاح، وإعراضهم عنها مع انتفاء ما يصححه بالمرة وتعاضد ما يوجب قبولها أعجب وأبدع!..

﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾: هذا أمر للرسول ﷺ بإلزامهم وتبكيتهم إثر تعجيبه من أحوالهم. والاستفهام للتوبيخ والتغليظ مجازاً. وقدم الضر على النفع؛ لأنّ النفوس أشد تطلعاً إلى دفعه من تطلعها إلى جلب النفع. ووجه الاستدلال على أنّ معبوداتهم لا تملك ضراً ولا نفعاً وقوع الإضرار بهم وتخلف النفع عنهم... **﴿والله هو السميع العليم﴾**: فيه قصر وحصر بواسطة تعريف الجزأين وضمير الفصل، وفي هذا الأسلوب تحقيقٌ لإبطال عبادة النصارى عيسى ومريم من ثلاثة طرق: طريق القصر، وطريق ضمير الفصل، وطريق جملة الحال باعتبار ما تفيده من مفهوم مخالفه...

﴿قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾: تلوين للخطاب وتوجيه له إلى فريقي أهل الكتاب بطريق الالتفات على لسان الرسول ﷺ، بعد إبطال مسلك كل منهما للمبالغة في زجرهم عما سلكوه من المسلك الباطل، وإرشادهم إلى المسلك الصحيح القويم... **﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾**: عطف على النهي عن الغلوّ، وهو عطف عام من وجه على خاص من وجه، ففيه فائدة عطف العام على الخاص، وعطف الخاص على العام، وهذا نهي لأهل الكتاب الحاضرين عن متابعة تعاليم الغُلاة من أحبارهم ورهبانهم الذين أساءوا فهم الشريعة عن هوى منهم مخالف للدليل...

﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم﴾: في هذا الكلام تخلُّص بديع لتخصيص اليهود بالإنحاء عليهم دون النصارى. والجملة خبرية مناسبة لجملة (قد ضلوا من قبل) تتنزل منها منزلة الدليل. وعلى في قوله: على لسان داوود للاستعلاء المجازي المستعمل في تمكن الملابسة، فهي استعارة تبعية لمعنى باء الملابسة، قصد منها المبالغة في الملابسة... **﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾**: إشارة إلى اللعن المذكور. وإيثاره على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازه عن نظائره وانتظامه بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال فظاعته وبعد درجته في الشناعة والهوْل. والجملة واقعة موقع الجواب عما نشأ من الكلام. وقد أفاد اسم الإشارة مع باء السببية ومع

وقوعه في جواب سؤال مقدّر، أفاد مجموع ذلك مفاد القصر. والمقصود بهذا القصر أن لا يضل الناس في تعليل سبب اللعن. وأفادت صيغة الماضي (بما عصوا) أنّ ذلك أمْرٌ قديمٌ فيهم. وصيغة المضارع (يعتدون) أنّه متكرر الحدوث مستمر فيهم. . .

﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**﴾: عبارة مفيدة لاستمرار عدم التناهي عن المنكر، ولا يمكن استمراره إلاّ باستمرار تعاطي المنكرات. والجملة مفسرة لما قبلها من المعصية والاعتداء، ومفيدة لاستمرارهما صريحاً. . . ﴿**لبئس ما كانوا يفعلون**﴾: تقبيح لسوء أفعالهم وتعجيب منه بالتوكيد القَسَمي. . . ﴿**ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون**﴾: في عرض هذا الأسلوب، وعلى ضوء ما يتراءى لنا منه، نرى: الضعف والخور والجبن المهيمن على نفوس هؤلاء، أمام من يتملقون لهم ويتولونهم ويتخذونهم أنصاراً وأعواناً دهاناً ورياءً واستجلاباً لما يعتقدون أنّه الخير في زعمهم، اتقاء للبطش الذي يتراءى لهم من ضعفهم: لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون!. والنفس تقدم لصاحبها الخير وتدّخر له النفع، ولكن أنفس هؤلاء القوم قدّمت لهم هذا البلاء، وادّخرت لهم هذا العناء!. .

﴿**ولو كانوا يؤمنون بالله والنبيء وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء**﴾: فالإيمان بالله والنبيء يحوّل الوجوه إلى الله، ويوجه القلوب إلى الله، ويُشعر المؤمنين أنّ قوة الله هي القوة، وأنّ العزة لله وللمؤمنين. . . ﴿**ولكن كثيراً منهم فاسقون**﴾: منحرفون عن طريق العقيدة القويمة التي تهدي القلب والعقل إلى الطريق القويم، فهم خارجون عن الدين والإيمان بالله ونبيئهم وكتابهم، وهكذا يتركهم وهم على هذه الحالة ملعونين مطرودين!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: يُوَجِّهُ فيه الرسول ﷺ إلى تبليغ الناس جميعاً على وجه العموم، وإلى تبليغ أهل الكتاب على وجه الخصوص: ﴿**ياأيُّها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالاته. .**﴾ وهي تكملة للحديث عن

أهل الكتاب، وما أخلفوا من مواثيق، وبيان للحق الذي كتموا أو ضيّعوا؛ سواء في العقيدة أم في الشريعة، وأمر جازم للرسول ﷺ أن يَجْبَهَ اليهودَ والنصارى المنحرفين عن كتابهم بحقيقة ما هم فيه، لا يكتم عنهم شيئاً ولا يجاملهم في الحق، ولا يحزن عليهم أو يأسف إذا تولوا عنه، ولا يخش أحداً من الناس، فالله عاصمه وحاميه، وهو استطراد في حديث العقود والمواثيق، فما التبليغ إلاّ عهد يجب أن يوفى كاملاً، وما ميثاق بني إسرائيل الذي أخلفوه إلاّ عقد نقضوه، وما ميثاق النصارى الذي نسوه إلاّ عقد نقضوه. وهكذا يستمر التوجيه في إظهار ما كان عليه اليهود والنصارى دون مُحاباة أو مواراة. إنّه الأمر الجازم بالتبليغ الكامل يحمل في طيّاته التهديد والتنديد، ويصرّح بالنصرة والتأييد...

﴿**والله يعصمك من الناس**﴾: يشير إلى أنّه لا جدوى في المحاسنة والمجاملة... ﴿**إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين**﴾: ذلك ليصدع الرسول بما أمر، لا يحسب حساباً إلاّ للوفاء بما كُلِّفَ، ولا يعنيه كيف يستقبله المعاندون ساءهم أم سرّهم؟. فالأمر أمر الحق الذي يجب أن يُعلن صريحاً واضحاً كاملاً، وليقل من يشاء ما يشاء، وليفعل مَنْ يشاء كيف شاء، وقد بلَغَتْ الدَّعْوَةُ أَوْجَهَا، وسلك الرسول بها كل مسلك من التبشير والتحذير، ومن الرفق تارة والعنف تارة أخرى. وهذه السورة من أواخر ما أنزل من القرآن بعدما استوفت الدعوةُ خطواتها، وسلكت بالمخالفين كل مسلك إلى الإيمان، فلم يبق إلاّ الصدع والمجابهة دون رفق ولا مجاملة...

﴿**قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربّكم**﴾: قل لستم على شيء أصلاً؛ لا من الدين، ولا من الصلة بالله، ولا من الفضل على الكفار، ولا من المعرفة الحقيقية والعلم الصحيح. فالمسألة ليست مسألة شعارات وعناوين، إنّما هي مسألة إيمان بما أنزل الله وعمل لما جاء فيه، وآخِرُها هذا الكتاب المبين. إنّ الله لا يحابي أحداً؛ لأنّه من أهل الكتاب بالاسم والعنوان، ولا يقرّب أُمَّةً؛ لأنّها من ولد فلان أو علاّن!. إنّما هو الإيمان بما أنزل الله، وإنّما هو العمل بما أنزل الله، وإنّما هو الحكم بشريعة الله، وما يقال عن اليهود والنصارى، يقال عن المسلمين سواء؛ فلا يقعُدن أحدٌ عن مقتضيات الإيمان الصحيح بالعمل الصالح، ثم يقول: إنّي مسلم يُكَفِّرُ الله عني

سيّآتي. ولا تقعدن الأمّة المسلمة عن إقامة القرآن والعمل بشريعته، ثم تنتظر النصر والعز والتمكين والغلبة على الأعداء، وهي ذاتها بعيدة عن طاعة الله، مُهْمِلَةٌ لأمر الله؛ فحجة الله على الناس واحدة، فإذا كان الله لا يقبل من أهل الكتاب قبلُ ما ورثوه من تلك التقاليد التي صدتهم عما عندهم من وحي الله، فإنّه لا يقبل من هذه الأُمَّة بعدُ مثلَ ذلك. والناس عن مثل هذا غافلون، وإلى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون، ويحسبون أنّهم على شيء ألا إنّهم هم الكاذبون!..

﴿وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربّك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين﴾ هذا هو واقع أهل الكتاب: فلا تبلغ بك الرحمة بهم والرغبة في إيمانهم مبلغ الأسى والحزن!.. فهم يحسدونك على مجيء هذا الدين ونزول القرآن ناسخاً لدينهم، وهم يسمعونك تقرعهم وتُفَنِّدُ مزاعِمَهُم، وتجابههم بالحجة التي تكشف عن تورطهم في الكفر والضلال والخزي والبوار. فهذه حقيقة أظهرها القرآن للناس ماثلة أمام الأنظار؛ فلم يزل كثير منهم إذا ذكروا الإسلام حتى في المباحث التاريخية والمدنية يَحْتَدُّون على مدنية الإسلام، ويقْلُبُون الحقائق ويتميّزون غيظاً ومكابرة حتى ترى العالم المشهود له منهم، يتصاغر ويتسفّل إلى دركات التَّبَالُهِ والتجاهل، ويتعامى عن ظهور الشمس في رابعة النهار!.

التوجيه الثاني: ﴿إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾: في هذا التوجيه تُوضَعُ القاعدةُ العامّة لكل من يريد أن يسلك الطريق السليم؛ لينجو من أخطاء الماضي ويفوز في النهاية بالنعيم المقيم. والمراد من الذين آمنوا ـ عند أكثر المفسرين ـ هم المسلمون في وقت نزول هذه الآية، وقد نزل مثلها في سورة البقرة. والذين هادوا: اليهود، والصابون: قوم يعبدون الكواكب؛ حيث جعلوا لها هياكل وجعلوها في بيوت يتقربون فيها إليها، والنصارى على اختلاف مذاهبهم حسب ما كانوا وما عليه الآن؛ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، كما جاء به محمد رسول الله ﷺ؛ لأنّه هو الذي دعاهم إلى ذلك بما جاء في الكتاب الأخير المهيمن على كل ما نزل من الكتب قبله، وهو آخرها نزولاً وحكماً وعملاً؛ فلا شريعة بعد شريعة هذا الكتاب.

وقيل: الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وهم المنافقون في وقت

النزول، ولكن سياق الآية يدل دلالة واضحة على أنّ الذين آمنوا وما عطف عليه باقون على ما هم عليه وقت نزول الآية، ويطلب منهم اتباع ما جاء به محمد من الإيمان الحق والعمل الصالح، فعلى هذا يكون معنى إنّ الذين آمنوا: من كانوا على الإيمان الفطري الذي يولد عليه كل إنسان، وهو ما بينه رسول الله ﷺ بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. . .» الخ، وهو يشمل كل من بقي على الفطرة، أو على دين صحيح لم يَخْتَلِطْ بأباطيل الكفر. . .

الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون: ومثلوا لهؤلاء ببعض من بقي من العرب على الحنفية، مثل آباء الرسول ﷺ وقسّ بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري. ويكون معنى الكلام: إنّ الذين آمنوا قبل مبعث محمد ﷺ والذين كانوا على دين اليهود والذين كانوا على دين النصارى والذين كانوا على دين الصابئة، كل هؤلاء من آمن بعد مبعث محمد ﷺ بالله واليوم الآخر، كما جاء به من عند الله، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وبهذا التوجيه ينسجم معنى الآية انسجاماً رائعاً، مراعى فيه اتّساق المعنى وبراعة التعبير. ولما كان اليهود مدعوين إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، كما جاء به محمد ﷺ لا ما كانوا عليه من الكفر والضلال، بيّن هنا أنّ اليهود لم يستجيبوا في الماضي إلى ما دُعوا إليه من التوحيد واتّباع الأحكام التي شرعها، وبيّن عتوَّهم وشدّة تمرُّدِهِم، وما كان من سوء معاملتهم لأنبئائهم. . .

﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾: إنّ هؤلاء اليهود عندما دُعوا إلى الله ورسوله فلم يسستجيبوا ليس أمراً غريباً منهم، إنّما هو شأنهم وتاريخهم شاهد عليهم، فليس موقفهم من رسول الإسلام بالأول ولا بالأخير، إنّهم مردوا على العصيان والطغيان، ومردوا على الفسوق والعدوان. إنّهم لا يجعلون إرادة الله هي القانون، ولكن يجعلون أهواءهم هي القانون، وذلك بعد أن أعطوا الميثاق، وجاءتهم الرسل بالهدى، ولكنّهم جبلّة لا تهتدي، وطبيعة لا ترعوي، ومن يجعل مقياس تصرفاته الهوى، ويتطلب من الله ورسله أن ينزلوا على هذا الهوى، فلا

خير في مجاملته، ولا جدوى في محاسنته. صنعوا هذا كله وهم يظنون أنّهم غير مؤاخذين به، ﴿**وحسبوا ألاّ تكون فتنة**﴾ وأن لا يحل بهم جزاءٌ، ﴿**فعموا وصموا**﴾، وطمس الله على بصيرتهم فلا يفقهون، وطمس على مسامعهم فلا ينتفعون بشيء مما يسمعون.

﴿**ثم تاب الله عليهم**﴾، فلم يستمروا في توبتهم ولم يحافظوا على طريقتهم، ﴿**ثم عموا وصموا كثير منهم**﴾، فذلك طابعهم العام وسمَتُهُم المميزة. وهذا العمى المستمر والصمم المستقر سلّط الله عليهم من سامهم الذل والقهر حسبما تقرر، «ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب». وهذا شأن كل أمّة إذا تطرّق إليها الخذلان أن يفسد اعتقادُها، ويخْتَلِطَ إيمانُها، ويصير همها مقصوراً على تدبير عاجلتها؛ فإذا ظنت استقامة العاجلة أغمضت أعينها عن الآخرة، فتطلب السلامة من غير أسبابها، فأضاعت الفوز الأبدي، وتعلقت بالفوز العاجل، فأساءت العمل فأصابها العذابان: العاجل بالفتنة، والآجل بالعذاب الأليم، «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم»!.

وهذا تعليم عظيم من القرآن بأنّ من حق الأمم أن تكون سائرة في طريق إرشاد الدين الحق الذي جاءت به الرسل والمربون من العلماء والهداة، وأنّها إذا رامت حمل علمائها وهداتها على مسايرة أهوائها، بحيث يُعصوْن إذا ما دعوا إلى ما يخالف هوى الأقوام، فقد حق عليهم الخسران كما حق على اليهود في كل زمان ومكان!؛ لأنّ في ذلك قلباً للحقائق، ومحاولة انقلاب التابع متبوعاً والقائد مقوداً، وأنّ قادة الأمم وعلماءها ونصحاءها إذا سايروا الأمم على هذا الخلق كانوا غاشّين لهم، وزالت فائدة علمهم وحكمتهم، واختلط المرعيّ بالهمل، والحابل بالنابل كما يقال!.

وفي نهاية هذا الوعيد يأتي التحذير والتهديد.. ﴿**والله بصير بما يعملون**﴾. ﴿**لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم**﴾: من المدعوين إلى الإيمان الحق الذي جاء به محمد ﷺ النصارى، وقد أعطوا الميثاق مثل اليهود، وهاهم أولاء يقولون ما يقولون من الكفر والشرك صراحة دون خوف أو حياء!. لقد ادّعوا أنّ الله هو المسيح ابن مريم!. قد كفروا وضلوا ضلالاً بعيداً؛ إذ هم في إطراء المسيح ومدحه غلَوا أشدَّ من غُلوِّ اليهود في الكفر به وتحقيره، وقد صارت هذه

المقالة عند النصارى هي العقيدة الشائعة بينهم، ومن عدل عنها عُدَّ مارقاً من الدين. على حين أنّ المسيح نفسه الذي يؤلهونه هو الذي أمرهم بالتوحيد، واعترف أمامهم بعبوديته مثلهم لله...

﴿**وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربّي وربّكم**﴾. ويأتي التقرير على قول النصارى والرد عليه من قول المسيح ليعلن الحكم على مقتضى ما حصل... ﴿**إنّه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار**﴾: فالنصارى مشركون وظالمون لدخولهم بعبادتهم لغير الله تحت هذا الحكم العام. والقاعدة الثابتة المستقرة: إنّ كلّ من يشرك بالله شيئاً من ملَك أو بشر أو كوكب أو حجر أو نار أو نهر أو غير ذلك، فيجعله ندّاً لله، أو متحداً به، أو يدعوه لجلب نفع أو دفع ضرر، أو يزعم أنّه يقربه إلى الله زلفى، أو يشفع له عنده!. من يفعل ذلك فإنّ الله قد حرّم عليه الجنّة في سابق علمه، وبمقتضى شرعه الذي أوحاه إلى جميع رسله، فلا مأوى له إلاّ النار، ﴿**وما للظالمين من أنصار**﴾!. وهو رد صريح لما يدّعيه النصارى وغيرهم من أنّ القديسين لهم دخل كبير في شؤون الناس، وأنّ لهم القدرة على النفع والضر والفداء والخلاص!. ويزيد الأمر توضيحاً وشمولاً لِكُلِّ فِرَقِ النصارى الذين تعددت أقوالهم واتحدت عقيدتهم في الزيغ والكفر...

﴿**لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة**﴾: سواء مَنْ قالوا: إنّه أحد الأقانيم الثلاثة، ومن قالوا: إنّ المسيح إله وأمه إلهة والله ثالث الثلاثة، ومن قالوا: إنّ الثلاثة هم الأب والابن وروح القدس، ومن قالوا: إنّ الثلاثة هم الله في صورة الأب والله في صورة الكلمة والله في صورة المسيح؛ كله كفر من الكفر الصريح، وقول لا يقوله إلاّ فاسق قبيح!.. ﴿**وما من إله إلاّ واحد**﴾: هذا تصريح ببيان الحق في الاعتقاد بعد ذكر الاعتقاد الباطل، وهي حقيقة التوحيد، وهذه حقيقة ما جاءهم به عيسى ـ عليه السلام ـ أحد الرسل الذين حملوا كلمة التوحيد...

﴿**وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم**﴾: فهذا وعيد وتهديد لمن يستمر في هذا الكفر، وعلى هذا الرأي العنيد؛ لأنّ هذا الوعيد أليق شيء يناسب ما قالوه وما هم عليه من الكفر الشديد، ولأنّ هذه الكبيرة جزاؤها العذاب الأليم، يوم يتميّز الشقيّ من السعيد. ثم أردف الوعيد بالتحضيض

والتحريض على التوبة والاستغفار والإطماع في رحمة الله وغفرانه... ﴿**أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم**﴾: ليبقى لهم باب التوبة مفتوحاً فلا يقنط من يندم منهم ويعتزم الرجوع إلى الدين الحق القويم...

التوجيه الثالث: ﴿ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمّه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون﴾: في هذا التوجيه لفت النظر إلى ما عليه النصارى من تأليه المسيح وأمّه؛ إذ قد عُلِم أنّ قولهم: إنّ الله ثالث ثلاثة أرادوا به إلهيّة المسيح وأمه.

ولا شبهة في هذه الدعوى؛ إذ لم يجئ المسيح بشيء زائد على ما جاءت به الرسل قبله، وما جرت على يديه إلاّ معجزات، كما جرت على أيدي رسل مثله، وإن اختلفت صفاتها فقد تساوت في أنّها خوارق عادات وليس بعضها بأعجب من بعض، فما كان إحياؤه الموتى بحقيق أن يوهم إلهيته، وفي هذا نداء على غباوة النصارى الذين استدلوا على إلهيته بأنّه أحْيا الموتى من الحيوان؛ فإنّ موسى أحيا العصا وهي جماد فصارت حية تسعى!. والقصد من وصف أمّه بأنّها صديقة نفي أن يكون لها وصف أعلى من ذلك، وهو ما كانت عليه من الطهارة وصدق الإيمان والعبودية التي لزمتها وفُضلت بها على نساء العالمين، «ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربّها وكتابه وكانت من القانتين». والدليل على بشريتهما أنّهما يأكلان الطعام، وهي صفة لازمة من صفات البشر، وإنّما اختيرت هذه الصفة من بين صفات كثيرة ظاهرة واضحة للناس.

ومن الغريب أنّ هذه الصفة جاءت واضحة في كتب النصارى التي تدعي أولوهيتهما؛ في أنّ مريم أكلت، وأن المسيح أكل مع الحواريين!. ومن السفه أن يحتقر الإنسان نفسه، ويحتقر جنسه، ويرفع بعض المخلوقات المساوية له في الماهية والمشخصات والممتازة بمميزات عرضية؛ فيجعل نفسه عبداً لها ويسميها آلهة أو أرباباً!. وبعد أن بيّن حال المسيح وأمّه بياناً لا يحوم حوله شائبة من الريب، تعجب من حال مَنْ يدّعي لهما الربوبية، ولا يرعوي عن غيه وضلاله، ولا يتأمل فيما هو عليه من أفَن الرأي وفداحة الخطإ... ﴿**انظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون**﴾: انظر أيّها السامع نظرة عقل وفكر كيف نبيّن لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين البالغة أقصى الغايات في الوضوح على بطلان ما يدّعون

في أمر المسيح، ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها، وكيف لا ينتقلون من مقدماتها إلى نتائجها، ومن مبادئها إلى غاياتها؛ فكأنّهم فقدوا عقولهم، وصارت أفئدتهم هواء!..

﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً والله هو السميع العليم﴾: القصد من هذا الاستفهام التوبيخ والتعجيب والتغليظ، وكل ما يحمل هذا الأسلوب من توهين وتهوين وتشويه وتعريض؛ خطاب لكل من يعبد شيئاً من دون الله من المشركين والنصارى وغيرهم من جهلة المُغفَّلين. فالمخاطبون كلهم كانوا يعبدون الله ويشركون معه غيره في العبادة حتى الذين قالوا: إنّ الله هو المسيح ابن مريم، فهم ماعبدوا المسيح إلاّ لزعمهم أنّ الله حلّ فيه، فقد عبدوا الله فيه، فشمل الخطاب المشركين من العرب، ونصارى العرب كلهم، ومسلمي العرب المعاصرين!. وكل هؤلاء يدّعون أنّهم على الحق ويحسبون أنّهم مهتدون، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله!. «قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون»!.

التوجيه الرابع: ﴿قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾: في هذا التوجيه يأمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يواجه أهل الكتاب بهذا النهي عن الغلوّ في دينهم، حيث كان قول النصارى في المسيح من أشدّ أنواع الغلوّ في الدّين، بتعظيم المسيح فوق ما يجب أن يكون له من التعظيم، وكان إيذاء اليهود له وسعيهم في قتله، من الغلوّ في الجمود على التقاليد التي ابتدعوها، واتباع أهوائهم بلا علم. ويواجههم ثانية بالنهي عن اتّباع قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل، وهذا النهي موجه إلى أهل الكتاب الذين كانوا في عصر التنزيل عن التقليد الذي كان سبب ضلالهم؛ إذ هم قد اتبعوا أهواء قوم ضلوا في وثنيتهم وأضلوا غيرهم، وتركوا سنن الرسل والصالحين من قبلهم؛ كل أولئك قد ضلوا به وأضلوا كثيراً ممن اتّبعهم فيه. وهذا هو السبب الذي جعل اليهود ملعونين على مدى التاريخ ممثلاً في موقف داوود وموقف عيسى، وكلاهما لعن بني إسرائيل، واستجاب الله لعنته بسبب عصيانهم وعدوانهم، وبسبب انحلالهم الاجتماعي وتهاونهم..

﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا

يفعلون﴾: وفي هذا دلالة على استمرار اليهود في العتوّ والعدوان والعصيان وتعدي الحدود، مما ظهر وانتشر بينهم من المنكرات والإصرار عليها، والسكوت عنها والرضا بها، دون رادع من ضمير أو أمير! ؛ إذ لولا ذلك ما كان ترك التناهي شأناً من شؤونهم وعادة من عاداتهم. وفي سوق الآية إرشاد للمؤمنين وعبرة لهم، حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونوا مثلهم، ويحلّ بهم من غضب الله ولعنه مثل ما حلّ ببني إسرائيل!. والآثار في هذا الباب كثيرة، وفيها وعيد عظيم على ترك التناهي فهل من مذكر؟!..

﴿ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا﴾: هذا هو موقفهم في النهاية؛ فهاهم يتولون الذين كفروا من مشركين ومنافقين ونصارى ويهود، وكل من يناوي الإسلام والمسلمين. واليهود وقت التنزيل انقسموا أقساماً؛ منهم من أسلم صراحة وانقاد مخلصاً، ومنهم من أسلم نفاقاً حتى يستطيع أن يكيد للإسلام والمسلمين، ومنهم من بقي على يهوديته يحاول ما استطاع أن يثأر من الإسلام والمسلمين. والآية أشارت إلى الفريقين الأخيرين: المنافقين والكافرين، وعبّرت عنه بالكثير. وتوليتهم للكافرين من ناحيتين: فالمنافقون متصلون بشياطينهم، وشياطينهم يتصلون بالمشركين في الجزيرة، ويحاولون أن يتصلوا بالفرس والروم خارج الجزيرة، وقد لعبوا دوراً خطيراً في هذا المجال المريب!..

﴿لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾: هذه هي اللعنة الأبدية على اليهود؛ سخط الله، وسخط الناس، وما نالوه من الله وما نالوه من الناس، «ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبئاء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»!.. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبيء وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾: يأتي هذا الكلام في نهاية المطاف مع اليهود، حيث يعرضهم على المسرح أمام الأشهاد؛ لينظروا بأعينهم ما عليه هؤلاء اليهود منافقهم وكافرهم، حتى يحكموا عليهم بما حكم الله، فهم يدّعون الإيمان بموسى والعمل بالتوراة ـ وهم من بقوا على يهوديتهم ـ، والمنافقون منهم يدّعون الإيمان بالنبيء محمد وبالقرآن، ومع هذا يتخذ اليهودُ المشركين أولياء، ويتخذ المنافقون اليهود أولياء؛ فهؤلاء وهؤلاء فاسقون خارجون عن دين موسى وعن دين محمد ـ عليهما السلام ـ. وعندما نستعرض تاريخ اليهود سابقاً ولاحقاً نجد مصداق ذلك كله

صريحاً كما عرضه القرآن. فاليهود دائماً موالين لكل كافر في كل عصر وفي كل جيل، فهم دعاة الحروب وتجار الحروب، بإثارة الفتن والأحقاد بين الشعوب!.

والآن وقد تحقّق ما صرح به القرآن وآن الأوان لدراسة هذه الحقائق بصدق وإيمان!. وعندما نربط آخر الكلام بأوله نجده مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً، حيث عرض هذا الوصف لليهود من أول ما تحدّث عنهم في هذه السورة من قوله تعالى: «ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إنّي معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرنّ عنكم سيّآتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل، فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظّاً ممّا ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلاّ قليلاً منهم»!.

وسار القرآن معهم في تاريخهم الطويل يعرض أوصافهم وأحوالهم حتى يأتي بهم في النهاية إلى هذا المصير السيء الرهيب!. ﴿**لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون**﴾!. وليس العذاب الذي يحل باليهود هو عذاب الآخرة فقط، وإنّما العذاب حل بهم في الماضي بالقتل والتعذيب والتشريد والأسر والاستعباد في مصر، وفي التيه مع موسى وقبله وبعده، ومع الأمم المجاورة والبعيدة من الملوك والجبابرة، مثل ما حصل لهم في بابل، وما حصل لهم بعدها من الرومان والفرس، وما حصل لهم على أيدي المسلمين عندما وقفوا ضدهم، ولكن الله أراد بهم اللطف؛ فخضعوا تحت راية الإسلام وعاشوا آمنين مطمئنين، وعندما نقضوا عهد الإسلام وخانوا المسلمين دخلوا تحت سيطرة الأوروبيين فساموهم سوء العذاب، وأذاقوهم أمرّ العذاب بما فعل بهم أخيراً (هتلر)، وأراد أن يصفي لهم الحساب، ولولا أنّ الله كتب عليهم اللعنة والبقاء فيها إلى يوم الحساب، لانتهى أمرهم وقطع دابرهم. وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال!.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنّك أنت العزيز الحكيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ولاحول ولاقوة إلاّ بالله العلي العظيم!.

1 - تكملة الكلام لما بقي
في السورة من الأحكام

النص

* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (84) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (85) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (86) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (87) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (88) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (89) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (90) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (91)

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ
رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (92)
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ
وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (93)
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ
أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (94) لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (95)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ
وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ
فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (96) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ
وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ
ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ
صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ
فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (97)
أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ
وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (98) * جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ

قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿99﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿100﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿101﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿102﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**لتَجدنَّ أشدَّ الناس عداوة**﴾: الوجدان هنا وجْدانٌ قَلْبِيٌّ، وهو من أفعال العلم. أشد: أقوى وأكثر وأوضح، مأخوذ من القوة والمتانة والتماسك. والعداوة: التباغض والكراهية، والمتصف بها عدوّ، وأصلها التخالف والتباعد والتناكر، وعكْسُها المودّة والمحبة والتآلف والتآزر والتناصر. . .

﴿**الذين قالوا إنّا نصارى**﴾: أتباع عيسى على الدين الصحيح، «قال الحواريون نحن أنصار الله». والقسّيس: عالم النصارى، ولهم مرتبة مرموقة عند النصارى، وأصلها صيغة مبالغة من تقسّس الشيء إذا تتبعه وطلبه بالدّليل، والْقَسُّ: تَتَبّع الشيء، وقيل: قصَّ الأثَرَ وقسَّهُ بمعنى واحد. والرهبان: جمع راهب، والترهب التعبد في الصومعة، ورهبان النصارى عُبَّادُهم المنقطعون عن الناس التاركون للدنيا ومتاعها، وأمل الترهب في اللغة: تحمل التعبد من فرط الخوف. والاستكبار: المبالغة في التكبر والتعاظم، وشدّة المكابرة وكراهية الحق، والتعاظم وكراهية الحق متلازمان، والمراد هنا: بأنّهم لا يستكبرون، أنّهم متواضعون مُنصِفُونَ. . .

﴿**تفيض من الدمع**﴾: الفيض سيلان المائع خارجاً عن ظرفه؛ يقال: فاض الماء، وفاض الدمع... ﴿**فاكتبنا مع الشاهدين**﴾: الذين شهدوا بعثة الرسل وصدّقوهم، ويدخل في الشاهدين الذين أنبأهم عيسى ببعثة الرسول أحمد ﷺ الذي يجيء بعده... والطمع: رجاء ما يحصل للنفس من الخير في المستقبل من وعد الكريم، وأصله الحرص على حصول الشيء، ومن هنا جاء ذم الطمع عند العرب... والجحيم: جهنم، وأصل الجحيم: النار العظيمة تُجعل في حفرة ليدوم لهيبها، يقال: نار حَجْمَة، بمعنى شديدة اللهب...

﴿**لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم**﴾: تحريم الطيبات: الامتناع عن أكل الطعام النافع المفيد؛ بقصد التقرّب به تديُّناً. والحلال المباح المأذون في أكله... ﴿**ولا تعتدوا**﴾: الاعتداء: تجاوز الحد في المأذون فيه رغبة عنه أو رغبة فيه... ﴿**إنّ الله لا يحب المعتدين**﴾: لا يرضى فعل الذين تجاوزوا حدوده بتحريم المباح... ﴿**وكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيباً**﴾: الحلال: المباح، والطيب: المفيد للأجسام والأرواح...

﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم**﴾: لا يعاقبكم بسبب لغو اليمين التي تأتي من الإنسان بغير قصد منه على فعل شيء أو تركه أو على وقوعه أو عدم وقوعه... ﴿**ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان**﴾: الأيمان المعقدة المقصودة للشخص «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم...» ﴿**فكفّارته إطعام عشرة مساكين**﴾: الكفّارة: ما كُفِّر به من صدقة وصوم ونحوهما، وكفر عن يمينه أعطى الكفارة، وأصله الستر من قولهم كَفَر الشيءَ وكفّره. والإطعام: إعطاء الطعام، والطعام كل ما يؤكل، ويجمع على أطعمة، وطعْمُ الشيء حلاوته ومرارته وما بينهما، يكون في الطعام والشراب، يُجمع على طُعوم، وطعِم طُعْماً: ذاق. والمساكين: جمع مسكين، وهو من لا شيء له، ويطلق على الذليل والضعيف، واستكان خضع وذَلّ...

﴿**من أوسط ما تطعمون أهليكم**﴾: الأوسط: الشيء بين الطرفين، والوسط من كل شيء أعدله. وأهليكم: جمع أهل، والأهل: العشيرة والأقارب والزوجة والأولاد. وأهل الأمر: ولاتُه، وأهل البيت سكانه، ومكان مأهول فيه أهلُه... ﴿**أو كسوتهم**﴾: الكِسُوة: الثوب، ويطلق على كل ما يُلبس ويستر... ﴿**أو**

تحرير رقبة﴾: عتق شخص مملوك من الرق... ﴿**ذلك كفّارة أيمَانِكم إذا حلفتم﴾**: ذلك إشارة إلى المذكور. والأيْمان: جمع يمين، واليمين القسم مؤنث، لأنّ العرب كانت تتماسح بأيْمَانِهَا عند القسم. والحِلْف: العهد، والحلِف: القسم على الوفاء بالحِلْف فلا يُغْدَرُ، وحالفه: عاهده ولازمه، وتحالفوا: تعاهدوا...

﴿**ياأيُّها الذين آمنوا إنّما الخمر﴾**... الخ: تقدم معنى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام. والرجس: الخبيث المستقذر، والمكروه من الأمور الظاهرة، ويطلق على المذمات الباطنة... ﴿**ومن عمل الشيطان﴾**: من تسويلاته وإغرائه لمتعاطيها فهو عمل لا يليق بالإنسان. واجتنبوه: ابتعدوا عنه ولا تقربوه، مأخوذ من المجانبة التي هي البعد بمعنى الابتعاد وعدم الاقتراب... ﴿**إنّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء﴾**... الخ: الشيطان: إبليس. وإرادته: محبته ورضاؤه. والإيقاع هنا: إرادة إنزال الشر بين الناس فيما يتعاطونه من الخمر والميسر... ﴿**فهل أنتم منتهون﴾**؟: انتهى عن الشيء: كفّ وامتنع، والمعنى هنا: إذا كان في الخمر والميسر ما ذكر فهل يتحقق امتناعكم وكفكم عنهما؟!..

﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا﴾**: طاعة الله وطاعة الرسول: امتثال أمرهما. واحذروا: كونوا على حذر من الوقوع فيما يأباه الله ورسوله... ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾**: نفي الجُناح: نفي الإثم والعصيان، والجناح بالضم: الإثم، وفعله جنح، ومصدره الجنوح، وأصله الميل عن جهة الوسط إلى الطرف، ومنه الجناح للطائر. وجُنْح الليل: الطائفة منه. وحقيقة الطعم: الأكل، ويقال طعم بمعنى أذاق، وهو المراد بطعموا هنا، ليشمل الأكل والشرب...

﴿**ياأيُّها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم﴾**: الابتلاء هنا: تكليف ونهي، فهو أخص من عموم الابتلاء. والصيد: ما يصاد من الطير وغيره. تناله أيديكم: تأخذونه باليد وهو كل ما يمكن أخذه باليد. وما يضرب بالرماح، كما يفعل بالوحش الكبير من الحيوان، وكانوا يَعْدُونَ وراءها بالخيل والرماح. والرماح: جمع رمح، وهو آلة من آلات الحرب يطعن به... ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾**: الصيد هنا: عام في كل ما يصاد ويقتل من الدواب والطير لأكله أو الانتفاع ببعضه. والحرم: جمع حرام،

بمعنى مُحرَّم. والمُحْرِمْ: المتلبس بالإحرام من حج أو عمرة... ﴿**ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم**﴾: الجزاء: العوض عن عمل، وسمي جزاءً لما فيه من المماثلة... ﴿**يحكم به ذوا عدل منكم**﴾: الحَكَمُ: الذي يحكم بالمثل، شرطه أن يكون عالماً عادلاً مسلماً... ﴿**هدياً بالغ الكعبة**﴾: الهدي: ما ينحر أو يذبح في الحرم. والمنحر: منى والمروة. وبالغ الكعبة: حرم مكة... ﴿**أو كفارة طعام مساكين**﴾: بدل الجزاء... ﴿**أوعدل ذلك صياماً**﴾: يصوم بدل الجزاء وبدل إطعام المساكين، والعدل هنا: المساواة فيما يقدّر بالعقل، والعِدْلُ: فيما يقدر بالحواس. والوبال: السوء وما يكرهُ إذا اشتد، والوبيل: القوي في السوء...

﴿**أُحِلَّ لكم صيد البحر وطعامه متاع لكم وللسيارة**﴾: صيد البحر: حيوانه الذي يعيش فيه عادة كالحيتان والأسماك، والبحر يشمل الأنهار والبحيرات المنقطعة عن المحيطات. والمتاع: ما يتمتع به، والتمتع بما يلذ ويسرّ. والسيارة: الجماعة السائرة في الأرض للسفر والتجارة، مؤنث سيّار، والتأنيث باعتبار الجماعة... ﴿**جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد**﴾: الكعبة: علم على البيت الذي بناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بمكة بأمر الله تعالى؛ ليكون آية التوحيد، مشتق من الكعب، وهو النثوء والبروز. والبيت الحرام مكة، فهو أعم من الكعبة؛ لأنّ البيت الحرام يشمل ما كان داخل معالم الحرم، والمراد به المسجد الحرام، ومعنى الحرام: المحترم المهاب الممنوع فيه التعدي، وهو ممنوع من أيدي الجبابرة. والقيام في الأصل: مصدر قام إذا استقل على رجليه، ويستعار للنشاط وللتدبير والإصلاح؛ لأنّ شأن من يعمل عملاً مهماً أن ينهض له، ومن هذا الاستعمال قيل للناظر في أمور شيء وتدبيره، هو قيّم عليه أو قائم عليه، فالقيام هنا: بمعنى الصلاح والنفع. والشهر الحرام: الأشهر الحرم، والهدْيُ: ما يُهدى للبيت من الأنعام. والقلائد: جمع قلادة، وهي ما يجعل في عنق الحيوان علامة لكونه هدياً، والقلادة ما يجعل في العنق، ومعنى القلد في الأصل: الجمع.

مبحث الإعراب

﴿**لتجدن**﴾ اللام واقعة في جواب القسم المقدر، تجدن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل ضمير المخاطب (أنت)، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿**أشدّ**﴾ مفعول أول لتجدنّ. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أشد. ﴿**عداوة**﴾ تمييز تبيين نسبة أشد إلى الناس. ﴿**للذين**﴾ متعلق بعداوة. ﴿**آمنوا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿**اليهود**﴾ مفعول ثان لتجدنّ. ﴿**والذين**﴾ في محل نصب معطوف على اليهود. ﴿**أشركوا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا**﴾ معطوفة على لتجدنّ أشد الناس عداوة وهي مثلها في الإعراب. ﴿**الذين قالوا إنا نصارى**﴾ المفعول الثاني، وجملة قالوا صلة الذين. إنّا نصارى جملة إنّ واسمها وخبرها في محل نصب مقول القول. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**بأنّ منهم قسيسين**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، ومنهم متعلق بمحذوف خبر أنّ مقدّم، قسيسين اسم أنّ مؤخّر منصوب بالياء، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بباء السببية. ﴿**ورهباناً**﴾ معطوف على قسيسين منصوب بالفتحة. ﴿**وأنّهم لا يستكبرون**﴾ معطوف على أنّ منهم قسيسين، وجملة لا يستكبرون من الفعل والفاعل في محل رفع خبر أنّ، واسمها الضمير المتصل بها، وتقدير الكلام: ذلك حاصل بسبب كونهم قسيسين ورهباناً وغير مستكبرين.

﴿**وإذا سمعوا**﴾ معطوف على قوله وأنّهم لا يستكبرون، والجملة فعل الشرط (إذا). ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول سمعوا. ﴿**أُنزل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، والجملة صلة ما. ﴿**إلى الرسول**﴾ متعلق بأُنزل. ﴿**ترى**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**أعينهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**تفيض**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على أعينهم. ﴿**من الدمع**﴾ متعلق بتفيض، وجملة تفيض في محل نصب حال من المفعول، وجملة ترى أعينهم جواب الشرط، وهذا عامل في إذا النصب. ﴿**مما عرفوا**﴾ مِنْ ابتدائية، وعرفوا صلة ما. ﴿**من الحق**﴾ من بيانية. ﴿**يقولون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ربّنا**﴾ منادى منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**آمنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب مقول القول، وجملة يقولون جوابية لا محل لها

من الإعراب. ﴿**فاكتبنا**﴾ الفاء للتعقيب، اكتبنا جملة دعائية. ﴿**مع**﴾ متعلق باكتبنا. ﴿**الشاهدين**﴾ مضاف إلى مع منصوب بالياء.

﴿**وما لنا**﴾ الواو للعطف، وما للاستفهام في محل رفع مبتدأ، لنا متعلق بمحذوف خبر. ﴿**لا نؤمن**﴾ فعل مضارع منفيّ بلا، والفاعل ضمير المتكلمين (نحن)، والجملة في محل نصب حال من الضمير المجرور (لنا). ﴿**بالله**﴾ متعلق بنؤمن. ﴿**وما**﴾ معطوف على الله في محل جر. ﴿**جاءنا**﴾ صلة ما. ﴿**من الحق**﴾ متعلق بجاء. ﴿**ونطمع**﴾ معطوف على وما لنا. ﴿**أن يدخلنا**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور. ﴿**ربُّنا**﴾ فاعل يدخل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**مع**﴾ متعلق بيدخل. ﴿**القوم**﴾ مضاف إلى الظرف. ﴿**الصالحين**﴾ نعت للقوم مجرور بالياء. ﴿**فأثابهم الله**﴾ الفاء للتفريع، وأثابهم فعل ماض، والضمير فيه مفعول، والله فاعل. ﴿**بما**﴾ متعلق بأثابهم. ﴿**قالوا**﴾ صلة ما. ﴿**جنات**﴾ مفعول ثان لأثابهم منصوب بالكسرة. ﴿**تجري**﴾ فعل مضارع. ﴿**من تحتها**﴾ متعلق بتجري، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الأنهار**﴾ فاعل تجري، والجملة في محل نصب نعت لجنات. ﴿**خالدين**﴾ حال من مفعول أثابهم. ﴿**فيها**﴾ متعلق بخالدين.

﴿**وذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**جزاءُ**﴾ خبره. ﴿**المحسنين**﴾ مضاف إلى جزاء مجرور بالياء، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**والذين**﴾ مبتدأ. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**وكذبوا**﴾ معطوف على كفروا. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بكذبوا. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ ثانٍ. ﴿**أصحابُ**﴾ خبره، والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدإ الأول (الذين). ﴿**الجحيم**﴾ مضاف إلى أصحاب. ﴿**ياأيُها الذين آمنوا**﴾ إعراب هذه الجملة معلوم. ﴿**لا تحرّموا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وفاعله واو الجماعة. ﴿**طيّبات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى طيّبات. ﴿**أحلّ اللهُ**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**لكم**﴾ متعلق بأحلّ. ﴿**ولا تعتدوا**﴾ معطوف على قوله: لا تحرموا، وهو مثله في الإعراب.

﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يحب**﴾ فعل مضارع منفيّ بلا، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**المعتدين**﴾ مفعول به، وجملة إنّ الله لا يحب المعتدين تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**وكلوا**﴾ معطوف على قوله: لا تحرموا. ﴿**مما**﴾ متعلق بكلوا. ﴿**رزقكم الله**﴾ صلة ما. ﴿**حلالاً**﴾ مفعول به. ﴿**طيباً**﴾ نعت له. ﴿**واتقوا**﴾ معطوف على كلوا. ﴿**الله**﴾ مفعول به.

﴿الذي﴾ في محل نصب نعت لله. **﴿أنتم﴾** مبتدأ. **﴿به﴾** متعلق بالخبر. **﴿مؤمنون﴾** خبر المبتدإ، والجملة صلة الذي. **﴿لا يؤاخذكم اللهُ﴾** فعل مضارع منفيّ بلا، والله فاعله، وضمير المخاطبين مفعول به. **﴿باللغو﴾** متعلق بيؤاخذ. **﴿في أيمانكم﴾** متعلق باللغو. **﴿ولكن﴾** الواو للعطف، ولكن للاستدراك. **﴿يؤاخذكم﴾** فاعله ضمير يعود على الله. **﴿بما﴾** متعلق بيؤاخذكم. **﴿عقّدتم﴾** صلة ما. **﴿الأيمان﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿فكفارتُه﴾** الفاء للتعقيب، كفارته مبتدأ مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿إطعام﴾** خبر المبتدإ مرفوع بالضمة. **﴿عشرة﴾** مضاف إلى إطعام مجرور بالكسرة. **﴿مساكين﴾** مضاف إلى عشرة مجرور بالفتحة على صيغة منتهى الجموع. **﴿من أوسط﴾** متعلق بمحذوف نعت لمفعول مقدر، والتقدير: أن تطعموا عشرة مساكين طعاما كائنا من أوسط ما تطعمون به أهليكم. **﴿ما﴾** في محل جر مضاف إلى أوسط. **﴿تطعمون﴾** صلة ما. **﴿أهليكم﴾** مفعول تطعمون منصوب بالياء؛ لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿أو كسوتهم﴾** معطوف على إطعام عشرة، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿أو تحرير﴾ معطوف على إطعام. **﴿رقبة﴾** مضاف إلى تحرير مجرور بالكسرة. **﴿فمن﴾** الفاء للتعقيب، من اسم شرط جازم. **﴿لم يجد﴾** فعل مضارع مجزوم بلم، وفاعله ضمير يعود على مَنْ، والجملة في محل جزم فعل الشرط. **﴿فصيام﴾** الفاء رابطة للجواب، وصيام خبر لمبتدإ مقدّر، والتقدير: فكفارته صيام. **﴿ثلاثة﴾** مضاف إلى صيام. **﴿أيام﴾** مضاف إلى ثلاثة، وجملة فصيام في محل جزم جواب الشرط. **﴿ذلك﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿كفارةُ﴾** خبره. **﴿أيمانكم﴾** مضاف إلى كفارة مجرور بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿إذا حلفتم﴾** الجملة من الفعل والفاعل في محل جر مضاف إلى الظرف. **﴿واحفظوا أيمانكم﴾** جملة معطوفة على قوله: ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم. **﴿كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾** جملة تذييلية جاءت لتقرير الحكم، وأصل التركيب: يبيّن الله لكم الآيات تبيينا مثل هذا التبيين، يبيّن فعل مضارع، اللهُ فاعل، لكم متعلق بيبيّن، آياته مفعول به منصوب بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه، لعلكم لعلّ واسمها، تشكرون فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعلّ، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر﴾ إنّما كافة ومكفوفة، الخمرُ مبتدأ مرفوع بالضمة، والميسر معطوف على الخمر. ﴿والأنصاب والأزلام﴾ كذلك. ﴿رجس﴾ خبر المبتدإ. ﴿من عمل﴾ متعلق بمحذوف نعت لرجس. ﴿الشيطان﴾ مضاف إلى عمل. ﴿فاجتنبوه﴾ الجملة من الفعل والفاعل مفرعة عما قبلها بالفاء. ﴿لعلكم تفلحون﴾ مثل لعلكم تشكرون. ﴿إنّما﴾ مثل إنّما قبلها. ﴿يريد الشيطانُ﴾ فعل وفاعل. ﴿أنْ يوقع﴾ أنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب بيريد، أي: يريد إيقاع العداوة ﴿بينكم العداوة﴾ مفعول به. ﴿والبغضاء﴾ معطوف على العداوة. ﴿في الخمر﴾ متعلق بيوقع. ﴿والميسر﴾ معطوف على الخمر. ﴿ويصدكم﴾ معطوف على يوقع، والفاعل ضمير يعود على الشيطان، والضمير فيه مفعول به. ﴿عن ذكر﴾ متعلق بيصدكم. ﴿الله﴾ مضاف إلى ذكر. ﴿وعن الصلاة﴾ معطوف على ذكر الله. ﴿فهل﴾ الفاء للتفريع، هل للاستفهام. ﴿أنتم﴾ مبتدأ. ﴿منتهون﴾ خبره مرفوع بالواو، وجملة إنّما يريد الشيطان. . .الخ تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿وأطيعوا﴾ الواو للعطف، أطيعوا فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿الله﴾ مفعول به. ﴿وأطيعوا الرسول﴾ معطوف على أطيعوا الله. ﴿واحذروا﴾ معطوف على أطيعوا، وهو مثله في الإعراب. ﴿فإنْ﴾ الفاء للتفريع، وإنْ للشرط. ﴿توليتم﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جزم فعل الشرط. ﴿فاعلموا﴾ الفاء رابطة للجواب، اعلموا فعل أمر، وفاعله واو الجماعة. ﴿أنّما﴾ كافة ومكفوفة. ﴿على رسولنا﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿البلاغ﴾ مبتدأ مؤخّر. ﴿المبين﴾ نعت له، وجملة فاعلموا في محل جزم جواب الشرط. ﴿ليس﴾ فعل ماض ناقص. ﴿على الذين﴾ متعلق بمحذوف خبر ليس مقدّم. ﴿آمنوا﴾ صلة الذين. ﴿وعملوا﴾ معطوف على آمنوا. ﴿الصالحات﴾ مفعول به. ﴿جناح﴾ اسم ليس مؤخّر. ﴿فيما﴾ متعلق بجناح. ﴿طعموا﴾ صلة ما. ﴿إذا ما﴾ يدل على ظرف وشرط. ﴿اتقوا﴾ فعل وفاعل. ﴿وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ معطوفان على اتقوا. ﴿ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا﴾ كذلك. ﴿والله﴾ مبتدأ. ﴿يحب﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿المحسنين﴾ مفعول به منصوب بالياء، وجملة يحب في محل رفع خبر المبتدإ، وجملة والله يحب المحسنين تذييلية لا محل لها من الإعراب.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد﴾ ليبلونكم اللام واقعة في جواب القسم، يبلونكم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والضمير فيه مفعول به، اللهُ فاعل، وجملة ليبلونكم جواب القسم لا محل لها من الإعراب، بشيء متعلق بيبلونكم، من الصيد بيان لشيء. **﴿تناله﴾** فعل مضارع مرفوع بالضمة، والضمير فيه مفعول به. **﴿أيديكم﴾** فاعل مرفوع بضمة مقدّرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿ورماحُكم﴾** معطوف على أيديكم، وجملة تناله حال من الصيد. **﴿ليعلم﴾** اللام للتعليل، يعلم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. **﴿الله﴾** فاعل. **﴿مَنْ﴾** في محل نصب مفعول به. **﴿يخافُه﴾** فاعل يخاف ضمير يعود على مَنْ، والضمير فيه مفعول به، وجملة يخافه صلة مَنْ. **﴿بالغيب﴾** متعلق بيخافه، وأن المضمرة وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بما فُهِمَ من الابتلاء بالصيد، والتقدير: حصل الابتلاء بالصيد؛ لإظهار حقيقة ما يكون من المُبتَلَى من خوف الله بالغيب. **﴿فمن﴾** الفاء للتعقيب، من شرطية. **﴿اعتدى﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. **﴿بعد﴾** متعلق باعتدى. **﴿ذلك﴾** في محل جر مضاف إلى بعد، وجملة اعتدى في محل جزم فعل الشرط. **﴿فله﴾** الفاء رابطة للجواب، له متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿عذابٌ﴾** مبتدأ مؤخر. **﴿أليم﴾** نعت لعذاب، وجملة فله عذاب في محل جزم جواب الشرط.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصّيد﴾. لا تقتلوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وواو الجماعة فاعل. الصيد مفعول به. **﴿وأنتم﴾** الواو للحال، أنتم مبتدأ. **﴿حرم﴾** خبره، والجملة في محل نصب حال من الضمير المرفوع. **﴿ومَنْ﴾** اسم شرط جازم. **﴿قتله﴾** فعل الشرط، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. **﴿منكم﴾** متعلق بمحذوف حال من فاعل قتله. **﴿متعمداً﴾** حال منه كذلك. **﴿فجزاء﴾** الفاء رابطة للجواب، جزاءُ مبتدأ خبره محذوف مقدّر. **﴿مثل﴾** مضاف إلى جزاء. **﴿ما﴾** اسم موصول في محل جر مضاف إلى مثل. **﴿قتل من النعم﴾** صلة ما. **﴿يحكم﴾** فعل مضارع. **﴿به﴾** متعلق بيحكم. **﴿ذوا﴾** فاعل يحكم مرفوع بالألف. **﴿عدل﴾** مضاف إلى ذوا. **﴿منكم﴾** متعلق بمحذوف نعت لعدل، وجملة يحكم به في محل رفع نعت لجزاء. **﴿هدياً﴾** حال من الضمير في به. **﴿بالغَ﴾** نعت لهدي. **﴿الكعبة﴾** مضاف إلى بالغ. **﴿أو كفارةُ﴾**

عطف على جزاء. ﴿**طعام**﴾ مضاف إلى كفارة. ﴿**مساكين**﴾ مضاف إلى طعام مجرور بالفتحة لصيغة منتهى الجموع. ﴿**أو عدلُ**﴾ عطف على كفارة. ﴿**ذلك**﴾ في محل جر مضاف إلى عدل. ﴿**صياماً**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**ليذوق**﴾ اللام للتعليل، يذوق فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير يعود على القاتل. ﴿**وبال**﴾ مفعول به. ﴿**أمره**﴾ مضاف إلى وبال، والضمير فيه مضاف إليه، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بقوله: فجزاء، وجملة فجزاء مثل ما قتل في محل جزم جواب الشرط. ﴿**عفا الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عما**﴾ متعلق بعفا. ﴿**سلف**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على ما حصل من التعدي قبل الحكم، وجملة سلف صلة ما.

﴿**ومن عاد**﴾ جملة شرطية جوابها جملة ﴿**فينتقم الله منه**﴾، والفاء هنا دخلت على مبتدإ مقدّر، وجملة ينتقم خبره، والتقدير: فهو ينتقم الله منه، لأنّ الفاء الرابطة لجواب الشرط لا تدخل على الفعل مباشرة. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**عزيز**﴾ خبره. ﴿**ذو**﴾ خبر ثان. ﴿**انتقام**﴾ مضاف إلى ذو، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**أحل**﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول. ﴿**لكم**﴾ متعلق بأُحل. ﴿**صيدُ**﴾ نائب فاعل. ﴿**البحر**﴾ مضاف إلى صيد. ﴿**وطعامه**﴾ معطوف على صيد، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**متاعاً**﴾ حال، أو مفعول له، أو مفعول مطلق. ﴿**لكم**﴾ متعلق به. ﴿**وللسيارة**﴾ معطوف على الضمير في لكم. ﴿**وحُرّم عليكم صيد البرّ**﴾ معطوف على أحل لكم وهو مثله في الإعراب. ﴿**ما**﴾ مصدرية ظرفية. ﴿**دمتم**﴾ دام واسمها. ﴿**حرماً**﴾ خبرها، والتقدير: مدة دوامكم محرمين. ﴿**واتقوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**الله**﴾ مفعول به. ﴿**الذي**﴾ في محل نصب نعت لله. ﴿**إليه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**تُحشرون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، وجملة تحشرون صلة الذي، وجملة واتقوا الله تذييلية لا محل لها من الإعراب.

﴿**جعل الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الكعبة**﴾ مفعول أول منصوب بالفتحة. ﴿**البيت**﴾ عطف بيان للكعبة. ﴿**الحرام**﴾ نعت للبيت. ﴿**قياماً**﴾ مفعول ثانٍ لجعل. ﴿**للناس**﴾ متعلق بقياماً. ﴿**والشهر**﴾ معطوف على الكعبة منصوب بالفتحة. ﴿**الحرام**﴾ نعت للشهر. ﴿**والهدي**﴾ معطوف على الكعبة. ﴿**والقلائد**﴾ كذلك. ﴿**ذلك**﴾ في محل نصب مفعول بفعل مقدريدل عليه السياق، بمعنى: شرع ذلك.

﴿**لتعلموا**﴾ اللام للتعليل، وتعلموا منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وواو الجماعة فاعل، وأنْ المقدرة وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، والجار والمجرور متعلق بالفعل المقدر (شرع)، والتقدير: شرع ذلك لأجل علمكم بعلم الله بما في السماوات.. الخ. ﴿**أنّ الله**﴾ أنّ واسمها. ﴿**يعلم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدّر. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**في السماوات**﴾ متعلق بفعل مقدر صلة ما. ﴿**وما في الأرض**﴾ معطوف على ما في السماوات. ﴿**وأنّ الله**﴾ أنّ واسمها. ﴿**بكل**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**عليم**﴾ خبرُ أنَّ، وأنّ الله معطوف على أنّ الله يعلم. ﴿**اعلموا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**أنّ الله**﴾ أنّ واسمها. ﴿**شديدُ**﴾ خبرها. ﴿**العقاب**﴾ مضاف إلى شديد، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف مقدّر متعلق باعلموا، أي: اعلموا بشدة عقاب الله. ﴿**وأنّ الله غفور رحيم**﴾ معطوف على أنّ الله شديد العقاب، أي: وبشمول غفران الله ورحمته.

﴿**ما**﴾ نافية. ﴿**على الرسول**﴾ متعلق بفعل مقدّر مناسب للمقام، والتقدير: ما يجب على الرسول شيء. ﴿**إلاّ البلاغ**﴾ وهو بدل من شيء، وإلاّ ملغاة لا عمل لها. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. وجملة ﴿**يعلم**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر المبتدإ. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**تبدون**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**وما تكتمون**﴾ معطوف عليه. ﴿**قل**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**لا**﴾ حرف نفي، ﴿**يستوي**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل. ﴿**الخبيثُ**﴾ فاعل يستوي. ﴿**والطيبُ**﴾ معطوف عليه. ﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، لو شرطية وصلية. ﴿**أعجبك**﴾ فعل الشرط. ﴿**كثرةُ**﴾ فاعل أعجبك، وضمير المخاطب مفعول به. ﴿**الخبيث**﴾ مضاف إلى كثرة، وهذه الجملة معطوفة على جملة مقدرة، والتقدير: لو لم يعجبك كثرة الخبيث ولو أعجبك كثرة الخبيث، والجملتان في موقع الحال من فاعل لا يستوي، بمعنى لا يستويان كائنين على كل حال مفروض، كما في قولك: أحسن إلى فلان وإن أساء إليك، أي: أحسن إليه إن لم يُسِئْ إليك، وإن اساء إليك، أي: كائنا على كل حال مَفْرُوضٍ، وقد حذفت الأولى حذفاً مطرداً لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة. ﴿**فاتقوا**﴾ الفاء

للتفريع، واتقوا فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**الله**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**يا أولي**﴾ منادى منصوب بالياء. ﴿**الألباب**﴾ مضاف إلى أولي. ﴿**لعلكم**﴾ لعل واسمها. وجملة ﴿**تفلحون**﴾ خبرُها، وجملة فاتقوا الله تذييلية، وجملة لعلكم تعليلية، فلا محل لهما من الإعراب.

مبحث الأسلوب البلاغي

رُبِطَ الكلام بما قبله لما تقدم من ذكر ما لاقى به اليهود والنصارى دعوة الإسلام من الإعراض على تفاوت فيه بَيْن الطائفتين، فإنّ الله شنّع من أحوال اليهود ما يُعرف منهم عداوتهم للإسلام بما تحدث عنهم فيما سبق من الكلام، فَعُلِمَ تَلَوُّنُهُمْ في مضارة المسلمين وأذاهم، وذكر من أحوال النصارى ما شنّع به على عقيدتهم، ولكنه لم يحك عنهم ما فيه عداوتهم للمسلمين. وقد نهى الله المسلمين عن اتخاذ الفريقين أولياء، فجاء قوله: ﴿**لتجدنّ أشد الناس عداوةً**﴾، فَذْلَكَةٌ لحاصلِ ما تُكِنُّهُ ضمائرُ الفريقين نحو المسلمين ـ ولذلك فصلت ولم تُعطف ـ أكدت هذه الجملة بلام القسم، وزادتها نون التوكيد الثقيلة توكيداً. وفي تقديم اليهود على المشركين بعد مشاركتهما في العداوة إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، كما أنّ في تقديمهم عليهم في قوله تعالى: ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا، إيذاناً بتقدمهم عليهم في الحرص. . .

﴿**ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى**﴾: أعيد الموصول مع صلته رَوْماً لزيادة التوضيح والبيان. ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى. . . ﴿**ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون**﴾. . . الخ: هذا الحكم خاص بالطائفة التي ذُكِرَتْ أوصافها في هذا السياق، وليس عاماً في كل من أسموا أنفسهم بهذا الإسم؛ لأنّ السياق يعلل هذه المودّة للمؤمنين من جانب هؤلاء الذين قالوا: إنّا نصارى؛ بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون، إلى آخر الأوصاف التي ذكرت هنا، فهي حال مَنْ تَصِلُ كَلِمَاتُ الله إلى قلوبهم فتظهر عليهم علامات الإيمان بالمعرفة الحقّة، هذه المعرفة التي جعلت القَوْمَ هنا تَفِيضُ أعينُهم من الدمع، حتّى إذا فاض الدمع وخفّ الضغط وهدأت الأعصاب انطلق اللسان يُعَبِّرُ عن صدق الإيمان؛ وهم في إيمانهم بما عرفوا من الحق أقوياء يستنكرون أن ينكر عليهم أحدٌ هذا الإيمان. . .

﴿**وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يُدخلنا ربنا مع القوم الصالحين**﴾: إنّ كل ما حولنا ليوحي إلينا بالإيمان، فلماذ إذن لا نؤمن؟. ولماذا لا نرجو ثواب الله؟. وبهذا تتفتح أبواب الرجاء بالدخول مع الرفقة الصالحة، فإذا ما قالوا قولتهم المطمئنة الواثقة، حقق الله لهم الرجاء وكتب لهم الفلاح... ﴿**فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين**﴾: لقد أحسنوا الاستماع، وأحسنوا الإدراك، وأحسنوا الإيمان، وأحسنوا القول، وساروا في طريق العمل الصالح، وذلك جزاء المحسنين. فأمّا الذين يسمعون فلا يفتحون قلوبهم للحق، ولا يؤمنون بأنّه من عند الله فلهم جزاء آخر يليق بالكفر والتكذيب...

﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم**﴾. وهكذا نجد أنّ المقصود من قوله تعالى: ولتجدّن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى، هم فئة خاصة هي هذه الفئة المؤمنة حقاً بتعاليم المسيح ـ عليه السلام ـ التي يؤدي بها إيمانُها الأول إلى أنْ تَسْلُكَ هذا السلوك الشعوري الذي ذكرته الآية، فتنتهي إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به من الحق من ربه!. فأمّا الذين يسمعون ما أنزل إلى الرسول فيكفرون به ويُكَذِّبُون فليسوا بأقرب الناس مودة للذين آمنوا، إنّما هم حرب عليهم وأعداء ألدّاء، كما رأينا وكما نرى من الصليبيين الذين يتخذون الدين ستاراً ويرتكبون باسمه أشنع الآثام!..

﴿**ياأيُّها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم**﴾... الخ: في هذا السياق مناسبة بين هذا النص والنص الذي سبق، ففي النص السابق جاء ذكر الرهبان في معرض المدح والثناء، والرهبنة: انعزال عن الحياة، وتزهد في طيباتها يصل إلى حدّ تحريم هذه الطيبات، وما كتب الله هذه الرهبانية على أحد، فالمناسبة بين ذكر الرهبانية في الآيات السابقة والنهي عن تحريم الطيبات التي أحلها الله في هذه الآية مناسبة ظاهرة؛ والتناسق في توالي الآيات على هذا النحو ظاهر كذلك، وإن كان نزول هذه مرتبطاً بسبب حادث في حياة المسلمين على عهد الرسول. وقوله: ﴿**ولا تعتدوا**﴾، تأكيد للنهي السابق... ﴿**إنّ الله لا يحب المعتدين**﴾: تعليل لما قبله... ﴿**وكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون**﴾: هذا زيادة في التأكيد، بمعنى: أنّ الله وسّع عليكم

بالحلال فلا تعتدوه إلى الحرام فتكفروا النعمة، ولا تتركوه بالتحريم فتعرضوا عن النعمة. وقوله: واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون، إشارة إلى عِلّة الأمر بالتقوى، فشأن الإيمان أن يقتضي التقوى...

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾... الخ: يجيء هذا الكلام لمناسبة التحريم على النفس ما أحله الله وقد بالغ الإنسان فيه بالحلف؛ بيّن الله هنا الحلف المعقود والحلف غير المعقود، وما تلزم منه الكفارة وأنواعها؛ وعقّب على ذلك ببيان الحكمة، وطلب شكر هذه النعمة... **﴿ياأيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر﴾**... الخ: في سياق التحليل والتحريم يأتي النص صراحة على تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام؛ والأمر باجتناب هذا الرجس ـ وكلها رجس من عمل الشيطان ـ. ويأتي الأمر بالطاعة لله في مقابل معصية الشيطان، والحذر من معصية الرسول الذي ينتهي واجبُه معهم عند البلاغ... **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾**... الخ: جاءت هذه الآية لتضع قانُون الإسلام في تقدير العمل بنيته الباطنة لا بشكله الظاهر، وهذه القاعدة تحتاج إلى التوكيد والتكرار والبيان. ثم يمضي السياق في مجال التحريم والتحليل يتحدث بشأن الصيد في الإحرام، ولقد سبق في مطلع هذه السورة النهي عن إحلال الصيد في الإحرام، فهو هنا يبيّن كفارة قتله في معرض الكفارات... **﴿ياأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد﴾**... الخ: ثم يأتي الجواب عن كل ما سبق من ذكر واجبات ما يتعلق بالْحَرَمِ والإحرام...

﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أنّ الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأنّ الله بكل شيء عليم﴾: لقد جعل الله هذه الحرمات التي تشمل الطير والحيوان، بالأمن في البيت الحرام وفي فترة الإحرام، جعلها لأنّه أراد الكعبة أن تكون مثابة أمْنٍ للناس، تقيمهم وتقيهم الخوف والاضطراب. ألا ما أحوج البشرية المفزعة الوجلة من خصوماتها وحروبها وشهواتها إلى منطقة الأمان التي رسمها الله للناس في هذا القرآن!.. **﴿اعلموا أنّ الله شديد العقاب وأنّ الله غفور رحيم. ما على الرسول إلاّ البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾**: يأتي هذا التحذير في نهاية الحديث عن الحلال والحرام في الحل والإحرام، ثم يأتي بعده الميزان الصحيح الذي يزن

الأعمال من الأقوال والأفعال، ميزان يرجح به الكيف عن الحكم، ويَسْمُو فيه الجوهر عن المظهر، ميزان يقيمه الله لأولي الألباب الذين يُحَكِّمُون عُقولَهم ويُدركون ما وراء القشور الخداعة من لُبَاب... ﴿**قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله ياأولي الألباب لعلكم تفلحون**﴾. ففي هذا الأسلوب براعة المقطع!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**لتجدّن أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا**﴾: الخطاب هنا مُوجَّه إلى الرسول ﷺ على اعتبار أنّ الله يخبره بأمر ثابت لايتخلف في جميع الأحوال، وعلى هذا يكون الخطاب موجهاً لجميع من يهتم بهذا الأمر الثابت، فيحكم به على كل من دخل تحت هذه القاعدة؛ فاليهود غلاظ الأكباد؛ تفيض صدورهم بالحقد أن جعل الله الرسالة في العرب ولم يجعلها فيهم بعد أن كانوا ينتظرونها. ومن هذا فهم أعداء كل هدى وكل إيمان، وأعداء كل رسول وكل من يتبعه. أمّا الذين أشركوا فعداؤهم للمؤمنين معروف السبب؛ فالمؤمنون يوحدون اللهَ ذلك التوحيدَ المنزه عن كل شبهة شرك أو مشابهة، والمشركون يدل وصفُهم على طبيعة عقيدتهم، وهم يرون المؤمنين يُحَطِّمُون قواعد هذه العقيدة، فلا عجب أن يحملوا لهم العداوة والخصومة... ﴿**ولتجدنّ أقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى**﴾: الذين قالوا: إنّا نصارى، المراد بهم الذين بقوا على دين المسيح فلم يبدّلوا ولم يغيّروا وهم قلة على كل حال بقيت على ما كانت عليه من التوحيد والإيمان الصحيح بعضهم في الحبشة وبعضهم في اليمن وفي أماكن مختلفة من الحجاز والشام والعراق ومصر، وبعضهم بقي مع الناس يعلمونهم ويبيّنون لهم الدين الصحيح، وبعضهم ترهبن وسكن الأديرة التي كانت منتشرة في أطراف المعمورة من المدن والقرى، وعندما سمعوا بظهور الإسلام واتصل بعض المسلمين بهم، أوْ هم اتصلوا بالمسلمين، وقد جاء بعضهم إلى المدينة ليقروا بالإسلام، أو جاءوا لقصد امتحان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ...

﴿**ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون**﴾: يُعلّل القرآن الكريم هذه المودّة للمؤمنين من جانب هؤلاء الذين قالوا إنّا نصارى. ويستمر السياق

يصف حال هذه الجماعة وسلوكها. . . **﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربّنا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين﴾**: فهي حالُ مَنْ تصل كلماتُ الله إلى قلوبهم بمجرد سماعها، فإذا عيونهم تفيض من الدمع تأثُراً ورِقَّةً وانْعطَافاً؛ فإنّ إدراكهم لمدلولات تلك الكلمات يتحوّل إلى معرفة لما فيها من الحق. ثم ينطلق اللسان معبّراً بكلمة الحق، يقولون ربّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين: الشاهدين بأنّ هذا الدين حق، وأنّه من عند الله، وهم بما عرفوا من الحق أقوياء يستنكرون أن ينكر عليهم أحدٌ هذا الإيمان. . .

﴿ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربّنا مع القوم الصالحين﴾!: فإذا ما قالوا قولتهم المطمئنة الواثقة، حقق الله لهم الرجاء وكتب لهم الفلاح. . . **﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾**: هؤلاء الكافرون المكذّبون من اليهود والنصارى وغيرهم فليسوا بأقرب الناس مودّة للذين آمنوا، إنّما هم حرب عليهم دائماً كما حصل في وقت التنزيل، وكما يحصل في كل وقت وجيل، ولقد شهد المسلمون من فظائع الصليبيين ما شهدوا في الشرق وفي الغرب ما تقشعر لهوله الأبدان!. وما يزالون يشهدون اليوم في كل بقاع الوطن الإسلامي ما يستره أصحابُه باسم الاستعمار السياسي أو الاقتصادي، ولكنه في صميمه هو الحقد الصليبي الكريه، الذي تَنْغَلُ به قلوب من ينتسبون زوراً إلى السيد المسيح!.

التوجيه الثاني: **﴿ياأيُّها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين﴾**: في هذا التوجيه خاطب الله المؤمنين بأن لا يحرمُوا طيبات ما أحل الله لهم، ولا يغترّوا بما سمعوا من الثناء على القسّيسين والرهبان، لِمَا كانوا عليه من المبالغة في الزهد والرهبانية المتطرفة من الانقطاع عن التزوج وعن أكل اللحوم وكثير من الطيبات، وقد ظهر على بعض الصحابة رضي الله عنهم بعض الطموح إلى التقلل من التعلق بلذائذ العيش اقتداء برسولهم عندما رأوه مقللاً من التعلق بلذائذ العيش ورفاهية الحياة، فكان من المناسب أن يبيّن لهم حكم الإسلام في ذلك حتى لا تذهب النفوس مذاهب شتى بتفرّق الأهواء واختلاف الأنظار في الأشياء. . .

ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين: هذا تحذير بعد النهي عن التحريم؛ ليدل على أنّ المراد النهي عن تجاوز حد الإذن المشروع، فلما نهى عن تحريم الحلال أردفه بالنهي عن استحلال المحرمات، كالاعتداء على حقوق الناس، أو على حقوق الله في أمره ونهيه. وذيّل في الختام بقوله: إنّ الله لا يحب المعتدين؛ للتحذير من كل اعتداء، وللتحريض بالتمسُّك بما جاء في هذا النداء... **﴿وكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيّباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾**: هذا تصريح بالأمر بضد مقتضى النهي الذي قبله، وهو يعم كل ما ينتفع به من طعام وشراب ولباس ومتاع ومأوى. وامتثال هذا الأمر وذلك النهي مما لا يتحقق إلاّ بالتمتع بما يتيسر من الطيبات فعلاً بلا تأثُّم ولا حرج.

واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون: الأمر بالتقوى هنا الوقوف عند حد ما شرع الله من التحريم والتحليل، والقصد منه الاعتدال بإقامة سُنّة الفطرة وإعطاء كل ذي حق حقه من جسد ونفس وأهل، وشكر الله على نعمه باستعمالها كما ينبغي. والاعتدال فضيلة لا رياء فيها ولا سمعة، والمفرطون بتعمد التقشف هم الذين يغترُّون بأنفسهم ويغتر الناس بهم، فهم على انحرافهم عن صراط الدين يدّعون أو يُدَّعَى فيهم أنّهم أكمل الناس في اتباع الدين. جاء القرآن بهذا التشريع ليحقق التوازن المطلق، والتناسق الكامل بين طاقات الحياة البشرية جميعا. وكانت سيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه وأتباعه من بعده المَثَلَ الرَّائِع؛ لأنّهم حقّقوا واتّبعوا أحسن ما أنزل الله من الشرائع!.

التوجيه الثالث: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾: في هذا التوجيه بيان لحقيقة الأيْمان، وبيان لِكَيْفِيَّتِها، وبيان لحكم المنعقد منها: أمّا بيان حقيقة الأيْمان فهو الحلف بالله أو بأحدى صفاته المعتبرة في الشرع، وصيغتها والله وبالله وتالله والعزيز والعليم... الخ الأوصاف، وانعقادها يكون بالقصد من الحلف على فعل شيء أو تركه أو وقوعه أو عدم وقوعه أو هذا الشيء لي أو لفلان إلى غير ذلك مما هو مفصل في باب الأيْمان في كتب الفقهاء.

وكفارة اليمين المنعقدة تكون عند إرادة الحالف خلاف ما حلف عليه، فيكفر بإحدى ما بينه الله هنا من الإطعام، وهو إطعام عشرة مساكين؛ والمسكين ما كان محتاجا إلى الإطعام فيشمل المسكين والفقير في اصطلاح الفقهاء، والإطعام يكون من الوسط المتعارف عليه من غالب قوت أهل البلد، وكذلك الكسوة. وتحرير الرقبة بالعتق؛ وهو عتق الرقيق المملوك كما هو معلوم في تاريخ المسلمين عندما كان الرق معمولاً به في المجتمع البشري، أما الآن فالرق ممنوع دولياً فلا يوجد الآن رقيق بالمعنى الشرعي، فيكون معناه الآن تحرير الأسير من رق الأسر وتخليصه منه، كما قال به بعض الفقهاء. فمن لم يجد ما يعتق أو لم يقدر عليه، ومن لم يجد الكسوة ولا ثمنها، ومن لم يجد الطعام الذي يعطيه للفقير، بأن ليس له من الطعام ما يزيد على نفقته في اليوم أو نفقة من يعوله، فعليه صيام ثلاثة أيام ولم يشترط التتابع، كما هو ظاهر الآية وقال به بعض الفقهاء كما هو مقرر في كتب الفقه. ومن أراد زيادة البيان في هذا الموضوع فعليه بالاطلاع على كتب الفقه في باب الأيْمان.

هذه هي اليمين وكيفيتها وحكمها، أمّا الحكمة في هذا البيان في الجملة؛ فالحلف بالله عقد بين المسلم وربه على فعل أو ترك، فمتى عقد المسلم يمينه فقد وثّق عقده وارتبط به مع الله تعالى، والعقد مع الله لابد أن تكون له كرامته، وأن تكون له مهابته، وأن تكون له جدّيّته، لذلك يكره الله أيْمان اللغو، وإن كان يتفضّل بالعفو عنها فلا يجعل لها كفارة؛ لأنّ عنصر النيّة مفقود فيها، والحساب على الأعمال متصل بالنيّات المصاحبة لها، ويكره أن يكون هذا العقد في تحصيل شر أو تفويت خير، فيأمر بنقض عقدته مع تحميل صاحبه مغبّة هذا النقض وهو الكفارة، ثم يكره في النهاية أن يعمد المرء إلى نقض عهده مع الله حين لا يكون في معصية ويوجب الوفاء به، فإذا نقضه كانت الكفارة كذلك جزاء على نقضه. قضاء هذه الكفارة ردٌّ لاعتبار العقد المنقوض، واعتراف بما وقع من إخلال به لا يجوز، وربط لقلب المسلم بربه من جديد على أساس الاعتراف والتوبة والتكفير. فالغرض الأول هو استجاشة الضمير للاعتراف والإنابة وطلب العفو والمغفرة، وإيجاد حالة نفسية خاصة يحسُّ فيها الإنسانُ خطأَه، ويعيش فترة في ظل هذا الإحساس، أما مادة هذه الكفارة وشكلها فهما وسيلتان لتحقيق هذا الغرض الوجداني المقصود.

وقد جعل الله هذه الكفارة بِرّاً بالمساكين طعاماً أو كسوة، وتحرير رقبة، وصوماً لله ثلاثة أيام لمن لا يجد. والذي يجمع هذه بين هذه الأشكال المتنوعة للكفارة، هو تحقيق الشعور بالخطإ وأداء الثمن في صورة من الصور. نأخذ هذا من قوله تعالى: ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون.

التوجيه الرابع: **﴿ياأيُّها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾**: هذه المحرمات تدخل هنا بمناسبة التحليل والتحريم في المتاع. والخمر يدخل فيه كل مسكر؛ كان ذلك طعْماً أو شُرْباً أو نشوقاً أو حقنا، كما هو الآن واقع في عالم حضارة هذا الجيل. والميسر يشمل كل مقامرة؛ كان ذلك رهاناً أو أوراق النصيب وكل ما يحاول به الشخص أن يحصل على مال من طريق الحدس والمصادفة، التي لا عمل له فيها ولا تدبير، والتي لا تضيف للحياة نتاجاً ولا تحقق لأهلها مصلحة، كما هو منتشر الآن في كل مكان، وتسمع به أو تراه في الألعاب والمنتديات وأمكنة اللغو واللعب، ويعدّه المتحدلقون من أساطين الحضارة تقدُّماً ورفاهية، وهو نتيجة من نتائج المدنية الراقية!. وما هو إلاّ الجاهلية الجاهلة، والإنسانية الساقطة الهالكة في مهاوي الرذيلة!، وهو القضاء على آخر ما تبقى من الشرف والفضيلة!.

والأنصاب أصنام منصوبة يطوفون بها ويعبثون حولها، وينذرون لها الذبائح والأطعمة وكل ما لذ وطاب من أنواع الطعام والشراب، كما هو معمول به الآن في الحفلات بالمناسبات تكريماً بزعمهم بضحايا العدوان وتخليداً لتلك الذكريات!. والأزلام قداح مكتوب عليها الأمر بالعمل أو النهي عنه يخرجها الكاهن من المعبد أو السادن من بيت الصنم، ويعطيها لمن يريد إشارتها في العمل، فإن خرج السهم المكتوب عليه الأمر فعل، وإن خرج ما فيه النهي ترك، وإن خرج بدون شيء أعاد حتى يخرج ما فيه الأمر والنهي، ومثل هذا بعض ما يفعله الجهلة الآن من استخراج البخت من أبراج النجوم، أو استشارة المشعوذ وضارب الحصى وقراءة الكف إلى غير ذلك من الترهات والخزعبلات.

وقد وُصفت هنا كلها في معرض بيان حكمة التحريم بأنّها رجس من عمل الشيطان، فهي دنسة لا ينطبق عليها وصف الطيبات. ويزيد النص في بيان حكمة التحريم أنّها حبائل للشيطان، فهو يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بالخمر والميسر بين المسلمين، وأن يصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة.

وللعلماء تفصيل لمضار الخمر والميسر نبينه فيما يلي: الأول: أنّ الله تعالى جعلهما رجساً من عمل الشيطان، وكلمة الرجس تدل على منتهى القبح والخبث. الثاني: أنّ الله تعالى صدّر الجملة بإنّما الدالة على الحصر للمبالغة في ذمها، كأنّه قال: ليست الخمر وليس الميسر إلاّ رجساً فلا خير فيهما البتة. الثالث: أنّ الله تعالى قرنهما بالأنصاب والأزلام التي هي من أعمال الوثنية وخرافات الشرك. الرابع: أنّ الله تعالى جعلهما من عمل الشيطان لما ينشأ عنهما من الشرُور والطغيان، وهل يكون عمل الشيطان إلاّ موجباً لسخط الرحمن؟. الخامس: أنّ الله تعالى جعل الأمر بتركهما من مادة الاجتناب وهو أبلغ من الترك؛ لأنّه يفيد الأمر بالترك مع البعد عن المتروك. السادس: أنّ الله تعالى جعل اجتنابهما معداً للفلاح ومرجاة له، فدل ذلك على أنّ ارتكابهما من الخسران والخيبة في الدنيا والآخرة. السابع والثامن: أنّ الله تعالى جعلهما مثاراً للعداوة والبغضاء، وهما شر المفاسد. التاسع والعاشر: أنّ الله تعالى جعلهما صادين عن ذكر الله وعن الصلاة، وهما روح الدين وعماده، وزادُ المؤمنِ وعتادُه. الحادي عشر: أنّ الله تعالى أمر بالانتهاء عنهما بصيغة الاستفهام المقرون بفاء السببية، وهل يصح الفصل بين السبب والمسبب؟.

ثم يؤكد ذلك بتأكيدات أخرى في قوله. . . **﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنّما على رسولنا البلاغ المبين﴾**: وفي هذه الزيادة زيادة لأنواع مضار الخمر والميسر على ما سبق، وهي كما يلي: الثاني عشر: أنّ الله تعالى أمر المؤمنين بطاعته في اجتناب الخمر والميسر وغيرهما، وبطاعة رسوله فيما بيّنه لكم، ومنه قوله: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام». الثالث عشر: أنّ الله تعالى حذّر المؤمنين من العصيان المترتب عليه إصابة الفتنة والعذاب «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم». وأي فتنة أشد من فتنة الخمر والميسر، وأيُّ عذاب أشد عذاباً ممن يرتكب هذه

المعاصي والمآسي؟!. الرابع عشر: أنّ الله تعالى أنذر وهدّد في قوله: فإن توليتم فاعلموا أنّما على رسولنا البلاغ المبين. وبعد؛ فالله تعالى لم يؤكد تحريم شيء في القرآن مثل هذا التأكيد ولا قريباً منه!. والحكمة في ذلك شدة افتتان الناس بهما، وتأوّلهم كل ما يمكن تطرق الاحتمال إليه من أحكام الأديان التي تخالف أهواءهم. ابتداءً من اليهود وانتهاءً بفساق المسلمين الذين استحلوا شرب بعض الخمور بتسميتها بغير اسمها، إذ قالوا: هذا نبيذ، أو شراب لا يسكر إلاّ الكثير منه، وقد أحل ما دون القدر المسكر منه فلان وفلان، يقولون ذلك فيما هو خمر لا حظ لهم من شربه إلاّ السكر!.

بل تجرّأ بعض غلاة الفساق على القول بأنّ هذه الآيات لا تدل على تحريم الخمر؛ لأنّ الله قال: فاجتنبوه، ولم يقل: حرّمته فاتركوه، إلى غير ذلك من الأقوال التافهة الساقطة التي لا تصدر إلاّ مِمّن دلّ عليهم قولُه تعالى: «اتخذوا دينهم هزؤاً ولعباً»، ويمكن أن يقال: إنّ هذا الغلوّ قلما يصدر عمّن كان صحيح الإيمان، نعوذ بالله من الخذلان ومن همزات الشيطان... **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما تقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾**: هذه الآية نزلت رداً لقول بعض الصحابة في من مات قبل التحريم ومن لم تبلغه حرمة حكم الخمر، وخصوصاً الشهداء الذين استشهدوا في غزوتي بدر وأُحُد. وتشمل هذه الآية كذلك قاعدة الحكم العام في الطيبات من الرزق عندما تشدد فيه بعض الناس، فالمعنى: ليس الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ من الأحياء والميتين والشاهدين والغائبين إثم ولا مؤاخذة فيما أكلوا من الميسر أو شربوا من الخمر فيما مضى قبل تحريمها، ولا في غير ذلك مما لم يكن محرّماً ثمّ حُرّم إذا ما اتقى الشخص ما كان محرماً، ومنه الإسراف في الأكل والشرب من المباح، وآمنوا بما كان قد نزّله الله تعالى، وعملوا الصالحات التي كانت قد شرّعت، ثم اتقوا ما حرمه الله تعالى بعد ذلك عند العلم به، وآمنوا بما نزل فيه وفي غيره، وعملوا الصالحات التي هي من لوازم الإيمان، ثم اتقوا ـ ارتقوا عن ذلك ـ فاتقوا الشبهات تورُّعاً وابتعاداً عن الحرام، وأحسنوا أعمالهم الصالحات؛ بأن أتوا بها على وجه الكمال، وتمّموا نقصها بنوافل الطاعات، والله يحب المحسنين.

التوجيه الخامس: ﴿ياأيُّها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله

أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾: في هذا التوجيه خاطب الله المؤمنين بتنبيههم إلى حالة قد يسبق فيها حرصُهم حَذَرَهم، وشهوتهم تقواهم، وهي حالة ابتلاء وتمحيص، يظهر بها في الوجود اختلاف تمسّكهم بوصايا الله تعالى، ويحذرهم فتنة الابتلاء، ويخبرهم أنّه سيبتليهم بشيء من الصيد السهل الذي لا يحتاج إلى مشقة أو تعب؛ صيد تناله أيديهم من قريب، وتناله رماحهم مباشرة من صغارالصيد وضعافه، وفي هذا إغراء لهم بصيده، وهو معنى الابتلاء ـ ليعلم الله من يخافه بالغيب ـ فيمتنع عن الفتنة، ويترك المغنم الميسور وهو قادر عليه؛ ليطيع ربّه ويخشاه وهو لا يراه، ولكن يؤمن به ويترضاه. فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم: لأنّه يعتدي بعد التحذير والتنبيه. . .

﴿ياأيُّها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾: هذا بيان لما تقدم من قوله: ليبلونكم الله بشيء من الصيد، فالله حرّم الصيد في حالين: حال كون الصائد محرماً، وحال كون الصيد من صيد الحرم، ولو كان الصائد حلالاً، والحكمة في ذلك أنّ الله تعالى عظّم شأن الكعبة من عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأمره بأن يتخذ لها حرما، فكانت بيت الله وحماه. وجعل الله البيت أمنا للناس، ووسع ذلك الأمن حتى شمل الحيوان العائش في حرمه، بحيث لا يرى الناس للبيت إلاّ أمناً للعائذ به وبحرمه. فالتحريم لصيد حيوان البر، ولم يحرم صيد البحر؛ إذ ليس في شيء من مساحة الحرم بحر ولا نهر. وحرم مكة معلوم بحدود من قبل الإسلام، وهو الحرم الذي حرمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ ووضعت بحدوده علامات في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. . .

﴿ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة، أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام﴾: فمن قتل صيداً ـ وهو محرم ـ فكفارته أن يذبح بهيمة من الأنعام من مستوى الصيد الذي قتله، على أن يتولى الحُكم في هذا رجلان عادلان من المسلمين، فأمّا إذا لم يكن هناك من الأنعام مثل الصيد المقتول فالحكمان يقومانه بمال، يُشترى به ذبيحة تذبح عند الكعبة وينال لحومها الفقراء، هذا أو كفارة طعام مساكين بما يعادل ثمن الهدي

المقدّر، أو صيام أيام بعدد المساكين الذين كان ينالهم الإطعام، وهذه المسائل موضع خلاف فقهي بين الأئمة تطلب في كتب الفقه. ليذوق وبال أمره: في الكفارة هنا معنى العقوبة؛ لأنّ الذنب هنا مخلّ بحرمة يشدّد فيها الإسلام تشديداً كبيراً، لذلك يعقبها بالتهديد: عفا الله عمّا سلف ومن عاد فينتقم الله منه، فهي جريمة يتناولها عفو الله فيما سلف، أمّا الذي يعود إليها بعد تحذير الإسلام منها، وبيانه عنها، فنقمةٌ الله تنتظره؛ والله عزيز ذو انتقام!.. ﴿**أُحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيّارة وحرّم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي إليه تحشرون**﴾: تقدمت حكمة حل صيد البحر وحرمة صيد البر، واتقوا الله الذي إليه تحشرون...

﴿**جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد**﴾: إنّما كانت الكعبة قياماً للناس، لأنّ الله تعالى لما أمر إبراهيم بأن ينزل في مكة زوجه وابنه إسماعيل، وأراد أن تكون نشأة العرب ـ وهم ذرية إسماعيل ـ في ذلك المكان؛ لينشأوا أمة أصيلة الآراء عزيزة النفوس ثابتة القلوب، لأنّه قدّر أن تكون تلك الأمة هي أول من يتلقى الدين الذي أراد أن يكون ناسخ الأديان وآخرها، لما فيه من هداية البشر جميعاً إلى العلوم الكاملة والأخلاق الفاضلة، فأقام لهم بلداً بعيداً عن التعلق بزخرف الحياة، فنشأوا على إباء الضيم، وأقام لهم فيه الكعبة معلماً لتوحيد الله تعالى، ووضع في نفوسهم ونفوس جيرتهم تعظيمه وحرمته، ودعا الناس إلى حجه ما استطاعوا وسخّر الناس لإجابة تلك الدعوة، فصار وجود الكعبة عائداً على سكان بلدها بفوائد التأنس بالوافدين، والانتفاع بما يجلبونه من الأرزاق، فأصبح ساكنوه لا يلحقهم جوع ولا عراء، وجعل في نفوس أهله القناعة فكان رزقهم كفافاً، وذلك ما دعا به إبراهيم ـ عليه السلام ـ في قوله: ربّنا إنّي أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون.

﴿**ذلك لتعلموا أنّ الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأنّ الله بكل شيء عليم**﴾؛ فالله سبحانه يعلم طبائع البشر ومكنونات نفوسهم، كما يعلم ضرورات الأرض ومقتضيات الحياة، ويحيط علمه بما بعد الأرض من قوانين الكون ونواميس الوجود في الأرض والسماوات، ومن هذا العامل الكامل الشامل الدقيق العميق تجيء الأوامر والنواهي؛ وهي هنا خاصة بالنفس وخصائصها،

والبشرية وملابساتها، والحياة ووشائجها، فسبحان الذي هو بكل شيء عليم!.

ووجه دلالة جعْل الكعبة قياماً للناس وما عطف عليها على كونه تعالى يعلم ما في السماوات وما في الأرض، أنّه تعالى أمر ببناء الكعبة في زمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلم يذْر أحد يومئذ إلاّ إن إبراهيم اتخذها مسجداً، ومكة يومئذ قليلة السكان، ثم إنّ الله أمر بحج الكعبة وبحرمة حرمها وحرمة القاصدين إليها، ووقّت للناس أشهراً للحج فيها، وهدايا يسوقونها إليها، فكانت الكعبة سبب بقائهم حتى جاء الله بالإسلام. وكان ذلك تمهيداً لما علمه من بعثة محمد ﷺ فيهم، وجعلهم حملة شريعته إلى الأمم، وما عقب ذلك من عظم سلطان المسلمين وبناء حضارة الإسلام. . .

﴿**اعلموا أنّ الله شديد العقاب وأنّ الله غفور رحيم**﴾: قد استوفى في قوله هذا أقسام معاملته تعالى: فهو شديد العقاب لمن خالف أحكامه، وغفور لمن تاب وعمل صالحاً. . . ﴿**ما على الرسول إلاّ البلاغ**﴾: هذا تعريض بما سبق من وعيد الكافرين ووعد المؤمنين. وتتضمن الإعذار للناس جميعاً؛ لأنّ الرسول قد بلّغ إليهم ما أراد الله منهم، فلا عذر لهم في التقصير، والمنة لله ولرسوله فيما أرشدهم إليه من خير. . . ﴿**والله يعلم ما تبدون وما تكتمون**﴾: هي تتميم لما سبق، وتذكير بأنّ الله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ظاهرها وباطنها. . .

﴿**قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث**﴾: جاءت هذه الآية بالقاعدة العامة، وهي أنّ العبرة بصفة الشيء لا بعدده، وإنّما تكون العزة بالكثرة بعد التساوي في الصفات. فالآية تبيّن أنّ هناك كثرة من أشياء فاسدة تَسْتَهْوِي من كانوا على قلة من الأشياء الصالحة، والعرب كانوا يفتخرون بكثرة العدد من الأموال والأولاد، ولما كان من المعلوم أنّ الخبيث لا يساوي الطيب، وأنّ البون بينهما بعيد، علم السامع من هذا أنّ المقصود استنزال فهمه إلى تمييز الخبيث من الطيب في كل ما يلتبس فيه أحدهما بالآخر. وهذا فتح لبصائر الغافلين كي لا يقعوا في مهواة الالتباس؛ ليعلموا أن تمّت خبيثا قد التف في لباس الحسن فتموه على الناظرين، ولما كان من دأب أهل الغفلة والجهل الغرورُ بالكثرة مطلقاً، عقب عليه تعالى بقوله: ﴿**فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون**﴾: لا تغتروا بكثرة المال الخبيث، ولا بكثرة أهل الباطل والفساد من الخبيثين، فإنّ تقوى الله تعالى هي التي تنظمكم في سلك الطيبين، فيُرجى لكم أن تكونوا من المصلحين!.

2 ـ تضييق المجال لفتح أيّ باب من السؤال

النص

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ
يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿103﴾
قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿104﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ
مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿105﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ
قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿106﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ
لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿107﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ
بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ
مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ
بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿108﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿109﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿110﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿111﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**لا تسألوا عن أشياء**﴾: أشياء جمع شيء، والشيء الموجود... ﴿**إن تُبد لكم تسؤكم**﴾: بدا الشيء: ظهر، وأبداه: أظهره، وكلمة تُبد هنا تُظهر. ومعنى تسؤكم: لا ترضون بها لكراهتكم للسوء، يقال ساءه الأمر فتساء منه: كرهه ولم يرض به... ﴿**عفا الله عنها**﴾: عفا عن الشيء: تركه وتنزّه عن مطالبته، وعفا عن الذنب: لم يؤاخذ به... ﴿**قد سألها قوم من قبلكم**﴾: المراد بالقوم بعض الأمم التي كانت قبل الإسلام... وأصبحوا: بمعنى صاروا... ﴿**ما جعل الله من بحيرة**﴾: ما جعل: ماأمر وما شرع. البحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة، والبحر الشق، كان الجاهلية يشقون أذن الناقة علامة على تخليتها لأصنامهم... ﴿**ولا سائبة**﴾: السائبة البعير يجعل نذراً للأصنام وهو اسم فاعل بمعنى الانطلاق والإهمال... ﴿**ولا وصيلة**﴾: الوصيلة الأنثى من النعم تلد أنثى بعد أنثى فتجعل

للأصنام. . . ﴿**ولا حام**﴾: الحامي فحل الإبل إذا أنتجت من صلبه عشرة أبطن فيُمنع من الركوب ويُترك لا يمنع من مرعى ولا ماء، ويقولون: إنَّه حمى ظهره. . .

﴿**وإذا قيل لهم تعالوا**﴾: الأمر هنا مستعمل في طلب الإقبال، وفي إصغاء السمع ونظر الفكر، وحضور مجلس الرسول ﷺ. . . ﴿**قالوا حسبنا**﴾: كافينا لا نحتاج إلى غيره. . . ﴿**عليكم أنفسكم**﴾: عليكم اسم فعل بمعنى الزموا، والأصل في معنى هذه الكلمة عليك أن تفعل كذا، فاختُصر بقولهم: عليك كذا، ومع كثرة الاستعمال جعلوا عَلَى بمعنى فعل الأمر وما بعدها معمولاً لها، وهي خاصة بالمخاطب مفرداً ومثنى وجمعاً. . . ﴿**إليه مرجعكم**﴾: المرجع مصدر ميمي، مما جاء من المصادر الميمية بكسر العين على القليل. . .

﴿**شهادة بينكم**﴾: بين اسم مكان مبهم متوسط بين شيئين، وهنا خرج بين عن الظرفية إلى مطلق الإسمية، مثل قوله: «لقد تقطع بينُكم» في قراءة من قرأ بينكم بالرفع. . . ﴿**إذا حضر أحدكم الموت**﴾: حضور الموت: حضور علاماته؛ لأنّ ذلك حالة يتخيل فيها المرء أنّ الموت قد حضر عنده ليصير ميتا. . . ﴿**حين الوصية**﴾: الوصية: ما يعهد به من يحس بالموت إلى غيره. . . ﴿**ذوا عدل**﴾: عادلان. . . ﴿**ضربتم في الأرض**﴾: سافرتم. . . ﴿**مصيبة الموت**﴾: المصيبة: الحادثة التي تحل بالمرء من شر وضر. . . ﴿**تحبسونهما**﴾: الحبس هنا المنع من الانصراف بمعنى الانتظار. . . ﴿**فيقسمان بالله**﴾: يؤديان اليمين، وهو الحلف. . . ﴿**لا نشتري به ثمناً**﴾: لا نعتاض بالأمر الذي أقسمنا عليه ثمنا، والمراد بالثمن العوض. . . ﴿**ولا نكتم شهادة الله**﴾: كتم الشهادة إخفاؤها أو إظهارها على غير وجهها. . .

﴿**إنّا إذاً لمن الآثمين**﴾: إنّا في حين وقت إنكارنا للشهادة نكون من الآثمين. والآثم: مرتكب الإثم المخالف لما أمر الله. . . ﴿**فإن عثر**﴾: ومعنى عُثر: اطُّلع وتبين ذلك، وأصل فِعْل عَثَر أنّه مصادفة رجل الماشي جسماً ناتئا في الأرض لم يترقبه ولم يحذر منه فيختل به اندفاع مشيه، فقد يسقط وقد يتزلزل، ثم استعمل في الظفر بشيء لم يكن مترقباً الظفر به، والمصدر منه العثار في المعنى الحسي، والعثور في المعنى المعنوي. . . ﴿**استحقا إثماً**﴾: ثبت أنّهما ارتكبا ما يأثمان به،

والمراد بالإثم ما تبرءا منه سابقاً. . . ﴿**فآخران يقومان**﴾: الآخر: المغاير بالذات أو بالوصف، ومعنى يقومان يكونان بدلهما، ومعنى الاستحقاق كون الشيء حقيقاً بشيء آخر، والأوْليان تثنية الأوْلَى، وهو الأجدر والأحق.

مبحث الإعراب

﴿**ياأيُّها الذين آمنوا**﴾ إعرابها معلوم مما تقدم. ﴿**لا تسالوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية. ﴿**عن أشياء**﴾ مجرور بالفتحة، وهو ممنوع من الصرف لألف التأنيث الممدودة، متعلق بالفعل قبله. ﴿**إن**﴾ حرف شرط جازم. ﴿**تبُد**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، فعل الشرط مجزوم بحذف الألف، ونائب الفاعل ضمير يعود على أشياء. ﴿**لكم**﴾ متعلق بتبد. ﴿**تسؤكم**﴾ جواب الشرط مجزوم بالسكون، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على أشياء، وجملة إن تبد لكم. . . في محل جر نعت لأشياء.

﴿**وإن تسألوا**﴾ جملة شرطية معطوفة على قوله: لا تسألوا. ﴿**عنها**﴾ متعلق بتسألوا. ﴿**حين**﴾ ظرف منصوب بالفتحة متعلق بتسألوا؛ والأولى أن تتعلق بالشرط. ﴿**يُنزل**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿**القرآن**﴾ نائب الفاعل، وجملة يُنزل القرآن في محل جر مضاف إلى حين. ﴿**تُبد**﴾ فعل مضارع جواب الشرط مجزوم بحذف الألف، ونائب الفاعل ضمير يعود على أشياء. ﴿**لكم**﴾ متعلق بتبد. ﴿**عفا الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عنها**﴾ متعلق بعفا، والجملة للاستئناف. ﴿**والله غفور حليم**﴾ جملة من مبتدإ وخبر تذييلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**سألها**﴾ فعل ماض، والضمير فيه مفعول به. ﴿**قوم**﴾ فاعل سأل. ﴿**من قبلكم**﴾ متعلق بسأل. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف. ﴿**أصبحوا**﴾ الواو اسم أصبح. ﴿**بها**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**كافرين**﴾ خبرها. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**جعل الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**من بحيرة**﴾ من زائدة. ﴿**ولا سائبة**﴾ معطوفة على بحيرة. ﴿**ولا وصيلة**﴾ كذلك. ﴿**ولا حام**﴾ مثلها، وحام مجرور بكسرة مقدرة على الياء المحذوفة، وجُرّت بحيرة وما عطف عليها لفظاً مع أنّها مفعول جعل. ﴿**ولكن**﴾ الواو للعطف، لكن حرف استدراك يعمل عمل إنّ. ﴿**الذين**﴾ اسم لكنّ في محل نصب. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**يفترون**﴾ فعل وفاعل في محل رفع خبر لكنّ. ﴿**على الله**﴾ متعلق بيفترون.

﴿**الكذب**﴾ مفعول به. ﴿**وأكثرهم**﴾ مبتدأ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لا يعقلون**﴾ فعل مضارع منفي بلا، وواو الجماعة فاعل، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**وإذا**﴾ ظرف زمان معمول لقالوا. ﴿**قيل لهم**﴾ مضاف إلى الظرف في محل جر. ﴿**تعالوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل في محل نصب مقول القول. ﴿**إلى ما**﴾ متعلق بتعالوا. ﴿**أنزل الله**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**وإلى الرسول**﴾ معطوف على ما أنزل الله. ﴿**قالوا**﴾ جواب إذا. ﴿**حسبنا**﴾ مبتدأ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ما**﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**وجدنا**﴾ صلة ما. ﴿**عليه**﴾ متعلق بوجدنا. ﴿**آباءنا**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أولو**﴾ حرف استفهام وعطف وشرط. ﴿**كان آباؤهم**﴾ كان واسمها. ﴿**لا يعلمون**﴾ فعل مضارع منفي بلا، وواو الجماعة فاعل. ﴿**شيئا**﴾ مفعول به. ﴿**ولا يهتدون**﴾ معطوف على قوله لا يعلمون.

﴿**ياأيُّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم**﴾. عليكم اسم فعل. أنفسكم مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لا يضركم**﴾ فعل مضارع منفي بلا، والضمير فيه مفعول به. ﴿**مَنْ**﴾ في محل رفع فاعل يضر. ﴿**ضل**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة مَنْ. ﴿**إذا**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**اهتديتم**﴾ فعل وفاعل، فعل الشرط، وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله، وهو قوله: لا يضركم من ضل. ﴿**إلى الله**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدّم. ﴿**مرجعكم**﴾ مبتدأ مؤخر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**جميعاً**﴾ حال من الضمير في مرجعكم. ﴿**فينبئكم**﴾ الفاء للتعقيب، ينبئكم فعل مضارع، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**بما**﴾ متعلق بينبئكم. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**تعملون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وجملة كنتم صلة ما. ﴿**ياأيُّها الذين آمنوا شهادة بينكم**﴾: شهادة مبتدأ، بينِكم مضاف إلى شهادة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إذا**﴾ ظرف متعلق بشهادة.

﴿**حضر**﴾ فعل ماض. ﴿**أحدكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الموتُ**﴾ فاعل حضر، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**حين**﴾ بدل من إذا منصوب بالفتحة. ﴿**الوصية**﴾ مضاف إلى حين. ﴿**اثنان**﴾ خبر شهادة مرفوع بالألف. ﴿**ذوا**﴾ نعت لاثنان. ﴿**عدل**﴾ مضاف إلى ذوا. ﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف

نعت ثان لاثنان. ﴿**أو آخران**﴾ معطوف على اثنان. ﴿**من غيركم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لآخران، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إنْ**﴾ حرف شرط جازم. ﴿**أنتم**﴾ فاعل لفعل مقدّر بعد إنْ، يدل عليه. ﴿**ضربتم**﴾ وهو فعل وفاعل. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بضربتم، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله من قوله أوْ آخران. ﴿**فأصابتكم**﴾ فعل ومفعول معطوف بالفاء. ﴿**مصيبة**﴾ فاعل أصابت. ﴿**الموت**﴾ مضاف إلى مصيبة. ﴿**تحبسونهما**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة حال من آخران. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بتحبسونهما. ﴿**الصلاة**﴾ مضاف إلى بعد. ﴿**فيقسمان**﴾ الفاء للتعقيب، يقسمان فعل مضارع مرفوع بالنون، وألف المثنى فاعل. ﴿**بالله**﴾ متعلق بيقسمان. ﴿**إن ارتبتم**﴾ جملة شرطية، وجوابها محذوف يدل عليه ما قبله. ﴿**لا نشتري**﴾ فعل مضارع منفي بلا، والفاعل نحن. ﴿**به**﴾ متعلق بنشتري. ﴿**ثمناً**﴾ مفعول به.

﴿**ولو كان ذا قربى**﴾ جملة وصلية في محل نصب حال من الفاعل، وهي متضمنة معنى الشرط لوجود لو، وجملة كان واسمها وخبرها فعل الشرط، وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله. ﴿**ولا نكتم**﴾ معطوف على قوله: لا نشتري. ﴿**شهادَة**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى شهادة. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**إذَنْ**﴾ ظرفية جوابية، والتنوين عوض لكلام مقدّر. ﴿**لمن الآثمين**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**فإنْ عثر**﴾ الفاء للتعقيب، عثر فعل ماض مبنيّ للمجهول فعل الشرط. ﴿**على أنّهما**﴾ قام مقام نائب الفاعل. ﴿**استحقا**﴾ فعل وفاعل خبر أنّ. ﴿**إثماً**﴾ مفعول به. ﴿**فآخران**﴾ الفاء رابطة للجواب، آخران مبتدأ. وجملة ﴿**يقومان مقامهما**﴾ مصدر ميمي مفعول مطلق. ﴿**من الذين**﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المرفوع. ﴿**استحق**﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول. ﴿**عليهم**﴾ قام مقام نائب الفاعل. ﴿**الأوليان**﴾ خبر لمبتدإ محذوف، أي: هُما الأوْلَيَانِ. ﴿**فيقسمان**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**بالله**﴾ متعلق بيقسمان. ﴿**لشهادتنا**﴾ مبتدأ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أحقُّ**﴾ خبره. ﴿**من شهادتهما**﴾ متعلق بأحق، وجملة لشهادتنا.. جواب القسم. ﴿**وما اعتدينا**﴾ الواو للعطف، ما للنفي، اعتدينا فعل وفاعل. ﴿**إنّا إذاً لمن الظالمين**﴾ مثل إنّا إذاً لمن الآثمين. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أدنى**﴾ مرفوع بضمة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر خبر ذلك. ﴿**أنْ**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**يأتوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بالشهادة**﴾ متعلق بيأتوا. ﴿**على وجهها**﴾ كذلك،

وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بإلى، والتقدير: ذلك أقرب إلى الإتيان بالشهادة على وجه الحق.

﴿**أو يخافوا**﴾ معطوف على أن ياتوا. ﴿**أنْ ترد**﴾ فعل مضارع منصوب بأن. ﴿**أيمان**﴾ نائب فاعل تُرد. ﴿**بعد أيمانهم**﴾ متعلق بترد، وأن ترد في تأويل مصدر مجرور متعلق بفعل مقدّر، والتقدير: أو يخافوا أن يفتضحوا برد أيْمانهم. ﴿**واتقوا الله**﴾ جملة من الفعل والفاعل والمفعول تذييلية. ﴿**واسمعوا**﴾ معطوف على اتقوا. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**لا يهدي**﴾ فعل مضارع منفيّ بلا، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**القوم**﴾ مفعول به. ﴿**الفاسقين**﴾ نعت له، وجملة لا يهدي خبر المبتدإ، وجملة والله لايهدي معطوفة على قوله: واتقوا الله. ﴿**يومَ**﴾ ظرف زمان متعلق بكلام مقدّر يناسبه المقام، والتقدير: اذكر يوم يجمع الله الرسل، والفعل والفاعل بعد الظرف في محل جر مضاف إليه. ﴿**فيقول**﴾ مرتب على قوله يجمع. ﴿**ماذا**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**أُجبتم**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وضمير المخاطبين نائب الفاعل، وجملة أُجبتم في محل رفع خبر ماذا، وجملة ماذا أجبتم في محل نصب مقول القول. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل جواب لسؤال مقدّر.

﴿**لا**﴾ نافية للجنس تعمل عمل إنّ. ﴿**علم**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**لنا**﴾ متعلق بمحذوف خبر لا، وجملة لا علم لنا في محل نصب مقول القول. ﴿**إنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أنت**﴾ ضمير فصل. ﴿**علاّم**﴾ خبر إنّ. ﴿**الغيوب**﴾ مضاف إلى علاّم، وجملة إنّك أنت تعليلية لا محل لها من الإعراب.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**يا أيُها الذين آمنوا**﴾. . . الخ الآية: هذا الكلام يبين ـ للناس على وجه العموم، وللمؤمنين على وجه الخصوص ـ حقيقة مهمة الرسول، وهي تبليغهم ما فيه مصلحتهم وما فيه مضرتهم ليمتثلوا ولينتهوا، ولم يُرسل الرسول ليطلع الناس على الغيب. . . ﴿**ما على الرسول إلاّ البلاغ**﴾: وهو هنا يُعَلِّم المؤمنين أدب السؤال، وحدود البحث، وقواعد التفكير، وأن يقف الناس في البحث عند الحدود التي أرادها العليم الخبير. ثم ضرب لهم المثل بمن سبقهم ممن كانوا يشدّدون على أنفسهم بالسؤال عن التكاليف والأحكام. . . ﴿**قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين**﴾: وهو بهذا النص يضع دستور البحث ومنهج

المعرفة، والأسئلة التي لا تنتج أثراً إيجابياً مفيداً للناس لا تستحق أن توجه، والبحث الذي لا ينتهي إلى نتائج عملية ينبغي اجتنابه من الأساس، ذلك أنّ هذا الدين جاء لِيُنْشِىءَ ويبني ويحقق أهدافاً إيجابية واقعية؛ لا ليكون جدلاً لاهوتيا، أو بحثاً نظرياً، أو تَرَفاً عقلياً لا يضيف شيئا للرصيد الواقعي للحياة. . .

﴿**ما جعل الله من بحيرة**﴾. . . الخ الآية: هذا الكلام جاء فارقاً بين ما أحدثه أهل الجاهلية من نقائض الحنيفية وبين ما نوّه الله به من شعائر الحج. والمقابلة في قوله هنا: ما جعل الله من بحيرة، وفي قوله هناك: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس. وجاءت هذه الآية هنا مفصولة عن الآية هناك ليكون أوقع لاستقلال كل آية بحكمها، فيزيد الاهتمام بكل ما تضمنه منها. وأُدخلت (مِن) الزائدة بعد النفي (ما جعل الله من بحيرة)، للتنصيص على أنّ النفي نفي الجنس لا نفي أفراد معينة، فقد ساوى أن يقال: لا بحيرة ولا سائبة مع قضاء حق المقام من بيان أنّ هذا ليس من جعل الله، وأنّه لا يرضى به فهو حرام، فهذا الكلام رد وإبطال لما افترته الجاهلية من الأفعال. . .

﴿**ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون**﴾: هذا زيادة بيان لقصر عقولهم وعجزهم عن الاهتداء بأنفسهم. . . ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون**﴾: بهذا الأسلوب المثير للضحك تعرض الآية هذا النموذج في صورة مستنكرة، فهؤلاء حالهم عجيبة في أنّهم يقبلون ادّعاء آبائهم أنّ الله أمرهم بما اخْتَلَقُوا لهم من الضلالات، مثل البحيرة والسائبة، ويُعرضون عن دعوة الرسول الصادق بلا حجة، فشتان بين من يتبع الجاهل الضال السفيه، ومن يتبع الرسول الصادق النزيه!. .

﴿**ياأيُّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم**﴾. . . الخ الآية: لما ذكر الله مكابرة الكافرين وإعراضهم عن دعوة الخير عقّبه بتعليم المسلمين حدود انتهاء المناظرة والمجادلة إذا ظهرت المكابرة، وعذر المسلمين بكفاية قيامهم بما افترض الله عليهم من الدعوة إلى الخير، فأعلمهم هنا أن ليس تحصيل أثر الدعاء على الخير بمسئولين عنه، بل على الداعي بذل جهده وما عليه إذا لم يصغ المدعوّ إلى الدعوة، فجملة ﴿**لا يضركم من ضل**﴾ تتنزّل من التي قبلها منزلة البيان فلذلك

فُصِلَتْ، لأنّ أمرهم بملازمة أنفسهم مقصود منه دفع ما اعتراهم من الغم والأسف على عدم قبول الضالين للاهتداء، وخشية أن يكون ذلك لتقصير في دعوتهم، فقيل لهم: عليكم أنفسكم. وقوله: ﴿**إلى الله مرجعكم جميعاً**﴾: عذر للمهتدي ونذارة للضال، فهو وعد ووعيد. وقدم المجرور للاهتمام بمتعلق هذا الرجوع وإلقاء المهابة في نفوس السامعين. وأكد ضمير المخاطبين بقوله: جميعاً للتنصيص على العموم. والمراد بالإنباء بما كانوا يعملون الكناية عن إظهار أثر ذلك من الثواب للمهتدي الداعي إلى الخير، والعذاب للضال المعرض عن الدعوة. . .

﴿**ياأيُّها الذين آمنوا شهادة بينكم**﴾. . . الخ الآية: جاءت هذه الآية لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم إثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور دينهم؛ لأنّها من جملة التشريعات التي تضمنتها هذه السورة، تحقيقاً لإكمال الدين، واستقصاءً لما قد يحتاج إلى علمه المسلمون. وتصدير هذه الآية بحرف النداء (يا) والتنبيه (ها) لإظهار كمال العناية بمضمونه. شهادة بينكم: إضافة الظرف إلى شهادة توسع باعتبار جريانها أو باعتبار تعلقها فيما يجري بينهم من الخصومات. . . ﴿**إذا حضر أحدكم الموت**﴾: قدم المفعول (أحدكم) على الفاعل (الموت)؛ لإفادة كمال التمكُّن وقت ورود الموت على النفس؛ فإنّه أدخل في تهوين أمر الموت. . . ﴿**حين الوصية**﴾: بدل من الظرف قبله؛ للتنبيه على أنّ الوصية من المهمات المقررة التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم، ويذهل عنها. . . ﴿**اثنان ذوا عدل منكم**﴾: الشهادة على الوصية شهادةُ اثنين من المسلمين عدول. وفي الكلام إيجاز بليغ؛ لأنّه جاء على الصورة الكاملة في شهادة الوصية. . . ﴿**أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت**﴾: هذا تفصيل للحالة التي تعرض في السفر، فأو للتقسيم وليست للتخيير. وجواب إن أنتم ضربتم في الأرض محذوف دل عليه قوله: أو آخران من غيركم، والتقدير: إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت فليشهد آخران من غيركم. . .

﴿**تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنّا إذاً لمن الآثمين**﴾: فالحبس وكيفية القسم وكونه من بعد الصلاة كلها تتعلق بحكم يمين غير المسلم؛ لزيادة الثقة بشهادته لعدم الاعتداد بعدالة غير المسلم. . . ﴿**فإن عثر على أنّهما استحقا إثماً فآخران يقومان**

مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنّا إذاً لمن الظالمين﴾: هذا الحكم يتعلق بالكلام السابق من شهادة غير المسلمين العدلين، وهما الآخران من غيركم فيما إذا عثر على أنّهما استحقا إثماً. وقوله. . . **﴿ذلك أدنى﴾**: إشارة إلى المذكور من الحكم من قوله: تحبسونهما من بعد الصلاة، إلى قوله: إنّا إذاً لمن الظالمين. وقوله. . . **﴿واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**: ذُيّلَ هذا الحكم الجليل بموعظة جميع الأمة، وتحريض على التقوى والطاعة لله فهما أمر ونهى، وتحذير من مخالفة ذلك؛ لأنّ في اتباع أمر الله هُدى وفي الإعراض فسقاً، والله لا يهدي القوم الفاسقين. . .

﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنّك أنت علام الغيوب﴾: مقارنة هذه الآية بما قبلها واضح، وذلك عندما تم الاستشهاد على وصايا المخلوقين ناسب الانتقال إلى شهادة الرسل على وصايا الخالق سبحانه وتعالى. وإظهار الاسم الجليل (يجمع الله) في موضع الإضمار لتربية المهابة وتشديد التهويل. وتخصيص الرسل بالذكر لإبانة شرفهم وأصالتهم، والإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم بناء على ظهور كونهم أتباعاً لهم، ولإظهار سقوط منزلتهم وعدم لياقتهم بالانتظام في سلك جمع الرسل، كيف لا وهم عليهم السلام يجمعون على وجه الإجلال، وأولئك يُسحبون على وجوههم بالأغلال. فيقول ماذا أُجبتم: الرسل بشر من البشر لهم علم ما حضر وليس لديهم علم ما استتر. . .

قالوا لا علم لنا: هذا هو جواب الرسل، فهم يعلنون أنّ العلم الحق لله وحده، وأنّ ما لهم من علم لا يقاس إلى علم الله فهم بشر محجوبون، وهم بشر فانون، والعلم الحق لله وحده دون سواه. إنّك أنت علام الغيوب: تعليل مقرر لمضمون ما سبق من كون الرسل لا علم لهم.

خلاصة المعنى العام وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ياأيُّها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم﴾: في هذا بيان لما يجب أن يكون عليه المؤمن الحق مع رسوله الذي تكفل له بكل ما فيه صلاحه ونجاحه وفلاحه، فلا ينبغي له أن يسأله الأسئلة التي لا فائدة له فيها، بل ربما تكون له فيها إساءته. وهذا ما حصل فعلاً من بعض الصحابة الذين

سألوا رسول الله ﷺ عن أمور شخصية وتكليفية، وحصل كذلك من المنافقين امتحاناً واختباراً، فنهاهم الله عن هذه الأسئلة وما مَاثَلَهَا خصوصاً في وقت التشريع عندما كان ينزل القرآن. . .

﴿**وإن تسألوا عنها حين ينزّل القرآن تُبد لكم**﴾: تلبية لطلبكم مع أنّها ليست في صالحكم لأنّكم لا تعلمون حقيقة الأشياء على ما هي عليه، والذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن الحق هو تفويض أمره إلى ربه فهو أعلم به في دينه ودنياه، فليترك الأمر إلى مولاه؛ فالله سبحانه وتعالى يبيّن لعباده بنص الخطاب ما لابُدّ لهم منه لصلاح معاشهم ومعادهم، أو بفحوى الخطاب أو الإشارة ما يفتح باب الاجتهاد في كل ما له علاقة بأمور مصالحهم. ويكون الْوَازِعُ للفرد في المسائل الشخصية من نفسه بحسب درجته في العلم والفضيلة، وللمجموع في الأحكام من المعاملات من أنفسهم أيضاً؛ لأنّه يتقرر بتشاوُرِ أولي الأمر منهم، وفي ذلك منتهى السعة واليسر. وإذا كان الأمر كذلك فالواجب أن يترك أمر التشريع إليه تعالى؛ لأنّه أعلم بمصالح العباد من أنفسهم، فلا تسألوا عن أشياء إن أُبديت لكم أحكامها تسؤكم وتحرجكم، ومتى سألتم عنها في عهد التشريع لابدّ أن تُجابوا، ولكن هذا البيان قد يسُدُّ في وجوهكم باب الاجتهاد الذي فوّضه الله إليكم ويقيدكم بقيود أنتم في غنًى عنها. . .

﴿**عفا الله عنها والله غفور حليم**﴾: ورد معنى هذا في أحاديث صحيحة نقلها المفسرون في معنى هذا، منها حديث: «ذروني ما تركتكم فإنّما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبئائهم»، ومنها: «إنّ الله تعالى فرض الفرائض فلا تُضيِّعُوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»، ووجه المنع عن هذه الأسئلة ما حصل من الأمم السابقة ما أشار إليه الحديث السابق، وما في هذه الآية من قوله تعالى: ﴿**قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين**﴾؛ سأل الناقةَ قومُ صالح فعقروها، وسأل الرؤيةَ قوم موسى ـ عليه السلام ـ فصار وبالاً عليهم، وسأل المائدةَ قوم عيسى ـ عليه السلام ـ فكان ما كان من أمرهم، فنهى الله أمة محمد ﷺ عن هذه الأشياء حتى لا يكونوا مثلهم فيحصل لهم ما حصل لأولئك القوم. . .

﴿**ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون**﴾: هذا من جملة ما كفر به مَنْ كفر من الذين افتروا على الله الكذب، وأتوا بأشياء من غير دليل ولا كتاب منير، وهذه أربعة نعوت لأربعة أنواع من محرمات الأنعام التي حرمتها الجاهليةُ على أنفسها دون وعي أو تفكير. النوع الأول: البحيرة، وهي الناقة تلد خمسة أو عشرة على خلاف بينهم يشقون أذنها علامة على تحريم الانتفاع بها. النوع الثاني: السائبة، وهي الناقة أو الشاة تلد عشر إناث ليس بينهن ذكر تُسيَّبُ بنذرها للآلهة والطواغيت. النوع الثالث: الوصيلة، وهي الشاة التي تصل أنثى بأنثى في النتاج حتى تصل سبعة أبطن؛ فإن كان السابع أنثى استحيُوها، وإن كان ذكر وأنثى في بطن واحد استحبوها. النوع الرابع: الحامي، وهى فحل التلقيح إذا أتم تلقيح عشرة أبطن قالوا حمى ظهره، وتركوه لا يحملون عليه شيئاً وتركوه للطواغيت وسموه الحامي. . .

﴿**وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون**﴾: هكذا يتمسكون بما وجدوا عليه آباءهم دون علم بصحة أو بطلان، ودون دليل بحجة وبرهان، وهذا ما ورَّط الجاهلية في الضلال والكفران.

التوجيه الثاني: ﴿**ياأيُّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾: في هذا التوجيه يأمر الله المؤمنين بصيغة الإغراء بأن يهتموا بإصلاح أنفسهم بالعلم الصحيح والعمل الصالح الذي يُعَدُّ رشداً وهدًى، وبيّن لهم أنّهم إذا أصلحوا أنفسهم وقاموا بما أوجب الله عليهم من علم وتعليم وعمل وإرشاد فلا يضرهم من ضل عن طريق الخير والسداد. وهنا روايات وأقوال كثيرة ذكرها المفسرون في موضوع هذه الآية نكتفي بخلاصتها؛ وهي أنّ المؤمن لا يكون مهتدياً بمجرد إصلاحه لنفسه إذا لم يهتم بإصلاح غيره، غير أنّ من علم أو ظن ظناً قوياً أنّه يناله أذى يسقط عنه الفرض، ويكون الأمر والنهي حينئذ فضيلة لا فريضة.

وهذا إذا رجّح أنّ المنكر يزول بإنكاره، فإذا رجّح أنّه يؤذي ولا يترتب على نصحه فائدة، فحينئذ يكره له أو يحرم عليه إذ كان من الإلقاء باليد إلى التهلكة،

وهذا يبيّنه حديث: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع بقلبه وذلك أضعف الإيمان»، فإنّ معنى الاستطاعة التمكن من التغيير دون ضر يلحقه أو يلحق عموم الناس بإثارة الفتنة والشغب، والهرج والمرج وفتح باب النهب والسلب. فالآية تفيد الإعراض عن ذلك إذا تحقق عدم الجدْوى بعد الشروع فيه، ويلحق بذلك إذا ظهرت المكابرة وعدم الانتصاح، وكذلك إذا خيف حصول الضر للداعي. . .

﴿إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾: في هذا عُذر للمهتدي، وإنذار للضال الذي لا يهتدي.

التوجيه الثالث: ﴿ياأيُّها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم﴾: فيه بيان حكم الوصية، والوصية لها باب واسع في كتب الفقه بَيَّنَ الفقهاءُ فيه جميع ما يتعلق بالوصية. بيّن هنا في الآيات الثلاث أنّ على من يحسّ بدنوِّ أجله، ويريد الوصية على أي وجه من وجوهها، عليه أن يُشهد شاهدين عادلين من المسلمين إن كان في الحضر. فأمّا إذا كان مسافراً ولم يجد من يُشهده من المسلمين، فيجوز أن يكون الشاهدان من غير المسلمين. . . **﴿أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت﴾**: وفي هذه الحالة الأخيرة إن ارتاب المسلمون في صدق ما يبلغه الشاهدان أو في أمانتهما في أداء ما استُحْفِظَا عليه من المال، فإنهم يوقفونهما بعد أداء الصلاة ليحلفا بالله أنّهما لا يتوخيان بالحلف مصلحة لهما، ولا لأحد آخر ولو كان ذا قربى، ولا يكتمان الشهادة التي فرضها الله، وإلاّ كانا من الآثمين. . .

﴿تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنّا إذاً لمن الآثمين﴾: وبذلك تُنفذ شهادتهما، فإذا ظهر بعد ذلك أنّهما ارتكبا إثم الشهادة الكاذبة، أو اليمين الكاذبة، أو الخيانة للأمانة، قام الاثنان الأوليان من الذي وقع عليه هذا الإثم ـ أولى اثنين بتركة الميت، أو أقربهما إليه ـ بالحلف، أن شهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأوّلين، وأنّهما لم يعتديا بتقريرهما هذه الحقيقة لا على الشاهدين، ولا على أحد غيرهما وإلاّ كانا من الظالمين. . . **﴿فإن عثر على أنّهما استحقا إثماً فآخران يقومان مقامهما من الذين استُحِقّ عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما**

وما اعتدينا إنَّا إذاً لمن الظالمين﴾: وبذلك تبطل شهادة الأوّلين وتُنَفَّذُ الشهادة الثانية. والحكمة في ذلك: إنّ هذه الإجراءات أضمن في أداء الشهادة بالحق، أو الخوف من رد أيمان الشاهدين الأولين مما يحملهما على تحري الحق... **﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾**!. وينتهي إلى دعوة الجميع إلى تقوى الله ومراقبته وخشيته، والطاعة لأوامره؛ لأنّ الله لا يهدي من يفسقون عن طريقه، ويخرجون على أوامره لا إلى خير ولا إلى هدى... **﴿واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**.

التوجيه الرابع: **﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أُجبتم قالوا لا علم لنا إنّك أنت علام الغيوب﴾**: في هذا التوجيه تذكير عام في ختام ما تقدم من جميع الأحكام من واجبات وحلال وحرام، بيوم يجمع الله فيه الرسل جميعاً من آدم إلى محمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، فيسألهم: ماذا تعلمون عن أُمَمِكُم من قبول دعوتكم أو رفضها؟. فيجيبون لا علم لنا ما كان من أمرهم بعد موت الرسل من دوام على إقامة شرائعهم، أو التفريط فيها وتبديلها. والغرض من هذا تبكيت الكافرين من يهود ونصارى ومشركين ومنافقين على رفضهم دعوة هذا الرسول الصادق الأمين: «فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصّنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين». فاليوم تجمع الحصيلة، ويضم الشتات، ويُقَدِّمُ الرسل كلهم حسابَ الرسالات، وتعلن النتائج على رءوس الأشهاد؛ والرسل بشر من البشر، لهم علم ما حضر، وليس لديهم علم ما استتر، لقد دعوا قومهم إلى الهدى ثم ذهبوا عنهم، وظلت رسالة كل منهم تعمل بعده، ويستجيب لها آخرون وآخرون؛ ويرتد عنها بعض من آمنوا بها سراً أو علانية؛ فما يدريهم هم ماذا أجيبوا وعلم ذلك عند علاّم الغيوب.

إنّه الاستجواب في يوم الحشر العظيم على مشهد من الناس أجمعين، الاستجواب الذي يراد به المواجهة، مواجهة البشرية برسلها، ومواجهة المكذبين من هذه البشرية ـ خاصة ـ برسلهم الذين كانوا يكذبونهم، ليعلن في موقف الإعلان أنّ هؤلاء الرسل إنّما جاءوهم من عند الله بدين الله. وهاهم أولاء مسؤولون بين يديه عن رسالاتهم وعن أقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون، أما الرسل فهم يعلنون أنّ العلم الحق لله وحده، وأنّ ما لهم من علم لا يقاس إلى علم الله، قالوا: لا علم لنا إنّك أنت علام الغيوب.

3 ـ تَتِمّة توجيه الكلام إلى عيسى عليه السلام

النص

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ
تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ
كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ
وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ
بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (112)
* وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي
قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (113) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا
مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (114)
قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ
أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (115)
قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ

تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿116﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿117﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿118﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿119﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿120﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿121﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿122﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك**﴾: اذكر من الذُّكر ـ بضم الدال ـ وهو استحضار الأمر في الذهن، والمقصود منه الامتنان. والنعمة تستعمل مصدراً، واسماً لما حصل بالمصدر، والمفرد المضاف يفيد التعدد. والتأييد والتقوية شيئاً فشيئاً، وروح القدس ملك الوحي الذي يؤيّدُ الله به الرسل، وهو جبريل عليه السلام... ﴿**تكلم الناس في المهد وكهلاً**﴾: تكليم عيسى في المهد عندما أشارت إليه أمه عندما أتت به قومها تحمله بعد ولادته مباشرة: «فأتت به قومها تحمله... إلى أن قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبياً»؟!.

قال: «إنّي عبد الله أتاني الكتاب...» الخ الآية. والمهد قماط الصبي، والصبي المولود حديثاً. والكهل من وخطه الشيب وتجاوز سن الشباب ولم يبلغ سن الشيخوخة... ﴿**وإذ علمتك**﴾: علمه العلم تعليماً، وأعلمه إياه فتعلّمه، وعلم الشيء إدراكه على ما هو عليه. والكتاب يكون مصدراً، ويكون اسماً لما يكتب فيه، وهي الصحيفة. والحكمة ـ بالكسر ـ العدل، والعلم، والنبوءة. وأحكم الشيء أثبته عنده وأثقنه، والمراد بالحكمة هنا العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع بما فيه من الإقناع والعبرة والبصيرة وفقه الأحكام. والتوراة الكتاب المنزل على موسى، والإنجيل الكتاب المنزل على عيسى عليهما السلام...

﴿**وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طائراً بإذني**﴾: الخلق هنا التقدير، وهو جعل الشيء بمقدار معيّن. الطين التراب المخلوط بالماء. والهيأة حال الشيء وكيفيته. والطير كل حيوان يطير من كبير أو صغير، والطائر مفرد الطيور. والنفخ إخراج الريح من الفم... ﴿**وتُبرئ الأكمه والأبرص**﴾: أبرأ الطبيب المريض شفاه، وإبراء الأكمه إزالة عماه، والأكمه من ولد أعمى، والكمه الطمس والظلام واغبرار الجوّ. والأبرص من به داء البرص، والبرص مرض يُحدِثُ في الجسم كله أو بعضه قشر أبيض، ويسبب للمريض حكّاً مؤلما... ﴿**وإذ تخرج الموتى**﴾: إخراج الموتى احياؤهم وإخراجهم من قبورهم...

﴿**بإذني**﴾: الإذن يطلق على الإعلام بإجازة الشيء والرخصة فيه، وعلى الأمر به، ويطلق على المشيئة والتيسير...

﴿**وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات**﴾: الكف المنع والدفع، وأصله منع المخوف بالكف، ثم أطلق على كل دفع ومنع، وهو المقصود هنا. والبينات المعجزات الواضحة مما ذكر ومما لم يذكر، كالإخبار بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، ونحو ذلك... ﴿**فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلاّ سحر مبين**﴾: السحر: التمويه والتخييل بحيث يظهر الشيء على غير حقيقته لخفاء سببه ودقة صنعه، ويطلق في اللغة على كل ما هو دقيق وغريب وعجيب. والمبين الواضح الذي لا يحتاج إلى بيان... ﴿**وإذ أوحيت إلى الحواريين**﴾: الوحي الإشارة السريعة الخفية، والإعلام بالشيء بسرعة وخفاء، والمراد بالوحي إلى الحواريين استجابتهم لدعوة عيسى بسرعة عند سماعها، والحواريون: جمع حواريّ وهو من خلص وأخلص سراً وجهراً في المودّة، وأصله في اللغة الأبيض النقي اللون. والمراد بهم هنا صفوة الأصحاب الذين استجابوا لعيسى عليه السلام...

﴿**إذ قال الحواريّون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك أن ينزل علينا مائدة من السماء**﴾: معنى هل يستطيع ربك هنا: هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سألته أنت لنا. ومعنى المائدة هنا: الطعام الدائم الذي يعيش به الإنسان... ﴿**قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين**﴾: الغرض من طلب المائدة الأكل منها، واطمئنان القلب، والعلم بصدق الطلب، والشهادة عليها بالمعاينة والقرب... ﴿**اللهمّ**﴾: دعاء بمعنى ياالله، حذفت ياء النداء وعوض عنها الميم المشددة في آخره... ﴿**ربنا**﴾: منادى للدعاء حذفت منه ياء النداء تخفيفاً... ﴿**أنزل علينا مائدة من السماء**﴾: أعطنا طعاماً بدون تَعَبٍ وأخْذٍ في الأسباب... ﴿**تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا**﴾: تكون المائدة عادة مستمرة لأول وآخر من يتبع دين عيسى... ﴿**وآية منك**﴾: علامة منك على صحة نبوتي ودعوتي... ﴿**آأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله**﴾: كلمة دون: اسم للمكان المجاوز، والمراد به هنا المغايرة، فتكون بمعنى سوى...

﴿قال سبحانك﴾: كلمة سبحان أصلها مصدر ثم استعملت علماً على التسبيح، واستعملت مضافة باطراد، والتسبيح تنزيه الله تعالى عمّا لا يليق به، وأصل المادة من السبح أو السباحة، وهي الذهاب السريع البعيد في البحر أو البر... **﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾**: النفس تطلق على ذات الشيء، ونفسُ الإنسانِ مجموع الجسم والروح، وما في نفس الإنسان هو الاعتقاد والعلم... **﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾**: رضى الله مستعمل في إكرامه وإحسانه مثل محبته في قوله: يحبهم. ورضى الخلق عن الله: محبته وحصول ما أملوه منه بحيث لا يبقى في نفوسهم متطلّع... **﴿ذلك الفوز العظيم﴾**: الفوز: الظفر بالمطلوب مع النجاة من ضده، أو مما يحول دونه، ومعناه هنا: الظفر بالمطلوب وحده، ومعناه المقصود يظهر من الحرف، فإن كان للإيجاب يقال فاز بكذا، وإن كان للسلب يعدى بمن، يقال فاز من الهلاك.

مبحث الإعراب

﴿إذ﴾ ظرف متعلق بمحذوف مقدر، والتقدير: اذكر إذ. **﴿قال الله﴾** فعل وفاعل. **﴿يا عيسى﴾** منادى. **﴿ابن مريم﴾** ابن نعت لعيسى منصوب بالفتحة لإضافته إلى مريم. **﴿اذكر﴾** فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب (أنت) يعود على عيسى. **﴿نعمتي﴾** مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها المناسبة، وياء المتكلم في محل جر مضافة إلى النعمة، وجملة اذكر نعمتي في محل نصب مقول القول. **﴿عليك﴾** متعلق بنعمتي. **﴿وعلى والدتك﴾** معطوف على قوله: عليك، والضمير في والدتك مضاف إليه. **﴿إذ﴾** متعلق باذكر. **﴿أيّدتك﴾** فعل وفاعل ومفعول، وهو في محل جر مضاف إلى الظرف. **﴿بروح﴾** متعلق بأيّدتك. **﴿القدس﴾** مضاف إلى روح. **﴿تكلم﴾** فعل مضارع، والفاعل ضمير المخاطب. **﴿الناس﴾** مفعول به. **﴿في المهد﴾** متعلق بتكلم، والجملة في محل نصب حال من الضمير المنصوب في أيّدتك. **﴿وكهلاً﴾** معطوف على الحال قبله منصوب بالفتحة. **﴿وإذ علمتك﴾** معطوف على قوله: إذ أيّدتك، وهو مثله في الإعراب. **﴿الكتاب﴾** مفعول ثان لعلمتك. **﴿والحكمة والتوراة والإنجيل﴾** معطوفات على الكتاب.

﴿وإذ﴾ معطوف على إذ الأولى. **﴿تخلق﴾** فعل مضارع، والفاعل ضمير

المخاطب. ﴿**من الطين**﴾ متعلق بتخلق، وجملة تخلق في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**كهيئة**﴾ كاف التشبيه يُجر الاسمُ بعده بدون متعلق. ﴿**الطير**﴾ مضاف إلى هيئة. ﴿**بإذني**﴾ هذا وما بعده متعلق بمحذوف مناسب للمقام. ﴿**فتنفخ فيها**﴾ مرتب على قوله: وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير. ﴿**فتكون**﴾ مرتب على تنفخ. ﴿**طائراً**﴾ خبر تكون. ﴿**بإذني**﴾: الجار والمجرور متعلق بالمعنى المأخوذ من الطائر. أي: بطير بإذني. ﴿**وتبرئ**﴾ معطوف على تخلق. ﴿**الأكمه**﴾ مفعول به. ﴿**والأبرص**﴾ معطوف عليه. ﴿**وإذ تخرج**﴾ معطوف على قوله: إذ تخلق. ﴿**الموتى**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها التعذر. ﴿**وإذ كففت**﴾ معطوف على قوله: إذ أيّدتك. ﴿**بني**﴾ مفعول به منصوب بالياء. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بني مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**عنك**﴾ متعلق بكففت. ﴿**إذ**﴾ ظرف متعلق به أيضا. ﴿**جئتهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل جر مضاف إلى الظرف. ﴿**بالبينات**﴾ متعلق بجئتهم. ﴿**فقال الذين**﴾ فعل وفاعل مرتب على ما قبله. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**منهم**﴾ بيانية. ﴿**إنْ**﴾ حرف نفي. ﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء لا عمل لها هنا. ﴿**سحر**﴾ بدل من الخبر المقدر. ﴿**مبين**﴾ نعت لسحر. ﴿**وإذ أوحيت**﴾ معطوف على قوله إذ قال الله ياعيسى، وجملة أوحيت في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**إلى الحواريين**﴾ متعلق بأوحيت. ﴿**أنْ**﴾ حرف تفسير. ﴿**آمنوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**بي**﴾ متعلق بآمنوا. ﴿**وبرسولي**﴾ معطوف على بي، وضمير المتكلم في رسولي مضاف إليه، وجملة آمنوا مُفسّرة لا محل لها من الإعراب.

﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل، وهي جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿**آمنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**واشهد**﴾ فاعله ضمير المخاطب (أنت) يعود على الله تعالى. ﴿**بأنّنا مسلمون**﴾ جملة من أنّ واسمها وخبرها مؤولة بمصدر مجرور بالباء متعلق باشهد، أي: اشهد بثبوت إسلامنا. ﴿**إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم**﴾ مثل قوله: إذ قال الله ياعيسى ابن مريم في الإعراب. ﴿**هل**﴾ حرف استفهام. ﴿**يستطيع**﴾ فعل مضارع. ﴿**ربّك**﴾ فاعل يستطيع، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أنْ ينزل**﴾ منصوب بأنْ، والفاعل ضمير يعود على ربك. ﴿**علينا**﴾ متعلق بينزّل. ﴿**مائدةً**﴾ مفعول به. ﴿**من السماء**﴾ متعلق بينزل، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بفي مقدّر، والتقدير: هل

يُطيعك ربك في تنزيل مائدة علينا من السماء؟. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على عيسى. ﴿**اتقوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**الله**﴾ مفعول به، وجملة اتقوا الله في محل نصب مقول القول. ﴿**إنْ كنتم مؤمنين**﴾ جملة من كان واسمها وخبرها شرطية، وجوابها محذوف يدل عليه قوله: اتقوا الله.

﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**نريد**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلمين (نحن). ﴿**أنْ نأكل**﴾ فعل مضارع منصوب بأن، والفاعل نحن. ﴿**منها**﴾ متعلق بنأكل، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول نريد، والتقدير: نريد الأكل منها. ﴿**وتطمئن**﴾ معطوف على نأكل. ﴿**قلوبنا**﴾ فاعل تطمئن، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ونعلم**﴾ معطوف كذلك. ﴿**أنْ**﴾ مخففة من الثقلية، واسمها ضمير الشأن، أي: أنّه. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**صدقتنا**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وجملة قد صدقتنا في محل رفع خبر أنّ، وأنّ واسمها وخبرها سدّت مسد مفعولي نعلم. ﴿**ونكون**﴾ معطوف على نأكل، واسم نكون نحن. ﴿**عليها**﴾ متعلق بالشاهدين بعدها. ﴿**من الشاهدين**﴾ متعلق بمحذوف خبر نكون، وجملة نريد أن نأكل منها.. في محل نصب مقول القول. ﴿**قال عيسى**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ابنُ**﴾ مرفوع بالضمة نعت لعيسى. ﴿**مريم**﴾ مضاف إلى ابن مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث. ﴿**اللهم**﴾ منادى حذفت منه ياء النداء وعُوّض عنها الميم المشدّدة.

﴿**ربنا**﴾ منادى حذفت منه ياء النداء، وهو منصوب بالفتحة للإضافة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أنزل**﴾ فعل دعاء، والفاعل (أنت) يعود على اللهمّ. ﴿**علينا**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**مائدة**﴾ مفعول به. ﴿**من السماء**﴾ متعلق بمحذوف نعت لمائدة، وجملة اللهم ربنا أنزل في محل نصب مقول القول. ﴿**تكون**﴾ فعل مضارع ناقص، واسم تكون ضمير يعود على المائدة. ﴿**لنا**﴾ متعلق بمحذوف حال من خبر تكون. ﴿**عيداً**﴾ خبر تكون. ﴿**لأولنا**﴾ بدل من لنا. ﴿**وآخرنا**﴾ معطوف على أولنا. ﴿**وآيةً**﴾ معطوف على عيداً. ﴿**منك**﴾ متعلق بمحذوف نعت لآية، وجملة تكون... في محل نصب نعت لمائدة. ﴿**وارزقنا**﴾ معطوف على أنزل. ﴿**وأنت خير الرازقين**﴾ جملة من مبتدإ وخبر معطوفة على ما سبق تذييلاً وتقريراً له. ﴿**قال الله**﴾ فعل وفاعل.

﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**مُنزلُها**﴾ خبرها، والضمير فيه مفعول باسم الفاعل.

﴿**عليكم**﴾ متعلق بمنزلُها، وجملة إنّي منزلها في محل نصب مقول القول. ﴿**فمن**﴾ الفاء للتفريع، مَنْ اسم شرط جازم. ﴿**يكفر**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون. ﴿**بعدُ**﴾ ظرف مبنيّ على الضم في محل نصب. ﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل يكفر. ﴿**فإنّي**﴾ الفاء رابط للجواب، إنّي إنّ واسمها. ﴿**أعذبه**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلم يعود على الله، والضمير فيه مفعول به. ﴿**عذاباً**﴾ اسم مصدر وهو مفعول مطلق، وجملة أعذبه في محل رفع خبر إنّ. ﴿**لا أعذبه**﴾ فعل مضارع منفيّ بلا، والضمير فيه مفعول مطلق يعود على العذاب السابق. ﴿**أحداً**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**من العالمين**﴾ متعلق بمحذوف نعت لأحد، وجملة لا أعذبه نعت لعذاب. ﴿**وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم**﴾ تقدم إعراب مثله فيما سبق.

﴿**أأنت**﴾ الهمزة للاستفهام، أنت في محل رفع مبتدأ. ﴿**قلت**﴾ فعل وفاعل في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**للناس**﴾ متعلق بقلت. ﴿**اتخذوني**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول أول. ﴿**وأمي**﴾ معطوف على ياء المتكلم منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها حركة المناسبة. ﴿**إلهين**﴾ المفعول الثاني منصوب بالياء لأنه مثنى. ﴿**من دون الله**﴾ متعلق باتخذوني، وجملة أأنت قلت للناس في محل نصب مقول القول لقال الله، وجملة اتخذوني في محل نصب مقول القول لقلت. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على عيسى.

﴿**سبحانك**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**يكون**﴾ فعل مضارع تام بمعنى يحصل. ﴿**لي**﴾ متعلق بيكون، والمصدر المؤول من ﴿**أن أقول**﴾ فاعل يكون. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول أقول. ﴿**ليس**﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على ما. ﴿**لي**﴾ للبيان. ﴿**بحق**﴾ خبر ليس جُرَّ بحرف الجر الزائد، ومحله النصب، وجملة سبحانك ما يكون لي في محل نصب مقول القول. ﴿**إن كنتُ**﴾ فعل الشرط. ﴿**قلتُه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل نصب خبر كان. ﴿**فقد علمتَه**﴾ جملة جواب الشرط، وجملة إن كنت قلته.. تقريرية. ﴿**تعلم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المخاطب (أنت) يعود على الله. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به.

﴿**في نفسي**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**ولا أعلم ما في نفسك**﴾ معطوف على تعلم ما في نفسي، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**إنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أنت**﴾ ضمير فصل. ﴿**علاّمُ**﴾ خبر إنّ. ﴿**الغيوب**﴾ مضاف إلى علام، والجملتان تعليل لما سبق من قول عيسى.

﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**قلت**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لهم**﴾ متعلق بقلت. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء لا عمل لها. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب بدل من مفعول قلت المقدر. ﴿**أمرتني**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بأمرتني. ﴿**أنْ اعبدوا**﴾ أنْ تفسيرية. واعبدوا مفسِّر. ﴿**الله**﴾ مفعول به. ﴿**ربي**﴾ نعت لله. ﴿**وربّكم**﴾ معطوف عليه. ﴿**وكنتُ عليهم شهيداً**﴾ جملة من كان واسمها وخبرها. ﴿**ما**﴾ ظرفية مصدرية. ﴿**دمت**﴾ فعل وفاعل. ﴿**فيهم**﴾ متعلق به. ﴿**فلما**﴾ ظرفية تفصيلية متضمنة معنى الشرط. ﴿**توفيتني**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل جر مضافة إلى لما. ﴿**كنت**﴾ كان واسمها. ﴿**أنت**﴾ ضمير فصل. ﴿**الرقيب**﴾ خبر كان. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بالخبر. ﴿**وأنت على كل شيء شهيد**﴾ جملة من المبتدإ والخبر تذييلية مقررة لما قبلها. ﴿**إنْ تعذبهم**﴾ جملة شرطية. ﴿**فإنّهم عبادك**﴾ جملة جوابية. ﴿**وإنْ تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم**﴾ كذلك.

﴿**قال الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يَوْمَ**﴾ مبنيّ على الفتح في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**ينفع**﴾ فعل مضارع. ﴿**الصادقين**﴾ مفعول به. ﴿**صدقهم**﴾ فاعل ينفع، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة ينفع في محل جر مضافة إلى يوم. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**جناتٌ**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**تجري**﴾ فعل مضارع. ﴿**من تحتها**﴾ متعلق بتجري. ﴿**الأنهار**﴾ فاعل تجري، وجملة تجري في محل رفع نعت لجنات. ﴿**خالدين**﴾ منصوب بالياء حال من الضمير المجرور في لهم. ﴿**فيها أبداً**﴾ متعلقان بخالدين. ﴿**رضي الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عنهم**﴾ متعلق برضي. ﴿**ورضوا عنه**﴾ معطوف على رضي، والجملة حال كذلك. ﴿**ذلك**﴾ مبتدأ. ﴿**الفوز**﴾ خبره. ﴿**العظيم**﴾ نعت له، والجملة تذييلية.

﴿**لله**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**ملك**﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمّة. ﴿**السماوات**﴾ مضاف إلى ملك. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**وما**﴾

معطوف كذلك. ﴿فيهن﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿وهو﴾ مبتدأ. ﴿على كل﴾ متعلق بقدير. ﴿شيء﴾ مضاف إلى كُلّ. ﴿قدير﴾ خبر المبتدإ.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً﴾: ربْطُ هذا الكلام بما قبله كماأرى: إنّ هذا الكلام موجه للرسول محمد ﷺ بأن يذكر للناس ما أنعم الله به على عيسى ـ عليه السلام ـ من المعجزات وعلى أمّه. وأن يبيّن لليهود والنصارى الذين لم يعرفوا حقيقة عيسى ولا حقيقة أمِّه، وأن يتبعوا الحق الذي جاء به محمد ﷺ من ربه دون زيغ أو تضليل. والمعنى: اذكر يا محمد للناس بما أوحى الله إليك من هذا الكتاب حين قال الله لعيسى: ياعيسى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك. .الخ، والأمر في قوله: اذكر للامتنان؛ إذ ليس عيسى بغافل عن نعم الله عليه وعلى والدته، ومن لازمه خزي اليهود الذين زعموا أنّه ساحر مفسد؛ إذ ليس السحر والفساد بنعمة يَعُدُّها الله على عبده.

ووَجْهُ ذكر والدته هنا الزيادة من تبكيت اليهود وكمدهم، لأنّهم تنقصّوها بأقذع مما تنقّصوه. والتأييد بِمَلَكِ الوحي (جبريل) وتكليم عيسى الناس في المهد إرهاصاً لنبوءته وإعلاماً بصدقه فيما يقول عن أمه. وتكليم عيسى الناس كهلاً ليستجيبوا إلى دعوته وأنّه رسول الله إليهم، كما هو مبيّنٌ في غير هذا الموضع. وفي ذلك نعمة عليه وعلى والدته؛ إذ ثبتت براءتها بما اتهمت به. وهذه النعمة لها جوانب وأغراض تتعلق بدعوة عيسى: منها تعليمه الكتاب، وأجمله بحيث يشمل كل كتاب وحي وهدى جاء من الله كتابة وقراءة، ومنها الحكمة أجملها كذلك؛ لتشمل كل معرفة يستفيد منها وتفيد، وهي العلم النافع الواضح، والعمل المقبول الصالح. ومن جملة هذا ما جاء به من التوراة والإنجيل، ومنها المعجزات التي ظهرت على يديه تصديقاً وتأكيداً بإظهار الحياة في الجماد!.

﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طائراً بإذني﴾. وإبراء الأعمى الذي لا يمكن للطب البشري أن يزيل عنه هذا العمى، وإبراء الأبرص الذي أعيا الأطباء، وإحياء الموتى الذي لا يخطر على بال الأحياء، وأكبر

من هذه كلها وأعظم، وهي نعمة العصمة من الإهانة، فقد كفّ الله عنه بني إسرائيل سنين؛ وهو يدعو إلى الدين بينهم مع حقدهم وقلة أنصاره.. فصرفهم الله عن ضره حتى أدّى الرسالة، ثم لما استفاقوا وأجمعوا أمرهم على قتله عصمه الله منهم؛ رفعه الله إليه وكرّمه فلم يظفروا به، وماتت نفوسهم بغيظها.

وقد دلّ على جميع هذه المدة الظرف في قوله: إذ جئتهم بالبينات، فإن تلك المدّة كلها مدّة ظهور معجزاته بينهم من عهد الصبا إلى عهد الشباب والرجولة والكهولة على السواء، ومع كل هذا الزمن الطويل لم يستجيبوا ولم يخضعوا، بل أعلنوا التكذيب والتشويه بهذا القول الغريب... **﴿فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلاّ سحر مبين﴾**!. وغرض اليهود من قولهم: **﴿سحر مبين﴾** قَتْلُ عيسى؛ لأن حكم الساحر في شريعة موسى القتل، لأنّ السحر باطل وعمل من أعمال عبدة الأوثان، واليهود من عادتهم دائماً أنّهم مع الحكم الذي يكون في صالحهم. والإشارة بهذا إلى ما شاهدوه من البينات...

﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أنْ آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأنّنا مسلمون﴾: هذه الآية معطوفة على قوله: إذ قال الله ياعيسى ابن مريم، والمعنى: واذكر يامحمد للناس وقت أوحيت إلى الحواريين في الإنجيل الذي جاء به عيسى يأمرهم فيه بالإيمان بالله والإيمان برسوله عيسى ـ عليه السلام ـ وهو معنى أن آمنوا بي وبرسولي، وهو تفسير للإيحاء. وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للتنبيه على كيفية الإيمان به، كأنّه قيل: آمنوا بوحدانيتي في الألوهية والربوبية، وبرسالة رسولي ولا تزيلوه عن حيّزه حطّاً ـ كما فعلت اليهود ـ ولا رفْعاً كما فعلت النصارى ـ. وقوله تعالى: **﴿قالوا﴾** استئناف مبني على سؤال نشأ من سَوْق الكلام، كأنّه قيل: فماذا قالوا حين أوحى إليهم ذلك؟ فقيل: قالوا: آمنا بما ذكر من وحدانيته تعالى ورسالة رسوله كما يؤذن به قولهم: واشهد بأنّنا مسلمون...

﴿إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أنْ ينزّل علينا مائدة من السماء﴾: هذا كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جرى بين عيسى وبين قومه، منقطع عما قبله كما ينبئ عنه الإظهار في موقع الإضمار. وإذ منصوب بمضمر خوطب به النبيء ﷺ بطريق تلوين الخطاب والالتفات، كأنّه قيل للنبيء ﷺ عقيب حكاية ما صدر عن الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله الفائضة على

عيسى: اذكر للناس وقت قولهم..الخ... هل يستطيع ربك أنْ ينزّل علينا مائدة من السماء: هذا هو نص السؤال الذي سأله الحواريون...

﴿قال اتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين﴾: هذا رد عيسى على سؤالهم... **﴿قالوا نريد أنْ نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أنْ قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين﴾**: هذا توضيح من الحواريين للغرض من السؤال... **﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾**: لما رأى عيسى ـ عليه السلام ـ أنّ لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، وأنهم لا يقلعون عنه أزمع على استدعائها واستنزالها، وأراد أنْ يلزمهم الحجة بكمالها... **﴿قال الله إنّي منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾**: هذا الجواب الحاسم القاطع لكل سؤال يأتي من كل ضعيف خانع قانع، ومن هنا وبهذا حسم الأمر وسد باب السؤال في الإسلام، حتى لا يطمع فيه طامع: **﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبد لكم تسؤكم، واعلموا أنّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن...﴾**.

﴿وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾: هذا معطوف على قوله: إذ قال الحواريون منصوب بما نصبه من المضمر المخاطب به النبيء ـ صلى الله عليه سلم ـ أي: اذكر للناس وقت قول الله لعيسى في الآخرة توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم بإقراره ـ عليه السلام ـ على رؤوس الأشهاد بالمعبودية وأمره لهم بعبادة الله عز وجل. وعبر بالماضي للدلالة على التحقق والوقوع... **﴿قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾**: استئناف مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام، كأنه قيل: فماذا يقول عيسى حينئذ؟ فقيل يقول: كذا وكذا. وإيثار صيغة الماضي معلوم بما مر قريباً.. **﴿إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه﴾**: استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عن عيسى ـ عليه السلام ـ بالطريق البرهاني؛ فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعاً، فحيث انتفى علمه به انتفى صدوره عنه حتماً ضرورة؛ لأن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم... **﴿تعلم ما في نفسي﴾**: استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله، كأنّه قيل: لأنك تعلم ما أخفيه في نفسي فكيف بما أعلنه؟!.. **﴿ولا أعلم ما في**

نفسك﴾: هذا بيان للواقع وإظهار لقصوره، أي: ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك. وقوله: في نفسك للمشاكلة... **﴿إنّك أنت علام الغيوب﴾**: تعليل لمضمون الجملتين منطوقاً ومفهوماً...

﴿ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به﴾: استئناف مسوق لبيان ما صدر عنه قد أدرج فيه عدم صدور القول المذكور عنه على أبلغ وجه وآكده، حيث حكم بانتفاء صدور جميع الأقوال المغايرة للمأمور به، فدخل فيه انتفاء صدور القول المذكور دخولاً أوّلياً أي: ما أمرتهم إلاّ بما أمرتني به. وإنّما قيل: ما قلت لهم نزولاً على قضية حسن الأدب، ومراعاة لما ورد في الاستفهام. وقوله تعالى: **﴿أن اعبدوا الله ربّي وربّكم﴾** تفسير للمأمور به... **﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾**: هذا تبرؤ من عيسى ـ عليه السلام ـ ممن خالفوا أمره. وقوله: وأنت على كل شيءٍ شهيد تذييل مقرر لقوله: وكنت عليهم شهيد...الخ...

﴿إن تعذبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم﴾: هنا ينتهي الكلام إلى التفويض المطلق والتسليم؛ إن تعذبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم. والمراد من قوله: إن تعذبهم فإنّهم عبادك وقد خالفوا أمرك فهم مستحقون للتعذيب بكفرهم، وإن تغفر لهم فهم عبادك الذين أطاعوك واتبعوا ما جاءهم من ربهم فتابوا وأنابوا، لأنّك عزيز لا يمنعك مانع من تعذيب الكافرين، حكيم فيما شرعت من الأحكام وِفْقَ العدل والنظام... **﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾**: إنّه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين وادّعاء المدّعين وباطل المبطلين في أعظم القضايا كافة. إنّها كلمة الله ربّ العالمين في ختام الاستجواب على مشهد من العالمين، وهي الكلمة الأخيرة في المشهد، وهي الكلمة الحاسمة في القضية. ولقد شهدنا المشهد وسمعنا الكلمة، شهدناه لأن عرضه التصوير الفني القرآني لم تدعه وعْداً يُوعد، ولم تدعه مستقبلاً يُنتظر، ولم تدعه كلماتٍ وألفاظاً، إنّما حرّكت به أعماق المشاعر وجسمته واقع اللحظة، تسمعه الآذان وتراه العيون، على أنّه بالقياس إلينا ـ نحن البشر المحجوبين ـ مستقبلاً ننتظره يوم الدين، فهو بالقياس إلى علم الله المطلق واقع حاضر، فالزمن وحجابه إنّما هما من تصوراتنا نحن البشر!.

وقوله. . . ﴿**لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم**﴾: استئناف مسوق لبيان النفع المذكور، كأنّه قيل: ما لهم من النفع؟ فقيل: لهم نعيم دائم وثواب خالد. ﴿**رضي الله عنهم**﴾: نعيم آخر لا يُقَدَّرُ قدره!. ﴿**ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم**﴾: لما أنّ عظم شأن الفوز تابع لعظم شأن المطلوب الذي تعلق به الفوز، وقد عرفت أن لا مطلب وراء ذلك أصلاً. واسم الإشارة يشير إلى تعظيم المشار إليه، وهو الجنات والرضوان. . . ﴿**لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير**﴾: تذييل مؤذن بانتهاء الكلام؛ لأنّ هذه الجملة جمعت عبودية كل الموجودات لله تعالى، فناسب ما تقدم من الرد على النصارى، وتضمنت أنّ جميعها في تصرفه تعالى، فناسبت ما تقدم من جزاء الصادقين. وفيها معنى التفويض لله تعالى في كل ما ينزل؛ لأنّه الفعال لما يريد. وهذا الختام يتناسق مع ذلك المشهد الذي ينفرد الله فيه بالعلم، وينفرد فيه بالقدرة، وينيب إليه الرسل ويفوضون إليه الأمر، وهو على كل شيء قدير!. وفي هذا براعة المقطع.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك**﴾: يوجه الله فيه الأمر إلى رسوله محمد ﷺ بأن يذكر للناس ما أمر الله به عيسى بذكر نعمته عليه وعلى والدته مريم. وهذه النعمة شملته من وقت ميلاد المسيح عيسى، عندما جاءت به أمه تحمله بعدما وضعته وعلمت حقيقته، عندما قال لها بعدما قالت «ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً. فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريّاً. قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا، ياأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا، فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا، قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيئا، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيّاً، وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً»، هذه هي خلاصة النعمة التي أنعم الله بها عليه وعلى والدته من أول حياته إلى نهايتها، ثم فصل منها ما يحتاج إلى التفصيل.

من هذه النعم: تعليم الله عيسى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ومنها

إظهار المعجزة على يديه؛ ليقيم الحجّة على دعوته بالدليل **﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طائراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني﴾**، ومنها حمايته من بني إسرائيل حين أرادوا قتله وصلبه فلم يتمكنوا منه **﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات﴾**. هذا هو عيسى، وهذه هي دعوته التي جاء بها من عند الله ودعا الناس إليها، فآمن بها من آمن وكفر بها من كفر، حين قالوا هذا سحر مبين: **﴿فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلاّ سحر مبين﴾**.

التوجيه الثاني: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأنّنا مسلمون﴾: في هذا التوجيه الأمر للرسول محمد ﷺ بأن يذكر للناس من آمن بعيسى بعدما ذكر لهم من كفر به... فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون، ربّنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين»، وسميت دعوة عيسى إلى الحواريين إيحاء؛ لأنّه أمر جاء بطريق الوحي. وأطلق اسم الحواريين في القرآن على من آمن بالمسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ، ولم يبين عددهم، ولا أجناسهم ولا مهنتهم، وإنّما هم كما قالوا آمنا بالله واشهد بأنّنا مسلمون، فهم مؤمنون بالله وبما أنزل الله، متبعون الرسول عيسى تحت أمره ونهيه. ومن المعلوم أنّ شريعة عيسى جاءت مُعَدِّلَةً لما في التوراة، ومُلَطِّفَةً لما عليه اليهود من الشدة في حب الحياة، فآثر عيسى الزهد فيها، وصَرَفَ النظر عن مباهجها وزخارفها، وصار قدوة لأتباعه، فسلكوا طريقه في زهده وتقشفه وقللوا من الدنيا جهدهم، وابتدعوا رهبانية ما كتبت عليهم، ولكن الطبيعة الحيوانية والغريزة البشرية أمْلَت عليهم ما كان كامناً فيهم فقالوا ما قالوا مما حكاه القرآن عنهم... **﴿إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك أن ينزّل علينا مائدة من السماء. قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين﴾**.

﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إنّي منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾: عندما تنظر إلى

كلام الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بإمعان نجده مرتبطاً بعضه ببعض في أغراضه ووسائله في كليات أحكامه وجزئيات مسائله، وفي هذه الآيات التي ذكرت فيها مطالب الحواريين تربطنا بمسألة التحليل والتحريم في الطعام، ومسألة حرمة الأسئلة التي لا تعود بالخير على السائلين الكرام!.

وبالمقارنة بين ما جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ وبين ما جاء به محمد ﷺ من توضيح المسائل وتفاصيل الأحكام، تجد الفرق بين هذا وذاك واضحاً جليّاً؛ فدعوة عيسى انبنت على الزهد والتقشف حسب ما ظهر على أتباعها وتناقل على ألسنة دعاتها، ولكن لم يستطيعوا تطبيقها إلاّ بمشقّة قاسية أخرجت الإنسانية عن حقيقتها. ودعوة محمد ﷺ انبنت على الحنيفية القيمة التي لا عسر فيها ولا إرهاق، فجاءت وسطاً بين تفريط اليهود وإفراط النصارى، وأنكرت ما عليه هؤلاء على الإطلاق. من هنا نعلم ما هو الغرض من ورود قصة المائدة التي طلبها أتباع عيسى منه، بشرط أن نفهم هذه الآيات بنصها الوارد فيها دون تتبع الروايات والخيالات التي غطّت على المغزى الحقيقي، وجعلت القصة أسطورة يتندّر بها كما يتندّر بالخرافات.

إنّ السؤال الذي ورد من الحواريين من الأسئلة التي منعت من المسلمين في القرآن، وأتى به شاهداً على ما كان عليه الأولون من كثرة الأسئلة وشدة الخلافات، وقد تعود هذه الأسئلة على أصحابها بالزيغ والضلالات؛ ليتأدب المسلمون بأدب قرآنهم، حيث وجههم التوجيه السليم وهداهم إلى الصراط المستقيم «واعلموا أنّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون. فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم». وعندما تتبعت كلام المفسرين في هذه القصة وجدتهم مختلفين متفرقين في المفردات اللغوية، والأبحاث النحوية والبلاغية، وفي معانيها التوجيهية، فالباحث في كلامهم لا يحصل على طائل من النص في توجيه القرآن، وهو الأمر الذي حداني إلى البحث بحثاً مستقلاً إنتهجه به الوجهة التي تشير إليها طبيعة القرآن بوجه عام، وطبيعة السورة بوجه خاص، وطبيعة الموضوع بوجه أخص: إنّ البحث عن الطعام والشراب طبيعة حيوانية وغريزة إنسانية لابد منها، والله سبحانه وتعالى جعل لها

أسباباً بالعمل ومعرفة طريقة الكسب، وجعلها للإنسان خاصة حيث سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض من هواء وريح وسحاب ومطر، وسخر له الأنعام في البر والفلك في البحر، والطائرة في الجو، «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون»، «وآية لهم أنّا حملنا ذرياتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون»، ولا ينبغي أن نغفل عن قوله تعالى: «ويخلق ما لا تعلمون»، وقوله تعالى: «وخلقنا لهم من مثله ما يركبون»!.

فمن سلك من الناس هذا الطريق وفهم الغرض منه على التحقيق استرشد وهدى إلى صراط مستقيم، ومن حاد عنها وتمنى أن يكون رزقه يأتيه بدون عمل وبدون معرفة طبيعة الكسب كما فهمه أتباع عيسى، وفهمه من المسلمين بعض من جهل حقيقة الإسلام، وجعلوه زهداً وتقشفاً وتَمَسُّكاً بالفاقة والفقر، أو تمشدقاً وتنطعاً وطمعاً وإسفافاً وسموا ذلك كرامَةً، وفرضوا أنفسهم على الناس فأكلوا أموالهم بالباطل، ويحسبون أنّهم على شيء ألا إنّهم هم الكاذبون، فقد ضل سواء السبيل، وباء بالفشل الذريع والويل الوبيل.

التوجيه الثالث: ﴿**وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله**﴾: في هذا التوجيه الأمر للرسول ﷺ بأن يذكر للناس سؤال الله لعيسى يوم القيامة، ويجيب عيسى على الفور حسب ما حكاه القرآن عنه. . . ﴿**قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علام الغيوب**﴾: الغرض من هذا تقريع وتكبيت النصارى الذين قالوا هذا القول وادّعوا أنّه دين المسيح، وهو يتبرأ منه مُنَزِّهاً الله تعالى عن مضمون تلك المقالة. وكانت المبادرة بتنزيه الله تعالى أهم من تبرئته نفسه، وزاد تأكيداً لنفي ما ادّعوا عليه بقوله: ﴿**إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي**﴾. . الخ الآية. وبعد أن تبرّأ من أن يكون قال ذلك لهم مما اختلقوه كذباً وافتراءً، انتقل فبيّن أنّه أمرهم بعكس ذلك حسبما أمره الله تعالى فقال. . .

﴿**ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربيّ وربّكم**﴾!. ثم تبرأ من تبعتهم فقال. . . ﴿**وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد**﴾: والمعنى: أنِ عيسى لمّا كان حيّاً بينهم لم

يسمع هذا القول منهم، فلما انتقل من هذه الدنيا لم يكن مسؤولاً عنهم؛ لأنّه انقطع اتصاله بالدنيا، فالله سبحانه هو الذي يعلم أمرهم ويرسل إليهم من يهديهم، وقد أرسل الله إليهم محمداً وأعلمهم بما كان منهم وحذرهم من ضلالهم وكفرهم، ونتيجة هذا كله يوم يرجعون إلى ربّهم. فنعلم من هذا أنّ مقالة ألوهية عيسى وأمه، وأن المسيح هو الله أو ابن الله لم تحدث في عصر المسيح، وإنّما حدثت بعده بمدة مديدة، عندما دخل بعض اليهود في المسيحية وأرادوا تضليل النصارى وإخراجهم من دين عيسى الحق وهو دين الإسلام، فاخترعوا لهم هذا القول الشنيع، وزيّن لهم هذا الكفر الفظيع، وتَلَقَّفَهُ منهم أهلُ الأهواء والشهوات حسبما جاء في تاريخ المسيحيين من روايات. هذه هي معجزة القرآن التي يتحدّى بها كل إنسان... ﴿**إن تعذبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم**﴾: هذا آخر ما يقوله عيسى ـ عليه السلام ـ لربه يوم القيامة. يفوض إليه أمر التعذيب لمن يستحقه، وأمر المغفرة لمن هي له، لأنّ الله عزيز لا يُغلب، وحكيم يحكم بما هو أوفق وأنسب...

﴿**قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم**﴾: في هذا اليوم العظيم، يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين تُعْلَنُ نتيجةُ الفائزين، وهم الذين صدقوا في إيمانهم وأوفوا بعقودهم وأَيْمانِهم، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون. فيفوزون بالجائزة العظيمة التي لا يعلم كنهها إلاّ علام الغيوب، «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون...» ﴿**لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم**﴾: هذا هو نفع الصادقين صدقهم يعلن على رؤوس الأشهاد بكلام الله العزيز الحكيم... ﴿**لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير**﴾: وهكذا تُعلن الحقيقة التي غفل عنها الغافلون وشهدها عباد الله الصادقون؛ مِنَ الذين أنعم الله عليه من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم!. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم.

4 ـ بداية الكلام في مباحث سورة الأنعام



النص

بسم الله الرحمن الرحيم

* الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمت
والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (1) هو الذي خلقكم
من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون (2)
وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (3)
وما تأتيهم من ءاية من ءايت ربهم إلا كانوا عنها معرضين (4)
فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنبؤا ما كانوا به
يستهزءون (5) ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنهم
في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا
الأنهر تجري من تحتهم فأهلكنهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم
قرنا ءاخرين (6) ولو نزلنا عليك كتبا في قرطاس فلمسوه بأيديهم
لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (7) وقالوا لولا أنزل عليه
ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون (8)

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿10﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿11﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿12﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿13﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**الحمد**﴾: هو الثناء الحسن على العمل الحسن والذكر الجميل. ﴿**خلق**﴾: أنشأ وأوجد وقدّر. ﴿**وجعل**﴾: أحدث وأنشأ، والفرق بين الخلق والجعل أنّ الخلق فيه معنى التقدير، والجعل فيه معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً آخر، أو نقله من مكان إلى مكان. ﴿**الظلمات**﴾: جمع ظلمة، وهي ذهاب النور، وهي الحالة التي يكون عليها تحمل مكان ليس فيه نور. ﴿**والنور**﴾: الضوء المنتشر الذي يُعين على الإبصار، ولا يوجد شيء في العالم أظهر من النور والضوء، وهو غنيّ عن التعريف لوضوحه، وحسبك أنّه هو الظاهر بنفسه المُظْهِرُ لغيره من المُبْصَرَاتِ، فهو أعظم المظاهر الحسية لله سبحانه وتعالى، مع أنّ حقيقته العلمية من أعسر الأمور، وكثيراً ما كان الخفاء من شدّة الظهور. والنور قسمان: حسّي صوري وهو ما يُدْرَكُ بالبصر، ومعنوي روحي وهو ما يدرك بالبصيرة. وقد أطلقت كلمة النور في التنزيل على القرآن، وعلى النبيء محمد - عليه الصلاة والسلام -. . . ﴿**ثم الذين كفروا بربهم يعدلون**﴾: يعدلون: يُسوّون،

والعدل التسوية، تقول: عدلت فلانا بفلان إذا سويته به، ويقال: عدل عنه حَادَ، وعدل إليه رجع، والمقصود هنا الأول...

﴿**هو الذي خلقكم من طين**﴾: الطين: التراب الذي خالطه الماء، فهو التراب المعجون بالماء، وهو الطين الذي خُلق منه آدم عليه السلام... ﴿**ثم قضى أجلاً**﴾: القضاء: فصل الأمر؛ قولاً كان ذلك الأمر أوْ فعلاً، والأجل: هو المدة المضروبة للشيء، وقضاء الأجل هنا مدّة العمر المحدود لكل إنسان... ﴿**وأجل مسمى عنده**﴾: هذا الأجل هو البعث والحشر يوم الحساب عند الله علمُه لا يطلع عليه أحد... ﴿**ثم أنتم تمترون**﴾: الامتراء: الشك والتردد في الأمر، وهو بوزن الافتعال، مشتق من المرية بكسر الميم، ولم يرد فعله إلاّ بزيادة التاء، ولم يسمع له فعل مجرد، والمماراة: المجادلة، والامتراء هنا: هو الشك والتشكيك والمجادلة والتكذيب...

﴿**وهو الله في السماوات وفي الأرض**﴾: الله عَلَم على واجب الوجود، المستحق لجميع المحامد في السماوات وفي الأرض... ﴿**يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون**﴾: السر: ما يخفيه الإنسان في نفسه. والجهر: ما يظهره من قول أو فعل، والكسب يشمل عمل الإنسان كله؛ من اعتقاد الجَنان، وقول اللسان، وفعل الأركان. المراد بإتيان الآيات: بلوغها والتحدي بها. ﴿**من آية**﴾: آية القرآن المعجزة الدالة على صدق الرسول.. ﴿**من آيات ربّهم**﴾ المنقولة من عموم كتبه والمعقولة أمام كل ناظر في الآفاق وفي أنفسهم... ﴿**إلاّ كانوا عنها معرضين**﴾: الإعراض: التولي عن الشيء الذي يظهر به عرض المتولي المدبر عنه... ﴿**فقد كذبوا بالحق لمّا جاءهم**﴾: التكذيب: الإنكار والجحود وردّ الخبر على الْمُخْبِرِ. والحق: الأمر الثابت المتحقق بنفسه الموافق والمطابق لما في الواقع، وهو كليّ له جزئيات كثيرة، وكلما أطلق في مقام يعرف المراد منه بالقرائن اللفظية أو المعنوية، وقد أطلق في القرآن بمعناه اللغوي المطلق، وأطلق على الله تعالى، وأطلق على القرآن، وعلى الدّين، وأطلق بمعان أخرى تُفهم من السياق في كل موضع. والمراد به هنا الدين المبيّن في القرآن... ﴿**فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون**﴾: الأنباء: جمع نبإ، وهو الخبر الذي له أهمية. والاستهزاء: السخرية، يقال: هزأ به واستهزأ به، ومعناه عامله فعلاً أو قولاً يحصل به احتقاره...

﴿**ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكّناهم في الأرض**﴾: الرؤية: النظر بالعين في المحسوسات، وبالقلب في المعقولات، والأُولى يقال لها: بصرية، والثانية يقال لها: قلبية وعلمية. وكم: اسم للسؤال عن عدد مبهم فلابد بعده من تفسير.. وقد تكون خبرية فتدل على عدد كثير مبهم، ويكون مفسّرها مجرور، وتكون استفهامية فمفسرها منصوب أو مجرور. والإهلاك: الإماتة، ويطلق على إنهاء الشيء، والمراد هنا: الإهلاك الحاصل بالعذاب. وأصل القرن الزمن الممتدّ، وكثر إطلاقه على الأمة التي دامت طويلاً، وفُسّر القرن بالأمة البائدة، ويطلق القرن على الجيل الذي يعاصر بعضه بعضاً، ولهذا قدر بآخر العمر الطبيعي للإنسان وهو مائة عام، وهو ما اصْطُلِحَ عليه الآن. والتمكين: مشتق من المكان، فمعنى مكّنه ومكّن له: وضع له مكاناً، ويطلق على المقدرة وإطلاق التصرف؛ لأنّ صاحب المكان يتصرف في مكانه وبيته، ويقال: فلان ذو مكانة، ومكين. والتمكين في الأرض تقوية التصرف. في إخراج منافعها، والاستظهار بأسباب الدنيا: بأن يكون في منعة من العدو، وفي سعة من الرزق، وفي حُسْن حَالٍ...

﴿**وأرسلنا السماء عليهم مدراراً**﴾: الإرسال والإنزال: متقاربان في المعنى؛ لأنّ اشتقاق الإرسال من أرسل اللبن، وهو ما ينزل من الضرع متتابعاً، وأصل الرسل: الانبعاث على التُّؤَدَةِ، ومنه الرسول المنبعث، ويطلق الإرسال على التسخير، كإرسال الريح والمطر. والمراد بالسماء هنا: السحاب النازل منه المطر. والمدرار: الدائم الكثير النافع، مشتق من الدر، وهو مصدر درّ اللبنُ... ﴿**وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم**﴾: الجعل هنا: بمعنى التصيير والإعداد. والأنهار جمع نهر، وهو الماء الجاري الدائم في مسار رتيب مفيد، وهو معنى الجارية من تحتهم... ﴿**فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين**﴾: الإهلاك هنا: العقاب الدال على غضب الله. والذنوب: الكفر وتكذيب الرسل. والإنشاء: الإيجاد المبتكر...

﴿**ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم**﴾: القرطاس: الصحيفة من أي شيء كانت من كاغدٍ أو ورِقٍ، والقول بالتعريب قول واه. واللمس: وضع اليد على الشيء لمعرفة وجوده، أو لمعرفة وصف ظاهره من لين أو خشونة، ومن برودة أو حرارة ونحو ذلك.. واللمس أخص من المسّ... ﴿**ولو جعلناه ملكاً**

لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾: الملك: واحد الملائكة. والرجل: واحد البشر. واللبس: الخلط، يقال: لبس عليه الأمر خلطه، ومادة لبس تدل على الستر والتغطية، ويكون الستر حسيّاً كما في لبس الثياب، وقد يكون معنوياً كما هنا... **﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾**: الهزؤ والسخرية قريبان في المعنى، وكلا الفعلين يتعدى بحرف مِنْ، والباء، والغالب في هزأ أن يتعدى بالباء، وفي سخر أن يتعدى بمن، وهو ما في الآية هنا، وأصل مادة سخر مؤذن بأنّ الفاعل اتخذ المفعول مسخراً، يتصرف فيه كيف شاء بدون حرمة؛ لشدة قرب مادة سخر المخفف من مادة التسخير، فكأنّه حوّله عن حق الحرمة الذاتية فاتخذ منه لنفسه سخرية. والحنْقُ: ما اشتمل على الإنسان من فكر وفعله، وحاق: بمعنى أحاط ونزل ووجب، ومعناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكون إلاّ في الشر...

﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾: النظر هنا: له معنيان: النظر البصري، والنظر القلبي، والمراد منه النظر الموصل للعلم. والعاقبة: آخر الشيء ومآله، وما يعقبه من مسبباته، ويقال: عاقبةٌ وعُقْبَى، وهي اسم كالعافية والخاتمة... **﴿كتب على نفسه الرحمة﴾**: قضاها وأوجبها على نفسه بطريق التفضل والإحسان.

مبحث الإعراب

﴿الحمد﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. **﴿لله﴾** متعلق بمحذوف خبر. **﴿الذي﴾** في محل جر نعت لله. **﴿خلق﴾** فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة الذي. **﴿السماوات﴾** مفعول به منصوب بالكسرة. **﴿والأرض﴾** معطوف عليه منصوب بالفتحة. **﴿وجعل الظلمات والنور﴾** إعرابه مثل إعراب خلق السماوات والأرض. **﴿ثم﴾** حرف عطف. **﴿الذين﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿كفروا﴾** صلة الذين. **﴿بربّهم﴾** متعلق بالفعل بعده، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿يعدلون﴾** فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. **﴿هو﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿الذي﴾** في محل رفع خبر. **﴿خلقكم﴾** فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والضمير في خلقكم مفعول به، وجملة خلقكم صلة الموصول. **﴿من طين﴾** متعلق بخلقكم. **﴿ثم قضى﴾** معطوف على خلق، والفاعل ضمير يعود على الله.

﴿**أجلاً**﴾ مفعول به. ﴿**وأجلٌ**﴾ الواو للعطف، وأجل مبتدأ. ﴿**مسمى**﴾ نعت له مرفوع بضمة مقدرة على الألف المحذوفة منع من ظهورها التعذر، مثل المسمى. ﴿**عنده**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**ثم أنتم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**تمترون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ.

﴿**وهو الله**﴾ مبتدأ وخبر. ﴿**في السماوات**﴾ متعلق بمحذوف نعت لله. ﴿**وفي الأرض**﴾ معطوف على في السماوات. ﴿**يعلم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، وجملة يعلم نعت آخر لله. ﴿**سركم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وجهركم**﴾ معطوف عليه. ﴿**ويعلم**﴾ معطوف على يعلم الأول. ﴿**ما تكسبون**﴾ جملة تكسبون مع ما المصدرية مؤولة بمصدر مفعول به، أي: يعلم كسبكم. ﴿**وما**﴾ الواو حرف عطف، ما حرف نفي. ﴿**تأتيهم**﴾ فعل مضارع، والضمير فيه مفعول به. ﴿**من آية**﴾ فاعل تأتي في محل رفع، وجرته لفظاً من الزائدة. ﴿**من آيات**﴾ متعلق بمحذوف نعت لآية. ﴿**ربّهم**﴾ مضاف إلى آيات، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**كانوا**﴾ الواو اسم كان. ﴿**عنها**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**معرضين**﴾ خبر كان. ﴿**فقد**﴾ الفاء للتعقيب، وقد للتحقيق. ﴿**كذبوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بالحق**﴾ متعلق بكذبوا. ﴿**لمّا**﴾ ظرف متعلق بكذبوا. ﴿**جاءهم**﴾ فاعل جاء ضمير يعود على الحق، وضمير الغيبة مفعول به. ﴿**فسوف**﴾ الفاء للترتيب، وسوف للتسويف. ﴿**يأتيهم**﴾ فعل مضارع، والضمير فيه مفعول به. ﴿**أنباء**﴾ فاعل يأتي. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل جر مضاف إلى أنباء. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**به**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**يستهزءون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا صلة ما.

﴿**ألم**﴾ الهمزة للاستفهام، ولم حرف نفي وجزم. ﴿**يروا**﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف النون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**كم**﴾ اسم استفهام في محل نصب مفعول به. ﴿**أهلكنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**من قبلهم**﴾ متعلق بأهلكنا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**من قرن**﴾ في محل نصب مفعول به، وجر بمن الزائدة لفظاً. ﴿**مكنّاهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بمكنّا. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب نعت لمصدر محذوف. ﴿**لم**﴾ حرف نفي وجزم. ﴿**نمكن**﴾ فعل مضارع مجزوم بالسكون، والفاعل (نحن). ﴿**لكم**﴾ متعلق بنمكّن،

وتقدير الكلام: مكنّاهم في الأرض التمكين الذي لم نمكّنه لكم، وجملة لم نمكّن لكم صلة ما. ﴿**وأرسلنا السماء**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**مدراراً**﴾ حال من السماء، والجملة معطوفة على مكنّا. ﴿**وجعلنا الأنهار**﴾ معطوف على أرسلنا، الأنهار مفعول أول. جملة تجري من تحتهم المفعول الثاني. ﴿**فأهلكناهم**﴾ الفاء للتعقيب، أهلكناهم فعل وفاعل ومفعول. ﴿**بذنوبهم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**وأنشأنا**﴾ معطوف على أهلكنا. ﴿**من بعدهم**﴾ متعلق بأنشأنا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**قرناً**﴾ مفعول به. ﴿**آخرين**﴾ نعت لقرن.

﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، لو حرف امتناع لامتناع متضمن معنى الشرط. ﴿**نزّلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليك**﴾ متعلق بنزّلنا. ﴿**كتاباً**﴾ مفعول به. ﴿**في قرطاس**﴾ متعلق بمحذوف نعت لكتاب. ﴿**فلمسوه**﴾ الفاء للترتيب، لمسوه فعل وفاعل ومفعول. ﴿**بأيديهم**﴾ متعلق بلمسوه، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لقال**﴾ اللام رابطة للجواب، ﴿**الذين**﴾ في محل رفع فاعل قال. ﴿**كفروا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**إن**﴾ حرف نفي. ﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرّغ. ﴿**سحر**﴾ بدل من الخبر المقدّر. ﴿**مبين**﴾ نعت لسحر، وجملة إن هذا... في محل نصب مقول القول. ﴿**وقالوا**﴾ الواو للعطف، قالوا فعل وفاعل. ﴿**لولا**﴾ حرف تحضيض. ﴿**أُنزل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**عليه**﴾ متعلق بأُنزل. ﴿**ملك**﴾ نائب الفاعل. ﴿**ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر**﴾ جملة شرطية مثل الجملة في قوله: وأنزلنا عليك... الخ. ﴿**ثم لا ينظرون**﴾ معطوف على قضي الأمر.

﴿**ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً**﴾ جملة شرطية مثل ما سبقها من الجملتين. ﴿**وللبسنا**﴾ معطوف على جعلنا. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بلبسنا. ﴿**ما**﴾ مصدرية. ﴿**يلبسون**﴾ فعل وفاعل، وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب نعت لمصدر مقدر، والتقدير: وللبسنا عليهم لبساً مثل لبسهم. ﴿**ولقد**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وقد للتحقيق، وحُرّك بالضمة لمناسبة ما بعده. ﴿**استُهزِئَ**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**برسل**﴾ نائب الفاعل. ﴿**من قبلك**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرسل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فحاق**﴾ الفاء للتعقيب، حاق فعل ماض. ﴿**بالذين**﴾ متعلق بحاق. ﴿**سخروا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**منهم**﴾ متعلق بسخروا. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل رفع فاعل حاق. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها.

﴿**به**﴾ متعلق بما بعده. وجملة ﴿**يستهزءون**﴾ في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا صلة ما. ﴿**قل**﴾ فعل أمر، والفاعل (أنت). ﴿**سيروا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بسيروا.

﴿**ثم انظروا**﴾ معطوف على سيروا. ﴿**كيف**﴾ اسم استفهام مبنيّ على الفتح في محل نصب خبر كان مقدّم وجوباً. ﴿**كان عاقبة**﴾ كان واسمها. ﴿**المكذبين**﴾ مضاف إلى عاقبة. ﴿**قل**﴾ مثل ما سبق. ﴿**لمن**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿**في السماوات**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**قل. لله**﴾ متعلق بخبر لمبتدإ مقدّر، والتقدير: لله ما في السماوات، والجملة في محل نصب مقول القول كذلك. ﴿**كتب**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**على نفسه**﴾ متعلق بكتب، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الرحمة**﴾ مفعول به. ﴿**ليجمعنكم**﴾ اللام للقسم، يجمعن فعل مضارع مبنيّ على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**إلى يوم**﴾ متعلق بيجمع. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**لا**﴾ نافية للجنس. ﴿**ريب**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**فيه**﴾ متعلق بمحذوف خبر لا. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**خسروا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**أنفسهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فهم**﴾ في محل رفع مبتدأ، والفاء فيه للتفريع. ﴿**لا يؤمنون**﴾ فعل مضارع منفي بلا، وواو الجماعة فاعل، والجملة خبرُ (هُمْ)، وجملة (فهم) خبر الذين.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض**﴾: اسم هذه السورة الأنعام باتفاق، واختلف في عدد آياتها، والأكثر أنّها مكية. ومناسبتها لما قبلها: أن غالب ما في سورة المائدة توضيح وتفصيل للأحكام الشرعية التفصيلية، وغالب ما في سورة الأنعام توضيح وتفصيل لما في الأحكام الشرعية الأصولية. واختتم سورة المائدة بقوله: «لله ملك السماوت والأرض»، وافتتح سورة الأنعام بقوله: «الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض»، وفي هذا الموضوع أقوال كثيرة يجدها الباحث متفرقة في كتب التفسير. خصائص هذه السورة: هي مثل كامل لخصائص

السور المكية. إنّها حشد من الصور الفنية العجيبة، واللمسات الوجدانية الموجبة، والإيقاع الموسيقي المرفرف، والمنطق الطبيعي الحي، وهي كلها من أولها إلى آخرها تنبض بإيقاع واحد، وترقرق بماء واحد، وتفيض بينبوع زاخر متدفق.

إنّ موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها، هو موضوع العقيدة بكل مقوماتها وبكل مكوناتها، وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية وتطوف بها في الوجود كله وراء ينابيع العقيدة وموجباتها المستترّة والظاهرة في هذا الوجود الكبير. إنّها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السماوات والأرض تلحظ الظلمات فيها والنور، وترقب الشمس والنجوم، وتسرح في الجنات المعروشة وغير المعروشة، والمياه الهاطلة عليها والجارية، وتقف على مصارع الأمم الخالية وآثارها البائدة والباقية. ثم تسيح مع ظلمات البحر والبر، وأسرار الغيب والنفس، والحي يخرج من الميت والميت يخرج من الحي، ومع الحبة المستكنّة في ظلام الأرض، والنطفة المستكنّة في ظلام الرحم. ثم تموج بالجن والإنس، والطير والوحش، والأولين والآخرين، والأحياء والأموات، والحفظة من الملائكة على النفس بالليل والنهار.

إنّه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس، وأقطار الحس، وأقطار اللمس، وأقطار الخيال. ثم إنّها اللمسات المبدعة الحبيبة التي تنتفض المشاهد بعدها والمعاني أحياءً تمرح في النفس والخيال. وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر جديد نابض كأنّما تتلقاه النفس في أول مرة، ولم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان. ألا إنّها القدرة المبدعة تتبدى في صورة من صورها الكثيرة، فما يقدر على بث الحياة هكذا في الصور والمشاعر والمعاني إلاّ الله الذي بث في الوجود الحياة!. جملة الحمد لله تفيد استحقاق الله تعالى الحمد وحده دون غيره؛ لأنّها تدل على الحصر الدال عليه التعريف بلام الحقيقة، لما اقتضاه اختصاص الحقيقة به سبحانه لاقتصار جميع أفرادها عليه بالطريق البرهاني.

وجملة الحمد هنا خبر لفظاً ومعنًى، والقصد منه الرد على المشركين الذين يتنون على أصنامهم، وعلى الذين يتملقون الخلْقَ يتلمسون منهم منافع الدنيا. والموصول في محل الصفة لاسم الجلالة أفاد مع صلته التذكير بعِظَم صفة الخلق الذي عم السماوات والأرض وما فيهن من المحسوس والمعقول، وذلك أوجز

لفظاً في استحضار عظمة قدرة الله تعالى. ولا يخفى ما بين هذا وبين ما مر في آخر سورة المائدة من قوله: «لله ملك السماوات والأرض ومافيهن» من الربط والتفصيل بعد الإجمال. وفي جمع السماوات تصريح بكثرتها، وتوحيد الأرض تصريح بانفرادها. ولم يرد في القرآن نص يدل على تعدد الأرض، وهنا إعجاز بهر علماء هذا العصر من مؤمنين وملحدين!..

﴿وجعل الظلمات والنور﴾: هذا تقسيم شامل لما في السماوات والأرض جامع مانع، فكلها لا تخلو منها؛ فالخلق إيجاد الذات بما فيها من صفات، والجعل تكوينها على صفة وهيئة وطبيعة خاصةٍ بالذات. والتفرقة بين فعل خلق، وفعل جعل هنا معدود من فصاحة الكلمات، وأنّ لكل كلمة مع صاحبتها مقاماً، وهو ما يُسمى في عرف الأدباء برشاقة الكلمة، ففعل خلق أليق بإيجاد الذوات، وفعل جعل أليق بإيجاد أوصاف الذوات وأحوالها ونظامها. وإنّما ذكر الظلمات والنور دون غيرهما إيماءً وتعريضاً بحال المخاطبين بالآية من فريق الكافرين، لأنّ في الكفر ظلمات بعضها فوق بعض من الجهالة والحيرة والارتباك، وفي الإيمان إيماء وتنويه بحال المخاطبين بالآية من فريق المؤمنين؛ لأنّ الإيمان نور، لما فيه من استبانة الهدى والحق، وإنما جمع الظلمات وأفرد النور؛ لأنّ لفظ الظلمات بالجمع أخفّ، ولفظ النور بالإفراد ألطف!..

﴿ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون﴾: عطفت الجملة بثُمّ الدالة على بعد ما بين مدلولي المعطوف والمعطوف عليه؛ لإفادة استبعاد ما فعله الكفار حيث فعلوا غير ما وجب عليهم أن يفعلوه من الاعتراف والحمد والشكر، وغيّروه بأنواع الإشراك والجحود والكفر. وفي الجملة إيجاز بديع؛ فحرف الباء يمكن أن يتعلق بكفروا وبيعدلون، ومعنى يعدلون يعطينا معاني أكثر، نحو: يعدلون به غيره، يعدلون عنه إلى غيره، يعدلون يخرجون من أمره ونهيه، ولطائف التنزيل ليس لها مثيل!.

والخبر مستعمل في التعجيب على وجه الكناية قرينة موقع ثم ودلالة المارع على التجديد وهذا التعجيب حام في أحوال الذين ادّعوا الإلهية لغير الله تعالى، سواء فيهم من كان أهلاً للاستدلال والنظر فيخلق السماوات والأرض، ومن لم يكن أهلاً لذلك، ومع هذا التعجيب تشنيع الكفرة وتوبيخهم ببيان غاية إساءتهم مع نهاية إحسانه تعالى إليهم. فياللمفارقة الكبرى بين الدلائل الواضحة في الكون،

وبين آثارها الضائعة في النفوس!.. ﴿**هو الذي خلقكم من طين**﴾: استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمان به إثر بيان بطلان إشراكهم به تعالى، مع معاينتهم لموجبات توحيده. وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث: لما أنّ محل النزاع بعثهم، فدلالة بَدْءِ خلقهم على ذلك أظهر، وهم بشؤون أنفسهم أعرف، والتعامي عن الحجة النيرة أقبح!.

والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ، وتعريف الطرفين في الجملة يفيد القصر في ركني الإسناد وفي متعلقها، أي: هو خالقكم لا غيره، من طين لا من غيره. إنّها لمسة النقلة العجيبة من عتمة الطين المظلم إلى نور الحياة البهيج!. ولا ينبغي أن ننسى أنّ هذه السورة انبنت على التزاوج بين السماوات والأرض، وبين الظلمات والنور وبين الكفر والإيمان وبين الطين والحياة!. وهكذا إلى آخر السورة... ﴿**ثم قضى أجلاً**﴾: جاءت كلمة ثم هنا للإيذان بتفاوت ما بين خلقهم وتقدير آجالهم حسبما تقتضيه الحِكَمُ البالغة... ﴿**وأجل مسمًّى عنده**﴾: لمستان متقابلتان في الجمود والحركة وفي الموت والحياة، وبين كل متقابلين فيهما مسافة هائلة في الكنه والزمن، وللفكر فيهما عَمَلُهُ، وللتأمل فيهما وظِيفته؛ وكأنّ المنطق المستقيم حرياً أن ينتهي بالتأمل فيهما إلى يقين...

﴿**ثم أنتم تمترون**﴾: الأمر هذا عجيب ممن يمترون في أمر البعث مع علمهم بالخلق الأول وبالموت. وحذف متعلق تمترون لظهوره من المقام، أي: تمترون في إمكان البعث وإعادة الخلق، والذي دلّ على أنّ هذا هو المماري فيه قوله: «خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمى عنده»، إذ لولا قصد التذكير بدليل إمكان البعث لما كان لذكر الخلق من الطين وذكر الأجل الأول والأجل الثاني مُرَجّح للتخصيص بالذكر. والامتراء المنسوب إليهم ـ مع أنّهم جازمون بعدم البعث ـ قصد منه زيادة التعجيب والاستنكار... ﴿**وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون**﴾: هذه الآية نتيجة للأخبار الماضية ابتداء من قوله: «الحمد لله الذي خلق»، فَنَبَّهَ على فساد اعتقاد الذين أثبتوا الإلهية لغير الله، وعبدوها وحمدوها وأثنوا عليها، بأنّ الله هو خالق الأكوان وخالق الإنسان ومعيده. ثم أعلن أنّه المنفرد بالإلهية في السماوات وفي الأرض؛ إذ لا خالق غيره كما تقرر فيما سبق؛ وإذ هو عالم السر والجهر وغيرُه لا إحساس له

فضلا عن العقل فضلاً عن أن يكون عالماً!. ولما كان اسم الله معروفاً عندهم لا يلتبس بغيره صار قوله: وهو الله في معنى الموصوف بهذه الصفات، هو صاحب هذا الاسم لا غيره.

وقوله: يعلم سركم وجهركم جملة مُقَرِّرَةٌ لمعنى جملة: وهو الله، ولذلك فصلت، لأنّها تتنزّل منها منزلة التوكيد؛ لأنّ انفراده بالإلهية في السماوات وفي الأرض يقتضي علمه بأحوال بعض الموجودات الأرضية ـ وعلمُ السر دليلُ عموم العلم. والمراد بما تكسبون عموم الأقوال والأفعال والاعتقادات في السر والجهر ـ فهذا تعميم بعد التخصيص وتفصيل بعد الإجمال، وهو تعريض بالوعد والوعيد. والخطاب لجميع السامعين، فدخل فيه الكافرون ـ وهو المقصود الأول من هذا الخطاب ـ فهو تعليم وإيقاظ بالنسبة إليهم، وتذكير بالنسبة للمؤمنين.

وهكذا رسم اللمسات الأولى السريعة دلائل الألوهية في تكون والنفس، وتنفذ إلى أعماق الوجود والضمير، وتشمل الأبعاد الضخمة بين السماء والأرض، وبين الظلام والنور، وبين الموت والحياة، وبين السر والجهر، وبين الشر والخير في بضعة سطور!.. **﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها معرضين﴾**: لم يكن كل أمرهم أنّهم لم يستدلوا بما ذكر في الآية الأولى من البينات على التوحيد، ولا بما ذكر في الثانية على البعث، ولم ينظروا فيما يستلزمه كونه سبحانه هو الله في السماوات وفي الأرض، المحيط علمه بالسر والجهر وكسب العبدِ، بل عطف على هذا ويزاد عليه أنّهم أضافوا إلى عدم الاهتداء بالآيات الثابتة الدائمة التي يرونها في الآفاق وفي أنفسهم، عدم الاهتداء بالآيات المتجددة التي تهديهم إلى ذلك وتبين لهم وجْهَ دلالتها، وهي آيات القرآن المرشدة إلى آيات الأكوان، والمثبتة لرسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وذلك أنّهم لا تأتيهم آية من هذه الآيات من عند ربّهم ـ ولا يقدر عليها غيره ـ إلاّ كانوا معرضين عنها، غير متدبرين لمعناها، ولا ناظرين فيما تدل عليه وتستلزمه، فيهتدوا بهدى هذا القرآن. فضمائر جميع الغائبين مرادٌ منها المشركون الذين هم بعضُ مَن شملته ضمائر الخطاب في الآية التي قبلها، ففي العدول عن الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إليهم التفات أوْجَبَهُ تهورهم بهذا الحال الذميم تنصيصاً على ذلك وإعراضاً عن خطابهم، وتمحيضاً للخطاب للمؤمنين، وهو من أحسن الالتفات؛ لأنّ الالتفات

يحسّنه أن يكون له مُقْتَضٍ زائد على نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب. واستعمل المضارع (تأتيهم) للدلالة على التجدد، وإن كان هذا الإتيان ماضياً بقرينة إلاّ كانوا. والمراد بإتيانها بلوغها إليهم وتحدّيهم بها، فشبّه البلوغ بمجيء الجائي، كما يقال: أتاني أنّك قلت كذلك.

وخلاف ما يدل على الجانب المأتي منه لظهوره من قوله: «من آيات ربّهم». ومن قوله: من آية لتأكيد النفي، لقصد عموم أنواع الآيات التي أتت وتأتي. ومن التي في قوله: من آيات ربّهم تبعيضية. والمراد بقوله: من آية كل دلالة تدل على انفراد الله بالإلهية. وإضافة الرب إلى ضمير (هم) لقصد التسجيل عليهم بالعقوق لحق العبودية. واخْتِيرَ الإتيانُ في خَبر كان بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أنّ هذا الإعراض متحقق من دلالة فعل الكون، ومتجدد من دلالة صيغة اسم الفاعل، لأنّ المشتقّات في قوة الفعل المضارع. والاستثناء دلّ على أنّهم لم يكن لهم حال إلاّ الإعراض، وإنّما ينشأ الإعراض عن اعتقادهم عدم جدوى النظر والتأمل؛ فهو دليل على أنّ المُعْرِضَ مُكَذِّبٌ للمخبر المعرض عن سماعه. والآية هنا تقرر بَعْدَ وضوح القضية أنّ هؤلاء القوم مصرون على الإعراض، فما يمكن أن يؤمنوا بآية من آيات الله على الإطلاق!. ﴿**فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون**﴾: لما أعرضوا فقد كذَبوا، ولمّا كذبوا فلابد أن يأخذوا جزاء التكذيب، فهو تهديد وتهويل، وتعميم للعذاب وتجهيل!.

وحرف التسويف هنا لتأكيد حصول ذلك في المستقبل، واستعمل الإتيان هنا في الإصابة والحصول على سبيل الاستعارة. وأُطلق النبأُ هنا على تحقيق مضمون الخبر. والسياق لا يُحدّد شيئاً من الأنباء؛ لا كماً، ولا كيفاً، ولا زماناً، ولا مكاناً، لا تحدد موعداً في الدنيا أو في الآخرة؛ لأنّ الموقف موقفُ التهويل والتعميم والتجهيل. ستأتيهم أنباؤه في وقت لا يملكون فيه الاستهزاء ولا يستطيعون فيه السخرية!. ولا ينفعهم فيه اليقين!.. ﴿**أولم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين**﴾: هذا تقرير مسوق لتبيين ما هو المراد بالأنباء التي سبق بها الوعيد، وتقرير إثباتها بطريق الاستشهاد، تهديد للذين أعرضوا وكذبوا فلا يستعزُّون بقوتهم

وبمالهم وبجاههم؛ لأنّ مَنْ كانوا قبلهم أمكن في الأرض وأقوى منهم فلم ينفع إذنْ تمكين في الأرض أقوى وأمكن، ولم ينفع ثراء ترسل السماء أسبابه مدراراً، وتجري به الأرض أنهاراً، ولم ينفع متاع ونعيم، بل هلك المكذبون بما اجترحوا من ذنوب، وأنشأ الله بعدهم جيلاً آخر، فلم تخرب الأرض بذهابهم، ولم يفرغ فيها مكانهم، وهذه أنكى في نسيانهم وهوانهم!. فالحياة لم تحفلهم، إنّما اندفعت في طريقها تسير. إنّ مصارع الماضين تلمس الوجدان وتجسّم العبرة. ألم يروها؟ ألم يروا تكرارها؟. إنّ سنة الله ماضية فليخشوها، وليحذروا أن يكونوا مكذبين فيلقوا مصارع المكذبين!.

والخطاب في قوله: لكم التفات موجه إلى الذين كفروا؛ لأنّهم الممكنون في الأرض وقت نزول الآية وليس للمسلمين يومئذ تمكين. والمدرار صيغة مبالغة، مثل مِنحار كثير النحر. ووَصْفُ المطر بالمدرار مجاز عقلي، وإنما المدرار سحابُه، وهذه الصفة يستوي فيها المذكر والمؤنث... ﴿**ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين**﴾: هنا يرسم السياق نموذجاً عجيباً للمكابرة المتبجحة والعناد الصفيق، إنّهم لا يكذّبون لأنّ الدلائل تنقصهم، ولا لأنّ البينة لا تسعفهم؛ كلاّ!، إنّما هم مكابرون معاندون، حتى لو أننا استبدلنا بهذا الكتاب الذي نتلوه عليهم، والذي نزل به الوحي على قلبك كتاباً مادّياً مكتوباً في قرطاس، ثم لمسوا هم هذا القرطاس، ولا يكتفي باللمس بل يبين أداته زيادة في أدّيّة المحس (فلمسوه بأيديهم) لو أنّ هذا كلّه حدث ما تخلّوْا عن المكابرة، ولا اسْتَحْيُوا من المواجهة، ولا جنحت قلوبهم إلى التسليم، ولقال الذين كفروا: إن هذا إلا سحر مبين!. هكذا في توكيد بطريق النفي والاستثناء ليبلغ التبجح أقصاه، وليرتسم النموذج الفذ للمكابرة المتبجحة والعناد الصفيق!. فيالروعة التصوير!..

﴿**وقالوا لولا أنزل عليه ملك**﴾: شروع في قدحهم نبوءة محمد ﷺ صريحاً بعد ما أُشير إلى قدحهم فيها ضمناً، وهو زيادة في بيان سخفهم فيما يطلبون من دليل... ﴿**ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون**﴾: هذا رد لما اقترحوه، وجاء الرد من وجهين: أحدهما: لو أنزلنا هكذا كما اقترحوا لقضي الأمر بإهلاكهم ثم لا ينظرون...

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾: هذا هو الرد التالي على اقتراحهم، وفيه ارتقاء في الجواب؛ وذلك أن مُقْتَرَحَهُمْ يستلزم الاستغناء عن بعثة رسول من البشر؛ لأنّه إذا كانت دعوة الرسول البشري غير مقبولة عندهم إلاّ إذا قارنه ملك يكون معه نذيراً كما قالوا وحُكِيَ عنهم في غير هذه الآية، فقد صار مجيء رسول بشري إليهم غير مُجْدٍ للاستغناء عنه بالملك الذي يصاحبه، على أنّهم صرحوا بهذا اللازم فيما حُكي عنهم في غير هذه الآية، وهو قوله تعالى: «قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة». فجاء هذا الجواب الثاني صالحاً لرد الاقتراحين، ولكنه روعي في تركيب ألفاظه ما يناسب المعنى اللازم لكل وهم تعبئ بفعل جعلنا المقتضى تصيير شيء شيئاً آخر، فضمير جعلناه عائد إلى الرسول الذي عاد إليه ضمير لولا أنزل عليه ملك، أي: ولو اكتفينا عن إرسال رسول من نوع البشر وجعلنا الرسول إليهم مَلَكاً، لتعين أن نصور ذلك الملك بصورة رجل؛ لأنّه لا محيد عن تشكله بشكل ليمكن إحاطة أبصارهم به وبحيزه، إذا تشكل فإنّما يتشكل في صورة رجل يلحظون رؤيته وخطابه، وحينئذ يلتبس عليهم أمره كما التبس عليهم أمر محمد ﷺ. فجملة وللبسنا عليهم ما يلبسون من تمام الدليل، والحجة عليهم بعدم جدوى إرسال مَلَكٍ. وفي الكلام احْتِبَاك؛ لأنّ كلا اللبسين هو بتقدير الله تعالى لأنّه حرمهم التوفيق، فالتقدير: وللبسنا عليهم في شأن الملك فيلبسون على أنفسهم في شأنه كما لبسنا عليهم في شأن محمد إذ يلبسون على أنفسهم في شأنه.

وهذا الكلام كله منظور فيه إلى حمل اقتراحهم على ظاهر حاله من إرادتهم الاستدلال، فلذلك أجيبوا عن كلامهم إرجاء للعذاب، وإلاّ فإنّهم ما أرادوا لكلامهم إلاّ التعجيز والاستهزاء، فجاء التعقيب عليه بقوله... **﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون﴾**: لبيان زيادة ثقتهم في المكابرة والعناد تصلباً في شركهم وإصراراً عليه، فلا يتركون وسيلة من وسائل التنفير من قبول دعوة الإسلام إلا توسلوا بها، ومناسبة عطف هذا الكلام على قوله: وقالوا لولا أنزل عليه ملك، إنّهم كانوا في قولهم ذلك قاصدين التعجيز والاستهزاء معاً؛ لأنّهم ما قالوه إلاّ عن يقين منهم أنّ ذلك لا يكون، فابتدئ الرد عليهم بإبطال ظاهر كلامهم بقوله: ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر، ثم ثنى بتهديدهم على ما أرادوه من الاستهزاء. والمقصودُ مع ذلك تهديدهم بأنّهم

سيحيق بهم العذاب، وأنّ ذلك سنة الله في كل أمة استهزأت برسول له، فقوله: ولقد استهزئ برسلٍ من قبلك، يدل على جملة مطوية إيجازاً، تقديرها: واستهزءوا بك ولقد استهزأ أُمَمٌ برسل من قبلك؛ لأنّ قوله من قبلك يؤذن بأنّه قد استهزئ به، وأيضاً وإلاّ لم تكن فائدة في وصف الرسل بأنّهم من قبله؛ لأنّ ذلك معلوم.

وحُذِفَ فَاعِلُ الاستهزاء فبني الفعل إلى المجهول؛ لأنّ المقصود هنا هو ترتب أثر الاستهزاء لا تعيين المستهزئين. واللام للقسم وقد للتحقيق وكلاهما يدل على تأكيد الخبر، والمقصود تأكيده باعتبار ما تفرع عنه، وهو قوله: فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون؛ لأنّ حال المشركين حال من يتردد في أنّ سبب هلاك الأمم السالفة هو الاستهزاء بالرسل؛ إذ لولا ترددهم في ذلك لأخذوا الحيطة لأنفسهم مع الرسول الذي جاءهم فنظروا في دلائل صدقه وما أعرضوا، ليستبرءوا لأنفسهم من عذابٍ متوقع. وفنن في أسلوب قوله: ولقد استهزئ، فذكر استهزئ أولاً؛ لأنّه أشهر، ولما أعيد عبر بسخروا، ولما أعيد ثالث مرة رُجع إلى فعل يستهزءون؛ لأنّه أخف من يسخرون، وهذا من بديع فصاحة القرآن المعجزة. . .

﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾: بعد بيان ما فعلت الأمم الخالية وما فُعل بهم خوطب رسول الله بإنذار قومه وتذكيرهم بأحوالهم الفظيعة؛ تحذيراً لهم بما هم عليه؛ وتكملة للتسلية بما في ضمنه من العِدَة اللطيفة، بأنّه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم الأوّلين، فهذه الجملة جاءت بياناً لمضمون الجملة التي قبلها ولذلك فُصِلَت ولم تُعطف؛ فإنّ الجملة التي قبلها تُخبر بأنّ الذين استهزءوا بالرسل قد حاق بهم عواقب استهزائهم، وهذه تحدوهم إلى مشاهدة ديار أولئك المستهزئين. وثمَّ للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل، فإنّ النظر في عاقبة المكذبين هو المقصد من السير، فهو مما يرتقي إليه بعد الأمر بالسير، ولأنّ هذا النظر محتاج إلى تأمل وترسم فهو أهم من السير.

وإنّما وُصفوا بالمكذبين دون المستهزئين؛ للدلالة على أنّ التكذيب والاستهزاء كانا خلقين من أخلاقهم وأنّ الواحد من هذين الخلقين كاف في استحقاق تلك العاقبة؛ إذ قال في الآية السابقة: فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون،

وقال في هذه الآية: كيف كان عاقبة المكذبين. وهذا رد جامع لدحض ضلالاتهم الجارية على سنن ضلالات نظرائهم من الأمم السالفة للمكذبين. . .

﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله﴾: هذه الجملة تكريرٌ في مقام الاستدلال؛ فإنّ هذا الاستدلال تضمّن استفهاماً تقريرياً والتقرير من مقتضيات التكرير. والتقرير هنا مراد به لازم معناه، وهو تبكيت المشركين وإلجاؤهم إلى الإقرار بما يفضي إلى إبطال معتقدهم للشرك، فهو مستعمل في معناه الكنائي مع معناه الصريح، والمقصود هو المعنى الكنائي، ولكونه مراداً به الإلجاء إلى الإقرار، كأن الجواب عنه بما يريده السائل من إقرار المسؤول محققاً لا محيص عنه؛ إذ لا سبيل إلى الجحد فيه أو المماطلة؛ فلذلك لم ينظر السائل جوابهم، وبادرهم الجواب عنه بنفسه بقوله: لله تبكيتا لهم؛ لأنّ الكلام مسوق مساق إبلاغ الحجة مقدّرة فيه محاورة وليس هو محاورة حقيقية. وهذا من أسلوب الكلام الصادر من متكلم واحد، فهؤلاء القوم المقدر إلجاؤهم إلى الجواب؛ سواء أزحفوا فأقروا حقية الجواب أم أنكروا وكابروا فقد حصل المقصود من دمغهم بالحجة، وهذا أسلوب متبع في القرآن، فتارة لا يذكر جواب منهم كما هنا، وتارة يذكر ما سيجيبون به بعد ذكر السؤال منسوباً إليهم أنّهم يجيبون به، ثم ينتقل إلى ما يترتب عليه من توبيخ ونحوه، كقوله تعالى: قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله، قل أفلا تذكّرون؟. . .الخ الحوار في سورة المؤمنون.

وابتدئ بإبطال أعظم ضلالهم، وهو ضلال الإشراك وأُدمج معه ضلال إنكارهم البعث المبتدأ به السورة بعد أن انتقل من ذلك إلى الإنذار الناشئ عن تكذيبهم الرسول، ولذلك لما كان دليل الوحدانية السالف دالاً على خلق السماوات والأرض وأحوالها بالصراحة، وعلى عبودية الموجودات التي تشملها بالالتزام، ذكر في هذه الآية تلك العبودية بالصراحة فقال: قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله. واللام في قوله لله للملك، دلّت على عبودية الناس لله دون غيره، وتستلزم أنّ العبد صائر إلى مالكه لا محالة، وفي ذلك تقرير لدليل البعث السابق المبني على إثبات العبودية بحق الخلق. ولا سَبَبَ للعبودية أَحَقُّ وأعظم من الخالقية، ويستتبع هذا الاستدلال الإنذار بغضبه على من أشرك معه.

وهذا استدلال على المشركين بأنّ غير الله ليس أهلاً للإلهية، لأنّ غير الله لا

يملك ما في السماوات وما في الأرض؛ إذ مُلك ذلك لخالق ذلك!. وهو تمهيد لقوله بعده: ليجمعنكم إلى يوم القيامة؛ لأنّ مالك الأشياء لا يهمل محاسبتها. وجملة كتب على نفسه الرحمة معترضة، وهي من المقول الذي أمر الرسول بأن يقوله. وفي هذا الاعتراض معان: أحدها أنّ ما بعده لمّا كان مشعراً بإنذار ووعيد قُدم له التذكير بأنّه رحيم بعبيده؛ عساهم يتوبون ويقلعون عن عنادهم، على نحو قوله تعالى: «كتب ربكم على نفسه الرحمة أنّه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنّه غفور رحيم».

والشرك بالله أعظم سوء وأشد قلب الجهالة. والثاني أنّ الإخبار بأنّ لله ما في السماوات وما في الأرض يُثِيرُ سؤال سائلٍ عن عدم تعجيل أخذهم على شركهم بمن هم مُلكه، فالكافر يقول: لو كان ما تقولون صدقاً لعُجّل لنا العذابُ، والمؤمن يستبطئ تأخير عقابهم، فكان قوله: ﴿**كتب على نفسه الرحمة**﴾ جواباً لكلا الفريقين بأنّه تفضل بالرحمة، فمنها رحمة كاملة؛ وهذه رحمته بعباده الصالحين، ومنها رحمة موقتة؛ وهي رحمة الإمهال والإملاء للعصاة والضالين. والثالث أنّ ما في قوله: قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله، من التمهيد لما في جملة ليجعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه من الوعيد والوعد؛ ذكرت رحمة الله تعريضاً ببشارة المؤمنين، وبتهديد المشركين. الرابع أنّ فيه إيماءً إلى أنّ الله قد نَجَّى أُمَّة الدعوة من عذاب الاسْتِئْصَالِ الذي عذب به الأمم المكذبة رسلها من قبل، وذلك ببركة النبيء ﷺ إذ جعله رحمة للعالمين.

ومعنى كتب: تعلقت إرادته، بأن جعل رحمته الموصوف بها بالذات متعلقة تَعَلُّقاً عَامّاً مُطّرداً بالنسبة إلى المخلوقات وإن كان خاصاً بالِنسبة إلى الأزمان والجهات، فلمّا كان ذلك مطرداً شُبِّهَتْ إرادته بالإلزام، فاستعير لها فعل كتب الذي هو حقيقة في الإيجاب، والقرينة هي مقام الإرادة. والمقصود أنّه لا يتخلف كالأمر الواجب المكتوب. وجملة ليجمعنكم إلى يوم القيامة واقعة موقع النتيجة من الدليل، والمسبب من السبب؛ فإنّه لمّا أُبطلت أهليةُ أصنامهم للإلهية ومُحضت وحدانية الله بالإلهية، بطلت إحالتهم البعث بشبهة تَفَرُّقِ أجزاء الأجساد وانعدامها. ولام القسم ونون التوكيد أفادا تحقيقَ الوعيد. وقوله: ﴿**ليجمعنكم إلى يوم القيامة**﴾. . . .

اختلف المفسرون في توجيهه، والظاهر من السياق أنّ الجمع جمْعُ الأموات في البرزخ بدليل ما ورد في آية أُخرى من قوله تعالى: «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون، فإذا نفخ في الصور...»، وعلى هذا التوجيه يكون سياق الكلام هنا: ليجمعنكم في القبور مدة البرزخ إلى يوم القيامة فيبعثكم ويحاسبكم... ﴿**الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**﴾: عدل عن الضمير إلى الموصول لإفادة الصلة أنّهم خسروا أنفسهم بسبب عدم إيمانهم. ومعنى خسروا أنفسهم أضاعوها كما يضيع التاجر رأس ماله، فالخسران مستعار لإضاعة ما شأنه أن يكون سبب نفع.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور. ثم الذين كفروا بربهم يعدلون**﴾: في هذا التوجيه إشعار الناس بأنّ حق الحمد ليس إلاّ لله؛ لأنّه مُبْدِعُ العالَم من السماوات والأرض وما فيهما، ليُعلم أنّه المنفرد بالعبادة وإبطال عبادة غيره وهذا هو المقصود من دعوة الناس إلى معرفة المعبود. وفي هذا رد على المشركين؛ لأنّ الأصنام لا تستحقّ الحمد من أي نوع من أنواع الحمد؛ لأنّها لا تسمع ولا تبصر ولا تملك شيئاً ما!. كما قال إبراهيم لأبيه: «ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا»؟! ولذلك عقب جملة الحمد على عظيم خلق الله تعالى، بجملة: ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون. فاستفيد من هذا استبعاد ما عمله الكافرون، وكونه ضد ما كان يجب عليهم للإله الحقّ، الحقيق بجميع المحامد لكونه هو الخالق لجميع الأكوان، والجاعل ما فيها من اختلاف الزمان، وما فيه من الظلمات الحسيّة والمعنوية، والنور الهادي الذي يهتدي به الموفَّقون في كل ظلمة منها.

ومع هذا كله يعدل الذين كفروا بربهم فيجعلون له أنداداً، ويعدل الذين كفروا فيجعلون لغيره ملكا وتصرُّفاً حيث يعدلون بأفعاله عنه وينسبونها إلى غيره، كالمعبودات التي ينسبون إليها ما ليس لها أدنى تأثير فيه!. وقد ينسب الإنسان الشيء إلى الأسباب وينسى المسبب الحقيقي الذي سخر تلك الأسباب، وهي غفلة للإنسان تعتريه من طول الممارسة والْمِرَانِ. وإنّما الواجب معرفة السبب ومعرفة الخالق للأسباب رحمة منه بالعباد؛ ليكون المؤمن على غاية من الإيقان. وقد عدل عن هذا الذين كفروا وانحرفوا ومالوا إلى طرق الشيطان.

ثم ذكّر الناسَ بما هو ألصق بهم وأظهر لهم، وهو أقوى دليل من دلائل التوحيد والبعث، وهو خلْقُهم من الطين: **﴿هو الذي خلقكم من طين﴾**، وهو التراب الذي خالطه الماء فصار كالعجين. وقد خلق الله آدم أبا البشر منه، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. فهو يذكّر الناس بأصلهم وهو أبوهم آدم، وقصته مشهورة لكل من قرأ القرآن وهو له فاهم، فلكل فرد من أفراد الإنسان له علاقة الوراثة من الأصل الذي خلق منه، وكيفية هذا ما ذكر في أوّل سورة النساء من قوله تعالى: «ياأيُّها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً»، فكل فرد من أفراد هذا النوع له حال تخصه من أجل محدود وزمن معدود: **﴿ثم قضى أجلاً﴾**. ومن تفكر في هذا ظهر له ظهوراً جليّاً أنّ القادر عليه لا يعجزه أن يعيد هذا الخلق كما بدأه؛ إذ هو أمات هذه الأحياء بعد انقضاء آجالها التي قضاها ليمهل في أجل آخر يضربه لهذه الإعادة بحسب علمه وحكمته: **﴿وأجل مُسَمًّى عنده﴾**.

فالله سبحانه قضى للناس أجلين: أجلاً لمدة حياة كل فرد منهم ينتهي بموت ذلك الفرد. وأجلاً لإعادتهم وبعثهم بعد موت الجميع وانقضاء عمر الدنيا. وقوله تعالى: **﴿ثم أنتم تمترون﴾**، هو كقوله قبله: ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون في دلالته على استبعاد الامتراء، وهو الشك في البعث من الإله القدير الذي خلقكم وقدّر آجالكم، فدل ذلك على قدرته وحكمته دَلاَلَةً لا تُبْقِي لاستبعاد البعث وجهاً... **﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾**: إنّ الذي خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان الذي سخر له ما في السماوات وما في الأرض، وخلق له ما في الأرض جميعاً، هو الله المنفرد بالألوهية في السماوت وفي الأرض، وكُلُّ مقتضيات الألوهية متحققة عليهما، من خضوع للناموس الذي سنّته، وائتمار بالمشيئة الإلهية دون سواها، وإنّ الله الذي خلقكم من طين لَيَعْلَمُ سركم وجهركم، ويعلم ما تكسبون من هبوط يناسب الطين المعتّم، ورفعة تناسب الخلقة المنيرة.

التوجيه الثاني: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها معرضين﴾: في هذا التوجيه لفْتُ النظر إلى ما عليه الكفرة من الإعراض والعناد والجمود، فالإعراض عن الحقائق الواضحة جمود، والجمود على الباطل عناد، والعناد دليل

على ما في النفس من الفساد!. وهذا الفساد لابد من استئصاله وإزالته من البلاد. . .

﴿فقد كذبوا بالحقّ لمّا جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون﴾: وهذا الحق الذي كذبوا به هو القرآن فيه دين الإسلام الذي جاءهم به محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام، من العقائد والعبادات والآداب وأحكام الحلال والحرام، والمعاملات والسلوك وكل ما يهم الإنسان من الأحكام، فإنّ تكذيبهم بالدين الذي نزل به القرآن هو عين التكذيب بالقرآن الذي نزل بهذا الدين. إنّ إعراضهم عن آيات القرآن الدالة بإعجازها على كونها من عند الله، وعلى رسالة من أُنزلت عليه وبمعانيها على دلائل التوحيد والبعث، وعلى أحكام الشرائع والآداب، قد كان سببا ترتب عليه تكذيبهم بالحق الذي أُنزل القرآن لبيانه، وهو تلك المعاني التي هي دين الله عزّ وجلّ. . .

فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون: فعاقبة هذا التكذيب أنّه سيحل بهم مصداق الأخبار العظيمة الشأن التي كانوا سيهزؤن بها من آيات القرآن والمراد بهذه الأنباء ما في القرآن من الوعد بنصر الله لرسوله وإظهاردينه، ووعيد أعدائه بتعذيبهم وخذلانهم في الدنيا، ثم بهلاكهم وخسرانهم في الآخرة. وقد تحقق ذلك كلُّه كما صرحت به آيات أخرى. ومن هذا نعلم أنّ الله تعالى رتّب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاثة مراتب: المرتبة الأولى كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل والتفكُّر في البيّنات. المرتبة الثانية كونهم مكذبين بها، وهذه المرتبة أزيد مما قبلها لأنّ المعرض عن الشيء قد لا يكون مُكَذِّباً به، بل يكون غافلاً عنه غير متعرض له، فإذا صار مكذباً به فقد زاد على الإعراض. المرتبة الثالثة كونهم مستهزئين بها؛ لأنّ المكذب قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار، فبيّن تعالى أنّ أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاث على هذا الترتيب. . .

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾: هذا بيان ودليل لوقوع الوعيد بالمعرضين المكذبين المستهزئين، وكونه مما سبقت به سنته في المكذبين من أقوام الأنبئاء السابقين، والمعنى: ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذبون بالحق كم أهلكنا من قبلهم من قوم وأجيال أعطيناهم من التمكين

والتصرف والاستقلال ما لم نعط هؤلاء مثلَه ولا يقاربه بحال، فلم تكن هذه المواهب والنعم مانعةً لهم من عذاب الاستئصال؟!. ثم بيّن ووضح وفصل ما تميّزت به تلك القرونُ على كفار قريش من النعم الإلهية الخاصة بمواقع بلادهم من الأرض، فقال: **﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾**: تهطل ليلاً ونهاراً...

﴿وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾: ينتفعون ويتمتعون بها، قريبة منهم وتحت متناول أيديهم!. كل ذلك لم يغن عنهم شيئا بما كسبت أيديهم... **﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾**: فلم تخرب الأرض بذهابهم ولم يفرغ فيها مكانهم، فأنشأ الله من بعدهم أقواماً وأجيالاً: **﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾**: وهذه سنة الله ماضية حاكمة على السابقين واللاحقين، وهذه الذنوب التي يهلك الله بها الأمم والشعوب.. تنقسم إلى قسمين: القسم الأول معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به. والقسم الثاني كفر النعم والبطر في الأرض وغمط الحق واحتقار البشر وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور والأبّهَة والفخفخة والتظاهر بالغرور، فهذا وغيره من الكفر بنعم الله واستعمالها في غير ما يرضاه. والآيات التي جاءت في هذا الموضوع كثيرة.

والعذاب الذي يعذب الله به الأمم ويهلك القرون ويديل الدول قسمان: أولا الجوائح والمصائب العامة والاستئصال. ثانيا والتّفرق والاختلاف والتنازع؛ فينشأ عنه الفشل وفقد الاستقلال، وفي هذه الآية رد على كفار مكة وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بإزاء ضعف المسلمين وقلتهم... **﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين﴾**: الخطاب في هذا للرسول يسليه ويبين له حقيقة القوم فيقول: قد علمت أنّ علة تكذيبهم بالحق إنّما هي إعراضهم عن الآيات، وما أقفلُوا على أنفسهم من باب النظر والاستدلال، ليس خفاء الآيات في نفسها، ولا قوة الشبهات التي تَحُولُ دونها. ولو أننا أنزلنا عليك كتاباً من السماء في قرطاس كما اقترحوا فرأوه نازلاً منها بأعينهم ولمسوه عند وصوله إلى الأرض بأيديهم؛ لقال الذين كفروا كُفْرَ العناد والاستكبار: ما هذا الذي رأينا ولمسنا إلاّ سحر مبين في نفسه ثابت في نوعه، وإنّما خيّل إلينا أنّنا رأينا كتاباً ولمسناه، وليس هناك كتاب نزل ولا قرطاس رؤى ولا لُمس. وكذلك قال أمثالهم في آيات الأنبئاء من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا...

﴿وقالوا لولا أُنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون﴾: هذا منتهى الكبرياء والعتوّ حيث طلبوا شيئاً لا يمكن أن يكون، وذلك من وجهين: الوجه الأول أنّه لو أنزل الله ملكاً كما اقترحوا لقضي الأمر بإهلاكهم، ثم لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا بل يأخذهم العذاب عاجلا، كما مضت به سنة الله فيمن قبلهم. ولعل حكمة ذلك أنّ الله فطر الملائكة على الصلابة والغضب للحق دون هوادة، وجعل الفطرة الملكية سريعة لتنفيذ الجزاء على وفق العمل، فلذلك حجزهم الله عن الاتصال بغير العباد المكرّمين الذين شابهت نفوسُهم الإنسانيّةُ النفوس الملكية، ولذلك حجبهم الله عن النزول إلى الأرض إلا في أحوال خاصة لأمور خاصة، كما قال تعالى عنهم «وما تنزل إلاّ بأمر ربك...» «ما تنزّل الملائكة إلاّ بالحق...»، فلو أنّ الله أرسل ملائكة في الوسط البشري لما أمْهَلُوا أهل الضلال والفساد ولناجزوهم العذاب. ألا ترى أنّ الملائكة الذين أرسلهم الله لقوم لوط لما لقوا لوطاً قالوا: «يالوط إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل»، ولما جادلهم إبراهيم في قوم لوط بعد أن بشروه واستأنس إليهم، قالوا: يا إبراهيم أعرض عن هذا إنّه قد جاء أمر ربّك، وهو نزول الملائكة، فليس للملائكة تصرّف في غير ما وجهوا إليه.

وفيه حكمة أخرى وهي أنّ الرسول ليس مبعوثاً بقصد التصدي لرغبات الناس مثل ما يتصدى الصانع أو التاجر أو العرّاف والكاهن لترويج بضاعته، ليجيب عن رغبات الطالبين كُلاً بما يريده، ولو أجاب رغبات بعض المقترحين للزم كل من عُرضت عليه الدعوة أن تظهر له آية حسب مقترحه، فيصير الرسول مضيعاً مدة الإرشاد، وتلتف عليه الناس إلتفافهم على المشعوذين والعرافين والحواة المحترفين، وذلك ينافي حرمة الرسالة، ولكن الآيات تأتي عن محض اختيارٍ من الله تعالى دون مَسْأَلَةٍ «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن».

التوجيه الثالث: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾: والرد من هذا الوجه أنّهم بتركيبهم وتكوينهم البشري غير مهيّئين لأن يدركوا هذا الخلق الملكي، إلاّ أن يعرض لهم في صورة بشر، فحتى لو قدّر الله أن يرسل لهم ملكاً لجاءهم في هذه الصورة، وإذنْ لالتبس عليهم الأمر كما يلبسونه على أنفسهم اليوم، ولحسبوه رجلاً يدعوهم إلى العقيدة، ويقول لهم معها دعوى

جديدة هي أنّه ملك. فاللبس إذنْ قائم، واقتراحهم المتعنّت لا يفيد، وحكمة الله في إرسال الرسل من قومهم وبلسان قومهم هي حكمة العليم الخبير... ﴿**ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون**﴾: هذا تهديد لمن استهزأوا بالرسول ﷺ وتسلية له بأن لا يعبأ بهم، وأنّهم سيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون، وأن ذلك سنّةُ الله في كل أمة استهزأت برسولها.

التوجيه الرابع: ﴿**قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾: في هذا التوجيه الأمر للرسول، بأن يأمر الناس بالسير في الأرض، وليتأملوا ويراقبوا ما حصل للأمم السابقة من تدمير وخراب، وليعلموا ما هو سبب هذا الخراب والتدمير؟!. «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها». والمراد بهم هنا كفار مكة المعاندون الكثيرو الأسفار للتجارة الغافلون عن شؤون الأمم، والاعتبار بعاقبة الماضين وأحوال الحاضرين. لقد حاق بالساخرين العذاب والنكال، ولقد كانوا يستهزئون بالوعيد، ويتمادون في الاستهزاء فلا عليك أيُّها الرسول ممن يسخرون ويستهزئون فذلك هو المصير. فَلْتَطْمَئِنَّ ولتوجه أنظارهم إلى السير في الأرض ليروا كيف كان عاقبة المكذبين، فهذه سنّة الله لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً في هذا الكون، وخالقه واحد، وكل شيء فيه مُلْكُهُ، ومشيئته فيه نافذة لا تُرَدُّ... ﴿**قل لمن ما في السماوات والأرض**﴾؟: ولا تنتظر إجابتهم في هذه القضية التي ليس عليها خلاف...

﴿**قل لله**﴾: وهذا هو الكفيل بأن تجري سنة الله السابقة على اللاحقين. وحين يتم الوعيد ويتراءى النكال الموعود يُفتح باب الرحمة، ويتنسم نسمة الرجاء... ﴿**كتب على نفسه الرحمة**﴾: ليأخذ قلوبهم القاسية الغافلة بالنار والنور، وليدفعهم عن التكذيب بالإنذار، وليحثهم على الإيمان بالبشرى. ثم يدع لهم ليختاروا بينهما مع توكيد الجزاء العادل في يوم لا ريب فيه... ﴿**ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه**﴾: ومع تقرير حقيقةٍ تنفع في هذا المقام... ﴿**الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**﴾: فعدم الإيمان دليل خسارة النفس، ولو كسب الإنسان نفسه فلم تضل عنه وتشرد لاهتدى إلى الحق، ولكنه خسر نفسه فلم يهتد إلى يقين، فليحذروا أن يكونوا الخاسرين لأنفسهم، وليحذروا أن يكونوا مستهزئين، فهذه مصائر المستهزئين!.

5 ـ لله ما سكن في الليل وتحرك في النهار
وكلها تحت تصرف الواحد القهار

النص

۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿14﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ
أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿15﴾
قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿16﴾
مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ
ٱلۡمُبِينُ ﴿17﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ
وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿18﴾
وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿19﴾
قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ
هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ
ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا
تُشۡرِكُونَ ﴿20﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ
ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿21﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿22﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ

جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿23﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿24﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿25﴾ * وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿26﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿27﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**وله ما سكن**﴾: السكون استقرار الجسم في حيز لا ينتقل منه مدة.، وضده الحركة، وأصل سكن: قرّ، وله معنيان الاستقرار في المكان، والاستقرار في المسكن؛ مصدر الأول السكون ومصدر الثاني السكنى... ﴿**فاطر السماوات والأرض**﴾: الفاطر المبدع الخالق، وأصله من الفطر وهو الشق... ﴿**وهو يُطعِم**﴾: إعطاء ما يؤكل من الرزق... ﴿**وإن يمسسك الله بضر**﴾: معنى المسّ هنا: الإيصال والإصابة، والضُر: هو الحال الذي يؤلم الإنسان وتنفر عنه طبيعتُه، والضر يدخل تحت الشر، ويقابله الخير الذي هو أعمُّ من النفع... ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾: القاهر: الغالب الذي لا يعجزه شيء ولا ينفلت عن قدرته... ﴿**وهو الحكيم الخبير**﴾: الحكيم: المحكم المتقن للمصنوعات، والخبير: مبالغة في اسم الفاعل من خَبَر المتعدي بمعنى علم، يقال: خبر الأمر إذا علمه وجرّبه... ﴿**قل أي شيء أكبر شهادة**﴾: شهادة الشيء حضوره ومشاهدته، والشهادة به الإخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد مبني على المشاهدة بالبصر أو

بالبصيرة، ومنه الشهادة بالتوحيد، وإثبات الشيء بالدليل والبرهان: شهادة به. . .

﴿**وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ**﴾: بلغه: وصل إليه، وهو يشمل من وصل إليه القرآن في جميع العصور. . . ﴿**وإنّني بريء مما تشركون**﴾: والبريء: جمعه بريئون وبرآء، وأبرياء، والبريء: من يتملص من الأمر ليتخلّص من مسؤوليته، ومعناه هنا: التخلص والابتعاد عن الشرك وما يتعلق به. . . ﴿**الذين آتيناهم الكتاب**﴾: اليهود والنصارى. . . ﴿**يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾: العرفان والمعرفة: تصور الشيء على ما هو به عليه، ومصدر المعرفة الحواس، ومصدر العلم العقل، هذا على رأي من يقول بالتفرقة بين المعرفة والعلم. . . ﴿**الذين خسروا أنفسهم**﴾: تقدم معنى هذا. . . ﴿**ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً**﴾؟: لا أحد أظلم منه!. . ﴿**أو كذّب بآياته**﴾: كذلك من جاءته آيات الله فكذّب بها!. . ﴿**إنّه لا يفلح الظالمون**﴾: تعليل لمن افترى ومن كذّب. . .

﴿**ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون**﴾: أصل السؤال بأين: أنّه استفهام عن المكان الذي يحل فيه المسند إليه، يقال: أين بيتك؟ وأين تذهب؟. وقد يسأل بها عن الشيء الذي لا مكان له. والزعم: الكذب والباطل وما يُشكُّ فيه، ويطلق على الخبر الغريب الذي يُتَهم صاحبه فيه. . . ﴿**ثم لم تكن فتنتهم**﴾: الفتنة أصلها الاختبار، من قولهم: فُتِنَ الذَّهبُ إِذا اختُبِر خلوصه من الفلت، وتطلق على اضطراب الرأي من حصول خوف لا يصبر على مثله، ومعناها هنا: اضطراب الرأي والحيرة في أمر رد الجواب. . . ﴿**انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾: كيف هنا لمجرد الحال غير دال على الاستفهام، وفعل كذب يتعدى بحرف على إلى من يختبر عنه الكاذب كذباً، مثل تعديته في هذه الآية، وقول النبيء: «من كذب عليّ مُتَعَمِّداً. . .»، وأما تعديته إلى من يخبره الكاذب خبراً كذِباً فبنفسه؛ يقال: كذبك إذا أخبرك بكذب. وضل بمعنى غاب، ويطلق على الضياع وعلى خيبة الأمل. . . ﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه**﴾: الأكنة جمع كنان، وهي العطاء وزنا ومعنًى، ويطلق على كل ساتر من بيت أكهف أو غلاف. . . ﴿**وفي آذانهم وقراً**﴾: الوَقْر: الصم الشديد، وهو يدل على شيء ثقُل، فالوقر الحمل، والوَقار: الرزانة، والتوقير: التبجيل بسبب مالَه من رزانة العقل والمكانة في النفوس، وهكذا في جميع تصاريف الوقر. . .

﴿**حتى إذا جاءوك**﴾: حتى حرف موضوع لإفادة الغاية، لأنّ ما بعدها غاية لما

قبلها، وأصل حتى أن يكون حرف جر مثل إلى، فيقع بعده إسم مفرد مدلوله غاية لما قبل حتى، وقد يعدل عن ذلك ويقع بعد حتى جملة، فتكون حتى ابتدائية. . . **﴿إنْ هذا إلاّ أساطير الأولين﴾**: الأساطير: جمع أسطورة، وهي القصة والخبر عن الماضين، مأخوذة من السطر المكتوب بالحروف، وصِيغَتُهَا صيغة أُعْجُوبَة، ومن هذا نعلم أنّها عربية أَصَالَةً، وما يقال: إنّها لفظ معرب عن الرومية؛ لأنّهم يقولون عنها: اسْتُوريا، فلا يصح، بل هم الذين أخذوها من العرب وحرّفوها على طريقتهم في الكلمات المأخوذة من العرب، وما أكثرها في لسان الروم وغيرهم من الأعاجم في القديم والحديث!. . **﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾**: النهي عنه: النهي عن استماع القرآن، والنأي هنا: التباعد عن استماع القرآن وعن الاستفادة منه، والنأي البعد، وفعله لازم ولا يتعدّى إلاّ بالحرف.

مبحث الإعراب

﴿وله﴾ الواو للعطف، له متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿ما﴾** اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر. **﴿سكن﴾** فعل ماض والفاعل ضمير يعود إلى ما والجملة صلة ما **﴿في الليل﴾** متعلق بسكن **﴿والنهار﴾** معطوف على اليل **﴿وهو﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿السميع﴾** خبره. **﴿العليم﴾** خبرٌ ثانٍ، والجملة معطوفة على ما قبلها. **﴿قل﴾** فعل أمر، وفاعله ضمير المخاطب. **﴿أغير﴾** الهمزة للاستفهام، غير مفعول أول مقدم على عامله. **﴿الله﴾** مضاف إلى غير. **﴿أتخذ﴾** فعل مضارع، وفاعله ضمير المتكلم. **﴿ولياً﴾** المفعول الثاني. **﴿فاطر﴾** نعت لله. **﴿السماوات﴾** مضاف إلى فاطر. **﴿والأرض﴾** معطوف على السماوات. **﴿وهو﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿يطعم﴾** فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود إلى الله، والجملة خبر المبتدإ، والجملة في محل نصب حال من ضمير اسم الفاعل (فاطر)، والواو واو الحال. **﴿ولا يُطعَم﴾** فعل مضارع مبني للمجهول منفي بلا، ونائب الفاعل ضمير يعود إلى الله، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿قل﴾ فعل أمر كما سبق في مثله. **﴿إنّي﴾** إنّ واسمها. **﴿أُمرت﴾** فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل التاءُ فيه، وجملة أمرت في محل رفع خبر إنّ. **﴿أنْ أكون﴾** فعل مضارع ناقص منصوب بأن، واسمها ضمير المتكلم (أنا). **﴿أوّلَ﴾** خبرها. **﴿مَن﴾** اسم موصول في محل جر مضاف إلى أول. **﴿أسلم﴾** فعل ماض، وفاعله أنا، والجملة صلة مَنْ، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر

مجرور بحرف جر مقدّر، والتقدير: أمرت بهذا الأمر الذي هو: كن أول من أسلم. ﴿**ولا تكوننّ**﴾ فعل مضارع ناقص مبني على الفتح في محل جزم بلا الناهية، واسمها ضمير المخاطب (أنت). ﴿**من المشركين**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكون، وجملة النهي معطوفة على جملة الأمر المقدر، وجملة إنّي أمرت وما عطف عليها في محل نصب مقول القول. ﴿**قل**﴾ مثل ما تقدم. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أخاف**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلم (أنا)، والجملة في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّي أخاف في محل نصب مقول القول. ﴿**إنْ عصيت ربي**﴾ جملة شرطية معترضة بين الفعل ومفعوله، وجوابُه معلوم من السياق. ﴿**عذاب**﴾ مفعول أخاف. ﴿**يوم**﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿**عظيم**﴾ نعت ليوم.

﴿**مَنْ**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**يُصرف**﴾ فعل الشرط مبني للمجهول مجزوم بالسكون، ونائب الفاعل ضمير يعود إلى العذاب. ﴿**عنه**﴾ متعلق بيُصرف. ﴿**يومئذ**﴾ كذلك ﴿**فقد**﴾ الفاء رابطة للجواب، ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**رحمه**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود إلى اسم الله، والضمير فيه مفعول به، وجملة فقد رحمه في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الفوزُ**﴾ خبره. ﴿**المبين**﴾ نعت له، والجملة معطوفة على من يصرف. ﴿**وإن يمسسك**﴾ الفعل مجزوم بإن، والضمير فيه مفعول به. ﴿**الله**﴾ فاعل. ﴿**بضر**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**فلا**﴾ الفاء رابطة للجواب، لا نافية للجنس. ﴿**كاشفَ**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**له**﴾ متعلق بكاشف. ﴿**إلاّ هو**﴾ خبر لا، أي: لا كاشف له غيرهُ. ﴿**وإن يمسسك**﴾ معطوف على الجملة الشرطية السابقة. ﴿**بخير**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**فهو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**على كل**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**قدير**﴾ خبر المبتدإ، وجملة فهو جواب الشرط، مثل لا كاشف له إلاّ هو. ﴿**وهو القاهر**﴾ مبتدأ وخبر معطوف على جملة الشرط السابق. ﴿**فوق**﴾ متعلق بالقاهر. ﴿**عباده**﴾ مضاف إلى فوق، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وهو الحكيم الخبير**﴾ مبتدأ وخبر معطوف على قوله: وهو القاهر.

﴿**قل أيُّ**﴾ اسم استفهام مبتدأ. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى أيّ. ﴿**أكبر**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**شهادة**﴾ تمييز. ﴿**قل الله شهيد**﴾ مبتدأ وخبر. ﴿**بيني**﴾ متعلق بشهيد، وياء المتكلم مضافة إلى بين. ﴿**وبينكم**﴾ معطوف على بيني. ﴿**وأوحي**﴾ عطف على قوله: الله شهيد. ﴿**إليّ**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**هذا**﴾ نائب فاعل أُوحي. ﴿**القرآن**﴾ بيان لاسم الإشارة مرفوع بالضمة. ﴿**لأنذركم**﴾ فعل مضارع منصوب

بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير المتكلم، وضمير المخاطبين مفعول به. ﴿به﴾ متعلق بأنذر، وأن المقدرة وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام العلة، والتقدير: أوحي إليّ هذا القرآن لإنذاري به إيّاكم. ﴿ومن﴾ اسم موصول في محل نصب معطوف على الضمير المنصوب في أنذركُمْ. ﴿بلغ﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على القرآن، والجملة صلة مَنْ، والرابط مقدر في الفعل بلغ، والتقدير: ومن بلغه القرآن في جميع العصور. ﴿أإنّكم﴾ الهمزة للاستفهام، إنّكم إنّ واسمها. ﴿لتشهدون﴾ اللام لتوكيد الخبر، تشهدون فعل وفاعل. ﴿أنّ﴾ حرف توكيد ونصب. ﴿مع﴾ متعلق بمحذوف خبر أنّ. ﴿الله﴾ مضاف إلى مع. ﴿آلهةً﴾ اسم أنّ مؤخر. ﴿أُخرَى﴾ نعت لآلهة منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدّر، والتقدير: أإنّكم لتشهدون بوجود آلهة أخرى شريكة مع الله؟!.

﴿قل لا أشهد﴾ فعل مضارع منفي بلا، وفاعله ضمير المتكلم (أنا)، وجملة لا أشهد في محل نصب مقول القول، وكل الجمل التي تقع بعد قال ويقول وقل في محل نصب مقول القول. ﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿إنّما﴾ كافة ومكفوفة. ﴿هو﴾ مبتدأ. ﴿إله﴾ خبره. ﴿واحدٌ﴾ نعت له. ﴿وإنّني بريءٌ﴾ جملة من اسم إنّ وخبرها معطوفة على قوله: إنّما هو إله واحد. ﴿ممّا﴾ متعلق ببريء. ﴿تشركون﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿الذين﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿آتيناهم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿الكتاب﴾ المفعول الثاني، والجملة صلة الذين. ﴿يعرفونه﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة خبر الذين. ﴿كما﴾ الكاف للتشبيه، ما مصدرية. ﴿يعرفون﴾ فعل وفاعل. ﴿أبناءهم﴾ مفعول يعرفون والضمير فيه مضاف إليه، ويعرفون مؤوّل بمصدر، والتقدير: يعرفونه معرفةً مِثْلَ معرفتهم أبناءهم. ﴿الذين﴾ مبتدأ. ﴿خسروا﴾ صلته. ﴿أنفسهم﴾ مفعول خسروا، والضمير فيه مضافٌ إليه. ﴿فهم﴾ مبتدأ. ﴿لا يؤمنون﴾ فعل مضارع منفي بلا، وواو الجماعة فاعل، وجملة لا يؤمنون خبره، وجملة فهم خبر الذين. ﴿ومَنْ﴾ الواو للعطف، من اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿أظلمُ﴾ خبره. ﴿ممّن﴾ متعلق بأظلم. ﴿افترى﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود إلى مَنْ. ﴿على الله﴾ متعلق بافترى، وجملة افترى صلة مَنْ. ﴿كذباً﴾ مفعول به. ﴿أو كذّب﴾ معطوف على افترى. ﴿بآياته﴾ متعلق بكذّب، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿إنّه﴾ إنّ واسمها. ﴿لا يفلح﴾ فعل مضارع

منفي بلا. ﴿**الظالمون**﴾ فاعل مرفوع بالواو، إنّه لا يفلح جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿**ويوم**﴾ معطوف على الجمل السابقة، ويوم متعلق بما يُقدّر مما تدل عليه المعطوفات السابقة من المعاني التي يحصل بكل معنى منها تخويف من يوم حشرهم. وجملة ﴿**نحشرهم**﴾ في محل جر مضافة إلى يوم. ﴿**جميعاً**﴾ حال من الضمير المنصوب في نحشرهم. ﴿**ثم نقول**﴾ معطوف على نحشرهم. ﴿**للذين**﴾ متعلق بنقول. ﴿**أشركوا**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الذين. ﴿**أين**﴾ اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم. ﴿**شركاؤكم**﴾ مبتدأ مؤخر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع نعت لشركاءكم. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**تزعمون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كنتم صلة الذين. ﴿**ثم لم تكن**﴾ معطوف على قوله ثم نقول. ﴿**فتنتهم**﴾ خبر تكن مقدم على اسمها. ﴿**إلاّ أن قالوا**﴾ أنْ وما دخلت عليه مؤول بمصدر مرفوع بدل من اسم تكن. ﴿**واللهِ**﴾ قسم. ﴿**ربنا**﴾ نعت أو بيان. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**كنّا**﴾ كان واسمها. ﴿**مشركين**﴾ خبرها، وجملة ما كنّا جواب القسم، وجملة ﴿**والله ربّنا**﴾ مقول القول.

﴿**انظر**﴾ فعل أمر. ﴿**كيف كذبوا**﴾ أي: انظر إلى هذه الحالة. ﴿**على أنفسهم**﴾ متعلق بكذبوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وضل**﴾ معطوف على كذَبُوا. ﴿**عنهم**﴾ متعلق بضل. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل رفع فاعل ضل. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يفترون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وجملة كانوا صلة ما. ﴿**ومنهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**مَنْ**﴾ مبتدأ مؤخّر. ﴿**يستمع**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة. ﴿**إليك**﴾ متعلق بيستمع. ﴿**وجعلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**على قلوبهم**﴾ متعلق بجعلنا. ﴿**أكنّةً**﴾ مفعول به. ﴿**أنْ يفقهوه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر. ﴿**وفي آذانهم**﴾ معطوف على جعلنا. ﴿**وقراً**﴾ مفعول به. ﴿**وإن يروا كل**﴾ فعل وفاعل ومفعول؛ فعل شرط إن. ﴿**آيةٍ**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**لا يؤمنوا**﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل. ﴿**بها**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**حتى**﴾ حرف غاية. ﴿**إذا جاءوك**﴾ فعل وفاعل ومفعول فعل شرط إذا. ﴿**يجادلونك**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة بيانية. ﴿**يقول الذين**﴾ فعل وفاعل. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين، والجملة جواب شرط إذا.

﴿**إنْ هذا**﴾ مبتدأ دخل عليه حرف النفي. ﴿**إلاّ سحرٌ**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**مبين**﴾ نعت له. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**ينهون**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**عنه**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**وينأون عنه**﴾ معطوف على ما قبله، وهو مثله في الإعراب. ﴿**وإن يهلكون إلاّ أنفسهم**﴾ أنفسهم مفعول يهلكون. ﴿**وما يشعرون**﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم**﴾: هذه الآية وصلت بالعطف بما قبلها لتفصّل ما أجمل من أول السورة إلى ما قبل هذه الآية؛ ولهذا كان ذكر ما سكن في الليل والنهار يشير إلى قوله: وجعل الظلمات والنور، بعد ذكر استحقاق الحمد لله، لأنّه خلق السماوات والأرض، وهكذا يمضي السياق مفصلاً لما ذكر قبل هذه الآية إلى آخر السورة، وإليك البيان: كل ما سكن بالليل وهو أخفى ما يكون، وتحرّك بالنهار وهو أظهر ما يكون ملك لله وحده لا يشاركه فيه غيره، ففيه استدعاء لتوجيه النظر العقلي في الموجودات، والخفية على وجه الخصوص لما في إخفائها من دلالة على سعة القدرة وتصرفات الحكمة، ولهذا جاء التعقيب بقوله: وهو السميع العليم. السميع حتى للهمسة الخافتة، العليم بأعماق السرائر وخفايا الصدور. من هنا يتحرك السياق ليثير النقاش حول هذا الأمر المهم الذي خفي على العُمْيِ الصُم الذين لا يعقلون. ويوجه السياق إلى أعقل إنسان ليكون قدوة لما بعده من العقلاء الذين يسمعون ويبصرون...

﴿**قل أغير الله أتخذ وليّاً**﴾؟!: إنّه ﷺ يُوجَّه إلى أن يجعل ذاته مثلاً لكل بشر، ويستنكر أن يجعل له ولياً وناصراً غير الله، ليستنكر على كل بشر أن يقع منه هذا المنكر!. أغير الله أتخذ وليا؟. جاء هذا التوجيه جارياً على طريقة التعريض؛ فالكلام موجه إلى الرسول، والمقصود الإنكار على الذين عبدوا غيره ـ سبحانه ـ واتخذوهم أولياء؛ لدلالة المقام على أنّ الرسول ﷺ لا يصدر منه ذلك، فالاستفهام للإنكار. وقُدّم المفعول الأول على الفعل ليكون موالياً للاستفهام؛ لأنّه هو المقصود بالإنكار، فالتقديم للاهتمام بشأن المقدم ليلي أداة الاستفهام، فيُعلم أنّ محل الإنكار هو اتخاذ غير الله وليّاً...

﴿**فاطر السماوت والأرض وهو يُطعم ولا يُطعَم**﴾: أغير الله فاطِر السماوت والأرض ومبدعهما؟. أغير الله المتكفل بالأحياء الغنيّ عن الأحياء، وهو يطعم

ولا يُطعَم؟. أغير الله ـ وهذه قدرته وهذا إبداعه، وهذا فضله، وهذا استغناؤه ـ يحق أن يتخذه البشر ولياً؟!. إنّه الاستنكار الذي يجعل الأمر خارجاً عن المعقول، فالوليُّ يُتّخذ لأنّه خالق، والله فاطر السماوات والأرض، والولي يُتَخذ لأنّه رازق، والله هو الذي يُطعم؛ والولي يُتخذ لأنّه غنيّ، والله هو الذي لا يُطعم. فهذه الجملة مؤكدة ومؤيدة لإنكار اتخاذ وليٍّ غيرِ الله، وفيها تعريض بمن اتخذوا أولياء من دونه من البشر. . .

﴿قل إنّي أُمرت أن أكون أول من أسلم﴾: استئناف مكرر لأسلوب الاستئناف الذي قبله، ومثار الاستئنائين واحد، ولكن الغرض منهما مختلف؛ لأنّ ما قبله يحوم حول الاستدلال بدلالة العقل على إبطال الشرك، وهذا استدلال بدلالة الشرع الذي فيه الأمر باتباع دين الإسلام وما بُنيَ عليه اسم الإسلام من صرف الوجه إلى الله، فهذا إبطال لطعنهم في الدين الذي جاء به المسمى بالإسلام، وشعاره كلمة التوحيد المبطلة للإشراك. وبُني فعل أُمرت للمفعول؛ لأنّ فاعل هذا الأمر معلوم بما تكرر من إسناد الوحي إلى الله. ومعنى أوّل من أسلم بأنّه أول من يتّصف بالإسلام الذي بعثه الله به، وفيه كناية عن أن يكون الأقوى والأمكن في الإسلام؛ لأنّ الأول في كل عمل هو الأحرص عليه والأخلق به، فالأولية تستلزم الحرص والقوة في العمل. وقوله: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ عطف على قوله: قل، أي: قل لهم ذلك لييأسوا، والكلام نهي من الله لرسوله، مقصود منه تأكيد الأمر بالإعلام، لأنّ الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده؛ فذكر النهي عن الضد بعد ذلك تأكيد له، وهذا التأكيد لتُقطع جرثومة الشرك من هذا الدين. . .

﴿قل إنّي أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين﴾: هذا استئناف مكرّر لما قبله، وهو تَدَرُّجٌ في الغرض المشترك بينها من أنّ الشرك بالله متوعد صاحبه بالعذاب، وموعود تاركه بالرحمة، فقوله: أغير الله أتخذ ولياً؟. رفض للشرك بالدليل العقلي، وقوله: قل: إنّي أُمرت. . . رفض للشرك امتثالاً لأمر الشرع.

وقوله هنا: قل: إنّي أخاف. . . تجنب للشرك خوفاً من العذاب وطمعاً في الرحمة. وقد جاءت مترتبة على ترتيبها في نفس الأمر؛ فياله من أسلوب بديع معجز!. . ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاّ هو﴾: هذا عطف على الجمل المفتتحة بقل، فالخطاب للنبيء ﷺ وهذا مؤذن بأنّ المشركين خوّفوه، أو عرّضوا له بعزمهم على إصابته بشر وأذى، فخاطبه الله بما يُثَبّتُ نفسه، وما يُؤَيس

أعداءه من أن يستزلُّوه، ومن وراء ذلك إثبات أنّ المتصرف المطلق في أحوال الموجودات هو الله تعالى، بعد أن أثبت بالجمل السابقة أنّه مُحْدِثُ الموجودات كلها في السماوات والأرض؛ فجعل ذلك في أسلوب تثبيت الرسول على عدم الخشية من بأس المشركين وتهديدهم ووعيدهم، وَوَعَدَهُ بحصول الخير له من أثر رضى ربه وحده عنه، وتحدّى المشركين بأنّهم لا يستطيعون إضراره ولا يجلبون نفعه.

ويحصل منه ردٌّ على المشركين الذين كانوا إذا ذُكّروا بأنّ الله خالق السماوت والأرض ومن فيهن أقروا بذلك، ويزعمون أنّ آلهتهم تشفع لهم عند الله، وأنّها تجلب الخير وتدفع الشر. وقد هيّأت الجمل السابقة موقعاً لهذه الجملة؛ لأنّه إذا تقرر أنّ خالق الموجودات هو الله وحده لزم من ذلك أنّه مقدر أحوالهم وأعمالهم، لأنّ كون ذلك في دائرة قدرته أولى وأحق بعد كون معروضات تلك العوارض مخلوقة له، فالمعروضات العارضة للموجودات حاصلة بتقدير الله؛ لأنّه تعالى مقدر أسبابها واضع نظام حصولها وتحصيلها، وخالق وسائل الدواعي النفسانية إليها أو الصوارف عنها، والتذكير بمس الضر ومس الخير يثيران في النفس رهباً ورغباً، كما يثيران فيها شعوراً بالضعف ورجاءً في العون.

وهذه الحالة تستجيش دواعي الإيمان والإثابة. والتعبير بالمس هنا مستعار إلى معنى الإيصال بقرينة ذكر الآلة معه وهو الباء، وتكون في الكلام استعارتان تبعيتان في الفعل - مس - بمعنى أوصل وفي الباء بمعنى الآلة. وقابل قوله: **﴿وإن يمسسك الله بضر﴾** بقوله: **﴿وإن يمسسك بخير﴾** مقابلة بالأعم، لأنّ الخير يشمل النفع وهو الملائم، ويشمل السلامة من المنافرة؛ للإشارة إلى أنّ المراد من الضر ما هو أعم، فكأنّه قيل: إن يمسسك الله بضر وشر، وإن يمسسك بنفع وخير ففي الكلام احتباك. وقوله: **﴿فهو على كل شيء قدير﴾**، جعل جواباً للشرط، لأنّه علّة للجواب المحذوف، والجواب المذكور قبله؛ إذ التقدير: وإن يمسسك بخير فلا ما نع له؛ لأنّه على كل شيء قدير في الضر والنفع. وقد جعل هذا العموم تمهيداً لقوله بعدُ: **﴿وهو القاهر فوق عباده﴾**: هذه الجملة معطوفة على ما قبلها، والمناسبة بينهما أنّ مضمون كلتيهما يبطل استحقاق الأصنام العبادة. فالآية الأولى أبطلت ذلك بنفي أن يكون للأصنام تصرف في أحوال هذه المخلوقات، وهذه الآية أبطلت أن يكون غير الله قادراً على أحد أو خبيراً أو عالماً بإعطاء كل مخلوق ما يناسبه، ولا جرم أنّ الإله تجب له القدرة والعلم، وهما جماع صفات

الكمال، كما يجب له صفات الأفعال من نفع وضر وإحياء وإماتة، ولذلك تتنزّل هذه الآية من التي قبلها منزلة التعميم بعد التخصيص. وقد أفاد تعريف الجزأين القصر، بمعنى: لا قاهر إلاّ هو.

والفوقية هنا استعارة تمثيلية لحالة القاهر، بأنّه كالذي يأخذ المغلوب من أعلاه، فلا يجد معالجةً ولا حراكاً وهو تمثيل بديع!. ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون: «وإنّا فوقهم قاهرون»، فالسيطرة يعبر عنها بالقهر وهو أعلى درجاتها. والاستعلاء يعبر عنه بكلمة فوق المُجَسّمة، والناس يعبر عنهم بكلمة العباد المعبرة، والتعبير كله يلقي ظله الضخم الغامر «وهو القاهر فوق عباده»؛ ولكنه ليس قهر الغشم، وليست سيطرة الجهالة، وإنّما هي الحكمة التي تُدبِّر، والخبرة التي تفكر: وهو الحكيم الخبير... **﴿قل أيُّ شيء أكبر شهادة﴾**؟: انتقال من الاستدلال على إثبات ما يليق بالله من الصفات إلى إثبات صدق الرسالة. ويبدأ بسؤال المشركين: أي شيء مما تعرفون وتقدّرون؟. ويختار كلمة شيء للشمول والإحاطة والاستقصاء. ثم لا يدعهم يتيهون، فهو يقرر الحقيقة القائمة التي لا يُمَارِي فيها أحدٌ، حتى هؤلاء المشركون... **﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾**: فوقع قوله: الله شهيد بيني وبينكم جواباً على لسانهم؛ لأنّه مرتب على السؤال وهو المقصود منه، فالتقدير: قل شهادة الله أكبر شهادة، فالله شهيد بيني وبينكم، فحذف المرتب عليه لدلالة المرتب إيجازاً، كما هو مقتضى جزالة أسلوب الإيحاء في الجدل... **﴿وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾**: فالقرآن إنذار وحجة عليكم وعلى كل من يبلغه في كل زمان وفي كل مكان، والقرآن كلام الله، وهو يقرر الوحدانية. فتلك إذَنْ شهادة الله الفاصلة التي ليس بعدها جدال. ويستمر السياق في التقرير من ناحية أُخْرى: **﴿أإنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى﴾**؟. وأُكّد الاستفهام المستعملُ في الإنكار بإنّ ولام الابتداء؛ ليفيد أنّ شهادتهم هذه مما لا يكاد يصدّق السامعون أنّهم يشهدونها لاستبعاد صدورها من عقلاء، فيحتاج المخبر عنهم بها إلى تأكيد خبره بمؤكدين فيقول: إنّهم ليشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى، فهنالك يحتاج مخاطبهم بالإنكار إلى إدخال أداة الاستفهام الإنكاري على الجملة التي من شأنها أن يحكي بها خبرهم، فيفيد مثل هذا التركيب إنكارين: أحدُهما صريح بأداة إنكار، والآخر كنائي بلازم تأكيد الإخبار لغرابة هذا الزعم، بحيث يشك السامع في صدوره عنهم، وأجرى على آلهة الوصف بالتأنيث تنبيها على أنّها لا تعقل!.

وقوله: ﴿**قل: لا أشهد**﴾ جواب للاستفهام. ووقعت المبادرة بالجواب بتبريء المتكلم من أن يشهد بذلك؛ لأنّ جواب المخاطبين عن هذا السؤال معلوم من حالهم أنّهم مقرون به، فأعرض عنهم بعد سؤالهم، كأنّه يقول: دعنا من شهادتكم وخذوا شهادتي فإنّي لا أشهد بذلك. وهذه شهادة الرسول بعد شهادة الله. وجملة ﴿**قل إنّما هو إله واحد**﴾ بيان لجملة لا أشهد؛ فلذلك فصلت؛ لأنّها منزلة عطف البيان؛ لأنّ معنى لا أشهد بأنّ معه آلهة هو معنى أنّه إله واحد، وأعيد فعل القول لتأكيد التبليغ.

وكلمة إنّما أفادت الحصر، ثم بالغ في إثبات ذلك بالتبريء من ضده بقوله: ﴿**وإنّني بريء مما تشركون**﴾. وفيه قَطْعٌ للمجادلة معهم على طريقة المناكرة... ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾: جملة مستأنفة، انتقل بها أسلوب الكلام من مخاطبة الله المشركين على لسان الرسول إلى إخبار عام كسائر أخبار القرآن. أظهر الله دليلاً على صدق الرسول فيما جاء به بعد شهادة الله التي في قوله: قل الله شهيد بيني وبينكم، فإنّه لمّا جاء ذكر القرآن هنالك وقع هذا الانتقال للإستشهاد على صدق القرآن المتضمن صدق من جاء به؛ لأنّه هو الآية المعجزة العامة الدائمة، فالضمير المنصوب في قوله: يعرفونه عائد إلى القرآن الذي في قوله: وأوحى إليّ هذا القرآن. والمراد أنّهم يعرفون أنّه من عند الله، ويعرفون ما تضمنه مما أخبرت به كتُبهم، ومن ذلك رسالة من جاء به، وهو محمد ﷺ لما في كتبهم من البشارة به. والمراد من الذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى، كقوله تعالى: «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب»، والتشبيه في قوله: كما يعرفون أبناءهم تشبيه المعرفة بالمعرفة، فوجه الشبه هو التحقق والجزم بأنّه هو الكتاب الموعود به، وإنّما جعلت المعرفة المشبه بها هي معرفة أبنائهم لأنّ المرء لا يضل عن معرفة شخص ابنه وذاته إذا لقيه، وأنّه هو ابنه المعروف، وذلك لكثرة ملازمة الأبناء آباءهم عرْفاً. ومعرفة القرآن يلزم منها معرفة الرسول الذي جاء به، فلا حاجة إلى القول بأنّ الضمير يعود إلى محمد، ومن باب أولى من قال: الضمير يعود إلى التوحيد... ﴿**الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**﴾: في هذا الكلام قَرْنُ أهل الكتاب مع المشركين في كفرهم بالكتاب، وخسرانهم أنفسهم وما يترتب على ذلك من العقاب، فأهل الكتاب يعرفون أنّ هذا الكتاب الجديد - القرآن - هو كلام الله.

يعرفونه يقينا كما يعرفون أبناءهم دون شك ولا ريب ولا شبهة، يعرفونه بما

فيه من دلائل الحق كما يعرفون أبناءهم بملامحهم وسماهم بدون تعب ولا تردد ولا بحث، فهي المعرفة المباشرة الناشئة عن الفطرة وإدراكها المباشر، فإذا لم يقع من أهل الكتاب الإيمان فذلك أنّهم خسروا أنفسهم، وخسروا فطرتهم، وخسروا استعدادهم اللدنّي للإدراك فهم لا يؤمنون. فأهل الكتاب والمشركون سواء حيث ضيعوا فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأعرضوا عن البينات الموجبة للإيمان بالكلية... **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾**: هذا الكلام أول ما يشمل يشمل أقرب مذكور، وهم أهل الكتاب، حيث افتروا على الله كذباً بوصفهم النبيء الموعود في الكتابين بغير أوصافه، وتحريفهم التوراة والإنجيل وقولهم على الله ما لا يقول... **﴿أو كذب بآياته﴾**: يشمل أهل الكتاب والكافرين جميعا بدون وصف ولا تخصيص، فكلمة أو جاءت للإيذان بأنّ كُلاًّ من الافتراء والتكذيب وحْدهُ بلغ غاية الإفراط في الظلم، فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله تعالى، ونفوا ما أثبته؟.

قاتلهم الله أنّى يؤفكون! **﴿إنّه لا يفلح الظالمون﴾**: هذه الجملة تفيد معنى التعليل ولهذا فصلت ولم توصل، أي: إذا تحقّق أنّهم لا أظلم منهم فهم غير مفلحين؛ لأنّه لا يفلح الظالمون، فكيف بمن بلغ ظلمه النهاية؟! فاستغنى بذكر العلة عن ذكر المعلول. وموقع ضمير الشأن (إنّه) مع العلة أفاد الاهتمام بهذا الخبر اهتمام تحقيق؛ لتقع الجملة الواقعة تفسيراً له في نفس السامع موقع الرسوخ... **﴿ويوم نحشرهم جميعا﴾**: مضمون هذه الجمل المعطوفة له مناسبة بمضمون جملة (ومن أظلم)، ومضمون جملة **﴿إنّه لا يفلح الظالمون﴾**؛ لأنّ مضمون هذه من آثار الظلم وآثار عدم الفلاح؛ ولأنّ مضمون الآية جامع للتهديد على الشرك والتكذيب، ولإثبات الحشر وإبطال الشرك. ويصور ذلك برسم مشهد يتجلى فيه خسرانهم وبطلانهم وكذبهم وادعاءهم، يأتي عن طريق التصوير، وهو أعمق في النفس وأشد استجاشة للضمير.

إنّ الأمر لم يَعُدْ قضية من قضايا هذه الدنيا، ولم يعد جدلاً مع الرسول، لقد انتهت الكلمات لتتكلم الوقائع وسكتت الألفاظ لتعبر المشاهد، إنّهم اللحظة أمام ربّهم الذي كانوا يشركون به مَحْشُورُونَ إليه يُسْتَجْوَبُون. وقوله جميعا يدل على قصد الشمول؛ فهو يشمل كل كافر أشرك بالله من اليهود والنصارى وكفار العرب والعجم، وشمل كل ما عُبِدَ من دون الله من عقلاء وغيرهم، حتى عيسى عليه السلام والملائكة؛ ليشهد العقلاء على الكفار بالخزي والعار، وليكون غير العقلاء

مع عُبّادهم في النار. وقوله... ﴿**ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون**﴾: عطف القول (بثمّ) لما في معنى ثُمَّ من التأخُّر وتجمّع المتفرق وبعد النظر، فجاءت هنا لهذا الغرض؛ فمدة انتظار المجرم ما سيحل به من أشد ما يكون هولاً!.

وفي إهمالهم وعدم الاهتمام بهم تحقير لهم، فلا يتوقعون خيراً ولا يسمعون قولاً. والاستفهام توبيخي عما كان المشركون يزعمون أنّها تشفع لهم عند الله. وأضيف الشركاء إلى ضمير المخاطبين إضافة اختصاص؛ لأنّهم الذين زعموا لهم الشركة مع الله في الإلهية، ولم يكونوا شركاء إلاّ في اعتقاد المشركين؛ فلذلك قيل شركاؤكم. ووصفوا بالذين كنتم تزعمون تكذيباً لهم. وحذف المفعول الثاني المزعوم ليعم كل ما كانوا يزعمونه لهم من الإلهية والنصر والشفاعة... ﴿**ثم لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنا مشركين**﴾: ثم جاء جوابهم عن السؤال بشيء لم يكن يخطر على البال.

كل شيء كان يمكن أن يجيب به السائل إلاّ أن تكون الإجابةُ فِتْنَةً وحَيْرَةً وبلاءً وكذباً. ولآل لطول ما اعتادوا الكذب، ولشدة ما رأوا من الهول والنصب الذي يعطل المشاعر، لا ينتبهون إلى أنّهم أمام العليم الخبير الحاكم والرب؛ فإذا هم يقولون القولة المضحكة السخيفة الغبيّة تثير السخرية والعجب: والله ربنا ما كنا مشركين!. (واللهِ ربّنا) لا الأرباب المتفرقة، ولا الشركاء المزعومة!. ألا إنّها الفتنة، ألا إنّه البلاء، فما كانوا ليكذبوا هذه الكذبة البلقاء وهم أمام ربهم، إلاّ وقد حقّ عليهم البلاء، وكانت الفتنة التي كتبت عليهم هي هذه الكذبة التي تفوق كل افتراء... ﴿**انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾: كيف كذبوا على أنفسهم بادعاء الشركاء وبإنكار الشركاء، وكيف ضل عنهم وغاب أربابهم المدعاة وادعاء هذه الأرباب؟. انظر، فالمشهد قريب معروض للأنظار على مشهد ممن ينظر؛ من بعيد أو من قريب. إنّها طريقة القرآن في لمس الوُجدان... ﴿**ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها**﴾: هذه الآية عطفت بالواو وهي لمطلق الجمع؛ لأنّ هذا الكلام جاء يُبيّن موقف المشركين من دعوة القرآن، إلى إلغاء الشرك والإيمان بالله وحده، وهم الذين عدلوا عن الدعوة وأشركوا بالله وأنكروا ما جاء به رسول الله، ويستمعون إلى القرآن ولكن دون جدوى، لأنّ الله طمس على قلوبهم فمنعهم فَهْم وفِقْهَ القرآن، أو جعل في آذانهم صمماً عن سماع ما فيه من المعنى، وهم على

هذه الحالة فلا يرون فيه شيئاً من الخير؛ لأنّ حالتهم هذه غير صالحة لهدى ولا إيمان.

هذه هي صورة مرسومة لما عليه أهل مكة من العناد والمكابرة، ويُجسّم المشهد كما هي طريقة القرآن، فإذا هو مشهد منظور لا خَبَرٌ مسطور!. إنّ الصورة التي تظهر في هذا المشهد صورةُ جماعةٍ معينين عند الرسول ﷺ وبعض المفسرين ذكر أسماءهم، وطريقة القرآن في عدم تعيين الأشخاص بذكر الأسماء أو بذكر الأوصاف معْدُومةٌ؛ لتبقى الصورة عالقة بذهن السامع فيَضعُها كما يشاء هو على كل من يكون فيه مثل هذه الأوصاف، وهذه الجماعة تحضر مجلس الرسول أو تستمع إليه، فتسمع ما يقول من القرآن، ولكن قلوبهم. .الخ الآية.

والأكنّة هنا: تخييل؛ لأنّه شبهت قلوبهم في عدم وصول الحق إليها بأشياء محجوبة عن شيء، وأثبتت لها الأكنة تخييلاً، وليس في قلب أحدهم شيء يشبه الكنان. وأُسنِدَ جعلُ تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى؛ لأنّه خلقهم على هذه الخصلة الذميمة والتعقل المنحرف، فهم لهم عقول وإدراك؛ لأنّهم كسائر البشر، ولكن أهواءهم تُخيّر لهم المنع من اتباع الحق. والضمير المنصوب في قوله: أن يفقهوه عائد إلى القرآن المفهوم من قوله: يستمع إليك. وحُذِفَ منه حرْفُ الجر اطراداً، والتقدير: من أن يفقهوه. ويتعلق بأكنّة؛ لما فيه من معنى المنع، أي: أكنة تمنع من فهم القرآن. والوقر مستعار لعدم فهم المسموعات؛ جُعل عدمُ الفهم بمنزلة الصمم، ولم يذكر للوقر متعلق يدل على الممنوع بوقر آذانهم لظهور أنه من أن يسمعوه؛ لأنّ الوقر مُؤْذِنٌ بذلك؛ ولأنّ المرادَ السَّمْعُ المجازي وهو العلم بما تضمّنه المسموع، وقوله: على قلوبهم، وفي آذانهم يتعلقان بجعلنا. وقُدِّمَ كُلٌّ منهما على مفعوله للتنبيه على تعلقه به من أول الأمر. وفي قوله. . . ﴿**حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلاّ أساطير الأولين**﴾: موقف عجيب!.

فهذا المجيء إلى الرسول والمجادلة معه لم تأت بنتيجة مفيدة لهم؛ لأنّه كانت تصدهم المغالطةُ والمُمَاحَكَة، لا مجادلة الاستنارة والتمحيص، وآية ذلك غاية ما لا يظهر من قولهم: إن هذا إلاّ أساطير الأولين. ولعل التعبير بالمضارع هنا أنّهم لا يقولونه أمام الرسول، وإنّما يقولونه بعد خروجهم واستماعهم!. فلو كانت مجادلتهم للاستنارة والتمحيص لأدركوا ما بين الأساطير وهذا القرآن من فارق حاسم واضح، يقنع من يطلبون الحجة والبرهان مخلصين. . . ﴿**وهم ينهون**

عنه وينأون عنه﴾: هذه هي علامة العناد والإصرار والمكابرة، فهم لا يكتفون بأن يقولوا ما يقولون، وأن يصروا هم وينأَوْا، إنّما هم ينهون الناس عن الاستماع إلى الهدى الذي جاءهم به هذا الرسول. ولو كانوا على يقين بأنّه أساطير الأولين لتركوا الناس يذهبون ليعودوا منكرين، ولكنهم يريدون الحيلولة دون انتصار وانتشار هذا الدين، فهم يقطعون الطريق على سماعه، ويحولون بين الناس وبين قرآنه ودينه ورسوله، وهم لا يدرون ما يصنعون بأنفسهم، وهم لا يصنعون بها إلاّ أن يهلكوها دون أن يؤذوا الرسول، وأن يحولوا بين القرآن والناس... **﴿وإن يهلكون إلاّ أنفسهم وما يشعرون﴾**: فيالغفلة المغفّلين!. والضميران المجروران (عنه ومنه) عائدان إلى القرآن المشار إليه باسم الإشارة في قولهم: إن هذا إلاّ أساطير الأولين. ومعنى النهي عنه النهي عن استماعه، فهو من تعليق المحكم بالذات.

والمراد حالة من أحوالها يعيّنها المقام. وكذلك النأي عنه، فهم ينهون الناس عن استماعه ويتباعدون عنه كذلك. وبين قوله: ينهون وينأون الجناس القريب من التمام. والقصر في قوله: وإن يهلكون إلاّ أنفسهم قصر إضافي يفيد قلب اعتقادهم؛ لأنّهم يظنون بالنهي والنأي عن القرآن أنّهم يضرون الرسول بتركهم اتباعه ومنع الناس عنه، وهم إنّما يهلكون أنفسهم بدوامهم على الضلال والإضلال، فيحملون أوزارهم وأوزار الناس، وفي هذا تسلية للرسول، وأنّ ما أرادوا به نكايته، إنّما يضرون به أنفسهم. وقوله: وما يشعرون جاء زيادة في تحقيق الخطإ فيما هم عليه، وإظهاراً لضعف عقولهم مع أنّهم كانوا يعدّون أنفسهم قادةً وقدوةً للناس!. فالواو هنا للعطف ليفيد ذلك كون ما بعدها مقصوداً به الإخبار المستقلُّ؛ لأنّ الناس يعدونهم أعظم عقلائهم كما كانوا يَظُنُّون!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: **﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾**: في هذا إعلام الناس جميعاً بأنّ الله له كل ما استقر في الليل والنهار خَلْقاً ومُلْكاً وتصريفاً لا يخرج عن ملكه شيء منها، وهو السميع بكل قول العليم بكل فعل، فإذا كان كذلك فلا يمكن أن تدقّ عن سمعه دعوة داع، أو تغرُب عن علمه حاجة محتاج، وإذا كان كذلك فلا يُتّخَذُ غيرُه وليّاً يتولى أمرَ العباد... **﴿قل أغير الله أتخذ وليّاً فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم﴾**: وهذا توجيه للرسول ﷺ،

والقصد منه تعليم الناس وإرشادهم إلى التوجه إلى الله وحده، وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتّخذون معبوداتهم وأنبئاءهم وصلحاءهم أولياءَ من دون الله تعالى، فإنّهم بندائهم ودعائهم والتوجه إليهم والاستغاثة بهم في قضاء حوائجهم؛ من نصر على عدو وشفاء من مرض وسعة في رزق وغير ذلك. فالتوجه لا يكون إلاّ للخالق الرازق الغني الكريم، وغيره محتاج إليه في إيجاده وإمداده، فكيف يُتّخذ مَنْ هذا حاله وليّاً من دون الله؟!. وقد احتج الله تعالى على النصارى الذين اتخذوا المسيح وأمه إلهين فقال: «ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام»، فأكلهما الطعام كان دليلاً على احتياجهما، والمحتاج لا يكون إلها!.

وبعد إيراد هذه الدلائل والحجج على وجوب عبادة الله وحده وعدم اتخاذ غيره وليّاً، تظهر الحقيقة على لسان الداعي إليها مأموراً بتبليغها إلى الناس جميعاً... ﴿**قل إنّي امرت أن أكون أول من أسلم**﴾: دخل في دين الإسلام الذي هو دين الله... ﴿**ولا تكونن من المشركين**﴾: أي: قيل لي: لا تكونن من الذين اتخذوا دينهم شركاً وكفراً وضلالاً ولعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا. وبعد هذا القول المبيّن لأصل الدعوة؛ فأساس الدين أمر الله رسوله بقول آخر في بيان جزاء من خالف ما ذكر من الأمر والنهي آنفاً وأنّه عام لا هوادة فيه، ولا شفاعة تحول دونه فقال... ﴿**قل إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم. من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين**﴾: يأتي هذا التخويف من هذا الاتجاه المنكر عن طريق الإيحاء، فهو لا يخوفهم هم، ولكنه هو ﷺ يُبْدي خوفه من مغبة السير في طريقهم الذي يندفعون فيه، خوفه البالغ من العذاب المروع الذي يعتبر مجرد صرفه رحمة من الله وفوزاً، فكيف بهم وهم ناس من الناس لا رسل ولا انبئاء؛ إذا هم لم يرجعوا عن هذا الطريق؟. وإلى جوار هذا الهول قدرة الله التي تملك الخير والضر، وتنفرد بصرف الضر أو منح الخير في حكمة وفي استعلاء... ﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاّ هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير. وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير**﴾: ثم ختم الله هذه الأوامر القولية المبيّنة لحقيقة الدين ودلائله بشهادته لرسوله وشهادة رسوله، فقال... ﴿**قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ. أإنّكم لتشهدون مع الله آلهة أخرى. قل لا أشهد. قل إنّما هو إله واحد**

وإنّني بريء مما تشركون﴾: شهادة الله بين الرسول وبين قومه قسمان:

الأول: شهادة الله برسالة محمد، وهي ثلاثة أنواع: النوع الأول: إخباره بها في كتابه، مثل: «محمد رسول الله»، «إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً»، «وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً»، «يس والقرآن الحكيم إنّك لمن المرسلين»، «ما كان محمداً أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيئين» إلى غير ذلك مما ورد في القرآن من الآيات الدالة القاطعة على صحة رسالة الرسول محمد ﷺ. النوع الثاني: تأييده بالآيات والمعجزات الكثيرة، مثل: القرآن، وهو الآية العلمية العقلية الدائمة بما ثبت بالفعل من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، وبما اشتمل عليه من الآيات الكثيرة كإخبار الغيب، ووعد النصر للمؤمنين، وإظهار الدين، وغير ذلك مما ثبت بالفعل عند أهل عصره ونقل إلينا بالتواتر. النوع الثالث: شهادة الكتب السابقة، وبشارة الرسل الأولين به، ولا تزال هذه الشهادات والبشائر ظاهرة فيما بقي عند اليهود والنصارى من تلك الكتب وتواريخ أولئك الرسل على ما طرأ عليها من التحريف والتبديل والتزييف.

الثاني: شهادة الله لما جاء به محمد من التوحيد والبعث، وهي ثلاثة أنواع: النوع الأول: ما أقامه من الآيات بشهادة كتابه معجز الخلق بذلك، مثل قوله تعالى: «شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم»، «إنّ الدين عند الله الإسلام»، «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثنّ ثم لتنبؤنّ بما عملتم وذلك على الله يسير». والآيات الدالة على التوحيد وعلى صحة البعث كثيرة في القرآن الكريم. النوع الثاني: ما أقامه الله تعالى من الآيات البينات في الأنفس والآفاق على توحيده واتصافه بصفات الكمال، وفي بيان ذلك في هذه السورة ما ليس في غيرها. النوع الثالث: ما أودعه الله تعالى في الفطرة البشرية من الإيمان الفطري بالألوهية ونقاء النفس بالدلائل والبراهين، وقد جاءت جملة «وأوحى إليّ هذا القرآن» معطوفة على جملة «الله شهيد بيني وبينكم» مصدرة بالفعل المبني للمجهول؛ لأنّ المراد بنصها بيان أنّ القرآن هو موضوع الدعوة والرسالة المقصود منها بالذات، وتدل بوصفها دلالة إيحاء على أنّه أعظم شهادة الله تعالى. وقوله تعالى: لأنذركم به ومن بلغ، نص على عموم رسالة الرسول ﷺ لجميع الناس من العرب وغيرهم من المعاصرين للتنزيل ولمن يأتي بعده في كل عصر ولكل جيل. والعبرة في دعوة رسالة الإسلام بالقرآن، فمن لم يبلغه القرآن لا يصدق عليه أنّه بلغته الدعوة. وقوله تعالى: أإنّكم

لتشهدون أنّ مع الله. . . الخ الآية، أمر للرسول بأن يقيم الحجة على المشركين في إشراكهم، وأن يقيم الشهادة بنفسه لله بالوحدانية، وأن لا يشهد كما يشهدون وأن يتبرأ مما يزعمون، فلا على الرسول بعد ذلك ـ بعد ما بلغ القرآن وأنذر ـ كل من جحد من بني الإنسان!.

التوجيه الثاني: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾: فيه لفت الأنظار إلى ما صار إليه أهل الكتاب وبما هم عليه من المعرفة الصحيحة لما جاء به محمد ﷺ، وقد عُلِمَ مما تقدم في غير هذه السورة أنّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى أكثرهم كفروا بالله وجحد بما جاء من الله من رسالات الرسل جميعاً، فهم والمشركون سواء قد خسروا أنفسهم كما خسر المشركون أنفسهم؛ لأنّهم اتفقوا في عدم الإيمان الذي كان به الربح والفوز. . .

﴿**الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**﴾: إنّ علة إنكار من أنكر نبوءة محمد ﷺ من علماء أهل الكتاب كعلة إنكار من أنكرها من المشركين بعد ظهور آياتها، وأنكر ما هو أعظم منها وأظهر وهو وحدانية الله تعالى، وهي أنّهم خسروا أنفسهم فهم يؤثرون ما لهم من الجاه والمكانة والرئاسة في قومهم، على الإيمان بالرسول «النبيء الأميّ الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم» لعلم علماء اليهود والنصارى أنّ الإيمان بمحمد يسلبهم تلك الرئاسة، ويجعلهم مساوين لسائر المسلمين في جميع الأحكام، وكذلك كان بعض زعماء قريش يعز عليهم أن يؤمن فيكونوا مرءوساً وتابعاً ليتيم أبي طالب!. فكيف وهو يكون بعد ذلك مساوياً لبلال الحبشي، وصهيب الرومي وغيرهم من فقراء المسلمين؟!. فخسران هؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية أنفسَهم، هو من قبيل ضعف الإرادة لا من نوع فقدِ العلم والمعرفة؛ لأنّ الله أخبر أنّهم على معرفة صحيحة في هذا الباب. . .

﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنّه لا يفلح الظالمون**﴾: هذا الكلام مرتبط بما قبله ارتباط النتيجة بمقدماتها، فهم أنكروا ما عرفوا يقيناً وصمّموا على الكفر جحوداً وعناداً، فبماذا نصفهم؟ وكيف يكون جزاؤهم؟. إنّهم ظالمون متعدُّون، ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته؟!. جاء السياق هنا على هذه الصورة؛ صورة الاستفهام المستنكر ليقرر النتيجة المترتبة عليه، أن ليس في المخلوقات كلها في هذا الوجود كله. من هو أظلم ممن يفتري

على الله الكذب، أو يكذب بآيات الله، فأهل الكتاب أول من يدخل تحت هذا الحكم لأنّهم افتروا على الله كذباً عندما قال اليهود: إنّ الله أمرنا بأن نتمسك بالتوراة إلى الأبد، وأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، وألاّ يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً، وأنّ إبراهيم كان على دين اليهودية، وقالوا نحن أبناء الله، وقالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة، وكذبوا بعيسى وبما جاء به من عند ربه، وكذبوا بالقرآن وبما جاء به. والنصارى قالوا مثل ما قال اليهود وأبشع وأفظع، حيث قالوا: جاء ابن الله المخلّص وفدانا وأنقذنا من اللعنة الأبدية التي حلّت ببني آدم من جراء ما فعله أبوهم آدم عندما أكل من الشجرة، فحلّت به وبأولاده اللعنة الأبدية، وكذبوا بالقرآن وبما جاء به وأنكروا على محمد دعوته. هل هناك ظلم أكبر وأقبح من هذا الظلم؟ ومن أظلم من هؤلاء؟!.

وبعد هذا يأتي النطق بالحكم: إنّه لا يفلح الظالمون. إنّ هذا الحكم عام يشمل الدنيا والآخرة، يشمل اليهود والنصارى وكُلًّ من كفر وجحد رسالة محمد الذي عمّت رسالته كافة الناس إلى يوم قيام الساعة. لا يفلح منهم أحد ولا يفوز منهم أحد، ولا ينجو من النار أحد؛ لأنّهم مشركون بالله جاحدون بآيات الله مكذبون لرسل الله. هكذا يتركهم في الدنيا بلا فلاح، يتركهم في الخيبة والخسران... ﴿**ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون**﴾؟: وهم الآن في المحشر في ساحَةِ المحكمة مجتمعون العابد والمعبود، فلم يتخلف أحد. ثم يأتي السؤال من قِبَلِ الله تعالى ملك يوم الدين: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟. إنّه التوبيخ والتقريع! والتشنيع والترويع!. ليأتي كل مشرك بشريكه الذي يزعم أنّه ينفعه وينقذه ويخلّصه ويشفع له. أين مخلّص النصارى؟. يأتي عيسى فيقول الله له: «أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟. قال سبحانك...!». وهكذا يكون السؤال، ويأتي بعده الجواب، قد يكون مفصلاً، وقد يكون مجملاً على حسب كل فرد ومعبوده. ولكن الجواب الذي يشتركون فيه جميعاً على اختلاف حالهم ونحلهم... ﴿**ثم لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربنا ما كنّا مشركين**﴾: هنا في هذا الوقت، والآن في هذا اليوم تظهر الحقيقة، ويظهر زيف المزيّفين، مثل ما يظهر الذهب الخالص من المعدن الزائف عند الفتنة بالنار؛ ظهرت حقيقتهم زائفة هائفة لا قيمة لها، لا تساوي شيئا لأنّها غشٌّ في غشّ وخداع على خداع، وهل يفلت الغشاش والمخادع من جزاء ما عمل؛ إنّهم يخادعون بالحلف، ويخادعون باعترافهم بأنّ الله ربّهم،

ويخادعون بالتبرئ من الإشراك والمشركين، وكل هذه لا تنطلي على العليم الخبير، وعلى كل من يعلم حقيقة أمرهم ويشاهد ما انتهت إليه نتيجتهم. . . **﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾**!.

التوجيه الثالث: ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾: في هذا التوجيه توجيه الرسول ﷺ إلى ما عليه مَنْ يستمع إليه؛ يدعوالناس إلى دين الحق ويحذرهم من الكفر والضلال واتباع كل باطل من الأقوال والأفعال. هؤلاء الفريق الذين يأتون يستمعون إلى الرسول لم يكونوا مخلصين في استماعهم لما يتلُو، وإنّما كانوا قاصدين تزييف الحقائق وتضليل الخلائق بما يقولون عن القرآن لأتباعهم من كونه سحراً وكهانة وأساطير الأولين؛ لأنّهم غير مستعدين ولا مهيّئين للاستفادة من استماع القرآن؛ لما على قلوبهم من الكِنانِ، ولما فيهم من الصمم ووقر الآذان. وهي موانع ظاهرية تعوق صاحبها من العرفان، ولكن المصيبة التي هي أدهى وأمر، مرض العناد والحسد والكبر والغرور والبطر أعماهم عن مشاهدة الدلائل من الآيات والسور، وكل ما فيه للبصير آية لينظر ويتفكر فيتذكّر ويعتبر، وهم على هذه الحالة لا يزالون ضالين مضلين؛ **﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلاّ أساطير الأولين﴾**. هذا خلاصة ما توصل إليه هؤلاء العباقرة النبهاء بعدما فكّروا وقدّروا مراراً وتكراراً ونظروا أفراداً وجماعاتٍ، وبعد التي واللتيا حكموا بما هو آتٍ. . .

إن هذا إلاّ أساطير الأولين: لا شيء غيرُ الأساطير والخرافات والحكايات التي ينقلها الناس عن القرون الخاليات!. ومن الغريب: أننّا لازلنا نسمع مثل هذا القول من بعض المسلمين المعاصرين المقلدين غير المسلمين من أهل الكتاب الحاقدين وأهل الإلحاد المنكرين، نسمعهم يرددون ما تعلموه من أساتذتهم وأصدقائهم وقرنائهم من أنّ القرآن فيه يشبه ما في غيره من كتب اليهود والنصارى وكتب التاريخ، ولا يرى في هذا ما يحمله ويبعثه إلى البحث في الفرق بين ما في القرآن وما في غيره وهو يتدبّره. وأهمها في موضوع إثبات نبوءة محمد ﷺ من كونه ظهر على لسان رجل أُمّيّ لم يقرأ ولم يطلع على شيء من كتب الدين ولا كتب التاريخ. وقد احتج بهذا على قومه، فلم يستطع أحد ممن انتصبوا لعداوته أن يرفع في الإنكار عليه رأسا، أو ينبس في الرد عليه بكلمة، وقد سمعوا منه قول الله تعالى: «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا»، فإذا كان في المسلمين أهل عصرنا من لا يفكر في هذه الآية البينة على

رسالة محمد ﷺ وهي خاصة بقصص القرآن، ومن لا يفكر في إعجاز القرآن ببلاغته؛ فلو فكر هؤلاء المسلمون المعاصرون لما تورّطوا كما تورط من سبقهم من أهل الكتاب والمشركين عندما قالوا: إن هذا إلاّ أساطير الأولين... ﴿**وهم ينهون عنه وينأون عنه**﴾: هذا دليل على شدّة عنادهم وكفرهم ومكرهم حيث وقفوا حجر عثرة يصدون عن الاستفادة من القرآن «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»، يريدون بهذا أن يقطعوا الطريق على الناس ليمنعوهم من سماع القرآن ويحولون بينهم وبين الرسول، وهم لا يدرون ما يصنعون بأنفسهم، وهم لا يصنعون بها إلاّ أن يهلكوها... ﴿**وإن يهلكون إلاّ أنفسهم وما يشعرون**﴾: ولا يحيق المكر السيء إلاّ بأهله، وهذه سنة الله في خلقه، وهذا من معجزات القرآن وإخباره بالغيب، فقد هلك جميع الذين أصروا على عداوة الرسول ﷺ، بعضهم هلك قتلاً في الغزوات، وبعضهم قتل غماً بالمصائب والنكبات، ولم ينج من هذا الهلاك إلاّ الذين تابوا وأصلحوا وتركوا ما كانوا عليه من الموبقات.